المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثالث عشر

العقائد والمذاهب -٣-

يحتوي على

الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام

أفيون الشعوب

لا شيوعية ولا استعمار

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

مكتبة لسان العرب

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقيا: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX.(202):3924657 CAIRO - EGYPT

المجلد الثالث عشر

العقائد والمذاهب ٣

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثالث عشر

العقائد والمذاهب ـ٣ـ

يحتوي على

الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام

أفيون الشعوب

لا شيوعية ولا استعمار

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

رقم الإيداع
١٩٩٠ / ٤٥٥٧
I.S.B.N. 977 - 238 - 096 - X

دار الكتاب المصري
٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٢٠١ فاكسيملي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب : ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت : ٨٦١١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسيملي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب ٨٣٣٠ - ١١ أو ١١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا : راكليان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م
Second Edition
1991 A.D — H 1411

عباس محمود
العقاد

الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المقدّمة

تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب بعد صدور طبعته الاولى بنحو ست سنوات .

وليست السنوات الست بالمدة القصيرة بحساب الحوادث العالمية والتجارب الكبرى في تاريخنا الحديث ، وان تكن قصيرة بحساب السنين ، او بحساب الزمن الذي انقضى بعد اعلان الفلسفة المادية التاريخية في منتصف القرن التاسع عشر .

بل ربما كانت السنوات الست في تاريخ الانسانية الحديث احفل بنتائج التجربة العملية من السنين التي نيفت على المائة منذ اعلان الفلسفة المادية ، لان تجربة السنوات الست الاخيرة أتت بعد نضج العهد الصناعي الاكبر الذي جعله أئمة المذهب الماركسي اساسا لمبادىء مذهبهم ودعامة للنبوءات المحتومة التي تترتب عليه ، ولأن الحوادث التي ارتبطت بتجربة المذهب المادي التاريخي في الزمن الاخير كانت على نطاقها العالمي الواسع اوفر عددا واكثر تنويعا واصح دلالة من جميع التجارب الصغيرة التي مرت بالمذهب من منتصف القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين .

وعندنا اليوم من دلائل الاتجاه الى مصير المذهب في المستقبل تجارب القرن الماضي وتجارب السنوات الاخيرة ، وكلتاهما قاطعة في الدلالة على ابتعاد العالم في اتجاهه المستمر عن مبادىء المذهب المادي للتاريخ ، ولكن المرحلة الاخيرة ـ مرحلة السنوات القلائل منذ منتصف القرن العشرين ـ تشير الى مسافة اوسع كثيرا في الاتجاه البعيد عن المذهب ، سواء نظرنا الى تطبيقاته المتعددة او نظرنا الى نبوءاته التي هي اهم من التطبيقات في امتحان الاسس والدعائم التي قام عليها .

فالثابت اليوم أن المذهب الماركسي يحتاج الى تعديل كبير في مبادئه

الاساسية قبل وضعه في مواضع التنفيذ ، وانه ـ مع التعديل الكثير قبل الشروع فيه ـ لا يزال محتاجا الى التعديل بعد التعديل في أثناء تطبيقه ، ولا يزال كل تعديل من هذه التعديلات الكثيرة يبتعد به مسافة بعد مسافة في الطريق المخالف لطريقه ، فلم يبق من الماركسية بعد هذه التعديلات غير انواع من الاشتراكية الديموقراطية تناقض الماركسية في جوهرها ، لأن الاشتراكية الديموقراطية بانواعها جميعا تقوم على تضامن الامة بحذافيرها ، ولا تقوم على انفراد الطبقة التي يسميها الماركسيون « بالبرولتارية » ولا يشركون معها طبقة أخرى .

أما النبوءات المحتومة فقد كذبت جميعا ، وظهر على الدوام أن نتائج السنين بعد السنين تذهب فيها من النقيض الى النقيض .

فمن نبوءات الماركسية المحتومة أن البلاد التي تسودها الصناعة الكبرى هي أصلح البلاد لسيادة الماركسية فيها ، فاذا بالنتيجة الواقعة في كل مكان أن الماركسية افشل ما تكون في تلك البلاد ، وان هذه الماركسية تسود بمقدار خلو البلاد من الصناعة الكبرى ، لا بمقدار غلبة الصناعة الكبرى عليها ، ثم تتغير بها التجربة العملية لا محالة بعد بضع سنوات ، فتتقدم الى الاشتراكية الديمقراطية وتبتعد عن الشيوعية الماركسية بانتظام واطراد .

ومن نبوءات الماركسية المحتومة أن الثروة تنحصر شيئا فشيئا حتى تجتمع كلها في أيدي قليل من أصحاب رؤوس الاموال ، وتتجرد الامم فيما عدا هذه الطائفة القليلة من كل شيء غير القيود والاغلال .

فاذا بالواقع المطرد أن رؤوس الاموال تتوزع بين حملة الاسهم من أصحاب الموارد الصغيرة او المتوسطة او الكبيرة بالمئات والالوف ، وأن السلطان في تدبير الاموال يتوزع كذلك بين أصحاب رؤوس الاموال وبين خبراء الصناعة وخبراء الادارة وخبراء التسويق والترويج والاعلان ، فلا انحصار على اطراد ، بل توزيع وتنويع في الكفاية والصنعة على اطراد .

ومن نبوءات الماركسية المحتومة أن العامل المنفرد ينعدم بعد استقرار الصناعة الكبرى فلا يتسع له مجال الرزق ولا مجال الحياة ، فاذا بالعمال المنفردين يزدادون الى جوار كل أداة صناعية من الادوات الضخام ، واذا

بالعمال المنفردين يصبحون طوائف وانواعا في كل حرفة من الحرف ، بحسب الاختلاف والتنويع في المكنات والادوات ، واختلافهم وهم مجتمعون في داخل المصنع كاختلافهم وهم منفردون متفرقون للاشتغال بصناعاتهم في البيوت والاسواق .

***

وقد صار بطلان هذه النبوءات أقوى الدلائل على بطلان الاسس التي قامت عليها ، وهي تلك الاسس التي أفرط دعاة المذهب في وصفها بصفات التحقيق العلمي ، وهي ابعد ما تكون من التحقيق .

ولو كانت النبوءات مما يبدو قبل مضي الزمن المقدور لها لسقطت الصفة العلمية عن هذا المذهب ولم ير فيه احد من المحققين محلا للدراسة الجدية والمناقشة المنطقية ولكن العلماء اعطوا هذا المذهب المتداعي فوق حقه من العناية لانهم قد اضطروا الى انتظار النتيجة من تحقيقاته العملية بعد حين ، ولانهم من جهة أخرى قد تناولوه بالبحث العلمي عند ظهوره مجاراة لنزعة العصر في القرن التاسع عشر ، وقد كان كل شيء فيه أهلا للدراسة العلمية ، بعد أن حل العلماء محل الكهان في « تطويب » الآراء والدعوات .

على انهم قد أسرفوا في العناية الجدية بهذا المذهب وهو يحمل ادلة البطلان على وجهه بغير حاجة الى التعمق الكثير وراء العناوين .

فان الدعوى المجردة من السند هي صبغة هذا المذهب التي لا تخفى على ناظر اليه من النظرة الاولى : لانه يطلب التسليم بالدعوى من التعريف ، ثم يجعل التعريف حلا للقضية قبل ثبوته ، وقبل ثبوت القضية من باب أولى .

فهو يقرر ـ مثلا ـ أن الانسان حيوان منتج ويعتبر هذا التعريف حقيقة مفروغا منها ، ثم يثبت باستناده اليه أن الانتاج هو قوام كل شيء في المجتمعات الانسانية .

ولكن المسألة كلها لا تبتدىء بالانتاج ، بل لا بد قبلها من صفات اخرى في الانسان قبل الوصول الى هذه الصفة ، وتلك هي (أولا) امتيازه بمطالب اخرى غير مطالب الحيوان ، وهي (ثانيا) قدرته على تدبير هذه المطالب

بالانتاج ، وهي (ثالثا) انتاجه لما اراده حسب مطالبه وكفاياته ، ثم يأتي الانتاج بعد ذلك كله محكوما بمقدماته وليس هو الحاكم لهـا علـى الجملـة أو علـى التفصيل .

والماركسيون يقررون أن المادة مبنية على التناقض ، ويعتبرون تعريفها بذلك حلا لقضية التناقض وهو المشكلة التي تحتاج الى الحل ، وليس هو التعريف والحل في آن .

ويقررون أن الطبقة هي الجماعة من الناس التي تخالف مصالحها مصالح سائر الطبقات ، ثم يجعلون تنازع الطبقات سببا لأطوار التاريخ ويطلبون التسليم بهذا التطور بعد اشتراط النزاع من الكلمة الاولى في التعريف .

ولقد ضلوا السبيل عن أقرب الطبقات الى الطبقة البرجوازية وهي طبقة الاقطاعيين واسمها باللغات الاجنبية معناه طبقة المتنازعين Feudal . . فكيف يصبح الاقطاعي الذي يحارب الاقطاعي مثله حرب المستميت عضوا في طبقة واحدة ؟ . . وكيف يصبح التابعون للاقطاعي أعداء له وهم يحاربون في صفه من كان تابعا للاقطاعيين الآخرين ؟

وهكذا يقوم المذهب كله على تعريفات سابقة لكل بحث وكل تحقيق ، وما كان لامثال هذه الدعاوى من حق في المناقشة الجدية ـ باسم العلم لولا نزعة العصر كله أيام المناداة بها ، ولولا أن النبوءات الباطلة التي قامت على تلك الدعاوى كانت لا تزال في انتظار التجربة الواقعية ، التي لا ننتظرها نحن أبناء العصر الحاضر ، لاننا نلمس انقاضها باليدين .

وكل ما بقي اليوم من الماركسية فهو هذه المذاهب الاشتراكية « للديموقراطية » التي قامت في ارجاء العالم على غير أساس من دعاوى الماركسيين ، وقد تعاد طبعة هذا الكتاب مرة أخرى وهو من قبيل الكلام التاريخي المحفوظ بغير حاجة من وقائع الزمن الى برهان عليه ، لان الواقع الملموس باليدين سوف يغني عن ذلك البرهان .

تمهيد

قبل منتصف القرن الماضي نشر « كارل ماركس » مذهبه الفلسفي الذي سماه بالتفسير المادي للتاريخ ، وبنى عليه مذهبه الاقتصادي الذي سماه « الاشتراكية العلمية » تمييزا له من المذاهب الاشتراكية السابقة . . وهي عنده اشتراكيات أحلام او اشتراكيات « طوبى » لا تقوم على غير الامل والخيال .

ولم تكن هذه « الاشتراكية العلمية » أقل نبوءات من المذاهب التي كان ينعى عليها أنها تجافي العلم وتتنكب طريق الواقع ، لان الاشتراكية العلمية التي آمن بها « كارل ماركس » قد تطوحت في نبوءات لا تنتهي الى آخر الزمان ، وادعت لنفسها أنها تفسر أسرار الكون وأسرار المادة في جميع ظواهرها ، وانها ترسم للتاريخ المقبل خطاه التي لا يحيد عنها ولا يزال مطردا عليها الى غير نهاية ، وهي نهاية أبعد في مجاهل الغيب من النهايات التي قدرتها الاديان الغابرة ببضعة آلاف من السنين ، لانها توغل في الآباد المقبلة الى ملايين السنين ، وتدعي باسم العلم ـ لا باسم الخرافة ـ أن الغيب المجهول لن يأتي بشيء في حياة الانسان غير الذي رسمه « كارل ماركس » وفرغ منه قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل ان يتقدم العلم نفسه وراء خطواته الاولى في العصر الحديث .

ولم تكن المسألة عند « كارل ماركس » مسألة تقديرات نظرية لا يترتب عليها شيء من العواقب غير تبديل نظرية بأخرى أو تنقيحها برأي يخالفها ، ولكنها كانت مسألة أرواح ودماء وشعوب وأنظمة واجتراء على الماضي كله بالهدم والانتقاض ، ايمانا بتلك النظرية التي لا تقبل الشك ولا يستكثر على تحقيقها اهدار الدماء كالانهار ولا تقويض المعالم الباقية كأنها من جهود عدو للانسان

وليست من جهود الانسان في جميع الازمان .

وكان ينبغي للايمان بتلك النظرية أن تقوم على أسس واضحة مقررة ثبتت في عقل صاحبها وفي سائر العقول ثبوتا لا شبهة عليه ولا مثنوية فيه . . ولكنها في الواقع لم تثبت في ذهنه بتفصيلاتها ولم يفرغ من دراستها في حينها ، وأرجأ التوسع في شرحها الى الجزء الاخير من كتابه ، ثم مات قبل ان يفرغ من ذلك الكتاب .

وعد « كارل ماركس » باشباع القول في مسألة الطبقات ومسألة القيمة « الفائضة » من كسب العمل ومسألة التطور بين عصر الانتقال وعصر المجتمع ذي الطبقة الواحدة ، وكل هذه المسائل من صميم القواعد التي يقوم عليها مذهبه العلمي كما يسميه ، ولكنه مات ولما يبين للناس حقيقة الطبقة الاجتماعية ، ولا معنى القيمة الفائضة ، ولا نظام الحكم بعد انتقاله الى أيدي الطبقة العاملة ، ولا الوسيلة التي يتم بها هذا الانتقال .

وعلى ضخامة الدعوى التي يدعيها « كارل ماركس » في نبوءاته الابدية ، تكشفت الحقائق في حياته فاذا هي تنقض تلك النبوءات وتدل على نقيض البقية الباقية منها ، فلم يلتفت « كارل ماركس » الى هذه النقائض البينة ، أو التفت اليها ليقذفها ببعض اللعنات ـ غير العلمية ـ التي تعود أن يقذف بها كل ما يخالف تقديره وكل من يخالفه ، ومنها الرجعية والعامية والعقلية السطحية وخدمة رأس المال وخداع السواد والتعلق بالاوهام ، واشباه هذه المثالب والوصمات .

***

ولم تمض سنوات على وفاته حتى تعاظمت هذه النقائض على أتباعه ، ووجدوا انفسهم أمام تلك الضرورة التي تركها « كارل ماركس » في أوائلها واستطاع ان يتجاهلها ويروغ من طريقها لأنها لم تتعاظم في زمنه حتى تأخذ عليه جميع المنافذ والفجاج ، فتذرع اتباعه بكل ذريعة غير الذرائع العلمية في تمحيص نبوءاته وتقديراته . . وضعوا في أذهانهم أن « كارل ماركس » ينبغي ان يكون على ـواب بأي حال ، وانه اذا تعذر اثبات صوابه بالمعنى الظاهر وجب التماس المعنى الذي يجعله مصيبا على وجه من الوجوه ، وأنه اذا تعذر الفهم

الصريح والتأويل الخفي معا وجب ان يبقى « منقحا » ولو زال كل اثر من آثار الفكرة ولم يبق منها الا التنقيح المزعوم ، وخيل الى الناس أنهم امام طائفة من الدراويش يتبركون بخرقة من دثار ضريح مهجور ، ويعنيهم ان يحتفظوا بخيط من تلك الخرقة كيفما كان ، ولا يعنيهم ان يكون الدثار صالحا للكساء .

وطال الترقيع والتلفيق على أولئك الاتباع فاضطروا الى مواجهة الحقيقة كما استطاعوا أن يواجهوها .

ظهر لهم أخيرا أن « كارل ماركس » غير معصوم ، وقالوها كأنهم يستجمعون شجاعتهم للاجتراء على هذا التجديف المخيف ، بل قالوها وهم يشتمون المنقحين[1] لانهم حرفوا مبادىء « كارل ماركس » ولجأوا الى التحريف ليحيدوا عن طريقه الذي رسمه أمام التاريخ الى نهاية الزمان .

كان ينبغي أن يصمدوا على ذلك الطريق . .

كان ينبغي أن يبقى ذلك الطريق مفتوحا دون غيره الى نهايته القصوى ، وأن يبقى « كارل ماركس » مقدسا متبوعا مرجوعا اليه في مآزق الفتنة والضلالة ، وكل ما يجوز للاتباع أن يفهموا أنه غير معصوم في الدلالة على ذلك الطريق الابدي الذي لا طريق سواه . . فمن الجائز عليه أن ينأى عن الجادة وينحرف الى التيه ، وليس من الجائز لاتباعه أن يتخذوا من انحرافه دليلا على انحراف الطريق .

***

وقبل أربعين سنة أتيح لبعض أتباعه أن يقبضوا على زمام الثورة الروسية بعد انهيار دولة آل رومانوف . فجاءتهم هذه الثورة والمذهب الماركسي يتداعى ويتناقض بنبوءاته وتقديراته وتخريجات منقحيه ومنقحي منقحيه . وأمامهم في مفترق الطرق مسلك من مسلكين : اما أن يهملوا المذهب فيهلموا الحق الذي يبنون عليه قيادة الثورة وتأسيس الحكومة الجديدة ، واما أن يتشبثوا به لتطبيقه أو تجربة تطبيقه ، ما استطاعوا التجربة والتطبيق ، مع الاسترسال عند كل خطوة

---

(1) Revisionists

في التنقيح وتنقيح التنقيح ، والاعتراف تارة بالقداسة وتارة بالعصمة حول دثار الضريح .

وتهيأ للتجربة الماركسية في بلاد القياصـرة ما لم يتهيأ قط لمذهـب من المذاهب الاجتماعية ، واستباح المجربون والمطبقون والمنقحون جميعا ما لم يستبحه أشد المتهوسين تعصبا لدين من الاديان في سبيل نشر الدين والخلاص من الكافرين به أو المارقين عليه ، ولم يحصر التاريخ من ضحايا الاديان منذ أيام الجهالة الى العصر الحاضر عشر معشار الضحايا الذين ضاعوا بالملايين قتلا ونفيا وتعذيبا في سبيل النبوءات الماركسية ، ولم تثبت بعد ذلك كله نبوءة من تلك النبوءات بل ثبت بما لا يقبل الشك أنها مستحيلة على التطبيق .

ولا حاجة الى دقائق المذهب البعيدة للحكم على نبوءات « كارل ماركس » الابدية ، ولا حاجة بالبداهة الى الابد كله ولا الى بعضه ـ ان كان للابد بعض مقسوم ـ للعلم بفساد هذه النبوءات واستحالتها على التطبيق . . فان الخطوط العريضة من نبوءات المذهب البارزة تكفي لبيان مصيرها بعد البحث الامين والتجربة العملية ، فان قرنا واحدا كانت فيه الكفاية وفوق الكفاية لاثبات التناقض بين وجهة التاريخ ووجهة « كارل ماركس » في نبوءاته الابدية ، لان بحوث القرن وتجاربه دلت على هذا التناقض الواضح والجأت الماركسيين انفسهم الى التحمل الشديد في تخريج مقاصد امامهم ، أو الى الاعتراف الصريح بخطئه وحاجته الى التنقيح والتصحيح .

ان حرب الطبقات من دعائم المذهب الماركسي الذي لا بقاء له بغير بقائها ، ومن ثم سمي المذهب بالمادية الثنائية او المادية الحوارية على بعض التراجم اللفظية ، لانه يقوم على تتابع النقيضين بين الطبقة الماضية والطبقة التي تخلفها ، الى أن يحين الاوان المقدور ويأتي المجتمع الموعود الذي لا طبقات فيه .

وعلى هذا الاساس الذي لا قوام لنبوءات « كارل ماركس » بغيره ، يجزم « كارل ماركس » . . بزوال الطبقة الوسطى من المجتمع قبل زوال رأس المال . . ولا بد عنده من فناء الطبقة الوسطى بين طبقة رأس المال وطبقة

العمال قبل ظهور المجتمع الذي يستولي العمال فيه على مواد الانتاج .

على أن الاحصاءات التي سجلتها الارقام قد أثبتت ان الطبقة الوسطى تزداد مع الزمن ولا تنقص كما جاء في النبوءات الابدية ، ولم تخرج هذه الاحصاءات من أيدي الخصوم المنكرين للمذهب من أساسه بل جاءت من الانصار المؤيدين الذين اضطرتهم الوقائع الى الاعتراف بما لا يقبل الانكار ، وقد كان أول هؤلاء المؤيدين ادواردبرنشتين[1] الذي أراد باحصائه في الحقيقة أن ينقذ المذهب من الضياع ، فأثبت أن أصحاب الموارد المتوسطة يزدادون مع تقدم الصناعة الكبرى ، واعتقد أن توزيع الثروة في نطاق واسع هو السبيل الى اللامركزية التي خفيت على « كارل ماركس » وأن انقراض الطبقة الوسطى لا يحقق اللامركزية الموعودة ، بل يحققها انتشار الثروة بين جميع الطبقات .

ولم يكن خطأ « كارل ماركس » في هذه المسألة الاساسية خطأ النقص في الاحصاءات التي يجهلها ، ولكنه كان خطأ الهوى والتعنت أمام الواقع الذي لا يريد أن يراه لانه لا يوافق هواه ، وكان كذلك خطأ القصور في الادراك والتقدير الصحيح الميسور لمن يحسن التقدير ولو لم تكن لديه أرقام ولا سجلات احصاء .

كان رأس مال الصناعة في مبدأ أمره محصورا في أيدي أصحاب المصانع المعدودين ، وكان صاحب المصنع الكبير واحدا أو اثنين من أسرة واحدة ، أو كانوا ينتمون الى أسرات قليلة مشتركة في رؤوس الاموال .

ولكن هذه الحالة أخذت في التغير على أيام « كارل ماركس » وقبل أتمام كتابه ، فظهرت الشركات المساهمة وكثر المشتركون فيها بالاسهم الكثيرة أو القليلة ، وكان على « كارل ماركس » ان يفهم أن رؤوس الاموال تتوسع على هذا النحو ولا تنحصر في أيد معدودة كما اعتقد او أراد ، وأن انقراض الطبقة الوسطى ليس بالأمر المحتوم على هذا التقدير ، وأن اليوم الذي يشترك فيه العمال انفسهم في رؤوس الاموال غير بعيد ، وأن النبوءة عن هذه النتيجة كانت على متناول يديه لو أنها توافق هواه ، ولكنه اهملها ليبحث عن النبوءات التي توافق ذلك الهوى الدفين ، وكله من هوى التخريب والعدوان .

Edward Bernstein (1)

ولقد كانت الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الاولى اكبر معول ولا ريب في أساس الاشتراكية العلمية كما شرحها صاحبها ومريدوه .

كانت نبوءات « كارل ماركس » تقضي بقيام الشيوعية في البلاد التي بلغت بالصناعة الكبرى غاية اشواطها ، فاذا بالشيوعية تقوم في البلاد التي لم تعرف من الصناعة الكبرى غير خطواتها الاولى ، واذا بهذه القاعدة تسري على البلاد المتأخرة فلا تقوم للشيوعية قائمة في غيرها ، ولو الى حين .

وكان من لوازم الاشتراكية المادية أو الاشتراكية العلمية أن تكون الصناعة الكبرى هي التي تخلق النظام السياسي وتمهد له بانتهاء الصناعة الكبرى الى نهايتها ، فاذا بالنظام السياسي هو الذي يخلق الصناعة الكبرى في البلاد الروسية وغيرها من البلاد التي تقتدي بثورتها .

وكان « كارل ماركس » يحكم على الصناعة كما رآها في زمانه ، وكانت هذه الصناعة من البساطة بحيث تستولي عليها الايدي العاملة وتحسن ادارتها . . فاذا بالصناعة تتعقد وتتصعب وتتشعب حتى تتعذر ادارتها على غير الخبراء في علوم المكنات وعلوم الكيمياء ، وعلوم الاقتصاد ، وما يقترن بهذه العلوم جميعا من المعارف النفسية والمعارف السياسية او التاريخية ، واذا بطبقة أخرى غير طبقة الايدي العاملة تستولي على وسائل الانتاج وتبلغ من التحكم فيها ما لم يبلغ اصحاب رؤوس الاموال .

وانتهت التجارب العملية ، بعد اربعين سنة ، الى وجهة مختلفة تبتعد شيئا فشيئا من الوجهة التي تحراها « كارل ماركس » ومريدوه ، ومن النبوءات المحتومة التي بلغ القوم من التشبث بحروفها في دعواهم ما لم يبلغه عباد النبوءات الاقدمون .

انتهت التجارب العملية الى اباحة الملكية الفردية على صورة من الصور ، والى السماح بالتفاوت الكبير بين الاجور ، والى حكومة مطلقة تدوم أربعين سنة ، وتستبد بالعمال بدلا من استبداد العمال بها دون طبقة المنتجين والمديرين .

والناس اليوم ينظرون الى الطبقة الحاكمة في بلاد القياصرة الاقدمين ،

فيرون انهم أفخر وآنق في ملابسهم وشاراتهم وركائبهم من زملائهم الذين ينوبون عن بلاد رأس المال في المؤتمرات العالمية . . وما من احد يلج بالمكابرة فيزعم أن جميع الطبقات في بلاد الشيوعية تتزيّا بهذه الازياء وتتحلى بهذه الشارات ، وما من أحد يلج بالمكابرة فيزعم أن سلطان أصحاب الاموال قد كان على أقواه وأعتاه يزيد على سلطان ملوك الانتاج اليوم في البلاد الشيوعية ، بل ما من احد يلج بالمكابرة حتى يزعم أنه داناه زمنا او يدانيه .

وانطوت مائة سنة على ظهور النبوءات الابدية ، وانطوت أربعون سنة على تجربتها وتطبيقها والاصرار على اثباتها او على تخريجها وتأويلها ، فلم يثبت لها حظ من التحقيق العلمي الا ان يكون خط المناقضة والمفارقة ، ولم تستقم خطوطها العريضة كما رسمها صاحبها وحتم على المستقبل كله غاية التحتيم أن يلتزمها ولا ينحرف عنها قيد شعرة ذات الشمال ولا ذات اليمين ، وهذه نتيجة المذهب في خطوطه العريضة التي كان ينبغي أن تثبت قبل غيرها لانها هي الناحية البارزة لجميع الانظار من المؤمنين والمطلوبين للايمان ، فأما الخطوط الدقيقة والمعلومات البعيدة ، فهي من التخاذل والتشعث وقبول الرأي ونقيضه في وقت واحد بحيث لا تصلح للاستشهاد بها على مذهب واحد كائناً ما كان .

ولو كان « كارل ماركس » ممن يرعون أمانة العلم لتهيب الهجوم على تلك المجازفات باسم الحقيقة العلمية ، لان العلم بعد ازدهاره في العصر الحاضر لم يصل الى الحد الذي يخوله دعوى الاحاطة الشاملة بأسرار الكون ، ودعوى القدرة على تطبيق تلك الاسرار الشاملة على تاريخ الانسان في مجاهل المستقبل البعيد الى آخر الزمان .

فأما في عصر « كارل ماركس » فالعلم الذي كان يحبو في خطواته الاولى أحرى ان يقف دون هذا الشوط البعيد وقفة الحذر والاحجام ، وتلك الاحصاءات التي يجمعها « كارل ماركس » من هنا وهناك لم يكن منها احصاء واحد متسلسل المصادر محقق المراجع على النحو الذي يسمح بالمقارنة الصادقة ويدعو الى الثقة بالنتيجة القريبة فضلا عن النتائج القصوى .

بل لو كان « كارل ماركس » مخلصا لمذهبه لتردد في دعواه العلمية أشد من تردد

المخالفين له من أبناء عصره . .

اذ كان العلم على مذهبه مصطبغا بالصبغة البرجوازية ، مسخرا لخدمة الطبقة الاجتماعية القابضة على زمام الانتاج . . فهو علم ناقص مدخول لا تستقيم النتائج منه في جميع الاحوال ، ولا يستطيع « كارل ماركس » أن يزعم أن عبقريته الفردية تناولت ذلك العلم البرجوازي فصححته وخلصته من شوائبه ونفت عنه الزيف قبل زوال سلطان البرجوازية ورأس المال ، فان العبقرية الفردية عنده لا تنشىء علما مستقلا عن الظروف الاجتماعية ، ومن قال بجواز ذلك فانما يهدم التفسير الاقتصادي للتاريخ كما شرحه « كارل ماركس » هدما ذريعا لا يبقيه على قرار .

الا أن « كارل ماركس » لا تعنيه أمانة العلم في مذهبه ولا في مذهب غيره ، ومن ضياع الوقت على غير طائل أن يناقشه المناقشون على القواعد العلمية ، وهم يقذفون بالعلم والعقل الى عرض البحر ساعة يسلمون دعواه ويأخذون مأخذ الجد في انكار زعمه أنه قبض على زمام القوانين المادية ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، واتجه بها الى الوجهة التي لا تحيد عنها يوما في مجتمعات بني الانسان ما بقي للانسان وجود . .

ان الذي يسلم هذه الدعوى يهزل ولا يجد ، ويكلف العلم شططا لا يحسب من العلم في شيء . .

وما بقي اليوم من أحد يسلم لهذه الدعوى صفة العلم الا أن يكون واحدا من فريقين :

الفريق الاول أتباع « كارل ماركس » الذين أسسوا برامجهم على مذهبه ، وارتبطت دعايتهم في اقطار العالم بنبوءاته وأوغلوا في الطريق التي لا رجوع عنها في أمان الا بعد نسيان هذه الدعاية ، واستعداد الاتباع والاشياع لمواجهة الواقع غير مصطدمين منه بصدمة المفاجأة .

فهؤلاء يعلمون من التجربة العملية أن مذهب « كارل ماركس » مناقض للعلم والعمل ومتعذر التطبيق والتنفيذ بحروفه أو بعد التصرف الكثير فيه ، ومعاذيرهم التي يعتذرون بها لمخالفته أنهم لا يزالون في اول التجربة بين عقابيل الماضي ومقاومة الخصوم ، وأن الأمر يدعو الى قليل من المساومة والهوادة ومجاراة الظروف الى حين ، ثم الى حين آخر بعد ذلك الحين .

اما الفريق الاخر ممن يناقشون النبوءات الماركسية او النبوءات الابدية مناقشة العلم المعقول ، فهم أولئك الذين يضيعون العلم في سبيل السمعة العلمية ، وهم اشباه الذين قيل فيهم انهم يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل ، وانهم ينصفون في تمحيص جميع الآراء ولا يتعسفون .

فاذا نظر الباحث في أقوال هؤلاء وهؤلاء علم أن الفريقين من العلم براء ، وأن مذهب « كارل ماركس » انما يبحث على انه ظاهرة نفسية ولا يبحث على انه مبادىء علمية مع انصاف العلم والعقل وانصاف الواقع والعيان ، بعد مائة سنة من ظهور المذهب وبعد أربعين سنة من محاولة تطبيقه بكل ما يستطاع من المحاولات .

ان فهم جميع المذاهب يستلزم على الدوام فهم صاحب المذهب بلوازمه العقلية وبواعثه النفسية وخلائقه التي توحي اليه بالفكر والشعور او يستعان بها على افكاره ودوافع شعوره . .

وفهم « كارل ماركس » بصفة خاصة الزم ما يكون لفهم مذهبه الذي سول له - في هذه السهولة - ان يهجم على دعوة لا تقنع بما دون هدم العالم الانساني القائم ، ولا تصغي الى هوادة في الامر تتقبل الابقاء عليه بحال من الاحوال .

ان شهوة الهدم والتخريب هي التي توحي الى صاحبها الثقة التامة العامة بتلك النبوءات الابدية في غير هوادة ولا توسط ولا اعتدال ، ولو كان الامر على عكس ذلك وكانت الثقة العلمية هي التي توحي الى صاحب المذهب ان يدعو الى هدم كيان العالم لوجب أن تكون تلك الثقة قائمة على اركان من الحقائق لم يعهد لها نظير في تقريرات بني الانسان ، اذ لم يسبق لانسان ان يدعو الى مثل ذلك الهدم بكل ما في وسعه من لدد واصرار .

ولو ان انسانا اراد ان يهجم على هدم بلدة واحدة فوق اصحابها ، لكان لزاما عليه ان يلتمس لهدمها اسباباً اقوى من جميع الاسباب التي سولت لـ « كارل ماركس » هدم المجتمعات الانسانية بكل ما فيها على كل من فيها من معارضيه ومخالفيه . . وسولت له ان يستبيح من اجل هذه الدعوة سفك الدماء كالبحار ، ومتابعة القتل والتخريب في قطر بعد قطر الى جميع الاقطار .

وماذا لو كان في النبوءة خطأ يسير ، وقد ظهر فيها الخطأ الكبير بل ظهرت فيها الاخطاء الكبار ؟ الا يدعو ذلك الى قليل من التردد وقليل من الهوادة في اللدد

والاصرار ؟ . . بلى . . انه ليدعو الى التردد الكثير والى التحرج الكبير من عواقب ذلك التهجم على المجهول ، لو لم تكن شهوة الهدم والعدوان هي مصدر الوحي الاثيم وعلة العلل في ذلك التفكير العقيم . .

وهذا في الواقع هو معنى الثبوت العلمي في مذهب « كارل ماركس » اذا درسناه من وجهة الظواهر النفسية ، ولم نضع الوقت عبثا في مناقشة النبوءات التي لا يقبلها العلم على وجه من الوجوه . .

فكلمة « الثابت العلمي » مرادفة في مذهب « كارل ماركس » لكل ما هو لازم لاشباع شهوة التخريب والعدوان . .

وكل شيء يعوق الدعوة الى التخريب والعدوان ، فهو عنده باطل ينكره العلم ، وضلال تمليه الاحلام والاوهام . .

وليس ثبوت القيمة الفائضة او حرب الطبقات او النقائض المادية لانها واقع قائم في حوادث التاريخ او حوادث العيان . كلا . . بل هي ثابتة جميعا ببرهان واحد دخيل في طبيعة « كارل ماركس » وهو لزومها لاشباع شهوة التخريب والعدوان . .

كانت ثورته على برامج النقابات في عصره اعنف الثورات ، وكانت الخيانة وانتهاز الفرص ايسر التهم التي صبها على رؤوس القائمين بدعوة النقابات ، لانهم آمنوا بامكان الاصلاح بغير هدم العالم الانساني كله على رؤوس من فيه .

ومع هذا مضت حركة النقابات على سوائها فحققت للعمال والصناع قبل خمسين سنة ـ بغير حاجة الى سفك الدماء وتخريب العمار ـ اصلاحا لم تحققه الثورة الماركسية مع سلب الحرية واهدار دماء الملايين من الابرياء .

ولكن لا بريء في رأي « كارل ماركس » اذا حالت حياته وحياة الملايين من امثاله دون اشباع شهوة التخريب ، ولا حقيقة في العلم الماركسي لاصلاح ملموس باليدين ان لم يسفك الدماء وينشر الخراب في المشرقين والمغربين .

وهكذا يثبت الشيء في العلم الماركسي بمقدار لزومه لاشباع تلك الشهوة لا بمقدار ما يعززه من الحقائق والبراهين .

ودراسة « كارل ماركس » على ضوء الظواهر النفسية اقرب الدراسات الى فهم مذهبه وفهم البواعث التي تمليه وتوسوس به في ضميره وضمائر المتقبلين لدعوته والمجبولين على غراره ، فما من صورة « علمية » لـ« كارل ماركس » تترك بعدها

مجالا للشك في طبيعة المذهب الذي يدعو اليه ، وما من خير يخطر على البال انه يصدر من نفس كتلك النفس ، يملؤها الحقد والسوء وينبعث منها على عمد وعلى غير عمد فيما تعلنه وتخفيه .

ومن ثم نرى لزاما علينا أن نبدأ دراسة الماركسية بدراسة « ماركس » نفسه ، كما صورته لابناء عصره سيرة حياته المحفوظة في سجلات اتباعه ومتاحف وثائقه وذكرياته . . وحسب القارىء ان يلم بهذه الصورة الواضحة ليريح ذهنه من متاعب البحث في « النبوءات الابدية » التي بشر بها نبي السوء في زمانه ، ثم يريح ذهنه من الخلط والخبط في رطانة المذهب بين المادية والحوارية والنقائض الاجتماعية . وبين العمل وكسب العمل وفيض العمل وحق العمل ، وسائر هذي الاغاليط التي جاء بها شيء واحد هو لزومها لتحقيق تلك النبوءات . . فسيعلم القارىء بغير جهد جهيد أي لزوم لمبدأ من تلك المبادىء كلما علم لزومه لفتح الطريق الى الغاية التي لا محيد عنها ، وهي هدم العالم الانساني على من فيه بغير اصغاء قط لشفاعة من شفاعات السلم او التوسط في الاصلاح .

ان صورة « كارل ماركس » هي مفتاح مذهبه ومذهب الحقد والسوء في نفوس امثاله . . وها هي صورته الصادقة بملامحها الناطقة ، لا ينكرها أنصاره ولا يقدرون على إنكارها ، وإن كانت أحق شيء منهم بالانكار .

مذهب الشيوعية

صاحب المذهب

سلك الماركسيون في ترجمة زعيمهم بعد وفاته مسلكين متناقضين : عدلوا من احدهما الى الآخر بعد شيوع ذكره واستفاضة أخباره ونشر الكثير من الوثائق المطوية عن حياته وعلاقاته بأسرته وصحبه وزملائه ، مما يحتاج الى تفسير أو توفيق بينه وبين المنزلة الرفيعة ـ بل المقدسة ـ التي أرادوا ان يرفعوه اليها على انكارهم لكل قداسة انسانية أو الهية .

سلكوا في بداءة الامر مسلك التقديس والتطويب ، ثم عدلوا عنه الى الاعتراف بالنقائص والاخطاء مع الأحتراس والمراوغة . . ولم يلبثوا ان توسعوا في الاعتراف بما لا بد منه مع تطاول الزمن وتداول الاخبار عن الخفايا والاسرار وكان اعتذارهم الذي يدورون حوله كلما صدم الناس بخفية جديدة من خفاياه ان شخص الرجل شيء ومذهبه شيء آخر ، وأن اعمال الرجل الاجتماعية بمعزل عن حياته الفردية ، تطبيقا لرأي « كارل ماركس » نفسه حيث يقول ان « الشخصية الفردية » ناقلة لا أثر لها في المجتمع ما لم يكن لها تمهيد او مساندة من الظروف الاجتماعية .

ولم يلبثوا مرة اخرى أن توسعوا في الاعتراف بالنقائص والاخطاء عن قصد يدارونه تارة ويعلنونه تارة اخرى ، اذ كانوا يشعرون بالحاجة الى التحلل من قيود المذهب كما وضعه « كارل ماركس » كلما تعثروا في تطبيقه وتتابعت العقبات أمامهم في كل خطوة من خطوات التنفيذ والاختيار ، ولا يزالون يترخصون في تطبيق المبادىء الماركسية ويلتمسون لذلك المعاذير من

مصاعب الابتداء واستحالة الطفرة وضرورة الاناة والاعتدال في أطوار الانتقال ، وينسون أنهم على طول الزمن يبتعدون من النتيجة التي يريدونها وتتسع الشقة بينهم وبينها في كل عام وفي كل مشروع من المشروعات التي يقيمونها على قواعد المذهب كما يقولون .

ولقد كان غاية ما ينتظر من اتباع الماركسية المؤمنين بقواعدها أن ينتقلوا من التقديس والعصمة الى نفي التقديس والعصمة وكفى . .

كان حسبهم أن يصبح « النبي المرسل » غير مقدس وغير معصوم لو وجدوا في ذلك مقنعا للعقول التي تفاجأ في كل يوم بعيب من عيوب « النبي المرسل » لا يكفي لقبوله نفي القداسة والعصمة والنزول به درجة أو درجتين دون مرتبة الكمال . .

كان حسبهم هذا لولا أن عيوب الرجل تنزل به دون ذلك كثيرا في كل تقدير ، فليس قصاراه أنه كامل يأتيه النقص عرضا في بعض الحالات والفلتات ، بل حقيقة أنه ناقص يتحول فيه النقص الى قوة بحكم الظروف .

من مترجميه الذين واجهتهم هذه الضرورة « أوتو روهل » صاحب كتاب « كارل ماركس : حياته وعمله » الذي ترجمه الى اللغة الانجليزية « ايدن » و« سيدار بول »[1] .

فهذا الكاتب يدين بالمذهب الماركسي ويؤمن بالتفسير الاقتصادي للتاريخ ، ولكنه لا يرى مناصا من تفسير نقائص استاذه باختلال جسده ، فيقول بنص عبارته كما ننقلها من الترجمة الانجليزية : « انه كان نموذجيا فيما كان يعانيه من اعتلال نشاطه الروحي[2] وكان على الدوام متقلبا مبتئساً حقودا لا يزال في تصرفه عرضة لتأثير سوء الهضم والانتفاخ وهياج الصفراء ، وكان موسوسا[3] يغلو كجميع الموسوسين في الشعور بمتاعبة الجسدية ، وكما كان يعتمد في الطعام الذي لا ينتظم فيه على الاستعانة بالتوابل والابازير والمخللات وبيض السمك المملح وما اليها . . كان يستعين بأمثال ذلك في عمله وعلاقاته بغيره ، ولا

Karl Marx .His life and work by Otto Ruhle Translated by Eden and Cedar Paul. (1)
Soiritual Metaboism (2)
Hypochondriac

يخفى ان الاكل السيء عامل سيء وزميل سيء في الوقت نفسه ، فاما ان يحجم عن الاكل او يفرط فيه ، واما أن يكسل عن العمل او يرهق نفسه فيه بما لا يطيقه ، واما ان ينقبض عن معاشرة الناس أو يتخذ له صديقا من فلان وعلان وبدران وزيدان . . هؤلاء على الدوام متطرفون لا تحتمل معداتهم ولا رؤوسهم ولا ارواحهم [1] مفاجأة الاختلاف . وكذلك كان « ماركس » في صباه عاجزا عن المثابرة على دراسة ترشحه لعمل يعينه على مطالب العيش . واصبح في كهولته عاجزا عن المثابرة على جهد من الجهود العقلية يتكفل بغذاء الشخصية كلها . . فلم تكن له صناعة ولا مكتب ولا شاغل منتظم ولا وسيلة من وسائل المعيشة ، وما من شيء لديه الا وهو موكول الى المصادفة والارتجال والاضطراب . . وبدلا من الانتظام في سماع المحاضرات في أثناء دراسته ليستعد بذلك للعمل المنتظم راح يحشو معدته بأخلاط التوابل الفلسفية والادبية ، وتعاورته على الدوام قلة الصبر على رياضة النفس وضعف الاحساس بالنظام ونقص القدرة على الموازنة بين المورد والمصروف ، وكانت تنقضي الشهور ولا ينشط لكتابة سطر واحد ، ثم يقذف بكل قواه على عمل جسيم كأعمال المردة والجبابرة ، فيسلخ الليالي والايام ملتهما بالمطالعة مكتبات كاملة ، راصا من حوله اكداسا من القصاصات ، مالئا بالتعليق والتدوين كراسات فوق كراسات ، تاركا خلفه آكاما من الكتابة المخطوطة يبدؤها ويهملها ولا ينتهي منها الى نتيجة ولا محصول » .

***

على هذه الصورة يتمثل « كارل ماركس » كاتب يدين بالمادية الثنائية وبالتفسير الاقتصادي للتاريخ ، ثم يمضي في سرد هذه العيوب في إمام مذهبه ليقول : « انه قد استمد من الضعف قوة واستخرج من النقص تعويضا يغطي عليه » .

ونعتقد ان الكاتب لم يكن ليسترسل في تصوير امامه على هذه الصورة ، لو أمكنه ان يسكت عن الجانب المهم منها وهو عجزه عن العمل المنتج ونزوعه الى هدم ما يبنيه بيديه . ولكن الكاتب لا يستطيع أن يدعي لـ « كارل ماركس »

---

(1) Spirits

حبا أشد من حب أبيه ، وليس في وسعه ان يمحو الوثائق التي تحتوي فيما احتوته أقوال أبيه عنه وكتاباته اليه ، ومنها رسالة يقول فيها « ماركس » الأب : « ان بعض الناس ينامون ملء عيونهم إلا أن يستدعيهم السرور الى سهر الليل كله او بعضه ، على حين يقضي ولدي الموهوب الذكي « كارل » جملة لياليه مرهقا جسده وعقله في دراسة لا لذة فيها ، معرضا عن جميع الملهيات في طلب المشكلات الغامضة ليهدم غدا ما بناه اليوم ويرى بعد ذلك كله أنه أضاع ما لديه ، ولم يستفد شيئا مما لدى الناس »[1] .

أما هذا الخلل الملازم لـ « كارل » من مطلع حياته فله عند « أوتو روهل » تعليلات كثيرة ، منها مرض الكبد المتأصل واعتلال بنيته اعتلالا ينبيء عن وهن أصيل في التركيب ، ومنها انتسابه الى الملة اليهودية في بلاد تنظر الى هذه النسبة كأنها وصمة اجتماعية ، ومنها آفة الولادة الاولى او ما ينتاب تربية الولد الاول من عوارض التدليل والانفراد :

ويفتتح « روهل » فصله عن « ماركس » الرجل بتزكية المذهب المادي في تفسير حالة الفرد وتفسير أحوال الجماعات على السواء ، فيقول مبتدئا بتقرير هذه العقيدة : « واذا كان التفسير المادي للتاريخ كما هو في الحق اصدق تفسير لمجرى الحوادث التاريخية ، فمن الواجب الا يصدق على الجماعات التي تتولى تنفيذ تلك الحوادث وحسب . . بل ينبغي أن يصدق كذلك على الافراد الذين تتجسم فيهم ظواهرها . . الا أن تطبيق التفسير المادي للتاريخ بالنسبة للجماعات مهمة من مهام الدراسات الاجتماعية . بخلاف تطبيقه على الافراد فانه مهمة من مهام الدراسات النفسية » .

وخلاصة المقارنة بين حالة « كارل ماركس » وحالة البيئة التي نشأ فيها ان « كارل ماركس » الفرد لا يعنينا بمعزل عن آرائه الاجتماعية وعن الظواهر التي عملت على اخراج تلك الاراء .

وهذه هي الحيلة التي أراد الكاتب المؤمن بالمادية التاريخية أن يحتال بها على اغفال عيوب امامه في معرض الكلام على مذهبه . ولعلها حيلة تنفع كل

---

(١) « بير » عن « ماركس وتعاليمه » Life and Teaching of Karl Marx » by Beer

قائل غير القائلين بتفسير عقائد النـاس وآرائهـم بأحوالهـم المـادية ومطالبهـم الجسـدية فان الـذي يعتقـد ان الديانـات والاخـلاق والآراء انمـا هي صدى المطالب الجسدية التي يحسها الناس ، لن يستطيع التخلص بهذه السهولة من اثر البنية في تكوين اراء صاحبها ، ولن يستطيع ان يزعم ان هذه الآراء تأتي سليمة مطهرة من نفس مريضة مختلة مطبوعة على الحقد والضغينـة . . واذا استحال على الامة في مجتمعها ان تتخلص من دواعيها الجسـدية حين تدين بالدين ، وحين تتعود العادات ، وحين تشرع الشرائع ، وحين تتذوق الجمال وتبتدع فنونه وتماثيله ، فليس في مقدور الفرد أن يتخلص من نوازعه وشهواته ولا من أهوائه المتأصلة في تركيبه ، وليس من المعقـول أن يتسـاوى الرجـل المطبوع على الضغينة والرجل المطبوع على سلامة الطوية في بواعث التفكير ومواجهة المسائل التي يصبغها بصبغة عقله هواه ، ومـن قال بذلك فهـو من القائلين بالعزل بين الروح والجسد وليس من القائلين بتغليب الجسد على كل فكرة وكل عاطفة وكل شعور .

***

ومهما يكن من جدوى هذه المعاذير ، فهناك سؤال حتم يبقى على الشيوعيين ان يجيبوه ، وهو : هل يعتبر « كارل ماركس » بهذه الاخلاق فردا صالحا في مجتمع من المجتمعات الانسانية كائنا ما كان ؟ وهـل يكون فردا غير صالـح ويجوز مع ذلك أن يكون اماما صالحا لتأسيس المجتمعات المثالية من يومه الى أقصى الآماد المجهولة ؟

وأيا كان جوابهم على هذا السؤال الحتم ، فلا شك ان هوان الاخلاق عليهم هو مرجع الفضل في تهوين الاعتراف بتلك العيوب على زعيمهم وامامهـم ، وان يكن فضلا غير مشكور .

ويشبه هذه الصورة التي رسمها « روهل » صورة اخرى رسمها زعيم من اكبر زعماء المذاهب الهدامة في عصره وهو « باكونين » زعيم « الفوضوية » الذي تلقى عنه « ماركس » اوائل دروسه في المذاهب الاجتماعية ، وهـو رجـل له عيوبه وهناته ولكنه من طراز في الاخلاق غير طراز « كارل ماركس » . ولم يكن من خلاله المشهورة خلة الحقدو افتراء الاكاذيب على عمد لخدمة الدعاية او

شفاء الضغينة ، بل كان على نقيض ذلك سريعا الى الاعتراف بصواب غيره اذا تبين له صوابه ، قريبا الى الصفح عن خصومه الذين لا يتورعون عن اختلاق التهم عليه لتشويه سمعته والتشكيك في نياته ، وقد اتهمه « ماركس » بالجاسوسية وأحيلت هذه التهمة على لجنة من أقطاب الثوار لتحقيقها فثبت لهم تزوير الوثيقة التي تستند اليها ، وكان « باكونين » حاضرا في جلسة التحقيق والمناقشة للدفاع عن نفسه فأخذ الورقة المزورة ولم يتشبث بادانة مزوريها بل احرقها بيديه ، وبسط كفه للداعية الالماني « ليبكنخت » الذي كان يتولى اتهامه بالنيابة عن « ماركس »، فصافحه وختم هذه المهزلة باستئناف العمل معه والنزول عن حقه في الصاق شبهة التزوير به وبأستاذه الموعز اليه .

يقول « باكونين » هذا عن « ماركس » وهو يعقد المقارنة بينه وبين « ماتسيني » زعيم الوطنية الايطالية : يحب « كارل » نفسه اضعاف حبه لاصدقائه ومريديه . . وما من صداقة تصمد لحظة اذا مسته لحظة في غروره وكبريائه ، وايسر من ذلك جدا ان يغفر الاساءة او الخيانة لدعوته الفلسفية ورسالته الاجتماعية . . فانه ينظر الى هذه الخيانة نظرته الى علامة من علامات القصور العقلي أو علامات امتيازه على صديقه فيرى فيها نوعا من التسلية المرضية ، وقد يكون هذا الصديق أحب اليه وادنى الى قلبه لانه يأمن ان يكون مزاحما له في رسالته او منافسا على القمة العليا في شهرته . . غير انه لا يغتفر أبداً اصغر الاساءات الى شخصه ، ولا بد لك من أن تعبده وتتخذه وثنا تصلي بين يديه إن أردت أن تظفر بمودته ، أو لا بد لك من ان تخافه وتهابه ان أردت ان يحتملك ويصبر عليك . . وهواه دائما ان يحيط نفسه بالاقزام والحجاب والمتزلفين ، ولا يمنع ذلك أن يحيط به بعض ذوي الاقدار . .

أما على الجملة فلك أن تقول ان أصحاب « ماركس » تندر بينهم صراحة الصداقة ، وتكثر بينهم الدسائس والمناورات ، وهم متفاهمون ضمنا على المكايدة والصراع والمساومة على مرضاة الغرور المتبادل بين زمرتهم ، ولا موضع لشعور الصداقة حيث يعمل الغرور وتسود الاثرة ، فكلهم على حذر وكلهم متوقع للتضحية به والقضاء عليه ، وليست جماعة « ماركس » الا جماعة التزلف المشترك ، وهو بينهم الموزع الاكبر للاقدار والدرجات ، والمحور

الاكبر كذلك للغدر والكيد والدسيسة . لا يتفتح أبدا ولا يستريح للصراحة يوما . بل يحرض أبدا على اضطهاد من يستريب فيه او من يقوده سوء حظه الى التقصير عن اكباره كما ينبغي له من الاكبار في نظره . ومتى بدا منه الاذن في الاضطهاد ، فلا حدود للخسة واللؤم في الذريعة التي يتذرعون بها لقضاء اربه . . ولما كان هو نفسه يهوديا فقد احاط نفسه في لندن وباريس ، وفي ألمانيا قبل كل شيء بنفر من اليهود الصغار على حظ متفاوت من المقدرة على الدس والنشاط والمغامرة ، كسائر امثالهم حيث كانوا بين الموظفين التجاريين وعمال المصارف والمشتغلين بالادب والسياسة ، أو هم بعبارة اخرى سماسرة في الادب والسياسة كزملائهم السماسرة في الصفقات التجارية ، قدم في المصرف والقدم الاخرى في مراكز الحركة الاجتماعية ، ولهم عشيرة كبرى في المانيا بين ادباء الصحف الدورية . . وان هؤلاء المتأدبين من اليهود لذوو براعة في صناعة الجبن والواقعية والايغار والمكيدة تسمعهم يقولون كانهم يترددون . يشاع ، يزعمون ، لعله غير صحيح . . ثم يقذفون بأخبث التهم في الوجوه ».

ومما كتبه « باكونين » عن « ماركس » الى « هرزين »[1] ان « ماركس » قد خدم قضية الاشتراكية خمسا وعشرين سنة بمقدرة ونشاط واخلاص ، ولن اغفر لنفسي ـ لو انها سولت لي من جراء البواعث الشخصية ـ ان أهدم عمله أو اغض من شأنه ».

وقد أعلن « باكونين » صواب « ماركس » في بعض المسائل الفلسفية والسياسية التي اختلفا عليها ، وأن « ماركس » لا يتورع عن الانتقام من مخالفيه باختلاق التهم عليهم ، وانه لا يتورع عن الانتقام من أحد يرتفع الى المكانة العليا في الدعوة الاجتماعية وان لم يكن بينهما نقاش على الخطأ والصواب ، وقال وهو يذكر حملة « ماركس » على « برودون »[2] : « ان ماركس » ينطوي على خليقتين ذميمتين : الغرور والغيرة . . وما كان بعضه لـ « برودون » الا لانه مشهور جدير بالشهرة ، وما من مسبة يحجم عن صبها على رأسه . لانه أناني يفرط في انانيته لحد الجنون ، وتسمعه يتحدث قائلا : افكاري . .

---

(1) Herzen

(2) Proudhon

آرائي . . وينسى ان الافكار والآراء ليست ملكا لاحد على التخصيص ، وأن اصلح الآراء تلك التي تتمخض عنها البديهة العامة . . ».

***

وتكاد هذه الصورة ان تبرز بجميع ملامحها للناظر العابر بعد جلسة أو جلستين مع « كارل ماركس » كما تبرز للغرباء الذين تجمعهم به المصادفة حينا بعد حين ، فليس يختص بها اولئك الاخصاء الذين طالت عشرتهم له وخبرتهم بأطواره واعماله ، لانها صورة بينة تنعكس عن صفات متغلغلة متمكنة لا تخفيها المواربة ، ولا تحتاج الى انعام النظر طويلا لابراز طواياها .

وصفه « كارل شورز »[1] بعد التقائه به في كولون سنة ١٨٤٨ قال : « انه قد استفاضت عنه شهرة واسعة بالاطلاع الغزير ، ولم أكن على علم بكشوفه ونظرياته . . . فزادني ذلك شوقا الى التقاط كلمات الحكمة من فم الرجل الشهير ، فخاب أملي على نحو غريب . . اذ كانت كلمات « ماركس » ولا شك مشبعة بالمعاني ، ولكني لم ار قط في حياتي رجلا بلغ سلوكه من البغضة التي لا تطاق ما بلغ سلوك هذا الرجل . . كان لا يعير التفاتة واحدة لفكرة تخالف فكرته أقل مخالفة ، وكان يعامل كل من يخالفه معاملة ملؤها التحقير والازدراء ، ويجيب على كل قول لا يعجبه اجابة قارصة تسخر من الغباء المطبق الذي يرمي به قائله او تلوح له بالاتهام وسوء النية ، ولا تزال لهجته في النطق بكلمة برجوازية عالقة بذهني الى هذه الساعة ، وهو سريع الى الصاق مسبة البرجوازية بكل من يخالفه على أسوأ ما تدل عليه من ضعة العقل والخلق . . »[2] .

وقال « تيشو »[3] عنه مع اعجابه به وتسليمه بقدرته : « لو كان قلبه في عظمة فكره ، وكان حبه في قوة حقده ، لاقتحمت النار معه على الرغم من تصريحه غير مرة بهبوط منزلتي في نظره » .

---

(1) Schurz.

(2) « ذكريات شورز » Reminisencco by Carl Schurz

(3) Teechow

لا جرم كان بهذا المسلك خليقا أن يغري بالمناقضة والمشاكسة ، وكان يكفي ـ كما قال « شورز » ـ ان ينم على وجهة يختارها ليدفع بسامعيه الى وجهة غيرها . .

وعلى كثرة الذين كتبوا عنه وعن ذكرياتهم معه ، لم يكن بينهم أحد يمر بهذه الخليقة دون أن يلحظها . . ولو كانت من الخلائق العارضة أو الخلائق التي تظهر وتختفي بين ادوار العمر وطوارىء الاحوال ، لما انكرها منه أبوه في مقتبل عمره ، كما انكرها صديقه وصفيه وزميل حياته وشريك دعوته « فردريك انجلز »[1] وهو أحرص الناس على سد خلته ومداراة عيوبه . ولكنها خليقة لازمته من مطلع حياته الى خاتمة ايامه ، فأبوه يكتب اليه أيام تلمذته ليقول له مكرها : « انك ـ لسوء الحظ ـ تؤيد بسلوكك رأيي الذي كونته عنك ، وأرى انك ـ على ما فيك من خصال حسنة ـ اناني تغلب الانانية على جميع صفاتك » .

و« انجلز » في سنة ١٨٦٣ ـ أي بعد أن جاوز الخامسة والاربعين يكتب اليه قائلا : « من البديه انك سترى مما أنا فيه من الحزن ، وما انت عليه من جمود الطبع انني لم أكن استطيع ان اجيبك قبل هذا التاريخ . ان اصحابي جميعا ـ ومنهم المخالفون ـ قد أبدوا لي من العطف والعزاء فوق ما كنت انتظر . . اما انت فقد لاح لك انها فرصة لاظهار سموك بالتعالي عن الحزن ، وجمود العاطفة . . ليكن ما اردت ، سلمنا لك ما تريد . . فانعم بانتصارك » .

وانما ثار « انجلز » هذه الثورة النادرة لانه كتب الى « ماركس » ينعي اليه خليلته فلم يتحرك لمصابه ، ولم يزد على كلمات أسف وجيزة ، تلاها على الاثر طلب المعونة وشرح الازمات التي يعانيها . . وقد كان « انجلز » ينسى شواغله وهمومه كلما سمع عن وعكة خفيفة يشكوها طفل من اطفال « ماركس » او تشكوها قرينته السقيمة ، فلا يهدأ ولا يتوانى حتى يسعفه بما في وسعه من المعونة والمواساة .

وفي هذه المرة فقط عرف « ماركس » كيف يعتذر من خطأ يلومه عليه لائم من صحبه أو زملائه أو ذويه ، فكتب الى « انجلز » ينحي على نفسه لانه ارسل ذلك الخطاب ، ويقول : « انه أدرك خطأه بعد القائه في البريد ، وانه كان من

---

(1) Laidler

رثاثة الحال في داره بلا طعام ، ولا دفء ولا راحة بحيث لا يملك متنفسا غير التهكم وقلة الاكتراث » .

وهكذا كان الاعتذار الوحيد الذي ارتضاه « ماركس » اعرق في اللؤم من الخطأ الذي ساقه اليه ، لانه اعتذار الشعور بالحاجة الى الرجل الذي كان يلتمس المعونة منه ، ولم يكن اعتذار شعور بالواجب او الوفاء .

***

والامر الذي يستوقف النظر طويلا بعد هذه الصور المتفرقة انها تصدر عن اجماع عام ممن لا يتفقون يوما في وصف انسان واحد كبير او صغير ، فقد اتفق عليها من يعتقدون مذهب « كارل ماركس » ومن لا يعتقدونه ولا يعرفونه ، واتفق عليها من عاشروه سنوات ومن لم يجتمعوا به غير مرة او مرات ، واتفق عليها الغرباء واقرب الاقرباء من أصدقائه وذويه ، ومن كان منهم مظنة الاجحاف لخصومة او خلاف ـ كأستاذه « باكونين » ـ فالشبهة عليه أضعف ما تكون في هذه الاحوال ، لانه على رذائله الكثيرة لم يشتهر برذيلة الحقد والافتراء على عمد وروية ، بل اشتهر على نقيض ذلك بالمسامحة وحب الانصاف لاصحابه وخصومه ، ولا يضيره بعد ذلك ان يكون مظنة الاشتباه بالاجحاف . . لان ما قاله عن « ماركس » يطابق في جملته رأي ابيه ورأي الخاصة الاقربين من اصدقائه ومريديه . .

الا أن الاقوال التي تتفق على الوصف لا تتفق على التعليل والتحليل فـ « ماركس » هكذا باتفاق عارفيه . . ولكن لم كان هكذا ولم يكن على صورة أخرى ؟

هنا تختلف الآراء والظنون ، لان المجال هنا مجال بحث وتقدير وليس مجال رؤية وتقرير . . ونحن نعرض هذه التعليلات فلا نجد بينها تعليلا اقرب من تعليل « روهل » الى الاجماع او الفهم والقبول ، وقد تقدم أنه يرجع بعيوبه الى أسباب شتى يلخصها في اعتلال البنية والشعور بوصمة المجتمع وانفراده برعاية أبويه لانه كان اول الابناء .

وهذه تعليلات تنظر الى الوقائع الصحيحة ولا تستوعبها ، لانها لم تلتفت الى الجانب المهم من الوراثة وعلاماتها الواضحة في أبويه . . وليست الوراثة مما

يهمل في شأن انسان من الناس حيث كان وكيف كان ، ولكنها في شأن « كارل ماركس » أحق بالالتفات اليها والبحث عن الصلة بينها وبين قواعد مذهبه وغاياته ، لانها وثيقة الصلة بتلك القواعد والغايات .

لقد كان « كارل ماركس » ينحدر من أبوين ينتميان ـ كلاهما ـ الى طائفة الربانيين والحاخامات اليهود ، وكان أبوه فقيها دينيا وامه من سلالة اليهود الهولنديين الذين هاجروا الى بلاد المجر في القرن التاسع عشر لكثرة من في هذه البلاد من اليهود اصحاب المزارع والاموال .

جاء في كتاب « الحركات الاجتماعية الاقتصادية » لمؤلفه « هاري ليدلر »[1] : « ان أباه كان من رجال الشريعة الاسرائيليين ، وان جده كان من البرنانيين ، وان أمه تنحدر من أسرة هولندية ربانية هاجرت من هولندا في القرن السابع عشر الى البلاد المجرية » .

وهذه الاسرة العريقة في الديانة اليهودية قد تحولت ـ أبا واما ـ عن دينها الى الدين المسيحي بعد ولادة « كارل » بست سنوات ، ولم يتحول الابوان معا عن عقيدة وايمان صادق بالمسيحية ، ولكنهما اتفقا على ترك الدين الذي أنحدرا من سلالة فقهائه ورؤسائه تمهيدا لفرص العيش ، ثم تمهيدا لفرص المستقبل أمام الابن الذي بلغ السادسة ، وأرادا في هذه السن الباكرة أن يحولاه معهما عن ديانة الآباء والاجداد الى ديانة الدولة والمجتمع الذي يعيشان فيه ، وليس انسب من سن السادسة ، لتحويل طفل صغير من دين الى دين ، لانه قد يتأخر عن السن المناسبة لتبديل معتقداته وشعائره اذا بلغ سن المراهقة على دين الاباء والاجداد .

أيمكن ان تنفصل هذه الحادثة عن مذهب « كارل ماركس » في جوهره ولبابه ؟ . . ايمكن ان تنفصل عن شعوره بالدين وشعوره بالعقيدة الروحية على اختلاف مناحيها ؟

---

(١) Loidler

لقد اقام « كارل ماركس » مذهبه على المادية الاقتصادية . . وكان قوام هذا المذهب ان الديانات والعقائد جميعا انما هي انعكاس الضرورات الاقتصادية في المجتمع كما تتمثل في عباداته وعاداته .

وليس في هذا المذهب شيء يناقض الواقع المحسوس الذي شب عليه في طفولته بين أبويه .

ولا تكون « المادية الاقتصادية » هنا فكرة من افكار البحث والمنطق والدراسة العقلية وكفى ، بل تكون في ضميره لاعجة من اقوى اللواعج النفسية التي تتطلب التنفيس والتهدئة ، وتهمة كامنة في الاعماق تحاول جهدها ان تنتفض من اعماقها وتتخذ لها نزعة من نوازع التسويغ او نوازع التحدي والمفاخرة حينما تفتحت لها دخائل الفكر والوجدان .

وكأنه يقول من وراء المادية الاقتصادية متسائلا متحديا : ماذا صنع ابواي ؟ اتراهما صنعا شيئا يعاب عليهما او يعاب على احد ؟ اتراهما على نقص في الاخلاق والضمير لانهما تحولا عن الدين التماسا للمنفعة الاقتصادية او المنفعة المادية ؟

كلا . . ان الديانات كلها تتحرى المنفعة الاقتصادية وتنبت في منابتها ، وان المنفعة الاقتصادية في كل مجتمع هي ينبوع العقائد فيه ، وينبوع كل ظاهرة روحية فيه مما يسمونه بالآداب والاخلاق والفنون ، ويحسبونه من ثمرات الذوق أو الخيال او من وحي السماوات والارباب ، وما صنعه أبواي لا يعاب عليهما ولا ينم عن نقيصة خلقية أو خيانة لعهد الروح والضمير . . بل هو مفخرة لهما وآية من آيات صدق النظر والبصيرة لديهما ، لانهما قد نفذا الى اصل الدين في أعمق اعماقه فلم ينخدعا فيه كما ينخدع المؤمنون الغافلون عن اصل الدين وعن جميع الاصول .

فها هنا دلالة اقوى من دلالة الفكرة التي تتولد من البحث العلمي والاقيسة المنطقية . . ها هنا « اولا » خليقة موروثة مع الطباع التي تورث عن كلا الأبوين، وها هنا بعد ذلك حاجة نفسية تلح على الوعي الباطن والوعي الظاهر

معا وتلتمس منهما قوة العزاء او قوة التحدي والمكابرة ، فلا معابة في ترك الدين طلبا للمنفعة المادية او الاقتصادية ، بل هو الظاهرة العامة التي ينبغي ان ترجع اليها جميع الديانات ، وهو الى ذلك مفخرة الابوين بالنظر الثاقب والحدس القويم .

وليس موقف الاسرة من الدين هو كل ما نلمحه من الخلائق الموروثة واثرها في تكوين افكاره او بواعث تفكيره ، فان اعتلاله كان مسبوقا بعلة مثلها في ابيه الذي مات بها قبل بلوغ الشيخوخة ، وقال الاطباء عنها في محضر الوفاة انها داء الكباد ، ولم تكن امه اصح من ابيه كما يؤخذ من اخبارها القليلة ، وكان له اخ يسمى « ادوارد » اصابه داء الهزال فمات في صباه .

***

هذه نشأة جسدية تضاف الى نشأته النفسية او الاخلاقية ، فلا تنم على فطرة سوية ولا تهيء الناشىء للخير والفلاح في حياته الخاصة او العامة . . ويجوز لمن يترجم سيرته أن يقدر جرائرها اذا اعوزته الشواهد والروايات بأسانيدها ، غير ان الحوادث المفصلة في هذه السيرة تغني عن التقدير وتزودنا على سعة بالمعلومات الوافية عن امام الشيوعية من طفولته الباكرة ، لان الدعوة الى المذاهب الثورية ومذاهب الاشتراكية المتطرفة والمعتدلة قد انتشرت بعد عصره بسنوات معدودة وادركها اتباعه وتلاميذه فاحتفظوا بآثاره وبالغوا في الاحتفاظ بها حتى جمعوا من خاصة اخباره ما قل ان يجتمع في سيرة مشهورة من رجال الدول ، فضلا عن دعاة المذاهب والبرامج الاجتماعية . . وكان من حظ التاريخ الصادق ان اتباعه كانوا ـ بحكم عقيدتهم ـ ممن تهون عليهم قيم الاخلاق والادب ، فلم يتحرجوا من المساوىء والعيوب كما يتحرج منها مترجمو العظماء حين يعرضون لاخبارهم الخاصة وسقطاتهم المريبة .

ومن هذه المعلومات دون غيرها ، يتراءى أمام المادية التاريخية في كل صفحة من صفحات سيرته مصدقا لتلك الخلائق التي اجمعت عليها أوصاف عارفيه . . فلم يكن في عمل تولاه قط قدوة صالحة أو فردا صالحا لمجتمع من

المجتمعات كائنا ما كان في حساب الماديين او غير الماديين فلا الناشىء الطالب في سلك الدراسية ، ولا الرجل رب الاسرة ، ولا الصديق او الزميل في الدعوة الاجتماعية ، ولا الداعية العامل على نشر مذهبه ، ولا الانسان الذي ينتمي الى ملة أو وطن أو طبقة . . كان في « كارل ماركس » قدوة يحمدها الماديون التاريخيون ويتمنون الاكثار منها في مجتمعهم الموعود ، او في بيئة من البيئات على اختلاف المعايير والآداب .

كان على أحسنه عندهم موضع اعتذار وتعليل ، ولم يكن في أخلاقه قط موضع اكبار واقتداء . .

كان الطالب « كارل ماركس » يهمل دروسه ، وينقطع عن معهد الدراسة اسابيع متواصلة ، ويبدل منهجا من مناهج التعليم بمنهج غيره ثم لا ينشط للمنهج الجديد الا ريثما يبدله ويتعلق بآخر يهدم به ما بناه بالامس كما قال ابوه .

وقد كان أبوه ـ على سنة الآباء أجمعين ـ يميل الى حسن الظن ، أو يلقي في روعه أنه يحسن الظن به ليستبقي عنده بعض الثقة برأيه ، فلا يركب رأسه على هواه اذا داخله اليأس من جانب أبيه . . فكان يوحي اليه بالنصيحة من خلال النقد والثناء ، ويقول له انه يسهر الليالي الطوال في بناء الآراء وهدمها ، وينقطع من الجامعة لمتابعة هذه الآراء التي لا تطرد على وتيرة ولا تنتهي الى طائل ، وحقيقة الامر انه ينقطع عن الجامعة لغير ذلك السبب في كثير من الاحيان ، وانه كان يسترسل في سهراته مع غواة اللهو والعربدة ، ويهجر البلدة كلها ـ بلدة « بون » مقر الجامعة ليذهب الى « كولون » في جوارها ويبتغي فيها من ملاهي السهر ما لم يكن ميسورا له تحت الرقابة الجامعية . وحدث في بعض هذه السهرات انه سيق الى دار الشرطة مع جماعة من السكارى لافراطه في السكر والعربدة . وأنه سيق الى المبارزة مرة أخرى ، وتبين من تقريرات الشرطة انه استخدم الاسلحة النارية فيها[1]

---

(١) من كتاب البروسي الاحمر باسناده الى مصدره الالماني ed Prussian Max — Englez — Gesamt Ausgabe

وقد جرت عادة « ماركس » في كتابته الاقتصادية أن يطلق اسم « الرعاع » على علماء الاقتصاد الذين يقنعون بالظواهر ولا ينفذون الى بواطن الحركات الاجتماعية ، كما تبدو له في دراساته التي يميزها دون غيرها باسم الدراسات العلمية . فاذا استعيرت هذه التسمية للباحثين في أطوار « الشخصيات » فلعلها تنطبق على أولئك المترجمين الذين كتبوا سيرة « كارل ماركس » وأرادوا أن يفسروا تقلبه بين الدراسات فأقنعتهم كلمة « القلق » او« الجموح » ولم يشعروا بالحاجة الى تفسير وراء هذا التفسير الذي يصح فيه انه من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء . . لأن القلق هو التقلب ، والتقلب هو القلق ، بغير فارق كبير في مصطلحات القاموس او مصطلحات العلوم النفسية ، وشبيه بهؤلاء المفسرين نظراؤهم الذين يفسرون هذا القلق باختلال البنية ولا يذهبون وراء هذا الاختلال الى دخائل النفس لفهم بواعثها وغاياتها . . وما كان اختلال البنية بصالح لتفسير عمل من الاعمال ، او توضيح ترجمة من التراجم ، الا حين ينتقل من أسماء الامراض والاسقام الى أسماء الاخلاق والعادات .

وظاهر اننا لا نفهم شيئا من كلمة القلق ، أو كلمة الاختلال ، اذا أردنا أن نفسر بها تقلبه من دراسة القانون الى دراسة الفلسفة الى دراسة المذاهب الاقتصادية ، ولكننا نفهم بواعث هذا التقلب اذا فهمنا أن شهوة الهدم والنقمة لا تجد لها منفسا تستريح اليه في دراسة القانون او الفلسفة . . وأن مبادىء القانون أو الفلسفة لا تخلق النبوءات الدامية ، ولا تتصل بهياج الثورات والفتن التي تنبعث من غرائز الملايين كما تتصل به مشكلات الاقتصاد ، وصراع الطبقات على الارزاق ، وضرورات المعاش . . وقصارى ما ينتهي اليه الباحث في دقائق الشريعة والقانون ان يكشف منها اخطاء يدركها الفقهاء والمشرعون ولا تتعداهم الى جمهرة المتقاضين من سائر الطبقات ، وغاية ما ينتهي اليه الباحث في دقائق الفلسفة أن يغوص الى الاعماق ويقنع الفلاسفة أو صلاب المذاهب الفلسفية برجحان فكرة على فكرة ، وصحة قياس من الاقيسة المنطقية وبطلان قياس سواه .

أما مشكلات المعاش ـ ولا سيما في عصر « ماركس » أو عصر الثورات ـ

ففيها منفس واسع لشهوة النقمة والبغضاء ونعيب الهدم والخراب ، وفيها وسيلة قريبة بل وسائل شتى لخطاب الغرائز والضغائن وللانذار بالويل والثبور في أمد قريب أو بعد أمد منظور .

ان طبيعة « كارل ماركس » لم تجد ما يريحها في مذاهب القانون ولا في مذاهب الفلسفة ، ولكنها سرعان ما انتقلت الى مذاهب الاقتصاد حتى وجدت هنالك بغيتها . . ولم تفهم هذه المذاهب الا من الناحية التي تملي لها في شهوتها وتنفس بها عن ضغائنها وأحقادها ، وصح عندها كل فرض ينتهي الى العداء والبغضاء ، وبطل عندها كل فرض يبعد هذه النهاية أو يشكك فيها أو يشير الى طريق غير طريقها . . فلا مقياس من العلم ولا من التجربة ولا من النظر لتلك المقدمات التي تفترق ما تفترق ثم تلتقي عند الامنية المشتهاة باسم التقدم والاصلاح ، وانما المقياس الذي لا يخطىء أبدا لكل فرض من فروض المادية التاريخية انه مقدمة محتومة للعاقبة المشؤومة ، ومنفس واسع لشهوة النقمة والعدوان .

***

من تلك التلمذة ـ ولا تلمذة غيرها في نشأة « كارل ماركس » ـ سلمت له دعوى العلم الذي احتكره لمذهبه الاشتراكي بين جميع المذاهب الاشتراكية التي عرفت في عصره وقبل عصره . . وما من مفكر اشتراكي من أولئك الواهمين او الحالمين ـ أو الرعاع في رأيه ـ الا كان له نصيب من العلم لا يقل عن هذا النصيب ان لم يزد عليه .

ولما حصل على لقبه العلمي الذي كان يعتز بصيغته اللاتينية ، لم يحصل عليه من جامعة تعلم فيها وانتظم بين طلابها ، ولم يحصل عليه بعد مناقشة في موضوعه وامتحان لبراهينه وأسانيده ، ولكنه حصل عليه بالمراسلة في جامعة « جينا » الالمانية ، وهي الجامعة التي كان لها نظام يسمح بقبول البحوث من المراسلين بعد سداد رسومها واجازتهم عليها بالالقاب في غيبتهم بغير اشتراط الحضور في أيام التحصيل ولا في يوم محدود للمناقشة والامتحان .

جاء في كتاب « البروسي الاحمر »[1] باسناده الى المرجع الالماني السابق :

« . . كانت هناك جامعة جينا في دوقية فيمار الكبرى ، وكانت تقاليدها اخيرا تسمح باجازة الامتحان بالمراسلة ، فلا تشترط حضور الطالب اليها ولا يتطلب الامر الا ان يرسل أطروحته مع الوثائق اللازمة عن طريق البريد فترسل اليه الشهادة . . وكذلك فرغ من الاطروحة وأرسلها الى الجامعة في السادس من شهر أبريل سنة ١٨٤١ بعنوان عميد قسم الفلسفة ، فوقع العميد شهادة الدكتوراه بتاريخ الخامس عشر من الشهر للدكتور كارلوس انريكوس ماركس التريفيني . . » .

* * *

وتوفي « هنريك ماركس » رب الاسرة ، وابنه الاكبر « كارل » يختتم مرحلة الدراسة الجامعية . فانتهى دور الطالب وابتدأ دور الولي المسؤول عن أسرته في وقت واحد . . لانه كان كما تقدم اكبر الابناء الذكور ، فانتقل اليه عبء القيام على شؤون الاسرة بعد أبيه .

ولا يخفى ان عاطفة الاسرة عنوان صادق لعاطفة الانسان في الاسرة الاجتماعية أو الاسرة الانسانية الكبرى ، فلا يكون الانسان مسلوب العاطفة مع أسرته موفور العاطفة مع غيرها من أبناء نوعه أو أبناء جلدته على التعميم . ومهما يكن من رأي الماديين في نظام الاسرة ، فالاقربون على كل حال ناس كسائر الناس ، ان يكن بينهم وبين غيرهم فارق في العلاقة فهم أدنى الى العطف المتبادل بينهم من جمهرة الغرباء .

وقد ارتبط « كارل » بعلاقات الاسرة جميعا مكفولا في رعاية أبيه وكافلا لاقربائه وذويه ، فكشف عن خلتين ملحوظتين في جميع علاقاته بأسرته : غلبة الانانية ، والتقصير في الواجبات . .

أرهق أباه بطلب المال وهو طالب منقطع عن الدراسة يغيب أكثر الوقت عن جامعته بل عن البلدة التي فيها الجامعة واسترسل في هذا السرف بعد علمه بحاجة أبيه الى المال لانفاقه على علاجه وعلاج ابنه المريض بعد عجزه عن

---

(1) The Red Prussian

الكسب واعتماده على المدخر لديه من كسب شبابه ، ونبهه ابوه غير مرة الى القصد في مطالبه والاعتدال في نفقاته فلم ينتبه ولم يقصر عن تكرار الطلب على عادته من يوم اغترابه عن أهله ، فكتب اليه آخر الامر ضجرا من هذه اللجاجة أو هذه الاثرة التي كان يقول انها وصمته البادية على صفحته ، وصارحه بالتأنيب الشديد قائلا : « ماذا تظن ؟ أتراك تحسبنا مخلوقات من الذهب !» .

ثم مات أبوه - وهو في برلين - فلم يكلف نفسه مشقة الانتقال الى بلده - وهو رب الاسرة بعد ابيه - ليواسي أهله واخوته الصغار ويقوم على تدبير شؤون الاسرة كلها بعد فقد عائلها ، ولم يشغله في هذه المحنة العائلية شاغل يباليه غير طلب الحصة التي يستحقها من ميراثه منجمة على حسب اقساطها الميسورة أولا فأولا بعد احصائها .

واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث ، فمال على نصيب أمه واخوته ، وكانت أمه ترجو أن يغنيهم بكسبه او يكفيهم على الاقل مؤنة نفقاته ، فاذا هو عالة عليها يجور بمطالبه التي لا تنتهي على رزق اخوته المفتقرين الى السند والعائل بغير أمل في مورد جديد من موارد الكسب يعولون عليه .

وضاقت أمه ذرعا بهذه الانانية العمياء ، وهذا الكنود الشديد في ولدها الاكبر الذي كانت ترجوه لها ولبنيها الصغار بعد أبيهم ، وغضبت معها أخته « صوفي » التي كانت تدلله وتعزه بين لداتها اعزاز البنات لاخوانهن الكبار ، فكتبتا اليه تنذرانه بقطع المدد عنه ، وقالتا له بصريح العبارة : « انك الآن في الرابعة والعشرين فاعتمد على سعيك في كسب رزقك ، ولا تنتظر بعد اليوم مددا نقتطعه لك من قوت أهلك »[1] . .

وكف - آخر الامر مضطرا - عن الطلب ، ولكنه لم يكف عن الاستعارة من أقربائه وأصدقائه ومنهم زوج اخته وأقارب ذلك الزوج ، ومنهم قريبه العم « فيليبس » وزميله في الدعوة « انجلز » وزميله الاخر « أنينكوف » .

---

(١) تراجع اسانيد « البروسي الاحمر » الالمانية والرسائل المتبادلة بين « ماركس » و« انجلز »

وكانت الاستعارة ـ غير المردودة ـ وسيلته التي لا وسيلة غيرها في معاشه ومعاش زوجته ، حيث كان وحيثما انتقل بين المانيا وفرنسا وهولندا وانجلترا التي كان يهجرها ليعود اليها دواليك كلما استغلقت عليه أبواب الاستعارة فيها .

وتقبل من المعونة ـ بل من الاحسان ـ ما لا يقبله رجل ذو كرامة ، فكان زملاؤه الذين يضيقون بطلباته المتلاحقة يحيلون عليه الاعمال التي تطلب منهم فيقبلها وهو لا يحسن اداءها ليحيلها على من يحسن هذا الاداء ويستولي هو على اجورها . .

ففي سنة ١٨٤٨ زار « دانا » مدير صحيفة نيويورك تربيون مدينة كولون فقدمه اليه زميله « ف فريلجراث » . . ثم عاد « دانيا » بعد ثلاث سنوات الى لندن ، فالتقى ب« فريلجراث » وسأله أن يكتب الى التربيون خلاصة التعليقات السياسية في القارة مرتين كل أسبوع . فأحاله « فريلجراث » الى « ماركس » وقبل « ماركس » هذه الاحالة مع جهله بالانجليزية ، وعاد فأحال العمل كله الى صديقه « انجلز » على كثرة شواغله وتبرعه باعالته ـ او اعارته ـ بما كان يومئذ في وسعه . ولم يمض غير قليل حتى تبين لهم جميعا انه مورد ضئيل لا يكفل لـ «ماركس » وأسرته معيشة الكفاف ، لان مدير الصحيفة كان يسقط كثيرا من الرسائل ولا يحتسب الاجر الا على الرسائل المنشورة ، عشرين شلنا لكل رسالة تأتي بعد مراجعة المهمل والمنشور ![1] .

كان رب الاسرة عالة على اسرته في كهولته ، كما كان عالة على اسرته في طفولته وصباه . . وكان الرجل الذي يحارب التطفل الاجتماعي طفيليا في كل مجتمع أصيل او دخيل نزل فيه .

ومما يذكر على الخصوص في سيرة رب الاسرة الذي يحارب الملكية ، ويحسبها سرقة أخبث من سرقة اللصوص وقطاع الطريق ، انه رد خطيب بنته « لورا » ريثما يتحقق من صحة ميراثه ، ومن كفاية هذا الميراث للتعويل عليه في طلباته . . وكان هذا الخلاسي « لافارج » ابن مالك من ملاك الاقطاع في

---

(١) كتاب « روهل » عن حياة « كارل ماركس » وعمله

امريكا الجنوبية ، تعلم في جامعة باريس وأرسلته الجامعة الى لندن في بعثة خاصة ، فتعرف الى « ماركس » وفتاته هناك .

واذا كان الجو العاطفي في الاسرة دليلا على حظ أبيها من العطف والحنان وشعور الاخلاص بينه وبين خاصته وذويه ، فقد كان « كارل ماركس » اعجز الناس عن الهام صغاره سجية من سجايا العطف والمودة تجعل للحياة معنى غير معنى المنفعة العاجلة ، والاثرة المتحكمة ، وسوء الظن بكل نبيل جليل من العواطف الانسانية . . فماتت ابنته « لورا » هذه واختها « الينورا » منتحرتين بعد حياة مضللة على غير هدى . ولم تنتحرا من البؤس في دار ابيهما . بل اقدمتا على بخع نفسيهما بيديهما بعد مفارقة الدار ، هذه مع زوجها الخلاسي وتلك مع عشيقها « افلنج » الذي ظهر لها بعد معاشرته انه هجر زوجته واخفى عنها زواجه قبل معاشرتها . وكانت « الينورا » هذه مخطوبة للكاتب العالمي المعروف « برناردشو » فرفضته ، وتعلقت بذلك الافاق قانعة معه بعلاقة الخليلة والخليل ، مؤثرة لها على علاقة الزوجة والزوج مع رجل مستقيم الخلق والسمعة .

ولقد كان انتحار اختها « لورا » لسبب اعجب من الخيبة في هواها ، فاتفقت هي وزوجها على الانتحار معا فرارا من الشيخوخة التي تحرمهما متعة الشباب ، وقضت الفتاتان على حياتهما في السن التي تلوذ فيها النفس الانسانية بالعاطفة العامرة التي تجعل للحياة معنى فوق معنى اللذة ونزواتها ، وتتغلب به على متاع الانانية والاثرة العاجلة . .بحثتا عن هذا المعنى ابان الحاجة اليه فلم تجداه لانهما لم تفهماه ولم تحساه في البيت الذي نشأتا فيه ووجدتا في موضعه نظرة يائسة الى الناس والى الدنيا ضللتهما في كل اختيار يرجع فيه المرء الى هداية العاطفة الصادقة والضمير السليم .

لا جرم كان في مصطلح الاسرة كلما فارقت بنت من بناتها دار ابيها انها نجت من محنة الجوع والضيق . .

---

(١) من كتاب « روهل » عن « ماركس وحياته »

ثم تحسنت حال « انجلز » شريك « ماركس » في الدعوة الشيوعية لأنه استقل بعمله ، وتمكن من توظيف مبلغ من المال في السنة لمعيشة زميله لا يقل عن ثلثمائة وخمسين جنيها بعد سداد ديونه وتنظيم داره وتسوية الخلاف بينه وبين المتعاقدين معه على الاعمال المهملة والمشروعات المعطلة ، وصدق فيه قول ابويه انه سيعيش عالة على الناس ما عاش ! . .

***

وربما خطر على البال ان الرجل كان يهمل الاعمال التي يكسب منها ضرورات معيشته ، لانه كان يعكف على العمل في نشر دعوته وتدوين فلسفته واداء رسالته ، ويشغله هذا العمل عما عداه من تكاليف السخرة المفروضة عليه في غير ما يرتضيه !.

ولكن الواقع ان العمل الذي كان يهمله انما هو عمل الدعوة في صميمها ، وأوله كتاب « رأس المال » انجيل المادية التاريخية كما يسميه الشيوعيون ، وقد مات « ماركس » وهذا الانجيل ناقص في أهم نظرياته والزمها لاثبات المذهب « العلمي » وترجيحه على مذاهب الاشتراكيين الرعاع والاشتراكيين المتعلقين بالاحلام . . مات « ماركس » ولما يستوف « انجيله » بحثه الموعود في نظرية الثمن والعمل ونظرية صراع الطبقات .

كان بعض معارفه قد أشفقوا عليه ، أو ملوا منه الطلب وراء الطلب بغير وفاء ولا انتهاء . . فأقنعوا الناشر « لسكي » بالاتفاق معه على تدوين نظرياته الاقتصادية التي تدور عليها نظم السيادة والحكم في المجتمعات البشرية ، وتسلم « ماركس » في ثمن الكتاب ألفا وخمسمائة فرنك سنة ١٨٤٤ ، وانقضت أربع عشرة سنة ولم يظهر الكتاب واذا بـ « كارل ماركس » يعقد مع الناشر « دنكر[١] » اتفاقا آخر على تأليف الكتاب نفسه ، ولم يكن « دنكر » يعامله من قبل ، ولكنه عامله في هذه الصفقة بوساطة « لاسال » لانه كان يطبع له الكتب والمنشورات .

Dunker (1)

ومضت السنون ولم ينجز « ماركس » اتفاقه مع الناشرين[٢] .

وكان من المنظور بعد ضمان « ماركس » لمورد رزقه من معونة « انجلز » أن يفرغ لاتمام بحوثه واستيفاء الفصول الناقصة من كتاب رأس المال . . ولكنه ما كاد يضمن المورد بلا عمل ، حتى أعفى نفسه من كل مجهود وترك العمل كله ليستسلم لمكائد البطالة والفراغ .

***

وأعجب ما في دعاوى هذا الرجل دعواه على زعيم الفوضوية « باكونين » بعد أن أحس من جانبه خطر المنافسة والسبق بين زمرتهم الى منزلة الثقة والكرامة . . اثار عليه حملات التشهير واجتهد اجتهاده في التنقيب عن جريمة يعزوها اليه ، فماذا وجد ؟ . . وجد ان « باكونين » دنس سمعة الاشتراكيين ، لانه اتفق مع ناشر في روسيا على ترجمة كتابه ، ولم ينجز ترجمة الكتاب ! .

ومطلع حياته كختام حياته سواء في تسخير المذاهب للوقيعة أو للوصول ، ففي مطلعه كانت تصدر في بلاد الرين صحيفة تسمى « رينش جازيت » تتطرف في دعوتها الى الاشتراكية ، فأنذرتها الحكومة بالاغلاق اذا هي لم تعدل عن خطتها ولم تخرج منها الكاتب المسؤول عن سياستها . . . وكان شابا من اصحاب « كارل ماركس » اسمه « روتنبرج » فلما سئل عن رأيه في موقف الحكومة اشار باخراج زميله ، وقبل ان يتولى تحرير الصحيفة بعده . . وتولى التحرير فعلا على خطة جديدة تنحي على الاشتراكية والاشتراكيين ، واعداد الصحيفة محفوظة بحملاتها الى اليوم[١] .

فالدعوة الى المذاهب لم تكن شغلا له يشغل به جميع اوقاته ، ويتحين الفرص لانجازه وتمكين حجته وسد خلله . . وانما كان كل همه منها ان يتزعمها ويحتكر شهرتها ويحيط نفسه بحاشية من اتباعها واذنابها ، وينحي عنها

---

(١) « البروسي الاحمر »

(٢) « البروسي الاحمر »

كل من بزغ له نجم لامع فيها او استطاع ان يتقدم صفوفها . . ولعل اعدى اعدائه وأبغض الناس اليه من كان يخدم تلك الدعوة او يخدم دعوة من قبيلها ، فلا شكر لهؤلاء عنده ولا صداقة ولا رعاية . . وكل جزائهم عنده ذم وتشهير وانتقاص واتهام ، يعلم هو قبل سواه مبلغه من الصدق والثبوت . فيتعلل لهذا بسوء الفهم ويتعلل لذاك بسوء النية ويتعلل لغيرهما بالرياء والنفاق او بالوهم والاختلاق ، ولم يسلم من ضغينته قط أحد من هؤلاء بغير استثناء .

فـ « برودون » كان عنده سخيفا مسوغا للسرقة والملكية بأسلوبه ، عاجزا عن تفنيدهما بأسانيده وبراهينه . . و« كارل جرون » دخيل على الحركة مستغل لافكارها المبتكرة في سبيل العيش والمجاملة . . و« ليبكنخت » خائن لزعامته ملفق لآرائه منتفع باسمه على الرغم منه . . و« لاسال »ـ صاحب الفضل عليه في التعاقد مع « دنكر »ـ زنجي بدم الوراثة متهم الجدات والامهات بالفسوق الذي تشهد به ملامح وجهه وسيماه .

وصهراه « لونجويه »و« لافارج » خالفاه ولم يتبعا خطاه ، فكتب الى « انجلز » يلعنهما ويقول عن الاول انه خليفة « برودون » وعن الثاني انه خليفة « باكونين » ، والى الشيطان فليذهبا معا ملعونين مدحورين !

و« باكونين »ـ كما تقدم ـ جاسوس مختلس بغير بينة بل على نقيض البينة . ولا يكف عن الكيد له حتى يصدر الحكم عليه من لجنته بالفصل من زمرة الاشتراكيين .

كلهم هكذا بغير استثناء . .

أنقول بغير استثناء ؟ . . نعم بغير استثناء ، الا استثناء واحدا دل على خسة هذه الطبيعة المدخولة من كل خسة تشهد بها ضغائنه ومفترياته . . لان هذا الاستثناء الواحد في جميع حياته ، وبين جميع ابناء عصره ، هو استثناء الحاجة على الرغم وقلة الحيلة .

كان « انجلز » دون غيره من المخلوقات البشرية ، ومن العاملين على نشر الدعوة الاشتراكية قبل غيرهم ، هو الاستثناء الوحيد من حملات المذمة

والضغينة ، لانه يعول « ماركس » وينفق عليه وعلى اسرته ، ويتكفل بسداد ديونه وتنظيم شؤونه ، فهو جريء بالذم والاتهام على جميع خلق الله حين يأمن الضرر والخسارة ، ولكنه يحسن الادب ـ على رغم ـ حين يلجئه الكسل والفضول الى قبول الاحسان اياما وشهورا وأعواما بغير انتهاء . فلا سخافة هنا ، ولا خيانة ، ولا عقلية برجوازية او رعاعية . . ولكنها العصمة كلها من جميع النقائص والاخطاء ولا يسلم من هذه الضغينة ناجح في نشر الدعوة ، وان لم يكن من الزعماء المنافسين لصاحب المذهب وامام المادية التاريخية . . ولو كان في صدر « ماركس » متسع لقبول عمل العاملين لكان احرى الناس أن يتقبل منهم العمل على نشر الدعوة طائفة الصناع أو « الصعاليك » المنذورين لقيادة المجتمع الحديث واقامة النظام الاجتماعي الخالد على الزمن الى غير انتهاء . ولكن واحدا من هؤلاء جاوز حده واغتر بثناء الزعماء عليه ، فراح حيث ذهب الى البلاد الالمانية يحرض عمالها على الاضراب ، واشتهر من ثمة بينهم باسم زعيم العمال الالمان . فحاقت به اللعنة من جراء هذا الجهد الناجح وسيق الى مجلس المحاكمة لسؤاله عن جنايته على شرذمة العمال الذين حرمهم الشغل والخبز بتحريضه اياهم على مطالبة أصحاب المصانع بزيادة الاجور ، كأنما كان في الوسع ان يقدم العمال على الاضراب بغير مجازفة تعرض اناسا منهم للبطالة او ترك العمل الى حين . . وكأنما قامت الشيوعية على ذريعة لتحقيق مبادئها غير هذه الذريعة في جميع دعايتها ، وهي التي انكرت الوسائل الدستورية في المطالبة بحقوق الطبقة العاملة ، ووصفت من يعتمد عليها بخيانة هذه الطبقة وتضليلها عن الهدف الوحيد الذي لا محيد عنه لكل اصلاح جدير بالعناء من طلاب الاصلاح المخلصين .

***

ونعرض بشيء من التفصيل لقصته مع العامل المغضوب عليه لانها أغرب من قصصه مع « برودون » و « جرون » و « باكونين » واشباههم من أعلام النابهين الذين يناظرونه ويناظرهم وينفس عليهم شهرتهم ورواج آرائهم . . فلو كانت في هذه النفس طوية من المروءة تطيق نجاح احد في نشر الدعوة الاشتراكية

لكانت خليقة ان تطيق ذلك العامل ، ولو من قبيل المثال لما يبشرون به من دولة العمال ، ولكنه غشم في الطبع لا يستريح لغير النقمة والحسد ولا يغتفر الوزر لمن يعترض لنقمته وحسده . وقد نجح العامل المغضوب عليه ، فما زال به زعيم المذهب حتى ساقه الى المحاكمة ، وعومل في زمرته بغشم لا يحمدونه ولا يحمده أحد لاسوأ مجتمعات الاستغلال والاستبداد ، ومن أجل استبداد هذه المجتمعات واستغلالها كانوا يثيرون الثائرة ويقيمون القيامة كما يقولون .

يسمى العامل المطرود من الزمرة الماركسية « ولهلم ويتلنج » ولا يعلم له اسم اب معروف لانه تربى في حجر غسالة المانية حملت به سفاحا من ضابط في جيش نابليون ، لم يلبث ان هجرها وهجر الطفل فكبر بين لداته وهو يعلم انه ابن سفاح ويمقت الجيش والجندية ، وحان موعد تجنيده فهرب من الحي وتعود في مخابئه ان يطيل القراءة فيما اتفق له من الكتب والنشرات .

وكان يأوي منذ صباه الى طرزي يتعلم منه صناعته ، فجعل يعاود هذه حتى أتقن منها ما يحصل به على بعض الاجر ولا يكاد يستقل به عن اصحاب الدكاكين ، وزين له الغرور في السابعة والعشرين ان يجرب صناعة التأليف فكتب رسالة عن « الانسانية كما هي وما ينبغي أن تكون » . وزج بنفسه بين اتباع « بابوف » الداعية الفرنسي الذي ثار على الثورة لانها لم تذهب الى المدى الذي كان ينبغي أن تذهب اليه ، ولم تبدأ بالمساواة الاقتصادية قناعة منها بالمساواة السياسية ، وصودرت صحفه ومنشوراته فألف جماعته السرية وانكشف أمره بوشاية واحد من هذه الجماعة فقضي عليه بالموت بعد محاكمة طويلة « ١٧٦٠ ـ ١٧٩٧م » ولكنه ترك بعده شيعة أمينة لدعوته لم تزل بين تبديد وتجديد حتى انتمى اليها « ويتلنج » مع طائفة من الالمان الذين هجروا بلادهم فرارا من الاضطهاد ، ولجأ « ويتلنج » نفسه الى الفرار بعد حين من فرنسا الى سويسرا ، فقضي عليه هناك بالسجن لانه كتب فيها رسالة يشبه فيها نفسه بالسيد المسيح ، لانه صانع فقير يبشر بالاشتراكية ولا ينتمي الى نسب من بني الانسان .

ثم امتزجت حركة « بابوف » بحركة الاشتراكيين والماركسيين ، فانتمى

« ويتلنج » اليها والف كتابا سماه « ضمانات الوئام والحرية » قرظه « ماركس » وقال انه باكورة رائعة من بواكير الطبقة الالمانية العاملة ، وزكاه آمنا عواقب هذه التزكية لان أحدا من الناس لم يكن ليأخذ هذه البواكير مأخذ الجد في عالم التأليف ! .

الا ان « ويتلنج » لم يقصر جهوده على الكتابة التي لا خوف منها على مكانة الامام المقدم في مذهب الاشتراكية العلمية ، بل طمح « ويتلنج » بعد التأليف الى العمل المباشر ، وجمع حوله شرذمة من العمال البابوفيين والفوضويين والماركسيين يدينون له بالزعامة لانه يحسن الكلام والكتابة ، وتمادى في العمل المباشر حتى دعا الى الاضراب والمقاطعة الصناعية تطبيقا لمبادىء « الاعمال المباشرة » في مذهب الشيوعيين ، وكان في بروكسل من بلاد البلجيك يوم قرر « ماركس » دعوته الى مجلس من مجالس الحزب العليا « للمناقشة فيما يمكن الاتفاق عليه من تنظيم حركة العمال الشيوعيين » .

وعقدت هذه الجلسة « يوم ٣٠ من شهر مارس سنة ١٨٤٦ » برئاسة « كارل ماركس » وحضور زميله « انجلز » وطائفة من الثوار الموثوق بهم في المدينة من كل مهاجري الامم الاوربية ، ومنهم الشاب الروسي « انينكوف » الذي كان يتنقل بين البلاد الاوربية ويحمل الى « كارل ماركس » خطاب توصية من زعماء الثورة في بلادهم ، وهو الذي دون محضر هذه الجلسة وأثبت فيه أحاديث « ويتلنج » و« ماركس » فيما دار بينهما من الحوار . .

قال : « كان الخياط المهيج « ويتلنج » شابا اشقر وسيما يلبس معطفا فضفاضا ويرسل لحية لم يحفل بتهذيبها : ويخيل للناظر اليه انه سمسار متجول وليس بالعامل الثائر المتنمر الذي يظنه السامع بسيرته .

« وبعد ان تعارف بعضنا الى بعض عرضا ، وبدا « ويتلنج » خلال هذا التعارف في مظهر متكلف من الادب والمجاملة ، جلسنا الى مائدة خضراء صغيرة وجلس « ماركس » على كرسي الرئاسة فيها بجمته التي تشبه لبد الاسد ، منحنيا على ورقة امامه وبين اصابعه قلم من رصاص . وكان زميله

الملازم في الدعوة « انجلز » الطويل المعتدل القامة بهيئته الانجليزية الوقور ـ هو الذي افتتح الجلسة بحديث عن ضرورة التفاهم بين طلاب الاصلاح من العمال على رأي واضح بين الاراء المتناقضة ، وعلى خطة مرسومة يتخذونها علما لهم يحومون حوله ، وينظر اليه اولئك الانصار الذين لا يتاح لهم الوقت ولا القدرة على بحث المسائل النظرية باجتهادهم . .

ولم ينتظر « ماركس » حتى يفرغ « انجلز » من خطابه ، بل رفع رأسه فجأة وقذف « ويتلنج » بهذا السؤال :

ـ أنبئنا يا « ويتلنج » . . . انك أثرت الشغب بدعايتك بين العمال الالمان وجمعت منهم طائفة اتبعتك فخسرت من جراء ذلك اعمالها واقواتها ، فما هي حجتك التي تسوغ بها نشاطك الثوري وبأية قاعدة تدعم ذلك النشاط ؟

وتلت هذا السؤال مناقشة اليمة لم تطل على كل حال كما سنرى من هذا البيان . .

وبدا ان « ويتلنج » يؤثر ان يجري المناقشة على اساس العرف الشائع من الخطابة الحرة ، وابتسم بسمة الجد والقلق حين أخذ يقول ان مهمته لم تكن تفرض عليه ان يبتدع نظريات جديدة في علم الاقتصاد ، وانما كانت مهمته ان يتبع الخطط التي كان يلوح من الاحوال الجارية في فرنسا انها اوفق الخطط لفتح اعين العمال على شؤونهم الجائرة وعلى المساوىء التي كانوا يبتلون بها . .

« واطال الكلام فأدهشني على خلاف ما توقعت ، انه لم يتكلم كما تكلم « انجلز » في وضوح وسلاسة ، بل اختلط عليه القول وطفق يكرر عباراته ويعود الى تصحيحها ويسبق النتائج التي تنبني على حججه او يتعجلها » .

قال « انينكوف » : « انه كان يواجه في هذا الاجتماع جمهورا مغايرا كل المغايرة لذلك الجمهور الذي الف مخاطبته في دكانه وقبوله لكتاباته ، وكان ولا ريب وشيكا ان يسهب في القول فوق اسهابه لو لم يبادره « ماركس » بنظرة مغضبة وهو يصيح به متهكما : « انه لمن الخداع السهل ان تثير الشعب بغير مبالاة بعمله ، وان ايقاظ الامال الخيالية لن يفضي يوما الى خلاص المظلومين

بل يفضي على النقيض الى ضياعهم وخذلانهم ، وان ذهابك الى صناع المانيا على غير قاعدة علمية ولا نظرية قائمة لا معنى له الا انه لعب فارغ بالدعاية مجرد من محاسبة الضمير ، ولا نتيجة له الا خلق رسول داعية من جهة ، واجتماع قطيع من الحمير يستمع اليه فاغر الافواه من جهة اخرى » .

واضاف « ماركس » الى ذلك ـ وهو ينظر الى الكاتب « انينكوف » « ان دور « ويتلنج » كان قمينا ان يجدي جدواه في بلاد كروسيا ، ولكنه في البلاد المتمدينة كالمانيا لا جدوى منه بغير الاستناد الى النظريات القائمة » .

« واحمر وجه « ويتلنج » الاصفر واصبح كلامه حاميا مباشرا ، وقال بصوت يرتعش من الهياج : « ان الرجل الذي ينجح في جمع مئات من الرجال الى نداء العدل والتضامن والمحبة الاخوية ، لا يمكن ان يوصف بأنه رجل خاو ذو دعاية فارغة ، وانه يستطيع ان يعزي نفسه امام الحملة التي تنصب عليه تلك اللحظة بذكر المئات من الرسائل الشاكرة والبيانات الراضية التي تقاطرت عليه من بلاده ، وان جهوده المتواضعة في خدمة المصلحة المشتركة لأهم من التخريجات النظرية الدقيقة التي تبتعد كثيرا عن ناحية الشعب المهضوم والجماهير المظلومة .

« وثارت ثائرة » « ماركس » بعد سماع هذه الكلمات الاخيرة فضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة هزت المصباح عليها ، ووثب محنقا وهو يصيح : ان الغباء لم يسعف احدا قط . .

« واقتدينا به فنهضنا وقوفا وانتهت الجلسة بذلك » .

وقال « انينكوف »: انه اسرع الى توديع « ماركس » وتركه حين انصرف من الحجرة وهو في هياجه يذرعها جيئة وذهوبا . . » .

وواضح من هذا المحضر ان العامل المغضوب عليه فوجىء بالمحاكمة وبالحكم في وقت واحد ، وختمت حياته السياسية في رأي زمرته لغير مخالفة تستطيع ان تحاسبه عليها ، لانها لم تبسط امامه خطة مقررة يحاسب على مخالفتها ، وانما انعقدت الجلسة للاتفاق على هذه الخطة ودعي « ويتلنج »

اليها للتفاهم على هذا الاتفاق ، وقضى « ماركس » قضاءه المطلق في مصير الرجل بين جماعته حاكما بأمره واثقا من تأييد قضائه ، وكل هذا في دعوة لم يكن لها من موجب وليس لها من حجة غير انكار الاستبداد وضمان حق الضعيف الاعزل في وجه الحاكم المستبد وصاحب المال الغشوم .

***

ان « هنريك ماركس » لم يسمع بغير القليل من هذه الفعال وهذه الاخبار حين قال عن ابنه ـ وفي قلبه غصة « ان الانانية غالبة عليه وانها وصمة أو لطخة على صفحة نفسه » .

هذا اقرب الناس نسبا اليه : واقربهم اليه فكرة ، زميله « انجلز » الذي سمع الكثير من تلك الفعال وتلك الاخبار ، وعرف من خلاله ما عرفه ابوه ولكنه كاد ان يخفيه عن ضميره حتى صدمه في إبان حزنه تلك الصدمة فلم يكتمه انه جامد الشعور يخفي جمود شعوره بالتعالي على خلق الله .

ويأتي بعد هذين كاتب من كتاب التفسير المادي للتاريخ يعلم ما علمه الاب والزميل ، وزيادة عليه مما أضافه الزمن الى سيرة استاذه ، فلا يرميه بأقل من خلة الحقد والتقلب واختلال الارادة .

فماذا يقول التاريخ وهو ينظر الى الرجل بعين غير عين الاب او عين الزميل أو عين التلميذ . .

انه لا يستطيع أن يزوي بصره عن تلك الخلال التي تتمثل له حيثما نظر الى علاقة من علاقاته الاجتماعية ، لان تلك الخلال التي تجمعها « الانانية » الناقمة تملأ فراغ نفسه فلا تدع فيها متسعا لغيرها ، ويكفي ان يكون الرجل كذلك ليكون كما كان بغير حاجة الى سر آخر غير ذلك السر المتكشف للعيان . . انه لم يكن صالحا في علاقة من علاقاته الاجتماعية ، لم يكن الطالب الصالح ، ولا الابن الصالح ، ولا العامل الصالح لنفسه ولاسرته ، ولا الزميل الصالح في مودته أو خدمة دعوته . . كان فاشلا في كل علاقة من هذه العلاقات الاجتماعية ، ولم يكن منظورا منه شيء غير الفشل فيها ، مع تلك

الانانية وتلك النقمة وذلك الجمود . .

« ولقد كان شخصا منفرا لمن حوله فيما يرجع الى مسلكه بينه وبين نفسه ، لا يقصد فيه المرء صلة بينه وبين احد من ابناء نوعه . .

« كان قذرا يهمل الاغتسال والنظافة ، وكان منظر القروح والثآليل التي تملأ وجهه وعينيه وما ظهر من جلده يزيده قذارة على قذارة ، وكانت هذه القروح والثآليل مما يجنيه على نفسه بتهافته على الاطعمة الممنوعة على الرغم من وصايا الاطباء والحاحهم عليه في اجتناب الطعام الذي لا يوافق المصابين بالكبد : ولا سيما الذين أزمنت فيهم هذه الاصابة من جراء النهم وفعل الوراثة . . وقد نقل « ليوبلد شوارزشيلد » صاحب كتاب البروسي الاحمر نبذة من الرسالة التي كتبها بعضهم الى صهره عن معيشته في لندن جاء فيها « انه شخص مشعث للغاية ، سيء التصرف في اعماله ، يجري في معيشته على نهج المتشردين من المشتغلين بالمطالب الفكرية . . ويندر ان يستحم او يمشط شعره ويغير ملابسه الداخلية ، يشرب كثيرا ويحوم اياما على غير هدى وبغير عمل . فاذا حزبه امر لازب قضى الليل والنهار في العمل : ولا يخطر له على بال ان ينظم ساعاته ومواعيده » .

هذه الرسالة وما في معناها من التقارير محفوظة في دار المحفوظات بمدينة ليبزج نقلها المترجم عن المجلد العاشر من أخبار الاشتراكية الالمانية .

واذا كانت هناك تتمة لهذه الصورة المنفرة ، فهي مسلكه الشاذ الذي لا نظير له في البيئة اليهودية التي نبت فيها ، فانه جمع فيه طرفي النقمة من قومه وعلى قومه في آونة واحدة ، فلا هو بالمسلك الذي يرضى عنه قومه ولا هو بالمسلك الذي يرضى عنه اعداء قومه ، كأنما آلى على نفسه ليكونن بغيضا منفرا حيث كان وكيف كان .

وتقدم من كلام « روهل » ان شعوره بالنسبة لليهودية كان مركبا من مركبات النقص التي يفسر بها تناقضه واختلال احواله .

كان ولا شك يهوديا في أعمق اعماقه ، وكانت زمرته التي يأوي اليها على

الاكثر من شذاذ اليهود ، وأصحاب الفضول منهم ، كما جاء في كلام « باكونين » عنه ، وكان هو يتشبه بالاسلاف والآباء اليهود كما وصفتهم كتب التلمود ، فيرسل لحيته ويطلق جمته ويحب أن يتراءى للناس كأنه أب من آباء العبرانيين في ايام اسرائيل الاولى ، ولكنه لا يكتب عن اليهود واليهودية الا ليحاول ان ينفي عنه ذلك النسب اليهودي ، ولا يجد امامه سبيلا الى التنصل منه غير سب اليهودية والانحاء عليها ، ومن كلامه في ذلك : « ما الاساس العالمي الذي تقوم عليه اليهودية ؟ انه الضرورة العملية وحب المنفعة الذاتية . وما النحلة العالمية التي تنتحلها اليهودية ؟ انها نحلة الطواف والتجوال ، وما الاله العالمي لليهودية ؟ انه المال . . » .

ويجتهد « روهل » في استنباط البواعث النفسية وراء هذه الحملة فيعزوها الى الرغبة في التنصل وتسويغ الخروج على الملة الموروثة . . الا أنه باعث من بواعث شتى يفرضها المترجمون له من انصاره وخصومه ، فمنهم من يرى أن الحملة على اليهودية حيلة يسوغ بها الحملة على الاديان جميعها . . ومنهم من يرى ان هذه الحملة دفع مقدم لتهمة النية المبيتة على هدم المجتمعات القائمة وتسليم زمامها لسماسرة المال بعد تقويض القيم المرعية في تلك المجتمعات من روحية او وطنية او عقيدة خلقية ، منهم من يرى أن الحملة على اليهود من قبيل التحدي لقومه لانه يحس منهم الزراية به وبأهله وبالصابئين عن ملة الآباء والاجداد .

وكل باعث من هذه البواعث شائن معوج متناقض مع دعواه ، ولا سيما الانحاء على اليهودية لانها تقدس الضرورة العملية ، وتنزع الى الطواف والتجول . . فان هذه المذمة اعجب المثالب من رجل يقيم النظام الاجتماعي كله على الضرورات العملية ، ويدمغ الوطنية ـ او حب الوطن ـ بتهمة السخرية والتسخير من تدبير اصحاب الاموال والقابضين بأيديهم على أزمة الانتاج .

وبأي هذه البواعث يأخذ الناظر في ترجمته لا يكون « كارل ماركس » الا ـ كدأبه المعهود ـ مثلا سيئا لليهودي في انتسابه وانتقاضه على بيئته وعلى أصله

الذي لا فكاك منه بحال من الاحوال .

***

هذه صورة تامة ، وان تكن موجزة ، لامام الاشتراكية المادية أو الاشتراكية العلمية ، لم نأت على لمحة من ملامحها البينة من غير مصدرها ، ولم نرجع في تلك المصادر الى اعدائه ومخالفيه الا ان يكون كلامهم مطابقا لكلام الأصحاب والأقربين .

ولا ندري بعدها ماذا يقول القائل في أولئك الذين يتركون الناحية الوحيدة التي ينبغي أن يتجه اليها الباحث قبل كل وجهة تصلح لمناقشة مذهبه او مناقشة دعوة من الدعوات تنضح بها هذه الشخصية المعتلة ، وما يختلف رأيان مستقيمان في طبيعة بواعثها وصبغة تفكيرها وشعورها بما ينكشف للنية وما يأتي على غير وعي أو نية مكشوفة لصاحبها .

كل ما في وسعنا ان نقوله : ان طغيان كلمة « العلم » في القرن التاسع عشر هو الذي وضع هذا المذهب في موضع الفروض العلمية ، وان طغيان كلمة « العلم » قد اقترن به شيوع الثورات التي يقودها اناس من القائلين بالتفسير المادي للتاريخ ، فنسي الناقدون « العلميون » ان عناوين الثورات غير أسرارها ومضامينها وأن كثيراً من الثورات كان شعاره خرافة يردها العقل لاول نظرة ولا تحتمل المناقشة العلمية ممن يجد في احترام العلم والمناقشة .

ولولا طغيان كلمة « العلم » في القرن التاسع عشر وظهور الثورات المسماة بالماركسية في القرن العشرين لما كان للماركسية كلها مكان في البحث غير مكان الظواهر النفسية ، فان الظواهر النفسية كما تمثلت في « كارل ماركس » كافية كل الكفاية لتفسير مذهبه بجميع تفصيلاته وفروعه ومراميه : كل شيء فيه مقرر مؤكد على قدر نصيبه من النقمة ومن اشباع شهوة الحقد والكراهية وكل شيء فيه مرفوض منقوض اذا أبطل تلك الشهوة أو رفع عنها نقابها ونفذ دخيلتها .

وهكذا يفسر كل مبدأ من مبادىء « كارل ماركس » وكل حجة من حججه ،

لانها على أية حال لم تبلغ من الثبوت واليقين مبلغا يهون نقض الدعائم الانسانية القائمة على رؤوس الملايين من الضحايا ما لم يكن ذلك مبنيا على طبيعة مجبولة من الشر والنقمة ، وان أيسر شك في ثبوت تلك المبادىء لحقيق أن يدعو صاحبه الى مراجعة النفس والاناة قبل الهجوم على كوارثه وجرائره بغير حيطة ولا تدارك مستطاع بعد فوات الاوان .

تلك هي الحقيقة السافرة على وجه المادية الماركسية .

تلك حقيقة كل ادعاء يخول رجلا واحدا أن يحيط بقوانين الكون من مبدئها الى منتهاها ، ويجزم بها الجزم الذي لا يداخله شيء من التردد الكثير أو القليل مع وخامة عقباه .

حقيقة انه « ظاهرة نفسية » تتلخص في بضع كلمات : « شهوة النقمة ، والخراب » .

وسترى أن شهوة النقمة والخراب هي التي تصغي بالاسماع الى هذا المذهب الاثيم ، كما كانت هي مصدر الصيحة بوحيه ودعوته ودعواه .

أتباع المذهب

نسبت الى الفلسفة الشيوعية حركات ثورية كبيرة ليست منها ولم تكن نتيجة لها ، فاكتسبت من نسبتها اليها شأنا غريبا اضافه الباحثون الى شأنها في عالم التفكير فبحثوها على هذا الاعتبار ، كأنها فلسفة خطيرة التفكير حقيقة أن تتولد منها الحركات الثورية التي اقترنت باسمها ، ولولا ذلك لانزوت الشيوعية وكتابها « رأس المال » في مدرجة الاهمال كما انزوى غيرها من المذاهب والكتب ، ولم تظفر من الباحثين والقراء بعناية غير التي هي اهل لها بنظرياتها الملفقة ودعائمها المزعزعة وبراهينها التي لا تثبت على البحث النظري ولا على التجربة العملية .

وأهم الحركات الثورية التي نسبت اليها الثورة الروسية . بعد الحرب العالمية الاولى . وليست هذه الثورة في رأي الشيوعيين انفسهم نتيجة للاطوار الاقتصادية والاجتماعية التي يقول « كارل مازكس » انها مقدمات لازمة لقيام الشيوعية ، وخلاصة هذه المقدمات أن تنتشر الصناعة الكبرى وتنحصر شيئا فشيئا بين أيدي المحتكرين حتى تستأصل كل طبقة في المجتمع غير طبقة أصحاب الاموال المعدودين وطبقة الاجراء أو « البرولتارية » الذين تقوم على أيديهم الثورة الشيوعية بعد استيلائهم على زمام الصناعة .

فالبلاد الروسية كانت آخر البلاد الاوربية التي يصدق عليها هذا التطور ، وانما الثورة التي وقعت فيها بعد الحرب العالمية الاولى ثورة من ثورات الهزائم الكبرى التي امتلأ بها التاريخ القديم والحديث ، وكانت سببا لاسقاط كثير من الدول عن عروشها التي نخرها الفساد وتلقت امام رعاياها تبعات تلك الهزيمة وجرائرها ، مقرونة في أكثر الاوقات بتبعات العجز عن تدبير مصالح أولئك

الرعايا .

ولم يذهب عرش « رومانوف » وحده بعد هزائم الحرب العالمية الاولى ، بل ذهبت معه عروش « هوهنزلرن » و« هابسبرج » و« آل عثمان » وذهبت الهزائم قبل الحرب العالمية بأسرة « المانشو » في الصين على أيدي « سن يات سن » واصحابه من طلاب الاصلاح .

وكل ما قيل عن نسبة الثورة الروسية الى الشيوعية ، فانما مرجعه الى الفئة التي كانت تدين بآراء « كارل ماركس » وتسلمت قيادة الثورة بعد تمرد الجيش على أسرة « رومانوف » . . ولكن الحركات الثورية في الصين وتركيا وألمانيا وغيرها قد آلت الى أيدي فئات أخرى لا تنتسب الى الشيوعية ، وقد كانت الهزيمة الكبرى هي المشابهة الوحيدة بين هذه الحركات في جميع البلدان ، ولم تتفق على برنامج غير ذلك بعد قيامها على رؤوس الحكومات .

فالثورة الروسية بعد الحرب العالمية الاولى لم تكن من فعل الشيوعية ، ولم يكن من الممتنع عقلا أن تحدث هذه الهزيمة قبل ظهور كتاب الشيوعية بنحو خمسين سنة بدلا من حدوثها بعد ظهوره بنحو خمسين سنة ، فان التاريخ حافل بأنباء هذه الهزائم التي أطاحت بالعروش ومهدت للحركات الثورية وقيام الدعاة من أصحاب المبادىء أو أصحاب المطامع السياسية .

ولقد ذهبت هزيمة نابليون الاول بدولته وعادت بأسرة « البربون » الى عرشها القديم فترة من الزمن ، ثم ذهبت هزيمة نابليون الثالث بدولته وقوضت عرش فرنسا العريق لتقوم على انقاضه دعائم الجمهورية ، ومعها مبادىء الثورة الفرنسية التي تحقق منها ما تحقق ولا يزال الكثير منها حبرا على ورق واسما على غير مسمى ، وكان ذلك قبل عصر « كارل ماركس » بقرابة مائة عام .

فمن الواجب الفصل بين شأن المذهب الماركسي في قيمة التفكير وبين الحوادث الكبرى التي أضيفت الى فكرته بفعل المصادفة ، فجعلت لها شأنا غير شأنها وأنقذتها من الاهمال الذي كان حتما مقدورا عليها لولا تلك المصادفة ، فلو لم يكن « لينين » وأصحابه يقولون انهم ماركسيون لكان كتاب

« رأس المال » ـ كما كان ـ رزمة من الورق اللغو يعجب قراؤه لما فيه من الخلط والترقيع وغلبة أهواء الشر على قواعد التفكير ، ولما كان له من موضع في غير الدراسات النفسية للرجوع بهذه الاحنة الخلقية الى مراجعها من أثر البيئة والنشأة والتكوين ، ولعله لم يكن ليظفر بهذه الدراسة النفسية لخفاء اسم صاحبه وزوال الباعث لتمييزه بالدرس والاستكشاف .

أما الحركات الثورية ، أو الدعوات الثورية ، التي تولاها الشيوعيون بعد قيام سلطانهم في روسيا ، فكل ما كان لها من الصلة بالصناعات الكبرى أن الصناعات الكبرى حشدت الاجراء بالمئات والالوف في صعيد واحد ، فاستطاع الدعاة توجيه الدعوة اليهم جملة والتأثير فيهم بأساليب التأثير في الجماعات ، سواء كانت هذه الاساليب من مبتكرات العصر الحديث او من المخلفات التي تقدم بها الزمن في العصور الاولى .

وقد حاول « كارل ماركس » ان يفرق بين أجراء الصناعة وأجراء الزراعة في قابلية الثورة بفروق كثيرة تمحلها على طريقته في الالتواء والتسلل وراء الاسباب الاقتصادية الخفية ، فقال مثلا « ان الاجراء في الصناعة قابلون للثورة الاجتماعية لانهم لا يملكون شيئا في المصانع وان الفلاح الاجير غير قابل للثورة الاجتماعية لانه يملك بعض الارض أحيانا أو يملك بعض النتاج منها » ولكن سوابق التاريخ تعصف بهذا الهراء كله ، وتبقى حقيقة واحدة من أسباب الثورات الاجتماعية وهي أمكان اجتماع الثائرين في مكان واحد أيا كان عملهم في الصناعة او الزراعة ، وتتم أسباب الثورة حين تقترن بها الدعاية وضعف السلطان أو ضعف الهيبة ممن يقبضون على أعنة الامور .

حدثت أمثال هذه الحركات الاجتماعية في القدم قبل الميلاد بعدة قرون ، ولم تكن هناك صناعة كبرى ولا صغرى تجمع بين الالوف من الاجراء وبين اقطاب رؤوس الاموال وملاك الصناعات .

حدثت حركة كبيرة من هذه الحركات الاجتماعية بعد الاسرة الفرعونية الرابعة ، لان الفلاحين تعودوا الاجتماع بالمئات والالوف في بناء الاهرامات

والهياكل ، ووجدوا امامهم نزاعا مستحكما بين طلاب السلطان .

وحدثت حركة الارقاء في اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون ، وهم الارقاء المعروفون باسم : الهيلوت [1] او باسم الضواحيين[2] وكلهم من الفلاحين زراع الارض بالحصة والمقاسمة في الثمرات ، وقد تجمعوا بالالوف على مقربة من المدينة وهزموا قادة اسبرطة وألجأوا هذه المدينة الحربية الصارمة الى طلب النجدة من جيرانها ، فلم تقدر على صد الارقاء الثائرين الا بعد حوالي عشر سنوات .

وحدثت حركة الارقاء في الدولة الرومانية بقيادة « سبرتاكوس »[3] (٧٢ ق.م) الرقيق الذي تعلم المصارعة وتمكن من جمع زملائه في الرق ، فحشد منهم قرابة سبعين ألفا ، ودوخ الجيوش الرومانية بحملاته القوية حتى استنفد جهود الدولة وكلفها ان ترصد له اكبر قوادها من طراز « كراسوس[4] و« بومبي » فلم يخمدوا ثورته الا بعد عناء شديد .

وحدثت حركة الارقاء في العصر الاسلامي بعد منتصف القرن الثالث للهجرة (وبعد منتصف القرن التاسع للميلاد) حين ثار زنج البصرة بقيادة علي بن محمد بن عبد الرحيم ، وما برحت ثورتهم تحتدم وتخبو من أيام الخليفة المهتدي بن الواثق الى أيام الخليفة المعتمد بن المتوكل ، وتمكن هؤلاء الزنج من التجمع لانهم كانوا يعملون في الموانىء وسفن الشواطىء كما كانوا يعملون في الزراعة ونقل البضاعة ، ولم يكن هؤلاء الارقاء ولا أرقاء « سبرتاكوس » أو الارقاء الهيلوت والضواحيون عمالا مسخرين في صناعة كبرى أو صغرى كالاجراء المفروضين في مذهب « كارل ماركس » بل كانوا فلاحين او حفارين في المناجم أو حمالين على الشواطىء ، جمعتهم أماكن عملهم ووحدة الشكاية أو وحدة المصلحة بينهم فخرجوا من تلك الحركات الاجتماعية قبل عصر الصناعة الكبرى بأكثر من عشرين قرنا في الزمن القديم ونحو عشرة قرون

---

(1) Helots — (3) Spartacus

(2) Perioeci — (4) Crassus

في زمن الاسلام .

وعملت في كل حركة من هذه الحركات الاجتماعية عواملها المشتركة التي لا بد منها في جميع العهود ، وهي عوامل الدعاية والقيادة والهزيمة او سقوط الهيبة وظهور العجز عن تدبير الامور من قبل الطبقة الحاكمة .

ولا نعلم على التحقيق كيف كانت دعاية الثورة المصرية بعد عهد الاهرامات ، ولكن تفرق الدعاة والاسر في الوجه القبلي على الخصوص مع شيوع الشكوى بين الفلاحين قد يدل على دخيلة الدعوة التي جذبت كل فريق من الثائرين الى زعيم من زعماء الاسر وطلاب العروش .

أما ثورة الهيلوت فالمعروف عنها كثير ، ومن هذا الذي عرف عنها انها رزقت القيادة الحسنة على يدي « أرستومين » و« ارستديمس » وجاءتها دسائس الفتنة الخارجية من جانب الفرس مسخرين لها أناسا من الطامحين الى الملك على رأسهم القائد « بوزانيوس » وأناسا من رؤساء العصابات كانوا على خطر دائم من فتك الشرطة الخفية المختصة بتعقب الارقاء البارزين بين صفوف أبناء جلدتهم ، وكانت لهم خفية خاصة تترصدهم يسمونها الكربتية ، وتشبه الخفية القيصرية قبل الثورة الشيوعية في نظام التجسس وحبائل الايقاع والاستطلاع .

***

والمعروف عن ثورة الارقاء على روما اكثر من المعروف عن ثورة الارقاء على اسبرطة ، قياسا على اشتهار الانظمة الرومانية واشتباكها بالامم المحيطة بها ، فلا ينظر المؤرخ في تفصيلات الحوادث التي انتهت بنشوب ثورة « سبرتاكوس » الا وجد فيها جميع العوامل التي تخلق هذه الثورات من الازمات السياسية والاقتصادية الى هزائم الحروب وسقوط الهيبة الى تحريف الدعاية وامكان حشد الثائرين في صعيد واحد .

تعاقبت الغارات على روما من برابرة الشمال في القرن الاول قبل الميلاد ، وانقسم ولاء الجيوش الرومانية بين المشرق والمغرب وتضعضعت الحكومات القنصلية أو الشبيهة بالجمهورية ، ومهدت الطريق لقيام سلطان الاستبداد

وظهور الحاكمين بأمرهم من القادة وزعماء العشائر ، وخابت آمال المصلحين في برامج الاصلاح ، ومنها تقييد الملكية الزراعية ورسم الخطط الواسعة لتوزيع الارض والثروة بين الملاك الكبار والصغار بالتدريج .

وكان الاخوان « طيبريوس » و« جايوس جراشي » قد استنفدا الحيل في اقناع العلية واعضاء مجلس الشيوخ باعادة توزيع الأرض العامة لزيادة عدد الملاك الصغار ، واستصدر اولهما من مجلس الشيوخ قرارا بالحد الاقصى للأرض الزراعية العامة فجعله ثلثمائة فدان (سنة ١٣٣ق م) ثم جاء اخوه فاراد ان يتوسع في تعميم الحقوق السياسية وأنشأ طائفة من المشترعين دون طائفة الشيوخ وكل اليها الحق في محاسبة الولاة السابقين ومن اليهم من رجال الدولة ، وكانت هذه المنازعات على الحقوق السياسية والحقوق المدنية بداءة الانقسام بين طوائف العلية من سادة المجتمع الروماني القديم .

واتفق هذا في الوقت الذي تتابعت فيه غارات البرابرة الشماليين على تخوم الدولة ، فكان عجز الحاميات العسكرية عن صد المغيرين حجة مقنعة سوغت للقائد « جايوس ماريوس » ان ينظم الجيش بقيادته ويستغل سمعته في الحروب الافريقية للاستئثار بالسلطة في حروب الدفاع عن تخوم الشمال ، وجر هذا الاستئثار الى انقسام الدولة بين جيش الوطن بقيادته وجيش الولايات بقيادة « كرنيلوس سولا » ، ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة لم تنحسم قبل انقضاء سنوات في القلاقل والفتن والازمات خرج منها « سولا » منتصرا على « ماريوس » حوالي سنة احدى وثمانين قبل الميلاد ، فدانت له الدولة بالطاعة حوالي سنتين .

ولم تنقض شهور على موت « سولا » (سنة ٧٨ ق.م) حتى تجددت المساعي الحثيثة التي تتجه من كل جانب الى هدم النظم والجمهورية ، واقامة السلطان المطلق بزعامة هذا أو ذاك من القادة المتنافسين . وفي هذه الفترة نشبت ثورة « سبارتاكوس » ووجدت لها أشياعا من أشتات الاسرى الذين جاءت بهم حروب الرومان في تراقية وطن « سبارتاكوس » ـ وبلاد الغال وسائر ارجاء الدولة الواسعة ، وكان منهم أناس لحقوا بالجيش وتدربوا فيه على

الاعمال الحربية ، وأناس آخرون من رعاة الجنوب في ايطاليا ممن كانوا يحملون السلاح لحماية قطعانهم[1] ، ويشتبكون في حروب كحروب العصابات كلما ضعف سلطان الحكومة القائمة . فانقاد لـ « سبارتاكوس » ، جيش كبير من الشذاذ النافرين ، وتمكن من الانتصار على جيش الدولة بقليل من العناء (سنة ٧٣ ق.م) ثم هزم الجيوش التي جردت لقتاله بقيادة القناصل والولاة في بلاد الغال ، واستشرى خطبه حتى كاد أن يحكم البلاد الايطالية فيما وراء العاصمة ، ولم تقدر عليه الحكومة بجيوشها التي تخلفت من أيام النزاع وانقسام الولاء بين القادة ، حتى تصدى للامر رجل من رجال « سولا » الكفاة ـ هو القائد « كراسوس »[2] . فجند لقتاله جيشا جديدا تولى تدريبه وتنظيمه على يديه ، ودارت الدائرة على « سبارتكوس » في معركة أبوليا[3] (سنة ٧١ ق.م) وقد كاد أن يفلت بفلول جيشه على أسطول من السفن الصغيرة عند مسينى ، ثم تبين أن الثائرين لم يكونوا جميعا من الارقاء المملوكين لسادة معروفين ، وأحصي منهم نحو ستة آلاف لم يعرف لهم سادة يملكونهم ولم تكن لاكثرهم سابقة في الرق ، وانما كانوا مع طائفة من القتلى والفلول الهاربين ، ثوارا على الظلم والخلل ، وطلابا للحرية والحقوق الانسانية .

والمعروف عن ثورة صاحب الزنج في الدولة العباسية اكثر مما عرف من ثورة الارقاء في الدولة الرومانية ، لانها حدثت في عهد تاريخي وافر المراجع والمآخذ قريب بالنسبة الينا في احواله وأوقاته ومصادر دعوته ودعواه ، وقد كانت الدعوة والدعوى معا كأوهن ما تكون الدعوات والدعاوى من السخف والتضليل . . ولكنهما فعلتا فعلهما المعهود مع ضعف الدولة واحتشاد الثوار في مكان واحد وسهولة انتحال الحجة التي يستند اليها الثائر على الدولة القائمة ، في أعنف اوقات النزاع بين العباسيين أصحاب السلطان والعلويين أصحاب الحق في عقيدة الاكثرين من أبناء الاقليم وما جاوره من الاقاليم .

ورواية اخبار هذه الثورة من وجهة نظر غربية أدنى الى التناسق مع أخبار الثورات من قبيلها في تاريخ اليونان والرومان ، ولهذا نرويها هنا كما لخصها

(1) Latifundia . (2) Crassus (3) Apulia

سبير « وليام موير »[1] في كتابه عن تاريخ اضمحلال الخلافة ، اذ يقول من أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة (٨٦٩م) ما يلي :

« أشاعت فتنة الزنج الذعر والفتك من حولها خمس عشرة سنة ، وكان زعمها فارسيا انتحل النسب الى علي بن أبي طالب ، فكان يدعو أول الامر بهذه الصفة الى بعض الآداب الروحية ، ثم ما عتم ان كشف عن خبيئته فاذا هو متمرد منتقض يسري عليه لقب الخبيث . وكان يحوم في شبه الجزيرة العربية قبل ذلك على غير طائل ، ثم رفع راية العصيان ونادى بالحرية لجميع المستعبدين ووعدهم بما لاحد له من الاسلاب والغنائم اذا التفوا برايته ، واتخذ له شعارا آية من القرآن كتبها على الراية تبطل الرق وتلغيه : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن) وفسر الآية بأن الله اشترى الرؤوس والاموال فلا يملكها أحد . ولم يكن بالمستغرب من العبيد الذين علمهم ان يهينوا سادتهم ان يهرعوا اليه بالالوف ومعهم اهل البادية من طلاب الاسلاب والغنائم . اما اسم الزنج فمعناه « الاثيوبيون » من اوشاب القارة الافريقية ، ومن هنا نسبت اليهم الفتنة فسميت بفتنة الزنج . وكانت سنة خمس وخمسين ومائتين بداءة عصيانهم ومجاهرتهم بالقتال ، وتلتها سنتان انتشروا فيهما بين جوانب وادي النهرين وشواطىء قارون الى الاهواز ، فبسطوا ايديهم من ثم على هذه الانهر . . وشجعهم النجاح فاغاروا في سنة سبع وخمسين ومائتين (٨٧١م) على البصرة واقتحموها واعملوا في الاهلين كل منكر وفظيعة . ثم نادوا بالامان غدرا فقتلوا كل من اغتر بامانهم من جمهرة السكان المخدوعين . وهدموا المسجد الكبير وأشعلوا النيران في المدينة كلها . وقد راع الخليفة مقتربهم من عاصمة الخلافة فانفذ الموفق على رأس الجيش لقتالهم . . فنشط للقتال نشاطا قويا . ولكنه لم يظفر بهم الا قليلا في المعارك الاولى لاضطراره الى وقف القتال حينا بعد حين ، واشتغاله بدرء

Muir (1)

المخاطر في مواقع اخرى من الدولة .

ولقي موسى ، وغيره من القادة ، مثل هذا الفشل سنة بعد سنة ثابر الزنج خلالها على الغارة مع ما كانوا يمنون به من الهزيمة في بعض المعارك ، وجعلوا يغيرون على العراق وخوزستان والبحرين عصابات متفرقة او جموعا مصفوفة ، فنهبوا الاهواز واتخذوا « واسط » معسكرا يشنون منه حروب التخريب والتقتيل ، وانقضت على البلاد التعسة عشر سنين من الشقاء والفزع ، ثم فرغ لهم الموفق بعد الخلاص من الاعداء الخارجين فوحد الجيوش تحت قيادته وقيادة ابنه المعتضد ، ودارت الدائرة من ذلك الحين على جموع الارقاء ، فطردوا اولا من خوزستان ودفعوا الى الجانب السفلي من النهر حيث استعصموا بالمواقع الحصينة واحتموا بالاقنية والجداول المحيطة بها ، ولا تزال اخبار المعارك التي تلت ذلك نحو خمس سنوات محفوظة تروى بتفصيلاتها المسهبة المملة ، واجلي العدو من مواقع كثيرة ولكنه لبث بعد جلائه عن تلك المواقع ثلاث سنوات مستعصما ببعض الحصون لانقطاع الحصار فترات متوالية من جراء اصابة الموفق بجراح اقعدته عن العمل السريع ، واخذ الثوار يتسللون زرافات زرافات الى الموفق فيقبل منهم التوبة برفق وسماحة ، وبلغ من رفقه وسماحته انه اعلن العفو عن المسيء الاكبر. فاعرض عنه بصلف وقحة . ثم سقطت القلعة وعاد كثير من النساء السبايا الى ديارهن ، ووقع الخبيث في الاسر وهو يمعن في الهرب فقتل وحمل رأسه حيث رفع على مشهد من الجموع المتكوفة فخروا سجودا يشكرون الله على النجاة من شره . . » .

***

وتلخيص « موير » هذا لفتنة الزنج ، يصدر عن نظرة تاريخية على الحيدة بين الداعية والدولة التي يثور عليها ، فلا يمتزج بالغضب الديني الذي يشعر به المؤرخ المسلم وهو يتكلم عن فتنة من فتن المروق والاباحة والافتراء على العترة النبوية ، وهي في رواية « موير » على نسق تام مع الثوارت التي من قبيلها وان تفاوتت أبعد التفاوت في الازمنة والامكنة وأجناس الثوار ومطالبهم

وعقائدهم التي يأخذون بها أو ينتقضون عليها ، فكلها ثورات حصلت لانها أمكنت ، وكلها ثورات أمكنت لانها ثورات اناس من أصحاب الشكايات الاجتماعية أو المنتفعين بالقلاقل والفوضى حيث كانت ، تجمعوا في صعيد واحد واستضعفوا السلطان لما مني به من الهزيمة والعجز . . فاستخفوا بأمر الخروج عليه ، ولا يلزم من ثوراتهم هذه أن يكونوا من الفلاحين او الصناع أو « العاطلين » ، ولا أن تتقدم ثوراتهم او تتأخر حسب الاطوار التي يرتبها « كارل ماركس » على هواه .

أما هوى « كارل ماركس » فهو أن تكون الثورة ـ تطبيقا لرأيه في الصناعة الكبرى ـ محصورة في « « البرولتارية » التي تأتي بعد نبوءته آخر الزمان ، لانها لو لم تكن محصورة على هذا النحو لما جاز أن يتطرق منها الى هدم المجتمعات كافة وانكار الماضي بحذافيره ، ولكان حكمها في العصر الحاضر كحكم تلك الثورات التي انقضت بانقضاء أيامها وجرى التاريخ بعدها في مجراه . غير مقيد بالخطة التي رسمها له ولم يأذن له بالانحراف عنها يمنة أو يسرة الى غير نهاية !

ولقد اتجهت في الزمن الحاضر ـ قبل منتصف القرن العشرين ـ دعوات ثورية الى جماعات من الاجراء غير دعوة الشيوعية ، فاستجاب لها أولئك الاجراء حينما انخدعوا بوعودها وأمكنهم ان يستجيبوا لها ، واستثيرت حماستهم تارة باسم الغيرة الوطنية التي يحسبها « كارل ماركس » في أكاذيب الطبقات ، وتارة باسم الدين او باسم مذهب واحد من مذاهب الدين ، وكان أناس من هؤلاء الاجراء يعملون في الصناعات وأناس منهم يعملون في المجازر التي تتجر باللحوم ولا تتوقف اعمالها على صناعات العصر الحديث . . وعلى هذا المثال كانت دعوة « بيرون » وزملائه في الارجنتين ، وكانت دعوات مثلها بين شعوب امريكا الجنوبية من جميع الاجناس والنحل والاعمال .

وليس من جديد الشيوعية الماركسية ، أو من أفانينها المستحدثة ، ان تستهوي اليها أناسا متفرقين في المجتمعات غير الاجراء وأصحاب الشكايات

الاجتماعية . . فهذا الاستهواء ميسور لكل دعوة تتجه الى الغرائز الخسيسة ، وتـزين لاصحابهـا رذائلهـم التـي تسقطهـم وتذلهـم كلمـا قيسـوا بمقـاييس المجتمعـات القائمـة . وكل داعية يشفـي حزازة الحسـد والسـكراهية بين المحرومين او غير المحرومين ، فهو على ثقة من استهواء الاسماع واستدراج الانصار الذين يتهوسون بمثل هذه الدعوات تهوس الجنون ، لانها تخاطبهم من كل ناحية مرذولة يتحرقون على التخلص منها ، وتقودهم بزمـام الضغينـة العمياء والعدوان المتحفز والهوان الجاثم علـى الصـدور من رواسـب آلاف السنين . . وما من شيء يجعل العقـل البشـري بعيدا غاية البعـد عن النظـرة العلمية كتلك الحالة التي يتطلبها دعاة الماركسية من المدعوين اليها ، وهـي حالة الضغينة المتحكمة والغرائز المتمردة والجموح الذي لا يخجل من عرف أو شريعة أو حياء . . وكل و هم من الاوهام الحمقاء أو باعـث من البواعـث البهيمية فهو مصدق عند من تتحكم فيه تلك الحالة بغير سند أو برهان ، على النقيض من جميع الاسناد والبـراهين . . ويا له من علـم ذلك العلـم الـذي تتمخض عنه طبائع دعاة من طراز « كارل ماركس » وتتلقاه طبائع المدعوين اليه من صرعى الاحقاد والغرائز العمياء .

وانك لتنظر الى كائـن من كان من المستعـدين لسمـاع تلك الدعـوة ، فلا تخطىء الصفة الغالبة عليه أو الصفة المتحكمـة في أهوائـه بين ما يرضـاه أو يأباه ، ولا تكون تلك الصفة في احد منهم بمعزل عن الانانية المطبقة والاتهام السريع ولو فيما بينهم من اقرب المقربين . .

فلولا الشغلان الشاغل بنوبة العلم في القرن التاسع عشر ، لما جاز ان تحمل على المحمل العلمي سخيمة الماركسية التـي لا محـل لهـا في غير الظواهـر النفسية ، سواء اخذناها من مصدرها في نفس داعيتها او اخذناها من مآلها في نفوس المصغين اليها ، او اخذناها من الشعور الذي تعول عليه آخر الامر وهو شعور اليأس المستميت الذي يقال لاصحابه : انكم تصدقون الشيوعية كمـا تصدقون غيرها لان خراب العالم لا يعنيكم ولا تفقدون فيه غير قيودكم !

والعلم لا يسمى علما ان لم نعرف ما يناقضه . او يناقض طبيعته على وجوه

الدعاوى السافرة . . ولا سيما الدعاوى التي تجر وراءها هدما معجلا لكل ما بناه الناس من شتى الامم في مختلف العصور . .

وأي شيء نعرف من العلم انه مناقض لطبيعته ان لم نعرف ذلك في دعوى المدعين ان قوانين الكون الابدية تكشفت في مدى التاريخ الاجتماعي ، وباحت بأسرارها لعقل واحد يتحكم في مجرى التاريخ المقبل الى غاية مداه ؟

وأي أسرار ، هذه الاسرار التي لا نقض لها ولا معقب عليها ؟

تلك الاسرار هي تعريف قيمة السلعة ، او تعريف الطبقة الاجتماعية ، او تعريف المادة ، أو تعريف التفسير المادي للتاريخ بعد تعريفها . .

ولا نقول ان العلم يرفض كل هذه التعريفات لاول نظرة او يحكم بالبطلان على وجوهها السافرة . . ولكننا نقول مقال اليقين ان العلم الذي يزعم أن هذه التعريفات بلغت مبلغ الثقة الجازمة التي تتحكم في ماضي بني الانسان ومصيرهم بغير نقض ولا تعقيب ، انما هو خرافة من أجهل الخرافات التي تحوم على العقول البشرية ، وان خرافة من خرافات العجائز في عصور الظلمات لا تتطلب من غفلة التصديق بما يتطلبه قبول تلك الخرافة بعد بحث او بغير بحث على الاطلاق .

على أن المطلوب من العقل البشري أمام هذا العلم االمضحك ، أضخم جدا مما تتطلبه خرافات العجائز وخرافات الاساطير وكل ضرب من ضروب التخريف يطيف بعقل انسان . .

اذ يطلب من العقل أن يصدق ـ بناء على هذه التعريفات ـ ان طبيعة الانسان سوف تتبدل بعد مآل الصناعة الكبرى الى أيدي الاجراء فلا منافسة ولا سباق الى النفوذ ولا اختلاف بين الظواهر والبواطن ولا أثر من آثار الشرائع والقوانين التي تدعو الى قيام الحكومات . . وهذا ثابت مقرر لا شك فيه عند هذا العلم البديع الذي ليس بخرافة وليس بأفيون للشعوب ، وكيف كان ثابتا يا ترى ؟ . . كان ثابتا لأن مآل الصناعة الكبرى الى ايدي الاجراء ثابت ايضا ثبوتا لا شك فيه عند هذا العلم البديع الذي ليس بخرافة ولا بأفيون للشعوب .

وما من رأي بين هذه الآراء ثابت كل الثبوت ، ولو انه ثبت كذلك لما لزم منه ثبوت النتائج التي يرتبونها عليه . ولكنها انما تثبت لسبب واحد عند هؤلاء العلماء غير الواهمين وغير الحالمين ؟ تثبت لانها لازمة لاشباع شهوة النقمة والخراب . . ولو بطلت شهوة النقمة والخراب لحظة واحدة لسقطت من قمتها الى أساسها ترابا على تراب وهباء على هباء .

ومن العلم الصحيح الذي لا شك فيه ـ بحق ـ أن الدعوة الماركسية ظاهرة نفسية ، اذ كان كل رأي من آرائها ، وكل نتيجة من نتائجها تفسر بتفسيرات الظواهر النفسية ولا تلجئنا الى تفسيرات غيرها .

والظواهر النفسية تفسر تلك الدعوة من الالف الى الياء . . وتشرحها على اوضح ما تكون لمن اراد ان يستكنه بواطنها من جانب العقل أو جانب الشعور . .

أما التفسير المادي للتاريخ ، فلا يفسره لنا ولو اخذنا بقواعده وقضاياه . . لان المادة ـ اذا صح أنها تفسر كل معلوم ومجهول ـ لم يكن من حق « كارل ماركس » ان يحتكر تفسيرها على أصح الوجوه . .

وسنرى مكان الدعوة الماركسية من العلم ومكانها من الظواهر النفسية ، ونرى بعد المقابلة بين مكانيها ماذا يبقى من أصولها وفروعها اذا أخرجنا منها طوية النقمة والخراب .

بواعث الشكاية

من العبارات الجارية مجرى المثل في مصطلحات الماركسيين أن « مذهب هيجل » قلب الحقيقة رأسا على عقب ، فأقامها على رأسها في التراب بدلا من قدميها .

أن صحت هذه العبارة في مذهب من المذاهب ، فهي أصح ما تكون في مذهب « كارل ماركس » عن دوافع الاصلاح . .

ان المشاهد في الواقع ، والمعقول في التفكير المستقيم ، ان الاسباب المادية لا تغير حالة من حالات البشر الا اذا تحولت الى أسباب نفسية يشعرون بها ، فان الفقير الذي لا يعلم أنه فقير لا يفكر في تغيير حاله ولا ينساق الى عمل شعوري او غير شعوري لتغيير تلك الحال ، وكذلك الفقير الذي يعلم أنه فقير ولكنه لا يكترث لما به ولا يبالي ان يغيره أو يتطلع الى تغييره . .

أما مذهب « كارل ماركس » فهو يقلب هذه الحقيقة رأسا على عقب ويقيمها على رأسها بدلا من قدميها ، فيقول : ان الاسباب النفسية لا تغير حالة من حالات البشر الا اذا تحولت الى اسباب مادية ، ثم يضطرب في بيان هذه الاسباب المادية اضطرابا يترنح به بين النقيضين ، مع أن المذهب كله قائم على أساس هذه الاسباب .

وتاريخ القرن التاسع عشر الذي ولد فيه « كارل ماركس » أسبق التواريخ الى نقض مذهبه والابانة عن خلطه واضطرابه ، لانه أسبق التواريخ الى اثبات اثر الحالات النفسية في حركات الاصلاح او حركات الثورة والانقلاب .

كانت في القرن التاسع عشر ـ في القارة الاوربية ـ شكايات كثيرة قاسية ،

شرحها مؤ رخوه ومصلحوه ولا يزال المؤ رخون والمصلحون يشرحونهـا الـى اليوم . . ولم يحاول أحد قط ان يتجاهلها ويداريها أو يخفف من سوئها ولا من استياء المستائين منها . بل الواقع انها لقيت من أهل القـرن عنـاية لم تلقهـا شكايات القرون الغابرة من ابنائهـا ، فنشـط المصلحـون للبحـث في عللهـا ووسائل علاجها . . وظهر من مذاهب الاصلاح في مدى خمسين سنة أضعاف ما ظهر من هذه المذاهب في القرون الاولى ، وكانت كلها في المذاهب القائمة على القواعد الاشتراكية وقواعد المساواة بين الآحاد والطوائف والطبقات

والقرون الاولى ـ مع هذا ـ لم تكن خالية من شكاياتها الكثيرة القاسية ، بل كان كل قرن منها له كفايته وفوق كفايته من الشكايات الكثيرة القاسية . . ولو رجعنا القهقرى من القرن التاسع عشر الى القرن الاول للميلاد ، لوجدنا في كل فترة من فترات هذا الزمن حادثا بارزا من كبريات الحوادث التاريخية يترجم عن شكاياته ومساوىء احواله . . فلا نرجع قليلا من القرن التاسع عشر حتى يصادفنا عصر الثورة الفرنسية وقبله عصر الهجرة الى أمريكا والبلاد الشرقية ، وقبلـه عصـر الاصـلاح والازمـات الـدينية العلمية ، وقبلـه عصـر الحـــروب الصليبية ، وقبله عصـر الظلمـات في القـرون الوسطـى وأوبئتهـا ومنازعاتهـا وأزماتها ، وقبله عصر انحلال الدولة الرومانية ، وقبله عصور اخرى لا تنقطع فيها الشكايات الكثيرة القاسية ولا الحوادث الكبرى التي تترجم عنها .

والشكاية الحاطمة ـ وهي شكاية الفقر ـ لم تكن من طوارىء القرن التاسع عشر على القارة الاوربية ، فان الاوربي في القرن التاسع عشر كان أقل فقرا من أسلافه قبل قرن واحد وقبل عدة قرون ، وكان أقرب الى الكفاية في المعيشة من أولئك الاسلاف ، ولكنه كان أقوى شكاية وأنشط حركة في طلب التبديل والارتقاء ممن كانوا قبله أسوأ حالا وأفقر يدا وأدنى الـى الحرمـان وأبعـد من الكفاية .

وسبب ذلك أن الاوربي في القرن التاسع عشـر ، كان اعـرف من اسلافـه بحقوقه ، وأشد شعـورا بالحرمـان من أولئـك الـذين سبقـوه وزادوا عليه في مضانك الحرمان .

هذا هو الباعث المهم الى ثورات الاصلاح في القرن التاسع عشر ، وهو الباعث الذي نلمحه من النظرة الاولى ثم نتبينه من النظرات الطويلة المتوالية ، بعد انعام التأمل والدراسة . . فلم تكن الثورة في طلب الاصلاح على قدر التقدم في ادوار الصناعة الكبرى كما يريد « كارل ماركس » ان يقرر في مذهبه ، بل كانت على قدر الحاجة الى الحرية والاعتراف بحقوق المساواة .

« ماركس » نفسه شاهد من الشواهد المطبقة على صحة هذا السبب ، فانه هو وزملاؤه من الألمان دعاة المذاهب الاشتراكية قد نشأوا في بلاد متوسطة بين عصر الاقطاع وعصر الصناعة الكبرى ، وقد نشأ دعاة الثورة الروسية المعاصرون له في بلاد لم تخرج بعد من عصر الاقطاع ولم تكن لها صناعة كبرى تذكر بين اقطار الصناعة .

أما البلاد التي تقدمت في الصناعة الكبرى ، كالبلاد الانجليزية ، فهي التي قلت فيها الدعوة الى الثورة ، وعظمت فيها الدعوة الى الاصلاح عن طريق الوسائل الدستورية . . وهي البلاد التي أخرجت دعوة الفابيين الذين يؤمنون بامكان التعاون بين مذاهب الاجتماع ، كما أخرجت النقابات التي تعول على الانتخاب وقوانين البرلمان ، وتليها في هذه الوجهة ، درجة أو درجات ، بلاد اخرى من القارة على حسب نصيبها من الحرية ، وفي مقدمتها فرنسا وبلاد الغرب والشمال .

كانت الدعوة الى الثورة تشتد على حسب الشعور بالحاجة الى الحرية ، وكانت الدعوة الى الاصلاح السلمي تشتد على قدر التقدم في الصناعة الكبرى . . خلافا لما قرره « كارل ماركس » وشيعته رأسا على عقب ، ووفاقا لما هو معقول ومشهود .

وقد كانت الثورة في طلب الحرية عامة في انحاء القارة على اختلاف درجاتها من الصناعة ، وعلى اختلاف اطوارها من وسائل الانتاج ، وكلما قلت الحرية

---

(1) Fabians

زادت حدة الثورة وشدة الانقلاب .

كان لزاما على « كارل ماركس » وشيعته ، اذا ناقضوا هذه الحقيقة ، ان يثبتوا حقيقتهم المزعومة اثباتا قاطعا يمتنع فيه كل اختلاف . . كان لزاما عليهم ان يزيلوا كل لبس يحيط بآرائهم في وسائل الانتاج التي يحسبونها قضاء أبديا يناط به التغيير والتبديل من اوائل التاريخ الى نهايته القصوى ، أو الى غير نهاية . . كان لزاما عليهم ان يحققوا السبب الذي يرونه كافيا للاصرار على قلب الدنيا وهدم المجتمعات دون ان يلتفتوا أقل التفاتة الى احتمال الخطأ فيه . .

ولكنهم على خلاف ذلك ، قد تركوا وسائل الانتاج لغزا مبهما يتيهون فيه ، ولا يفضي بهم التيه الى ملتقى متفق عليه . .

ما وسائل الانتاج ؟ . . أهي الآلات الصناعية ، ام هي الطبقة المشرفة عليها ؟ . . وهل الطبقة هي التي تنشىء وسائل الانتاج ، أو وسائل الانتاج هي التي تنشىء الطبقة ؟ . .

تلك مسألة ليست بالمسألة الهينة التي يجوز فيها اللبس ويستبيح الباحث ان يتركها عرضة للتأويل والتخريج أو للتمحل والتهريج ، لانه يستبيح بها ما لم يستبحه احد قط من قبله ، ويعلق عليها القرار الاخير في امر لا غنى فيه عن اليقين كل اليقين . . ولكن هذه المسألة التي ليست بالهينة ، قد هانت على « كارل ماركس » وشيعته كأنهم لا يبالون نتائجها او يحبون تلك النتائج حبا يعميهم عن كل عاقبة وكل مصير . .

فوسائل الانتاج تارة هي الآلات الصناعية حيث يقول في رسالته الفكرية الالمانية[1] : « ان طاحون الريح تعطيك مجتمعا يتولاه سيد الاقطاع ، وطاحون البخار تعطيك مجتمعا يتولاه صاحب رأس المال في الصناعة » . .

ووسائل الانتاج تارة اخرى هي الطبقة المستولية على المجتمع ، حيث يقول في البيان المشترك الذي كتبه مع « فردريك انجلز » وقيل عنه : انه أهم في بيان

(1) Dutch Ideology

الشيوعية من كتاب رأس المال : « ان الطبقة البرجوازية لا يمكنها ان توجد بغير تطور دائم في أدوات الانتاج يغير علاقات الانتاج ، ويغير من ثم علاقات المجتمع بأسره » . .

أما في كتاب « رأس المال » فيكفي أن تعرف آلة من آلات الزمن القديم لتبني عليها تركيب المجتمع كله ، وفي هذا المعنى يقول في الجزء الاول : « ان آثار آلات العمل الغابرة تؤدي للباحث في أحوال المجتمع الاقتصادية التي مضت مهمة كالتي تؤديها عظام الحفريات للباحث عن أنواع الحيوان المنقرضة . . وليست آلات العمل هي المميزة بين الادوار الاقتصادية ، بل كيفية صنعها والادوات التي صنعتها هي التي تميز لنا تلك الادوار . . وان أدوات العمل لا تبين لنا درجة التطور الذي بلغه العمل الانساني وحسب ، بل هي دلائل على الاحوال الاجتماعية التي يجرى فيها العمل » .

***

وهذه العبارات وما في معناها تتفرق في كتابات « كارل ماركس » وزميله « فردريك انجلز » وأقطاب الشيوعية بمثل هذا التناقض أو أشد منه ، كما سنرى عند البحث في مواضعها من هذا الكتاب ، وكلها لا تنجلي عن موقف محدود في هذه المشكلة الخطيرة التي تقف بنا بين ضفتين : هذه للهدى والفلاح ، وهذه للضلالة والخسارة بلا هوادة بينهما ولا شفاعة ولا سلام . .

فهل طاحون الهواء هي التي تعطينا أرباب الاقطاع ، وطاحون البخار هي التي تعطينا أرباب رأس المال ؟ أو ان الامر على نقيض ذلك ، والطبقة الاجتماعية هي التي تخلق آلاتها وتتطور بها على حسب اطوارها ؟ . . ان كانت الآلة هي الحكم في وسائل الانتاج ومصائر الجماعات ، فالادارة الانسانية أحط من الآلة الصماء لانها ـ بنتائج عملها ـ آلات في أيدي الآلات . وان كانت الطبقة الاجتماعية هي التي تخلق آلاتها وتتولى أطوارها ، فمن الواجب اذن أن نتجه بالبحث الى نفس الانسان أو نفوس الناس . . ولا محل اذن لكل هذه الطنطنة بالانتاج والمباحث العلمية في الانتاج والادوار التاريخية التي نحصرها في سائل الانتاج .

ولا بد من الفصل بين القولين ، لان القول بأحدهما نقيض القول بالآخر ، وترك الامر فيهما بغير فاصلٍ محدود خليق أن يدور بنا حتما في متاهة خفية بين الحد الذي تبتدىء منه الارادة الانسانية والحد الذي تنتهي اليه وتسلم المصير كله للآلات والمكنات . .

ولا ينفعنا ان نلفق هذه البداية وهذه النهاية في أعماق الطبيعة البشرية أو في معادن الآلات الصناعية ، لاننا اذا لفقنا الخليطين المشتركين في الانتاج بقي امامنا ان نعرف كيفية صنع الآلات وان نعرف الكيفية التي يدار بها كل نمط منها في نظام بعد نظام . .

ومن حق كل قارىء أن يقول لدعاة الشيوعية : انني أريد منكم حدودا واضحة في هذا الامر الخطير لانكم تدعونني الى هدم العالم بلا هوادة ولا اصغاء الى قول غير الذي تقولون أو رأي غير الذي ترون ، فلا أقل من اليقين قبل الهجوم على هذه الغاية التي لا رجعة فيها . .

ولكن طبيعة الدعوة المبنية على الضغينة وشهوة الدمار انما تلوح لنا في طبيعة المستجيبين لذلك الهذر الملقى اليهم باسم العلم والدراسة الواقعية . . فانهم لا يستجيبون له الا اذا كانوا قد وضعوا في أذهانهم أن يهدموا أولا وأن يستمعوا لصوت الهدم قبل كل صوت ، ثم يأتي الاقناع او لا يأتي بعد ذلك فهما لديهم مستويان ! . .

والواقع انهم يقدمون على الهدم لاقل من ذلك الخلاف بين المعسكرين ، معسكر الشيوعية ومن ينكرونها كل الانكار . .

يقدمون على الهدم ، ويصرون عليه ، ولا يتلفتون لاحتمال الصواب كلما اختلفوا على التفصيلات الصغيرة التي يختلف عليها أتباع كل مذهب متفقين على جملة الاصول ، يقدمون على الهدم ويصرون عليه ولا يتركون متنفسا لاحتمال الصواب في المخالفة كلما اختلفوا على التفصيلات الصغيرة التي يختلف عليها أتباع كل مذهب متفقين على الأصول . . ومن أقطابهم ـ نظراء « كارل ماركس » في مقامه بينهم ـ داعية البلشفية « لينين » وحامل العلم في

قيادة الثورة الروسية ، فانه تخولف قبل الثورة في بعض تفصيلات الدعوة يوم انقسم البلشفيون والمنشفيون ، ثم اجتمع مؤتمر ستوكهلم للتوفيق بين الفريقين فأذعن « لينين » لقراره ثم ناقضه بالحملة على المنشفيين في اللحظة الاولى ، وأعلن هذه الحملة قبل أن تنقضي على القرار بضعة اسابيع . . وانعقد مجلس الحزب لمحاكمته على سوء مسلكه مع أعضاء حزبه فتقبل المحاكمة وحضر للدفاع عن مسكله ، فاعترف بخروجه في لهجته عن آداب الخطاب بين أعضاء الحزب الواحد ، ولكنه قال كما جاء في المجلد الثالث من مختاراته : « انه لا يعتبر مخالفيه أعضاء في حزبه ، بل يعاملهم معاملة الاعداء ويتخذ في مناقشتهم اسلوبا مقصودا لاثارة البغضاء والنفور والازدراء . . مقصودا لغير الاقناع بل لتحطيم الصفوف . . او مقصودا لغير تصحيح الخطأ بل للاتلاف ومحو الخصم من ظهر الغبراء . .

« وهذا الاسلوب الذي استخدمته انما يراد به أن يثير أقبح الظنون وأقبح التهم والشبهات حول الخصم ، ويدعو حقا على خلاف أسلوب الاقناع والتصحيح الى بلبلة الآراء بين الطبقة العاملة . . واذا سئلت : أأنت معترف بأن هذا الاسلوب غير مقبول ؟ فجوابي : نعم . .

مع قيد صغير وهو أنه غير مقبول بين أعضاء حزب متحدين ، وانما يعني الاختلاف بينهم فصم كل عروة من عرى الالفة والوئام ونقل العراك من التأثير داخل الحزب الى التأثير في خارجه او نقله من الصحيح واقناع الزملاء الى هدم نظامهم واهاجة العمال عليهم ومع العمال جمهرة الشعب على الاجمال » .

ولا شك أن هذا سبب ـ كلا سبب ـ لاستباحة كل هذا الشطط في الهدم والتشهير والتحقير واثارة الشحناء والعداء . . واذا كان هذا كله مستباحا لمجرد الاختلاف على الرأي بين أعضاء الحزب الواحد ، فلا حاجة الى سبب لاستباحته واستباحة ما هو انكر منه في الخلاف بين الشيوعيين ومن ينكرون مذهبهم ويخرجون على حدوده ، وان لم تكن له حدود واضحة للمؤمنين او المنكرين . .

وانه لمن الخزي لهؤلاء المفسدين أن الحقيقة تصدمهم ولا تدعهم في غفلتهم عنها ، لانها اكبر من ان يحجبها التجاهل والاستخفاف . . وان وجوه الاعتراض على ارائهم تأتيهم من حولهم ومن داخل معسكرهم فلا تغيب عنهم طويلا بين المناقشات والمساجلات التي لا مناص منها ، ولكنهم يعرضون عنها لانهم منصرفون عن كل خاطر يشككهم في غايتهم من الهدم والشحناء . . مغضبون بكل ما في طبائعهم المريضة من لدد واصرار على الجانب الذي يخالف وجوه الاعتراض ولا يقبل التريث في مناقشتها ، فاذا اعترفوا بها فانما هو اعتراف المضطر الى حين ، ثم لا يترتب على ذلك الاعتراف تبديل أو تعديل في الغاية التي لا ينصرفون عنها بحال . .

وربما كان من ممهدات العذر لهم أن يجهلوا وجوه الاعتراض ولا يخرجوا من نطاقهم الضيق الى ما وراءه من الفروض والآراء . . فأما الخزي المحيق بأولئك المفسدين ، فهو استخفافهم بدفع كل اعتراض يشككهم في شهوة الهدم والكراهية مهما يبلغ في الحاحه عليها من جانب الاتباع أو الناقدين .

انهم أمعنوا في تهوين العوامل الانسانية في مجرى التاريخ جيلا كاملا بغير تراجع ولا مبالاة . . وأملى لهم في هذا الغلو أن دوافع الثورة في القارة الاوربية كانت على أشدها حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، فلم يشعروا بالحاجة الى الاناة والاعتدال ولم يصادفهم ما يكبحهم عن الشطط الذي يتمادى فيه من شاء في أيام الفتنة ، ولا يستطاع التمادي فيه مع استقرار الامور . . فلما يئسوا من تحقيق الانقلاب العاجل واحتاجوا الى مزيد من الاقناع وقليل من العنف والجماح ، تراجعوا واعترفوا بعض الشيء بأثر العوامل الانسانية أو أثر الفكرة في حوادث التاريخ وحركات الاصلاح ، وكتب « انجلز » في سنة ١٨٩٠ الى طالب يسأله جلاء الشك في هذه المسألة فقال :

« إنه على « ماركس » وعلي أنا يقع بعض التبعة في توكيد العوامل الاقتصادية واعطائها فوق ما تستحقه من التقرير ، وقد كنا امام حملات خصومنا مضطرين الى توكيد المبدأ الاصيل في دعوتنا لانكارهم اياه . . ولم يتسع لنا الوقت كل حين لابراز العوامل الاخرى بين الفعل ورد الفعل من العوامل المتعددة ».

وقال « انجلز » في خطاب آخر : « انه على حسب الادراك المادي للتاريخ يكون العامل الفعال في اللحظة الاخيرة عامل الانتاج والتثمير في الحياة الواقعية . وما حدث قط من « ماركس » ولا مني اننا قررنا غير ذلك ، ولكن الذي يحاول أن يجعل العامل المادي وحده فعالاً في التاريخ يخرج بالعبارة من معناها الى كلام مجرد بغير معنى . . فالعامل المادي هو المهم في الاساس ولكن العوامل الاخرى السياسية وغير السياسية ـ من دساتير وشرائع ومؤثرات ذهنية ونظريات فلسفية وعقائد دينية ـ كلها تسيطر على منازعات التاريخ وتقرر اشكالها في كثير من الاحيان[1] » .

وليس لهذا الاعتراف من نتيجة معقولة الا ادحاض المذهب والعدول الى شيء من الاناة ، بل كثير من الاناة ، في الدعوة الى الهدم ، والاصرار على اللدد في مكافحة كل مخالفة كبيرة أو صغيرة له في تفسير التاريخ . . فان الفصل بين العوامل الانسانية وبين العوامل الآلية في حوادث التاريخ المتشابكة ليكونن من ضروب التنجيم والتخمين بعد هذا الاعتراف ، ولا يجوز لاحد ـ بناء على الزيادة هنا أو النقص هناك من هذه العوامل أو تلك ـ أن يعلنها فتنة عمياء بلا هوادة ولا اصغاء الى مختلف الآراء .

ولكن هل عدل الشيوعيون بعد هذا الاعتراف عن صيحتهم الاولى التي تحفز الضغائن في نفوس اليائسين الى غاية مداها من الهدم والعدوان ؟

هذا هو الشيء الذي يستطيعونه ، وذلك هو الموقف الذي لا يستطيعون التراجع فيه ، لانه أساس المذهب كله في اعماق الطبائع دون الآراء والتخريجات التي يلفونها ويشدونها ويلقون بها حيث تنقاد لهم وحيث لا تنقاد ليتخذوا منها الحجة لدعوة الهدم والعدوان .

وغني عن القول أن هذه الشهوة العمياء تضللهم عن الحقائق التي بين أيديهم ، كما تضللهم ـ من باب أولى ـ عن الوقائع التي يدعون النظر اليها بغير

---

(١) رسائل « انجلز » التي نشرت في الـ Socialistische Acadamiker شهر اكتوبر سنة ١٨٩٥

الثقة حين يتكلمون عن المستقبل القريب والمستقبل البعيد ، فقد كان « انجلز » يؤكد في كلامه عن الاشتراكية الطوبية والاشتراكية العلمية ـ التي هي اشتراكية دون غيرها بطبيعة الحال ـ أن الثورة الشيوعية بادئة في المانيا منتشرة منها الى الديار الاوربية من حولها ، وكان البيان المشترك ـ المانفستو ـ يؤكد في سنة ١٨٤٨ أن المانيا على ابواب ثورة برجوازية تتبعها ثورة الصعاليك او البرولتارية ، وكانت نبوءات كهذه كذبت جميعا ولم تصح لهم نبوءة واحدة . . وما من احد يطالب داعية المذاهب الاجتماعية بعلم الغيب الا أن يكون داعية للشيوعية الماركسية ، فان المذهب الذي يقوم على نبوءة لازبة يتقرر بها أو لا يتقرر على الاطلاق يجب أن يقاس بمقياس نبوءته القريبة دليلا على ما وراءها من النبوءات التي تستباح في سبيلها الفتن والحروب والثورات . وماذا يبقى من مذهب المادية التاريخية اذا سقطت نبوءته التي يبنيها على قوانين الانتاج ، ويجعلها ضربة لازب مفضية الى قيام المجتمع الذي لا طبقات فيه بعد انتهاء صراع الطبقات ؟ الا أن الداعية الشيوعي قد نسي الجانب المهم في هذا الاعتراف الذي جاء بعد الفراغ من شرح المذهب بثلاثين سنة . . فليس المهم أن « انجلز » وزميله « كارل ماركس » أهملا العوامل النفسية أو العوامل الانسانية تحديا لخصوم المذهب ومناقضيه ، لكن المهم أنهما قضيا العمر يفسران الازمات الحاضرة والغابرة تفسيرا ناقصا مخطئا لا يصلح للاعتماد عليه في العواقب العظمى التي يرتبانها عليه . . ونتيجة ذلك ان الشيوعية تسقط من عداد المذاهب التي يؤخذ بها في تصوير الحالة في زمانها وتصوير الحالة أو الحالات التي ينبغي أن تعقبها . . وهذا هو محور البحث كله في حقيقة الدعوة وعواقبها ، فليست هي صورة صادقة للشكايات الاجتماعية ولا هي صورة صادقة لعلاجها وتقدير العواقب التي تخلفها وتتوفر الجهود على تحقيقها والتعجيل بانجازها عن ثقة لا تقبل التسامح واختلاف وجهات النظر في الاصول والتفصيلات ، كما هو دأب الشيوعيين عامة مع من يخالفهم في أصغر الامور وأكبرها على السواء . .

وعلى هذا يجب أن نسقط الشيوعية من عداد المذاهب التي تفسر شكايات

القرن التاسع عشر وتتولى علاجها ، وهذا هو الحد الفاصل بين انكار الشيوعية وانكار تلك الشكايات . . فلا نكران للشكايات الاجتماعية التي تجاوبت بها الامم خلال القرن التاسع عشر ، وانما ينكر المنكرون . . بحق ـ ان الشيوعية تحسن وصفها وتحسن علاجها ، فضلا عن دعوى المدعين انها استأثرت بالوصف الوحيد الصادق والعلاج الوحيد الموافق للعلم والتفكير السليم .

ان شكايات القرن التاسع عشر بعضها اقتصادي من أثر الصناعة واختلاط المعاملات واتساع الاسواق وموارد الخامات ، وبعضها أدبي « معنوي » من أثر التطور في الافكار والعقائد ومقاييس الاخلاق ، والشيوعية لا تفسر هذا ولا ذاك تفسيرا يركن اليه أو يحمل على محمل العلم والدراسة .

ونعود الى أولئك الذين يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل ، فنقول : انهم يفعلون مثل ذلك في اظهار الانصاف لمبادئها ودعاواها . . فالانصاف الحق لهذه الدعوة المعتسفة أنها « كلام فارغ » لا يصمد للنظر ولا يليق بالعلم أن يسلم له بالصفة العلمية على حسب العنوان المعلق عليه . . فمن الجهل المطبق ان يجيئنا احد فيزعم انه ملك زمام الحقائق الابدية ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، ثم نتقبل منه هذا الزعم لانه سماه بالعلم واحتكر له الصفة العلمية ، ومن الجهل المطبق أن تقاس الشيوعية بمقياس الحوادث الجسام التي حملت عنوانها ، فان مبادىء الشيوعية لم تخلق الثورة الروسية . ولم يكن من العسير على جماعة من الناس كائنا ما كان عنوانها ـ أن تقود تلك الثورة كما قاد النازيون المانيا ، والفاشيون ثورة ايطاليا ، وقاد اتباع « سن يات سن » ثورة الصين ، وقاد غيرهم حركات الامم في اوروبا وآسيا وافريقيا بعد الهزائم وقلاقل الحكم وأزمات المعيشة . . كلها ثورات وجدت من يقودها من الجماعات المنظمة بعد سقوط الدول لاسباب متفرقة أشد التفرق متباعدة أشد التباعد في المصادر والدعاوي والغايات . .

انما حق الشيوعية من العلم أن نفسرها بتفسير الظواهر النفسية في الطبائع المريضة ، فأكبر مبادئها واضح البطلان اذا طبقته على قواعد البحث وبرامج الاصلاح ، وأصغر وساوسها ـ بل أخفى خفاياها ـ واضحة المعنى اذا رجعت

بها الى دخائل النفوس المريضة التي تتحفز للنقمة وتلبي كل من يحفزها اليها .

و« كارل ماركس » لم يبتدع الشيوعية لانه رجل عطوف حريص على تخفيف الآلام ورحمة الضعفاء . . والذين صدقوه لم يصدقوه لانهم فكروا في مبادئه ، أو يقدرون على التفكير في مبدأ من المبادىء على اطلاقها ، فان تسعة أعشارهم لا يقدرون على التفكير لمحة عين ولا يبالون أن يقدروا عليه ، ولكنهم يصدقون الشيوعي لانها تشبع فيهم بواعث النقمة وترضيهم عن خطتهم التي يتبرمون بها ويمتلئون بصغارها ، وانهم لتصدمهم أكاذيب الشيوعية وأكاذيب دعاتها أكذوبة بعد أكذوبة ، ثم تبقى الشيوعية بحذافيرها حيث كانت من طبائعهم ان لم يزدها الغضب على من يكذبونها . . لان الشيوعية بحذافيرها قبل الاستماع الى دعوتها ، وبعد الاستماع لكل حجة تناقضها ، هي كلمة واحدة حيث رجعت اليها من طبائع دعاتها ومصدقيها ، وتلك هي كلمة « النقمة » على كل انسان وعلى كل شيء .

وليس على بصيرة بطبائع هذه النفوس من يحاول أن يقنعها بالحجة والعيان ، وليس بسليم اللب من يحاول أن يصرف عن الشيوعية لئيما تسميه الانسانية مجرما وتسميه الشيوعية ضحية المجتمع ، أو ماجنا تسميه الانسانية حقيرا وتسميه الشيوعية متقدما يحتقر الرجعية وآدابها أو أمرأة هلوكا تسميها الانسانية بغيا وتسميها الشيوعية متحررة من رق الزوجية المفروضة عليها . . فهذه محاولات مخفقة من البداءة ايا كان موقعها من الحجة المقنعة والعيان الملموس . و سنعرض حقيقة الشيوعية ـ بعد تلخيصها ـ من هذه الناحية التي تحتويها من طرفيها ، وسنرى انها واضحة جدا كلما رجعت بها الى مصادرها من النفوس المريضة ، وانها مبهمة جدا كلما صدقنا لجاجة المتحدثين عنها باسم العلم والاصلاح . .

المذهب

تقوم المادية الماركسية على أساس مستعار من مذهب هيجل[1] الفيلسوف الالماني صاحب « المثالية » أو « الفكرية الحديثة »، ويقول « لينين » في تعليقاته الفلسفية التي نشرت بعد موته : « ان كتاب « رأس المال » لا معنى له بغير مذهب « هيجل » القائم على تطور النقائض أو الثنائية ».

ولباب مذهب « هيجل » ان الوجود الحق انما هو وجود الفكرة المطلقة ، وأن الفكرة ابدية ازلية قادرة على كل شيء ولكن بالقوة والقابلية . . فاذا أرادت أن تحقق كل شيء بالفعل فانما سبيل ذلك أن تحققه في أطوار التاريخ .

والفكرة تعرف كل شيء كذلك بالقوة والقابلية ، ولكنها تتطور لتعرف نفسها بالفعل وتصل الى أرفع اطوارها في وعي الانسان . .

وغايتها القصوى أن تعرف كل شيء ، أي أن تعرف نفسها ، لانها هي كل شيء . . وبهذه المعرفة تتحقق الحرية المطلقة من جميع العوائق ، فتصل الفكرة الى طور من أطوار الحرية كلما وصلت الى طور من أطوار المعرفة الى ان تتم هذه الاطوار بتمام المعرفة وتمام الحرية . .

واذا كانت الفكرة مطلقة ابدية ازلية ، فهذه الاطوار محدودة . . وكل طور منها ناقص يتممه طور آخر ، وهذا الذي يسميه « هيجل » قانون النقائض ، او قانون الثنائية ، أو كما سماه بعضهم قانون الحوار من باب المجاز ، لان الحوار يقدم رأيين متقابلين . . فكل طور من أطوار التاريخ لا يشتمل على كل كامل ،

---

(1) Hegel

بل يشتمل على جزء يقابله جزء آخر ، وتكمن فيه جرثومة التناقض لانه بعض وليس بكل محيط بجميع الخصائص والمزايا والاطوار . .

فنحن لا نفهم شيئا من الاشياء بما هو عليه فقط ، بل نفهمه بما ليس عليه أيضا ، أو كما قيل في المثل القديم : « وبضدها تتميز الاشياء . . » فالشيء الموجود ونصطلح على تسميته ب« الفعل »[1] يقابله نقيض [2] ويتألف منهما معا وجود أكمل منهما لانه يجمع مزايا الاثنين ، وهو في اصطلاح « هيجل » مركب النقيضين[3] .

فهناك فعل وهناك ضد لذلك الفعل ، ثم يتركبان فيصبحان شيئا واحدا . . ثم يبدأ التناقض مرة أخرى حتى ينتهي الى تركيب أتم من التركيب الاول ، وعلى هذا النمط المتتابع يتطور التاريخ وتتقدم المعرفة والحرية . . لانها معرفة تأتي من وجوه متعددة ، وتأتي بعد الخلاص من قيود النقائض التي يحد بعضها بعضا ، فكل نفيضة منها تحد ما يقابلها .

والتناقض ـ على هذا ـ هو دافع الحركة ودافع التقدم والحرية ، الى أن يبطل التناقض في الاجزاء باحتوائها جميعا في الكل لا يوجد شيء خارجه ولا يوجد من ثم شيء يناقضه ، فهو الحرية بغير حدود والمعرفة بغير مجهول . .

ومقتضى مذهب « هيجل » ان الحكومة البروسية هي اعلى ما ارتقى اليه الوعي الكوني من اطوار التاريخ ، وبقيامها بين المحكومين تتحقق حرية الجميع ، لان حرية كل منهم تصطدم بحرية الآخر اذا لم تجتمع هذه النقائض جميعا في قوام واحد ، وهو قوام تلك الحكومة . .

ولذلك كانت للفيلسوف « هيجل » حظوة كبرى في اعين السادة والامراء الالمان ، وكان هو الفيلسوف الوحيد الذي يحضرون دروسه مع الطلاب ، وان اتفق معه في مواعيد الدرس فلاسفة آخرون .

---

(1) Thesis

(2) Antithesis

(3) Synthesis

وعلى حسب مذهب « هيجل » هذا يمكن ان يقال : ان الفوضى الاولى في المجتمعات البدائية تبعتها السلطة المطلقة ، ثم اجتمع من الفوضى والسلطة المطلقة نظام الاستبداد المحدود ، ثم ظهر نقيض الاستبداد المحدود في نظم الحكومات الديمقراطية والامبراطورية والمتحدة . كأنها حلقات الماء التي تحيط كل حلقة منها بالحلقات التي تقدمتها . . ثم تتسع وتتسع ، ولا تزال في كل مرة قابلة للاحاطة بما قبلها والامتداد الى ما بعدها . .

وتتعدد مظاهر التاريخ عند « هيجل » فتدل عليها الافكار والفنون ، كما تدل عليها الدول والنظم والقوانين . . . وتخلق فينا هذه المظاهر بواعث الرجاء ثم تاتي بعدها بواعث اليأس بما كنا نرجوه ، فما يقوينا وينهض بعزائمنا اليوم يعود فيملأ نفوسنا باليأس لكي نتخطاه ونتطلع الى رجاء اعظم وابقى ، ومن هنا تترقى الاديان والمعتقدات وتترقى المعرفة وشعائر الايمان . . فكل ايمان في حالة من احوال المعرفة يتبعه ايمان أعظم منه في حالة أعلى وأوسع من تلك الاحوال .

وجاء « كارل ماركس » فأبقى اطار هذا المذهب وأفرغه من محتوياته ، ونقله من مذهب فكري الى مذهب مادي لا يرى في الكون شيئا غير المادة ، وسمى مذهبه بالمادية الثنائية ، وسمى قوانينها التي تسيطر على تاريخ الانسان بالتفسير المادي للتاريخ . . فالمادة هي كل شيء ، والفكرة مخلوقة من المادة ، والوعي الانساني هو اعلى ما ارتقت اليه المادة من أطوار التاريخ . .

وعند « كارل ماركس » أن هذه الاطوار تتناقض ، ويحمل كل طور منها جرثومة نقيضه ، ويطبقها على المجتمع الانساني فيقول : ان الضرورات المادية في المجتمع هي التي تحرك ادوار التاريخ ، فيأتي كل دور منها بنقيض ما تقدمه ، ولا تزال تتعاقب نقيضا بعد نقيض حتى يأتي الدور الاخير في المجتمع الانساني ، فيخلو من النقائض ويستولي على المجتمع نظام واحد لا اضداد فيه . .

ولما كانت الضرورات المادية تحتاج الى انتاج ـ بعد حالة المشاع التي كانت عامة في المجتمعات البدائية ، فالمشرفون على وسائل الانتاج هم الذين

يحكمونه ويخلقون له العرف الذي يلائمه والعقائد التي تتمشى مع مصالحهم ، والاخلاق التي تكفل البقاء لسيادتهم ، ولا تنقضي دولتهم الا اذا انقضت وسائل الانتاج وخلفتها وسائل غيرها يملكها اناس آخرون . . وهذا ما يسميه حرب الطبقات . .

وهذه هي النقائض المادية التي يعول عليها في تفسير التاريخ . .

ففي البدء كانت المشاعية التي لا ملكية فيها لاحد ، ثم استولى السادة على وسائل الانتاج باستخدام الارقاء والمسخرين الذين هم في حكم العبيد . . ثم ذهب هؤلاء السادة وجاء بعدهم الفرسان ارباب الاقطاعات الذين يسخرون الزراع كما كان اسلافهم يسخرون الارقاء ، ثم جاء بعدهم تجار المدن واصحاب الاموال البرجوازيون ، او الطور الاول من أطوار رأس المال . . ثم جاء الطور الثاني من أطوار رأس المال مع تقدم الصناعة ونشوء الصناعة الكبرى في عصر البخار والمخترعات الحديثة .

ونقائض التاريخ الانساني ـ على هذا ـ تنتقل من عصر المشاعية البدائية الى عصر الرق الى عصر الاقطاع الى عصر البرجوازية الى عصر رأس المال الاخير ، وهنا تنتهي النقائض لانتهاء عصر الاستغلال .

ففي عصر الرق يستغل السادة عمل العبيد ، وفي عهد الاقطاع يستغل الفرسان عمل الفلاحين والصناع ، وفي عصر البرجوازية يستغل أرباب الاموال عمل الاجراء ، وفي عصر الصناعة الكبرى تنحصر الاموال شيئا فشيئا بين أيدي القلة الصغيرة من أصحاب المصانع والشركات حتى يستنزفوا ثروة المجتمع ، فلا يبقى فيه غيرهم وغير المسخرين لهم محرومين من كل شيء الا السلاسل والاغلال .

ويثور هؤلاء على سادتهم يأسا من كل خير يأتيهم من المجتمع « الرأسمالي » فيزيلونهم ويقبضون بعدهم على ازمة الانتاج بغير استغلال وبغير تسخير . وهذه هي غاية التاريخ الانساني التي تبطل فيها النقائض ولا تبقى فيها غير طبقة واحدة ينتهي بعدها صراع الطبقات ، وينتهي عندها كل

صراع في الحياة الاجتماعية . . اذ كانت وسائل الانتاج هي مدار الصراع كله في أوائل حركات التاريخ . .

في هذا العهد يؤ ول كل شيء الى كل انسان ، فلا يوجد من يملك أرضا او مالا يستأثر به دون سائر ابناء المجتمع . . ويظل شعار المجتمعات الانسانية أبدا « من كل أحد حسب قدرته الى كل احد حسب حاجته » ولا سيطرة ولا دولة ، ولا نزاع ، ولا حروب . .

ولما كانت الحكومات انما تقوم لحماية المالكين لزمام الانتاج الاقتصادي ، فلا ضرورة للحكومات مع شيوع الثروة وتوزيع الاموال ، ولكنها قد تبقى زمنا محدودا خلال فترة الانتقال ، ثم تتضاءل وتذوي شيئا فشيئا حتى تذهب في النهاية غير محسوس بها وبغير جهد من المحكومين .

وعلى حسب المادية الثنائية ، يموت كل دور من أدوار التاريخ بجراثيم الفناء التي تتولد في بنيته بطبيعة تكوينه ، ولكنه لا يموت حتى يبلغ قصاراه من التمام . . فاذا تمت مقوماته جميعا فآخر عهده بالتمام اول عهده بالزوال . .

وقد آلت أدوار الاستغلال الى دور الاستغلال الاكبر وهو دور الصناعة الكبرى . . وهو استغلال يعيش بالقيمة الفائضة ، وينمو بالقيمة الفائضة ، ثم يموت بالقيمة الفائضة . .

وما هي هذه القيمة الفائضة ؟ . .

هي في مذهب « كارل ماركس » نظرية العمل والكسب ، لانه يقرر ان العمل يعطي كل شيء قيمته ، فلا قيمة لشيء من الاشياء بغير العمل الاجتماعي الذي يبذل فيه . .

واذا لم يكن هناك استغلال وجب أن يأخذ العامل ثمرة العمل كله ، لانه - بهذا العمل - يعطي الثمرة قيمتها التي لا قيمة لها بغيره . .

الا أن صاحب المال يستغل اضطرار العامل ، فلا يعطيه من عمله الا الكفاية لقوته وما هو في حكم القوت من ضرورات المعيشة ، ثم يأخذ الزيادة لنفسه

ويتصرف بها في توسيع ثروته ونفقاته . . وهذه الزيادة هي التي يسميها « كارل ماركس » بالقيمة الفاضلة . .

ومن لوازم رأس المال في عهد الصناعة الكبرى ، انه يزيد اضطرار العامل الى قبول الاجر القليل يوما بعد يوم ، لان أدوات الانتاج - من الآلات الضخمة - تغلو كلما تقدمت الصناعة فلا يستطيع اقتناءها وادارتها الا صاحب المال الكثير . . هذا من جهة .

ومن الجهة الاخرى يتنافس اصحاب الاموال بنقص الاثمان فتنقص الاجور ، ثم يبلغ هذا النقص حدا لا يتجاوزه لانه يمس الضرورات المعيشية التي لا غنى عنها للاجسام الحية . . فيلجأ أصحاب الاموال الى زيادة الربح بزيادة قدرة المكنات على الانتاج ، ولا تزال هذه القدرة تزداد حتى تخرج للاسواق فوق حاجتها وحتى ترتفع أثمان المكنات الى أعلاها ، فيزداد العامل اضطرارا على اضطرار كلما كسدت البضائع وارتفعت أثمان المكنات وتمادى التنافس بين المنتجين الى نهاية لا مناص عندها من الوقوف والحيرة بين المتناقضات ، وهذه هي ازمة الازمات في نظام رأس المال .

ويحدث في أثناء هذا التنافس ان يعصر أصحاب الاموال بينهم كل مشتغل بالصناعة من المتوسطين او الفقراء فيلحق كل فريق منهم بأقرب الطبقتين اليه . . فريق يلحق بأصحاب رؤوس الاموال ، وفريق آخر يلحق بالاجراء الذين لا يملكون غير القوت ، وهم البرولتارية أي الطبقة التي لا تنتج غير الاطفال ، والى هذه الطبقة يوجه « كارل ماركس » نداءه الذي يقول فيه : « اتحدوا يا صعاليك العالم . . فأمامكم عالم تغتنمونه وليس عندكم من شيء تفقدونه غير القيود والاغلال » .

ويعلم « كارل ماركس » أن العالم الذي يدعو الصعاليك الى هدمه يقوم على الاوطان والعقائد وآداب السلوك والعرف المتبع بين الامم ، فيقرر أن هذه الاشياء كلها تابعة لنظام رأس المال ولا بد أن تزول ولا تبقى منها بقية ليزول ذلك النظام . . فانما الأوطان ، والعلاقات الاجتماعية ، والعقائد ، والاخلاق

كافة ، وليدة النظم السياسية لحماية القائمين على مصادر الثروة . . واي فكرة تنشأ في مجتمع انساني فلا محل لها فيه الا ان تكون عونا لذوي السلطان على دوام ذلك السلطان .

والنظر في حقيقة هذا المذهب يتطلب النظر في أهم مبادئه التي وردت موجزة فيما تقدم ، وهي المادية ووسائل الانتاج وصراع الطبقات ، والقيمة الفاضلة ، ونشأة العقائد والآداب .

وسيكون النظر في هذه المبادىء موضوع الفصول التالية ، نبدأها ببيان علاقة المبدأ بالظواهر النفسية ، ونتبع ذلك بزيادة في الشرح لتمحيص الدعوى العلمية التي يدعيها أصحابه لجميع مبادئه وقضاياه وتفسيراته وعواقبه التي تستلزمها تلك المبادىء والقضايا والتفسيرات ، ولا تقبل عاقبة غيرها في كبيرة ولا صغيرة من حوادث التاريخ . .

وأول هذه المبادىء الهامة مبدأ المادية الثنائية ، لانه يحيط بها جميعا ويسميها باسمه بين المذاهب الفكرية والاجتماعية ، ويقيمها على اساسه فلا قوام لها بغير هذا الاساس . .

المادية

تفسير « المادية » بالظواهر النفسية واضح قريب التناول ، فهي أدنى المذاهب الى اليأس والعنف والخطط الآلية ، وأشد الماديات اغراقا في اليأس والعنف تلك المادية التي اختارها « كارل ماركس » وسماها بالمادية الثنائية . .

فالمذاهب المادية متعددة ، أشهرها المادية المكنية والمادية الناموسية . .

والمادية المكنية هي التي تتخيل الكون في صورة مكنة مدارة ، تتركب كل اداة منها في موضعها وتدور كلها كما تدور الآلات . . وهي مذهب يفتح الباب لتصوير « المدير » الذي يركبْ تلك الآلة ويحرك دواليبها ويضع كل جزء منها في موضعه ويديره بالتوافق مع الاجزاء الاخرى لانجاز عملها وتحقيق أغراضها . . ومثل هذا الباب قد تأتي منه الرحمة وقد يفضي الى افتراض القدرة المدبرة الحكيمة ، فلا ينبغي أن يفتح ولا بد من اغلاقه وان لم تقم في المذهب الماركسي حجة تسوغ ذلك الاغلاق .

يقول « كارل ماركس » في رسالته عن الفيلسوف فيورباخ Feuerbach : « ان العيب الاكبر في مذاهب المادية الموجودة ـ ومنها مادية « فيورباخ » أن الموضوع والواقع والحس انما تفهم على انها موضوعات للتأمل ، ولا تفهم على انها عمل انساني يحس ويتصرف ، وانها هي صاحبة الفاعلية » .

فلا بد عند « كارل ماركس » من مكنة تدير نفسها من باطنها ولا يمكن أن تدار من خارجها على فرض من الفروض ، ولهذا يجب أن تسقط المادية المكنية او « المكنازم » من الحساب على أي احتمال .

وشبيه بالمادية المكنية من بعضْ الوجوه مادية النواميس ، وهي التي يقول

أصحابها ان ظواهر الكون المحسوسة كلها مادية تديرها النواميس المركبة في طبائعها ، وتتحرك في نطاقها بأمر خالق المادة وخالق النواميس . . وقد تدخل في هذه المادية فلسفة الهند القديمة التي ترى أن المادة وهم ظاهر وأن الحقيقة المطلقة وراء هذه المحسوسات وهذه النواميس .

واذا كانت المادية المكنية مرفوضة في رأي « كارل ماركس » لانها قد تفتح الابواب لافتراض المدير المدبر ، فالمادية التي تؤ من بوجود الحقيقة من وراء الظواهر والنواميس مرفوضة من باب أولى . .

ولا يعنينا هنا أن رأي « كارل ماركس » صحيح أو غير صحيح ، ولكن الذي يعنينا منه موقعه من الظواهر النفسية ، وهو أقرب المذاهب موقعا من اليأس والعنف والخطط الآلية . .

أما البحث في هذه المادية بمقاييس الفكر والعلم فمحصوله انها ترقيع ، وأنها تفكير ساذج ، وانها بقية من بقايا الخرافات الاسرائيلية ، وأنها لا تنتهي الى نتائجها التي انتهى اليها « كارل ماركس » ولو صحت مقدماتها المفروضة ، وليس منها فرض صحيح . . فمن الترقيع ان تستعار فلسفة « هيجل » من المثالية الى المادية وتستعار معها مصطلحاتها وأطوارها ، ثم يقال انها باطلة كما وضعها صاحبها ، وصحيحة كما استعارها منه « كارل ماركس ».

ان الفلسفة النظرية تصويرات أو تصورات في الذهن تحتمل التجوز الكثير ، لانها تبحث في شؤ ون يقدرها الذهن ويرى أنه بلغ فيها قصاراه اذا خلص منها الى تقريب الحقيقة الى الادراك الانساني بعض التقريب . . فاما أن يقال : إنها باطلة في النظر صادقة في الواقع من قبيل المصادفة بجميع مصطلحاتها . . فذلك هو الترقيع السخيف الذي لا مثيل له فيما نعهده من ترقيعات الرثاثة والسخافة ، لأنه يرقع الشيء بغير مادته . او يرقع النظريات بالواقعيات ويزعم انها تلفق لها بالمصادفة ، ولا تلفق حيث وضعها فيلسوف الحكمة المثالية .

والسذاجة في المادية الماركسية أظهر من سخافة الترقيع والتلفيق ، لانها تقوم على النظرة العامة السهلة التي كانت شائعة بين جمهرة المتعالمين في القرن

التاسع عشر ، ممن يستسهلون التحقيق والتفسير ويظنونهما شيئا ملموسا قريبا من دق المائدة بالايدي وخبط الارض بالاقدام ، وهذه هي الحقيقة في رأيهم لا ما يتوهمه الواهمون في أحاديث الغيب والخيال . .

كان أحدهم ينكر تفسير الكون بالفكرة او بالحقائق الغيبية ، ويقول ـ وهو يدق بيده على المائدة ويخبط بقدمه على الارض ـ: هذه هي الحقيقة التي تفسر لنا كل شيء وليست تلك الفروض المغيبة وراء الواقع الملموس باليدين . .

وعند هؤلاء ان المادة مفسرة بالبداهة ، ناطقة بالبداهة ، غنية بالبداهة ، عن كل تفسير وكل تعبير . .

هذه هي المادة تحت يديك وقدميك وامام عينيك ، فما حاجتها الى التفسير والتعبير ؟ . .

هذه النظرة الساذجة هي نظرة « التفسير المادي » للوجود ظاهره وخافيه ، وهي نظرة « كارل ماركس » في تفسير الكون وتفسير التاريخ وتفسير كل محتاج الى تفسير . . الا المادة نفسها فانه لم يحاول قط ان يفسرها ويفسر حقيقتها في الحس أو في العقل أو في الخيال ، لان تفسيرها في وهمه ـ أو في عمله ـ ان تضرب بيدك على المائدة فاذا هي هناك ، وان تخبط بقدمك الارض فتسمع « وجودها » ناطقا صادقا غنيا عن البيان .

وسذاجة هذه النظرة لم تكن خفية في عصر « كارل ماركس » لو شاء ان يتأنى ولم يشأ ان يتعجل بحافز من الرغبة في تقرير ما يوافق هواه . . ولكنها في عصره ربما كانت خفية على المتعجلين بادية لمن يؤثرون الاناة والروية امام المجهول . .

أما اليوم فكل سامع من الملمين بأطراف الحديث عن المادة ، يعلم أن مشكلة الروح في أعمق أعماقها لم تواجه الذهن بعقدة في تفسيرها كالعقدة التي تواجهه عند تفسير المادة . . نقول « كل سامع » من الملمين ولا نقول « كل دارس او كل عليم » لان حديث المادة في اصولها وراء الذرة والشعاع قد أصبح من الاحاديث المتواترة على كل لسان . .

ما هي المادة ؟ . .

ليست هي هذا اللون المنظور ، لانك لا تنظره الا بشبكة العين الانسانية فاذا ضاقت امواجه أو اتسعت فلا لون أمام عينيك . . وليس هذا اللون بعينه منظورا لكل ذي عين من الاحياء . .

وليست المادة هذه الدقة التي تسمعها اذا ضربت المائدة بيدك ، لان يدك لا تدق شيئا اذا تضاعفت قوتها مئات الاضعاف او الوف الاضعاف ، بل تجري دون المائدة كما تجري في هذا الفضاء . .

وليست المادة هذا الوزن الثقيل او الخفيف ، لانها تقوم بغير هذا الوزن وراء حدود الجاذبية الارضية . . المادة ذرات ، والذرة لا يدري احد أهي موجة أو جوهر فرد صغير بالغ في الصغر ولكنه يقبل الانقسام فيطير شعاعا في الاثير . .

وما هو الاثير ؟ كل ما قيل عن الروح أيسر فهما واقرب الى الادراك من هذا الاثير . .

شيء لا لون له ، ولا كثافة ، ولا حركة ، ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة في علم العارفين بها والعاملين في ذراتها . .

وقبل أن نصل الى هذا اللغز المركب نقف عند الذرة وما فيها من البروتون والنيوترون والالكترون ، وما يقال عن البروتون السالب في الفضاء المستعصي على الفهم في حيز هذا الجو وعلى مقربة من عناصر المادة واجزائها الى ادق دقائقها المدركة بالفرض والتخمين . .

و « كارل ماركس » مع هذا ـ يظن في علمانيته التي لا حد لها ـ انه يفسر بهذه المادة كل شيء ، وان هذه المادة غنية كل الغنى عن تفسير المفسرين وتقدير المقدرين . . يقول في البيان المشترك : « ان الشبهات التي تلقى على الشيوعية من جانب الدين ، او جانب الفلسفة ، او جانب الافكار النظرية على العموم ـ غير جديرة بالجد في تمحيصها واختبارها ، فهل يحتاج الامر الى بداهة عميقة لنعلم أن خواطر الانسان وآراءه ومداركه ـ أو بكلمة واحدة وعيه ـ

يتغير مع كل تغير يطرأ على كيانه المادي وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة ».

لا . . ان هذه الحقائق المادية عائمة على السطح لا تحتاج الى بداهة ، ولا اختبار ، ولا امتحان ، ولا تردد ، ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التي يرسلها « كارل ماركس » من طرف اللسان فلا يضطرب فيها قولان .

وندع أسرار المادة جميعا ، ونسلم مع « كارل ماركس » انها مجردة من كل سر ننتظر به المستقبل لكشف خباياه ، وأنها مفسرة صالحة لتفسير جميع نواميس الكون ووقائع التاريخ ، فلماذا يلزم من ذلك أن وسائل الانتاج هي التي تتحكم في تاريخ الانسان ؟ . . ولماذا يكون الناس احق بهذه القوة من الادوات الصماء ؟

ان مطالب المعيشة ضرورة لا غنى عنها لجميع الاحياء ، ولكن ضرورتها هذه لم تمنع الاحياء أن يتعددوا انواعا وأفرادا لم تحصرها العلوم بعد ، ولم تحصرها الحواس والعقول ، واضطرارها جميعا الى مطالب المعيشة لم يمنع هذا التنوع الهائل في أجناسها وطبائعها وآحادها . .

فلماذا نسقط هذه القوى الحية من حسابنا ولا نلتفت في تفسير أطوار التاريخ الا لوسائل الانتاج الصماء ؟ . . لماذا تكون هذه القوى الحية رهينة بالآلات الصماء ؟ ولماذا تكون كذلك بعد ظهور نوع الانسان و هو الذي يصنع تلك الآلات الصماء ؟

يقول « ماركس » و« انجلز » فيما جاء من مجموعة الرسائل المختارة : « اننا نعتبر أن الاحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر اخيرا أطوار التاريخ ، ولكن النوع الحيواني هو نفسه عامل من العوامل الاقتصادية ».

وكثيرا ما جاء في كلام « ماركس » و« انجلز » ان الانسان فاعل منفعل ، وانه بين القوى المادية هو القوة الوحيدة التي لها عقل وارادة . . فلماذا تكون هذه القوى العاقلة المريدة رهينة بالآلات الصماء ولا تكون الالات الصماء تابعة لها في جميع الاحوال ؟

واذا هبطنا بالانسان عن عليائه وسوينا بين تأثيره وتأثير المكنات ، فلا أقل من أن نسوي بين القوتين في التأثير ، تارة للجماعات العاقلة الرشيدة وتارة لادوات الخشب والحديد . . فهذه اذن حلقة مفرغة لا يتبين أحد منها على سبيل الحتم موضع الابتداء وموضع الانتهاء . ولا يستطيع احد ان يقول على سبيل الحتم أين ابتدأت ارادة الانسان ، او أين ابتدأ احساسه بالمطالب الجديدة في شؤ ون المعيشة ، وأين ابتدأ عمل الآلات والمكنات . . لا يستطيع احد أن يقول أن الناس احسوا هنا فأرادوا فغيروا واخترعوا ، وان الآلات وجدت بعد ذلك فتسلمت بين يديها أطوار التغيير والتبديل ، وهما اذن على الاقل عاملان متساويان متعادلان مجهولان على حد سواء أو معلومان على حد سواء ، فلماذا اختار « كارل ماركس » على سبيل الحتم أن يكون الحكم الاخير للآلة واصر على ذلك اصراره الذي نلمحه متشنجا من أجله لكل مخالفة له في تقديره ، ولم يقع اختياره على العامل الآخر عامل الارادة والعقل والحياة ؟

أما سبب ذلك في الظواهر التاريخية ، او في اسانيد البحث والنظر ، فغير مفهوم وغير ثابت وغير قاطع في ثبوته ان كان له نصيب من الثبوت . واما سببه في الظواهر النفسية فلا عناء في البحث عنه لانه يفسر لنا كل شيء ولا يختلف عليه تفسيران . .

سببه في الظواهر النفسية انه هو الطريق الوحيد لاشباع شهوة النقمة والشر في طبيعة « كارل ماركس » وانه الاساس الوحيد الذي يقوم عليه افتراض المجتمع الذي لا طبقات فيه ، وتسويغ الهدم والعدوان على كل ما عداه .

ينبغي أن تكون الآلات هي الحكم الاخير في انشاء الطبقة التي تستولي عليها ولا تأتي بعدها طبقة تناقضها . .

اما اذا كانت العوامل الانسانية هي الحكم الاخير فالباب مفتوح لانشاء نقيض جديد للمجتمع الاخير ، وطبيعة الانسان بنقائضها الكثيرة كفيلة بالانتقال مرحلة اخرى من نظام الى نظام ، لانها هي مصدر النقائض ومصدر البواعث الى اختراع الآلات .

يجب اذن ان تكون الطبقة الاخيرة طبقة بغير نقيض لانها تستولي على وسائل الانتاج .

أما اذا كانت وسائل الانتاج لا تمنع النظم الانسانية ان تتناقض ولا تمنع البواعث النفسية أن تعمل في طلب السيادة والسلطان ، فمن أين يأتي الشر والخراب ، وكيف ترتفع الصيحة بهدم كل ما كان وكل من كان من تراث الامم والازمان ؟

يثبت شيء واحد لا يستغني عنه « كارل ماركس » في سبب ولا نتيجة ، وهو شهوة الهدم . . ثم يركب عليه الاسباب والنتائج او يدعها لك تركبها كما تشاء ، وما دام هناك باب مفتوح للهدم ، فكل ظن ثابت ثبوت اليقين وكل ما عداه كفر وبهتان .

وباب الهدم لا ينفتح اذا كانت النقائض تاتي من القوى الحية ، لان هذه القوى الحية تخرج لنا طبقة جديدة بعد كل طبقة ، وتسلط عواملها الدائمة العميقة الاغوار لطلب السلطان او طلب السيادة على المجتمع الجديد .

ويا للخسارة اذن ويا لخيبة الرجاء ! .

لا محل اذن لاستئصال الجماعات وتقويض ما بناه الناس في مختلف الحضارات ، ولا محل اذن للغاية الاخيرة التي من اجلها نقتحم جميع الغايات .

ولا ضرورة للبحث عن تفسير جامع مانع لمعنى المادة ، ولا عن دليل قاطع على غلبة الادوات والآلات ، اذ يكفي ان تنظر وراء جميع الفروض والتخمينات ، فترى الهدم هناك أو لا تراه . . وحيث ترى الهدم فكل شيء ثابت ، وكل شيء واضح ، وكل شيء مفسر اليوم ، ومفسر الى آخر الزمان . . وحيث لا ترى الهدم ، فكل شيء باطل مناقض للعلم متهم النية متهم الدليل !

ومن سخرية القدر أن النظامين اللذين قاما في أضخم بلاد العالم وانتسبا الى « المادية الماركسية » قد فعلا في « ‹ › » اضعاف ما فعلاه في اثباته ، وهما نظام

روسيا ونظام الصين . .

فكل منهما قد هدم القاعدة الاولى من قواعد المذهب ، لانه هدم قوله : ان الثورة السياسية تابعة للثورة الصناعية ، واثبت ان الثورة السياسية هي التي تنشىء الصناعة الكبرى او هي التي تهيء الاسباب لانشائها . . ولا حاجة بالثورة السياسية الى تلك التلفيقات اللولبية التي يتملص فيها دعاة المذهب من جحر ليدخلوا في جحر آخر ، ويجعلوها مقدمات محتومة في زعمهم تفضي الى نتائج محتومة لا مهرب منها . . ولا حتم هناك وانما هو الترخيص او الاستثناء الذي يجوز في كل مذهب ، ولا يستأثر بطريق واحدة للتاريخ لا يؤذن له في خطوة يخطوها الى وجهة غيرها . .

فالثورة الروسية قامت بعد الحرب العالمية الاولى في بلاد ترجع الى الصف الاخير بين صفوف البلاد الصناعية ، والثورة الصينية التي انتسبت الى المذهب المادي قامت بعد الحرب العالمية الثانية على ايدي الفلاحين خلافاً لما توقعه جميع الاقطاب الشيوعيين خارج الصين ، وعلى راسهم « ستالين » .

والصين ـ بعد ـ هي البلاد التي اخترعت المطبعة والبارود والابرة المغناطيسية والمدن التجارية وعملة الورق ومصارف الموانىء وسلسلة المعاملات « البرجوازية » التي انتشرت في بلادها وتجاوزتها الى غيرها ، ولم تفعل تلك الادوات شيئا مما فعلته في أوربة وفرضت به فرائضها المحتومة على مجرى التاريخ من نظام الرق الى نظام رأس المال . .

واذا جاز مثل هذا الترخص أو الاستثناء ، فما هو وجه الحتم الذي لا يرتضي مقدار شعرة من الحيد الى يمين او يسار ، ولا يحتمل من المستقبل البعيد تعديلا من مفاجآت التاريخ او من مبتكرات التطبيق ؟

يتساءل « كارل ماركس » بغير حق : هل يحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليعلم ان تاريخ الانسان يتوقف على ضروراته المادية ؟ ويلقي هذا السؤال ولا يلقي بالا الى الضرورات التي تنشأ من الانسان وقد ينشىء من أجلها الالات ووسائل الانتاج .

ولكننا نتساءل بحق : هل يحتاج الانسان الى بداية عميقة ليعلم أن وسائل الانتاج ووسائل الاشراف عليها وراء الحسبان من الآن الى آخر الزمان او آخر الازمان .

ما هي وسائلنا الصناعية اليوم الى جانب وسائل الطاقة الذرية ؟ وما هي وسائل الطاقة الذرية الى جانب القوة المغناطيسية وقوة الجاذبية ؟

لقد كان يسيرا على « كارل ماركس » ان يتخيل في زمانه مجتمعا يستولي فيه الصانع على مكنات الصناعة ، فلم تمض على زمانه عشرون سنة حتى اصبحت ادارة المكنة الكبيرة هندسة يتخصص لها المدير بدراسة السنين ، ولا ينفرد بعدها بادارتها دون الخبير الاداري والخبير الاقتصادي والخبير السياسي والخبراء في غير الاقليم على نحو من الخبرة يناسب كل اقليم .

أهو لعبة هذا المصير الانساني بمفاجآته واحتمالاته ونقائضه وأعاجيبه ، يأتي رجل واحد في بضع سنوات ليفكها ويركبها على حكمه وهواه ، ثم يغلق الباب فلا مراجعة ولا تردد ولا ارتياب .

أهذا هو العلم وما عداه هو الوهم أو الحلم أو الخرافة أو الويشية في التفكير ؟ . . كلا . . مع استعارة قليلة من « كارل ماركس » في توكيداته الخارقة بغير موجب للتوكيد . . اذ لا يحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليرى أن الخرافة هي هذا الهراء ، وان العلم وسلامة التفكير من هذه الخرافة براء .

قلنا : ان المادية الماركسية بقية من بقايا الخرافات الاسرائيلية ، على ما فيها من الترقيع والتفكير الساذج والنتائج التي لا تستلزمها المقدمات . .

فاذا رجعنا مرة اخرى الى الظواهر المادية فهناك خرافة النعيم الالفي التي امتلأت بها الاساطير الاسرائيلية العتيقة ، ولم يفلت « كارل ماركس » من اوهامها على الرغم من صيحاته باسم العلم او صيحاته على أفيون الشعوب افيون الاديان . .

Millnium (1)

والنعيم الالفي خرافة اسرائيلية تقول لشعب الله المختار : ان العالم سيخرب بعد ألفي سنة ، ثم يخرج من في القبور من أبناء اسرائيل فيعمرونه في نعيم مقيم لا تبديل فيه ولا تأخير ولا تقديم . . هذا النعيم الالفي هو ميراث اليهودي « كارل ماركس » من أساطير قومه ، وله ميراث آخر من عاداتهم وتقاليدهم وان لم يكن من الخرافات او النبوءات .

ميراثه الآخر هو تقديس الفلوس ! ما الذي يحرك التاريخ ؟ . . الفلوس ! . . ومن الذي يسود العالم ؟ . . صاحب الفلوس ! .

ومن هم القابضون على زمام الحضارات والعقائد والاداب والفنون والاخلاق وكل ما يشتمل عليه تاريخ الانسان في السر والعلانية وفي هذا الزمان و وما غبر من الازمان وما سيأتي او سوف يأتي من الازمان ؟

سبحان الله . . هل يحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليعلم أن القابض على هذه الازمة جميعا هو القابض على مفاتيح الفلوس ؟

هذه احدى الظواهر النفسية التي لا بد منها لتفسير المذهب الماركسي بين ظواهره وخباياه ، وهي تنقضه ولا تفسره وكفى . . لانها ترينا كيف يكون صاحب المذهب ثمرة من ثمرات الظواهر النفسية تعمل عملها حيث تصادفها الظواهر النفسية من قبيلها ، وقلما تصادفها مقدمة من مقدمات التفسير المادي على وفاق المذهب وأحاجيه وقضاياه .

الشيوعية والطبقات

الطبقات والانتاج

تاريخ الانسانية في رأي الماديين المفسرين للتاريخ هو تاريخ الطبقات المتوالية . .

والعامل الحاسم في تكوين الطبقة هو وسائل الانتاج ، فمن يملك وسائل الانتاج الضرورية في المجتمع ، فهو سيد المجتمع ، وكل ما في المجتمع من شرائع وعقائد وآداب وعادات فهو مسخر في خدمة مصالحه واغراضه بقصد أو على غير قصد من الطبقة الحاكمة او الطبقات المحكومة .

ولا داعية الى استمداد قول من غير أقوال الماديين التاريخيين لاسقاط هذه القاعدة الكبرى على أساسها ، لان الاقوال المسلمة عندهم تكفي لاسقاطها وتشككهم على الاقل فيها ، وتوجب عليهم أن يبحثوا عن سبب غير هذا السبب ـ أو مع هذا السبب ـ لتفسير الاطوار التاريخية ، لولا انهم يريدون هذا السبب ولا يريدون غيره ، ويتعمدون ان يصلوا الى نتائجه المقدرة عندهم من طريقها او من غير طريق .

فمن المسلمات عندهم ان الانسان قد وصل الى تدجين النبات وتدجين الحيوان قبل أن تظهر فيه طبقة تستغل الطبقات الاخرى ، وأن هذا التدجين قد تم على خطوات متعاقبة ، أولاها صيد الحيوان للانتفاع بلحومه وجلوده في الطعام والكساء ، وثانيتها صيد الحيوان والاحتفاظ به للانتفاع بألبانه وأصوافه ، وثالثتها صيد الحيوان للانتفاع به في الزرع والحرث والانتقال وحمل الاثقال .

فاذا كانت هذه الاطوار الهامة قد تمت قبل نشوء الطبقة ، فليس من الحتم اذن أن تكون الطبقة هي التفسير الوحيد للأطوار السابقة والاطوار التي نشأت بعدها ، وليس هذا من الحتم بصفة خاصة اذا كانت الاطوار التاريخية ملتبسة

العوامل والاسباب كما يقول « انجلز » في كتابه عن فلسفة « فيورباخ »[1] وكما يقول في كتابه عن أصل الاسرة ، وهو الكتاب الذي اتفق مع استاذه « ماركس » على آرائه ومات « ماركس » قبل ان يكتبه ، فكانا في جميع هذه الآراء على وفاق .

يقول « انجلز » ما ترجمته بحرفه : « انه بينما كان تحقيق هذه القوى الدافعة للتاريخ في حكم المستحيل نظرا لاشتباكها واختفاء العلاقات المتداخلة بينها وبين آثارها ، نرى أن عصرنا الحاضر قد بسط الى الان هذه العلاقات المتشابكة تبسيطا يمكننا من حل الغازها ، وأنه بعد قيام الصناعات الواسعة ـ او بعد الصلح الاوربي سنة ١٨١٥ ، على الاقل ـ لم يبق سرا مجهولاً عند احد في بريطانيا ان الصراع السياسي كله انما يدور على تنازع السيادة بين طبقتين : طبقة الملاك النبلاء ، والطبقة الوسطى » .

وما معنى هذا على أي وجه من الوجوه أردنا أن نعرف معناه ؟ .

ان معناه البين أن اطوار التاريخ قبل القرن التاسع عشر لم تكن قاطعة في الدلالة على سبب وحيد لا يسمح بافتراض سبب آخر ، لاستحالة الفصل بين المقدمات والآثار .

ومعناه ان النظرية التي يريدون من أجلها ان يقلبوا الكون على من فيه قائمة على ملاحظات محصورة في نحو ثلاثين سنة من تاريخ الانسانية ، يجوز جدا أن تختلف بين تلك الفترة التي كانت بداءة انتقال لم تظهر عواقبها التي لا يطيق الماديون انتظارها ، لانهم في عجلة لا تحتمل هذا الانتظار .

وليت الملاحظات ـ ملاحظات ثلاثين سنة ـ في تاريخ الانسانية قد كشفت عن شيء يؤيد مذهبهم بين الطبقات ، لان الصراع بين الملاك النبلاء والطبقة الوسطى لم يكن صراعا على استغلال احداهما للاخرى ، بل كان صراعا على

---

(1) Ludwig Feurbach and the outcome of Classical German Philosophy.

دعوى السيادة كما قال « انجلز » وغايته في رأيه هي استغلال طبقة ثالثة من العمال . .

ان تدجين النبات والحيوان قبل نشوء الطبقة كاف لتقدير اسباب للاطوار الاقتصادية والاجتماعية غير تنازع الطبقات . . فان لم يكن كافيا ، فحسب الباحث الامين ان يعلم أن الملاحظات المستمدة من التاريخ مشكوك فيها قبل سنة ١٨١٥ ، وان الملاحظات المستمدة بعدها مأخوذة من تاريخ ثلاثين سنة ، ليقف موقف المتهيب قبل الهجوم على الهدم وتحريم النظر في كل حيلة للاصلاح تنقذ الامم من هذه العاقبة . .

الا أننا لا نريد أن نكتفي بهذا العرض لرأي القوم تفنيدا لدعواهم في هذا الامر الجلل ، ونريد أن نسترسل في تفصيلاتهم لان التفصيلات أدل على سخف هذه النظرية من ذلك العرض الوجيز .

فلنعلم اذن أن امتلاك وسائل الانتاج هو أصل الطبقات المستغلة ، ولكن يجب أن نعلم مع ذلك أن الملكية لذاتها ليست عاملا حاسما في تكوين الطبقة ، لان الاجير الفقير قد يقيم في كوخ يملكه ، وصاحب المصنع الغني قد يقيم في قصر يستأجره ، وما الملكية الحاسمة الا ملكية الوسائل التي تنتج ضرورات المعيشة .

كذلك لا يتوقف الامر على وحدة المصادر التي تأتي منها الثروة ، فان الطبيب والمحامي يعيشان من مصادر مختلفة وهما من طبقة واحدة . ولكن العلاقات الاقتصادية في تكوين الطبقات اهم من مصادر الكسب والمورد . وكل طبقة تتعلق مصالحها بالطبقة المسيطرة على وسائل الانتاج فهي لاحقة بها منتمية اليها ، وشعورها نحوها على وفق شعورها بالاعتماد على بقائها والدفاع عن مصالحها . .

وعلى هذا التقدير يرى الماديون المفسرون للتاريخ أن الانسانية مرت بسبعة أدوار منذ قيام الجماعات او المجتمعات الاقتصادية فيها . . الدور الاول هو دور « الشيوعية البدائية » وهو دور كانت الملكية الخاصة فيه مجهولة وكانت

مرافق المجتمع مشاعة بين جميع افراده ، ولم تكن فيه بضائع للبيع والتبادل ، وانما كانت فيه حاجات للمعيشة في متناول من يريدها . .

والدور الثاني هو دور « البربرية السفلى » وفيه ظهر الحديد واصبحت له قيمة تجارية او استغلالية ، وهنا ظهرت وسائل الانتاج ولم يظهر العمل المأجور بعد . . اذ كانت وسائل الانتاج في ايدي الاسرة تتقسم بينها العمل والجزاء . .

والدور الثالث هو دور « البربرية العليا » وفيه ظهر الزيت والخمر مع الحديد والمعادن المصنوعة وانقسم فيه المجتمع الى اغنياء ، وفقراء يحتاجون الى مافي ايدي الاغنياء فيعملون في خدمتهم ويعيشون من عطائهم . .

والدور الرابع هو دور « السادة والارقاء » وفيه ظهر العبد المسترق الى جانب الفقير المدقع ، وكانت مجتمعات المدن اليونانية تجمع هذه الطبقات بتغليب عمل الرقيق تارة وتغليب العمل المأجور تارة اخرى . .

ثم كان الدور الخامس متمثلا على أتمه في نظام الدولة الرومانية ، فقام العمل كله ـ او اكثره ـ على كواهل الارقاء ، واصبح العمل عيبا يترفع عنه الرجل الشريف صاحب الرئاسة والمكانة في المجتمع وفي الدولة . .

ثم كان دور الاقطاع وساعد على قيام سيادة البرابرة على الدولة الرومانية ، فان السادة بين البرابرة لم يكن يعيبهم أن يعملوا او يشتركوا في العمل ، فاصبح رب الاقطاع سيد المجتمع الجديد خليطا من المنتج والمستغل لانتاج الاخرين .

وجاء الدور السادس وهو دور « رأس المال الاول » وكانت التجارة فيه غالبة على الصناعة والزراعة ، واتسعت اسواق التجارة في اثناء هذا الدور بعد كشف امريكا وطرق الملاحة الى الشرق الاقصى ، فكانت طبقة تجار المدن ـ البرجوازية ـ صاحبة السيادة في هذا الدور . .

وتلاه دور رأس المال في عهد الصناعة الكبرى ، وهو الدور الذي يبلغ فيه الاستغلال اتمه ويبلغ فيه نهايته المحتومة في وقت واحد ، وتقوم بعده طبقة

واحدة لا تستغل غيرها فلا تقوم الى جانبها طبقة اخرى .

ويسقط دور رأس المال هذا حين تجتمع الثروة كلها في قبضة احاد معدودين ، وتبقى الكثرة الساحقة من المجتمع محرومة لا مصلحة لها في الصناعة الكبرى . . فتثور على اصحاب الاموال وتهدم اركان المجتمع القائم وتنشىء لها مجتمعا يلائمها بعلاقاته وعاداته وادابه . وتقضي على اصول الاديان والعقائد الاولى لانها وجدت جميعا للدفاع عن أصحاب وسائل الانتاج ، وتمكين كل طبقة مستغلة في دورها من تسخير العاملين على اختلاف الاعمال والصناعات .

ويعجل سقوط نظام رأس المال كلما اشتد التنافس بين أصحاب الاموال او أصحاب المصانع ، فتطغى الثروات الكبيرة على الثروات الصغيرة ، وتتقلص الاوساط بين أصحاب رؤ وس الاموال والاجراء ، ويتحكم أصحاب رؤ وس الاموال عند زوال المنافسة فلا يسمحون للاجراء بأكثر من الرزق الضروري لاقامة أود الحياة .

ومما يعجل بسقوط هذا النظام أن صاحب المال يحتاج الى مضاعفة الربح بزيادة المنتجات ، فتزيد هذه المنتجات عن الحاجة ولا تجد من يشتريها في أوطانها ، وتدعو الضرورة الى استعمار البلاد المتأخرة واستغلال خاماتها وأيديها العاملة ، ولكنه علاج مسكن يؤ جل القضاء المحتوم ولا يدفعه ، ثم يأتي هذا القضاء حين تصبح طبقة أصحاب الاموال منعزلة وحدها أمام الجموع المسخرة في داخل البلاد وخارجها .

ومتى انفردت الطبقة الحاكمة في هذا النظام أمام الجموع الزاخرة التي تئن تحت وطأتها فتلك هي الخاتمة التي لا فكاك منها ، وتلك هي نهاية الطبقات وبداية العهد الابدي الذي لا طبقات فيه . .

***

وقبل البحث في صواب هذه الآراء او خطئها نبدأ بالاشارة الى علاقتها بالظواهر النفسية ، لان هذه العلاقة واضحة هنا كما تتضح في كل مبدأ وكل

رأي وكل تأويل من أصول المذهب أو فروعه . .

ما هي الطبقة ؟ . .

الطبقة في تعريف « كارل ماركس » هي الطائفة التي تكون لها مصالح معارضة لمصالح طبقة اخرى . . وعلى هذا يكون التعريف هو البرهان !

لا بد من فرض العداوة بين الطبقات حتى يقال انها طبقات . . والا فهي معدومة أو ناقصة في دور التكوين .

فلا يمكنك أن تتكلم عن طبقة الا اذا افترضت العداوة لازمة لوجودها ، وهكذا يدور بك التعريف والبرهان معا في حلقتهما المفرغة التي لا يدرى اين طرفاها . . فهي طبقة لانها تعادي غيرها وهي تعادي غيرها لانها طبقة ، ولا بد من عنصر العداء في جميع الاحوال .

ونعود الى سؤال « كارل ماركس » لنعيده بحق فنسأل : هل يحتاج الانسان الى بديهة عميقة ليعلم أن الناس يختلفون ولو لم تكن هناك طبقات ؟

أليست هناك أعمال متفاوتة في الكفاية والاهمية ؟ . . أليست هناك رغبات تتنازع بين الناس لتقدير كفاياتهم واختصاص كل منهم بأحب الاعمال اليه ؟ . . وأين هو مقياس الشعرة الذي يجعل كل انسان يعرف قدره ولا يزيد عليه ، ويعرف حاجته ولا يزيد عليها ، ويعرف عمله الواجب ولا ينقص منه ؟ . . وأين هو ميزان الشعرة الذي يحكم بين أصحاب الحظوظ المختلفة من القوة والصحة والذرية والذكاء والهمة والجمال وسائر المزايا التي يتفاوت بها الناس ولا تضبط الفوارق بينها في ميزان ؟

لا بد أن تنفى هذه الفوارق كافة من كل حسبان وكل مظنة وكل احتمال . . لانك اذا اعرتها حقها من الاثر الفعال أفلتت الفرصة وانفتح الباب ـ او الابواب الكثيرة ـ لاختلاف الاقدار واختلاف الناس في الكسب والمعيشة واختلاف الطبقات .

فلا بد اذن أن تنفى هذه الفوارق كما تسقط الفوارق من قبيلها في قصص

العجائز واحلام الحالمين في أسطورة « أورفيوس » وما اليها من الاساطير التي أبطلت النزاع قديما بين الذئاب والنعاج وبين الكواسر والبغاث .

هكذا والسلام ! . .

والا فكيف تسنح الفرصة التي لا فرصة غيرها للهدم والجزم واغلاق الطرق كافة أمام بني الانسان غير الطريق اللازم لـ« كارل ماركس » ، ولا منعرج عنه الى سواه ؟

اننا سنرى ان « كارل ماركس » لم يصنع شيئا ، ينفي هذه الفوارق ، لان وسائل الانتاج لن تؤول الى أيدي طبقة واحدة ولو زالت جميع الطبقات التي عرفت في تاريخ الانسانية الى الآن ، ولن يأتي الزمن الذي تصبح فيه السيطرة على وسائل الانتاج سهلة مبذولة لكل من يريد ، ومتى افترقت الكفايات والاقدار والاعمال فليس تعريف القوم للطبقة الا كلمات مرصوصة من لغو المقال .

***

وبعد ملاحظة هذه الظاهرة التي لا مرجع غيرها لوضع الطبقة في موضعها من مذهب « كارل ماركس » نعود الى الدعوى العلمية التي يدعونها لاصول المذهب وفروعه ، فنقول ان الثقات من خبراء علم الانسان « انتروبولوجي » لم يثبتوا فرضا من تلك الفروض ولم يذكروا لنا مجتمعا من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الانتاج ، ونحن في عصرنا هذا ننظر الى المجتمعات المترقية في الحضارة فلا نرى مجتمعا منها خلا من المشاعية التي كانت في العصور الاولى مما يعيه التاريخ ويدل على ما كان قبل التاريخ .

فالانهار وكنوز الثروة الارضية في حيازة المجتمع كله يمنح الرخصة في استغلالها باذن منه متفق عليه في الشريعة العامة ، والسلاح الموقوف على الدفاع العام لا يملكه فرد ولا جماعة بغير اذن المجتمع او اذن الدولة ، ومثل الانهار والمناجم وأسلحة الجيوش كمثل الآبار والمراعي وأسلحة الصيد العامة أو أسلحة القتال في المجتمعات البدائية ، لم يتغير فيها شيء من جهة المبدأ او

جهة التحليل والتحريم بحكم العرف والشريعة .

ولم يذكر علماء الانسان عهدا حرمت فيه الملكية الخاصة من هذه الوجهة ، ولكنها تترك للاستغناء عنها كما تترك ملكية الانهار وما اليهـا في الحضـارات المترقية ويمكن ان يقال ان الملكية الخاصة وجدت حيث وجدت الحاجة اليها والرغبة فيها والقدرة عليها ، وانها قائمة قيام المشـاعية او الشيوعية في المجتمعات الاولى .

يقول « سبك »[1] في مبحثه عن أرض الصيد بين قبائل الشمال الشرقي الحمراء : « « ان ارض الصيد هنا محدودة بحدودها الصريحة يرثها الابن عن أبيه ، وتنتقل الزوجة الى سكن زوجها الخاص ، وللاخوة في بعض الاحوال حقوق في المزايا الاقتصادية »[2] .

ويقول الرحالون الذين عاشوا بين قبائل الكاي في غانة الجديدة ، ان الارض بينها مشاعة على العموم ، ولكن اللص الذي يضبط في أرض يقوم على زرعها احد غيره يجوز قتله ولا يحق لاهله ان يثأروا له أو يطلبوا الدية من قاتله ، وانهم ربما سمحوا بغرس شجرة مثمرة في ارض الغريب ولكنهم لا يسمحون ببناء كوخ أو خص عليها ، وان الرجل منهم يملك اسنان الخنزير البري أو اسنان الكلب ، لانها ذات قيمة سحرية او فنية ويحق له ان يقتل من يسرقها او يحاول اغتصابها ، وان ثمرات الاشجار عندهم حق لغارس الشجرة في حقل يزرعه غيره ، وان الصائد الذي لمح الصيد لاول مرة صاحب حق فيه لا نزاع عليه .

ويروي خبراء علم الانسان عن قبائل « كاريرا » الاسترالية ان الأرض عندهم قد تملكها شعبة من القبيلة ، وقد ينشب القتال بين مالكيها واعدائهم ثم لا يخطر على بال الغالب أن يستولي على الأرض ويطرد منها من كانوا يحتلونها من

Speck (1)

The Family Hunting Band as the Bassis of Orgonlkian organization (2)

- Primitive Society » D.H. Lowie (3)

العشائر المهزومة .

وتروى حالات شبيهة بهذه الحالات عن العشائر البدائية في الهند وسيلان والاقاليم الافريقية ، يرجع اليها في مصادر كثيرة نذكر منها كتاب « رحلات في افريقية الغربية » « لكنجلي » وكتاب « العشائر والبطون في كليفورنيا الجنوبية » لـ « جيفورد » وكتاب « السكان الاصلاء في ويلز الجديدة الجنوبية » لـ « فريزر » وكتاب « توزيع الارض وتقاليد الميراث بين المكسيكيين الاقدمين » لـ « بالدلير » وأشباه هذه الكتب والتقارير التي اجمعت على اختلاط احوال المشاعية والملكية الخاصة في الجماعات الاولى ، ولم ينفرد منها مرجع بحصر جماعة قط في نظام واحد خلا من اثر الملكية الخاصة أو أثر الملكية المشاعة .

وأيا كان المرجع في هذه النظم ، فلا الخير ولا العقل يسيغان أن نتصور أن الاستغلال وجد لان اناسا أرادوه وقالوا لابناء مجتمعهم : نحن نريد أن نستغلكم ، فقال لهم أبناء المجتمع : حبا وكرامة . . ها نحن أولاء بين أيديكم فاستغلونا كما تشاؤ ون ! .

فما وجد الاستغلال قط لانه رغبة مستجابة لا معارضة فيها ، وانما وجد لانه قدرة يستطيعها أناس ويعجز عنها أناس آخرون . . وهذه القدرة إما أن تكون قدرة الشجاعة ، أو قدرة الخبرة بفنون القتال ، أو قدرة القيادة السلمية ، أو قدرة البنية القوية التي تخضع من تغلبهم لمشيئتها وتروضهم على طاعتها . .

وقلما تكفي البنية القوية وحدها لتمكين احد من القيادة الدائمة ما لم تكن مقرونة بمزية عقلية او خلقية تسندها وتدبر لها وسائل دوامها .

ونحن نقرأ في كلام « ماركس » و« انجلز » ان المجتمعات البدائية انتقلت من عصر المشاعية الى عصر الرق بعد أن تعودت الاغارة على جيرانها والتعويل على ثمرات أرضهم وكسب أيديهم ، ولكنهما يعبران هذا الدور عبورا سريعا ، ولا يقولان لنا كيف وجدت الطبقة التي تسترق العبيد من الاسرى الغرباء او من أبناء القبيلة الضعفاء .

وهنا نرجع الى الظاهرة النفسية لتفسير هذا السكوت او هذا العبور السريع ، فان اللعبة كلها لعبة الهدم والنقمة ـ تبطل لا محالة اذا اعترف « ماركس » وأتباعه بالطبيعة الانسانية التي تميز أناسا بالشجاعة ، وأناسا بالدراية في فنون القتال ، وأناسا بالحيلة والذكاء أو « بالشخصية » المطاعة لجملة هذه الصفات مجتمعات ، وإذا اعترف « ماركس » بوجود هذه المزايا قبل أن توجدها وسائل الانتاج لم يستطع أن ينفي كل النفي ـ على طريقته الجازمة الحاسمة ـ ان قيام الطبقة الغالبة ممكن بعد انهيار نظام رأس المال ووصولنا الى المجتمع الذي لا طبقات فيه ، وما دامت الطبيعة الانسانية قد عملت في انشاء الطبقة الاجتماعية فهي عاملة غدا في انشائها بعد قيام المجتمع المزعوم الذي لا طبقات فيه ، وليس في وسع « كارل ماركس » اذن ان يجزم ويعزم ويدمدم على من يناقضونه ، ويحولون بينه وبين امنيته العزيزة التي يضرب حولها السدود ويابى جهده أن يحوم حولها الخيال ولو على ابعد احتمال .

ان الثقات من رواة علم الانسان لم يذكروا لنا مجتمعا في اعرق اطوار الهمجية خلا من الممتازين بمزية النسب أو الدراية او القدرة ، ولو أننا عرضنا قطعان الماشية التي تملكها تلك المجتمعات لوجدنا بين تلك القطعان مزايا القيادة والزعامة وغزارة الدر وكثرة الذرية . . فاذا كان الادميون الذين يملكونها جمهرة من الناس لا تنوع بينهم ، فما هم بالمجتمع ولا هم بالبنية الاجتماعية التي لها وظائفها وأعضاؤها وخصائصها ككل بنية حية . . وتفصيل هذه الخصائص والمزايا مشروح في كتب علم الانسان وعلم الاجناس البشرية التي لا نحصيها ، ولكنها مجملة في باب الرتبة من كتاب « الجماعة البدائية » لمؤلفه الدكتور « روبرت لوي »[1] حيث يقول :

« ان الافكار المتطرفة في اختلاف الاقدار موجودة في جوانب شتى من العالم وقبائل « المايدو » الشماليون يصلحون نموذجا يقاس عليه . . فهنا رئاسة انتخابية مبنية على الثروة والسخاء ، ولكن « الشامان » اذا كان بصفة خاصة

Primitive Soiciety by : Lowie (1)

رئيسا للجماعة السرية له قدر يغطي على قدر الرئيس ، والواقع ان انتخاب الرئيس انما يكون بوساطة « الشامان » الذي ينقل وحي الارواح باختياره كما ينقل وحيها باسقاطه ».

ثم يقول : « ان الفوارق السابقة تنشأ من اختلاف الافراد مستقلة عن فوارق الدرجة والنسب . والامثلة مع ذلك متعددة لاحوال التفوق الفردي الذي ينقل بالوراثة ».

ويقول المؤلف عن مزايا الشجاعة : « ان الهمجي لا يتهم بالبلاهة ولا يغفل عن المزايا المتعددة ولا يجهل أن الرجل الكسلان في العمل قد يكون ناشطا فذا في الصيد او اصابة الهدف ، وبعد تلخيص الامثلة من جماعات امريكا وافريقية وجزر الاقيانوس التي تحسب من القبائل الهمجية يقول في الاجمال الاخير ان المجتمعات الديمقراطية ـ اي التي يولد فيها الاطفال سواء في الرتبة ـ لا تلبث خصائصهم الفردية ان تميزهم بعضهم عن بعض فلا يكونون جماعة هملا على سواء ، بل مجتمعا متكونا من الافراد[1] .

ولعلنا ـ نحن بني الانسان ـ خلقاء ان نترك لحكم العلم كل بحث الا البحث في بواعث النفس الانسانية وطبائع الاحياء العاقلة . . ففي هذه الامور يحق لنا ان نراقب انفسنا ونراقب تجاربنا ، ونقول كلمتنا الى جانب كلمات الباحثين بين شعوب الهمجية او شعوب الحضارة حين يحكمون على النفوس ولا ينحصر حكمهم في الاخبار والروايات . . وهذه الطبيعة الانسانية فينا ومن حولنا وأمامنا في تواريخ الامم التي تعددت اجناسها وأقاليمها ووسائل انتاجها ، ولم تحتجب في طور من اطوارها دلائل الطموح والهمة والنزوع الى التفوق والرئاسة ، وليس من العلم أن نمسح هذه التجارب المحسوسة وهذه الدوافع الكامنة فينا لنصغي الى قول يقوله « كارل ماركس » عن الطبيعة الانسانية كأنها طبيعته وحده ، وليست طبيعة الناس في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم . . ولو كان قولا يسمع من هنا ويترك من هنا لصح ان يصغي اليه من يريد أن يصغي الى كل

---

(1) Aggregate of Individuals   Agglomeraiton of undiffereniated Automata

مقول مسموع ، ولكنه قول له جرائره ولا تقل جريرة منها عن تقويض كل ما كان ، وتفنيد جميع المأثورات والمسلمات .

ولمن يريد به ان يقول انكم تحكمون على الطبيعة الانسانية فيما مضى وما حضر ، ولا تستطيعون ان تحكموا عليها في ظروف غير تلك الظروف مما يتمخض عنه المستقبل المجهول .

نقول : نعم ، لا نستطيع . . ولكننا نقيس المقبل على الحاضر والماضي الذي تشابه أو تقارب في جميع العهود . . اما الذي لا يستطاع حقا فهو الجزم بالتغيير وترتيب النتائج الحاسمة عليه ، فنحن لم نر المستقبل ، و« كارل ماركس » لم يره . . وعلينا ان ننظر الى نبوءته بكثير من الحذر والتريث في امر ينقض كل ما عرف الى الآن عن طبيعة الانسان .

واذا قدرنا حسن النية ، وخطر لنا أن الامر قد التبس على دعاة المادية في منتصف القرن التاسع عشر . . فليس هذا الالتباس بالسائغ بعد التجربة الروسية في القرن العشرين ، فان المجزرة التي حدثت حول تفسير الآراء الماركسية وتطبيقاتها لا تنتهي الى غير نتيجة من نتيجتين : فاما انها آراء خلافية لم تبلغ من الثبوت مبلغا يساوي العواقب التي تترتب عليها ، واما ان هذه المجزرة أثر من آثار الصراع بين العوامل النفسية في طبيعة الانسان . . كائنا ما كان نظام الانتاج ووسائل الانتاج ، وكلتا النتيجتين لا تجيز لنا تسليم الملايين من الارواح البشرية والمأثورات الانسانية لقولة قالها صاحب نبوءة ، او صاحب علم ، أو صاحب دعوى في التبوءات والعلوم .

***

من الخطوات الاولى تعثر معنا المذهب المادي في تفسير التاريخ ، فلم يبطل الخلاف على تفسير المشاعية الهمجية ولا على تفسير الرق بعد الانتقال من المشاعية الى البربرية الاولى ، وفي وسع « ماركس » ومن على شاكلته ان يتصوروا قيام السادة والارقاء قبل ظهور المزايا البشرية في شجاعة الشجعان ودراية الاذكياء وعلو الهمة ودوافع التفوق والسيادة ، وفي وسعهم أن يتخيلوا

قطيعا من الهمل أغار على قطيع آخر وجاء منهم بالاسرى الارقاء فأسلمهم الى طائفة من السادة يسخرونهم ويحتكرون ثمرات سخرتهم ، لانهم يشتهون السيادة ولا يشتهيها معهم أحد سواهم . .

في وسع الماركسيين قاطبة ان يتخيلوا هذه الاخيلة لانهم معذورون مضطرون الى المقدمات التي تفتح أبواب النقمة والخراب ، ولكنه عذر لا يقبله المحايدون في هذه المعركة المثارة على النوع الانساني ، فضلا عن المتحيزين المتعصبين لهذا النوع ، الذين لم يخرجوا من زمرته لانهم دخلوا في طبقة من الطبقات .

ومما هو حقيق بالانتباه اليه ، ان اللبس في نظريات الماديين عن الطبقة يزداد كلما اقتربنا من العصور التاريخية المدونة ، ويطرد في الزيادة كلما اقتربنا من العصر الحاضر الذي نشاهده ونلمس وقائعه ونستقصي حسابه واحصاءه . . ولو كانت هذه النظريات على استقامة لانعكست الآية ، وكان اللبس فيما غبر عند فجر التاريخ أشد من اللبس في شؤ ون الغصر الحاضر ، ولولا علة كامنة في طوية التفكير لكان الاختلاط في شؤ ون الجماعات البدائية أشد من الاختلاط فيما بعدها عصرا فعصرا الى هذا العصر الذي يسمونه بعصر رأس المال والصناعة الكبرى . .

انهم قد اختلط عليهم الرأي في مبادىء الملكية والمشاعية كما كانت عند فجر التاريخ وكما هي في الايام الحاضرة ، والرأى المستقيم أن المبادىء متشابهة حيث وجدت الملكية الخاصة ، وربما صح ان الملكية العامة في البلاد الروسية ـ بعد اعلان الشيوعية فيها ـ مقاربة جدا للملكية العامة في البلاد المصرية على عهد الفراعنة الاول . . اذ لا فرق بين ملكية الدولة للمرافق في العهدين ، وليست الملكية هنا لجميع الافراد على السواء ولكنها ملكية للدولة ترخص فيها لكل فرد من الافراد بمقدار .

ولم تكن ملكية القبيلة مختلفة المبدأ عن ملكية الدولة أو ملكية الفرعون او ملكية الحزب المنادي بالشيوعية بين الافراد . . كلها تعرف المشاعية في

المرافق ولا تنكر الملكية الخاصة عند لزومها ، وكلها تدين بالتأميم مع اختلاف مرافقه وأساليب ادارته . . فلا محل للاطناب والتهويل في ترتيب أطوار الملكية المشاعية على مذهب الماديين .

وقد قلنا ان ازدياد اللبس في نظريات الطبقة حسب نظام الملكية حقيق بالانتباه ، لانه يقل في نظريات العهود الغابرة ويزداد في نظريات العهود التاريخية ويطرد في الزيادة كلما اقتربنا من حياتنا الحاضرة . . ولولا علة كامنة في طوية التفكير لانعكست الآية وجاز بالامس ما لا يجوز اليوم من الاخطاء والضلالات .

أما هذه العلة الكامنة في طوية التفكير ، فهي اقتراب العصر الحديث من نقطة الفصل في نتيجة المذهب بحذافيرها . . وكلما اقترب من نقطة الفصل بلغ أشد الحاجة الى العسف واللي ، وشد النظرية من هنا وجذبها من هناك ، التدخل في الحور الضيقة التي يعصرونها فيها واحدا بعد واحد حتى تأذن بالنتيجة المنظورة أو النتيجة المشتهاة .

وعلى هذا كان الخلط في شؤون الطبقة البدائية مسألة مبدأ وتفسير ، فلما اقتربنا من العهود التاريخية المدونة تعدى الخلط مبادىء الآراء الى الوقائع العيانية التي لا خفاء بها ولا نكران لها في صفحات التاريخ المعروف . .

اي فرق - مثلا - بين طبقة الاشراف[1] وطبقة السوقة[2] في الدولة الرومانية من حيث وسائل الانتاج ؟

كلتا الطبقتين كانت تملك الضياع ، وتملك التجارة وسفن الملاحة ، وتملك العبيد الارقاء العاملين في الزراعة والتجارة والصناعة والمناجم المباحة لغير الدولة . . وهذه مسألة اصيلة في المذهب المادي وليست بالمسألة العرضية التي تحتمل القولين : انها مسألة الانتاج في عهد الرقيق . . فان قامت قام معها المذهب وان سقطت سقط معها ولم تقم له قائمة . . فماذا كان بين الطبقتين من

---

(1) Patricians

(2) Plebeians

الفوارق في وسائل الانتاج وفي تسخير الرقيق ؟ . . ولماذا بقي فارق النسب ـ او دعوى النسب ـ الى نهاية الدولة الرومانية قبيل وقوعها في أيدي البرابرة تمهيدا لعهد الاقطاع ثم عهود الفرسان ؟

ولماذا انتهى عهد السادة ولم يقم بعده عهد العبيد الارقاء تبعا للاحجية الفلسفية التي جعلت النقيض مولدا للنقيض ؟

ان نهاية رأس المال بداية عهد الاجراء ، كما نعلم من جميع المقدمات والنتائج الماركسية ، فلماذا لم يستول الرقيق على ازمة الانتاج بعد زوال عهد السادة من سراة الاشراف والسوقة الرومانيين ؟

وأين هما النقيضان في عهد من العهود ؟ لماذا يكون الملك البربري نقيضا للشعب البربري ؟ ولماذا يكون الاقطاع نقيضا للرق ؟ ولماذا تكون الصناعة نقيضا للاقطاع والرق مجتمعين ؟

هذه نقائض « أحاجي » وتخمينات لا يصدق عليها معنى النقيض في المنطق ولا في العلم ولا في الصفات الاجتماعية ، وانما يجب ان تكون نقائض في عرف الماديين لانها يجب ان تكون درجات متوالية في السلم الذي ينحدر الى الهاوية : هاوية الخراب .

***

كان الخلط في المبادىء والتفسيرات عند الكلام على المجتمعات البدائية ، فلما اقتربنا من عصور التواريخ المدونة تكاثر الخلط في الوقائع والنظم المقررة ، وجعل يستشري ويمتد من عصر البربرية الى عصر الرق الى عصر الفروسية الى عصر الصناعة الكبرى . . وأول دلائل الخلط في عصر الفروسية او وسائل الانتاج لم تتغير بين العصرين : عصر الرق وعصر الاقطاع . . فآلات النسيج وآلات الري وآلات الصناعة المعدنية ومتاجر الموانىء ومصارف الحواضر ، لم يتغير منها شيء بين زمن وزمن الا كما كانت الالات والادوات تتغير بين مكان ومكان . . اي انه كان تغييرا محليا لا يرتبط بالنظم الحكومية .

وثاني دلائل الخلط في هذا العصر ـ عصر الفروسية ـ ان فرسان الاقطاع لم

يكونوا طبقة متضامنة متكافلة ، ولكنهم كانوا آحادا متنافسين متنافرين ، يفترقون او يتفقون كما كان الملوك والامراء يفترقون او يتفقون لانهم في الواقع كانوا امراء صغارا يجرون في التحالف والتخالف على سنة الامراء الكبار ، ويقفون جملة أمام جملة تدخل فيها جميع الطوائف والطبقات .

والعامل المهم في انتشار هؤلاء الفرسان بين الاقاليم او الاقطاعات ان السلطة المركزية سقطت « اولا » بعد انقسام الدولة الرومانية الى شرقية وغربية ، ثم سقطت سقوطها الاخير بعد اضمحلال الدولتين وتفرق الولايات والاقاليم بين الرؤساء البارزين فيها . .

ولو أراد « كارل ماركس » لقال ان الرعايا من الفلاحين والتجار والصناع احتاجوا في هذا العصر الى الحماية ، فنشأ نظام الفرسان موافقا لهذه الحالة واستقر بعد نشوئه لانه كان لازما لمصالح الطرفين .

ولو انه قال ذلك لما خرج على تفسيراته المادية ، ولكان مقاله اقرب الى المعقول واشبه بطبائع الامور ، لان الفرسان عدد قليل لا يزيد على الآحاد في كل اقليم ، ورعاياهم اضعاف اضعافهم يعدون احيانا بمئات الالوف ، ولا الفلاحين والتجار والصناع في كل اقليم كانوا يخشون أن يغيّر عليهم ابناء الاقاليم الاخرى ويتسلطوا عليهم في ديارهم ويسوموهم تكاليف السيادتين في وقت واحد . . سيادة الفارس الاعلى صاحب الكلمة النافذة في الاقليم ، وسيادة الرعايا لامثالهم في مرافق الزراعة والصناعة والتجارة .

ولكنه لو قال ذلك لفاتته اولا دعوى الاستغلال ، وفاتته بعدها سلسلة الطبقات حلقة بعد حلقة الى خاتمتها المنظورة . . ولو قال ذلك لاعترف بالمزايا الانسانية قبل وسائل الانتاج ، واعترف بمزايا الشجاعة والدراية العسكرية والقدرة على الرئاسة وهيبة الحكم سابقة لوسائل الانتاج ، ودون ذلك وينهار المذهب جدارا تحت جدار .

غير أن الفلسفة الماركسية لم تستطع أن تغفل عن حقيقة الصلة بين الفرسان ومن حولهم من الفلاحين وأصحاب المرافق التجارية أو الصناعية ، فأطلق

« كارل ماركس » وصاحبه « فردريك انجلز » اسم العلاقة العاطفية[1] على هذه الصلة ، ولم يطلقا عليها هذا الاسم الا لانهما كانا في عصرهما يسمعان اغاني الاجيال السابقة ينشدها الفلاحون اذ لم يبق احد ينشدها من طائفة الفرسان وامراء الاقطاع .

ثم تأتي دلالة الخلط الثالثة عند الكلام على زوال الاقطاع وزوال عصر الفروسية ، فان الفلسفة المادية تقلب الاوضاع كعادتها فتجعل زوال الاقطاع لاحقا لزوال سلطان القلاع والحصون ، وانما تحررت الافكار والضمائر ثم زال سلطان القلاع والحصون حين أراد المعترفون به قديما أن يزيلوه . .

ان البارود لم يسقط القلعة أو الحصن ، لان المنجنيق ظل زمنا اقوى من مدفع البارود ، وكان المنجنيق في أيدي حماة القلاع والحصون ، ولكن الافكار والضمائر تحررت فاستخدمت البارود للغلبة على أصحاب السلطان ، ولو أنها بقيت كما كانت ولم تتحرر لاصبح البارود نفسه اداة من ادوات الفارس المتحصن في قلعته يقهر بها من يعصيه .

وقد عرضنا لذلك في حديثنا عن البارود الذي لم ينفجر والطباعة التي لم تطبع ، فقلبت في مجموعة الاحاديث التي نشرت بعنوان « افيون الشعوب » .

« ان بعض المؤ رخين يشك في سبق اهل الصين الى اختراع البارود ، لانه يربط اختراعه بالكشف الذي سجله « روجرز باكون » في معمله عند منتصف القرن الثالث عشر ، ويرى ان وجود البارود يتوقف على وجود ملحه[2] وهو لم يكن معروفا في زعمه قبل « روجرز باكون ». الا ان الراجح ان « روجرز باكون » نفسه قد عثر على الصيغة الكيمية في المرجع العربي الذي اشار اليه « أومان » في تاريخ فن الحرب ، فان لم يصح هذا فالصحيح بلا مراء ان هذا الملح يوجدعلى سطح الارض في بلاد آسيا الشرقية ، ومنها الهند التي يوجد

Idyllic (1)
Saltbetre (2)

بها على سطح الارض الى اليوم ».

وندع هذا ونرجع الى الزمن الذي انقضى بين كشف البارود والانتفاع به في الحملات على القلاع والحصون ، فقد مضت ثلاثة قرون منذ جاء ذكر البارود في اوراق « روجز باكون » الى ان أصبح قوة فعالة في الهجوم على المعاقل المحصنة ، وقد مضت هذه القرون في تنقية الاخلاط وضبط المقادير الصالحة لسرعة الانفجار وتركيب هذه الاخلاط تركيبا موافقا للادوات التي أمكن اختراعها يومئذ سواء اكانت مما تحمله اليد أم تجره الخيول . .

وكانت مشكلة الوقت الذي ينقضي بين اطلاق القذيفة وتعبئة المدفع او الرامية عقبة معوقة ، ولم تكن من أسباب الاسراع والتغلب ، ولا شك ان المنجنيق الذي كان يقذف الحجارة على قرب قد كان أفعل من المدافع الاولى في تهديد الحصون والقلاع ، بل استطاع الهوجنوت الى اوائل القرن الثامن عشر أن يقاوموا المدفع حول الحصون بمتاريس التراب وما اليها . . فلم يكن البارود اذن هو القوى الحاسمة في تغلب نظام على نظام ، ولم يكن استخدام المدفع الاول اسهل من فنون الفروسية التي احتكرها نبلاء القرون الوسطى ، واصح من هذا ان يقال ، ان البارود في اوربا قد أفاد في ميدان الصناعة قبل ان يفيد في ميدان القتال ، لان بدعة الاسلحة النارية حولت الانظار الى البحث عن الحديد والفحم فنشطت حركة التعدين واستفادت منها الصناعات الحديثة مع توالي الطلب على حسب حاجة العصر الحديث .

***

وننتهي الى الخلط الاكبر حين ننتهي الى الحلقة الاخيرة من سلسلة الطبقات ، وهي حلقة « رأس المال » او الصناعة الكبرى .

فهذه الطبقة لا تخالف الطبقة التي تقدمها وكفى ، بل تناقضها على حسب الاحجية الفلسفية على وجه لا ندري معنى المناقضة فيه . ولا جدوى من متابعة « كارل ماركس » خلال السراديب والانفاق التي يتلوى بينها ليصل الى مبدأ هذه الطبقة ، ولا من متابعته في سراديبه وانفاقه الاخرى التي يعود فيتلوى بينها

ليصل الى فنائها ، ثم الى النعيم الالفي المرتقب في مجتمع أبدي لا طبقات فيه .

حسبنا أن ننظر الى النتائج المحتومة في تقدير « كارل ماركس » ثم نعلم ان المذهب قائم على هواء بغير أساس متى علمنا انها نتائج غير محتومة وانها منقوضة فيما شهدناه وعهدناه ، ولا يقترب بها المستقبل الى تقديره خطوة بل يبتعد بها خطوات . .

فالنتائج المحتومة في تقديره هي :

(أولا) ان الثروة تنحصر في أيدي فئة قليلة من اصحاب رؤوس الاموال وأصحاب المصانع الكبرى .

و (ثانيا) ان الطبقة الوسطى تزول رويدا رويدا ثم سريعا سريعا ، فلا تبقى منها بقية في خاتمة الدور .

و (ثالثا) أن طبقة الاجراء تبتئس وتنحدر مع تقدم الصناعة حتى تبلغ نهاية الانحدار متى بلغت الصناعة الكبرى نهاية الصعود ، ويومئذ تثور هذه الطبقة لانها لا تخسر بالثورة شيئا غير القيود والاغلال .

و (رابعا) ان طبقة الاجراء تستولي بعد ذلك على الصناعة الكبرى فتديرها لمصلحتها ، ولا تستغل بادارتها طبقة أخرى فيظل المجتمع - أبدا - بغير طبقات .

***

هذه النتائج المحتومة لم تتحقق نتيجة واحدة منها ، ولم يكن ما تحقق حتى الآن الا مناقضا لها هادما لدعواها . . فرؤوس الاموال تتفرق ولا تنحصر ، وأسهم الشركات توزع بعشرات الالوف ومئات الالوف ، ومصانع الشركات الكبرى أحيانا يساهم فيها العمال وتتفرق حصص الربح منها بين الاغنياء والمتوسطين والفقراء ، وتتحول المرافق العامة الى التأميم كلما كان المشاع أوفق لادارتها من الملكية الخاصة . . وليس هذا بمبدأ جديد في الملكية العامة

أو الخاصة ، بل هو المبدأ القديم الذي يشيع ملك المرفق ما دام الاستئثار به لمصلحة فرد أو أفراد محدودين غير مستطاع .

والطبقة الوسطى تزداد و ولا تنقبض ، ولا يقل نصيبها من الملكية او الثروة على حسب تقدير « كارل ماركس » . . ولا يتقرر ذلك بالفروض والظنون ولكنه يتقرر بالاحصاءات والارقام ، ويقوم بهذه الاحصاءات أناس من تلاميذ « كارل ماركس » يرون أن الثروة صائره الى التوزيع لا الى التركيز وأنها تصير الى ذلك في طريق غير الطريق الوحيد الذي رسمه لها « كارل ماركس » في قضائه المبرم ، ومن هؤلاء « ادوارد برنشتين »[1] الذي يسميه الشيوعيون « المنقح »[2] لانه يدخل التعديل بعد التعديل على القواعد التي يؤمنون بها ايمان المتدين بوحي السماء . وقد جعل « برنشتين » حدا لثروة الطبقة الوسطى في عصر « كارل ماركس » (١٨٥١ -١٨٨١) فقدرها بمبلغ يتراوح بين ١٥٠ جنيها وألف جنيه في السنة ، فظهر من الاحصاء أن سكان انجلترا زادوا خلال هذه المدة بنسبة ثلاثين في المائة وزاد عدد المالكين أبناء الطبقة الوسطى بنسبة مائتين وثلاث وثلاثين وبعض الكسور .

وتكررت هذه الظاهرة حسب الاحصاءات المأخوذة من المجتمعات الالمانية والفرنسية ، فازداد السكان ـ مثلا ـ في بروسيا بنسبة عشرين في المائة من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٧ وكانت نسبة أصحاب الثروة التي تتراوح بين مائة وخمسين وثلثمائة جنيه في السنة قد زادت بنسبة ٨٤,٣ في المائة وزادت الثروة التي تتراوح بين ثلثمائة والف وخمسمائة وخمسة وعشرين بنسبة ٤٦,١ في المائة وزادت الثروة التي تتراوح بين الف وخمسمائة وخمسة وعشرين وخمسة آلاف جنيه بنسبة ١٥٦,٧ في المائة[3] .

Bernstein (1)

Revisionist (2)

Evolutionary Socialism by Edward Bernstein (3)

وتسلم الاستاذ « باولي » بيانات الاحصاء في انجلترا وويلز من عصر « ماركس » الى سنة ١٩٣١ فوجد أن السكان زادوا بنسبة ٥٣ في المائة ، وان الذكور من أبناء الطبقة الوسطى زادوا بنسبة ٩٥ في المائة ، ولم يزد الذكور من العمال الا بنسبة ٦٣ في المائة ، وعد الاستاذ « باولي » من أبناء الطبقة الوسطى طوائف الكتاب والموظفين في الادارة والتجارة والاشغال الفنية ، وفصل البيان عن هذه الزيادات في تعليقاته على الطبقة الوسطى واطوارها منذ قيام الصناعة الكبرى .

ولم تأت هذه المناقضات جميعا من اناس ينكرون المادية التاريخية ، بل جاء معظمها من اناس كانوا يتبعون « كارل ماركس » ويعملون بآرائه ، ثم وضحت لهم منافرتها للواقع واستحالة تطبيقها على علاتها فعمدوا الى تصحيحها وتنقيحها ، وترقبوا شيوع الثروة من طريق التوزيع الطبيعي والتطور السلمي والتذرع بالوسائل السياسية وبرامج الاصلاح الاجتماعي لانصاف المظلومين والحد من طغيان الثروة محصورة بين أيدي طبقة واحدة من الطبقات كائنا ما كان المجتمع الذي تعيش فيه .

***

ثم يتراكم الخلط كله عند الهدف الاقصى الذي جعله « كارل ماركس » نتيجة النتائج لصراع الطبقات وتواريخ الجماعات البشرية منذ خطواتها الاولى في الحياة الاجتماعية . ولا شيء ادل على خطأ المقدمات من كذب النتيجة وصلاحها أن تكون نتيجة لمذهب آخر يفند مذهب « كارل ماركس » ويبطل سوابقه ولواحقه في تفسير التاريخ .

فالطبقة العاملة لا تزداد سوءا على سوء مع تقدم الصناعة واتساعها الى غاية مداها ، ونجاح الشيوعية اقل ما يكون في البلاد التي تقدمت فيها الصناعة ذلك التقدم ، وأكثر ما يكون في البلاد التي لم تعرف الصناعة الكبرى ولم تنشأ فيها طبقة من الصناع تديرها اذا استولت عليها ، وتنعكس النسبة تماما في هذه

Bowley . (1)

النتيجة حيث وجدت الدعوة الشيوعية ، فلا تنجح الدعوة الشيوعية الا بمقدار التأخر في الصناعة الكبرى لا بمقدار التقدم فيها ، ويحدث هذا في الامة الواحدة كما حدث في الولايات الالمانية الشرقية والغربية ، ويحدث في القارة الآسيوية كما يحدث في القارة الاوربية ، فلا تروج الدعوة الشيوعية في اليابان كما راجت في الصين ، ولا تروج في الصين نفسها بين أبناء الاقاليم الجنوبية الشرقية كما راجت بين أبناء الاقاليم الغربية والشمالية .

وكلما تقدمت الصناعة تبين أن الايدي العاملة لا تستطيع أن تديرها وأن تستولي عليها ، ونجمت في الامة طبقة جديدة من الخبراء والمهندسين تأخذ بزمامها وتملك نفوذ رأس المال أو تزيد عليه . .

فالصناعة التي كانت في عهد « كارل ماركس » سهلة الادارة يتولاها من يحرك المكنة اليدوية ، قد اصبحت خبرة دقيقة في جملتها وفي كل جزء من أجزائها ، وأصبحت هذه الخبرة موزعة على فنون مركبة وآلات متشابكة ومعارف ذهنية وسياسية وكفايات خلقية لا يقل فعلها في الادارة عن فعل الكفايات الذهنية والسياسية .

وكلما اتسع ميدان الصناعة تضاعفت الحاجة الى طبقة الخبراء والمهندسين والمديرين وذوي الكفايات على تنوعها . . فتدبير الصناعة في الميدان العالمي أصعب جدا من تدبيرها في الميدان القومي أو ميدان الامة الواحدة .

هنا بلاد تكثر فيها الخامات ، وهنا بلاد تصلح لاقامة المصانع لهذا الصنف ولا تصلح مصانعها للاصناف الاخرى ، وهنا بلاد ميسرة لمراكز المواصلات ، وهنا بلاد تقبل على الاكسية ولا تقبل على الاطعمة ، وهنا بلاد يكفيها مهندسوها وخبراؤها ومديروها ويزيدون على حاجتها ، وهنا بلاد تطلبهم من غيرها أو تستعين بهم حيث كانوا ولا تتمكن من تنشئة فريق منهم بين ابنائها ، وهنا مبادلات ومقايضات ، وهنا معاملة بالنقد أو بالصفقات التجارية ، ويحيط بكل هذه البلدان عالم متغير متنقل على حسب الاطوار البشرية والطبيعية والحوادث التي تخطر على البال أو الحوادث التي لا تقع في الحسبان . . فمن

تخيل أن هذا العالم في ميادينه الصناعية والاقتصادية يخلو فيه مكان المديرين والساسة وذوي الكفايات الذهنية والخلقية فانه لكاسد الذهن حقا مطموس الخيال أو مطموس الحس والعيان .

ومن تخيل أن « العملة » بأية صورة من صورها تبطل في هذا العالم ، فمن البلاء حقا ان يسمع له رأي في مقادير الامم واطوار التاريخ . . ومن تخيل بعد خروج العملة ـ ان خرجت ـ ان هذه العوامل المتشابكة تساس وحدها وتترك الملايين من الخلق يأخذ كل منهم حقه ولا يزيد عليه ، ويعرف كل منهم كفايته ولا يدعي ما عداها ، وتوزن فيه المطالب اليومية والسنوية بميزان الشعرة ـ الذي يرضي كل آخذ وكل مانح ـ فليس في الحالمين ولا في المخرفين من أمعن في التخيل وراء هذا الامعان ، ومن تحدث عن الغيب المجهول بسند أضعف من هذا السند وتلفيق أوهن من هذا التلفيق .

***

ان الواقع أمام أعيننا قد عصف بالمذهب المادي في مسألة الطبقات عصفا يزيل الثقة بنبوءاته عن الحاضر والمستقبل . . ولا ضرورة مع هذا لازالة الثقة واقتلاعها من جذورها ، لان الثقة التامة واجبة لكل مذهب يطلب من الناس أن يتابعوه الى نتائجه الهائلة في تاريخ الانسانية فاذا تزعزعت الثقة التامة فهذا التزعزع كاف عند كل ذي ضمير للاحجام الطويل . .

شرور أهون من تلك الشرور ، وعاقبة اقرب الى المداركة من تلك العاقبة . .

وليست النتيجة المعكوسة في امر الطبقة العاملة أو الامم التي تروج فيها الشيوعية هي كل ما يعصف بالمذهب بين يدي هذه العواقب وتلك الشرور، فان نجاح الدعوة الشيوعية بين الامم المتأخرة يصيب المذهب في مقاتل شتى ولا يصيبه في مقتل واحد . . انه يصيبه في مقتله حيث يثبت ان الدعوة السياسية تفعل ما لا تفعله أطوار الاقتصاد في عهد الصناعة الكبرى ، ويقلب المذهب القائم على سبق وسائل الانتاج لكل دعوة سياسية أو فكرية . . وانه يصيبه في

مقتله مرة أخرى حين يثبت انه مذهب متأخر لايساغ في غير الشعوب المتأخرة ، وانه فتنة كسائر الفتن التي أصغى فيها الجهلاء لكل ناعق منذ عرفت هذه الفتن في تاريخ الحضارة او تاريخ الهمجية .

***

وقبل ختام هذا الفصل نقول : اننا لم نكتبه في نشأة الطبقة من وجهة عامة لانه شرح طويل لا ينهض به فصل في كتاب ، ولكننا كتبناه عن نشأة الطبقة في مذهب « كارل ماركس » لندل على الخلط في دعامة من أضخم دعامات المذهب يرتفع بارتفاعها ويهبط بهبوطها . ونحن ـ بعد ـ لا نخرج عن الموضوع اذا أضفنا اليه المامة عاجلة بآراء الباحثين عن نشأة الطبقة من غير القائلين بالفلسفة المادية الاقتصادية ، لانها تساعد على المقابلة بين الاقوال المتعارضة في نشأة الطبقات الاجتماعية .

نشطت البحوث الاثنولوجية بعد عصر « كارل ماركس » وألقيت الاضواء المتلاحقة على مطلع التاريخ وأحوال الجماعات البدائية في الازمنة الاولى وفي الزمن الحاضر ، واشتركت الدراسات النفسية والدراسات الاثنولوجية في هذا الباب فتجمعت منها خلاصة حسنة في هذه الناحية من البحوث الاجتماعية .

وأقوى الآراء عن نشأة الطبقة وبنائها التقليدي منذ نشأتها الاولى أنها ترجع الى النسب والسلالة ، وان الغالب على سادة المجتمع أن يكونوا من سلالة طارئة على الوطن الاصيل ، ينظرون الى أبنائه نظرة الغالب الى المغلوب ، ويترفعون عن معاملتهم في الشؤ ون العامة أو الخاصة معاملة الانداد ، ثم تتبدل الطبقة مع الزمن بما يعتري الطبقة الممتازة من النقص والفساد وما تكسبه الطبقات الاخرى من المزايا والكفايات .

واشهر القائلين بهذا الرأي « جوزيف شمبيتر » في بحوثه عن « الاستعمار والطبقات الاجتماعية »[1] وعن « الطبقات في مجتمع متجانس من الوجهة السلالية »[2] .

The Sociology of Imperialism (1)

Soial Classes in an Ethnically Homogenious Environment (2)

والشواهد على صحة هذا الرأي ملحوظة في تاريخ الاشراف من أبناء رومة القديمة ، وتاريخ قبائل الفرنك والغاليين عامة في البلاد الفرنسية ، وتاريخ المغول الآسيويين بين من سبقهم الى أوربة الشرقية من القبائل السلافية . . وابرز ما تكون هذه الشواهد في البلاد الهندية حيث تتعدد الطبقات ، ويستأثر الجنس الآري المغير على البلاد بمزايا الرئاسة الدنيوية والدينية ، ويترك الطبقة الثالثة للتجار وأصحاب الاموال ، وينعزل تمام الانعزال عن الطبقة الدنيا التي لا تشبهه في السحنة ولا في العادات .

والطبقة الغالبة تستأثر بخيرات البلاد بطبيعة الحال ، ولكن الفارق بعيد بين الاستئثار بالمال لان المستأثر به قوي قادر على التسلط ، وبين الاستئثار بالسلطة لان المستأثر بها يقبض على وسائل الانتاج وتثمير الاموال . . فالسادة الغالبون قد تركوا الاعمال المالية للطبقة الثالثة دون طبقتهم ودون طبقة البراهمة ، وفرضوا لانفسهم من الاتاوات عليهم ما يقدرون على تحصيله بقوة الحكم وقوة السلاح .

ولا نتراجع بعيدا مع التاريخ أو نذهب بعيدا الى الاقطار القصية لنرى مصداق هذا الرأي في اقوال الباحثين والمؤرخين ، فان تاريخ مصر في عصور المماليك والدول السابقة لهم يعطينا من هذه الشواهد ما يكفي لتقرير فعل السلالة في تكوين الطبقة ، أو تقرير السبق في هذا الفعل على أثر الاسباب الاقتصادية .

ومن بقايا الطبقة التي ينشئها أختلاف النسب أن أبناء الطبقة الممتازة يأنفون من اختلاط النسب بينهم وبين الطبقات الاخرى ، وأن رجحت عليهم في الثروة والاستيلاء على وسائل الانتاج . . ومن قبل منهم مصاهرة تلك الطبقات عيب ذلك عليه واعتده هو من قبيل التضحية التي يساق اليها لضرورة من الضرورات .

***

والباحثون النفسيون في العصر الاخير يردون جميع الاسباب الاقتصادية الى

البواعث النفسية ، فهي الوشيجة الجامعة بين أبناء الحرفة وأبناء الطائفة وأبناء الطبقة ، ولا تكفي الصلة الاقتصادية اذا لم تقترن بها الصلة النفسية ، وقد تكفي الصلة النفسية للتأليف بين الجماعات على اختلاف الطبقات .

والباحثان الامريكيان « لومبارد » و« مايو » يذكران الامثلة الكثيرة على أسباب التجمع والتفرق بين أبناء الحرفة الواحدة ، فضلا عن الطبقة المحيطة بالحرف المنوعة . . فقد بحثا في تكوين الجماعات بين العمال ، والتفتا بصفة خاصة الى أحوال التغيب[1] بين عمال كليفورنيا أثناء الحرب العالمية ، فوجدا أن العمال المتغيبين ينقطعون عن المصنع ثم يفارقون المدينة لانهم لا يجدون حولهم من يألفونه ويألفهم ويستريحون الى مصاحبته ويستريح الى مصاحبتهم ، ووجدا أن أسباب التغيب والانقطاع تزول حيث يتيسر الحاق العامل المتغيب بفئة يأنس اليها وتأنس اليه .

وسبق هذين الباحثين باحث آخر - هو « تريشر » - الذي كان معنيا بدراسة أطوار الشبان الذين ينتمون الى العصابات ، فقد ظهر له من دراسة ١٣١٣ حالة أن الشاب الذي ينتظم في العصابة يلجأ الي ذلك لقلة الالفة بينه وبين الفئات الاجتماعية من رياضية أو ثقافية ، فيركن الى أمثاله من أفراد العصابة لأن المفروض في العصابات الساطية أو الخليعة انها تستبيح مالا يستباح ولا تبالي أن تقدم على المحظورات والمنفرات ، كأنها تحيلها الى مزايا وشروط لا تتوافر في جميع الشبان .

ومحصل البحوث الكثيرة في هذا الاتجاه أن اجتماع أبناء الحرفة انما يأتي من الالفة النفسية ، وأن على الحرفة أن تيسر هذه الالفة لتشابه الازياء والعادات ومطالب الحياة . . فاذا كانت الحرفة لا تتكفل بتيسير هذه الالفة لم يشعر أبناؤها بالتقارب بينهم ، وجنح بعضهم الى بيئة غير بيئتها ولو فارق مورد رزقه وفارق مدينته بمن فيها .

وليس من المشاهدات النادرة بيننا أن نرى أناسا من أبناء الطبقات العليا

---

(1) Absenteeism

يختارون أصدقاءهم من أبناء الطبقات الدنيا لانهم لا يشبهون أندادهم في الثقافة أو الشواغل النفسية والعقلية . . وليس من المشاهدات النادرة أن نرى أبناء الطبقات المحرومة يلقون الترحيب والحفاوة بين أبناء الطبقات الموسرة ، لانهم يحسنون من آداب المعاشرة وآداب التفاهم على الجملة ما ليس يحسنه اندادهم في المراتب الاجتماعية .

واذا كانت العوامل النفسية هي الغالبة ، او هي التي تخلص لنا من الظروف الاقتصادية ، فليس اهمالها والتعويل المطبق على ما دونها مما يعين على التقدير الصحيح في أطوار الاجتماع .

***

والدراسة التي تتخلل جميع الدراسات في زماننا هذا هي دراسة الاحصاءات والمقارنات .

وقد رأينا نموذجا منها في احصاءات « برنشتين » و« باولي » عن الطبقة الوسطى . . ومجمل ما يؤخذ من سائرها انها تبطل الحصر المزعوم في تقديرات « كارل ماركس » وتبتعد بالتاريخ المقبل عن الوجهة التي لا وجهة سواها . .

ونظرة نلقيها نحن ـ أبناء العصر الحاضر ـ على ما حولنا ، تطلعنا على حقيقة الطبقة كما تنبيء عنها تلك الاحصاءات والمقارنات ، ونعلم منها أن حاجز الطبقات مرن ينفتح في كل جيل لطائفة من الامة يدخلون منه أو يخرجون ، ويتبدلون من ثم طبقة غير الطبقة وعملا غير العمل في المجتمع او البيئة . . ولا ينقضي جيلان في مدينة أو قرية الا شوهد فيهما تداول الغنى بين البيوت والعشائر فاستغنى قوم من الفقراء وافتقر قوم من الاغنياء . . وما لم يكن نظام الطبقة مصحوبا بنظام وراثي كنظام الوراثة بين النبلاء في البلاد الانجليزية ، فقلما ترى حفيدا غنيا من أجداد أغنياء ، ونكاد نقول ان نظام الوراثة في انجلترا هو الذي أغلق الباب على من فيه وترك الغني يتسرب الى أيدي العاملين في الصناعة والتجارة لانهم عملوا فيه بغير منافسة من سادة المجتمع الاقدمين

واذا أحصينا المتقفعين من الطبقات ، لم نجد أن الاستغلال مقصور على ذوي الاموال . . بل وجدنا أن كثيرا من العاملين المجتهدين وصلوا الى الغنى من عملهم في مزارع الاغنياء وبيوتهم التجارية ، ولا يقل عدد هؤلاء الاغنياء عن الربع أو الخمس من جملة الاغنياء في جيل واحد ، وقلما عرف هؤلاء أحدا من اجدادهم على نصيب من اليسار .

هذه المعلومات عن أطوار الطبقات تؤيد الفروض أو ترجحها على احتمالات كثيرة ، بل تؤيد جميع الفروض الا ذلك الفرض المحتوم الذي لا ينفرج في مذهب « كارل ماركس » لقيد أنملة يميل اليه تاريخ الانسانية الى غير الخاتمة التي يصر عليها ، ويتشبث بها ، ولا يطيق أن يتوهم على البعد أو على القرب خاتمة سواها .

ذلك النعيب الجهنمي لا توجبه معلومات الباحثين عن أطوار الطبقات ، ولا تتأدى اليه المقدمات التي وصلنا اليها او نبصر أمامنا أننا واصلون اليها . . وانما المقدمة التي توجبه كامنة هنالك في خبيئة الظواهر النفسية المريضة . . مقدمته نفس خبيثة مطبوعة على الشر لا تريد غيره ، ولا تطيق النظر الى شيء يمتزج فيه بأمل من آمال الخير أو عاطفة من عواطف البر والامان .

القيمة الفائضة

القيمة الفائضة اصل من أصول المذهب الماركسي لا يقل شأنها فيه عن شأن حرب الطبقات أو التفسير المادي للتاريخ ، ولعله أخطر شأنا فيه من كليهما . . اذ لا حرب بين الطبقات ، ولا تفسير للتاريخ بوسائل الانتاج ، ان لم تثبته نظرية القيمة الفائضة . . ولا محل للقول بالمجتمع الذي لا طبقات فيه ان لم تثبت هذه النظرية ، فان القيمة الفائضة هي ربح رأس المال الذي يقوم عليه المجتمع ويتهدم لاجله ، فيخلفه مجتمع لا فضلة فيه من الربح فوق نتاج العمل ، ولا طبقات ، ولا استغلال . .

وخلاصة القيمة الفائضة في مذهب « كارل ماركس » ان قيمة كل سلعة انما هي قيمة العمل الانساني فيها . . ولكن العامل لا يأخذ هذه القيمة كلها ، بل يأخذ منها مقدار ما يكفيه للمعيشة الضرورية ، وتذهب القيمة الفائضة الى صاحب رأس المال بغير عمل .

وأحوج ما تكون النظرية الى الثبوت في مذهب « كارل ماركس » يكون حظها من الوهن والتلفيق والمخال . . وقد قيل عن نظرية القيمة الفائضة من هذا المذهب انها « كعب أشيل » أو مقتل المذهب في جملته ، وهي في الواقع كذلك لولا أن الكعب أخفى موضعا في هذه النظرية المنكشفة بجميع مقاتلها من النظرة الاولى الى النظرة الاخيرة .

ما هي القيمة « أولا » في علم الاقتصاد ؟ . . انها شيء غير الثمن ، وغير الكلفة ، وغير السعر . . ولكن الفاصل بينها لم يوجد بعد على حد قاطع لا خلاف عليه . .

وقد نجحت المشكلة مع الخطوة الاولى من خطوات البحث في علم الاقتصاد . . اذ لا معنى لعلم الاقتصاد ، ان لم يكن معناه انه علم « التقويم » أو البحث في القيم وعواملها ومؤثراتها وأسباب التأثير فيها .

ولا داعية الى معرفة كبيرة بالاقتصاد او اختصاص عظيم بفن من فنونه العويصة للعلم بأن القيمة غير الثمن . . فالثمن معروض مطلوب لا يجهله من يسأل عنه ، وتقديره بعد عصر المقايضة يرجع الى قيمة المعادن الحقيقية ، ، وقيمتها المتداولة ، وقيمتها في حساب الدولة التي تضرب المسكوكات . . وهنا تدعوه الحاجة الى التفرقة بين القيمة والثمن ، لان العملة التي قدر بها الثمن هي نفسها ذات قيمة لا بد من البحث عنها .

ولم يكن معقولا أن يسأل الباحث الاقتصادي عن قيمة الشيء فيقول انها هي ثمنه بالعملة المعدنية ، فاننا لا نزال بعد ذلك مضطرين الى البحث عن قيمة العملة وقيمة المعدن ومعيار هذه القيمة في عرف التجارة وعرف الدولة التي تضرب باسمها المسكوكات . .

قالوا : ان الثمن هو قيمة الشيء مقدرا بالنقود ، وأما قيمته بالسلع الاخرى فهي قيمة العمل الذي يسلتزمه كل منها . . فاذا قيل مثلا أن قيمة الذراع من الحرير تساوي مائة رغيف ، فمعنى ذلك أن العمل اللازم لصنع ذراع الحرير يساوي العمل لصنع مائة رغيف .

فهل هذا صحيح ؟

كلا . . وقصاراه من الصحة انه حيلة تفريقية او معيار مفروض للقياس عليه ، مع الاستعداد للزيادة هنا والنقص هناك ، او مع الاستعداد لافتراق المعايير كل الافتراق .

ان هذه السلعة يصنعها عامل في يوم ، ويصنعها عامل آخر في يومين . .

وان هذا العامل تكفيه صحفة من البقول لتوليد طاقة العمل في بنيته ، وقد يزامله عامل آخر لا تكفيه الصحفة او لا يستطيع هضمها ولا غنى له عن طعام

غيرها في النوع والثمن .

ويستطيع عامل أن يباشر عمله في الشتاء بلباس خفيف ، ولا يستطيع العامل الآخر ذلك الا بمضاعفة الدثار والاحتماء بين الجدران . .

والأرض المخصبة تنبت الحبوب بقليل من العمل ، ولا تنبتها الارض المجدبة الا بعمل كثير وتكاليف شتى للري والتخصيب . . ولا تعرض الحبوب من صنف واحد الا بثمن واحد مع اختلاف العمل في انباتها . .

والكتاب المقرر للتدريس في هذه السنة يباع، بمائة قرش للطالب في المدرسة ، ولكنه لا يشتريه بخمسة قروش اذا تقرر كتاب غيره . . ولم ينقص العمل الذي بذل في تاليفه او طبعه أو تحضيره ذرة من أجل ذلك التغيير !

والعنب يعصر اليوم فيساوي القدح منه مليمات ، ثم يترك العصير في الباطية سنة فيرتفع ثمنه خمسة أو ستة أضعاف ، ثم يترك عشر سنوات فيساوي مئات !

والبلوطة تغرس اليوم ولا يساوي العمل فيها دريهمات ، ثم تمضي السنوات فتساوي الدنانير . . ثم يظهر في ابان ذلك منجم جديد يغني عن الخشب ، فيهبط الثمن الى ربعه أو ما دون ربعه في ذلك المكان !

والنظارة التي يشتريها زيد بدينارين ، تعرضْ على عمرو فلا يشتريها بدرهم . . ولا يأتي ذلك من اختلاف العمل فيها بطبيعة الحال !

وهذه الحلية ينفق الصانع الماهر في عملها شهورا أو سنوات ، ثم يموت طالبها الذي أوصى على صنعها لتزيين كسائه او قنيته من مدخراته ، فلا تباع بعشر الثمن المتفق عليه ! . .

يقال اذن ان طلب السلعة يضاف الى عملها فيعطيها القيمة التي تستحقها . . .

وهذا معيار كمعيار العمل يؤخذ بالتقريب ، ولا ضابط له على التحقيق . .

ان هذا التاجر يعرف المكان الذي يقيم فيه طلاب السلعة ، ويملك الوسائل

التي تؤديه اليهم . .

وربما وجد التاجر الذي يعرف المكان ولا يملك الوسيلة ، أو وجد التاجر الذي لا يعرف المكان ولا يملك الوسيلة . . فهل يبذل هؤلاء التجار ثمنا واحدا للسلعة الواحدة ؟

ويتفق أحيانا ان السلعة تطلب في ابانها ولا تحتمل البقاء الى موعد آخر ، ويتفق أنها تطلب في كل أوان ، او تطلب في أوان مؤجل وهي عند تاجرين . . هذا يطيق الانتظار الى الموعد المؤجل فلا يبيعها الا بما يرضيه ، وهذا يعجز في الانتظار فيقبل فيها الثمن المعروض عليه !

وليس العمل والطلب كل ما يبحث فيه عند البحث في القيمة . . اذ هناك عوامل أخرى بديهية تدخل في الحساب وتتغير عوارضها بتغير الاحوال . .

هناك اللزوم والكثرة . .

فالماء ألزم من الجوهر . . ولكن الجوهر يباع بألوف الدنانير ، ولا يزيد ثمن الماء على أجرة حمله عند موارد الانهار والعيون . .

والجزء من الكتاب يباع بثمن مع وجود جميع الاجزاء ، ولكن قد يباع بثمن الكتاب كله اذا كان هو الجزء الناقص في مجموعة بعينها ، وأن لم يكن ناقصا في غيرها من المجاميع . . . !

والدفتر من طوابع البريد لا يساوي كثيرا او قليلا عند غير الهواة ، وربما بيع بثروة من المال القيم لهذا أو لذاك من الهواة أو التجار العارفين بمكان الهواة . . !

لاجل هذا الاضطراب في تعريف الضوابط التي تقوم بها الاشياء ، لا يبرح الباحثون الاقتصاديون يتنقلون من تعريف الى استدراك ، ومن استدراك قديم الى استدراك جديد . .

ومن هنا نشأ الاختلاف بين تعريف القيمة الاسمية ، والقيمة التجارية ، والقيمة الذاتية ، والقيمة المقدرة بالعمل ، والقيمة المقدرة بقوة العمل ، ولم

ينحسم هذا الاختلاف كل الحسم بتعريف من التعريفات . .

ومن هنا قيل ان القيمة غير الكلفة ، وان الكلفة بحساب العمل شيء والكلفة بحساب الانتاج شيء آخر . .

ومن هنا وجدت تلك النظريات التي تزداد كل يوم ولا تنقص مع الزمن ، لانها كلما ازدادت من ناحية ظهر عليها الاعتراض من جملة انحاء . .

وعندنا تقويم القيمة بالمنفعة النهائية[1] وعندنا تقويم القيمة بالاضافة الهامشية[2] ، وهي التي تحسب تكاليف الجملة ثم تحسب السلعة الزائدة ، وهي في كثير من الاحوال أقل من تكاليف السلعة في الجملة . . وعندنا تقويم القيمة بنتائج فقد الشيء مع نتائج الحصول عليه . . وعندنا تقويم القيمة بمتوسط الطلب . . .[3] وعندنا تقويم القيمة بالطبقة الخصوصية[4] . . وعندنا غير ذلك اشتات من التعريفات . . من قال لنا ان تعريفا منها حاسم لا استدراك عليه ، فهو جاهل بما يقول أو دعي يكذب في دعواه . .

وليس من قصدنا هنا ان نوازن بين هذه التعريفات ، وأن نفرغ من البحث فيها حيث لا فراغ من البحث في هذه الامور . . ولكننا نحقق المقصد المأمون من هذا البحث اذا علمنا أن التعريفات جميعا تسمح بالمراجعة والاستدراك ، ولا تؤخذ مأخذ الضبط الجازم من الوجهة الفكرية العلمية ، وندع الضبط الجازم من الوجهة العملية التي تهدر فيها الدماء . . وينعب فيها نعيب الخراب ، ويتحول فيها التاريخ عن مجراه فلا يعود اليه الا بعد اليأس والضلال .

***

وعلينا قبل الكلام عن نظرية « كارل ماركس » بين هذه النظريات أن نرجع بها

---

(1) Final Utility

(2) Marginal Cost

(3) Average Demand

(4) Class Price

الى ينبوعها من الظواهر النفسية ، ولا مشقة على الباحث عن ذلك الينبوع في ضمير « كارل ماركس » اذ لا توجد بين تلك النظريات الا نظرية واحدة تملى له في اشباع طوية النقمة والاذى ، وهي نظرية القيمة الفائضة . . فاما « قيمة فائضة » وتسويغ لهدم المجتمعات كافة وتحريم لبرامج الاصلاح جميعا ما عدا الفتنة العمياء ، واما لا « قيمة فائضة » فلا مجتمع اذن بطبقة واحدة ، ولا مسوغ اذن لنعيب النقمة والبغضاء ونذير الرعب والبلاء .

***

ان أحدا من المنكرين للمادية التاريخية لا يعصم « كارل ماركس » من الخطأ ، كما يعصمه أتباعه وشراح مذهبه كلما استعصى عليهم اثبات رأيه على الصراحة ، وألجأتهم غلطاته ومساوئه الى التأويل المتكلف والتخريج العسير . . ولكنه مهما يكن من خطئه او غلطه خليق أن يفهم ما يفهمه أوساط الناس والا يخفى عليه ما ينجلي لهم بغير خفاء . . ولا تعليل لخفاء الحقائق البينة عنه الا أن يكون مغلوبا على عقله بحكم هواه ، ويرجح هذا التعليل اقوى الرجحان حين ننظر الى الآراء التي يقبلها فاذا هي الاراء التي تملى له في أشباع الحقد والنقمة ، وننظر الى الآراء التي يرفضها فاذا هي الآراء التي تحول بينه وبين اشباع ضغينته . . وتفتح الطريق لوجه من وجوه الاصلاح غير الوجه الاوحد الذي لا معدى عنه لجميع آرائه وتقريراته وتقديراته ووصاياه .

وليس من التعليل المقبول أن تخفى عليه ثغرات القوانين والنظريات التي يتعقبها غيره بالحيطة والاستدراك ، ثم يتركونها وهم على علم بما فيها من النقص ومصارحة بما يعوزها من الاسانيد . . بل الغالب في جميع الزيادات التي يدخلها على تعريفاته أنها تنم على حيلة كحيل الفقهاء في فتح المنافذ للاستثناء والتخلص من الحرج ، ولا يتأتى ان نفرض له حسن النية في هذه الحيلة الفقهية الا أن يكون مغلوبا على عقله منساقا بحكم الجبلة المتسلطة عليه . . !

كيف تخلص « كارل ماركس » من المحرجات أو الفجوات في تعريف القيمة

بالعمل ؟ . . لم يتخلص بمعنى واضح له أو يتأتى توضيحه لمن يتشكك فيه ، ولكنه تخلص منه بتلك الحيل الفقهية المصطنعة فقال : « انه يقصد قوة العمل ولا يقصد العمل الواقع ، وانه يقيده بصفة العمل الضروري في « الساعة الاجتماعية » . فالسلعة بعد هذه الاستدراكات تساوي قوة العمل الضروري محسوبة بالساعات الاجتماعية . .

وعلى هذا يعتقد « كارل ماركس » انه راغ من الثغرات المفتوحة عليه ، وأعد الجواب لكل اعتراض على رأيه الذي يلقى الاعتراضات الكثيرة من خبراء الاقتصاد منذ مائة سنة ، ولا تتناقص هذه الاعتراضات اليوم بل تزداد .

لقد زعم « انجلز » ـ صفيه المشهور ـ أن « ماركس » أتى بمعجزة العبقرية حين استبدل قوة العمل بالعمل ، وجعل قيمة السلعة منوطة بتوليد القدرة على العمل لا باجراء العمل الواقع في مختلف الصناعات . . الا ان هذا التبديل يبعد التعريف ، ويزيد ثغراته ولا يلمه ، أو ييسر لنا الاحاطة بجوانبه ومنافذ الشك فيه . .

فقوة العمل تفتح الباب للعامل النفساني « السيكولوجي » الى جانب العامل الحيوي « البيولوجي » وتكاد تخرج بنا في كل خطوة من المعلوم الى المجهول . .

ان الصانع الايطالي مثلا يطلب صحفة المكرونة في مصر ولا يقنع بصحفة العدس أو الفول ، وان يكن فيها من الغذاء ما يساوي صحفة المكرونة ! . .

وأن الفاعل الذي يشتغل على نغمات الاناشيد يقل ملله ويزيد نشاطه ، ويخول الفاعل المنشد حقا في الاجر أكبر من حق الفاعل الذي يصغي اليه . .

وان الاجير الذي يشكو الظلم لا يخلص في عمله كما يخلص زميله الذي يجهل تلك الشكاية ويعتقد أن أجره مكافيء لعمله ، وان تساوى الاجران .

أما كلمة الضروري ، التي الحقها بالعمل ، فهي الفتوى الفقهية التي تجيز كل اعتراض ولا تمنع اعتراضا واحدا مما تقدمت الاشارة اليه . .

ان المهارة الضرورية لرسم صورة من صور الفنون الجميلة تجعل العمل الذي تتضافر عليه ألوف الايدي ، أمثل أجرا واتقانا من عمل اليد الواحدة ، لا تحل لنا مشكلة واحدة من مشكلات التقدير أو التسعير . .

وان الخبرة الضرورية في قائد الجيش لا تحل محلها خبرة الألوف من جنوده الذين يحسنون القتال ولا يحسنون القيادة . .

أما الساعة الاجتماعية فهي صندوق الساحر الذي يجمع الاسرار ، ولا يرفع الستر عن سر واحد نحتاج الى جلائه واقراره على قرار لا يقبل النزاع . .

فالعناصر التي تدخل في تكوين الساعة الاجتماعية تشمل كل ما تتميز به المجتمعات من العادات والتقاليد والاجواء والشروط الصحية ، وتكاليف الساعة الاجتماعية في جوار القطب غير تكاليفها في جوار خط الاستواء ، والرضا عسير مع الفصل بين العامل وعادات بيئته أو تقاليدها الاجتماعية ، وهو يسير بالاجر نفسه اذا اشتغل العامل وهو لا يشعر بالغربة عن بيئة تلك العادات والتقاليد .

واذا سأل السائل : ما هو الفرق بين الساعة الاجتماعية في مصانع الحديد وبين أفران الخبز ؟ وكيف يكون العدل أو المعادلة في الصناعتين بين الاجر والربح ورأس المال ؟ فبماذا تسعفنا كلمة الساعة الاجتماعية في جواب هذا السؤال ؟

أن رأس المال المتنقل في الافران اكثر من رأس المال المتنقل في مصانع الحديد ، وصاحب الفرن لا يتكلف لاقامة مصنعه كما يتكلف صاحب مصنع الحديد عند بناء الدار وشراء العدد واستئجار المهندسين والخبراء . . وقد تدور « ألف دينار » من رأس المال كل أسبوع بربح جديد في صناعة الخبز وتوزيعه على العملاء ، ولا تدور هذه « الالف » بعينها الا مرة أو مرتين . . ولا شك ان مقياس الربح هنا غير مقياس الربح هناك . . فما هو الفرق بين الساعتين الاجتماعيتين : ساعة في المخبز ، وساعة في مصنع الحديد ؟ وهل نجعل لكل صناعة ساعة اجتماعية تدور معها بمقاييس العدل والظلم ومقادير الاجور

والارباح ؟

وهل يستطيع أحد ـ بناء على هذا التعريف ـ أن يدعي الحكم المبرم في قضائه على المجتمعات بتواريخها وعاداتها وآدابها وأديانها ونظم السياسة والشريعة فيها ؟ وهل يمتنع التردد على ضمير يستند الى ذلك التعريف قبل خوض الدماء والاشلاء الا أن يكون ضميرا مسيخا اعماه الدغل عن منافذ الشك التي تتفتح أمامه كما تتفتح منافذ الغرابيل ؟

والمصادفة لا تطرد في الخطأ الفكري على وجهة واحدة من الجانبين المتقابلين ، فلا يجوز أن يخطىء الفكر ـ مصادفة ـ في قبول القيمة الفائضة على الرغم من تراكم الادلة التي تنفيها أو تشكك فيها ، وأن يخطىء ـ مصادفة ـ في انكار النظريات التي تخالفها على الرغم من تراكم الادلة التي تؤ يدها أو ترجحها . . فليس هذا الاطراد من مصادفات الخطأ على نسق واحد طردا وعكسا ثم عكسا وطردا من الجانبين ، ولكنه هوى يغلب على العقل فيتجه به الى وجهة واحدة حيث مال . .

انظر مثلا الى « القيمة الفائضة » التي يختار لها في الجزء الاول من كتاب « رأس المال » مثل الربح المكسوب للتاجر من ثمن الحصان ، وهو يختار الحصان عمدا ليقول انه سلعة لا يضاف اليها شيء من عند صاحب المال . .

فلو أراد أحد أن يختار مثلا ينقض نظرية « كارل ماركس » لكان مثل الحصان اصلح الامثلة لنقضه ، وكان أصلح من السلعة المصنوعة التي لا تحيا ولا تموت ! .

فالسلعة الجامدة قد تبقى زمنا بغير عمل مضاف يعمله التاجر للمحافظة عليها ، ولكن الحصان يحتاج الى العلف والسقي والسياسة والحراسة ، ولا تبقى له قيمة الحصان التي من أجلها يباع ويشترى اذا هزل أو مرض أو ذهب فريسة لوحش من الوحوش . . وفي هذا المثل ترتبط القيمة كلها بعمل التاجر ، ولا تبقى للحصان قيمة أصيلة ولا قيمة فائضة بغير ذلك العمل .

ولا ينوب عن تاجر الخيل كل تاجر يبذل ثمن الحصان ثم يبيعه رابحا فيه . . بل لا بد من معرفة خاصة بالخيل وأوصافها ولوازمها ووسائل المحافظة عليها وعرضها في أسواقها أو حيث يشتريها من يطلبها ، وليست هذه المعلومات العامة مما يجهله أحد لو أراد أن يعرفه ويدخله في حسابه ، الا ان « كارل ماركس » ضرب المثل بالحصان وقال : ان التاجر يشتريه بمائة جنيه وهو ينوي أن يبيعه بمائة وعشرين جنيها ، ولو لم يكلفه شيئا من النفقة بين المشترى والمبيع . . ونسي ان تجارة الخيل لا تقوم على هذا الافتراض ، وان الربح في هذه الحالة انما يصح أن يقال انه بغير عمل وبغير مقابل اذا تساوى وجود التاجر وعدمه . . فهل هما مستويان ؟ . . وهل يقبل « ماركس » هذا التساوي المزعوم بهذه السهولة اذا كان فيه انكار للقيمة الفائضة ؟

لقد كان مثل الحصان هذا محل مناقشة بين أصحاب النظريات الاقتصادية لبيان عمل التاجر في صفقته التجارية ، فقال بعضهم : ان التاجر خدم البائع لانه أعطاه مالا أنفع لديه من الحصان ، وخدم الشاري لانه أعطاه حصانا أنفع لديه من ثمنه ، وأخذ على عاتقه ان ينوب عنهما في البحث عن فرص البيع والشراء . . وهو عمل له جزاء ، ولكن « ماركس » يسمي هذا الاقتصاد باقتصاد الرعاع أو الاوباش ـ وهي تسمية لا تستغرب من أحد كما تستغرب من الرجل الذي جعل رسالته تسليم العالم بقضه وقضيضه للصعاليك ـ ومن تفكير الرعاع عنده أن يقال : ان التاجر قد خلق « قيمة » للحصان بعمله ، وأن يوصف عمله بشيء غير صفة التداول[1] التي هي من طبيعة الحال . . فماذا لو ضاعت قيمة الحصان كلها فمات ، وماذا لو اكل بثمنه علفا قبل أن يباع ؟ . . هذه اعتراضات لها ثبوتها اليقيني عند « ماركس » في حالة واحدة وهي الحالة التي ترضيه ولا ثبوت لها ـ بل لا وجود لها ـ في اية حالة لا ترضيه ! .

وانه ليرفض قيمة الادارة بمثل هذه السهولة حين يقال له انها تقدم وتؤخر في نجاح المعمل واستمراره وكفالة ربحه ، وان الفرق بين معملين في الرواج قد

Circulation (1)

يرجع الى حسن الادارة او خلل الادارة ، فيعيش احدهما وينمو ويضمحل الآخر ويموت ، وكلاهما فيه عمل وفيه عمال . .

ولم يصنع « كارل ماركس » في حل هذه المشكلة باديء الرأي ، الا أن يفرق بين الادارة ورأس المال . . وكيفما تشعبت الآراء في هذه الفروق فلا خطر لها في الموضوع الذي أثيرت من أجله ، لان النتيجة على جميع الاقوال أن السلعة لا تستمد قيمتها كلها من عمل الصانع ، وان عمل الصانع قد يزداد وتقل قيمة سلعته مع خلل الادارة وانه قد ينقص وتزيد قيمة السلعة مع حسن الادارة وانتظامها . . فليست القيمة اذن مستمدة من عمل الصانع أو أعمال الصناع اجمعين .

وبالسهولة التي يرفض بها « كارل ماركس » كل رأي لا يرضيه ، نراه في مسألة الادارة يرفض كل احتمال لاستبداد المدير بالنفوذ ، ويحصر الاستبداد في صاحب المال . . ولا دليل له على ذلك الا أنه يريده ويأبى ما عداه . .

فالانسان يطلب الربح لانه يطلب الامتياز ، ويأبى « كارل ماركس » هذا لانه يفسد عليه عمله في حاضره ومصيره ، ويقول : ان الانسان يطلب الإمتياز لان هناك ربحا يطمع فيه ، فما لم يكن ربح فلا امتياز . .

والحصان هنا معلق وراء المركبة ، على عادة المذهب في اكثر نظرياته ، ومن ذاك ما تقدم في قيمة العمل . . فالصحيح ان العمل الانساني له قيمة بمقدار طلبه ، وأما الصحيح في المذهب فهو قلب الواقع رأسا على عقب أو هو القول بأن السلعة لها قيمة بمقدار ما فيها من عمل الانسان .

وعلى هذا القياس المعكوس يقال : ان حب الامتياز يأتي من حب الربح ، ولا يقال : أن حب الربح يأتي من حب الامتياز . .

ولا تؤخذ الحجة من الواقع المحسوس في طبيعة الانسان ، ولكنها تؤخذ من الهوى الدفين في الطبيعة الممسوخة . . فلو قيل : ان المدير يحرص على امتيازه كما يحرص عليه صاحب رأس المال سقط المذهب من قمته الى أعمق غور فيه ، فوجب اذن أن يلغى هذا القول ولا يطول النظر فيه . . مخافة الكسر

على الزجاجة المخبأة وراء الظهر ، ولا سند لها من الجدار !

على أن الظاهر من مساجلات « كارل ماركس » وزمرته في الايام الاخيرة أن الحملة على نظرية القيمة الفائضة كانت اقوى من المكابرة واللجاج ، وانها زعزعت المذهب في الآونة التي أدبر فيها ادبارته المنذرة بالموت بعد فشل الفتنة الباريسية . . فتراجع دعاته الى خطوطهم الاخيرة ووعد « كارل ماركس » غير مرة باعادة البحث للافاضة في مسألة القيمة الفائضة ، وتعزيزها بالادلة من أطوار الحركة الاقتصادية في تلك الآونة . . ثم مات ولم ينجز وعده ، وشعر صفيه « انجلز » بالحرج من مناوشة ناقديه ، فأعلن ان الرد على اعتراضات الناقدين سيظهر في الجزء الثالث من كتاب « رأس المال » الذي عثر على مسوداته في أوراق « ماركس » بعد موته ، ثم ظهر الجزء الثالث فاذا هو يتراجع ولا يفسر ما غمض من أقواله السابقة ، واذا به يعترف بأن بعض السلع يتبادل بقيمته الانتاجية و« أن جملة أثمان الانتاج للسلع الاجتماعية ـ مشتملة على جملة خطوط الانتاج ـ تساوي جملة القيم جميعا ».

وها هنا تفرقة صريحة بين قيمة الانتاج وقيمة العمل لان خطوط الانتاج تشمل رأس المال والادارة والعمل ، ولا معنى معها للقول بالقيمة الفائضة التي شهر من أجلها الحرب على مجتمع الصناعة الكبرى وما سبقه من المجتمعات . . وقد ختم « كارل ماركس » رسالته بنصوصه وشروحه واستدراكاته دون أن يبسط القول في شيئين من أحق الاشياء في مذهبه بالشرح والاثبات ، فلم يقل لنا كيف كان في الامكان ان يظفر الصانع بحقه كاملا في مجتمع القرن التاسع عشر أو المجتمعات السابقة وكيف كان في الامكان ان يتم تداول رأس المال مع ذلك وتبقى الاعمال وحقوق العمال ؟

وأغرب من ذلك انه لم يقل لنا كيف يعرف الصانع حاجته ، وكيف ينالها بغير بخس ولا محاباة ، وكيف تدار المصانع على سنة العدل والمساواة بعد زوال رأس المال واستيلاء الاجراء على المصانع وموارد الارزاق . .

فهذا العالم الذي يؤكد لنا أنه يحلم كما يحلم الطوبيون من الاقتصاديين

الرعاع ، يزعم أنه يعلم ـ ولا يغرق في النوم والحلم ـ حين يتنبأ لنا عن مجتمع يزول منه رأس المال ، فيطلب فيه كل فرد حاجته بغير زيادة وينالها لساعتها بغير نقصان ، ويخدمه مديرون ورؤساء لا يحرصون على مزية الرياسة ولا يحتالون على البقاء فيها ، وأن المنافسات التي تنبعث من تفاوت الحظوظ في الذكاء والقدرة والجمال والصحة وكثرة النسل لن يكون لها عمل بعد زوال رأس المال ، وان « الفلوس » وحدها هي التي تعمل كل شيء ولا عمل بعدها ـ بتة ـ للتمايز بالحظوظ والاقدار . .

من صدق هذا فليس بالعسير عليه أن يصدق طوبى من طوبيات الحالمين ، وعلم الله ما رأينا اناسا يجلسون مجلس الجد للبحث العلمي في هذه الخرافات الا عبرت أمامنا صور الاطفال الصغار وهم يلبسون اللحى الطوال ليمثلوا هيبة القضاء بين الاعيب الفراغ . .

وما كانت النبوءة عن المجتمع « بلا عملة فائضة » هي خاتمة النبوءات عند هؤلاء العلماء المحققين غير الحالمين وغير الواهمين ، فانه ليكفي عندهم أن يقول القائل انني عالم غير حالم ، وأنني ادين بالمادة ولا أدين بما وراءها ، ليجوز له الشطح الذي لا يجوز لاحد ، ولا يستند فيه الى سند . وهذه نبوءاتهم عن عاقبة الاطوار الاجتماعية رحلة قريبة جدا الى جانب النبوءة التالية عن عاقبة الاطوار المادية ، فان « انجلز » صفي « ماركس » يعلم علما ليس بالحلم « ان المادة تتحرك في دورات ابدية تستتم كل دورة مداها في دهر من الزمان ، تلوح السنة الارضية الى جانبه كانها عدم . . دورة تلوح فيها فترة التطور الاعلى ـ ونعني بها فترة الحياة العضوية التي يتوجها الوعي الذاتي ـ شيئا صغيرا بالقياس الى تاريخ الحياة وتاريخ الوعي نفسه . . دورة تكون فيها كل هيئة خاصة من هيئات المادة ـ سواء كانت شمسا أو سديما ، أو كانت حيوانا أو نوعا كاملا من انواع الحيوان ، أو كانت تركيبا كيميا أو انحلالا كيميا ـ أبدا في تحول وانتقال . . دورة لا يدوم فيها الا المادة المتغيرة أبدا ، والا ناموس التغير الابدي والحركة الابدية . ومهما تتكرر هذه الدورة ويبلغ من قسوة تكرارها في الزمان والمكان ، او مهما يطل الانتظار قبل أن تبرز هنا أو هناك منظومة شمسية أو

كوكب تتهيأ عليه البيئة للحياة العضوية ، ومهما ينشأ او ينقرض من الخلائق قبل أن تنجم بينها أحياء تفكر بأدمغتها وتجد لها ملاذا يسمح بالحياة - ولو الى فترة وجيزة - فاننا مع هذا لعلى يقين أن المادة في كل تغيراتها تظل أبدا واحدة وابدا كما هي ، وانها لن تفقد صفة من صفاتها ، وان تلك الضرورة الحديدية التي تقضي بزوال ارفع زهرات المادة - وهي القوة المفكرة - هي بعينها تقضي بميلادها كرة اخرى في زمان آخر . . ».

نعم . . هذه هي النبوءات الراسخة عن مصير الاطوار الاجتماعية ومصير الاطوار الكونية ، ومن شروطها المسلمة انها بغير دليل ولا محاولة للدليل ، وهل يلزم الانسان ان يدلل على صحة كلام بعد قوله في فاتحة كل دعوى من دعاويه : إنه يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالاحلام ؟

حقوق الفرد

اذا كان غرض البحث في حقوق الفرد وحقوق الجماعة أن نوازن بينهما ، ونقدم بعضها على بعض ، فليس عند « المادية التاريخية » أدب خاص تضيفه الى التراث العريق من آداب الامم في تقدير الفرد عامة ، ولا في تقدير الفرد الممتاز أو الفرد العظيم . .

فمن قديم الزمن ، فرغ الناس من هذه الموازنة واتفقوا على أن حقوق الجماعة أولى بالتقديم من حقوق الافراد ، وان حق الفرد اذا وقف في طريق الجماعة وجبت التضحية به لخدمة الجماعةوتغليب مصالحها العامة على كل مصلحة فردية .

في هذه المسألة لا يوجد قولان . .

واذا رجعنا الى آداب الجماعات الاولى لنعرف موضع المغالاة فيها ، فمما لا نزاع فيه أن المغالاة في حقوق الجماعة أعم وأقوى من المغالاة في حقوق الفرد على حدة أو حقوق الافراد متفرقين . . وما كان فرد من الافراد ليعظم في قومه ما لم يكن له فضل في الذود عنهم . . ومعونة عائلهم ، وإطعام جائعهم ، وايواء شريدهم . . ولا خلاف بين رأيين في أن الموئل الاخير لحق الفرد هو مصلحة الجماعة بحذافيرها ، فلا حق للفرد العظيم في التعظيم الا ان تكون مصلحة الجماعة ملحوظة في اكبار العظمة والاعتراف بأفضال ذويها . .

وعندنا في اللغة العربية ذخيرة من الشعر الجاهلي يخرج منها القارىء بفكرة واحدة ، وهي انه « لا خير فيمن لا خير للناس فيه » . .

وما كان أدب العشيرة العربية الا مثالا للعشائر الاولى على وفاق في المغزى والنتيجة مهما تتبدل أساليب التعبير . .

ولما ترقى البحث في هذه الشؤ ون الى مذاهب الفلسفة ، كان محور الفلسفة عند « أرسطو » أن الحكومة المثلى هي الحكومة لمصلحة الرعية ، وأن الحكومة السيئة هي الحكومة لمصلحة الرعاة . .

وقد يتعدد القول في الاختيار والاضطرار ، ولا تأتي الفلسفة المادية التاريخية ـ مع ذلك ـ بشيء يضاف الى التراث العريق في تقدير الفرد بالنسبة للجماعة . . فقد يقال مثلا ان الفرد مضطر الى خدمة الجماعة ، بحكم تكوينه ، ولا ينفي ذلك حقه في الكرامة ، لانه أفضل من الفرد المضطر الى العدوان على الجماعة بحكم تكوينه ولا يكون رد الفعل من قبل الجماعة طبيعيا معقولا ، اذا تساوى في معاملة الفردين : معاملة الفرد المضطر بحكم تكوينه الى خدمتها ، ومعاملة الفرد المضطر بحكم تكوينه الى العدوان عليها .

كذلك لا تأتي المادية التاريخية بأدب جديد في معاملة الفرد اذا قالت : انه يفلح في سعيه كلما وافقته ظروف الجماعة ، وانه لا يخلق الظروف التي تساعده وتنشأ في الامة قبل مولده . . اذ لا شك ان الفرد الذي يريد عمل الخير وينتظر موافقة الظروف لانجازه ، أكرم وأنفع لقومه من الفرد الذي يريد عمل الشر ولا يستطيعه الا اذا وافقته الظروف . .

وليكن تعبير المعبر في هذه الحقيقة ، بما شاء من ألوان الاساليب ، فان تقدير الافراد لا يتساوى اذا كان منهم من هو مضطر الى العظمة وكان منهم من هو مضطر الى الخسة ، ولا يغض من قدر العظيم أن الامة قادرة على اخراج مثله . . فان مثله سيأتي أيضاً عظيما أفضل في صفاته وكفاياته من الحقير . .

واذا قال القائل ان قدحا آخر من الماء سيرويني ان لم أجد هذا القدح الذي أمامي فهو لا يبطل نفع الماء بهذا المقال ، ولا يزال الماء ماء ضروريا للري وحفظ الحياة في الحالتين . .

كان « هيجل » مثاليا يقول بالفكرة ولا يقول بالمادة . . وكان يرى نابليون الاول على حصانه في معركة « جينا » فيقول : انه رأى روح الكون يمتطي ذلك الحصان ، ثم يعود فيقول : لو انه لم يكن نابليون لكان تدبير الروح الاعظم

كفيلا بوضع شخص آخر في مكانه على صهوة جواده يسمى بما شاءت المقادير من الاسماء . .

ثم جاء الماديون التاريخيون ، فاقتبسوا قواعد المذهب المادي من امام الفلسفة الفكرية ، وكرروا هذه العبارة بنصها في أمر نابليون وغير نابليون . .

ان الانسان قد يدين بكل حرف من حروف المادية التاريخية ولا يوجب عليه العقل أن ينظر الى الفرد عامة ، أو الى الفرد العظيم ، نظرة غير النظرة الانسانية المأثورة من أقدم العصور . . فمن أين جاءت تلك الرغبة الملحة عند الماديين في تحقير العظمة الانسانية ، والحرص في كل مناسبة على بخس حقها ، واللجاجة في تفضيل الكثرة على المزية كلما تكلموا عن حادث من حوادث التاريخ ، جاء من خسة النفس أو من الظاهرة النفسية ، ولم يجيء من فكرة سليمة يستلزمها الايمان بكل حرف من حروف المادية التاريخية . . ؟ .

لتكن الجماعة أولى بالرعاية من الفرد الصغير أو الكبير . .

نعم . . هو كذلك ، وقد كان كذلك ، وكانت الجماعة على هذا تفهم انه عظيم ولا تفهم انه صغير .

ولتكن العظمة ضرورة من ضروريات التفاعل الاجتماعي لا فضل فيها لصاحبها .

نعم . . هي كذلك ، وقد كانت كذلك ، ولم يقل احد اننا نتربص بها لنهينها ونغض من قدرها ، ونصيح في وجهها لسبب ولغير سبب قائلين مكررين : ان غيرك قد كان وشيكا ان يحل في محلك ويفعل ما فعلت أو ما ستفعلينه . .

وليكن الفضل الاكبر لموافقة الظروف الاجتماعية ، ولا فضل لاحد لم توافقه هذه الظروف . . لكنه فضل لازم ، ووجد لانه لازم ، واستحق التقدير اللازم لانه لازم ، ولا يقال عنه انه فضول وانه ادعاء غير مقبول . .

فالى مصدر آخر غير البحث العلمي والآراء الفكرية نرجع بالنظر لتفسير النقمة على حق الفرد العظيم أو غير العظيم ، او لتفسير النقمة على كل فرد له

لون ، وله شية ، وله علامة مميزة ، بين القطيع السائم الذي لا لون له ولا شية ولا علامة . . !

نرجع الى طبيعة الدناءة التي تنبع منها الشيوعية ، وتتجه اليها في نفوس المستجيبين لها . . وكلما اختبرنا هذا المذهب واختبرنا ضمائر اصحابه تكشف لنا مصدر الشيوعية في جوانب شعورها وجوانب تفكيرها . . فمن الخطأ ان نتوهم انها نقمة على امتياز الثروة المغتصبة كالنقمة التي يشترك فيها جميع الناس . . في جميع العصور ، ولكنها في أعمق مصادرها نقمة على كل امتياز وحسد لكل ممتاز ، ولو كان امتيازه لنفع بني قومه أو نفع بني الانسان . .

***

ومن الوقائع المشهودة أن تاريخ الشيوعية نفسها يبرز لنا عمل الفرد في توجيه الجماعات وتحويلها عن وجهتها . . فليس اعلان الدعوة الشيوعية في روسيا حتما من قضاء التاريخ ، لو لم يكن « لينين » على رأس الفئة التي تسلمت زمام الثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف . .

فلم تكن روسيا ممهدة للدعوة الشيوعية دون غيرها تمهيدا لا منصرف عنه الى سواه ، ولكنها سارت في طريق الشيوعية لان الفئة التي قادتها يومئذ هي التي سيرتها اليها ، وقد تولى النازيون أمر الثورة في المانيا ، وتولى الكماليون امر الثورة في تركيا ، وتولى « سن يات سن » أمر الثورة في الصين ، وقامت في العالم ثورات متفرقات بقيادة هيئات من هذا القبيل . . فاختلف الاتجاه باختلاف القيادة ، ولم يكن بين الامم التي انقادت لها من جامعة بينها غير السخط وحب التغيير . . ولو أن فيالق « لينين » لم تتسلم زمام الامر في روسيا ، لما كان حتما لزاما أن تسير البلاد على الخطة التي سارت عليها تطبيقا لمذهب « كارل ماركس » أو خروجا عليه . .

وما هو الحتم التاريخي الذي كان يستلزم قيام الدعوة الشيوعية في روسيا بعد الحرب العالمية الاولى ؟ بل ما هو الحتم التاريخي الذي كان يستلزم ايمان « لينين » بمذهب المادية التاريخية ؟ . . ان « لينين » لم يحلم قط بأن تقوم

الثورة في حياته ، وكان يقول : انها لو قامت في مدى مائة سنة لحق للثائرين ان يغتبطوا بهذا التوفيق ، و ولعله كان واحدا من أولئك الثوار الروس الذين قالوا للزعيم الصيني « سن يات سن » ـ كما قلنا في كتابنا عنه ـ انهم لا يتوقعون الثورة وهم بقيد الحياة !

وخصلة أخرى من خصال الشيوعية ينبغي أن نلتفت اليها ، كلما تكلم القوم عن الحتم التاريخي ، وحاولوا ان يسحبوه الى الحاضر أو الى المستقبل . .

فالحتم التاريخي لا يظهر من حوادث الماضي واحكامه المتسلسلة من أدواره المتعاقبة . . ولكنه يظهر كلما قامت في طريق الغرض عقبة تمنع نفاذه أو تعوقه الى حين . .

وانكار الحقوق الفردية على هذا القياس لم يكن حتما لزاما في سوابق التاريخ . . وانما أصبح حتما تاريخيا يوم وقفت الملكية الفردية ، والمنافسة الفردية ، والكفايات الفردية ، عقبة أو عقبات في طريق النفاذ . . ان الحرية الديمقراطية لا تنكر منع الجور والشطط وتحريم المنافسة التي تضر بسلامة الافراد . . والحرية الديمقراطية ، لا تنكر أن تتدخل الدولة في شؤ ون الملكية الفردية اذا وجب ذلك لمكافحة وباء ، او تخفيف غلاء ، أو دفع غارة من الاعداء . .

والحرية الديمقراطية لم تنقض قواعدها حين أصدرت القوانين التي تحرم زيادة ساعات العمل على عشر في النهار . ولكن صدور هذه القوانين لتنفيذها على الانوال في البيوت ، قد كان من المستحيل في ظل الديمقراطية أو ظل الشيوعية أو ظل الاستبداد . . اذ من اليسير أن تراقب المصنع الذي يعمل فيه ألف عامل لتمنع زيادة العمل على عشر ساعات ، وليس من اليسير أن تراقب الف عامل متفرقين في البيوت ، لتفرض على كل منهم ان يعمل في اليوم عشر ساعات ولا يزيد . .

وكثيرا ما تسمع من أعداء الحرية الديمقراطية من يسألك : أكان من نعم التنافس الحر أن يساق الاطفال دون العاشرة الى العمل الشاق بالليل

والنهار ؟ . . يسألون هذا السؤ ال وينسون أن التنافس هنا تنافس العمال فيما بينهم وتنافس المصانع فيما بينها على السواء . . ويسألونه وينسون ان الحرية الديمقراطية بطبيعتها لا تنكر تحريم الارهاق والشطط بالتشريع الصارم كلما دعت الحاجة . . ولكن لا الحرية الديمقراطية ، ، ولا الشيوعية ، ولا الاستبداد المطلق ، ولا حكومة من الحكومات ، تستطيع أن تنفذ قانونا غير قابل للتنفيذ . وليس تقديس التنافس الضار هو الذي حال دون اصدار القوانين التي تحرم زيادة العمل على الطاقة . . ولكن هذه القوانين لم تصدر قبل عهد المصانع الحافلة بالعمال لان تنفيذها على البيوت ، وعلى الالات اليدوية المتفرقة شيء غير ممكن في الواقع ايا كان السلطان المشرف على الصناعات .

فالحرية الديمقراطية لم تكن تمنع الاصلاح بتحريم الشطط في التنافس الذي يريد المتنافسون انفسهم ان يحرموه . . الا أن هذا الاصلاح لا يوافق غرض الماديين التاريخيين ، وليس على منهجهم أن تبقى الملكية الخاصة مشروعة في القوانين . ولهذا يظهر الحتم التاريخي فجأة لانكار الحقوق الفردية والحرية الفردية والكفايات الفردية ، ولا موجب لظهوره من سياق التاريخ . . وانما الموجب الوحيد لظهوره أنه الوسيلة الى تحقيق الغرض المنشود . .

***

هذا الحتم التاريخي المنجم على حسب الغرض ، هو مصدر الآراء التي رتبت للفرد مكانته في مذهب الماديين التاريخيين ، وفرضت له نصيبه من الحرية ومن الفضل في خدمة المجتمع او تنفيذ برامج الاصلاح . . وهو نصيب تضاءل مع الزمن في أقوال فلاسفة المذهب قبل ان يتضاءل في أعمال التطبيق ، لان ما قالوه في عهد « كارل ماركس » عن حرية الفرد لم يزل يتضاءل ويتضاءل حتى أصبحت الحرية الفردية على ألسنتهم وصمة تعاب وتدعو الى الاتهام بانكار حق الجماعة في أن تصنع بالفرد ما تشاء . .

والمشهور عن « كارل ماركس » انه ثائر جامح يصدم العالم الواقع بما يزعجه ولا يبالي مغبة هذا الازعاج ، الا انه اذا امتحن بحيلته في ازجاء القول عن مكانة الفرد كان وصف الماكر الحذور اليق به من وصف الثائر الجموح . . فلم

يكتب في مؤلفاته كلمة واحدة تشير من بعيد الى الخطر على الحرية الفردية من مذهبه في الاجتماع ، وما كان في وسعه أن ينبس بكلمة في هذا المعنى ثم يطمع في مستمع واحد يصغي اليه بين صيحات الحرية التي ملأت أجواء القرن التاسع عشر ، وكانت تذهب بالناس الى الانفة من طاعة القانون وطاعة الحكومة على وضع من الاوضاع . . فراجت بينهم دعوة الفوضوية والنقابية ، وراجت بينهم دعوة الشيوعية نفسها لانها وعدت الامم أن تنتهي بها الى عصر تذبل فيه الحكومات حتى تزول . . ومن لم يذهب الى هذا المدى في الانفة من الطاعة ، فلا مطمع في اصغائه الى مذهب يحدثه عن الاستبداد ، ويجعل حرية الفرد نافلة من النوافل او مظهرا كاذبا يخفي وراءه قسوة الضرورة التي لا تحفل بالحريات ولا بالافراد .

كان « ماركس » وأتباعه يترنمون بالحرية الفردية في موكب الديمقراطية ، وكانوا يشهرون بالسلطة الفردية فلا يصدمون احدا لان سلطة الفرد كانت هي الخطر الاعظم على الحرية الفردية في تلك الآونة ، ولم ترد الاشارة الى دكتاتورية الصعاليك أو استبداد الطبقة الاجيرة الا مرتين في رسائل « ماركس » الخصوصية . . أما الكتب والبرامج المسهبة ، فكل ما ورد فيها بيان عن حالة الحكومة بين قيام الثورة واستقرارها ، وأهمه ما جاء في برنامج مؤتمر جوثا[2] وقصد به « ماركس » الى التوفيق بين الفوضوية التي ترفض الحكومة في جميع العهود ، ونظام الشيوعية الذي يترخص في اقامة الحكومة لحراسة النظام الجديد ريثما تنتظم الاحوال بعد الغاء الطبقات . .

وقد ختمت رسالة المادية الماركسية في القرن التاسع عشر ، وهي لا تجرؤ على المساس بالحرية الفردية ، ولا تمس مطالب الفرد الا حيث تستطيع أن تمشي في جوار فكرة من أفكار العصر المقبولة أو مبدأ من مبادئه المحبوبة .

فالحملة على احتكار الثورة لم تكن غريبة على الاسماع حيث تنهال

Dictatorship of the Proletariat (1)

Gotha (2)

الحملات كل يوم على احتكار السلطة واحتكار السيادة بأنواعها وألوانها . .

والرجوع بكل شيء الى حقوق الامة في المسائل الاقتصادية ، لم يكن غريبا على الاسماع حيث ترجع الحقوق السياسية جميعا الى الامة ، ويتسع نطاق النيابة عن الأمة في شتى طبقاتها . .

والحتمية التاريخية لم تكن غريبة عن الاحاديث الشائعة حول نواميس الكون وقوانين الطبيعة ، أو اجراء كل شيء في العالم على سنة عامة لا تسمح بالشذوذ في عظيم أو دقيق من أحوال الحركة والسكون بين السماوات والارضين . .

والتشهير بالمال والتهافت عليه لم يصدم أحدا في الجيل الذي جاء بعد ثلاثة اجيال او أربعة تسمع عن أصحاب الاموال كل مذمة ومنقصة ، وتتلقى من منابر الوعظ أو منابر الفلاسفة المبشرين بالطوبيات سوء النذير من جراء الجشع والتكالب على الحطام . وقد كانت الطوبيات تتبع بعضها بعضا في انجلترا وايطاليا وألمانيا منذ عهد « توماس مور » الانجليزي الى عهد « جوهان فالنتين » الالماني الى عهد « شامبنلا » الايطالي الى غيرهم من أصحاب البشائر الاجتماعية المجمعين على تدنيس الطمع ، وتبشير المحرومين بالراحة والرزق الخفيض . . وقد بدأ عصر الطوبيات في القرن السادس عشر واستمر بعده الى القرن العشرين ، واقترن به عند نهاية القرن الثامن عشر عصر البرامج الاجتماعية التي كان من روادها السابقين « بابوف » الفرنسي و« روبرت أوين » الانجليزي ، ورواد علم الاقتصاد وعلم الاجتماع بين أمم الحضارة الاوربية . . وليس فيهم من كان يذكر الطمع في الاموال بغير المذمة والتشهير .

هذه النواحي من الفردية المعيبة هي النواحي التي اختارتها المادية التاريخية للتسلل من خلالها الى عقول ابناء القرن التاسع عشر ، ولا نقول للهجمة عليها . . فما كان بمذهب المادية التاريخية من حاجة الى الهجمة على قواعد الاحتكار ، ولا الى الهجمة في مجال البحث عن نواميس الكون وقوانين الطبيعة. . اذ كان « العقل العصري » يثور قبلها على السلطة المحتكرة ،

والقوة المحتكرة ، والثروة المحتكرة ، والمزايا المحتكرة جميعا ، لانها في جملتها عدوان على حرية الافراد . . ولا نبتعد بالكلمات عن معانيها اذا قلنا ان البحث عن النواميس الكونية كان في لبابه ثورة على رجال « الكهنوت » الذين احتكروا العلم باسرار الكون فجاء « العقل العصري » منكرا لهذا الاحتكار مذيعا لاسرار الكون على السواء بين جميع القادرين على استطلاع تلك الاسرار .

ولقد كانت فلسفة الماديين ـ على هذا ـ تسللا الى العقول في موضوع الحقوق الفردية ، ولم تكن هجوما يصدم تلك العقول . . الا انها تسترت بكراهة الاحتكار لتقول بكراهة الامتياز كيفما كان ، وجعلت الفرد كبيرا او صغيرا لغوا أو كاللغو في حركة التاريخ ، وليس لفكرة من افكارها الفلسفية معنى مفهوم ان لم يكن معناها الغاء الفرد بالقول الصريح .

فلا معنى للنص على أن « الفرد » لا يصنع شيئا الا بموافقة الظروف .

ان هذا تحصيل حاصل يصدق على الفرد وعلى الجماعة وعلى كل قوة انسانية او حيوانية أو مادية تؤ دي عملا في هذا العالم ، ولا يمكن أن تؤ ديه اذا عارضتها قوة اكبر منها . .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : ان مشيئة الافراد تتفاعل ويأتي فيها في النهاية شيء غير الذي أراده كل فرد منهم على حدة ، فان المواد الكيمية تتفاعل مثل هذا التفاعل . . ولا نقول من اجل ذلك : ان الحديد كالقصدير ، أو ان الذهب كالنحاس ، او ان الكبريت كالملح ، أو ان العناصر ليست عناصر مؤ ثرة مختلفة التأثير من أجل ذلك التفاعل المفروض .

كل ذلك تحصيل حاصل لا موجب للعناء في شرحه ، لو كان الفرض منه ان عمل الفرد محاط بالعوامل التي تساعده تارة وتقاومه تارة اخرى . . وانما الموجب له امر واحد وهو ذلك الولع بالتسفيل والتخسيس والتلصص على كل تعلة خفية لتصغير كل عظيم ، واستمراء الحقد والحسد في طوية كل مهين لئيم . .

ومن التسلل الى العقول أن ينادي زعماء المادية بحقوق الفرد السياسية في المنشورات العامة ، ثم يحتفظوا بين سطور المباحث الفلسفية بتفسير تلك الحرية على النحو الذي أرادوه ، ولعل حصة « انجلز » في هذا الباب كانت اكبر من حصة « كارل ماركس » حينما تصدى للبحث عن فلسفة الحرية ، فان « انجلز » هو الذي أسهب في تفسير معنى الحرية حين تصدى للرد على « دوهرنج » فقال : انها هي معرفة الضرورة ، وان الانسان يعتقد انه كان حرا في اختيار أمر من الامور لانه يجهل العوامل التي تكونت منها حرية الاختيار ، ولم يشأ « انجلز » ـ أو لم يستطع ـ ان يبين لنا ما الفرق بين العوامل التي « تضطر » الانسان الى الحرية ، والعوامل التي تضطره الى العمل الآلي المكره المجرد من الاختيار أو من الشعور بالاختيار . . . فلن تكون النتيجة أن الحالتين سواء ، وان الشعور بالاختيار كالشعور بالاضطرار ، وأننا نختار بينهما فلا نملك أن نختار . .

ولم يجهر الدعاة الشيوعيون باحتقارهم للحرية الانسانية الا بعد ان قامت لهم دولة تملك سلب الحرية . . فسلبوها واعتبروها ترفا لا يساوي ضرورات المعيشة ، ولعبوا بالالفاظ في هذه المقارنات الجوفاء بين الكماليات والضروريات لعبا مبتذلا يشف عن سوء فهم او سوء نية . فإن كبح الاستبداد ضرورة الضرورات في مجتمعات الآدميين ، ولا يكبح الاستبداد بحشو البطون ، بل بالحرية في الضمائر والافكار . .

وقد كان الشيوعيون يشهرون الخبز في وجه أنصار الحرية ، وينسون أن الفاشيين والنازيين يساوونهم في هذا « البرهان » الخيواني ان لم يرجحوا عليهم . . لانهم جميعا يؤ يدون مذاهبهم وتطبيقاتهم باطعام الجياع وتدبير العمل للعاطلين ، ولكنهم لا يسألون كما يسأل الشيوعيون : ما جدوى الحرية للبطون الجياع ؟ . .

ولو قد ثبت أن الحرية ترف رخيص ، وأنها ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية لدفع اخطار الاستبداد لما كان في ذلك السؤ ال حجة على شيء . . اذ كان الطعام الـزم للكائن الحي من أمور كثيرة لم يتركها الآدميون لهذا

السبب ، ولكنهم بها كانوا آدميين ولم يكونوا آدميين بما يأكلون ويشربون . .

ولقد يحق ذلك السؤال لكثير من السائلين غير أصحاب المذهب الذين قضوا على الملايين وعذبوا وشردوا أضعافهم من طبقة المحرومين وغير المحرومين ، فان الذين ماتوا جوعا وقحطا في تاريخ الروس منذ القدم لا يساوون شطرا من هؤلاء القتلى والمعذبين . .

ثم عاد القوم الى نغمة الحرية الفردية بعد سنواتهم التي تصرمت في ازدراء هذه الحرية وعقد المفاضلات بينها وبين الخبز وما اليه . . فلما احتفلوا بذكرى « كارل ماركس » بعد انقضاء ستين سنة على وفاته ، لم يشغلهم امر في هذه الذكرى كما شغلهم أن يدفعوا شبهة الجناية على كيان الفرد وكرامته الانسانية في ظل الشيوعية ، فطلبوا الى اسقفهم الاحمر[1] ان يكتب لهم رسالة خاصة عن الماركسية والفردية ، فكاد يترنح وهو يردد كلام رفيقه « باربوس » الذي كتب من قبله يقول : « انه ما من شيء ادهشه كدهشته من تلك الفردية المتدفقة في بلاد الروس ، اذ نشهد فوعة الشخصية متوفزة على ريعان الشباب ».

وبعد عشر سنوات على هذه الانشودة ـ البريئة ـ يموت « ستالين » فيتنفسون في بلاده الصعداء ، ونسمع من أعظم الشخصيات حوله أنهم عاشوا بين يديه في سجن من الكبت والرهبة ، لم يصدقوا أنهم نجوا منه بعد موته واستوائهم على عرشه زهاء ثلاث سنوات . .

***

قيل أن الحرية يخدمها ما يعمل لها ويعمل لمحاربتها على السواء ، وهي كلمة تصدق أبلغ من هذا الصدق اذا قيلت عن الحرية الفردية أو عن الشخصية الانسانية . . فان الشيوعية تستهين بها في تفسير أطوار التاريخ وتتجاهلها في دراسة الحركات الاجتماعية ، ولكن لو زالت تواريخ الحركات الاجتماعية

---

(1) Dean of Canerbury

وبقيت لنا منها حركة الشيوعية لكان فيها الكفاية « لفرز » مجهود الفرد في الاعمال العامة ، وابراز ما ينسب اليه في أطوار التاريخ مقدما على نسبته الى الامة أو البيئة أو الطبقة . .

ان « ماركس » و« انجلز » زعيمي المذهب الشيوعي ولدا في المانيا ، وتمرسا بالحياة الاجتماعية والسياسية في فرنسا ، وكونا مذهبهما في انجلترا . . ووضعت هذه المبادىء بعد موتهما موضع التنفيذ في روسيا . وليست أمامنا صفة واحدة محققة بين هذه الامكنة المختلفة غير صفة « ماركس الفرد » و« انجلز الفرد » متحيزة في هذه الاشتات من الاحوال الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية .

وأبرز من ذلك للصفة الفردية ان « ماركس » و« انجلز » ـ كليهما ـ من الطبقة البرجوازية ، وليس في وسعهما أن يزعما انهما كانا يمثلان اخلاق الطبقة البرجوازية حين تصديا لانصاف الطبقة الاجيرة ، والا لكان في هذا الزعم قضاء على مبادىء المذهب وقضاياه في الاخلاق والاجتماع والفلسفة والاقتصاد . . فلا بد من صفة خاصة « للفرد ماركس » و« الفرد انجلز » مستقلة عن صفات سائر الافراد في طبقة الماليين أو طبقة الاجراء . .

ولقد كان دور التنفيذ أبرز لهذه الحقيقة من دور الدعوة ، فان البارز أمامنا في تنفيذ الفلسفة الماركسية بعد الحرب العالمية الاولى هو شرذمة من الافراد سلطت ارادتها على بلاد لم تتهيأ للماركسية بأطوار الصناعة ولا بأطوار الاجتماع ، وقد ادعى هؤلاء الافراد لانفسهم من الحقوق والسلطات ما لم يجرؤ على ادعائه أشد الناس غلوا في الايمان « بالفردية » المطلقة ، ثم تركزت هذه « الفرديات » في « فردية » واحدة يتسلط بها زعيم واحد بوسائله « الفردية » التي مكنته من تسخير أعوانه وأتباعه مدى حياته . . وهذا هو الواقع المجسم أمام الاعين والعقول . .

أما تلك التخريجات الملتبسة التي تغوص بنا في سراديب الارادة الخفية والارادة العلنية فهي أشبه بألغاز ما وراء « الطبيعة » التي يهيم فيها أصحاب

المذاهب الجبرية والقدرية حين يخوضون بغير علم في اقامة الفواصل بين ارادة الخالق وارادة المخلوق ، أو فيما سبق به القدر ولحق به القضاء . .

وحسب الباحث دراسة الشيوعية بين جميع الحركات التاريخية ، ليقول باللغة التي يستطيعها الانسان : ان « الفرد » شيء من الاشياء التي لا تهمل في تطوير التاريخ ، وان ارادته وارادة الجماعة من مصدر واحد في تكوين العوامل التي توضع في ميزان الحوادث والاقدار .

واذا تصدى أحد لمناقشة هذا الرأي فانه لا يقول لنا : ان الجماعات التي لا رأي لها فسرت التاريخ بما يبطل هذا الرأي او يشككنا فيه ، ولكنه يقول لنا : ان رأي ماركس عن أعمال تلك الجماعات يصورها لنا على غير هذه الصورة ويستدل لها بغير هذا الدليل .

***

ويكاد المتكلم أو الكاتب يتعثر بالمفارقات اللفظية التي لا تستقيم في التعبير اذا تكلم عن تطور الفرد أو تطور الجماعة في التاريخ على وجه غير هذا الوجه ، مع ايمانه بالتطور فيما مضى وبالتطور في المستقبل قياسا عليه ، سواء فهم من التطور انه نمو وتقدم أو فهم من أنه تغير توفيق بين الكائن الحي وأحواله كلما تغيرت هذه الاحوال فاذا حدث التطور على أية صورة من الصور ، فلا بد ان يتناول الكائن الفرد المسمى بالانسان وان يتناول النوع الانساني في مجموعه .

ولا توجد غير صفة واحدة تحيط بكفايات التطور أو التقدم عند النظر الى الفرد أو الكائن الحي المسمى بالانسان ، وتلك هي زيادة التبعة وزيادة القدرة على النهوض بها . .

وفي وسعنا أن نلخص هذه العبارة في كلمة واحدة وهي « استقلال » الشخصية . .

فما الفرق بين القادر والعاجز ؟ . وما الفرق بين العالم والجاهل ؟ . وما الفرق بين الرئيس والمرؤوس ؟ . وما الفرق بين الرجل والطفل ؟ وما الفرق

بين الرشيد والقاصر ؟ . وما الفرق بين صاحب الثروة والفقير ، او بين صاحب العائلة ومن يعول ؟

يقول من شاء ما شاء في شرح هذه الفروق بمختلف المقاييس ، فلا بد أن يؤ ول بها الى مقياس واحد وهو أن الراجح أوفر نصيبا من التبعة والقدرة عليها أو انه بعبارة أخرى اوفر نصيبا من استقلال الشخصية .

فلا تقدم ولا تطور اذا فقد الانسان هذه القدرة أو تعرض فيها للنقص والضمور . .

وليست ملامح الشخصية الفردية مما يجهله احد فيجوز أن يجهله زعماء الشيوعية ، فقد أشار « ماركس » و« انجلز » الى تعدد المواهب والملامح في معارض كثيرة من معارض البحث والدعوة ، وقال « ماركس » بأصرح العبارات في رسالته عن فقر الفلسفة[1] : « ان الناس يولدون على اختلاف في الادمغة والملكات الذهنية » . وقال في انتقاده لبرنامج جوثا[2] : « ان عالما من المؤ هلات المنتجة والغرائز يضحى به من أجل اتقان الاجزاء الآلية » وقال في الجزء الاول من كتاب « رأس المال » : « ان توزيع العمل ينشأ من توزيع الاخلاق حيث يحتاج عمل الى زيادة في القوة ، وعمل آخر الى زيادة في الذكاء ، وعمل غيرهما الى زيادة في الانتباه » ويقول « انجلز » بمثل ذلك في مباحثه الفكرية الاقتصادية ، ولاسيما الرد على « دهرنج » والاشتراكية الطوبية والعلمية[3] ويتبعهما في هذا المعنى أقطاب المذهب من الدعاة والباحثين الغربيين أو الروسيين .

ولكنهم يحرصون على تغليب فكرة الانتاج وقيام المجتمع بغير طبقات فلا ينتهون بهذه الخصائص الفردية الى النتيجة التي تقتضيها ، وهي تقتضي أن يكون الافراد هم المؤثرين في مجرى التاريخ العام مهما يكن معنى التفاعل

(1) Poverty of Philosophy

(2) Critique of Gotha Prgramme

(3) Socialism and Scientific Utopios

بين ألمشارب والارادات ، فان الهيدروجين يظل فعالا في تكوين الماء ولو أطلقنا على السائل اسما آخر لا نذكر فيه الهيدورجين ، ونظل نعتمد على الهيدورجين ولا نعتمد على عنصر غيره كلما أردنا تكوين الماء او تحليله بعد تكوينه . ومهما يكن من تغير المظهر الخارجي بعد الامتزاج والتفاعل ، فنحن لا نلغي عنصرا واحدا من عناصر المزيج ولا نمنع خاصة واحدة من خواصه حيثما اردنا ذلك التفاعل وخرصنا على كيانه الصحيح .

ان المزيج الكيمي المتفاعل يتطلب منا أن نحافظ على الصفة المستقلة لكل جزء من أجزاء ذلك المزيج ، ولا يتطلب منا أن نجور على ذرة من ذراته لان المزيج هو الغرض المقصود في النهاية . . بل يوجب علينا حرصا على ذلك الغرض الاخير أن نبدأ بالحرص على الاجزاء ، ونعرف انها تعمل عملها لانها اجزاء يحافظ كل منها على خصائصه وفواعله بغير انتقاض ولا تشويه .

فلا تطور بالنسبة للكائن الحي المسمى بالانسان الا ان يستوفي كيانه الفردي وأن تتم له الشخصية الانسانية بتبعاتها وحرياتها ، وأن نعتبره قوة عاملة في بيئته بغير لف من هنا أو دوران من هناك لنمسح باليسار ما نقرره باليمين .

ان الجزء شيء حقيقي وبغيره لا يوجد المزيج الكيمي كيفما اختلف به التفاعل والتشكيل . . وان الفرد شيء حقيقي وبغيره لا يوجد الاثر الاجتماعي كيفما كان المجتمع على التعميم . . أما نوع الانسان فلا يكون له تطور الا ان يكون تطورا محيطا بالنوع غير محدود باللون أو بالسلالة او بالطبقة او بالجماعة . . ولا يكون تطورا انسانيا وهو خاص بطبقة أو بقوم أو بسلالة أو باقليم . .

ونكاد ندخل في المفارقات اللفظية اذا تكلمنا عن ارتقاء نوع الانسان ، ولم نقصد بذلك شمول الارتقاء لكل ما تمخضت عنه جهود النوع من المزايا والملكات والقابليات والاطوار .

***

ان الكلمة نفسها تكاد توحي لنا بمعناها الذي لا تقبل معنى سواه ، فكل تطور

انساني هو تطور للفرد في طريق الكيان التام والشخصية المستقلة . . وكل تطور للنوع فهو احاطة بالفضائل النوعية في أوسع نطاق يحتويها : نطاق النوع الذي لا تخفيه حواجز الالوان والسلالات والطبقات . .

واذا كان هذا هو حكم العقل وحكم الواقع بين ايدينا ، فهو كذلك حكم التاريخ حيثما وضح له معنى مطرد في شعابه المتفرقة وسياقه المتلاحق دورا بعد دور ومجالا بعد مجال . .

سألنا في كتابنا عن « غاندي » في فصل عن « العناية الالهية وتاريخ الانسان »:

« هل للتاريخ الانساني وجهة معينة نستطيع ان نتبينها من جملة الحوادث الماضية »؟ . .

ثم قلنا : انه سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر وهو : ماذا عسى ان تكون وجهة التاريخ المعقولة اذا تخيلنا له اتجاها يتوخاه على نهج مرسوم ؟

ثم اجملنا الجواب بما يصح ان يكون تتمة لهذا الفصل يغنينا عن جواب جديد . .

قلنا في ذلك الجواب : انه شيء يتعلق بالانسان الفرد ، وشيء يتعلق بالناس كافة أو بالانسانية جمعاء . .

فالشيء الذي يتعلق بالانسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعة . .

والشيء الذي يتعلق بالانسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون والاتصال . .

وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل الذي تنطوي فيه جميع المطالب ، فهو اشمل من القول بازدياد العلم أو ازدياد القوة أو ازدياد الفضائل والملكات ، لان هذه الخصال كلها تتمثل في زيادة استعداده لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعة . .

« وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الانسانية برمتها ، فهو اشمل من القول بارتقاء النظم السياسية وارتقاء المعاملات التجارية وارتقاء الاخلاق الاجتماعية ، لان هذا الخصال كلها تتمثل في التقارب بين الامم والتعاون بينها على وسائل الوحدة والاتصال . .

« هذا وذاك هما الوجهة التي نتخيلها للفرد وحده ، وللناس كافة اذا كان للتاريخ وجهة معقولة تدل عليها الحوادث الماضية . .

« فكان الانسان الفرد قبل نشأة القبيلة هملا مستباحا ، لا يحفظ له حق ولا يفرض عليه واجب ، ولا ينال من الحرية الا ما يغفل عنه المعتدون عليه .

« ثم نشأت القبيلة فنشأ معها للفرد نوع من الضمان ، ولكنه ضمان شائع لا يستقل فيه بحرية ولا تبعة ، فيؤخذ بذنب غيره في الثار والمغرم ويقاسمه غيره فيما يغنمه ويستولي عليه . . فهو رقم متكرر وليس بكم مستقل في الحساب .

« ثم نشأت الامم فازداد نصيبه من الحرية كلما ازداد نصيبه من التبعة ، واصبح المقياس الوحيد لارتقاء الأمة هو مقدار حظ الفرد فيها من الحريات والتبعات . .

« فليس لارتقاء الامة علامة اصدق من هذه العلامة ، وهي حريات الفرد وتبعاته ، بل ليس للارتقاء علامة غيرها يطرد بها القياس في جميع الامور . . ».

« . . تلك هي وجهة التاريخ المطردة في حالة الانسان الفرد حيث كان . .

« أما وجهته في حالته الانسانية كلها فالاتجاه الى التقارب بينها مطرد يتعاقب في كل مرحلة من مراحل التاريخ . .

« ونحن الان في عصر يلمسنا هذا التقارب في كل علاقة من علاقات العالم المعمور : في المواصلات ، والمعاملات ، وفي الروابط السياسية ، وفي نقل المعلومات واذاعة الاخبار ، وفي هذا التضامن التام الذي يجعل الأزمة في ناحية من الارض ازمة قريبة يحس بها أبعد الامم من تلك الناحية ، أو يجعل

القوي مهتما بموقف الضعيف منه ، مهما يكن من اعتزازه بالسطوة والثراء . .

« ولم تكن الحروب والمطامح حائلا دون هذا الاتجاه ، بل لعلها كانت من دوافعه ودواعيه . . فأسفرت كل حرب من حروب الرومان والفرس والعرب والصليبيين والعثمانيين عن تشابك بين ناحية وناحية في الكرة الارضية ، ومن جراء هذه الحروب تشابكت آسيا وأوربة وافريقية وانفتح الطريق الى القارات المجهولة . .

« واذا نظرنا الى أثر الحروب في المخترعات وتسخير قوى الطبيعة جاز لنا أن نقول : ان وسائل المواصلات قبل غيرها مدينة للحروب بالشيء الكثير . . فماذا يكون الطيران والرادار ومحركات القوى جميعا لولا ضرورات الحروب واشتراك غريزة الدفاع عن النفس في سباق هذا المضمار ؟ . .

« بل نحن نتعلم من التاريخ ان الدولة الحاكمة لا تدوم الا بمقدار ما يكون لدوامها من رسالة عالمية . .

« فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم ، وأخذت في الانحلال حين بطلت رسالتها العالمية واستلزم التحول في اطوار الامم واتساع مجالها رسالة عالمية اخرى على غير ذلك النظام . .

« ولنبحث عن دلالة ذلك الاتجاه في تاريخ الاقليم الذي نتكلم في هذا الكتاب عن بطل من أبطاله . . وهو الاقليم الهندي أو الاقاليم الهندية على التعبير الصحيح . .

« فقد كانت حروب الاستعمار الاوروبي محنة طامة على الشرق باسره ، نقم منها الشرق لما أصابه من بلواها ، ورغب فيها الغرب لامر اراده وارادت الحوادث غيره ، ولم يخطر للشرق ولا للغرب على بال . .

« لم تكن الهند قط وطنا واحدا في عصر من العصور ، لانها كانت تتألف من شتى العناصر وشتى المصالح وشتى المواقع الجغرافية . .

« فلم تدافع قط دفاعا واحدا ، ولم تشترك قط في هجوم واحد ، ولم تجتمع

قط على مطلب واحد بينها وبين أبنائها ، ولا بينها وبين الغرباء عنها والمغيرين عليها . .

« فلما ابتليت باستعمار واحد ـ طغى عليها من اقصاها الى اقصاها ـ وجد فيها وطن واحد يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه . .

« وولدت الهند مولدا جديدا في التاريخ . .

« وزال الاستعمار أو كاد ، وبقيت الهند الجديدة ، وبقيت معها علاقات يشتبك فيها الشرق والغرب ، وتنتظم في الوحدة الانسانية على نحو لم تعهده ولم تحلم به قبل محنة الاستعمار . .

« فاذا كان اتجاه العالم المعقول هو الاتجاه الذي تنتهي اليه الحوادث في حياة الفرد وحياة الانسانية عامة ، وكان هذا الاتجاه مما تلتقي عليه عوامل الوفاق وعوامل الشقاق ، ويتوافى عنده ما يراد وما لا يراد ـ فمن عمل المؤرخ الباحث ، لا من عمل المتدين المؤمن فحسب ـ ان يفهم للتاريخ معنى غير معنى المصادفة العمياء ، وان يرى للعالم مصيرا مقدورا يمضي الى غاية هذا الاتجاه ، حيث تهديه عناية الله ».

هذه النظرة الى تطور النوع سهلة جلية لا تنأى بنا عن الواقع ، ولا عن المعقول ، ولكنها تضعنا امام الواقع والمعقول وجها لوجه ولا تجشمنا أن ندور بها حول الاحاجي والمعميات . .

يتطور النوع فينتفع بمحصول النوع كله ، ويزيل ما بين أجزائه من الحواجز والمسافات . .

يبدأ الناس تاريخهم منعزلين متباعدين ، فاذا أخذ التاريخ في التطور فهنالك تشتبك العلاقات بينهم مرحلة بعد مرحلة ، فتتقارب المسافات ، وتتقارب المواصلات ، وتتقارب الحضارات ، وتتقارب المصالح على علم أو على غير علم ، فتصبح حياة النوع الواحد في العالم الواحد حقيقة يترجم عنها اضطراب

سائر الاجزاء لاضطراب جزء منها في أقصى موقع من مواقع الدنيا الانسانية بما اشتملت عليه من الاصدقاء او الاعداء . .

وقد نرى هذا التقارب بين الطبقات على ما تقدم في الكلام عن الطبقة كما نراه في التقارب بين الاقوام وبين الحضارات . .

وتؤثر هذه العلاقات الواسعة في حياة كل فرد من افراد النوع بداهة ليصبح فردا من نوع بعد أن كان فردا من عشيرة ، أو فردا من شعب ، او فردا من سلالة ، أو فردا من دولة جامعة بين الشعوب والسلالات .

ولا شك ان هذا التأثير في حياة الفرد ـ بعد تقارب العلاقات العالمية ـ هو الذي يتمثل لنا كأنه تقييد لحريته او افناء لاستقلاله ، تنفيذا للبرامج العالمية ، وتحقيقا للتعاون بين الامم ورسم الخطط التي يجري تطبيقها في كل أمة للتوفيق بين الجهود والتقابل بين المطالب والموارد في أمم كثيرة لم تكن بينها مشاركة في المعاملات قبل ارتباط العلاقات العالمية أو العلاقات الانسانية . .

فقيام العلاقة بين الامم الكثيرة هو الذي يوجب على هذه الامة ان تشتغل بهذه الصناعة ، ويوجب على غيرها ان تشتغل بهذه الزراعة ، ويوجب على أخرى أن تجعل برنامجها موافقا لزراعة هذه وصناعة تلك في الوقت المطلوب . .

هذه البرامج لا موجب لها في عصر خلا من المعاملات العالمية . .

وهذه البرامج لا مفر منها مع اشتباك هذه المعاملات وتكافل الامم طوعا أو قسرا في المنافع والاضرار . .

وهذه البرامج هي التي تبدو لنا كانها نكسة في الحرية الفردية ، وهي في صميمها تهيئة للانسان الفرد لكي يأخذ مكانه الجديد في العالم الواحد ، ويتلقي بالنوع في تطوره الدائم معفى من الجهد المبدد والفوضى التي لا تكافؤ فيها بين الاعمال والحاجات . .

وليس أخطر على حرية الفرد من هذه الفوضى في الحياة العالمية ، لانها تسومه عمل الالوف من المطالب حيث لا حاجة به الى غير مطلب واحد ، او

تسومه اهمال الالوف من المطالب حيث يحتاج اليها في أوقاتها ولا يجدها في تلك الاوقات . .

فاذا انتظمت البرامج والخطط على مقدار المطالب والموارد ، فهذا هو سبيل المعيشة الحرة في العالم الكبير الذي يتعاون كل جزء منه لاعطاء ما عنده والاستفادة مما عند الآخرين . .

ولسنا هنا نفرض فروضا ، او نقتسر النظريات على موافقة الوقائع والاعمال . .

فالتقارب في المسافات والمصالح مسألة من مسائل الحس والمشاهدة ، والحاجة الى اتفاق البرامج والخطط مسألة مثلها نعمل فيها مختارين ان شئنا او نعمل فيها مضطرين حيث لا نشاء . .

ان الماديين في العصر الحاضر أدنى الى لمس هذه الاطوار التاريخية ، أو هذه المشاهدات الواقعية ، من دعاة مذهبهم الاولين قبل مائة سنة . . بيد انهم لا يرونها ولا يريدون ان يروها ، وليس اعراضهم عنها لانها بعيدة من العقول فانها اقرب الى العقل مما يقدرونه ويدبون وراءه في الجحور ليستخرجوه الى النور . . ولكنهم يعرضون عنها لانها بعيدة عن طباع الشر والنقمة والشغف بالتخريب واهدار الدماء . . ! .

أقرب اليهم من ذاك ان يتصوروا التاريخ كمينا متربصا بكمين ، ولاحقين يهدمون ما بناه السابقون ، وطبقة واحدة تستأصل جميع الطبقات ولا تمهلها الا ريثما تمكنها الفرصة منها ، ونوعا انسانيا كأنه « بنيلوب » زوج « عولس » ، أو كأنه الخرقاء التي تنكث غزلها بيدها كلما ابرمته ، ولماذا يستقربون هذا التصور البعيد ؟ . . لانهم خرجوا يبحثون عن غرض بعينه ، ولم يخرجوا للبحث عن أقرب الحلول الى المحسوس والمعقول .

***

ولا نحب أن ننسى في ختام هذا الفصل أن طائفة من المفكرين من غير الشيوعيين يعتقدون اليوم أن العصر الحاضر يعدل عن مبادىء الحرية الفردية ،

وينظرون الى خطط التنظيم الاقتصادي وبرامج السنوات الخمس أو العشر في الامم او الجامعات « الامية » أو ينظرون على الجملة الى مشروعات التأميم والتعميم فيحسبونها دليلا على التحول من الايمان باستقلال الفرد الى الايمان بوجوب الحد من ذلك الاستقلال في شؤ ون الاجتماع والاقتصاد ، والى الايمان من ثم بوجوب الحد من استقلاله في الحقوق السياسية . .

وبعضهم يقول : ان الفردية مبدأ قديم قد حان الوقت لاعادة النظر فيه من الوجهة الفلسفية ، وآخر ما اطلعنا عليه في هذا الموضوع ـ مع الايجاز ـ بحث « لدافيد ريسمان » بعنوان « الفردية معادا فيها النظر » يتوسط فيه بين الفردية المطلقة والجماعة المطلقة ، فلا ينكر حق الفرد ولا يرى أن عمل الجماعة التعاوني[1] يلغيه او يفتئت عليه ، بل يرى ان الجماعة ـ حيث لا يستطيع الفرد ان يستقل بالعمل ـ هي الوسيلة الصالحة لصيانة استقلال الافراد ، وأن التنافس ـ ككل عمل انساني ـ قد يخرج عن حده فيرده اليه القانون ، ولا يفتئت به على حق الفرد ما دام جميع الافراد سواء في حكم القانون . .

ولم نطلع على بحث من بحوث « اعادة النظر » في هذا الموضوع الا احسسنا منه أنه يقوم على اساس اخلاقي ، او شعور يمزج بين الفردية والانانية او بين الفردية والصراع على تنازع البقاء . .

وفي الحق ان هذا الشعور لم يبدأ اليوم ولم يكن ابتداؤه بالامس في ميدان الاقتصاد دون غيره . . فقد كان الاعتراض على مذهب تنازع البقاء الذي اعلنه « داروين » اشد من الاعتراض على حرية التنافس الاقتصادي[2] الذي أعلنه آدم سميث الملقب بأبي علم الاقتصاد . .

وكلا المذهبين لا يسلم من الخطأ الكثير ، الا ان الاستناد اليهما في مناقشة الحرية الفردية يوقع أصحابه في أخطاء أكبر من اخطاء المذهبين . .

فما خطر لـ« آدم سميث » قط ان حرية التنافس تمنع الامم أن تلجأ الى تنظيم

---

(1) Grouping

(2) Laisser — faire

المعاملات في احوال كأحوال الحروب أو ما يشابه الحروب ، وأولى من أحوال الحروب بالتنظيم هذه الحالة العالمية التي تتوقف فيها معاملات الامم بعضها على بعض ، وتذهب فيها جهود الافراد عبثا ان لم تدبرها الامة كلها تدبيرا يوافق المطلوب من الامم الاخرى .

أما مذهب « داروين » فان عنوان الكتاب الذي تضمنه وهو « اصل الانواع »[1] خليق ان يصحح الخطأ في هذا الموضوع ، لان تنافس الافراد أو تنازع البقاء انما هو لمصلحة الانواع كما يفهم من عنوان الكتاب ، وقد فطن زعيم الفوضوية « كروبتكين » الى هذا المعنى فقال : « ان حرية الافراد هي السبيل الى تقدم الانواع وبقاء الصالح منها للبقاء » .

على انه لا مذهب « آدم سميث » ولا مذهب « داروين » كان اساسا للايمان باستقلال الشخصية الانسانية فيجوز - من ثم - ان يقوم استقلال الشخصية عليهما ، أو يزول بزوالهما ، أو يعرض له الشك حين يعرض لهما .

ان استقلال الشخصية الانسانية كان ثمرة النجاح لكل ثورة سياسية أو دينية قام بها الناس منذ عرفوا الثورة على الظلم ، أو عرفوا الثورة لتحطيم قيد من القيود . وقد اشتركت الطبقات العليا والطبقات الدنيا في هذه الثورات ، ولم تكن مقصورة على نظام واحد من نظم الانتاج او الثروة الاقتصادية ، وكان نصيب الفرد من أبناء الطبقات المحرومة في تلك الثورات اعظم من نصيب الفرد من أبناء الطبقات العليا . . لان هذه الطبقات العليا في غنى عن الثورة لتحقيق الحرية الشخصية .

واذا كان محصل تاريخ النوع الانساني يتلخص في اتساع العلاقات العالمية ، فمحصل تاريخ الفرد أن يزداد استقلاله او تزداد الدعوة اليه على الاقل فلا يجسر أحد على انكاره في صورة من الصور الا ليعود الى تقريره في صورة اخرى . وقد أصبح استقلال الفرد في زماننا حجة لكل نظام من نظم الحكم في مقام المفاضلة والتسابق الى الاصلاح . . بل أصبح مقياسا حقيقيا

---

(1) Origin of Species

لكفاية المجتمع كله في الصراع بين المجتمعات ، فانقسم العالم في الحربين العالميتين الى معسكرين : أحدهما يضيق فيه نصيب الفرد من الحرية والآخر يتسع فيه هذا النصيب ، وكان المعسكر الاول أقدم استعدادا للحرب وأوفر عدة لها عند ابتداء القتال ، ولكنه انهزم ولم يصمد للفريق الآخر الذي بدأ استعداده خلال ايام القتال .

ومن علامات الزمن ان الفرد يثبت وجوده أمام طغيان الجماعات كما يثبته أمام طغيان الآحاد . .

فالوجودية على تعدد مناهجها دعوة ذات دلالة ، ولا دلالة لها الا ان الفرد يثور على طغيان العدد ولا يرضيه ان يغرق سماته بين طوفان من العدد المتكرر ليس له سمات . .

وليقل من شاء ما شاء عن دور الفرد العظيم في قيادة الحركات الاجتماعية . .

ليقل : انه يخلق حين تخلقه الجماعة لقيادة حركة من حركاتها العامة ، فان الثابت أمامنا أن الحركة الاجتماعية تحتاج الى قيادة فرد عظيم ، وأما ما عدا ذلك من الالغاز والتخمينات فهو معلق « بلو كان ولو لم يكن » مما يجوز فيه قولان أو تجوز فيه عدة أقوال . .

وليس من فرق بين ظهور الفرد العظيم بالاسم الذي ظهر به وبين ظهوره باسم آخر مختلف الهجاء . . الا أن يكون غرض التاريخ أن نروغ من الوفاء له بحقه وأن نتمثل الذرائع للمغالطة في حسابه . . وهو غرض معقول ممن يبنون التاريخ كله على حساب الاجور وحساب الاثمان وفواضل الاثمان . .

ولكنه غير معقول من بني الانسان . .

الشيوعية والآداب والفنون

الأخلاق

مذهب الشيوعيين في الاخلاق ان المجتمع ينشيء الاخلاق لخدمة مصالح الطبقة التي تملك زمام الثروة فيه وتسيطر على وسائل الانتاج ، وان أبناء المجتمع لا يعيبون هذه الاخلاق ما دامت وسائل الانتاج ناجحة منتظمة ولو كانوا من ضحاياها . . فلا يعاب الرق حيث تقوم وسائل الانتاج على تسخير العبيد ، ولا يقول العبيد في ابانه : انه ظلم وخبث بل يقولون : انه من سوء الحظ أو من ضربات القدر التي لا محيص عنها . . وليس في أصل الطبيعة البشرية ما يوصف بالخير أو بالشر الا حين يرتبط بمصلحة الطبقة الغالبة أو بما يدابر مصلحتها ، فليس لطبقة الاجراء الصعاليك اذن أن تستحسن شيئا غير ما يوافق مقاصدها ولا أن تستهجن شيئا غير ما يعوق تلك المقاصد ، وما عدا ذلك من عرف شائع فانما هو من بقايا المجتمعات التي كانت تقوم على تسخير الطبقة الاجيرة واستغلال جهودها ، ثم لم يبطل التسخير كل البطلان ولم يقض على بقايا ذلك العرف وعقابيله ولم يخلفه عرف جديد .

وقد ألم « ماركس » بقواعد هذا المذهب ، وشرحه « انجلز » بعض الشرح في الكلام على أصل الاسرة بصفة خاصة ، وفي ردوده المتفرقة على المعارضين من أطراف متعددة . وكلاهما « ماركس ، وانجلز » يرى ان الدعوة المادية وصف لما هو واقع وما سيقع أو سوف يقع لا محالة ، وليست تبشيرا بالاخلاق الصالحة والمناقب المأثورة التي يثني عليها المثاليون من الدينيين والحكماء ، فما يحمدانه من الاخلاق هو الواقع الذي يجب على المجتمع الموعود أن يدين به لانه لا يقدر على ابتداع دين سواه .

ثم قام مجتمع الطبقة كما تخيل أتباع « كارل ماركس » بعد الحرب العالمية

الاولى . . فأعلن « لينين » هذا المذهب في مواقف كثيرة أصرحها موقفه ـ التعليمي ـ في مؤتمر الشباب الشيوعيين الذي انعقد في سنة ١٩٢٠ وخطب فيه فقال :

« انني سأعرض هنا قبل كل شيء لمسألة الاخلاق الشيوعية . . »

« فالواجب عليكم أن تدربوا انفسكم على الشيوعية ، ومهمة عصبة الشباب أن تنظم نشاطها العملي بحيث تصبح بالتعليم والتنظيم والتعاون والنضال هي ومن ينظر اليها نظرة القدرة والمثال ـ جماعة شيوعية . وكل عمل من أعمال التدريب والارشاد لتعليم شباب اليوم فالغاية الوحيدة منه ان يصبحوا شيوعيين . .

« ويسأل السائل : أهناك شيء يسمى آدابا شيوعية ؟ أهناك شيء يسمى دستورا أخلاقيا للشيوعية ؟ والجواب : نعم ولا ريب . وربما حاول بعضهم أن يصورنا كاننا قوم لا نعرف لنا دستورا معلوما للاخلاق والآداب ، وكثيرا ما يقول البرجوازيون : اننا معشر الشيوعيين اناس نخرج على جميع الاخلاق والآداب . . وهو أسلوب من أساليب الادراك المتبلبل ووسيلة من وسائل اثارة الغبار على أعين العمال والفلاحين . .

« فبأي معنى يقال : اننا نخرج على جميع الاخلاق والآداب ؟ . . بمعنى واحد ، وهو المعنى الذي يدين به البرجوازيون اذ يستمدون الاخلاق والآداب من أوامر الاله . .

« فنحن نخرج على جميع الأخلاق والاداب التي تنفصل من المجتمع البشري وطبقاته . ونحن نرى انها خداع وتزييف وتضليل لعقول العمال والفلاحين من قبل الملاك وأصحاب الاموال .

« نحن نرى ان دستورنا الاخلاقي تابع لمصالح الحرب الطبقية التي يخوضها الاجراء ، ومستمد من الصراع في سبيلها . .

« ولقد كان المجتمع القديم قائما على ظلم الملاك وأصحاب الاموال للعمال

والفلاحين ، فيجب علينا أن نتلفه وان نسقطهم ، ولا بد من الاتحاد لتحقيق هذه الاهداف . الا انه اتحاد لا يتم في غير المصانع والمعامل وعلى أيدي طبقة البرولتارية بعد تدريبها وايقاظها من سباتها الطويل . . ونحن نقول الآن عن تجربة واقعة : إن البرولتارية دون غيرها هي التي تخلق تلك الوحدة التي يقتدي بها الفلاحون المتفرقون المبعثرون على الرغم من عراقيل المستغلين . فلا طبقة غير هذه الطبقة يرجى ان تعمل على توحيد الصفوف بين الكادحين ، وان تحمي دائما وتدعم دائما وتشيد دائما مجتمع الشيوعية .

« ولهذا نقول : انه لا يوجد شيء يسمى الاخلاق بمعزل عن المجتمع البشري ، وان تلك الاخلاق تزييف وتزوير ، ولا اخلاق عندنا الا الاخلاق التي تستمد من صراع طبقة الصعاليك .

« . . واذا تحدث الناس الينا عن الاخلاق قلنا : ان الاخلاق عند الشيوعيين تجتمع كلها في هذه الوحدة الوثيقة المنظمة الواعية امام المشتغلين » .

***

ذلك مصدر الاخلاق الانسانية في مذهب الشيوعيين من يوم تأسيسه الى يوم قيام الدولة الشيوعية . . تفسيره بعلة من علل الظواهر النفسية المريضة قريب متناسق محيط منه بالسر والعلانية ، وتفسيره بغير ذلك من العلل الفكرية والعلمية يلتوي بنا خطوات كلما مضينا به خطوة في طريق . .

تفسيره بعلة الحقد والكراهية انه يقطع الصلة الانسانية بين الطبقة الموعودة وسائر الطبقات ، ويجعل بينها وبين المجتمعات القائمة فجوة أبدية لا ينفتح فيها باب من أبواب التفاهم او المصالحة أو البقيا .

وتفسيره بالعلل الفكرية أو العلمية لا يسمح لاصحاب المذهب قبل غيرهم بالاسترسال فيه الى نتيجة على مدى تلك النتيجة أو الى نتيجة أقرب منها ، لانه يستند الى علل تتنافر وتتضارب ولا تصطحب خطوة الا افترقت بعد ذلك خطوات . .

لا أخلاق في الانسان الا من وسائل الانتاج . .

ووسائل الانتاج في المجتمعات البدائية الاولى تخلق لنا انسانا بريئا براءة الطفل ، يكاد مقال « انجلز » عنه في أصل الاسرة أن يحسب من اغاني القصيد لا من بحوث الآراء والاسانيد ، و« انجلز » هو الذي تكفل هنا بشرح المذهب المتفق عليه بينه وبين أستاذه وصفيه « كارل ماركس » المصدق في المشهد والمغيب .

يقول « انجلز » في وصف تلك الحالة : « لقد كانت نظاما عجبا تلك الحالة التي درج عليها الرفقة في بساطة الطفولة : لا جنود ، لا حرس ، لا شرطة ، لا نبلاء ، لا ملوك ، لا أوصياء ، لا محافظين ، لا قضاة ، لا سجون ، لا محاكم ولا محاكمات ، ويجري كل شيء في مجراه على وتيرة ونظام ، فتشترك الجماعة كلها في تسوية المنازعات والخصومات برأي الشيوخ في القبيلة او برأي ابنائها فيما بينهم وبين انفسهم ، ولا يحدث الا في الندرة أن يقع النذير بالثأر او بالنقمة الدموية . . اذ ليست عقوبة الاعدام بيننا اليوم الا بقية متمدنة من بقايا النقمة الدموية بما لحقها من مزايا المدنية وآفاتها . ولقد كانت الشؤون التي تتطلب التسوية اكثر عددا من مثيلاتها في يومنا هذا ، ولكن تدبير الشؤون المنزلية كان مشتركا بين طائفة من الاسر على اتفاق وعلى قواعد المشاع . . والارض في حوزة القبيلة باسرها ، والبساتين على حسب الحاجة في أيدي الموكلين بالشؤون المنزلية ، ولا ضرورة لشيء من هذه الادارة المشتبكة وما يتخللها من الحواجز في المدنية الحاضرة ، ويتقرر الامر على أيدي اصحاب الامر بعد قرون يكرر فيها القرار بحكم العادة والقدوة ، وليس من الممكن في هذه الحالة أن يوجد الفقير أو المعوز . . اذ يعرف ابناء القبيلة واجبهم نحو الكبار في السن والمرضى والمصابين في الحروب ، وكلهم متساوون في الحرية ومنهم النساء » .

ثم يفرغ « انجلز » من هذا النشيد لينتقل الى وصف أحوال القبيلة بعد امتياز بعض الافراد باقتناء القطعان الكبيرة من الانعام والماشية ، فيقول :

« ذلك جانب واحد من جوانب المسألة ، ولا ينبغي ان يفوتنا ان هذا النظام مقضيٌ عليه . . لانه نظام لا يتخطى حدود القبيلة ، والاتحاد بين القبائل أول علامة من علامات الانحلال كما سنرى ، وكما سيظهر من محاولة قبائل

« أروكيز »[1] الامريكية أن تخضع غيرها ، فكل ما تخطى حدود القبيلة فهو خارج من الزمرة . وحيث لا ينعقد الصلح بين القبائل فهنالك الحرب القائمة بين كل قبيلة وقبيلة . . تجري بتلك القسوة التي اختص بها الانسان بين سائر الحيوان وعملت المصلحة الذاتية فيما بعد على تهذيبها » .

الى أن يقول : « فالقبيلة وانظمتها مقدسة خلقتها الطبيعة ، والفرد وعواطفه وأفكاره وأعماله تظل بغير قيد ولا شرط خاضعة لتلك الانظمة . وهم كما يبدون لنا لا تمييز بينهم بل يظلون كما قال « ماركس » مرتبطين بالحبل السري برباط الجماعة البدائية . ولا مناص من كسر قوة هذه الجماعة الطبيعية اللدنية وقد كسرت ، الا ان كسرها قد تم بمؤثرات كانت من البداءة تحمل علامة الانحطاط والسقوط من بساطة الاخلاق الفاخرة التي تخلقت بها الجماعات الغابرة ، ونشأت نظم الطبقات الجديدة من أسوأ الدوافع والمغريات » .

وهناك يجمع « انجلز » كل ما قدر عليه من قبائح الذم في قصيدة هجاء تقابل تلك القصيدة الغنائية التي ترنم فيها بمناقب الجماعات الهمجية الاولى ، فيقول ما ترجمته بحرفه :

« انه الجشع الوبشي والمتاع البيهمي والطمع الكالح واللصوصية الانانية » .

ثم يقول : « وما كان ينقص الا النظام الذي كان لا يكتفي بضمان الملكية الجديدة التي استأثر بها بعض الآحاد خلافا لسنة القبيلة ، ولا بتقديس أرفع مطالب الجماعة البشرية . . بل يزيد على ذلك أن يدفع الوسائل الجديدة التي جعلت تنمو لاحراز الملكية وتوفير الثروة برضى المجتمع كله . ولم يكن ثمة بد من نظام يكفل دوام الطبقات المستحدثة ، ويكفل مع ذلك للطبقة الراجحة حق استغلال الاخرين ، وكذلك وجد هذا النظام ، وكذلك وجدت الحكومية . . » .

ثم يكون الجشع الكالح ـ كما جاء في الكتاب نفسه ـ حافز الحضارة من مطلع فجرها الى اليوم . . « الثروة ثم الثروة ثم الثروة مرة ثالثة : ثروة الفرد الضئيل لا ثروة المجتمع الشامل هي غاية الغايات » .

---

(1) Iroquois

ولا يخفى أن أهم ما يهم في هذه النقلة أن نعرف كيف وجدت هذه الانانية من تلك الحالة البريئة ؟ . .

ان ظهور الملكية الخاصة هو الذي أحدث هذا التغيير . . غير أننا لا نعلم هل الملكية الخاصة جاءت في الانانية أو الانانية هي التي جاءت في الملكية الخاصة .

تلك مسألة هامة لا تضارعها في خطرها مسألة من مسائل هذا الدور المزعوم ، فاذا كان من السهل وجود الانانية مع وسائل الانتاج المشاعة فمن السهل أن توجد الانانية مرة أخرى في المشاعية الموعودة التي تهدر من اجلها ملايين الارواح بغير رحمة ولا هوادة ، واذا كان ذلك ممتنعا مستحيلا فمن الواجب أن نعلم على اليقين كيف يمتنع وكيف يستحيل ، قبل أن ننهض بذلك العبء الثقيل . .

لقد كان المجتمع الشعري الذي تغنى به « انجلز » محصورا في القبيلة الصغيرة لا تشترك فيه جميع القبائل المتجاورة أو المتباعدة من مثيلاتها ، وقد كانت كل قبيلة على هذا المثال من البراءة والايثار ، ثم تقاتلت القبائل ولم تكن البراءة في كل منها مانعة لهذا القتال ولا لما يعقبه من الفتك والنكال ومن الاخضاع والاذلال . . فهل يحسب هذا القتال من الانانية البغيضة أو يحسب من البراءة والطهارة وسلامة الصدر من الاثرة وحب الذات ؟

ثم نعود الى مشكلة الفرد وأثره في أخلاق المجتمع وأثر المجتمع في أخلاقه ، فلا نزال في تردد بين الآراء المتناقضة : بين « كارل ماركس » الذي يقول غير مرة أن المجتمع يخترع الفرد إن لم يجده ، و « كارل ماركس » الذي يعيد غير مرة ما كتبه الى صاحبه العظيم ان صاحبه « كجلمان » وعني بنشره في المجلد العشرين من صحيفة « نيوزيت » وفيه يقرر أن التعجيل والابطاء في الحركات الاجتماعية يرجعان كثيرا الى عوامل المصادفة ، وفي مقدمتها أخلاق القادة الآخذين بأزمة تلك الحركات .

***

والعقدة المؤرية التي أعضلت على الاخلاقيين الماديين هي الفصل بين أخلاق العهود واسناد كل طائفة من الاخلاق الى وسائل الانتاج في عهدها الذي يصلح

لها ولا يصلح لغيرها . .

فما هي الاخلاق التي أنشأها عهد الرق لاستبقاء الانتاج بتسخير العبيد ؟ . . هل هي المبالغة في احتقار العبودية والتنفير من الذل الذي يقبله العبيد ؟ . .

وما هي الاخلاق التي أنشأها عهد الاقطاع لاستبقاء الانتاج باستغلال عمل الزراع ؟ . . هل هي المبالغة في تمجيد النسب العريق وازدراء النسب الخامل ؟ . .

وما هي الاخلاق التي انشأها عهد رأس المال لاستبقاء الانتاج بابتزاز حقوق الاجراء ؟ . . هل هي المبالغة في تعظيم الترف والغنى والانفة من ذل الحاجة والفاقة ؟ . .

لو ان السادة في كل عهد من العهود يعملون للتعجيل بزوال عهدهم لما أنشأوا أخلاقا غير هذه الاخلاق . . ونحن نفهم تحقير ذل العبودية وذل الخمول وذل الحاجة حين توضع الاخلاق للانسان وما يليق بالانسان في العهود ، ولكننا لا نفهم أن نستبقي وسائل الانتاج بتحقيرها والتنفير منها .

وعقدة مثل هذه العقدة تعترض الاخلاقيين الماديين فلا يملونها ويكتفون بتسجيلها كأنما التسجيل وحده كاف للتنفيذ والتصحيح ، وتلك العقدة هي وجود الاخلاق بعد زوال الداعي اليها على زعمهم في كل عهد من العهود . . فان « كارل ماركس » يقول في رسالة الثامن عشر من برومير :

« ان الناس يستمدون الدوافع احيانا من الاسماء الغابرة والاوضاع العتيقة ولا يستمدونها من الحوادث التي انشأتها ، وان التقاليد الموروثة في الاجيال الغابرة ترين كالجبال على ادمغة الاحياء »، و« انجلز » يقول في الاشتراكية الطوبية والاشتراكية العلمية : « ان هذه التقاليد عقبة معطلة تصد مجرى التاريخ » ومن البديه أن الاعتراف بهذا الامر الواقع لا يؤ يد القول بصدور الاخلاق جميعا من وسائل الانتاج ، ولا يمحو العوامل الاخرى التي ترجع الى شيء في طبيعة الانسان غير البيئة الاقتصادية . . فما هو الحد الفاصل بين فعل الطبيعة الانسانية وفعل الوسائل الاقتصادية ؟ . . وما هو المحك الذي نعرف به ما كان من فعل التقاليد

وما كان فعل الحياة الحاضرة ؟ . . ولماذا تكون التقاليد جميعا ضارة ولا يكون فيها ما يفيد وهي صالحة ـ كما يقول « كارل ماركس » ـ لاستمداد الدوافع منها حين تعجز الحوادث الحاضرة عن امدادها ؟ . .

لم تحل الاخلاق المادية هذه العقدة . . وانطوى القرن ونشأ المجتمع الشيوعي من الثورة الروسية ، ولم يكن لدعاته رأي بين فيما ينبغي أن تكون عليه اخلاق « الصعاليك » او أخلاق المجتمع من طبقة واحدة . . وكاد بيانهم لهذه الاخلاق أن يكون « سلبيا » محصورا في مخالفة كل خلق من الاخلاق التي جاء تقديسها في المجتمع البرجوازي كما يزعمون . . وأوشكوا ان يتخذوا « الاسرة » محكا للاخلاق التي يحمدونها من المجتمع الجديد ، لانها في مذهبهم سولت للناس حب الملكية والوراثة ، وهما رأس الآفات والشرور . . فكل ما هدم الاسرة فهو حسن ، وكل ما صانها وحافظ عليها فهو سيىء ذميم . وتساوى الزواج والزنا من أجل ذلك في شريعتهم ، وسمحوا بالاجهاض لانه في صورة من صوره انتهاك لحقوق الزواج ، وأباحوا كل ما حرمه الناس قديما لانه تحريم صادر ـ في زعمهم ـ من مصالح المستغلين والمستبدين ، ووجب عندهم الخروج على أدب الاحترام ولو لم يكن ذا علاقة بمسائل الاقتصاد ، ووسائل الانتاج ، فكان من تشبيهاتهم للشمس المحمرة أنها تحكي « بركة من بول الخيل » . . وكان من آدابهم أن يجلس القضاة للحكم وهم يدخنون ويأكلون كأنما الشعور بالفارق بين مكان الحكم ونادي السمر رذيلة موقوفة على المجتمعات البرجوازية ، وكأنما الاحترام كيفما كان أدب لا يليق بالمجتمع المنشود أو كأنه أدب لا توجد له علامة في سلوك الانسان ويستوي من يحترم ومن لا يحترم في هذا السلوك ؟ . .

ودلالة الاخلاق من سلوك الاتباع الذين يقبلون على المذهب لا تقل عن دلالة هذه الآراء التي يروجها الدعاة المؤسسون لقواعده والمقررون لمبادئه من مباحثهم التي يسمونها بالمباحث العلمية ، فهؤلاء الاتباع لا يفهمون من الاخلاق المطلوبة الا انها الخروج على الاخلاق المحترمة في المجتمعات الانسانية . . وفي احدى القصص الواقعية التي اشتملت على الكثير من « الشخصيات » الشيوعية حديث صريح يحكي ما يجري على ألسنة هذه الشخصيات في المجتمعات المعدة للدعوة ،

لا نسمي القصة لاننا لا نحب ان نلفت الانظار اليها ولكننا ننقل كلام المؤلف في الصفحة ال« ٢٥٦ » بعد عتاب سمعه المجتمعون من شاب خانه احدهم واحتال عليه جزاء له على وفائه ومودته . .

قال المؤلف : « قد يكون الحق ما يقول ، ولكن صاحبكم لم يستعمل حيلته مع أبي أو أخي ولكنه استعملها معي انا . . أنا الذي كنت نصيره الوحيد . . انا الذي تركت أبي وهجرت أسرتي من أجله ، فهل أفهم من هذا أنه تجرد من كرامته بحيث . .

« ولم يتم خالد حديثه اذ قاطعته ضحكة ساخرة صدرت من فم نصيف .

« . . أسمعك تقول الكرامة . . هذا لفظ لا نعرفه هنا أيها السيد العزيز . . فالفتيان الذين يحيطون بك الآن أناس اختاروا لانفسهم لقب الرفقاء الانذال . . الكرامة ؟ . . ان لنا معجما خاصا يا سيد خالد . هذا المعجم هو معجم الفقراء . . وهو لذلك خلو من كثير من الكلمات التي تعرفها امثال الكرامة والشرف والامانة ونحو ذلك من الحلى الغالية التي يستطيع الاغنياء ابتياعها ولكن لا يقدر عليها الفقراء ! .

« وجاء دور خالد لكي يطلق ضحكة ساخرة فاطلقها وقال :

« . . شيء عجيب . . لقد كنت أظن أن الكرامة والشرف جواهر لا يتحلى بها سوى الفقراء . . ولكنك تحدثني بأن الفقراء لا يعلمون من أمر هذه الصفات شيئا . . فهل لك ان تخبرني أين أجدها اذن ؟ » .

وبعد حوار على هذا المنوال يتقدم أحدهم الى الاستاذ خالد ويسأله : « هل أنت جزري يا أستاذ خالد ؟ » .

فيرفع خالد بصره الى محدثه ويقول : « لست بفاهم » . .

فيقال له : « أنصت الي يا سيد خالد . . افترض انك قمت برحلة مع أسرتك ، وبينما أنتم في وسط المحيط اذ قامت عاصفة هوجاء أغرقت السفينة فلم ينج من ركابها سواك وأخت لك . فتعلقتما ببعض حطام الباخرة وظللتما على هذه

الحال الى ان القت بكما الريح الى جزيرة صغيرة ، ولما استقر بكما المقام في هذه الجزيرة رحت ترتاد مجاهلها مع أختك ، فظهر لكما أن ليس من البشر سواكما . . ومرت بكما الايام والليالي دون أن تجوز بكما سفينة حتى تأكد لديكما أنكما لن تغادرا هذه الجزيرة حياتكما . . والآن اخبرني يا أستاذ خالد : « أتسمح نفسك بأن تعاشر اختك معاشرة الازواج ام تراك تمتنع من ذلك ؟ » .

وليس في مقدور أحد من ألد أعداء الاخلاق الشيوعية ان يفندها بكلام ابلغ في تفنيدها من كلام اتباعها هؤلاء ، لان أبلغ ما يقال في تفنيد مذهب انه يجرد الانسان من مزيته على الحيوان ، ومزية الانسان بالشرف والكرامة ، وليست مزيته بحشو البطون الذي يتساوى فيه وأحقر الحيوان ! .

اننا نصل بعد لأي الى المجتمع الموعود الذي حطمنا من اجله المجتمعات ، ونطمع في نعيم شعري كذلك النعيم الذي ترنم به « انجلز » فلا نجد في المجتمع الموعود الا مفسدة للاخلاق والعقول اذا صدقنا « كارل ماركس » لانه مجتمع رخاء وسخاء يجد كل ذي حاجة فيه حاجته بين يديه ، وذلك أضر المجتمعات بطبائع الافراد كما يقرر « كارل ماركس » في كتابه رأس المال وكما يقرر هو و« انجلز » في كتاب « العقلية الالمانية » ولم يرد هذا المعنى عرضا في موضع واحد من كتاباته بل كرره حيث يقول : « ان الوفر في خيرات الطبيعة يترك الانسان كالطفل ولا يضطره الى تربية ملكاته واستيفاء نموها . .

ولكن الطبيعة التي تضن بخيراتها عليه تنبهه وتوقظه وتدعوه الى اعداد ملكاته للعمل الدائم والاجتهاد في استنهاض قواه » .

فالمجتمع المثالي الموعود شر المجتمعات على الانسان وأسوؤها أثرا في ملكاته واخلاقه ، وهو أسوأ ما يكون اذا صدقت فيه جميع الظنون ، وامتنع فيه القلق واستقرت فيه الطمأنينة ، وزالت فيه جميع التكاليف التي تشغل المرء بغير الساعة الحاضرة التي بين يديه . . فلا تفكير في الغد ايام الحياة ولا بعد ايام الحياة ، اذ لا تبعة على الآباء نحو البنين ولا نحو الأقربين . . ولا فرق بين الوليد الذي تقر به العينان والوليد الذي لا يعرفه ابواه .

وقد تخيل الشيوعيون كثيرا في شؤ ون لا سند لها من الواقع ، وخاضوا بالخيال في مجاهل التاريخ وما قبل التاريخ . . فنحن لا نعتسف الخيال اذا تمثل لنا المجتمع الذي يسخو للعامل والكسلان ويسقط عنهما معا تبعات الاسرة والابناء ، فرأيناه يعود مضطرا الى الاسرة التي قضى عليها قبل ان يقضي عليه الخلو منها ، ولا ينمو فيه الشعور بالتبعات والتكاليف ـ وهي اصل الاصول في الاخلاق ـ الا من حيث نمت وتفرعت واينعت في التاريخ القديم ، أو التاريخ الحديث .

***

ان فضل الاسرة في تكوين الاخلاق الاجتماعية أو الفردية ليس من الامور التي تجدي في انكارها او بخسها نظريات اصحاب الاراء ، ولو لم تكن التي يضرب بعضه بعضا كهذه النظريات .

ولا يقول أحد : ان الاسرة افادت النوع الانساني بالنفع الخالص الذي لا شائبة فيه من سوء أو ضرر . فلا الاسرة ولا غير الاسرة من اطوار الانسان تسلم من النقص الملازم لكل عمل انساني لا يخطر على البال انه يأتي كاملا مبرأ من العيوب في أدوار التجربة والتطور على الخصوص . . غير ان السيئات التي جاءت بها الاسرة خليقة ان تحصل بها وبغيرها ، لانها جاءت في غريزة الاثرة وتنازع البقاء . . وهي الغريزة التي كمنت في طبيعة الحيوان الاعجم قبل ان تكمن في طبيعة الانسان . . اما حسنات الاسرة فلم تكن لتأتي بغيرها سواء منها حسنات الاخلاق وحسنات المرافق والاعمال والصناعات . . وما من خلق كريم نبحث عن مصدره الاول الا استطعنا ان نرده الى الاسرة الصغيرة من الاب والام والبنين والاقربين ، وان نترسم علاقته بالاسرة من اشتقاق لفظه في اللغات المتباعدة كاللغات السامية واللغات الآرية .

فالرحمة اجمل الفضائل الانسانية مشتقة من مودة ذوي الارحام ، وتقابلها في اللغات الجرامانية كلمة « كايند »(1) بمعنى بلد أو بمعنى القرابة ، ومنها كلمة الطفل في تلك اللغات .

---

(1) Kind

والكرم ـ وهو فضيلة البر بالانسانية ـ مأخوذ من صفاء النسب وخلوصه من الهجنة والاختلاط ، وتقابله في اللغات الجرمانية كلمة « جنروستي »[1] وهي مأخوذة من الاصل النبيل ، وتشبهها كلمة « اللطف »[2] وكلمة « الجنتلمان »[3] وهو الرجل المهذب الرقيق في معاملة الناس وتصريف الامور .

والحرية تلاقي الكرم في هذا المعنى ، وتقابلها في اللغات الجرمانية كلمة « فريدم »[4] من الالفة ورفع التكليف وكلمة « فرانك »[5] بمعنى الطليق من القيود . .

ولا تتفق اللغات المتباعدة هذا الاتفاق الا لأنها تعبر عن حقيقة عامة وشعور عميق في بديهة الانسان . وليس مما يغض من هذه الفضائل ان يقال : انها من فضائل القلة أو النخبة أو الصفوة بين الآدميين ، فان المزايا لم تزل ندرة في كل خليقة جسدية او نفسية يحسها الناس بالاعين أو يحسونها بالضمائر والاذواق . . وجمال الوجوه ندرة يمتاز بها الوجه الواحد بين المئات والالوف ، ومثله قوة البدن واعتدال المزاج مما لا شأن فيه لمذاهب الاقتصاديين أو الماديين . . فما عرف الناس مزية قط في خلق أو خليقة الا كان الممتازون بها اقل من غير الممتازين ، ولا يغض من فضل الاسرة في تكوين صفات الرحمة والكرم والحرية انها صفات عزيزة لا تبذل بذل الشيوع والجزاف . . ولكن هذه العزة هي التي تعطيها القيمة النفيسة حتى بمعيار « الاقتصاد » .

ومتى ذكرنا القيم الاقتصادية فنحن نذكر فضل الاسرة في القيم التي تدور عليها مذاهب الاقتصاد وتواريخ الصناعات ، فلولا حفظ الاسرة للصناعات الموروثة لما بقيت الى اليوم صناعة واحدة ينتفع بها الغني او الفقير . . . ولولا تعليم الاسرة قبل ان يوجد في التاريخ نظام التعليم العام لماتت كل صناعة في مهدها ، ولم

---

(1) Generosity

(2) Gentleness

(3) Gentleman

(4) Freedam

(5) Franc

تنتقل الينا كما انتقلت بالوراثة من الآباء الى الابناء .

وانه لمن الحذلقة الرخيصة ان يقال : ان الطبيعة الانسانية لا توصف بالخير والشر الا بالنسبة الى العلاقات الاجتماعية او الى المعاملات في البيئة المشتركة . . فهكذا يقال عن جميع الخصائص والاحوال في الانسان وفي الحيوان وفي الجماد .

بماذا نقدر صلابة الحديد ؟ وبماذا نقدر متانة الخشب ؟ وبماذا نقدر مرونة الخيط او النسيج ؟ . . ان تقدير هذه الخصائص بالنسبة الى غيرها في حالة التركيب لا يزيل تلك الخصائص ولا يمنع استعداد كل مادة لتركيب من التراكيب التي تغني فيه ولا يغني فيه سواها .

وظهور طبيعة الانسان في المجتمع لا يمنع ان تكون تلك الطبائع متأصلة في تكوين كل فرد من افراد البشر متعاونة بين الافراد والجماعات ، ولا يجيز لنا ان نقول : ان الخير هو الشر وان الشر هو الخير ، وان الفرد يستعد لهذا كما يستعد لذاك .

ومهما نرجع الى المجتمع في تكوين الاخلاق فهناك قوة في الفرد تناط بها تلك الاخلاق ، وتتفاوت بها أدوات البناء في المجتمع كما تتفاوت بها ادوات البناء في كل تركيب .

تلك القوة هي ضابط الارادة امام الشهوات والرغبات ، ولا يلزم ان تكون تلك الشهوات والرغبات من قبيل العلاقات والمعاملات ليبدو فيها ضابط الارادة بقوته التي تناط بها الاخلاق .

فيجوز ان يكون العمل مباحا لا حرج فيه من جانب المعاملات الاجتماعية ، ولكنه اذا تهافت عليه الانسان بغير ضابط من الارادة دل ذلك على نقص في استعداد الاخلاق وفي استعداد الاجتماع وفي كل استعداد تتميز به قيم الافراد .

ان شهوة الطعام شهوة فردية لا تحاط بالقيود التي تحاط بها الشهوة الجنسية ، ولكن الانسان الذي لا يملك ارادته امام شهوة الطعام انسان معيب في مقاييس الاخلاق لانه معيب في الارادة التي تناط بها جميع الواجبات .

ومن ادعياء الحرية في عصرنا هذا من يرى ان حرية المرأة التي لا زوج لها هي اباحة مطلقة لا يقيدها واجب من الواجبات ، وان القيود الجنسية التي اصطلحت عليها الامم منذ القدم ان هي الا اعتساف من الاديان أو من الكهانات الطوطمية قبل الاديان ، ويعنون بالطوطمية تقديس بعض الاحياء واعتبارها سلفا للقبيلة بضمها في نسب واحد ويحرم على اتباعه المزاوجة كما تحرم الآن بين الاخوة والمحارم .

وتمادى بعض هؤلاء فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تتقيد بموسم للمزاوجة الا لوفرة الثمرات في ذلك الموسم وامتلاء الجسم فيه بفيض من الحيوية يدعوه الى طلب الذرية . . قالوا : واذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسيت قيود الموسم وطلبت المزاوجة انى تيسرت لها من ايام العام . وهذا كلام لا يعنينا ان نخوض في تفاصيله وأن نتوسع في تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرضا ان السر في موسم المزاوجة اعمق جدا من الطعام وأحوج الى الفهم جدا من هذا النظر القصير . . والا فلماذا تتوافر الثمرات في ذلك الموسم ، ولماذا يكون من خصائص ذلك الموسم ان يزيد قوة التوالد من النبات ، ولا يكون من خصائصه ان يزيد قوة التوالد من باب اولى في عالم الحيوان ؟ وما بال الحيوانات التي تأكل الاحياء وتجدها طوال السنة تجري على سنة الحيوانات التي تأكل النبات ؟ وما بال الاسماك في البحار تقصد الى الانهار القصية للمزاوجة خلال فترة واحدة وهي في موسم متشابه من الاطعمة طول العام ؟ .

ان سر التوالد لأبعد جدا من أن يحده ذلك النظر القصير ، لانه هو بعينه سر الحياة . . وأيا كان القول في الاختلاف بين الدواجن والاوابد في موسم المزاوجة ، فالامر الذي يتفقان فيه ان الحيوان لا يقارب الانثى وهي حامل ولا يطلب المزاوجة للعبث والمجون . .

« فالحيوان نفسه لا ينطلق من جميع القيود في علاقاته الجنسية ، ومن السخف أن ترد قيود الاخلاق الجنسية في الانسان الى اعتساف الطوطمية والكهانة . . لان الاخلاق كلها ـ جنسية او غير جنسية ـ قائمة على ضبط النفس ، أو على وجود الضوابط الادبية في بنية الانسان . والطعام مثلا مباح كما تقدم لا يتعلق به عرض

ولا شرف ولا تزييف نسب ولا اختلاس ذرية . . ولكن الانسان الذي لا يضبط شهوته امام اغراء الطعام حيثما أصابه انسان مهين ولو كان طعامه من كسب يديه ، وانما كان ضبط النفس لازما في الشؤ ون الجنسية لزومه في كل شهوة من الشهوات لانه قيمة اخلاقية يطلبها الرجل في المرأة ، وتطلبها المرأة في الرجل ، ويطلبانها معا في الذرية التي ترث منهما هذه الفضيلة . . واذا نفر الرجل من المرأة التي تنطلق مع أهوائها وتتهافت على شهواتها فهو لا ينفر منها لانها خالفت الدين أو خالفت الطوطمية كما يزعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لانها مخلوق معيب في تكوينه سليب من الضوابط السليمة التي تناط بها جميع الاخلاق ، والدين لم يعتسف هذه الضوابط اعتسافا لغير علة ولغير مزية ، ولكنه شرعها وهي في أصول الفطرة القويمة لانها مزية في اخلاق الفرد ومزية في أخلاق النوع . . وما كرامة نوع يعرف الاباحة ولا يعرف ضوابط الشهوات ؟!(١).

ولترجع الاخلاق اذن الى مصلحة الطبقة أو الى مصلحة الطبقات جميعا ، فهي لا تصيب الاحترام عند الفرد الا لانه فرد صالح التكوين مالك لزمام مشيئته بين مضطرب الاهواء والشهوات . ومن السخف أن يقال اذن : ان الشهوات الجنسية مباحة لمن لا يعترف بنظام الاسرة أو لا يدين بقداسة الزواج ، فان شهوات الطعام التي تعني الفرد وحده لاتباح كما تقدم اذا نمت على خلل في الارادة ، وضعفت عن ضبط النزوات والمغريات . . وهكذا ينبغي ان يكون الحكم على الاباحة التي يطلقها الشيوعيون لهذه الشهوات .

***

يقول « انجلز » وهو يشرح مذهب « ماركس » ومذهبه في قواعد الاخلاق من مقاله في الرد على « دوهرنج »:

« ان واضعي القيم الاخلاقية المطلقة مجانين أو دجالون ، وانه في عصره لا يعرف مقياسا واحدا للقيم الاخلاقية لانه يرى حوله ثلاثة مقاييس : مقياس المسيحية من بقايا عصر الفرسان وعصر العقيدة الاولى وقد تفرع الى شعبتين : شعبة الكثلكة وشعبة البروتستانت ، ومقياس البرجوازية ومقياس الطبقة الاجيرة

(١) من كتاب « الصديقة بنت الصديق » للمؤلف

أو البرولتارية أو الصعاليك ، وان هذه المقاييس اذا اتفقت على بعض المحامد والعيوب فذلك من الطبيعي الذي لا غرابة فيه لانها تطورت في عصور التاريخ ومرت بأدوار متشابهة في العهود الاقتصادية » .

ومثل هذا الكلام الذي يقوله الماديون عن الاخلاق يجوز ان يقال عن ذوق الجمال وذوق الطعام وسائر الاذواق . . فليس بين الناس مقياس متفق عليه لذوق الجمال ولا مقياس متفق عليه لذوق الطعام ، ولكننا لا نلغي من اجل ذلك وجود الكائن الانساني ولا نبطل وجود انسان له شعور يتذوق الجمال أو يتذوق الطعام الا ان يكون عضوا في طبقة . ومن الجائز كثيرا ان يوجد اناس يسيغون مالا يساغ ، او يشمئزون مما يسيغه غيرهم ، ولا يمنع هذا أن نقول : انهم مصيبون أو مخطئون بالقياس الى الذوق العام كما نشعر به أو نتخيله . . ومن قال بالتقدم ـ كما يقول الماديون ـ وجب ان يقول بمقياس عام للاخلاق نحتكم اليه عند المفاضلة بين أخلاق الطبقات وأخلاق العهود . . والا فلا تقدم ولا تفاضل ولا وسيلة للخروج من حدود هذا العهد الزماني أو تلك الطبقة الاجتماعية . ولا محل لانتقاد البرجوازي ، ووصفه ـ كما وصفه ماركس وانجلز ـ بالشر وفقدان الحياة ان لم يكن للخير مقياس غير الخير الذي يرضاه البرجوازيون لخدمة مصالحهم واستبقاء وسائل الانتاج في ايديهم .

وينكشف الدخل كله في طوايا هؤلاء الماديين حين نذكر ان مذهبهم لا يستلزم هذه النتيجة التي يذهبون اليها . فانما اللازم من مذهبهم في الاخلاق أن الفرد لا يؤثر في الحوادث العامة بأخلاقه الحسنة أو السيئة الا اذا وافقته الظروف الاجتماعية . والمسافة بعيدة بين القول بهذا وبين القول بأن أخلاق الكائن الانساني لا توجد عند الجميع ولا يدين بها الفرد في كل طبقة . . فالقول بأن اخلاق الفرد لا تغير المجتمع معناه أن هذه الاخلاق توجد ولكنها لا تقوى على تغيير الاحوال الاجتماعية . . وهذا هو الرأي الذي يطرد مع آرائهم جميعا ويوافق قولهم ببقاء التقاليد الموروثة من العهود الماضية ، ويوافق قولهم الصريح بالتقدم على أي نحو من الانحاء ولأية علة من العلل ، سواء كانت من علل الاقتصاد أو علل الحياة . . ولا مفر من التسليم في الاخلاق بالعامل النوعي الذي يعترف

بوجود الكائن الانساني في كل طبقة ، ولا مفر كذلك من التسليم في الاخلاق بالعامل الفردي الذي يتمايز فيه الافراد بضابط الارادة والقدرة على مقاومة الشهوات او فقدان هذه القدرة لاختلال في التكوين يحسب من خصائص البنية او خصائص التركيب .

ولا مفر على الحالين من التسليم بالمقياس الذي نثوب اليه عند المقارنة بين مجتمعات شتى في ازمنة متباعدة او متقاربة ، فان مذهب الماديين في جميع آرائه وقضاياه لا يدحض هذه الحقيقة ولا يوجب ادحاضها . .

فلماذا اذن هذا التشبث بمحو الشعور الانساني وحصر الشعور كله في الطبقة ؟ . . ولماذا هذا التشبث بطبقة واحدة هي طبقة الصعاليك او الطبقة التي يؤ ول اليها التاريخ مجردا من الطبقات ؟ . .

من جانب الفكر لا موجب لذلك التشبث ، ولا حجة له من آراء الماديين والشيوعيين بله المعارضين والمناقضين . .

وأما من جهة الظاهرة النفسية المريضة ، فليس في الدنيا منفس ابرة يصرف عنه الضمائر المبتلاة بداء النقمة والبغضاء . . لا منفس لهذه الضمائر غير الغاء النوع والايمان بالطبقة الاخيرة . .

وأية طبقة ؟ . .

الطبقة التي لا تحسد ولا يحقد عليها ، وما من كاشف للدخل في اطواء تلك الضمائر كهذه الظاهرة الكاشفة عما يفعله الحقد والحسد بالماديين ـ خدام الانسانية !ـ فلو استطاع عازل الحقد والحسد هنا ان يعزل عقولهم وضمائرهم لكان موقفهم من الطبقة الاخيرة كموقفهم من غيرها . . ولكنها تستثنى من الحفيظة الكامنة في تلك الضمائر المريضة لأنهم لا يحسدونها ولا يحقدون عليها . .

وهذا هو التفسير الاخير لكل رأي وكل تقدير ، بعد كل تفسير وقبل كل تفسير .

الآداب والفنون
والمعارف والعلوم

عند الماديين التاريخيين أن « الحاجة » هي مصدر الآداب والفنون والمعارف والعلوم ، ولا استثناء في هذه القاعدة للرياضيات ولا للفلسفة والعلوم النظرية . . فالانسان لا يفكر في شيء ، ولا يحلم بشيء ، ما لم يكن مبعثه الحاجة الى مطالب المعيشة ، ولا تتطور الآداب والمعارف جميعاً الا وفاقاً لحالة المجتمع في هذه المطالب المعيشية ، وتحكمها كلها في النهاية وسائل الانتاج .

وليس في المجتمع الانساني معرفة لم تصدر من حاجة معيشته ، غير أن المجتمع ينظم هذه المعرفة في تركيبين متصاحبين : أساسي[1] ويشمل الحاجات التي تأتي من علاقة الانسان مباشرة بالطبيعة ، والتركيب الآخر يسمونه « بالتركيب الاعلى »[2] ويشمل الحاجات التي تتولد من علاقة الانسان بالانسان في المجتمع ، وهذه تحتوى فيها مطالبه الادبية والفنية ومطالب الثقافة الانسانية على الاجمال .

ولقد كان في مقدور هؤلاء الماديين أن يرجعوا بالآداب والفنون والمعارف الى حاجة الانسان ويحسبون له حاجة عقلية الى جانب حاجته الجسدية ، ولكنهم لو فعلوا ذلك لابتعدت منهم الغاية التي يريدون تقريبها ، وهي استغلال الحرمان المطبق ـ الموعود ـ للتحريض على النقمة والخراب .

Fundamental (1)

Superstrcture (2)

فليس للانسان اذن حاجة عقلية أو وجدانية الى جانب حاجته الجسدية . كلا . . بل حاجاته كلها مجتمعة في مطالبه الحيوانية ، وما عدا هذه الحاجات فهو فروع متشعبة منها ، وليست أهلا لأن تستقل بالطلب لذاتها في مطلع الحياة الاجتماعية أو في المراحل التي تتقدم منها بعد تلك المرحلة .

لماذا يرجع الماديون التاريخيون بالآداب والفنون والمعارف والعلوم الى ذلك المصدر : مصدر الحاجة الحيوانية ؟ . .

أما الاسباب الفكرية فسنرى انها لا تلجئهم الى ذلك المرجع ولا تواتيهم خطوة حتى تدبر بهم خطوتين ، كدأبهم في كل علة يتعللون بها لرأي من الآراء .

وأما الاسباب التي ترجع الى الظواهر النفسية المريضة في طباعهم فهي على طرف الاصبع ممن يريد أن يلمسها ، وهي أن غاية مذهبهم ثورة يدعون اليها المحرومين من حاجات المعيشة ، فلا يجوز أن تكون هناك حاجات مثلها أو حاجات تقترن بها ، بل لا يجوز أن يتأخر اليوم الموعود لاستحكام ذلك الحرمان ، فان من يخفف الحرمان أو يكذب « اليوم الموعود » به يحل بينهم وبين الامنية المشتهاة ! . .

وان حيرة الماديين التاريخيين في البحث عن تلك الغاية لتتجسم بين عيني الناظر ، كلما نظر اليهم وهم يعصرون رؤوسهم ليسلكوا بها من جحر الى جحر ومن سرداب الى سرداب وراء تلك الغاية التي لا يطيقون ان تبتعد ولا ان تتجه الآراء صوب غاية سواها . .

وينبغي للباحث المجرد من الهوى أن يسأل نفسه كل سؤال جدي في هذا البحث ، ثم يهتدي الى الجواب الصواب فيه قبل ان يحسبه في زمرة الحقائق المفروغ منها . .

إلا أن الماديين التاريخيين يهربون من الاسئلة الجدية في هذا البحث ، أو يسألونها ثم يروغون منها ويقنعون في الاجابة عنها بتلفيقات صبيانية لا تحتمل النظر اليها كرة او كرتين في مقام التثبت والتحقيق . .

فهل يترقى ذوق الجمال الفني - مثلا - بمقدار انغماس المرء في الحاجات الضرورية ؟ . . وهل تترقى الآداب والفنون عند اشتداد القحط والفاقة او تترقى عند زوال الحاجة وتوفر البذخ والرخاء ؟ .

واذا قيل مثلا : ان الطائر يغني حين يشبع ، فلماذا يغني اذا كانت حاجته هي الشبع ولم تكن له حاجة اخرى هي التعبير عن رضاه بأسلوب مركب في طبيعة البنية كتركيب المعدة والجناح .

واذا قيل : ان الشعر يروج بين القبائل البادية لانه يحركهم للحماسة والفخر والذكرى ، فليس السؤال هنا انه نافع أو غير نافع ولكنه سؤال آخر وهو : لماذا يحركهم ولماذا يستحق عندهم أقل عناء اذا لم يكن حاجة من حاجات نفوسهم الى جانب حاجات النضال والغلب في القتال .

وكيف نفسر نبوغ الشعراء والمثالين في اليونان القديمة بنظام الانتاج الاقتصادي وهو نظام تسخير الرقيق ؟ وكيف يتأتى لهم النبوغ ولا يتأتى مثله لكل أمة لها نظام اقتصادي أو نظام انتاج ؟

من الصبيانيات المضحكة حقا جواب « ماركس » عن هذا السؤال - حيث عرض له في ذيل الكلام عن نقد « الاقتصاد السياسي » فخيل اليه أنه يجيبه ويفرغ منه اذ يقول : « ان الصعوبة ليست في فهم علاقة الفن اليوناني وعصره ببعض أطوار الاجتماع ، ولكن الصعوبة حيث نسأل : كيف بقي حتى اليوم يمتعنا باللذة الجمالية ويكاد أن يمثل لنا نموذجا لا ينال ؟ » .

والجواب الوافي عن هذا السؤال - في تقدير « ماركس » أن الانسان لا يستطيع أن يكون طفلا ولكنه يسر بأحوال الطفولة البريئة من التكلف ، ويجتهد في ابراز حقيقتها على نحو أرفع وأعلى . . وكذلك تمثل لنا طفولة النوع البشري سحرا مضى ولا يعود ، وقد كان اليونان اطفالا طبيعيين عرضوا لنا أجمل طور من أطوار الطفولة الاجتماعية ، ومن ثم هذا السحر الذي يسحرنا به فنهم . .

جواب صبياني مضحك من وراء تلك اللحية العبرانية السابغة التي يضفيها عليه « ماركس » ويظن أنه قال في هذا الموضوع قولا يستحق شيئا غير السخرية

والابتسام . . فلماذا تسحرنا الطفولة أولا ؟ وبماذا نفسر هذا الشعور الفني من التفسيرات الاقتصادية ؟ . . ولماذا لم توجد طفولة أخرى كهذه الطفولة ؟ . . او قبل هذه الطفولة ، بين الجماعات البشرية الاولى ؟ . . ولماذا يتفاوت الناس في تذوق هذا الفن وهم سواء في الشغف بالطفولة وسحرها ؟ . . . وهل كل ما في ابداع اليونان أنه لثغة صبيانية تأتي من الاطفال عفوا ولا يحسنها الكبار ؟ . .

ان سر الفنون الجميلة مسألة اعمق وأسمى من أن تلفها ترقيعة من ترقيعات الماديين التاريخيين الذين تعودوا أن يلفوا بها مسائل الاقتصاد ، ولا يعسر عليهم تدارك الرقعة فيها برقعة اخرى قد تخفى على أناس قليلين أو كثيرين في بدء العهد بالدراسات الاقتصادية . لان هذه الدراسات الاقتصادية لم يمض عليها اكثر من قرن واحد قبل أيام « كارل ماركس » امام المادية التاريخية ، ولكن الامم قد أخرجت آيات الفنون وروائعها منذ عشرات القرون ، وامتزجت هذه الآيات بعواطفها العامة وبعواطف كل انسان على حدة فندر بين الناس من لا يستجيب لآية من آيات الفنون الكثيرة في لحظة من لحظات الرضا والامن او لحظات الحزن والخوف ، واستعصى على التعريفات المرقعة أن تفسر لكل انسان متذوق للجمال حقيقة هواه للفنون ، وأن نظفر منه بالارتياح الذي يظفر به الرأي المطابق لبواعث الشعور .

واستعصى هذا على « كارل ماركس » فاضطر الى استثناء بعض الاحوال ، واخراجها ـ ولو قليلا ـ من نطاق الانتاج وضرورات الاقتصاد . . فاضطر في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » الى الاعتراف « بأن فترات من العهود التي يرتقي فيها التطور الفني الى ذروته العليا لا تكون على اتصال مباشر بالتطور الاجتماعي في عمومه ولا على اتصال بالاسس المادية في المجتمع او بهيكل نظامه . . » .

واضطر « انجلز » كما تقدم الى الاعتراف في رسائله بالغلو في تعظيم شأن العوامل المادية واهمال شأن العوامل الادبية أثناء الاشتغال بالدفاع عن قواعد المذهب امام خصومه ومعارضيه . .

وكتب « انجلز » في رسالة من رسائله الى السيدة « مينا كوتسكي » بتاريخ نوفمبر سنة ١٨٨٥ - يأخذ عليها أنها أذابت « شخصيات » قصتها في الدعاية للغرض الذي سخرتهم له خدمة لمبادئها الشيوعية .

ولما بدأ تطبيق المذهب في روسيا بعد الحرب العالمية الاولى كان « لينين » يعارض جماعة الادب الصعلوكي[1] ؟ ويفضل « بوشكين » وليد المجتمع القيصري على « مياكوفسكي » داعية الادب الشيوعي ، وتقول زوجته «كروبسكايا » في مذكراتها عنه · انه سأل طائفة من الشبان في سنة المجاعة ماذا يقرأون ؟ هل يقرأون « بوشكين » فلما قالوا له انهم يفضلون عليه « مياكوفسكي » لانهم لا يحبون الشعراء البرجوازيين ، تبسم وقال : أظن ان « بوشكين » أفضل . . ثم تقول زوجته انه التفت بعد ذلك الى منظومات « مياكوفسكي » لما رآه من أثره في تلك النفوس الفتية .

واصرح من رأي « لينين » رأي « تروتسكي » اذ يقول في رسالته عن الادب والثورة : « ان ترديد هذه المصطلحات - مصطلحات أدب الصعاليك وثقافة الصعاليك - خطر لانه يحصر أدب المستقبل في المجاز الضيق من أدب الزمن الحاضر . . ».

ولما استبد « ستالين » بالامر خيل اليه انه قادر على محو كل أدب لا يتشيع لمقاصده ، ولا يتغنى بمجده ومجد مشروعاته ، وأراد ان يزيل بقايا الادب التي لا تواتيه على خطته . . فأصبحت مشروعات السنوات الخمس للادب تساير مشروعات السنوات الخمس للصناعة والزراعة ، وذهب عهده من ولايته للحكم الى وفاته بغير أثر يذكر في الآداب العالمية ولا الآداب القومية التي تدفقت من روسيا في أواخر ايام الحكم القيصري لانها كانت في الواقع أوائل ايام النهضة أو ايام الحرية الفكرية التي لا تقبل التوجيه ولا تستوحي برامج المسيطرين على الافكار والنيات . . وقد كان من أثر الجو الخانق الذي أطبق على قرائح الشعراء

---

(1) Prolet Cult

والادباء أن ثلاثة من أشهرهم بخعوا انفسهم وهم دون الخامسة والثلاثين ، وهم « مياكوفسكي » و« ايسنين » و« تاجريتسكي » الذين كانوا ينزعون ثلاثة منازع متفرقات بين الاشادة بالصناعة ، والاشادة بالريف ، والاشادة بمجتمع الحضارة ، فاحسوا بالاختناق الميئس في هذه المنازع المتفرقات .

وما هو الا ان زال عهد « ستالين » وأدرك الشعراء والقصاص انهم في حل من التمرد على البرامج القاسرة في النظم والكتابة حتى تنفسوا الصعداء ، وارتفعت منهم الصيحة بانتقاد أدب الآلات والمشروعات واجترأت الشاعرة « برجولتز »[1] فتهكمت على الاناشيد التي كانت تنظم للصغار منذ طفولتهم وفاقا لتلك البرامج الآلية فقالت : ان هذه الاناشيد تنظم في الامم الاخرى لتنويم الاطفال ، ولكنهم في روسيا ينظمونها لازعاجهم واطارة الرقاد من عيونهم . . وكان على رأيها في ثورتها شاعران معروفان هما « باستوفسكي »[2] وفاردوسكي[3] ثم لحق بالادباء المتمردين عميدهم الذي اشتهر بفن القصة في اللغات الاوربية « ايليا اهرنبرج » فنشرت لهم الصحف الادبية ما كتبوه ، ومنها صحيفة الراية « زناميا » وصحيفة « المجلة الادبية » وكلتاهما كانت لسان حال لمشروعات السنوات الخمس في الادب والفن الجميل .

وان هذا النوع الذي عرفه الادباء الشيوعيون بالتجربة لخليق ان يعرفوه بداهة ، أو يستغنوا فيه بتجارب الامم الانسانية على تنوع لغاتها وآدابها وفنونها .. فانه لمن البديه ان يكون الادب حيويا انسانيا قبل ان يجوز في العقل ان تستخدمه طبقة لتسخير الطبقات الاخرى في تعزيز مكانتها أو خدمة مصالحها ، حتى الادب الذي هو أخص الآداب بالافراد وابعدها عن مشكلات الاقتصاد والاجتماع كشعر المديح والفخر والرثاء . . والا فماذا تساوى قصيدة المديح أو الفخر أو الرثاء التي لا تعني احدا غير من قيلت له أو قيلت فيه ؟ وماذا يساوي الشعر كله في جميع العهود والدول ان لم يكن له رواة وحفاظ من الرعية

Berggoltz (1)
Pastosky (2)
Tvarowsky (3)

والرعاة ؟ . .

والشعر العربي ـ على التخصيص ـ يأتي بالحجة القاطعة في تفنيد اثر الطبقة في الآداب والفنون والرجوع بأقوى المؤثرات وافعلها الى العقيدة والبواعث الوجدانية ، لأن هذا الشعر لم تتغير أبوابه ولا مقاييس الحمد والذم فيه مع تغير وسائل الانتاج من ايام الجاهلية الى ايام الدول الاسلامية ، ومن قيام هذه الدول في المشرق الى قيامها في المغرب بين الاوربيين وشعوب افريقيا الشمالية .

فالعصر الذي نشأ فيه الشعر العربي كان على حسب تقسيم الماركسيين عصر السادة والارقاء . . كان في البادية على أيام الجاهلية قليل من الارقاء يعملون في الصناعات وسائر الاعمال اليدوية ، ثم تجمعوا في الموانىء على شواطىء العراق بعد قيام الدولة العباسية ، ثم اجتمع من الموالي والمماليك ألوف مجندون في الجيش ما برحوا يتكاثرون ويستأثرون بمناصب القيادة والرئاسة حتى آل اليهم الملك وضعف سلطان الخلافة والوزارة بالقياس الى سلطانهم ، وهذه اطوار في نظام السادة والارقاء لم يحدث لها نظير في الامم الغربية ، فهي أصدق المراجع لتصحيح الاراء في امر الادب وعلاقته بنظام الانتاج ، وهي أقوى تفنيد لرأي الماديين التاريخيين في ارتباط الادب والفن بالطبقة والتهوين فيهما من أثر البواعث الحيوية والانسانية ، بل الطبيعية التي تحيط بجميع الاحياء .

فالشعر ـ وهو الفن العربي الاول ـ قد بقيت له أبواب الفخر والغزل والمديح والرثاء والهجاء من أيام الجاهلية الى أيام الدول الاسلامية في المشرق والمغرب ، وقد بقيت مقاييس الحمد والذم فيه مرعية بين أيام الارقاء الاولى وايامهم الاخيرة وفي ايديهم الصولة والصولجان ، ولما اختلفت موضوعات الغزل كان اختلافها في دول الاندلس حيث لا يوجد الرؤساء المتحكمون من المماليك والموالي كاختلافها في دول العراق وفارس ومصر حيث وجد الرؤساء من مماليكها ومواليها . . ولما اضطربت أمور الدول الاسلامية ، واختلت دعائم الامن فيها وسرى الضعف الى اللغة الفصحى من أثر الاضطراب والاختلاط كان النشاط الاكبر لتحرير اللغة وجمع مفرداتها وتصنيف موسوعاتها في دولة المماليك وعلى أيدي اناس من الاعاجم ، ولم ينهض هؤلاء وهؤلاء لتحرير اللغة العربية الفصحى لانها لغة

امهاتهم وآبائهم . . ولكنهم نهضوا هذه النهضة لانها لغة العقيدة التي يدينون بها ولغة الثقافة العامة التي يلتقي فيها أبناء الامة العربية وأبناء الامم الاعجمية .

ولقد سأل السائلون : ماذا كان اثر النظام القائم على الارقاء في أدب اليونان وفي شعر يوربيدس وارستفان واسكايلوس وسفوكليس وغيرهم من الشعراء والحكماء ؟

وسألوا هذا السؤال وعجز المسؤولون عن جوابه ، واحرى من ذلك بالسؤال نظام السادة والارقاء وأثره في موضوعات الشعر العربي ومقاييس الحمد والمذمة فيه ، فان العجز في جواب هذا السؤال على وفاق المذهب المادي لاظهر من العجز في جواب السؤال عن أدب اليونان الاقدمين لاننا هنا امام اثر الفكرة في ناحية ، وجميع الآثار المزعومة في الناحية الاخرى بين شتى الاقوام والبيئات واللغات والازمنة ووسائل الانتاج .

ولدينا في مصر شاهد يضارع هذا الشاهد في قوته وتفنيده للسخافة المادية ، وذاك هو الشاهد الذي نستمده من ادب مصر « الشعبي » خلال عصر المماليك من أواخر الدولة الفاطمية الى اوائل القرن العشرين .

فاذا زالت من آداب الامم جميع الشواهد التي ترجع بالادب والفن الى البواعث الحيوية الانسانية ، كان هذا الادب الشعبي في مصر قائما وحده بالبرهان المكين على هذه الحقيقة التي لم تبطلها قط تجربة من التجارب الانسانية . .

« على أي موضوع كان الادب الشعبي يدور بمصر منذ القرن السادس للهجرة ؟ . .

« انه كان يدور على ملاحم أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة والزير سالم وسيف ابن ذي يزن وغيرهم من أبطال هذا الطراز » . .

« وقد اختلفت الهيئة الحاكمة خلال هذه القرون من الدولة الفاطمية الى الأيوبية الى دولة المماليك الى الدولة العلوية . .

« واختلفت الأحوال الاقتصادية من رواج النقل في تجارة الشرق والغرب الى

انقطاع الصلة بينهما ، الى نشأة الزراعة القطنية ، الى تجدد المعاملات التجارية بين القارات الشرقية والغربية .

« وفي جميع هذه القرون كانت قصة أبي زيد هي هي ، وقصة الزير سالم على نسختها الاولى ، وقصة الذوين والتبابعة مسموعة في القرن الثالث عشر كما كانت تسمع قبل ذلك بثلاثة قرون او اربعة . وهذا هو رأي الشعب في الادب الشعبي ، لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة . . لان هذه الطبقة الحاكمة كانت تجهل اللغة التي نظمت بها قصائد السيرة الهلالية وما شابهها ، ولان قبائل بني هلال وبني تغلب وبني من شئت من الاباء لم يكن لها سلطان على الدولة الحاكمة ، ولا كانت الدولة الحاكمة معتزة بهم او جارية في نظام المجتمع على مثالهم .

« ان هذه الملاحم حقيقة واقعة ، وان غرام الشعب بها حقيقة واقعة ، وان ثباته على الافتتان بها مع اختلاف الدول والاحوال الاقتصادية والطبقات الحاكمة حقيقة واقعة .

« فأين يذهب تعريفنا للأدب بأنه مسألة اجتماعية بين هذه الحقائق الواقعة ؟ وأي فرق بين الأخذ بذلك التعريف واهماله غاية الاهمال ؟

« أليس المقصود بالادب الشعبي أن يكتب بلغة الشعب ؟ أليس المقصود به أن يلقى القبول والاقبال عند طبقة الشعب ؟ أليس المقصود به أن يصدر من صميم الشعب ولا يصدر من الحكام والمستغلين ؟ أليس المقصود به ان يأتي طواعية من الناظم الى المستعمين بغير تسلط ولا اكراه ؟

« بلى ! . . وكل أولئك كان موفورا للملاحم الهلالية وما جرى مجراها . . فلماذا كانت هذه الملاحم دائرة على البطولة والغزل ولم تكن دائرة على الرغيف والفول المدمس ؟ ومن الذي أكره الشعب على طلب هذه المعاني والاعراض عما عداها ؟ . .

« جواب واحد لا سبيل الى الحيد عنه بكلمة من الفاظ الرطانة التي يلغط بها

أصحاب الامر والنهي في تعريف الاداب . . وذلك الجواب هو شعور الانسان[1] » .

نعم . . هو شعور الانسان مرجع كل أدب في كل بيئة ، في كل نظام اقتصادي ، في كل لغة ، في كل جيل . .

ولهذا كانت موضوعات الحماسة والحب عامة متقاربة في جميع الآداب والفنون . . فلا أدب حيث لا نخوة ولا عاطفة ، ولا أدب حيث لا اشتراك بين جميع الطبقات من الرعايا والرعاة .

واذا التفتنا من المديح الذي يمكن ان يقال انه خاص بالسادة الاعلياء ونسينا ان الاعجاب بشعر المديح مقصور على الممدوحين ، ثم نظرنا الى مقاييس المديح أو الحمد في تلك الاشعار . . فكيف يتسنى لاحد أن يزعم انها هي المقاييس التي تخدم الممدوحين ولا تخدم غيرهم من الرواة والحفاظ والنقاد ؟

ان الممدوحين يمدحون بالكرم والشجاعة ، وليس الكرم فائدة مقصورة على الممدوح ، وليست الشجاعة كذلك فائدة مقصورة عليه ، وبخاصة في العصور التي يتكفل فيها الفرسان بالدفاع عن الاوطان ، لانهم يمتازون بفنون الحرب والدربة على استخدام انواع السلاح .

***

ومما سمعناه في هذا الصدد ان الشعر العربي تغلب عليه الصبغة الغنائية[2] وأن الشعر الغنائي لا يدل على اطوار المجتمع دلالة الشعر التمثيلي او شعر الملاحم . ولسنا نعلم ان هذا القول من الاقوال المسلمة في عرف النقاد الماديين أو مدارس النقد الاخرى ، اذ من المعلوم ان الشعر الغنائي يتناول المديح وهو كبير الدلالة على شؤون الرئاسة في الامة ، ويتناول الغزل وهو كبير الدلالة على شؤون المرأة فيها ، ويتناول الرثاء والهجاء ، وهما معياران صادقان للمحاسن والمساوىء وآداب الناس في حالتي الحزن والغضب . اما شعر الملاحم فقد رأينا شواهده في

---

(١) من كتاب « افيون الشعب » للمؤلف

Lyric (2)

الملاحم الشعبية التي شاعت بين المصريين ، وكان في شيوعها هذا تفنيد لما يراه الماديون من وظيفة الادب وعلاقته بالطبقة الحاكمة أو بالطبقة التي تسيطر على وسائل الانتاج .

الا اننا نعمد الى الشعر التمثيلي في ديوان شاعر من اكبر شعرائه في لغات الحضارة وهو « وليام شكسبير » . . . وننظر الى شخصيات ملوكه وأمرائه وملكاته واميراته ، فلا نجد فيها مسوغا للقول بخدمة الادب لنظام الدولة القائمة . . وقد نجد فيها مسوغا للقول بالسخط على اولئك الملوك والملكات لانهم مصورون في روايات الشاعر على صورة منفرة توجب الحذر والريبة ، ان لم توجب التمرد والثورة . .

ويأتي بعد « شكسبير » شاعر آخر يقاربه في النبوغ ويحسب بين خمسة أو ستة من شعراء الملاحم وهو « جون ملتون » صاحب الفردوس المفقود . . فلا ثورة فيه على قواعد النظام الاجتماعي ، ولا يجوز لنا ان نتخذ من صورة الشيطان في الملحمة انها صورة الخلائق المحمودة أو صورة الخلائق المرذولة في زمانه ، واصدق ما يقال فيها : انها صورة فنية تترجم عن شعور « ملتون » بخلائقه الفردية أو الاجتماعية على السواء .

واذا كررنا بالنظر راجعين الى أعلام الشعر التمثيلي في اليونان لم نستطع ان نعرف منه انه مرتبط بنظام السادة والارقاء ، ولم يخطر على بال قارئه انه منظوم لاستبقاء وسائل الانتاج الا ان يكون في البال هوس ينثني به الى ذلك الخاطر ليبحث عنه بين زوايا السطور .

وأي بديهة سلمت من ذلك الهوس يخفى عليها ان الآداب والفنون هي منافس الطبع البشري التي يلوذ بها من وطأة المعيشة ، وليست ضرورة أخرى يضيفها الطبع البشري الى تلك الضرورات ؟

ان طبيعة الانسان تتنسم من جانب الآداب والفنون نسمات الحرية التي تفقدها في عالم الضرورات والاثقال فلا تهتدي اليها ، وقد ترددت موضوعات الحماسة والحرب في آداب الامم وفنونها لانها تجد هذه الحرية في عالم البطولة

والعاطفة وتشعر شعور الانسان الحي لا لانها تشعر شعور « المخلوق الاقتصادي » الذي يرسمه لنا الماديون في اسواق البيع والشراء . ومن البلاء على الطبع الانساني ان نسلط عليه الضرورة تطارده في عالم الخيال كما تطارده في عالم السعي والدأب ، وان تتراءى امامه في منافذ الاحلام فيسمعها مع الغناء كما يسمعها مع ضجيج الآلات ، ويبصرها مع الصورة والتمثال كما يبصرها مع الافران والقدور . وهذه صفحات الآداب الانسانية تمتلىء بالاحلام التي وجدها الناس في آدابهم وفنونهم لانهم لم يجدوها في اعمالهم ومساعيهم ، ولم تكن هذه الاحلام عبثا خاويا ولا علالة فراغ . . لانها حوافز النفس البشرية الى تقريب البعيد وتحقيق المحال ، وما كان لها من سبيل الى الطيارة لولا الحصان الطيار وبساط الريح ، ولم يكن الحالم بالفص المسحور وقمقم المارد صاحب مصنع يبحث عن زر الكهرباء ومرجل البخار ، ولكنه صاحب خيال يحلم للانسانية ويلقي بأحلامه إلى ذمة الغيب فتخرج في اوانها من حيز الحلم الى حيز العيان .

***

ويحق لنا ان نقول : ان أسوأ الآداب والفنون في عرف الماديين التاريخيين أوفق للطبقة المظلومة من آدابهم وفنونهم كما يرتضونها ، وكما يحبون أن يفرضوها على تلك الطبقة . .

وأسوأ الآداب والفنون في عرفهم هي تلك التي يسمونها آداب « البرج العاجي » او فنون البرج العاجي . . ويريدون بها كل فن يشغل بوصف محاسن الطبيعة أو وصف المناظر على عمومها لزينتها وجمالها دون ما يتبعها من المنفعة الاقتصادية أو من الاثر في احوال المعيشة .

وأول ما نلاحظه على هذا التعريف للادب المسمى بأدب « البرج العاجي » انه لا وجود لمثل هذا الادب ، ولا وجود لفن قط يعلمنا أن نتنبه للزينة والجمال ويتجرد على اليقين من الاثر في احوالنا المعيشية وان يكن أثرا غير مقصود أو غير مباشر . وليكن فن « البرج العاجي » هذا مقصورا على وصف حدائق الزهر أو جداول الماء أو ما شاكل ذلك من مناظر الطبيعة التي نراها فيما حولنا ، فان هذا لا يجعل الوصف من أدب اللغو والفضول ، لان حدائق الزهر لها محل في كل مجتمع

نظيف متقدم ، وما كان له محل في المجتمع فمن الجائز - بل من الواجب ان يكون له محل في صفحات الأدب وآيات الفنون .

والشاعر الذي ينبه النفس الى صدق الشعور يزيد نصيب القارىء من الاحساس بالحياة ، ويعطيه بذلك قيمة حيوية لا تحسب من اللغو والفضول . . وهو عدا هذا يهذبه ويعوده جمال المعيشة ، فلا يقنع برثاثة العيش ولا يزال متطلعا الى حياة أرفع من حياة الضنك والكفاف . . ومتى قورن هذا الاثر « النافع » بأثر الفن الذي يصبح ويمسي في حديث الضرورات او حديث الصناعات والمصنوعات ، فلا ريب في نتيجة هذه المقارنة بغير حاجة الى التعمق في ادراك النفس البشرية . . فانما الاثر المحتوم للاصباح والامساء في حديث الضرورات ساعة العمل وساعة الفراغ وساعة النظر الى التمثيل وساعة الاصغاء الى الغناء انما هو السآمة والتبرم بالادب والعمل على السواء .

ولا ندري أين يضع الماركسيون تلك المحاسن التي تبذرها الطبيعة بذرا في حياة النبات والحيوان ، سواء حسبوها مع الزينة أو حسبوها مع الضرورة ؟ . . ان الطبيعة لا تنظر الينا حين تنبت أزهار الفول والحمص والبازلاء ، ولا تبالي باسماعنا حين ترسل الانغام من حناجر الطير في بكرة الربيع وفي بكرة الصباح من جميع الفصول ، ولكننا نحن ننظر اليها ونبالي بها ونفهم من زينتها انها لازمة لها لا تنفصل من الضرورة في مطالب الغذاء ومطالب البقاء ، ومن اللغو ان نقول : ان الزينة برجوازية حين تظهر في الحياة الانسانية ، وطبيعية خالصة حين تظهر في حياة الشجرة وحياة العصفور ؟

ولسنا نمزح حين نسترسل من هذا السؤال الى سؤال عن لحية « كارل ماركس » التي اضفاها حول وجهه وحملها طول حياته . . ما مكانها من الزينة والضرورة ؟ . . وما مكان هذه الزينة او الضرورة من وسائل الانتاج ، واذا كان هذا قسط الزينة في وجه زعيم فيلسوف ، فلماذا نلغيه ونحرمه في تعبيرات العواطف وتشبيهات الشعراء ؟! . .

لسنا نمزح بحق في هذا السؤال لان جوابه كيف كان يضطر الماديين الماركسيين

الى فهم آخر لمعنى الزينة وعلاقتها بضرورات المعيشة ووسائل الانتاج ؟ . .

ولسنا نمزح كذلك حين نسترسل في هذا السؤال الى السؤال عن نموذج الادب المرتضى بعد قيام المجتمع من طبقة واحدة . . هل يحرم فيه ذكر وسائل الانتاج لانها بقية من بقايا الاستغلال ورأس المال وأحابيل البرجوازية والانتهازية والابتزازية وما اليها ؟ . .

هل يدور على حياة الانسان بعد ذلك ولا يدور من قريب ولا بعيد على الفلوس والاجور ؟ . . وهل يتهجى الانسان بعد ذلك في الذوق الانساني الخالص ويتعثر فيه بين الحروف والمقاطع كأنه طفل لم يشهد النور قبل ذلك آلاف السنين ؟ واذا كان الانسان قابلا بعد ذلك الماضي السحيق أن يحتفظ بالطبيعة الانسانية ، فلماذا يقال ان الطبقة قد استنفدته قديما فلم يبق فيه مكان يسمح للانسانية أن تعيش الى جانب الطبقة بمقدار النصف او الربع أو العشر أو أي مقدار ؟ . .

لسنا نمزح بحق في هذا السؤال أيضا . . لاننا نحب ان نعرف كيف يتخيل الماديون انسانا يولد في المجتمع الموعود لم يكن انسانا قط منذ بدأ أدوار التاريخ كما وصفوه .

***

ومن التقسيمات التي ضللت العقول زمنا طويلا ولم تزل تضللها تقسيم المطالب العامة الى ضروريات وكماليات ، والاسترسال من ذلك الى ضروب من الترتيب يعاودون بها التقديم والتأخير أو التأخير والتقديم ، فيما يؤخذ وفيما يترك ، وفيما هو أولى بالعناية وما هو أحق بالاهمال . .

ولا خلاف على تفاوت المطالب في لزومها أو الاستغناء عنها ، ولكننا اذا بنينا على ذلك أن المطالب التي لا تلزم في كل حين تهمل ولا ينظر فيها حتى يستوفي الناس ما يلزمهم كان العمل بهذا الرأي خطلا مضيعا للضروريات والكماليات بل ربما ضيع الضروريات أو ضيع وسائلها قبل الكماليات التي يقال : انها مما يستغنى عنه . .

ان الرغيف الزم من الكساء والدواء ، ولكننا اذا قلنا اننا نهمل الكساء والدواء

حتى نستوفي الزغفان أضعناها جميعا ، ولم نصنع ما نحتاج اليه ولا ما نستغني عنه . .

ولا يحتمل هذا القول مغالطة أو مكابرة الا من جماعة الدعاة الذين يخاطبون الغرائز ولا يخاطبون العقول والضمائر ، فاذا قال هؤلاء لاصحاب الغرائز التي تخذلها عقولها وضمائرها : ماذا تصنع المعدة الجائعة بالفن والادب والعلم ؟ فهذا كلام قد يصلح للتدجيل والتضليل ولكنه لا يصلح لتقرير الحقائق ولا لاشباع الجياع ، ولو سمع هذا الكلام من فجر التاريخ لما وجدت الآن الآلات والمكنات التي لولاها لمات العاملون جوعا ولم يجدوا ما يعملونه فضلا عما يكسبونه من العمل ، ولو توقف صنع الفن وبناء الصروح ونسج الاكسية واستخراج المعادن والجواهر الى ان تتم الضروريات المزعومة منذ فجر التاريخ ، لذهبت هذه الصناعات الضرورية لحسبانها يومئذ من الكماليات .

وهؤلاء الدعاة يتخيلون أو يريدون من الناس ان يتخيلوا أن الانسانية معدة واحدة لا تعمل حتى تشبع وتروى ، وينسون أن الانسانية ملايين من المعدات والعقول والاذواق تستطيع أن تعمل معا ـ ولا بد أن تعمل معا ـ والا ضاع الجياع في مقدمة الضائعين ، وهكذا عملت الانسانية ، وهكذا عملت الطبيعة ، وهكذا عمل الكون منذ كان . وليس من الكماليات ما هو أقل لزوما من الصروح التي كانت تبنى منذ خمسين قرنا في الحضارات الاولى ، ولكنها لو توقفت يومئذ لما كان لدينا اليوم صناعة بناء ، ولا صناعة ملاحة ، ولا صناعة معادن ، ولا صناعة نقش وتجميل ، ولكان أول الضائعين بذلك طلاب الضروريات !

***

كنا في لجنة المعارف بمجلس النواب ، ودار البحث على الفنون الجميلة . . فقال بعضهم : انها من الكماليات ، فكان جوابي للقائل : نعم لعلها كذلك . . ولكننا اذا كنا نعيش بالضروريات فانما نعيش بالكماليات .

وخرجنا من اللجنة ووصلنا في أثناء الحديث الى ميدان الازهار ، فلقينا رتل من مركبات النقل ليس بينها مركبة واحدة لم تزوق بالالوان أو لم تعلق في عنق

حصانها شرابة ملونة الاهداب . . قلت لصاحبي : اتظن هؤلاء السائقين من المترفين الذين شبعوا من الضروريات ؟ . . اتظن واحدا منهم في غنى عن ثمن الطلاء الذي يزوق به خشب المركبة ؟ . . أتظن هذه « اللاسة » المزخرفة ضرورية لوقاية رأسه ؟ . . ثم هذا الغناء في ابان الشغل : كيف تحسبه في أبواب الميزانية ؟ . . وكيف تمنعه دون أن تمنع معه شيئا من النشاط وشيئا من الحماسة النفسية ؟ . .

هذه ملاحظة ترى في كل مكان وليست مما نفقده في وقت من الاوقات ، ويمكننا جميعا أن نراه في جميع الاوقات وجميع المناسبات .

وندع مركبات النقل وننظر الى السيارات ، فكم نرى منها للضرورة وكم نرى منها للكماليات ؟ . . انها تتفاوت بالمتانة والسرعة ، وتتفاوت كذلك بالشكل والقالب ، وبالمنظر الذي يأخذ البصر من النظرة الاولى واليه يلتفت المعجب بها لاول وهلة ، ولاجله قبل غيره يبذل الفرق في الثمن عشرات او مئات من الجنيهات .

وندع الصناعة والمصنوعات ونتجه الى الطبيعة في مروجها وحقولها وغيطانها ، ولا نقول الى بساتينها وحدائقها ، ولا الى ما في البساتين والحدائق من الورد والنرجس والريحان ، فربما قيل عن هذه الأزهار بأشجارها جميعا : انها « كماليات » مزهود فيها . .

ننظر الى غيط الفول ، وناهيك بكلمة الفول وحدها رمزا للأكل بل للعلف الذي ينزل من طبقات الضروريات الى قرار القرار ، فأية حسناء من المترفات تتخطر برائحة أجمل من رائحة غيط الفول ؟ وأي زينة لديها أنقى من زينة زهرة الفول ؟ . . ما فائدتها ؟ . . ما جدواها ؟ . . ما تفسيرها بلغة الضروريات ؟ . .

لعلها تغرى الحشرات بنقل اللقاح ؟ . . ولعلها تغري النحل بصنع الرحيق ؟ . . ربما حدث هذا وذاك ، ولا علينا من حاجة الفول الى نقل اللقاح أو استغنائه عنه ولا علينا من عمى بعض الحشرات عن اللون وعن الرائحة ؟ ولا علينا من الحشرات نفسها ما الذي ينقل لقاحها وفي أي شيء ترسم لها الطبيعة

الوانها وتوشي لها أجنحتها ؟ بيد أننا نقول : اننا نصف الشيوعيين - أحيانا - بوصف الحشرات ولا نمزح ، لأنهم يرتضون لانفسهم مرتبة من الخلق دون مرتبة الحشرة التي يستهويها الجمال ، ولا تفسر كل عمل من أعمالها بوسائل الأنتاج .

***

وسواء قصدنا الى المزح ، أو لم نقصد اليه ، فنحن نمزح على الرغم منا كلما عالجنا البحث في هذا الذي يسميه الماديون التاريخيون رأيا يرتأونه عن أصل العلوم . . لان رأيهم هذا وقار يشبه الهزل أو هزل يتشبه بالوقار . .

ماذا يقول القارىء اذا سمع أحدا يقول له بلهجة الجد والثقة : ان عينك لا تبصر شيئا الا أن تكون لك حاجة فيه ؟

انه قول عجيب . . ولكنه اقل عجبا من قول الماديين التاريخيين في أصل العلوم اذ يقولون : ان عقل الانسان لا يعرف شيئا وان معرفته لا تصبح علما الا أن تكون له حاجة اليها ، وشرطهم الاخير هنا كشرطهم في سائر آرائهم ان يؤ ول الامر في النهاية الى وسائل الانتاج .

وهم كدأبهم اليه يتخطون جميع العقبات ليصلوا الى الغرض الذي يرمون اليه من وراء هذه النظريات ، فان العقبات التي تعترضهم في طريقهم كثيرة لم يذللوا واحدة منها ولم ينظروا اليها الا على عجل واختلاج ليهرولوا الى الخاتمة المأمولة قبل فوات الاوان . .

فمن العقبات التي تعترضهم أن الانسان يعلم بارادته وبغير ارادته ، ولكنه يشعر بالحاجة فيريدها ويطلبها ويسعى اليها ، فنحن لا نعلم باختيارنا ان الشمس تطلع كل يوم من موضعها ، بل نراها تطلع يوما بعد يوم فتصبح هذه الرؤ ية مادة من مواد العلم التي تحصل لدينا حيث نريد وحيث لا نريد . . فاذا استخدمنا حرارة الشمس أو نورها بعد ذلك في حاجة من حاجاتنا ، فنحن هنا نريدها ونعتمد على ارادتنا كما نعتمد عليها في كل شيء .

ومن العقبات في طريق التعليل المادي للعلوم ، اننا نزداد معرفة فنزداد علما

بحاجاتنا . . وكثيرا ما يكون العلم سابقا بذلك للحاجة مهما يكن من اضطرارنا اليها ، فقد تعلمنا فعرفنا ما نحتاج اليه من الغذاء والكساء والدواء . . ولم يكن اكثرها مما نعلم أننا محتاجون اليه . .

ومن تلك العقبات ان الحاجة وحدها لا تحقق لنا الغاية التي نسعى اليها السعي الحثيث من أوائل تاريخنا المعلوم ، فمن عشرات القرون يحتاج الناس الى دواء الامراض المعضلة ولا يعرفون دواءها ، وفي هذا العصر يصل الباحث بالمصادفة الى أنفع الادوية ــ كالبنسلين مثلا ـ فلا نلبث ان نعرف مواضع الحاجة اليه .

ومن تلك العقبات أن الناس يتفاوتون في استنباط العلوم . وتحصيلها ، على حسب تفاوتهم في العقول لا على حسب تفاوتهم في الحاجات . . فوسائل الانتاج متساوية او متقاربة في المجتمعات الانسانية الى ما قبل عصر الصناعة الكبرى ، وليست المجتمعات مع ذلك متساوية في العلم والثقافة وتمهيد طريق الاختراع . . وقد كانت معادن الحديد والفحم والنفط موجودة في غير أوربة الغربية من قبل وجود الانسان ، ولكنها لم تحدث المخترعات الصناعية التي حدثت في أوربة الغربية ، ولم يكن لها تمهيد غير التمهيد العلمي في عصر النهضة قبل قيام الصناعة الكبرى على سعة أو في نطاق محدود .

***

ولنتكلم بلغة الماديين التاريخيين فنقول : ان هذه العقبات محتاجة الى التذليل قبل الوثب منها الى النتيجة المقصودة ، بيد أن الماديين التاريخيين لم يذللوها على شدة الحاجة الى تذليلها ، ووثبوا منها الى الغاية التي لا بد أن يثبوا اليها ، وهي تعليل العلوم جميعا بالحاجة اليها .

ومن تلك العلوم ما تجوز المغالطة فيه كالعلوم الطبيعية التي ترتبط بالتجربة والتطبيق ، ومنها ما تتعذر المغالطة فيه لان ارتباطه بالتجربة والتطبيق قليل جدا في رأي العارفين به ، كعلوم الرياضيات .

فمن المتفق عليه ان الحقائق الرياضية عقلية لا ترتبط كثيرا بالمشاهدات

الحسية ، وانها قد تمت على وجه التقريب قبل تمام العلوم التجريبية بمئات السنين . .

وقد رأينا غيرنا اطفالا في الثانية عشرة يحلون من عمليات الحساب على غير الورق مسائل تحتاج الى ضرب عشرة ارقام في عشرة ، وهم اشباه أميين . وثبت أن علوم الحركة التي مهدت للمخترعات الحديثة لم تكن ميسورة بغير المعلومات الرياضية التي اقترنت بعلوم النهضة في عصر الحرية الديمقراطية فأسفرت عن خوارق الصناعة الحديثة .

الا أن استثناء العلوم الرياضية يفسد الحساب الاخير على الماديين التاريخيين . . فلا حقائق رياضية ولا تجريبية يدركها العقل ويجعلها علوما مفهومة بمعزل عن وسائل الانتاج .

ويقول « كارل ماركس » في الجزء الاول من كتاب رأس المال : ان « ضرورة التنبؤ عن موعد الفيضان » هي اصل علم الفلك عند المصريين الاقدمين . ويقول هو ومن على شاكلته : ان الحاجة الى تقسيم المزارع بعد الفيضان هي أصل علم الهندسة ، ولذلك سميت في اللغة اليونانية بعلم قياس الارض[1] .

وبعض ما قاله الماديون هنا يقره غيرهم من الباحثين في أصول العلوم ، الا انهم لم يستطيعوا ان يمنعوا قدرة العقل البشري على استنباط العلم الذي لا تلجئه اليه الحاجة ، وفي مقدمته علم الرياضيات بما يشتمل عليه من فلك وهندسة .

فهل من المعقول ان تصبح الشعرى اليمانية موعدا للفيضان ما لم تكن مرصودة قبل ذلك معروفة المواعيد بمعزل عن مواعيد فيضان النيل .

ان مؤرخي الرياضيات الذين تتبعوا اصولها لا تخفى عليهم هذه الحقيقة ، ولا يزالون يعرفون للعقل حقه في الدهشة أمام روائع الكون والشوق الى استطلاع اسراره ، ولا يجعلونه في كل شيء . . وفي كل معرفة . . عبدا مغمض العينين لا يفتحهما الا باذن من وسائل الانتاج ! . . وقد كتب الاستاذ « موريس كلين »

Geometry (1)

مؤرخ الرياضة فصلا عن مولدها من كتابه عن تاريخ الثقافة الرياضية في الغرب فقال : « ان الرصد لا بد أن يكون قد تتابع سنوات عدة قبل أن يقرر اتخاذ عبور الشعرى بالفلك الاعلى موعداً للنبوءة عن فيضان النيل »[1]

ولا يلزم - بداهة - ان يكون المرء حجة في العلوم الرياضية ليفهم ان الهندسة التي شيدت الاهرام وشوامخ الآثار لم تكن ضرورة من ضرورات وسائل الانتاج أو وسائل الزراعة في فيضان النيل . . فما الذي ارتفع بالعلوم الهندسية والفلكية الى تلك الذروة التي ارتقت اليها بين المصريين الأقدمين ؟ وماذا في زراعة الفيضان مما يوجب اقامة الهياكل بتلك الضخامة وذلك الشموخ ؟ ولماذا تعلم المصريون الملاحة وتعلموا الاهتداء بالنجوم في طريق الملاحين لجلب الابازير والافاوية التي يستخدمونها في تحنيط الجثث او تحنيط الاموات ؟ . .

أي جواب يجاب به عن هذه الاسئلة يسقط القول بالعلة المحصورة في وسائل الانتاج . .

فاذا قيل : ان الهياكل المخلدة قربان يرضي الارباب لتغدق عليهم الوفر والخصب والنتاج ، فليست وسائل الانتاج فعلا هي التي علمتهم الهندسة وبناء الصروح ، وانما هي العقيدة التي صورت لهم اسباب الوفر كما يؤمنون بها لا كما في الارض الزراعية او ماء الفيضان . .

واذا قيل : ان الانسان يؤمن ثم يخلق له الايمان حاجته الى البناء والملاحة ، فماذا يبقى من مذهب « الحاجة » في تعليل العقل وشله عن طلب المعرفة الا من طريق الفم والمعدة والامعاء ؟

***

ويلوح لنا أننا نقترب من فهم « ميزان » التهجم على الحقائق عند الماديين التاريخيين اذا تذكرنا - ونحن نطالع كتبهم الاولى والاخيرة - انهم كتبوها

Mathematics in Western Culture (1)

بأسلوبين أو في حالتين من أحوال الامل والقنوط . . فالاسلوب الغالب عليهم هو أسلوب التهجم على الحقائق كلما استطاعوا ، وهو ملحوظ فيما كتبوه ايام الفتنة على أمل في نجاح الانقلابات او تفاقم البوادر الاولى واستفحالها في امد قريب ، والاسلوب الآخر هو اسلوبهم كلما خابت ظنونهم وخابت ظنون الناس في نبوءاتهم فأعرضوا عنهم وتعسر اقناعهم بالهجوم على الوعود والتوكيد بغير برهان .

ومما كتبوه على الاكثر في بعض هذه الفترات تلك الآراء التي يفرقون فيها بين العلوم وامكان تفسيرها بأسبابهم التي يفسرون بها كل ما في الارض والسماء . . ومن هذا القبيل نحسب تقسيمات « انجلز » للعلوم وما يطرأ عليها من التحول والتطور على حسب البيئة فانه يقسمها في رده على « دهرنج » الى ثلاث طوائف لا تتعادل في قابليتها للتأثر بوسائل الانتاج . . وهي طائفة العلوم الطبيعية ، وطائفة العلوم البيولوجية ، وطائفة العلوم الاجتماعية .

« فطائفة العلوم الطبيعية تتعلق بالمادة غير العضوية كالفلك والرياضة والطبيعة والكيمياء . وطائفة العلوم البيولوجية تتعلق بالمادة العضوية كعلم وظائف الاعضاء وعلم الحياة ، وطائفة العلوم الاجتماعية تتعلق بالاحوال التاريخية ومسائل الشريعة والفكر والدين والفلسفة . .

« فالعلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية تبحث في امور لم يصنعها الانسان وليست عرضة للتغير الذي تتعرض له الاحوال الاجتماعية . فلا تتغير وظائف الاعضاء ولا خصائص المواد الطبيعية بين نظام ونظام من النظم الاقتصادية او بين عهد وعهد من العهود السياسية ولا شأن للحقائق المطلقة بهذه العلوم ، ولا تزال معرفة الناس بها نسبية اي « غير مطلقة » .

أما العلوم التي تتعلق بتاريخ الانسان كعلوم السياسة والفلسفة والدين والفنون والآداب ، فهي عرضة للتغير بين العهود السياسية على حسب اختلاف وسائل الانتاج ، وهي مصطبغة على الدوام بصبغة المنفعة والغرض ، متحولة على الدوام مع العلاقات الاقتصادية التي تنشىء المعلومات والمصطلحات فلا توجد الا حين

توجد مقدماتها ونتائجها .

وللفلسفة بين هذه المعارف البشرية رخصة خاصة عند الماديين التاريخيين في الانفصال من وسائل الانتاج الحاضرة لجملة اسباب ، منها انها تحمل بقايا الازمنة الغابرة من قبل التاريخ اذ كانت الحالة الاقتصادية تنطلق بالانسان في تيه من الاوهام والخزعبلات لا تمت الى الواقع بعلاقة صحيحة ، ومنها انها تتوقف على العلوم الطبيعية فلا تتقدم الا تبعا لتقدمها ولا تصل الى الواقع الا اذا كانت تلك العلوم الطبيعية قد وصلت قبلها ، ومنها انها ذات موضوعات لا ترتبط على الدوام بالموضوعات اليومية ، وهي مع هذا الانفصال عن الواقع تمثل عصورها الحاضرة في مذهب فيلسوف او أكثر من فيلسوف ، ان لم تكن مذاهبها جميعا ممثلة للعصر الذي تعيش فيه .

هذه الرخصة المسموح بها للفلسفة محظورة على الرياضيات لان الرياضيات مأخوذة من المشاهدات الحسية مهما يكن من ظواهرها النظرية المجردة .

« فلا بد ـ كما يقول « انجلز » في الرد على « دهرنج » ـ من اشياء ذات شكل حتى تكون هناك صور ورسوم هندسية . والنظريات الرياضية المجردة تبحث في صور لها محل من المكان وفي علاقات عددية بين أجزاء العالم الواقع ، اي في علاقات بالعالم المادي جد صحيحة بلا مراء . وانما تتجرد هذه الصور والعلاقات من الماديات ليتيسر بحثها عقليا وتفريغها من محتوياتها لانها ليست بالضرورية للوصول الى النقطة التي لا أبعاد لها ولا للخط الذي لا عرض له ولا كثافة . . ومن ثم نصل للمرة الاولى الى العلاقات الطليقة والتصورات العقلية والمقادير المتخيلة . . واشتقاق المقادير الرياضية بعضها من بعض لا يدل على مصدر مجرد بل على ارتباط بينها في التفكير ، وقبل ان نستخرج صورة الاسطوانة من حركة السطح القائم الزوايا على جانب واحد لا بد أن تكون حركات كثيرة من هذا القبيل قد شوهدت في الواقع . وهكذا تكون الرياضيات ـ كغيرها من العلوم ـ صادرة من حاجات الانسان ، وهذه الحاجات هي قياس الارض وفراغ الانية ومسافات الوقت وادارة الآلات . غير انه في طور من الأطوار يحدث لهذه القواعد ـ التي استمدت من العالم الواقع ـ ان تنعزل من هذا العالم كما يحدث

في كل ميدان من ميادين التفكير ، فاذا هي مفروضة عليه كأنها مستقلة عنه تأخذه بموافقتها ومطابقتها ، وانما يحدث هذا في المجتمع وفي الدولة وتصبح الرياضيات بهذه المثابة دون غيرها صالحة للتطبيق في العالم الخارجي ».

***

هذه مراجع العلوم كما بسطها « انجلز » شارح هذه الآراء في مذهب المادية التاريخية ، وهو يؤ يد بها آراء استاذه او يشرحها ، لان « ماركس » لم يشرحها بهذا التفصيل . .

واللازم منها بمشيئة المذهب أو بغير مشيئته :

« أولا » ان الحقيقة المجردة من عمل العقل .

« ثانيا » ان النظرية العلمية لا تصح الا بالتجريد .

« ثالثا » ان قدرة العقل على استنباط هذه الحقائق لا تستمد من الحاجات ، لان أقدر العقول على استنباطها لا يكون على الدوام أشد العقول شعورا بالحاجات وتهافتا عليها ، وقد يكون اشد المحتاجين اليها اعجزهم عن استنباط الحقائق وادراك العلوم .

اذا قال قائل : ان العقل موهبة من السماء ركبت في الجسد لتهديه الى حقائق المادة . . فما الذي يلزم أن يقوله دعاة المادية بعد طول العناء ؟ .

وننتقل من الفلسفة كما يعيبها الصاحبان الى الفلسفة التي وضعاها لتكون أول فلسفة صحيحة جاد بها ذهن الانسان ، وتكون كذلك آخر فلسفة يجود بها في تواريخه المقبلة ، فلا فلسفة بعدها ، ما أضاء النيران ، وتعاقب الملوان !

وتقوم هذه الفلسفة الصحيحة الوحيدة في حياة النوع الانساني على جملة أصول يجمعها أصلان او قاعدتان : القاعدة الاولى هي قاعدة التغير . والقاعدة الثانية هي قاعدة الكميات والكيفيات .

ونعلم من القاعدة الاولى أن التغير سنة المادة الابدية وتنطوي في قاعدة التغير

قاعدة « نفي النفي »[1] وقاعدة التطور المتناقض او التطور بأضداد[2] .

فنحن نعرف الشيء بذاته كما هو ، ونعرفه في الوقت نفسه بنقيضه الذي يشتمل عليه ، لأنه يحمل فيه نقيضه الذي يغيره ويتغير معه .

ونعود الى تلخيص المذهب فنذكر أن الشيء يمر في ثلاثة أدوار : فعل يتلوه نقيض، ثم يتلوهما معاً تركيب يجمع النقيضين. ونضرب لذلك مثلا بالحركة : فالحركة فعل ، والمقاومة نقيضه ، ومن الفعل والمقاومة يتألف التركيب الذي نسميه النظام ، ونضرب المثل بالنظام ، فهو فعل ، يتلوه التعديل وهو نقيضه ، ويتألف من الفعل والنقيض مركب هو النظام الجديد .

أما قاعدة الكميات والكيفيات ، فمنها نعلم أن الصفات والمزايا والكيفيات تنشأ من الكم والعدد . . فاللون الاحمر كيفية ، ولكنه ينشأ من عدد الذبذبات في حركة الضوء ، والماء يختلف تبعا لدرجة الحرارة من الجمود الى الغليان ، وتختلف مميزاته على حسب هذه الدرجة مثل اذابة المحلولات وتحليل بعض الاملاح .

ولا جديد في هاتين القاعدتين جاء به الصاحبان من عندهما الا النتيجة التي ينتهيان اليها من كل رأي يبدآنه ويمضيان به الى غايته في مذهبهما ، وهي حصر تاريخ الانسان المقبل في مصير واحد لا يتقبل التعديل وهو مصير النقمة والخراب .

فقديما كان « هيرقليطس » (٥٣٦ - ٤٧٠ق .م) يقول : أنت لا تستطيع أن تضع قدميك في نهر واحد لانه يتغير في كل لحظة كما يتغير كل موجود فلا تبقى له من حقيقة دائمة الا أنه لا يدوم . .

وقديما كان أصحاب العناصر الاربعة والطبائع الاربع يقرون أنها لا تزال في تنافر وتوافق تقوم عليها صحة الابدان أو اعتدال الاحوال .

وقديما « الاثنينية » يقولون بالخير والشر وان إله الشر « أهريمان » نجم من فكرة

---

(1) Negation of Negaiton
(2) Contradictory Evolution

فاسدة خطرت في بال إله الخير « أو رمزد » فانقسم بينهما كل كائن من الاحياء والجمادات .

وقديما قال القائلون بالسعود والنحوس وبالموافقات والعكوس . . وحديثا قيل بالموجب والسالب ، وقال « هيجل » بالاضداد التي اقتبسها الصاحبان وعدلا بها عن معناها عنده الى المعنى الذي أراداه .

ولم يقع في خلد أحد أن الكون كله جسم واحد متحد الصفات معدوم الاشياء أو معدوم الفروق بين الاشياء ، ولن يقع في خلد أحد أنه يتركب من أشياء لا عداد لها الا فهم من ذلك بداهة أن هذه الاشياء على اختلاف ، وليست معدومة الفروق والملامح والشيات .

ومن سلامة الرأي أن تلاحظ هذه الفروق والنقائض ، ولا يزاد عليها الحتم القاطع الا في الامور المحدودة التي يحكمها قانون مقيس بتفصيلاته كقانون الحركة تنفصل به الحقائق عن المجازات والتشبيهات .

فالاضداد كما يقول بها الماديون في مذهبهم تشبيهات مجازية ، تستطيع أن تطبقها على طريقتهم وتصل بها الى اثبات الحياة الاخروية التي ينكرونها أشد الانكار . .

فالحياة الدنيوية ـ مثلا ـ فعل ، والموت نقيضه الذي يتلوه ، ويتألف من الفعل ونقيضه تركيب هو الحياة الباقية . .

أو نقول مثلا : ان الشيوعية فعل ، والفوضوية نقيضه ، والديموقراطية التي لا هي بالشيوعية ولا بالفوضوية هي التركيب المؤتلف من الفعل والنقيض .

وانظر مثلا الى صعوبة البت في هذه التشبيهات المجازية بين أقطاب المذهب من تلاميذ « كارل ماركس » من طبقة « بوخارين » و« لينين » . فهل « الضدية » عداء بين الاضداد او مجرد اختلاف ؟

Dynamics (1)

ان « بوخارين » يقول انها عداء و« لينين » يقول في رده عليه انها ليست بالعداء ولكنها مناقضة . . . ومن أجل تخطئة « بوخارين » ينسى ان المذهب كله قائم على صراع الحياة والموت بين الاضداد .

وانظر مرة اخرى الى الخلاف على تركيب الشيء ونقيضه ، هل يكون هذا التركيب اتحادا أو يكون ضربا من التوفيق ؟ . . « لينين » يقول في رده على المنشفية : انه اتحاد ، وهم يقولون : انه توفيق ؟

افهذه هي الفروق التي يقيمونها كالصراط بين الجنة والنار وبين الناجحين من أهل الصدق والهالكين من أهل البهتان ؟ .

واهزل من هذه الحدود الهزيلة توكيدهم بقيام الكيفيات كلها على الكميات ، فقد يحدث في طفرة النباتات ان تتجمع بعض التغييرات ثم تتحول فجأة الى صفة جديدة ، ولا مزيد على هذه الملاحظة في علم صحيح .

اما القول بأن الكيفيات والصفات جميعا كانت من قبل كميات ومقادير عددية ، فليس له دليل بل يقوم على نقضه أقوى دليل . . هل مائة الف شكل دميم يتألف منها شكل واحد جميل ؟ . . هل اللون الاحمر حقا كيفية أو هو في الحقيقة صورة الذبذبات كما تراها عين الناظر اليها ؟ . وما هو الحد الحاسم المصحح للحكم في هذا الاختلاف بين ما هو مزية وما هو كثرة عددية ؟ . . ان كان هناك حد حاسم فهو لا يعدو أساليب الاصطلاح على الاسماء والرموز .

ولا ندري ما هي كرامة الفكر عند انسان يحرمون عليه ان يخرج على رأي من الاراء ، بالغا ما بلغ من وضوح القواعد واستقرار الاصول والفروع ، فأما تحريم الخروج على أمثال هذه الرموز او الالغاز التي تتضارب فيها معاني الكلمات هذا التضارب فهو اعنات للفكر أشد عليه من اهدار الكرامة والاحتقار . . لانه يسومه أن يلتزم الحدود حيث لا حدود ، ، وأن يؤيد الرأي حيث لا يدري أحد على التحقيق ـ ولا على الظن ـ أين ينتهي التأييد بعد وأين تبدأ المخالفة .

وهذه الالغاز المتضاربة هي التي حرمت الهيئات الرسمية الشيوعية مخالفتها على

العلماء يوم وجدت للمذهب هيئات رسمية تملك التحريم والتحليل .

ففي كتاب « المادية والنقد التجريبي »[1] يسرد « لينين » قواعد البحث التي ينبغي ان يجري عليها العلماء ولا يخالفوها . وفي سنة ١٩٣٢ قرر مؤتمر الاتحاد العام للعلماء « ان علم الناسلات[1] وتربية النبات يجب أن يطابق المادية الماركسية »[2] .

وقد عوقب بالنفي والاعتقال ـ أو التصفية ـ رهط من العلماء لوحظ عليهم أن بحوثهم لا تؤدي الى النتيجة التي يفترضها هذا القرار ، ومن هؤلاء العلماء « شتفريكوف » و« فيري » و« افرويمسون » و« ليفتسكي » و« أجول »[3] .

وفي سنة ١٩٤٨ أصدر العالم المعتمد في تجارب الناسلات « ليسنكو » تقريره الرسمي ، وفيه تعهد صريح بأن يدحض الباحثون التابعون لاتحاد العلماء كل فكرة تخالف مذهب « ميشورين » الروسي صاحب القول الفصل في مسائل الوراثة .

وليس هنا مجال الخوض في شروح الخلاف بين مذهب « ميشورين » والمذاهب التي ينعتونها بالبرجوازية ويقولون : انها من دسائس المجتمع القائم على رأس المال ، فحسبنا ان نجمل هذا الخلاف بما يكفي لبيان الفارق الذي يقف فيه أناس على ضفة النجاة ويقف فيه أناس آخرون على شفيرها من النار .

فالمذهب الحديث في الوراثة يرجع الى تجارب « مندل » الذي يرى ان الصفات المكتسبة أو الطارئة لا تورث الا اذا تأثرت بها البنية بعد تكرار طويل ، وأن التغير قد يتتابع على البنية ثم يظهر أثره فجأة فيما يسمى بالطفرة أو الانتقال المفاجىء وان تغيير النباتات ممكن بطريق اللقاح والتطعيم في أحوال معينة لم تشمل تجاربها جميع النبات .

---

(1) Materialism and Empiriocriticism

(1) Genetics

(٢) صفحة ٩٨ من كتاب العالم في روسيا تاليف لاشبي Scienitst in Russia by Eric Ashby

(٣) كتاب الناسلات السوفييتية والعلم العلمي تاليف هكسلي
Soviet Geneitcs and World Science by Juiian Huxeay

اما مذهب « ميشورين » الروسي فهو انكار الخصائص الثابتة في الوراثة ورد جميع الخصائص الى فعل الوسط والبيئة ، ومن قال بغير ذلك فهو متهم في اخلاصه لانه يقرر شيئا قد يلقي الشك على قواعد المادية الماركسية التي لخصها « انجلز » اذ يقول : « ان كل كائن عضوي في كل لحظة هو ذاته وغير ذاته في وقت واحد ، اذ في كل لحظة تموت خلايا في جسمه وتتألف خلايا جديدة . وبعد فترة من الزمن تطول أو تقصر تتغير مادة جسمه كل التغير ، ومن ثم يكون كل كائن عضوي في كل لحظة هو ذاته وغير ذاته . الخ الخ » .

وموضع الصعوبة على العقل في التقيد بهذا المذهب أنه لا ينكر الثبات في تكوين الاحياء ولا يقول : انها تتبدل في كل لحظة كل التبدل ، فاذا جاز أن يدان العالم لانه يقرر الثبات في خصائص الوراثة ، فيجوز أن يدان كذلك لانه ينكر الثبات على حسب المصادفات . . لان المسألة تتعلق بالوقت الذي يطول فيه الثبات أو يقصر ، ولا يوجد المقياس الذي يقدر طول زمنه تقديرا محكما في كل بنية حية أو في النباتات التي تأتي فيها التجربة بأسرع النتائج بالنسبة الى الحيوان .

وأنكأ ما في الامر أن الكلمة الفاصلة في العلم على لسان رجل لا يفقه كثيرا ولا قليلا في علم الناسلات . قال الدكتور « هارلاند » العالم البيولوجي الكبير : « ذهبنا في أوديسه لمقابلة شاب يسمى « تروفيم ليسنكو » قال لنا الدكتور « فافيلوف » انه يجري التجارب في الحبوب لتعجيل نموها وتوفير محصولها ، فحادثته ساعات ثلاثا فوجدته على جهل مطبق بأبسط مبادىء الناسلات وتشريح النبات[1] » .

ولا يطعن في الدكتور « هارلاند » بعداوة الشيوعية لانه هو والاستاذ « هلدان » معدودان من علماء الانجليز المتعاونين مع المراجع الروسية .

ولقد دامت هذه المعركة ـ التي لا موجب فيها للعراك ـ زهاء عشرين سنة ، ذهب فيها من ذهب من العلماء ضحية للخلاف على معاني الالغاز والرموز ، ثم

---

١) كتاب روسيا تدير الساعة الى الورا : تأليف لانجدون دافيز
Ruddia Puts the Clock Back by Langdon Davies

ثبت ان النظريات التي يقال : ان الفرق بينها ربين العلم البرجوازي ـ كالفرق بين الامانة والخيانة وبين صدق النية والتدليس ـ لم تأت بثمرة واحدة لا تستفاد من التجارب البرجوازية وأن العلماء المجندين للحملة على العلم البرجوازي لم يجسروا على مخالفة قاعدة واحدة من القواعد التي يجري عليها ذلك العلم البرجوازي في الصناعات الآلية أو صناعات البناء والملاحة والكيمياء وفنون النسيج والتعدين وما اليها ، لان التهريج في هذه القواعد غير مأمون العاقبة على المهرجين وغير المهرجين في حل الرموز وتفسير الالغاز .

ونرجع الى مصدر العلوم جميعا في المذهب المادي ، وهو الحاجة على حسب اختلاف المجتمعات ، فنلمس الاكذوبة كأضخم ما تكون الاكاذيب الملموسة اذ نعلم ان الحاجة في المجتمع الشيوعي لم تعطه شيئا من العلوم يناقض ما أعطت في المجتمعات البرجوازية ، وان اختلاس الاسرار العلمية من المجتمع المغضوب عليه هو السر الاكبر الذي اسفر عنه تطبيق المذهب في المجتمع المثالي ثلاثين سنة .

الأوطان والديانات

والوطنية والدين أحبولة اخرى من احابيل الاستغلال ، ولا مصدر لهما غير الوسائل الاقتصادية ـ أو وسائل الانتاج ـ التي تستولي عليها طبقة بعد طبقة ، ثم تزولان بعد زوال الطبقات . . ففي البيان المشترك يقول الصاحبان : ان الشيوعيين يخالفون هيئات العمال الاخرى بما يأتي فقط :

« أولا » انهم في المعارك الوطنية التي يشترك فيها الصعاليك ـ البرولتارية ـ بين البلاد المختلفة يبرزون علانية وينبهون الى مصلحة الصعاليك العامة جملة واحدة بمعزل عن القوميات جميعا .

« ثانيا » وانهم خلال التطورات التي تمر بها حركات العمال ضد البرجوازيين يمثلون على الدوام ، وفي كل مكان ، تلك الحركات في مجموعها .

وفي ذلك البيان يقولان : « ان العمال لا وطن لهم ، واننا لا نستطيع ان نأخذ منهم ما ليس لهم ».

اما الدين فرأي الماديين فيه تلخصه الكلمة المشهورة في مقالة « كارل ماركس » عن « هيجل »: « انه نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التي لا قلب لها . . انه أفيون الشعوب »: . . ومثلها كلمته في حرب الطبقات بفرنسا اذ يقول : « انه الافيون الذي يخدر الشعب لتسهل سرقته ». . « وان الدين كان وسيلة الاخضاع الروحي كما كانت الدولة وسيلة الاخضاع الاقتصادي ». . وهو رأيه الذي اكده في كلامه عن حروب فرنسا الداخلية .

ويتفق « ماركس » و(انجلز) على أن الدين كما قال « انجلز » في الرد على (دهرنج) .

« ينشأ قبل أن تنهج الوسائل التي يكسب بها الانسان معيشته ، وان الانسان يواجه الطبيعة مباشرة في تلك الحالة فتقف امامه الطبيعة قوة غلابة غامضة يعبد منها مالا يدركه . . وما الدين الا انعكاس القوى الظاهرية التي تسيطر على معيشته اليومية ».

ويقول « ماركس »: « ان المسيخية تقرظ الجبن واحتقار النفس واذلالها ، وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد ».

« وان أصحاب المصالح قد استغلوا المسيحية كلما وجدوا لهم مصلحة في استغلالها ، فجعلوها دين الدولة بعد قرنين ونصف قرن من ظهورها ، وجاء البرجوازيون في المانيا فأبدعوا البروتستانتية ولم يستفيدوا منها لضعفهم فاستفاد منها الملوك المطلقون لانها رفعت عنهم سلطان الكنيسة

« والدين ـ جملة ـ هو الغذاء الخادع للضعفاء ، لانه يدعوهم الى احتمال المظالم ولا يزيلها ».

***

ذلك هو لباب الفكرة الماركسية عن أصل الوطن والدين ، ولهم في كل فكرة من هذا القبيل تتمة يلحقونها بها مؤداها ان العقيدة الوطنية أو الدينية تنشيء لها « تركيبة عليا »[1] من الشعائر والمراسم تعمل في الظاهر مستقلة عن وسائل الانتاج ، ولكنها مشتقة منها متوقفة عليها .

ودينهم المفهوم في تعليل جميع العقائد الوطنية أو الدينية انهم متى وصلوا الى وسائل الانتاج أخذوا كل حالة اقتصادية تصادفهم فجعلوها سببا للعقيدة التي تعاصرها . وقلما يعنيهم ان يذكروا ان النظم الاقتصادية متكررة مشتركة بين جميع الامم منذ عصر الرق الى عصر البرجوازية ثم الصناعة الكبرى ، فكيف يشترك النظام الواحد في تعليل الوطنية التي تعلم الناس الكفاح والانفة وتعليل الدين الذي يقولون انه يعلمهم الجبن والضعة والاستكانة ! وكيف نعلل بنظام

Superstructure (1)

الرق مثلا ديانة توصي باحراق الجسد وديانة توصي بتحنيطه وتخليده في الحياة الدنيا وفيما بعدها ؟ وكيف يسفر الرق في اسبرطة عن الجندية والقانون ويسفر في أثينا عن الحكمة والادب والفن الجميل ؟ . .

وقبل الوطنية كيف نشأت العنصرية وهي تشبهها في نخوة النسب وصيانة الحوزة وقد تزيد عليها بوحدة اللغة ووحدة العرف والتراث ؟ هل هي أحبولة قديمة بليت في أيدي الطبيعة فنبذتها واخترعت الوطنية لتكون احبولة جديدة تحل في محلها ؟ وهل استقام التاريخ على سنة النصب والاحتيال فليس فيه من النظم والعلاقات الا الشرك القديم ينبذه ويحفر بعده موضعا خفيا للشرك الجديد ؟

***

ان دعاة الشيوعية شاهد قوي على صحة قول القائلين ان ملكة الخيال وملكة الفكاهة ضروريتان للبحث الفكري كضرورة الفهم والمنطق والدراية . فقد كان « ماركس » « وانجلز » واتباعهما على فقر شديد في كلتا الملكتين ، ولم يكن لاحدهم نصيب من ملكة الفكاهة ولا من ملكة الخيال ، ولولا ذلك لادركا الصورة المضحكة التي يصوران بها النواميس الكونية وهي تعمل في المجتمع البشري ، فكان لهما من تلك الصورة المضحكة تنبيه يدعوهما الى المراجعة والجد في فهم مسائل الكون ومسائل الاجتماع .

أي صورة للنواميس الكونية في المجتمع البشري يتصورها من يلم بمذهب الشيوعيين في تفسير التاريخ ؟ .

انه يتصور ان هذه النواميس الكونية خلعت ملابس الشغل الشريف وتسلمت التاريخ البشري في زي جديد ، هو زي النصاب المحتال الذي لا يفرغ من خدعة الا ليحتال على خدعة غيرها . . ولا يزال في عملية مستمرة من الخداع والتضليل يموه الحيل والاباطيل بمظاهر التقدم والحضارة ، ويسعده الحظ بالغفلة بعد الغفلة في عقول الناس حتى يخذله الحظ في سهوة من سهواته ، فيظهر له الشاطر « كارل ماركس » من زاوية من الزوايا لم تكن في الحسبان

ويكشف عن زغله للعيان من الآن الى آخر الزمان . .

صورة مضحكة زرية . .

وليس المطلوب من « كارل ماركس » وأتباعه ان يبنوا مذهبهم على الخيال والفكاهة وكفى ، ولكن المطلوب منهم ان يدركوا الصورة المضحكة الزرية فينتهوا الى الخطأ وينتفعوا بهذا التنبه في معاودة البحث واجتناب الهزل والزراية في تصوير النواميس الكونية ، وهي اكبر ما يتناوله العقل الانساني بالتصوير .

ولو قد تنبها لادركا حكمة الخلق التي لا تداري نفسها عن أحد يريد ان يبصرها ، فانها أقرب من تلك اللغة الطويلة وراء عمليات النصب . . ووراء كل سر من أسرار تاريخ الانسان .

ان الوطنية ليست بحيلة من خيل الانتاج لانها خليفة العنصرية وشبيهتها في ظواهرها وبواطنها ، وليست هي - أي العنصرية - من حيلة احد يقصدها أو لا يقصدها لانها علاقة الدم والقرابة التي لا اختيار فيها لخادع أو لمخدوع ، وليس اهزل من مفكر يعمد الى شعور عام بين الناس على اختلاف ارزاقهم ومواردهم فيزعم انه حيلة من مخدوعين يحتالون بها على مخدوعين آخرين . وما كان شعور الوطنية او العنصرية في أمة من الامم وقفا على طائفة او طبقة أو صناعة او هيئة اجتماعية دون هيئة أخرى فيقال انه من اخاديع فريق للعبث بفريق .

أقرب من هذا التفتيش الدائب على عمليات النصب والاحتيال وراء كل سر من أسرار التاريخ ، ان ننظر الى حكمة الخلق في كل بنية حية وكل كيان اجتماعي أو عضوي ، فنرى هنالك أن حكمة الخلق تودع في كل فرد ايمانا قويا بخدمته لمصلحته حين يعمل في خدمة الجماعة أو البيئة التي ينتمي اليها ، وأقوى ما يكون ذلك في خدمة النوع أو خدمة البيئة الحية ، ولو كان خدامها من الاعضاء التي لا عقل لها ولا ارادة . . من الذي يخدع اليد فيرفعها الى الرأس لتتلقى الضربة التي توشك ان تحطمه . .

من الذي يخدع الخلايا في باطن الجسد فيدفعها الى التجمع لوقاية البنية كلها من فتك الجراثيم ؟

من الذي يخدع الفرد فيشيع في بنيته السرور بحفظ النوع ويشيع في بنيته الصبر على مضانك الحمل والرضاعة والتربية ؟ .

هذه هي حكمة الخلق في شعور الفرد بمصلحة الجماعة وشعور الجزء بمصلحة سائر الاجزاء ... هذه هي الحكمة التي تخلق لكل بنية اجتماعية ضربا من « الانانية » الكبرى تقترن بالانانية الفردية لتعمل في خدمة الجماعة كما تعمل في خدمة الفرد على حدة .

فكلما وجدت جماعة من الخلق وجدت معها « شخصية » أو أنانية كبيرة تصونها وتوكلها بالحفاظ على نفسها، كما توجد « الانانية » في كل مخلوق لحماية نفسه ومقاومة العوامل التي تنازعه البقاء من حوله . .

سنة الخلق في خلايا البنية ، سنة الخلق في أفراد النوع ، سنة الخلق في آحاد القبيلة او العنصر او الوحدة الوطنية ، سنة قريبة جد قريبة لمن يشاء ان يبصرها حيث استدار بنظره اليها ، ولكنها بعيدة جد بعيدة عمن ينظر الى كل وجهة فيأبى ان يرى شيئا غير النصب والاحتيال في قواميس الكون وقوانين الاجتماع وأسرار التاريخ .

***

ان الجماعات البشرية لم تخل قط من شعور كشعور الوطنية منذ عهد القبيلة الاولى . . ونحن نعرف شعور المصري الذي كان يؤمن بمقام المصري في المرتبة الاولى بين مراتب الاجناس البشرية ، ونعرف شعور العربي الذي كان يفخر على الاعاجم ويصف بالاعجمية كل من لا يتكلم العربية ، ونعرف شعور اليوناني الذي كان يطلق وصف البربرية على كل امة لا تنتسب الى القبائل اليونانية ، ونعرف فخر الروماني بالمدينة الخالدة واعتباره النسبة اليها ذروة المرتقى في الشرف والكرامة . وهذا الشعور في كل جماعة من هذه الجماعات هو الحافز الذي كان ينهض بكل فرد للدفاع عن « شخصيته الكبرى » التي ركبت في طبعه الى جانب الشخصية الفردية ، وما كان هذا الشعور بدعة في طبائع الجماعات والكائنات العضوية ، فاننا نرى أصوله عميقة مكينة في غريزة

النوع وفي تركيب الخلايا الجسدية وتركيب الاعضاء التي تتحرك لدفع الخطر عن البنية كلها ولو أصيبت بأخطر ما يصاب به العضو على انفراده . . وما أقرب هذا التفسير لمن يبحث عن التفسير ! وما ابعده عمن يبحث عن « عملية النصب والاحتيال » وراء نواميس الكون وصروف المقادير !

***

أما الدين فلو كان لـ « كارل ماركس » نصيب من خيال التشبيه لما خطر له أن يشبهه بشيء من المخدرات او المسكرات ، اذ كانت الاديان جميعا تقوم على الايمان بالجزاء والثواب والعقاب ، وتعلم المتدين ان يحاسب نفسه على تبعات أعماله لانه محاسب عليها في السر وفي العلانية ، وتغرس في نفسه عادة الاحترام والتقديس وتحذره القحة وسوء الادب . وهذه العقائد كلها هي وحالة السكر نقيضان لا يجتمعان ، واول ما يسقطه السكر عن المخمور أو المخدر شعوره بالتبعة وشعوره بالاحترام ، فلا يبالي عاقبةعمله ويتطاول على العظماء في نظره ، وتكاد تكون الكلمة الاولى على لسان كل سكران : أنا لا يهمني شيء . . أنا لا أبالي بانسان !

ومن عجز الخيال أن يختار « ماركس » للدين تشبيها لا يصدق على عقيدة قط كما يصدق على عقيدة الشيوعية ، لان الشيوعية تروج بين الذين يسقطون التبعة عن انفسهم ويلقون أوزار الجرائم والرذائل على المجتمع ، وتمهد العذر للسراق والجناة والمنافقين بما تتهم به المجتمع من الرياء والظلم وسوء التصريف والتدبير ، وتعطي كل من يشتهي التطاول حجة للتطاول على المحسودين او للتطاول على ما يشاء من الحرمات والمقدسات . وما من سبب يغري بتعاطي المخدرات والمسكرات الا كان من المغريات بالشيوعية على حد سواء ، فحيث توجد الاسباب للاقبال على السكر توجد الاسباب للايمان بالشيوعية على السواء .

ومن عجز الشعور ـ لا من عجز الخيال وحسب ـ ان يسوي الماركسيون بين الفرائض العامة التي يدين بها المرء في حياته الاجتماعية ، ولا مساواة بينها في الحس ولا في الفكر ولا فيما يقصده من معناها .

من عجز الشعور ان يسوي الماركسيون بين فرائض العرف والعادة وفرائض القانون وفرائض الاخلاق وفرائض الدين ، وما من فريضة من هذه الفرائض تقع في النفس موقع الفرائض الاخرى أو تنبعث في أعماق الضمير من حيث تنبعث الاخرى .

من عجز الشعور أن يقال : ان هذه الفرائض المتعددة تصدر من اسباب اجتماعية أو نفسية واحدة ، اذ لا معنى لتكرار هذه الفرائض في كل امة لتقوم بغرض واحد وتخرج من مصدر واحد ولو حدث هذا اتفاقا في بيئة واحدة لامكنت نسبته الى المصادفات او الفلتات التي لا يقاس عليها ، ولكن فرائض العرف وفرائض القانون وفرائض الاخلاق وفرائض الدين تتكرر في كل بيئة ولا تغني احداها عن سائرها .

فالانسان يتبع العادة اتباعا آليا يكاد يخرج من عداد الاعمال الارادية ، ويقال عن العمل انه جرى بحكم العادة ليقال انه غير مقصود وانه لم يصدر عن روية وتقدير . ويصح ان ترجع العادات في جملتها الى التقليد المرعي في البيئة الاجتماعية المحدودة ، وان ضاق نطاقها كما يلاحظ في العادات التي تختلف بين اقليم واقليم وبين قرية وقرية .

وفرائض القانون يتبعها الانسان بمشيئته ، ويروغ منها احيانا اذا استطاع لانها تفرض عليه برأى « السلطة » ولا يؤمن بصحتها او انصافها في جميع الاحوال .

وفرائض الأخلاق يتبعها الانسان ويخجل من مخالفتها لانها في الغالب منوطة بكرامته الانسانية التي تعم كثيراً من الامم والبيئات ، ولا يحس انها صادرة من السلطة أو انها مقيدة بعشيرة واحدة . . ولا نحسبها كانت على غير هذه الصفة حتى في الازمنة الاولى التي كان وازع الاخلاق فيها مقصورا على عشيرة واحدة غير ملزم لابنائها في معاملتهم للعشائر الاخرى . فهذه العشائر الاولى أيضاً كانت تؤمن بأن الاخلاق من كرامة الانسانية ، ولكنها كانت ترى ان الانسانية المثلى صفة من صفاتها دون سواها ، وأن العشائر الاخرى لا تستحق رعاية الاخلاق لانها لا تستحق كرامة الانسان .

هذه الفرائض يمكن ان يقال : انها من وحي البيئة المحدودة أو انها من وحي الامة والدولة أو انها من وحي الانسانية في بيئاتها المختلفة . . وكل هذا لا يمكن ان يقال عن الدين فيحيط به ويستغرقه ويفسر جميع بواعثه واسراره في المجتمع أو في الضمير .

انما يفسره بعض التفسير انه يقوم على علاقة الانسان بالكون كله لا بالنوع الانساني ولا بالامة او البيئة الخاصة ، وأنه يلتمسه لانه يلتمس معنى حياته ومعنى الوجود الظاهر له والمغيب عن حسه وعقله ، وقد يناقض الاعتقاد الديني في بعض الملل غريزة البقاء في نوع الانسان ، وقد يثير المتدين على قومه وعلى عشيرته الاقربين ، وقد يوقع في روعه ان الخلاص في الخروج على وحي العرف المحدود ، ووحي القانون ، ووحي الاخلاق ، المصطلح عليها . .

ومن الجهل بطبيعة الشعور الانساني أن يقع في الظن ان صاحب الثروة يستغني عن هذا الشعور الديني ، ويستغني عن فهم معنى حياته ومعنى الوجود المحيط به ولا يحتاج الى الدين الا ليضلل به المحرومين ويستعين به على الكسب والاستغلال .

وأجهل من ذلك ان يقال : ان الانسان يتدين لانه ضعيف بين نواميس الكون وقوى الوجود . . فهذا كلام من قبيل تحصيل الحاصل لانه يمنع تفسير الدين على وضع من الاوضاع ، فلن يكون الانسان على حال من الاحوال الا ضعيفا بين نواميس الكون وقوى الوجود . فكيف ندرك الحقيقة اذن في حقيقة الدين ؟ هل نرجعها الى اليوم الذي تنقلب فيه الآية ، فيصبح الكون اضعف من الانسان او يصبح الكون مهملا في نظره لا ينطوي على سر من الاسرار .

على ان الضعف الانساني لا يصلح للاحاطة بتفسير الدين الا اذا كان الضعف اغلب الصفات على أصحاب الضمائر الدينية ، وليس هذا من الحقائق التي تؤيدها المشاهدة والتجربة ، لانه يناقض المشاهدة والتجربة في كثير من الاحوال ، فلا يكون الدعاة الدينيون الا من أقوى الاقوياء واعظمهم نفوسا

وأقدرهم على الارادة والمضاء .

***

وسائل انتاج . . وسائل انتاج . . لا شيء ولا أول ولا آخر غير وسائل الانتاج . . دين ، وطنية ، علم ، فلسفة ، أدب ، فن ، اخلاق ، أسرة ، زواج ، رهبانية . . كل هذا تبحث عنه في وسائل الانتاج ولا تبحث بعده عن شيء غير وسائل الانتاج .

ان الرجل الذي يفسر جميع الامور بارادة الله مفهوم من الوجهة العلمية لانه يؤمن بأن الله هو السبب الاول لجميع الاسباب ، ولا مناقضة للعلم في الرجوع بالاسباب طرا الى أصلها الاصيل .

أما الذي لا نفهمه من الوجهة العلمية ، فهو وسائل الانتاج التي لا تفسر لنا شيئا لانها تفسر كل شيء بلا استثناء . . ولو كان من شأنها أن تفسر كل ما تدعي تفسيره لوقفت بنا في منتصف الطريق حين تقول لنا مرة ان وسائل الانتاج هي التي تنشىء الطبقة ، وتقول لنا مرة اخرى ان الطبقة هي التي تنشىء وسائل الانتاج ، وتقول لنا في جميع المرات ان علاقات الانتاج هي المهمة وليست هي الآلات والمخترعات والموارد والنفقات .

***

وانه لمن المألوف قديما وحديثا أن نسمع أن الاغنياء يستمتعون بمحاسن الطبيعة ، وجمال النساء ، ونفائس الجوهر ، لانهم يملكون المال الذي يشارفون به بهجة الربيع ومناظر الاودية والبحار ويغرون به المرأة ويقتنون به ذخائر الاحجار الكريمة . . الا انه من السخف ـ اهزل السخف ـ أن يقول قائل من أجل ذلك ان أصحاب الثروة هم الذين خلقوا الربيع ، وخلقوا جمال المرأة ، وخلقوا كنوز المناجم والبحار ، لانهم يملكون المال أو يملكون وسائل الانتاج . . وانه لأسخف من ذلك ان يقول قائل : انهم خلقوا الاديان والعقائد في المجتمعات لانهم يشترون ضمائر الادعياء من المتدينين . . فان محاسن الطبيعة والنساء لا تنكر الثروات الضخام ولا تحيطها بالريبة والوعيد ،

ولكن الاديان جميعا تنحي على جشع الثروة وتستريب بمن يجمع منها مالا طاقة له بتحصيله بوسائل الربح الحلال ، وهذه هي الاديان الكتابية الثلاث تسمعنا نعوتا للثروات الضخام وأحكاما على أصحابها اقل ما يقال فيها انها ليست من أقوال المحاباة والاستحسان .

فشريعة موسى عليه السلام قد شرعت لقوم من أحب خلق الله للمادة ومتاعها فحرمت عليهم الربا والرهن ، وجاء في سفر الخروج من العهد القديم الذي يدينون به :

« ان أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي ولا تضعوا عليه ربا . وان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده له لانه هو وحده غطاؤه » وتكرر هذا في سفر اللاويين حيث يقول الاصحاح الخامس والثلاثون : « واذا افتقر أخوك وقصرت يداه عندك فأعضده غريبا او مستوطنا فيعيش معك . لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل اخش الهك فيعيش أخوك معك ». . وسبق هذا التحذير تحذير من الاستئثار ربما يشتريه صاحب المال ، فجاء في الاصحاح الخامس والعشرين « أن الأرض لا تباع بتة لان لي الارض وأنتم غرباء ونزلاء عندي . . بل في كل أرض ملككم تجعلون فكاكا للأرض . . اذا افتقر اخوك فباع من ملكه يأتي وليه الاقرب اليه ويفك مبيع اخيه ، ومن لم يكن له ولي فان نالت يده ووجد مقدار فكاكه يحسب سني بيعه ويرد الفاضل للانسان الذي باع ».

وفي سفر أشعيا نذير بالويل لمن يجمعون المال والعقار « فالويل للذين يصلون بيتا ببيت وحقلا بحقل[1] ». . « ومن أنفق نفسه للجائع وأشبع الذليل اشرق في الظلمة نوره واصبح كالظهر خلا من الدامس[2] ».

ويعقب المعقب على هذه الوصايا - حقا - بان الاخلاف من قوم موسى فهموا

---

(١) الاصحاح الخامس
(٢) الاصحاح الثامن والخمسون

منها أنها مشروعة لشعب اسرائيل دون غيره ، أو يعقبون عليها ـ حقاً ـ انها لم تسمع ولم يعمل بها اولم يكن العمل بها الا على الرياء والمواربة . فلا هذا ولا ذاك يثبت شيئا مما يقوله الماركسيون عن اصل الاديان ، اذ يزعمون انها من صنع الاغنياء لمحاباتهم وتسويغ سلطانهم . . لان قصور العقائد الدينية كقصور الثروة في كل زمن عن بلوغ ما تصبو اليه . . فلا رياء الاغنياء للدين بمبطل حقيقة المال ، ولا رياء المتدينين للمال بمبطل حقيقية الدين ، وليس انتفاع الغنى بمداراة العقائد الدينية حجة للقائل بخلق الثروة للعقيدة ، ولا انتفاع المعتقدين بمداراة المال حجة للقائلين بخلق العقيدة للثروة ، وانما يدل هذا وذاك على حقيقة واحدة : وهي ان وسائل الانسان جميعا لا تبلغ به كل ما يصبو اليه ، وانه لا يعلن كل ما يبطن في جميع الاعمال والنيات .

***

وقد اسلفنا أن الشريعة الموسوية شرعت لقوم من أحب خلق الله للمادة ومتاعها ، فلم يكن فيها ما يعزز قول القائلين أن الاغنياء يروجون العقائد في المجتمع لتسويغ مطامعهم واستباحة ما لا يباح . ثم جاءت المسيحية على اثر الموسوية ، فكانت في صميمها حملة على الثراء أو ثورة على ملكوت الارض من اجل ملكوت السماء ، وآيتها أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني الى ملكوت السماء ، وادبها بعد ادب السيد المسيح مشروح في وصية يعقوب من الاصحاح الثاني حيث يقول :

« ان دخل الى مجمعكم رجل بخواتم الذهب في لباس بهي ودخل معه فقير بلباس وسخ فنظرتم الى اللابس البهي وقلتم له : اجلس انت هنا حسنا . وقلتم للفقير : قف أنت هناك أو اجلس هنا تحت موطىء قدمي فهل لا ترتابون في انفسكم وتصيرون قضاة افكار شريرة ؟ . . اسمعوا يا اخوتي الاحباء . . اما اختار الله فقراء هذا العلم اغنياء في الايمان وورثة الملكوت الذي وعد به الذين يحبونه ؟ أما انتم فأهنتم الفقير . . اليس الاغنياء يتسلطون عليكم وهم يجرونكم الى المحاكم ؟ ».

ان معظم ما وعته الاناجيل الباقية والكتب الملحقة بها يوافق هذه العقيدة وهذا الادب الديني في مواجهة الفقر والغنى . . فمن الهذيان الا تعلل الديانة المسيحية في نشأتها او في تطورها الا بالعلة البيغاوية التي يحفظها الماركسيون كلما عللوا الظواهر الاجتماعية ، فردوها جملة واحدة الى خدمة مصالح الاغنياء . . ولو كان امامنا مائة تعليل لنشأة دين كالدين المسيحي ، لجاز أن يقبلها العقل على علاتها قبل أن يسيغ القول بأن المسيحية اختراع الاغنياء لترويض الفقراء ، ولا بد أن نبتعد من هذا التعليل مراحل شاسعة حين نعلم ان الغني المسيحي يؤمن بدينه كما يؤمن به الفقير المسيحي ، ولا يشعر لمحة عين بأنه مذهب مخترع على قصد منه لخداع الفقراء وتسخيرهم في خدمة دنياه . . ومن خطر له هذا الخاطر من الاغنياء فقد يماثله اناس من الفقراء ينحرفون بهذه المظنة عن الدين كما ينحرف عنه اصحاب الاموال .

وليس مما ينقض الرأي الصواب في نشأة المسيحية ان تراد لمقاومة اغراء المال ثم يستطيع اصحاب المال أن يحتفظوا بالقدرة على الاغراء ، فان المضروب الذي لا يقتله السكين ويلويه على الضارب لا يقال عنه من أجل ذلك انه هو الذي صنع السكين ليضرب به ويلويه على ضاربه ، وما يقوله الماركسيون بهذا المعنى فانما هو أضحوكة لا تقل عن هذا الضرب من الاضاحيك .

لا جرم يصطدم الهذيان الماركسي الذي يسمونه علما بالحقائق التاريخية وبالواقع من تجارب الماركسيين في دولتهم بعد الحرب العالمية ، فيعاد النظر في تعليل نشأة المسيحية ويتراجع الدعاة شيئا فشيئا عن التفسير الماركسي المحفوظ الى تفسير آخر يحاول اصحابه أن يوفقوا بين التاريخ كما حدث وبين فلسفة التاريخ على مذهبهم ، ويلم بهذا الموقف الجديد « تيماشيف » صاحب كتاب « الدين في روسيا السوفيتية » اذ يقول في الفصل الذي كتبه عن السياسة الجديدة : « ان الحزب الشيوعي كان على خطأ في رأيه عن اصل المسيحية . وكانت هناك نظريتان : احداهما نظرية الاستاذ « ويبر » الذي يقول بأن المسيحية من نشأتها ديانة استغلال ومستغلين ، والاخرى نظرية الاستاذ

« كوتزكي » الذي يرى أن المسيحية تخلص من الشقاء وانها في نشأتها ديانة أرقاء وشوق الى الحرية . . وعندهم أن المسيحية كسائر الديانات أفيون للشعوب ، ولكن لا بد من بيان السبب الذي كفل لها النجاح ، وهذا السبب هو انها حركة دينية جديدة لا تسمح بالتمييز بين الاجناس والاقوام ، وتهيء الطريق لنظام جديد في الزواج وتعترف بكرامة الانسان الخالص وبالمساواة بين الناس على تفاوت طبقاتهم . . وقد كانت الثورة على الاحوال الاجتماعية هي قوام الدين بين المسيحيين الاول وكانت جماعاتها الاولى ديمقراطية ، وطرأ على المسيحية بعد ذلك طوارىء شتى ولم تزل بعدها محافظة على كرامة المثل الاعلى . . ولا نكران لما قامت به المسيحية من المساعدة على التقدم بالمقابلة بينها وبين الديانات ، فانها جاءت بأفكار جديدة وقواعد يبنى عليها مجتمع جديد .

« وبعد أشهر قليلة أقرت جماعة الالحاد المجاهدة مقترحات « رانوفتش » واذاعتها في منشور موجه الى دعاة الالحاد قالت فيه : « ان المسيحية لا ينبغي أن تجعل كأنها صورة موحدة مع نظام رأس المال ، فان المسيحيين الاول لم يكونوا أغنياء ولم يكن من دأبهم تعظيم الثروة . . ».

***

ان بعض هذا الاجتراء على الشك في « العقيدة » الماركسية ، كان في السنوات الاولى لقيام الدولة الشيوعية بمثابة جريمة للخيانة العظمى التي يعاقب عليها بالموت والتشهير . . ولو أن العلماء النظريين الذين فسروا الدين هذا التفسير قد اجترأوا على العقيدة الماركسية هذه الجرأة مبتدئين بالرأي من عند أنفسهم ، لكان أسعدهم حظا من ينفى الى مجاهل سيبريا او ينبذ من المجتمع ليقضي بقية حياته في عزلة الخمول . . الا أن العلماء النظريين في النظام الشيوعي لا يقدرون على مثل هذه الجرأة ، ولا يكون اقدامهم عليها الا دليلا على الايعاز الخفي أو التحول الصريح في « تفكير » الدولة برمتها . . وقد كانت هذه النظريات تنشر ورئيس الدولة « كالينين » يخطب في مؤتمر المعلمين ليقول :

« ان التعليم بالروح الماركسية ينبغي الا يفهم منذ الآن كأنه تعليم القضايا الماركسية . بل ينبغي ان يراد به بث عاطفة الحب للوطن الاشتراكي وتنمية الصداقة والزمالة والانسانية وفضائل الامانة والتعاون في العمل » . . وخطب في مناسبة اخرى فقال : « ان هدم الدين بغير نظر فيما يخلفه لا يجدي ، وان « لينين » كان يرى ان المسرح سوف يحل في المجتمع المقبل محل الدين » .

ولما قررت الدولة اجازة يوم رسمي في الاسبوع ، كان من مقترحات « المؤمنين » ان يختار يوم الاثنين أو الاربعاء او يوم من الايام غير يوم الاحد فأعرضت الدولة عن هذه المقترحات وقررت يوم الاحد دون غيره وعهد الى الاستاذ « نيكولسكي » ان يكتب بحثا في هذا الموضوع ينشر في مجلة العصبة لاقناع شبانها بصلاح هذا اليوم دون غيره لاجازة الاسبوع .

ولم يحدث هذا التحول منذ عشرين سنة الا بعد حبوط العقيدة الماركسية في دور التعليم وفي الاندية والمعاهد والمجتمعات التي أقيمت لنشر الالحاد وصرف الناشئة عن التربية الدينية . . فحرمت الدولة في السنوات الاولى تعليم الدين للتلاميذ الصغار . . وأوجبت تعليم المذهب الماركسي للطلاب المتقدمين في الدراسة ، وأرسلت المبشرين الى الاقاليم يسفهون الاديان جميعا وينعتونها بنعوت الجهل والخداع والاستغلال ، وتجسم في حملات هؤلاء المبشرين غباء الغبي وجحود الجاحد مجتمعين . . فانه من المفهوم أن يلحد الملحد لأنه عرف الدين الذي مرق منه وعرف الالحاد كما تراءى لعقله . . وأما الالحاد المفروض على من لا يعرفه ولا يعرف الدين ، فذلك هو غباء التقليد الاعمى في الجحود وفي الدين .

وقد كان دعاة الالحاد ممن جمعوا الغباوتين فتدينوا وهم يجهلون ، وألحدوا وهم لا يعلمون ، وروت صحيفة « العصبة الملحدة » في عددها الثاني سنة ١٩٣٩ ان مبشرا « الحاديا » ألقى محاضرة على جماعة من الكيميين فخلط بين

---

(١) عدد ١١ ابريل و١٣ يوليه ١٩٣٩ م من مجلة عصبة الشبان الشيوعيين . Komsomolskaya Pravda

الترك والايرانيين ، وعقد المقارنة بين المسيحية والملة الكاثوليكية الرومانية كانهما ديانتان منفصلتان ، وعقبت الصحيفة على ذلك محذرة من اختيار هؤلاء المبشرين من زمرة الاميين وأشباه الاميين . وقد نشرت « صحيفة المعلمين » في عددها الثالث والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٨ أن التلاميذ الذين أبعدوا كل الابعاد من تعليم الكنيسة هم أشد تلاميذهم تعلقا بالتمائم والتعاويذ ، واكثرهم اقتناء للاحجبة والرقى التي يتوسلون بها الى النجاح . وقالت صحيفة « برافدا » في عددها العشرين من أغسطس سنة ١٩٣٩ ان بعضهم يحسب أن الجيل الجديد يرفض الخرافات وهو في الواقع يتعلق بها ويصدقها ، وقالت صحيفة « المعلمين » التي سبقت الاشارة اليها في أعداد متفرقة في سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٣٩ ان الشبان يحتالون بالتمائم لاستهواء قلوب معشوقاتهم ، وان عاملا كتب الى الصحيفة يسألها أن ترشده الى « ساحر » أمين يستشيره فيما يعنيه .

***

وعلى هذا النحو حار دليل الوحي الماركسي عند أول موضع قدم ، وضلت العقيدة الراسخة الخالدة قبل أن تفارق باب المحراب .. وهي هي العقيدة الراسخة الخالدة التي لا يجوز أن تتزعزع ، ولا يسمح لعقيدة أو فكرة غيرها ان تفسر شيئا من أسرار الماضي وخبايا المستقبل في مسائل الدين على الخصوص .. واضطر سدنة المحراب أن يخرجوا للوحي المنزل ترجمة بعد ترجمة ليصححوا خطأه لا ليهتدوا بهديه في مسالك الغيب المحجوب ، ووجب عليهم أن يفسحوا الطريق للديانة التي سموها أفيون الشعوب وقالوا عنها انها وضعت لتخدير المساكين وترويض المتمردين .. فاذا هي على الطرف الآخر ثورة جائحة من المساكين والمتمردين على طغيان أصحاب الاموال والعروش ..

ومن سخرية القدر أن تبتلى العقيدة الماركسية بالتحريف والتبديل في بضع سنوات ، فلا تدري كيف تعلل ما أصابها كما عللت ما أصاب جميع المبادىء التي انحرفت عن سوائها بعلتها الوحيدة التي لا تدري علة سواها ، وهي ان

المجتمع يسخر المبادىء ويطوعها لخدمة رؤ وس المال كي يستديم لها الربح الفائض والسيادة الغالبة . . فاذا لم يكن هناك استغلال ورؤ وس أموال ، ، فلا موضع لتحريف المبادىء عن سوائها ولا متسع في الغقل والضمير لغير الفلسفة الماركسية على استقامتها .

وقد منيت عقيدة العقائد بالتحريف والتزييف بين أناس يكفرون برأس المال كما يكفرون بالاستغلال ، ولم ينقض من الابد الطويل الذي سنطبق عليه فلسفة الماركسيين اكثر من عشر سنين عند ابتداء ذلك التحريف والتزييف . فاذا تواضعنا بالابد الابيد فهبطنا به الى مليون سنة ، فالى اين يا ترى ينتهي التغيير بالعقيدة الراسخة الخالدة التي لا تقبل التغيير في المدى الطويل بله المدى القصير . .

وجاء الامتحان الاول للعقيدة الراسخة الخالدة أيام الحرب العالمية الثانية ، فنادى الكفار بالوطنية وبالدين انها حرب الغيرة الوطنية ، وأن المجاهدين أحرار في العقيدة الدينية التي يسرونها أو يعلنونها ، ولم يكن جيل القيصرية هو الذي ألجأهم الى التمسح بالوطنية أو بالحمية الدينية فيقال انه قديم شبوا عليه وشابوا فلا مندوحة عنه في ابان المحنة الداهمة ، بل كان الجنود المقاتلون في الصدمة الاولى من جيل بين العشرين والاربعين . . اكبرهم لم يزد على الثالثة عشرة عند قيام الدولة الشيوعية ، وتسعة اعشارهم على الاقل لم يتعلموا حرفا في غير مدارسها ولم يستمعوا كلمة من غير دعائها . ولا تفسير لاستفزازهم بنخوة الوطن وحمية الدين الا انه افلاس للمذهب المادي في تكوين المجتمع وغرس الاخلاق في نفوس لم يزاحمه عليها مزاحم من المهد الى مقتبل الشباب .

***

وبعد فهذا فصل عن تفسير الفلسفة المادية للعقائد الدينية لم نرد به تفسير الاديان ولا الموازنة بينها . . ولكننا نؤ دي ما أردناه به حين نتبين قصور تلك الفلسفة عن تفسير نشأة الدين في المجتمع وفي النفس البشرية ، بالقياس الى

الفرائض الاجتماعية العامة كفرائض الشريعة وفرائض العرف والعادة وفرائض الاخلاق والآداب ، وأوضح ما يكون القصور في هذه الفلسفة حيث تعرض لسريرة الانسان وعوامل الحياة الاجتماعية التي لا تحيط بها كلمة « المال » او كلمة الانتاج .

وقد عرضنا في ختامه لتطبيق التفسير المادي على الاديان الكتابية ، فتناولنا الكلام على اليهودية وعلى المسيحية ولم نعرض بعد للاسلام لاننا سنخصه بفصل مستقل يدعونا اليه أمران . . أولهما أننا نحن مطالبون قبل غيرنا ببيان الحقيقة عن الاسلام في هذا الموضوع ، والآخر أن الاسلام يدحض الفلسفة الماركسية عن نشأة الدين في كل رأي ذهبت اليه ، ولا يدحضها في معرض الكلام على رأي منها او رأيين . . ولهذا يهم الباحث المستقل بيان وجهته لانها تحتمل تفصيلا في البحث لا يحتمله بيان الحقيقة عن سائر الاديان .

الشيوعية والاسلام

الاسلام والشيوعية

اطلع « ماركس » و « انجلز » على بعض مراجع « الانثروبولوجي »ـ علـم الانسان التي تكلم أصحابها عن عبادات القبائـل الاولـى ، لانهمـا يستـدلان بأحوال المجتمع في تلك القبائل على سبق النظام الشيوعي البدائـي ـ لنظـام الملك الخاص والطبقة المستأثرة بوسائل الانتاج . ولكن لا يظهر من كلامهما على الاديان الكبرى أنهما توسعا في الأطلاع عليها ، ولا يظهر من كلامهمـا العاجل عن الاسلام والمسلمين أنهما اطلعا على قواعد الاسلام كما يفهمها من يتصفح القرآن الكريم والاحاديث النبوية ، فضلا عن أقوال الائمة والحكماء الاسلاميين .

وقد قلنا في ختام الفصل السابق اننا مطالبون بافراد القول عن الاسـلام في مذهب الشيوعيين ، لاننا أحق من الكتاب الغرباء عنه بجلاء الشبهـات التـي يوردها عليه من يجهلونه او يسيئون النية في تصوره وتصويره . . ونزيد على ذلك أن دراسة الشيوعية في آرائها عن الدين خاصة تستوجـب دراسـة الـدين الاسلامي قبل غيره من الاديان العالمية الكبرى ، لانه يتضمن وحـده معظـم الشواهد التي تدحض آراء الشيوعيين في نشـأة الـدين ، ولان الاسـلام نظـام اجتماعي الى جانب عقائده وشعائره الدينية . . ونظرة الشيوعيين اليه في دور تطبيق المذهب الشيوعي على الخصوص كنظرتهم الى مزاحم خطير يخشون منه ان ينازعهم السلطان على عقـول الامـم وضمائرهـا في مسائـل الاخـلاق والمعاملات ، مع ما يوحيه الى العقول والضمائر من ايمـان وثيق لا طاقـة به لفلسفة الحياة كما يبسطها الماديون .

فعلى صفحات وجه هذا الدين الحنيف ـ ولا ايغال في اعماقه بعد ـ حجـة

ناهضة لا تنهض معها حجة للذين يزعمون أن الدين خدر للشعوب يروضها على الفقر والمسكنة ، ويلهيها بالآخرة عن نعيم الدنيا ليستأثر به سادة المجتمع ويغتصبوا منه علانية ـ أو يسرقوا منه خلسة ـ ما طاب لهم أن يغتصبوه أو يسرقوه .

فالاسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، ويعيد عليه هذا الامر في آيات متعددة من القرآن الكريم .

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

(لا تحرموا طيبات ما أحل الله) .

(يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الارض حلالا طيبا) .

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض) .

وليس من الاسلام أن يتجرد المسلم من زينة الدنيا ليقبل على الآخرة ، بل هو مأمور بأن يأخذ نصيبه من الزينة وهو بين يدي الله ، وأن يعد زينة القوة من نعمه التي يشكره عليها :

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) .

ولم يخطر لعدو من أعداء الاسلام أن يتهمه بتحسين الجبن والاستكانة لاتباعه ، بل خطر لهم أن يصفوه بنقيض ذلك ويبالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه انه دين السيف أو دين القتال .

ولا مبالغة في وصف الاسلام بهذه الصفة إلا أن يكون معناها عند قائلها أن لاسلام يعرف السيف ولا يعرف غيره ، او أنه يضع السيف في غير موضعه ،

ويبطل الحجة والبرهان جهلا بها حيث لا موضع للغلبة والاكراه .

وليس السيف من شريعة الاسلام بهذا المعنى ، فقد كان الاسلام مبتلى بسيوف أعدائه قبل أن يكون له سيف يذود به عن نفسه . . ولم يأمر الاسلام قط بتجريد السيف عدوانا على أحد ، ولم يجرده قط في سبيل الدعوة الا ليحارب به قوة تقاوم الدعوة بالسيف ، فحارب الدولة البيزنطية والدولة الفارسية لان الخلاف بينهما لم يكن خلافا على الحجة والاقناع . . وفعل ذلك بعد ابراء الذمة من دعوة العواهل المتحكمين في بيزنطة وفارس الى الكلمة السواء . . فلما أعرضوا عنه وتوعدوه وحالوا بينه وبين اسماع الناس جرد عليهم السيف اذ لا محيص له من تجريده ، وكان الاحتكام الى السيف هنا كأشرف ما يكون الاحتكام اليه في قضية من قضايا الدنيا أو الدين

وأصدق ما يقال عن الاسلام في أمر السيف أنه يأمر بالسيف لانه ينهى عن الجبن وينهى عن العدوان ، ولم يأمر به ليوضع في غير موضعه أينما كان .

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) .

ومقاتلة البغي واجبة على المسلم كلما اوجبتها الضرورة في صد العدوان من الاجانب عنه أو في صد العدوان بين طائفة وطائفة مثلها من المسلمين :

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) .

والمسلم فيما دون الحرج الذي يوجب القتال لا يعفى من اصلاح السيئات التي يؤمر باجتنابها ، اذ هو مطالب بتقويمها اذا استطاع بيده . . فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان . ومن الواجبات الاجتماعية المفروضة على الجماعة في الاسلام أن يكون منها آمرون

بالمعروف ناهون عن المنكر ، يتولون عنها هذه الفريضة التي لا تنساها جماعة انسانية الا بادر اليها الفناء . . (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وما هلكت الدول كما جاء في الكتاب الكريم الا لانهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) . وقد حق الهلاك على المستضعفين لانهم يعتذرون بالضعف ، وهم قادرون على النجاة بأنفسهم من الخضوع للسادة المتحكمين فيهم : (قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) .

ومهما يتعنت صاحب الهوى في توجيه الكلمات ومعانيها ، فما هو بقادر على أن يتخذ من أوامر الاسلام حجة لتسخير المجتمع في خدمة أصحاب الاموال أو القابضين على وسائل الانتاج ، كما يقول المفسرون الماديون للاديان . . فقد كان السادة في الجزيرة العربية يربحون من الربا المضاعف ومن احتكار التجارة ، فجاء الاسلام بتحريم هذا وذاك أشد التحريم (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

وقال عليه السلام : « من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

ويمنع الاسلام الاحتيال بالمتاجرة بالاعيان سترا للربا الذي يحرمه ، وفي ذلك يقول عليه السلام : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » .

ومن الاحتكار الممنوع أن يجتمع المال في أيدي طبقة من الامة « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » .

ومن المحتكرين من يكنزون الذهب والفضة والقناطير المقنطرة (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) .

فاذا قيل عن هذه الاوامر والنواهي انها خدمة لاصحاب الاموال وتيسير لاستغلالهم أرزاق الفقراء فليس للكلام من معنى يقبله العقل أو يأباه .

ولم يكن في سنة الاسلام ان يبيح لمنكر أن يقول كما قيل كثيراً ان الشرائع انما توضع للفقراء ولا تسري على الاغنياء . . فقد كانت التفرقة بين الناس في الحدود أشد ما حظره النبي وحذر منه قومه ، وكان ممن وجب عليهم الحد في حياته عليه السلام سيدة من أسرة مخزومية فشفع لها عنده أسامة بن زيد ، فزجره وقام في الناس خطيبا فقال : « انما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ولنا ـ بعد ـ أن نمتد بأطراف البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الاسلام الى أقصى تخوم الجزيرة العربية ، فلا نرى في هذه البيئة الكبرى حجة لمن يقول ان الدين ينشأ في البيئة لخدمة سادتها واستبقاء سيادتهم عليها . . فقد كان سادة العرب على خصلة لم يشتهروا بخصلة اشهر منها ، وهي الكبرياء بالنسب والعصبية العربية . .

كانوا فيما بينهم يفاخر بعضهم بعضا بعراقة الاصول والاجداد ، وكانوا في جملتهم يفاخرون الامم بالنسبة العربية ويسمونها الاعاجم كأنها كانت عندهم خلقا من الحيوان الاعجم ، وكان أميرهم يترفع عن مصاهرة الاكاسرة وهو تابع لهم في دولتهم ، لان عزة الملك لا ترفعه الى مقام الكفاءة العربية ، فلو صدق القائلون بأن الدين من املاء السادة في بيئتهم لما خرج من هذه البيئة دين انساني يخاطب الناس كافة ، ويستنكر المفاخرة بالانساب والعصبيات ، ويسوي بين العرب والعجم ، وبين القرشي والحبشي . . بل يفضل الأعجمي على العربي والحبشي على القرشي اذا فضله بالصلاح والتقوى .

وقد كان الاسلام صريحا في هذا الادب الانساني منذ نشأته الاولى ، ولم تأت فيه وصايا المساواة عرضا في سياق وصاياه النافلة التي تستحب ولا تكره مخالفتها . . ولكنها جاءت في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية مؤكدة مقررة على صيغة لا هوادة فيها ، وكانت سنة النبي عليه السلام في توكيدها وتقريرها من السنن التي لا تخفى على احد من اصحابه فيما عم أو خص من قدوة حياته الشريفة ، صلوات الله عليه .

فمن القرآن الكريم نعلم أن النبي صلوات الله عليه مرسل للناس كافة « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وأن الناس أمة واحدة (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وان الحياة الباقية لا أنساب فيها ولا فضل فيها لغير العمل الصالح والكفة الراجحة : (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) .

والنبي صلوات الله عليه يقول : « لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى » ويتمم بلاغ الرسالة فيقول في خطبة الوداع « أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد : كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ولا لاحمر على أبيض ولا لابيض على أحمر فضل الا بالتقوى » .

وكان أبو ذر الغفاري من أقرب الصحابة اليه عليه السلام ، ولكنه سمعه مرة يقول لرجل أسود : يا ابن السوداء . فبلغ به الغضب غايته وعبر عليه السلام عن ذلك بامتلاء الكيل ، فقال : طف الصاع ! واعادها مرة أخرى ، ثم قال : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى وبعمل صالح . . » .

هذا الادب الالهي الذي لا تفاضل فيه بين الناس بغير الاعمال قد نشأ في وكر الانساب و العصبيات ، فليس في نشأته هذه ما يفسر نشوء الاديان لخدمة السادة في المجتمع واستبقاء سيادتهم عليه .

واذا خابت الفلسفة المادية في تفسير نشأة الاسلام باملاء البيئة او باملاء السادة عليها ، فانها لأخيب من ذلك في تفسير هذه النشأة باملاء الديانات التي سبقت الاسلام واتصل اتباعها بالجزيرة العربية . . فان اليهود كانوا يدينون بأن اسرائيل شعب « يهوا » وأن يهوا اله اسرائيل ، وأن أبناء ابراهيم من سلالة اسحاق هم دون غيرهم المفضلون بموعد الرضوان . . ولما ظهرت المسيحية بين أبناء اسرائيل ، توجهت بالدعوة اليهم أول الامر لانها تحمل البرهان اليهم في مواعيد الانبياء التي يدينون بها ، واتفق في أوائل الدعوة ـ كما جاء في

انجيل متى وانجيل مرقس ـ « آن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت بالسيد المسيح فأتت وخرجت . عند قدميه ، وكانت أممية وفي جنسها فينقية سورية فسألته ان يخرج الشيطان من ابنتها فقال لها : دعي البنين أولا يشبعون . ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . فأجابت وقالت : نعم يا سيد ! والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل من فتات البنين ، فقال لهـا : لاجـل هذه الكلمة اذهبي . قد خرج الشيطان من ابنتك . . » .

وأصرت اسرائيل على الاعراض عن الدعوة المسيحية ، فاتجه بهـا السيد المسيح الى الامم وضرب المثل لهم بالمدعوين الى وليمة يرفضونها فيشهدها من حضرها بغير دعوة : « اذ أرسل الداعي عبيده في طلب ضيوفه فقال هذا : اني اشتريت حقلا وعلي أن أخرج فأنتظره ، وقال ذاك : اني اشتريت أزواجاً من البقر وسأمضي لاجربها . . فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الي من تراهم من المساكين . فعاد العبد وقال لسيده فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان .

قال السيد : فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » .

ثم انتشرت الدعوة في غير بني اسرائيل ، وكان من استجاب لها أولى بها ممن اعرض عنها ، لانهم أصبحوا « أبناء ابراهيم بالروح » .

ثم جاء الاسلام من جوف الجزيرة العربية ليعم بالدعوة أبناء آدم كافة ، ومنهم أبناء ابراهيم بالجسد وأبناؤه بالروح . . فلم يكن في نشأتـه ما يفسـره امـلاء السوابق الدينية أو يفسره املاء البيئة العربية ، وجاء مع دعوته الانسانية بآدابه الاجتماعية او الفردية التي يكابر المتعنت في تعنتـه ما استطـاع المكابـرة ولا يستطيع أن يفسرها بممالأة الاغنياء والمحتكرين ، أو بأنها خدر للنفس يروضها على الذل والاستكانة او يلهيها عن الدنيا بخيال الآخرة ، فان الفجوة الواسعة بين حقائق الاسلام وهذه التفسيرات المادية تلوح للناظر من اللمحة الاولى ولا تجشمه ان يتعمق الى قرارها . .

وكأنما قضي على الفلسفة المادية أن تبتلى بكل حجة من قبل الاسلام على أوفاها . . فلا توسط بين حقيقة الاسلام وبين فروض الفلسفة المادية : دعوة عالمية من طرف تقابلها من الطرف الآخر تبعة فردية يستقل بهـا الانسـان في طويته كأنه وحده عالم قائم بنفسه . .

(كل نفس بما كسبت رهينة) .

(ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) .

(قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) .

ان هذه التبعة تكليف لا يدين به ضمير يتعاطى من الدين خدرا يذهله عما حوله وينسيه ما هو حق له وما هو واجب عليه . . وحسب الاسلام عند الشيوعية انه يفندها هذا التفنيد الصادع في جميع مقوماته ليستحق منها عداوة شديدة ، تخصه بها بين الاديان العالمية التي يتبعها ملايين الخلق في الزمن الحاضر . . الا انها ـ على هذا ـ كانت تعمه وسائر الاديان بعداوتهـا ، ولا تميزه بعـداوة خاصة وهي في دور الدعوة وترويج النظريات . . وظلت كذلك حتى دخلت في دور التطبيق وحلت محل القيصرية الروسية في علاقاتها بالعالم الاسيوي داخل بلادها وعلى تخومها ، فاستجد لها من اسباب العداء له سبب اقوى لديها من كل سبب . لانهـا وجـدت فيه نظامـا اجتمـاعيا يتعـرض لكل مشكلـة من مشكلاتها ، ولم تجد مثل هذا النظام لملة من الملل التي تعاملها وتجتهد في نشر الدعاية بين أبنائها .

فالنظام الاجتماعي ـ او السياسي ـ الذي أخذت به اليهودية قبل عشرين قرنا لا يسري اليوم على بقعة من الارض ، ولا يخشى منه على الدعاية الشيوعية في المستقبل . . والمسيحية قد نشأت بين مزدحم الشرائع والنظـم السياسية من جانب الهيكل وجانب الدولة ، فتركت معترك السياسة وقصرت دعوتهـا علـى الاخلاق والعبادات .

أما الاسلام فقد نشأ في بيئة يتركها للفوضى والاختلال ان لم ياخذها بنظام واف من نظم الحكم والتشريع ، وقد أخذها بهذا النظام وأودعه من دواعي التوفيق ما يلائم الزمن بعد الزمن والبيئة بعد البيئة ، ولا يضيق فيه باب الاجتهاد كلما وجب الرجوع اليه في أحوال غير الاحوال التي نشأت فيها الدعوة الاسلامية . وجاء القرن العشرون ولم تفارقه مرونته التي تصلح للحياة العصرية ولا تستعصي مع الزمن على التجديد ، ولا يخفى أن العهد بالاديان العالمية التي يتبعها الملايين أنها تملك هذه الحيوية لتعيش بها في الاجيال المتعاقبة ، أو تفقدها فتنحل وتزول ويخلو مكانها لدعوة من الدعوات كيفما كانت ، أو تتخبط في مكانها بين الانكار والشك والبوار ، فكانت للاسلام هذه الحيوية التي أعيت خصومه في حرب الاستعمار وحرب الالحاد والانكار .

ومن أجل هذه الحيوية ، جردوا له كل ما تجرده الدولة ذات المذهب على خصوم مذهبها . . وشنوا عليه حملة شعواء من أشنع حملات القمع والاضطهاد ، وحملة أخرى في مثل شناعتها من حملات التشويه والتشريد مع تكميم الافواه عن المناقشة أو الدفاع .

ونحن لا نستقصي في هذا الكتاب اخبار القمع والاضطهاد التي ترامت الينا من أرجاء العالم الاسلامي في القارة الاسيوية ، لان استقصاء هذه الاخبار موكول الى مقصد آخر غير مقصدنا من بحوث هذا الكتاب ، وهو مناقشة المبادىء والآراء ، والابانة عن مواطن الضعف والخلل في اساسها الذي تقوم عليه . وقد يغنينا عن استقصاء تلك الاخبار في عرض الطريق ان نشير الى « مصادرة » الفريضة التي تظهر مصادرتها على البعد ولا يجدي فيها التكذيب والتمويه . . تلك هي فريضة الحج في كل عام ، فان حجاج الامم الاسلامية كانوا يلتقون في مكة بالالوف من أبناء الاقطار الاوربية والاسيوية الذين كانوا يخفون الى الاماكن المقدسة كل عام قبل قيام الدولة الشيوعية . . فلما قامت هذه الدولة امتنع وفودهم سنوات ، ثم وصل منهم من استطاع الوصول بعد ذلك فلم يجاوز عددهم ثلاثين أو أربعين حاجا في كل مرة ، كان يبدو عليهم أنهم يحسون فيما بينهم رقابة شديدة عليهم ، وأنهم ربما كانوا مندوبين لغرض

يحملون عليه غير أداء الفريضة .

وتلاحقت ـ في خلال حملة القمع والاضطهاد ـ تلك الحملة الاخرى من حملات التشهير والتشويه ، ونمت عليها أقوال الصحف والنشرات وبعض الكتب الموسوعة التي تقضي عليها مادتها باستيعاب موضوعاتها ، ومنها موسوعة الثقافة الشيوعية ، فانها وصمت الاسلام بوصمة الرجعية ومعاونة الاستغلال ، واعتبرته من عقبات التقدم وموانع الحضارة العصرية، وأفردته بالعداوة التي تستحقها كل عقيدة تصلح لمنازعة المذهب المادي على ضمير الانسان .

***

وما كانت الخصومة الشيوعية لتتورع عن الدعاية الرخيصة كلما أعوزتها أسانيد الدعاية المقنعة ، لان القناع سابق للدعاية في خطط الشيوعية ، وارخص ما تكون دعايتهم اذا آنسوا العجز عن اقناع خصومهم . . ومن هذا القبيل كانت حملة التشهير والتشويه التي اصطنعوها في دعايتهم على الاسلام ، فليس لها من معنى يخرج به القارىء من جملتها وتفصيلها غير معنى واحد ، وهو أن الاسلام لم يتنزل في القرن العشرين . .

فما كان دين من الاديان ليهاجم بدعاية أرخص من هذه الدعاية المفروغ منها ، لان الاديان لا توجد لتلغى وتعاد كل صباح ومساء . . فاما أن توجد لتدين أمة في اجيالها المتعاقبة أو لا توجد على الاطلاق ولا يتصور لها وجود . . واذا كان طول الاجل مأخذا على الدين ، فالاسلام لا يؤخذ بهذا المأخذ الهزيل ، لانه آخر الاديان الكتابية في تاريخ الظهور .

انما تؤخذ على الاسلام آدابه وفرائضه التي جاء بها يوم ظهوره ، وانما تؤخذ عليه هذه الآداب والفرائض اذا جاءت رجعية في حينها لا تصلح شيئا مما تصدت لاصلاحه ولا تفتح في الغد طريقا للمصلحين .

ولم يكن الاسلام كذلك من وجهته العامة ، ولا كان كذلك من وجهة المآخذ التي أحصاها عليه الشيوعيون ، وأهمها الرق وتعدد الزوجات وحدود العقاب

وشروط المعاملات الاقتصادية . . وسنرى أن الاسلام لم يأت بحكم من الاحكام في مسألة من هذه المسائل الا كان فيه اصلاح للحالة التي كان عليها في عصر الدعوة ، وحض على الاصلاح في العصور المباشرة التي تليه .

فالاسلام لم يشرع الرق الذي كان مشروعا قبله في جميع الاديان الكتابية ، وكان الفيلسوف « أرسطو » يسوغه بآرائه الاجتماعية والسياسية ، وقسم الجنس البشري الى فريقين : فريق يعمل بعقله ومشيئته ، وفريق يؤدي للفريق الاول أعماله كما تؤديها الآلات .

لم يشرع الاسلام الرق ، بل شرع العتق وحض عليه وجعله من وسائل القربى والتكفير عن السيئات .

وما أباحه الاسلام من الرق لا يزال مباحا الى اليوم بين أمم الحضارة في حروبها ، فان الاسرى يعتقلون ويسخرون في العمل ولا تفك قيودهم الا بالمبادلة او سداد الغرامة والتعويض ، وهذا هو الرق الذي أباحه الاسلام وأوجب معه المن بالعفو أو الفكاك او المكاتبة : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها).

ولا يبيح الاسلام استرقاق الاسير في كل قتال ، بل يشترط في القتال أن يعلنه الامام مع عدو لا ذمام معه ولا معاهدة ، ويأمر بمعاملة الاسرى معاملة لا يحلم بها أسير في حرب من حروب الحضارة الحديثة ، وينهى أن يذكره صاحبه فيسميه « عبدي » مؤثرا على هذه التسمية الزرية أن يدعوه بـ « فتاي » كما يدعو ابنه في كثير من الاحيان . .

واذا كان الاسلام لا يسوي بين الاحرار والعبيد في جميع الحقوق ، فالاسرى في العصور الحديثة لا حقوق لهم ولا مساواة بينهم وبين من يأسرونهم ما داموا على ذمة الفكاك أو الفداء ، وغاية الفرق بين العصر الحديث والعصر القديم أن الدول في هذا العصر تتولى المبادلة على الفداء بعد معاهدة الصلح بين الغالب والمغلوب ، وأما في العصور الغابرة فلم تكن للدول عناية بهذه

المبادلة ولا بالتعاهد على الصلح في جميع الاحوال ، ومن لم يفده اهله من الاسرى فلا شأن ل به للدولة التي كان ينتمي اليها ، ولا استثناء لذلك في شرائع الحرب والسلم الا بعد قيام الدولة الاسلامية وتفرقتها بين الامم المسالمة والامم المعاهدة والامم المقاتلة ، فان الدولة الاسلامية قد أوجبت على الامام فكاك الاسرى من جنوده ما استطاع .

***

والنظام الاجتماعي الذي جاء به الاسلام قد صنع في مسألة تعدد الزوجات ما قد صنعه في مسألة الرق . . حالة سيئة تعانيها المرأة من حرمان المجتمع والقانون اصلحها الاسلام ومهد لمسايرة التقدم الطبيعي الذي يأتي مع الزمن من ضروب الاصلاح .

وعلينا قبل الاستطراد الى الكلام عن مركز المرأة في الاسلام ان ندفع وهما يعلق بالاذهان عن الاديان الكتابية وتعدد الزوجات ، فان الشائع بين الغربيين والمتفرنجين من الشرقيين أن الاسلام هو الدين الكتابي الوحيد الذي لم يحرم تعدد الزوجات . . وذلك و هم يخالف النصوص ووقائع التاريخ ، فان تعدد الزوجات بغير قيد هو القاعدة الغالبية في زواج الآباء والانبياء الذين ذكرت زوجاتهم في كتب العهد القديم ، وليس في الاناجيل نص على تحريم ما أباحه العهد القديم . . ولكن الآباء الاوائل في المسيحية كانوا يحثون على الرهبانية ويستحسنون للأسقف ان يكتفي بزوجة واحدة اذا لم يستطع ان يترهب ، لان شرا واحدا اهون من شرين . وقد افتى القديس « أوغسطين » في كتابه عن الزواج الامثل باباحة التسري لمن عقمت زوجته وثبت عليها العقم ، وحرم مثل ذلك على المرأة التي يعقم زوجها لان الاسرة لا يكون لها غير سيد واحد ، وكان لشرلمان اولاد شرعيون من عدة زوجات معترف بهن ، وبحث المشرع المشهور « جورتيوس » موضوع تعدد الزوجات من الناحية الفقهية فصوب شريعة الاباء في العهد القديم ، وقال « وسترمارك » المؤ رخ الحجة في شؤ ون الزواج ان الكنيسة والدولة كانتا تقران تعدد الزوجات الى القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر في الحالات التي لا تحفظ في سجلات الكنيسة أو الدولة .

فالاسلام لم ينفرد بين الاديان الكتابية باباحة تعدد الزوجات ، ولم يوجبه على أحد لانه أباحه ، بل اوجب على الزوج أن يعدل في المعاملة اذا بنى بأكثر من زوجة ، وصرح القرآن الكريم بصعوبة العدل بين النساء « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ».

فحكم الاسلام في تعدد الزوجات هو الحكم المطلوب من كل شريعة تقابل كل حالة محتملة . . ولو وقعت في كل الف حالة حالة واحدة يكون فيها تعدد الزوجات خيرا من الطلاق او من العقم ، لعيب على الشريعة ان تتجاهلها ولا تحسب حسابها . . وانه لم السخف أن يقال ان تطليق الزوجة المريضة او قبول العقم افضل في جميع الاحوال من الجمع بين زوجتين ، وانه لاسخف من هذا أن يقال ان متاجرة المرأة بعرضها عند التفاوت بين عدد الرجال والنساء اكرم من تعدد الزوجات ، وانه لم التعاق السمج ان يقال ان الاغضاء عن الاباحة الفعلية يجعل الشريعة صالحة لقديسين ينون بقديسات ، ويجعل الدنيا سماء للملائكة لا يقع فيها الا ما ينبغي أن يقع في السماوات ، وأنه ما على الشريعة الا ان تقول ان الناس كذلك ليكونوا طائعين او راغمين ثم يعلموا أنهم كذلك وهم يعلمون رجالا ونساء ان الزواج الذي يخرج عليه الزوجان معدود بعشرات الالوف .

ولقد يعذر من يرى ان الزواج علاقة لذة ومتعة جسدية اذا اغضى عن الفارق الطبيعي بين الجنسين ، ويعذر مثله من يرى ان انقطاع النسل فضيلة في حالتي الرهبانية والزواج ، ولكنه لا عذر لمن يؤمن بأن الزواج للنسل ثم يتجاهل التفرقة الطبيعية بين وظيفة الذكر ووظيفة الانثى في الحياة النوعية ، فان هذه التفرقة لا تهمل كل الاهمال الا تباعد ما بين الطبيعة وبين المجتمع من وشائج الحياة وليس من المطلوب ان يلد الرجل من مئات النساء ، ولكنه لا يكون في جميع الاحوال كالمرأة التي لا تلد الا من رجل واحد في عدة شهور .

***

قلنا ان الاسلام قد عالج تعدد الزوجات كما عالج الرق في عصر الدعوة : حالة سيئة أصلحها ، وتطور منظور مهد له واشار اليه ، ولم يضع قط عقبة في

طريقه . . والحالة السيئة التي أصلحها الاسلام أنْ تعدد الزوجات كان مباحا مطلقا من كل قيد في البلاد العربية وفيما جاورها ، وكان رأي المرأة في الزواج مهملا لا يعتد به سواء خطبت لرجل متزوج أو غير ذي زوج ، فقيد الاسلام هذه الاباحة المطلقة وجعل للمرأة رأيا مشروطا في زواجها ، ونبه الرجل الذي يتزوج بأكثر من واحدة الى وجوب العدل في المعاملة ، ثم نبهه الى صعوبة العدل وفضيلة الاكتفاء بزوجة واحدة « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ».

اصلاح ليس بالقليل ، ولا ينبغي أن يحسب قليلا حتى في موازين المستغلين له من دعاة القرن العشرين ، فانهم لخلقاء ان يسألوا انفسهم : هل كان من المفيد تحريم تعدد الزوجات لو اراد احد تحريمه ولم يقنع يومئذ بذلك الاصلاح ؟ . . ما كان ذلك التحريم بالجد الذي يقدم عليه مشرع في شؤ ون الاجتماع ، وما كان له من وصف يوصف به الا انه عبث تتنزه عنه حكمة التشريع ، ولن يكون التحريم الا عبث عابث حين تكون الاباحة حكما عالميا قد انعقد عليه اجماع الشرائع والعادات والاديان .

وربما كان العمل المنتج في هذا الاصلاح منوطا باسناد حق الموافقة الى المرأة قبل البناء بمن يخطبها ، سواء كانت ولية أمرها او كان لها ولي ينوب عنها . . والنبي عليه السلام يقول : « لا تنكح الايم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن »، وقال : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها ».

فهذا الحق ينقل أمر انصاف المرأة الى يديها ، فان قبلت تعدد الزوجات راضية فهي أولى باختيار ما يرضيها ، وان قبلته لضرورة لا محيص عنها فوجود هذه الضرورة في المجتمع رد كاف على من يتغافل عنها ولا يلتفت اليها ، وما كانت المرأة لتقبلها يوما الا وهي توقن أن قبولها أوفق لها من رفضها .

***

على ان تعدد الزوجات على اطلاقه قبل الاسلام ، لم يكن يضيم المرأة كما كان يضيمها قضاء الذلة التي رانت عليها في شعوب الحضارة وشعوب البداوة

على السواء وكانت بعض الحضارات ـ كالحضارة المصرية القديمة ـ تميل الى انصافها في حقوق الاسرة والمجتمع ، ثم شملتها النكسة العامة التي غمرت العالم الانساني في الحقبة التي مرت به من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن السادس بعده . . اذ كان هذا العالم الانساني قد غثيت نفسه بمساويء الترف المادي والانحلال الخلقي ، فخرج منها بعقيدة احتقار الجسد وتصوير المرأة في صورة النجاسة المحذورة لانها عنوان المتعة الجسدية والشهوات الحسية ، فهبطت في معيار الاخلاق والعقائد الى حطة النجاسة . . وبقيت في معيار التشريع حيث ابقتها ام الشرائع في العصور القديمة ـ دولة الرومان ـ ولم تزد في شريعتها كثيرا عن منزلة الرقيق المملوك الذي لا يستقل عن مشيئة رب الاسرة بحق من الحقوق .

وأما في بلاد العرب فقد كانت للمرأة حالات تتراوح بين الكرامة والمهانة ، احسنها لم يرتفع بها عن حالة الطفل القاصر في رعاية أهله ، واسوأها تدل عليه عادة وأد البنات خشية العار أو خشية الاملاق . . فهذه الحالة العامة في شعوب الحضارة والبداوة هي التي انقذها منها الاسلام ، لانه رفع عن الجسد وصمة النجاسة ورفع عن المرأة وصمة العار ، ووهب لها في المعاملات حقوق الشخصية المستقلة التي تملك ما عندها وتملك أن تنيب عنها من يديره لها ولو لم يكن وليها او قريبها ، وفرض لها المساواة المثلى التي تستقيم مع اختلاف الجنسين ، ولم يحرمها من المساواة الا ما يعد الحرمان منه نوعا من الاعفاء عند تقسيم العمل بين الجنسين المختلفين .

***

والمساواة المثلى هي العدل الذي لاظلم فيه على احد، ولهذا لم يستطع فقهاء التعريفات أن يجعلوها مساواة في الواجبات لان المساواة في الواجبات مع اختلاف القدرة عليها ظلم قبيح ، ولم يستطيعوا أن يجعلوها مساواة في الحقوق لان المساواة في الحقوق مع اختلاف الواجبات ظلم اقبح من ذلك ، لانه اجحاف يأباه العقل واضرار يحيق بالمصلحة العامة كما يحيق بمصلحة كل فرد من ذوي الواجبات والحقوق .

وقوام الامر اذن ان تكون المساواة العادلة مساواة في الفرص والوسائل ، فلا يحرم انسان فرصته لاحراز القدرة التي تمكنه من النهوض بواجب من الواجبات ، ولا يحرم وسيلته التي يتوسل بها الى بلوغ تلك الفرصة ما استطاع من وسائل السعي المشروع .

والمساواة في الفرص مفهومة بين أبناء الجنس الواحد ، لانها ممكنة في حدود الوظائف الطبيعية . . واما غير المفهوم فهو المساواة في الفرص بين جنسين مختلفين في التركيب والاستعداد وفيما ثبت من الواقع في تواريخ جميع الامم ، وفيما يتطلبه المجتمع من تقسيم العمل بين هذين الجنسين .

هذا الاختلاف واقع دائم لا حيلة فيه لاصحاب التعريفات او أصحاب الدعايات السياسية ، ولا تجدي في الغائه والغاء دلالته تعلة من التعلات التي يردونه اليها ، فلا ينتهون منها الى غير السفسطة والمحال .

« فكل ما يقال في تعليل ذلك راجع الى علة واحدة ، وهي تفوق الرجل على المرأة في القدرة والتأثير على العموم . . فليست جهالة القرون الاولى بسبب صالح لتعليل هذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء في جميع الامم ، لان الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال . . ومن زعم ان الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته واذعنت له ، فقد قال انه اقدر من المرأة أو انه أحوج الى العلم وأحرص عليه منها . وليس الاستبداد في القرون الاولى سببا صالحا لتعليل تلك الفوارق لان استبداد الحكومات كان يصيب الرجل في الحياة العامة قبل ان يصيب المرأة في حياتها العامة او حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين ان ينبغ فيهم العامل الصالح والشاعر اللبق والواعظ الحكيم والاديب الظريف .

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل في الاعمال العامة ناشئا من قلة المزاولة لتلك الاعمال ، لانها زاولت اعمال البيت الوف السنين ولا يزال الرجل يبزها في هذه الاعمال كلما اشتغل بصناعاتها ، فهو اقدر منها على الطهو وعلى التفصيل وفنون التجميل وتركيب الاثاث وكل ما يشتركان فيه من اعمال

البيوت . وقد يرجع الامر الى الخصائص النفسية فيحتفظ فيها الرجل بتفوقه على الرغم من استعداد المرأة لتلك الخصائص من أقدم عصور التاريخ . . فالنواح على الموتى عادة تفرغت لها المرأة منذ عرف الناس الحداد على الاموات ، ولكن الاداب النسوية لم تخرج لنا يوما قصيدة من قصائد الرثاء تضارع ما نظمه الشعراء الرجال سواء منهم الاميون والمتعلمون ، وقد كان اكثر الشعراء في العهود القديمة من الاميين . بل هناك خاصة نفسية لا تتوقف على العلم ولا على الحرية ولا نوع العمل او الوظيفة في المجتمعات او البيوت وهي خاصة الفكاهة وخلق الصور الهزلية والنكات التي يلجأ اليها الناس حين يحال بينهم وبين التعبير الصريح .

وربما كان الاستبداد او الضغط الاجتماعي من دواعي تنشيط هذا السلاح النفسي في قرائح المستعبدين والمغلوبين ، لانه السلاح الذي ينتقم به المغلوب لضعفه والمنفذ الذي يفرج به عن ضيقه وخوفه ، وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقا أن يغريهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة والانتقام للحرية المسلوبة ، ولكن الآداب والنوادر لم تسجل لنا فكاهة واحدة اطلقها النساء على الرجال كما فعل الرجال المغلوبون في الامم الحاكمة أو المحكومة على السواء ، او كما فعلوا في تصوير رياء المرأة واحتيالها على اخفاء رغباتها وتزويق علاقاتها بالرجال ، وهذه الملكة ـ ملكة الفكاهة ـ خاصة نفسية لم يقتلعها من طبائع الرجال ظلم ولا جهل ولا فاقة ولا عجز عن العمل في سبيل الحياة . . فمن اللجاجة ان يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق وهي اثبت من كل ما يثبته العلم والعلماء ، وما كان للعلم أن يوجد شيئا لم يكن له وجود في الواقع أو في تفكير العقول ، وانما هو أبدا في مقام التسجيل او مقام التفسير[1] » .

***

ان هذه الاعتبارات موضوعة حتما بين يدي كل تشريع يتحرى مصلحة

---

(١) من كتاب « الفلسفة القرآنية » للمؤلف

المجتمع في حاضره ومستقبله ، ومتى نظر التشريع الى هذه الاعتبارات فانه لا يقيم العدل بين الجنسين على أساس المساواة في الفرص ولا على مطالبة كل منهما بواجبات كواجبات الآخر او تخويله حقوقا كحقوقه . . وليس امامه من اعدل الجنسين غير العدل على اساس تقسيم العمل بينهما كما يتوفر عليه كل منهما ، وهذا هو العدل على سنة المساواة بين الواجبات والحقوق ، وأن تكون حقوق الجنس مكافئة لواجباته ، وواجباته مكافئة لحقوقه . ومن الهزل ـ لا من الجد في شيء ـ أن نعلم أن تربية البنين وتنشئة الجيل الجديد وتنظيم البيت والاسرة واجب على المرأة قبل الرجل ثم نزعم انها مساوية له اذ تقوم بهذا الواجب وتقوم بأعباء الرجل في الاعمال العامة على السواء .

وعدل المساواة بين الواجبات والحقوق هو عدل الاسلام في بيان حقوق المرأة وحقوقها هي على الرجل وحقوق الرجل عليها (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) . . (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) .

وان تقسيم الواجبات والحقوق في الاسلام على هذا القسطاس لهو تقسيم الفطرة الذي نرجع اليه قسرا كلما شردنا عن طريقه ، وما نخال أن تقسيم الفطرة مجهول بعد تقرير مكان المرأة الطبيعي في القيام على شؤون البيت وتربية الجيل الجديد . . ومن حقها اذن على الرجل أن يتولى الانفاق عليها وعلى البيت ، اذ كانت لا تستطيع أن تعول أبناءها وتكدح لنفسها .

نعم . . ان المرأة في المجتمعات الحديثة تضطر الى العمل لكسب معيشتها ، الا أن هذا الاضطرار خلل في المجتمع يؤسف له ولا يغتبط به ولا يبنى عليه قوام الحاضر والمستقبل . . وقديما كان الطفل الصغير مضطرا الى العمل لكسب معيشته ، فلم يكن هذا فضيلة للمجتمع الذي يحدث فيه تستوجب التشجيع والاقرار ، وتستقيم عليه أسس التربية والتشريع . . بل كان خللا وخيم العاقبة تتضافر الجهود على سداده وتحريمه ، وتحاربه الشرائع والآداب على الرغم من الاضطرار اليه في كثير من الاحوال .

وان الخلل الذي يلجىء المرأة الى السوق والى المصنع والى معارك الحياة العامة لحقيق بمثل هذه المحاربة ، ومفروض علينا ان نجعل القضاء عليه أملا ننشده ولا نجعله انكارا لحقوق المرأة وانتقاصا من كرامتها . . وهكذا تستوي مصالح المجتمع على جادتها أو تنقلب على من ينسخونها ـ ويمسخونها ـ كما تنقلب قوانين الفطرة على كل خارج عليها .

وبعد أربعين سنة من اللغط « بالرجعية » في الاسلام والتقدم في المذهب المادي القائم على العلم ورعاية القوانين الطبيعية في زعم اصحابه ، يحق للناقد المسلم أن يبتسم وهو يرى في كل يوم ضربة من ضربات الفطرة ترتد بالسخرية على من يخرجون عليها ، ونقرأة في خطب الفلاسفة الماديين كلاما عن الاسرة ـ المعلونة في عرف الماديين ـ يقيم عليها دعائم المجتمع الصناعي الذي ينبغي أن يعصف بالاسرة عصفا اذا صح ما قدره له « كارل ماركس » وأتباعه ، ويقول لنا الفيلسوف « خارشيف » من خطاب للشبان الشيوعيين أذيع في الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٥٦ . . « ان الاسرة السوفيتية الناشئة تخلق من اجل العمل المشترك على مصلحة الوطن ، كي تزوده بأبناء وبنات مجتهدين مخلصين ، وان سعادة الاسرة لن تنفصل عن سعادة المجتمع الاشتراكي وجهوده » .

وادعى من ذلك الى الابتسام قول الزعيم « خروشيشف » في تقريره للمؤتمر العشرين من مؤتمرات الحزب الشيوعي كما نشرته « برافدا » في الخامس عشر من فبراير سنة ١٩٥٦ :

« اننا لا نستطيع ان نتجاهل الحقيقة الواقعة التي تلاحظ في هيئات كثيرة من هيئات الحزب الشيوعي ، وهي الحذر من ترشيح النساء للمراكز الرئيسية . فان عدد النساء قليل جدا بين اصحاب المراكز الموجهة في الاعمال السوفيتية ، ولا سيا مراكز السكرتارية في اللجان ومراكز الرئاسة في اللجان التنفيذية والمشروعات الصناعية والحقول المشتركة وحقول الدولة » .

ولم يلاحظ هذا الحذر في مجتمع يدين بالرجعية الاسلامية ، وتعينه حدث

في مجتمع مضى عليه اربعون سنة يغتصب التسوية اغتصاباً بين الرجل المرأة وينشأ أبناء الاربعين وبنات الاربعين فيه وما سمعوا قط شيئا غير « أوامر » المساواة بين الجنسين في المدرسة والمصنع والطريق والبيت . . وما اجترأ قط على التشكيك في هذه المساواة بين أبنائه وبناته أحد يريد أن يأمن على حياته من تهمة النكسة والخيانة واستعادة الآداب الغابرة التي قام عليها الاستغلال في بلاد رأس المال .

***

وستمضي أربعون سنة أخرى بعد هذه السنين الاربعين التي مضت على وضع الشريعة الماركسية في موضع التنفيذ ، وسيبتعد العالم مسافة اخرى من أحكام هذه الشريعة كلما خرجت من دور النبوءات والنظريات ودخلت في دور الوقائع والمحسوسات ، وسيكون ابتعاد العالم عنها في المستقبل اعجل وأسرع من ابتعاده عنها فيما مضى ، لان حماسة الايمان بها كانت تصمد للحوادث حينما يطيل اجلها على غير طائل ، ولن يقوى هذا الايمان المتهافت بعد اليوم على صدمات الحوادث في الداخل والخارج الا من قبيل تغطية الهارب لمهربه أن بقيت به حاجة الى التغطية بعد انكشاف الامر وشيوع التفاهم على بطلان المذهب بين دعاته وأدعيائه .

وسيرثى غدا لمن يبقى بعد هذا الزمن متعلقا بحباله الرثة محتجا به على نظام من النظم الدينية أو الوضعية ، فما من نظام سيكون غدا ابعد من النظام الماركسي عن حقائق الامور وسيبقى من الاسلام على التخصيص ما كان باقيا قبل ظهور المادية التاريخية وبعد احتجابها ، فيزول المذهب الذي قالوا انه مذهب العصر والعلم والتقدم الى المستقبل بغير نهاية ، ويبقى المذهب الذي قالوا انه قد لحق بأمس الدابر فليس له من الغد نصيب . ويتمارى غدا من يتمارى في شأن الاسرة والمرأة بعد الشوط الطويل الذي يعبره العالم اليوم مترددا مختلفا على نظام الاسرة وحقوق المرأة او حقوق الجنسين ، ولكنه لا يتمارى في جناية المذهب المادي على الاسرة وجنايته من ثم على المجتمع في حاضره ومصيره ، ولن يتمارى في حقيقة النظام الذي ينقذ المرأة من براثن

الاستغلال والابتذال ، فلن يكون خلاصها من الاستغلال على يد النظام الذي يرسلها الى الاسواق والمصانع ومعارك السياسة والكفاح ، ولن تخلص من الاستغلال الا اذا ملكت بيتها أما وربة أسرة وسيدة للعالم الصغير الذي ينشأ منه الغد ويسكن اليه الحاضر من وعثاء الكفاح في الاسواق والمصانع ومعارك السياسة .

والشيوعي الذي يرثى له غدا حين يحتج ببقايا مذهبه على النظام الاسلامي في شأن المرأة ، سيرثى له من اليوم حين يحتج ببقايا مذهبه على النظام الاسلامي في شؤ ون المعاملات . . فكل منتقد لهذا النظام يستطيع أن يقول شيئا الا جماعة الشيوعيين أصحاب الآراء المعروفة في رؤ وس الاموال واستغلالها في أيدي المرابين والمتجرين بالنقود . . فان الذين يزعمون أن الاسلام لا يصلح للمعاملات العصرية قد جمعوا أسبابهم كلها في مسألة المصارف والقروض ، أو فيما سموه مسألة الربا على غير فهم لاحكام الاسلام فيه .

وهؤ لاء لهم كلام يقولونه في هذا الصدد ، اذ لا كلام فيه لاحد من الشيوعيين . . لان هؤ لاء الشيوعيين قد تطول السنتهم في كل مجال ولا تستطيع أن تطول في هذا المجال ، مع فلسفتهم المعلومة عن رؤ وس الاموال وعن الاستغلال وبيع النقد كما تباع السلع لفائدة أصحاب « الاعمال » وعلى حساب طوائف العمال !

فماذا يقول الشيوعي اذا أراد أن ينقد الاسلام في تحريمه الربا والاتجار بأعيان النقود ؟ . . انه يسكت السكوت الذي يستحق الرثاء ، فانه ليقف هنا موقف العاجز عن تحريك لسانه بالثناء ، وهو لا يريد الثناء ، او بالمذمة والتجريح ولا وجه عنده لمذمة أو تجريح .

لقد حرم الاسلام الاتجار بأعيان النقود ، كما حرم اكل الربا اضعافا مضاعفة . . وما من شريعة عصرية تبيح اليوم ما حرمه الاسلام على المرابين ، وهي آمنة على سلامة المجتمع من الخراب او من الفتنة والاضطراب . . فأما المعاملات التي لا ضرر فيها على أحد ولا اتجار بالنقد في غير عمل ، فليس

للاسلام فيها حكم غير حكم القانون الصالح ايثما كان ، وانى يكون . .

***

ومسألة الحدود الجنائية أدق المسائل بعد بمسألة الرق ومسألة المرأة ومسألة المعاملات ، ودقتها انها مسألة فقهية للفقهاء وولاة الامور ، وليس قصارى الامر فيها انها مسألة من مسائل الشعائر والمعتقدات .

وهذه المسألة الفقهية الدقيقة تتشعب فيها شروح الفقهاء من حيث تعدد الحدود والجنايات ، وتتعدد الشروط والاركان ، وتتعدد الادلة والشبهات ، فيقع فيها اللبس الكثير كما يقع في عموم المسائل الفقهية ، ويخطىء المسلم الجاهل دقائق الرأي فيها كما يخطئها الجاهل بالاسلام من الأجانب عنه احسن النية أو اساء . .

والأفاضة في البحوث الفقهية ليست من أغراض هذا الكتاب ، وقد نستوفي أغراضه اذا نبهنا الى منافذ الخطأ في فهم النظام الاجتماعي الذي جاء به الاسلام ، وفهم نظام العقوبات على التخصيص . . وهذا ما ننبه اليه بالايجاز في الاسطر التالية . .

اننا نسمع على الدوام ان عقوبات الشريعة الاسلامية ينبغي ان تطابق احوال القرن العشرين . . ونقول : نعم . . ولا نحسب ان أحدا يقول غير ذلك ، ولكن الالزم من ذلك ان تكون مطابقة للبيئة التي تنزلت فيها وللزمن الذي تنزلت فيه .

وقد تنزلت الشريعة الاسلامية في الجزيرة العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها الغالبة بين جميع القبائل شريعة الغارات التي تستباح فيها دماء المغلوب وامواله ونساؤه ، وكل مملوك له في حوزة الفرد او حوزة القبيلة ، وكان اهل الكتاب يدينون بشريعة موسى التي لم يبطلها السيد المسيح ولها حدود مفصلة في التوراة وقصاص تؤخذ فيه العين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم . .

فاذا جاء الاسلام بعقوبات لا تصلح لعصر الدعوة لم يعط التشريع حقه في ذلك العصر ولا في العصور التالية ولكنه يعطي التشريع حقوقه جميعا اذا صلح

لزمانه ولم ينقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاجتهاد عند اختلاف الاحوال ، فيشتمل جزاؤه على جنايات الحدود والقصاص وعلى الجنايات التي تستحدثها احوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمها من موجبات الجزاء .

وهذا ما صنعه الاسلام في جنايات الحدود والقصاص ، وفي غيرها من الجنايات التي تدخل عند الفقهاء في باب التعزير ، وعلينا ان نذكر :

« أولا » ان الحدود مقيدة بشروط وأركان لا بد من توافرها جميعا بالبينة القاطعة ، والا سقط الحد أو انتقل الى عقوبات التعزيز اذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقين مبلغ الثبوت الواجب لاقامة الحدود . .

« ثانيا » ان القصاص مشروط فيه العمد وارادة الاذى بعينه ، فان لم يثبت العمد فالجزاء الدية او التعزير وقد يجتمعان او يكتفى بالدية دون التعزير او بالتعزير دون الدية .

ولنذكر أن جرائم التعزير تشمل جميع الجرائم التي يعاقب عليها بالسجن او بالغرامة أو بالعقوبات البدنية .

ولنذكر في جميع هذه الاحوال ان الشريعة الاسلامية توجب درء الحدود بالشبهات ، فاذا قامت الشبهة للشك في ركن من اركان الجناية او ركن من أركان الشهادة فلا يقام الحد وينظر ولي الامر في التأديب بعقوبة من عقوبات التعزير .

***

ولنضرب المثل بأكبر جنايات الحدود وأشيعها في الجاهلية العربية وجاهليات الامم في عنفوانها ، وهي جناية قطع الطريق والعيث في الارض بالفساد ، ففي هذه الجناية يقول القرآن الكريم : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا او تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم

في الاخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم ».

فهذه جناية لها عقوبات متعددة على حسب الاضرار والجرائم ، ومنها القتل والصلب وقطع الاطراف والنفي وهو بمعنى النبذ من الجماعة اما بالسجن او بالاقصاء ، ويلزم العقاب من لزمته احكام الدين . . فاذا كانت جنايته قد انتهت بالعقوبة قبل أن يلزمه قضاء الاسلام فهذا هو الباب الذي فتحه الاسلام لابتداء عهد وانتهاء عهد غبر بأوزاره وعاداته وانطوى حساب الجناية والعقاب فيه بانتهائه .

وأشد هذه العقوبات لم يكن شديدا في عرف امة من الامم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيثون في الارض بالفساد ، مع حضور الخطر وكثرة مغرياته وقلة الزواجر الاجتماعية التي تحمي المجتمع من أضراره وجرائره ، وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة في جميع الامم مع قيام الجريمة وقيام اسباب الحذر منها ، وظلت كذلك الى القرن السابع عشر في البلاد الاوروبية التي استقر فيها الامن بعد الفزع وانتظمت فيها حراسة الطريق بعد الفوضى التي طغت عليها من جراء فوضى الجوار بين الحكومات .

وتلحق بجناية قطع الطريق جناية السرقة التي لا غضب فيها ، ويكون السارق عاقلا مكلفا وأن يكون المال المسروق محرزا مملوكا لمن يحرزه بغير شبهة ، بالغا نصاب السرقة كما نتفق عليه الفقهاء ، وكل جريمة من قبيل السرقة لم تثبت فيها هذه الاركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الجاني بحد السرقة ويؤخذ فيها بعقوبات التعزير ، وعند الضرورة القاهرة التي يقدرها الامام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن الغلامين السارقين في عام المجاعة .

ولا بد أن يمتد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة لعصر من العصور ، ولا محل لسؤاله اذا اراد ان يحصر هذه الشريعة في زمن واحد وبيئة واحدة ، ولكنه يحسن السؤال اذا عرض أمامه احوالا للامم

فيها القديم والحديث وفيها الهمجي والمتحضر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل : هل في الشريعة قصور عن حالة من الحالات التي تعرض لتلك الامم في جميع اطوارها ؟ وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صالحة في حالة من تلك الحالات ؟

فهكذا توزن الشرائع التي تحيط بالمجتمعات في مئات السنين ومئات البيئات ، وبغير هذا الوزن تكثر منافذ الخطأ او يبطل السؤ ال فلا محل للسؤ ال .

***

وننظر الى المجتمع الانساني الذي يقيمه الاسلام بعد هذه النظرات المجملة الى مسألة الرق ومسألة المرأة ومسائل المعاملات ومسائل العقوبات ، فنحن اذن خلقاء ان نرى فارقا بين المجتمعين ـ مجتمع الاسلام ومجتمع الشيوعية ـ لا تستوي فيه وجوه القياس ، لانه فارق بين وهم مفروض على التخمين ، وبين حقيقة واقعة من حقائق الماضي والحاضر وحقائق المستقبل كما يراها من يشهده رأي العين .

فالمجتمع الشيوعي فرض خيالي قوامه دعوى المدعين انه سيأتي ـ ان اتى ـ سويا بغير طبقات ، وان الشرور الاجتماعية وشرور الطبائع كافة ستفارقه ابد الابدين اذا فارقه شيء واحد ، وهو رأس المال .

هذه هي الخرافة التي يسمونها بالمجتمع الشيوعي الذي سيحق غدا متى حقت الدعوى او حق الفرض والتخمين .

اما المجتمع الاسلامي فهو هذا المجتمع الانساني المتجدد الذي يحق على سنة التقدم بما يحققه من مبادىء الاسلام ، وهي مبادىء لا تنتشر وتنطوي في مدى أيام او مدى أعوام .

يقوم المجتمع الانساني على المساواة بين الناس بغير تفرقة بين الانساب والالوان والاجناس ، ولا تمنعه المساواة أن يعطي المزايا النافعة حقها من

الانصاف لمصلحة المنتفعين بتلك المزايا في جميع الطبقات ، ولا تفاضل في الحقوق بالمال او بالوراثة ، فانما يكون التفاضل بينهم بالعلم والعمل : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

واذا وجدت درجات الثروة ينبغي أن تكون حكراً تستأثر به طبقة واحدة ولا أن تكون « دولة بين الاغنياء ، ولا بد في كل ثروة من حق معلوم للسائل والمحروم » .

والاسلام لا يحل مشكلة الفقر بالصدقات المفروضة على الاغنياء لمعونة المحرومين والمعوزين ، ولكنه جعل هذه الصدقات منذ ألف وأربعمائة سنة لمن جعلتها لهم دول العصر الحديث من العجزة والمرضى والشيوخ والمنقطعين ، وحل مشكلة الفقر « أولا » بخلع القداسة التي كانت تجلله في كثير من الاديان ، ثم حلها بايجاب العمل على القادرين وايجاب تدبيره على الامام المسؤول لكل قادر عليه .

***

والمجتمع الاسلامي لا يهدم شيئا من كيان الاجتماع الذي استفاده بنو الانسان من أطوار حياتهم الاجتماعية في الحقب الطوال ، لان المفهوم من سير الهداية الالهية كما يسردها القرآن الكريم أن حياة النوع الانساني تاريخ متصل يتمم بعضه بعضها وتنتهي الى التعارف بين الشعوب والقبائل في أخوة عامة لا فضل فيها لقوم على غيرهم الا بالعمل الصالح ، ولهذا يحرص الاسلام على كيان الاجتماع في الشخصية الفردية وفي الاسرة وفي الايمان بوحدة النوع ، ولا يهدم بنية من هذه البنى الحية التي « تحققت » لتعيش بين القوى العاملة في المجتمع لا لتنهدم وتندثر في حقبة بعد حقبة ، كأنها من الشرور التي تولد على الرغم منا ، وتعود كلما أستأصلناها كرة بعد كرة ولا ندري من أين تعود !

وقد جاء في القرآن الكريم في وصف أهل النار انهم (كلما دخلت أمة لعنت

اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار).

ففي هذا الوصف « للعالم الملعون » بيان للفارق في تقدير الاسلام بين المجتمع المثالي في الشر والفساد والمجتمع المثالي في الخير والصلاح ، ويصدق الوصف المثالي لعالم الشر والفساد على التاريخ الإنساني كما توهمه الشيوعيون . . كلما تعاقبت اطوار التاريخ لعن الاواخر منها أوائلها وجاء الخلف الاخير ليصب النقمة والعذاب عليهم اجمعين .

ذلك في الحق تاريخ جحيم ، او تاريخ عالم ملعون ، لا خير في أوائله ولا أواخره ، وشره ثابت فيما كان وخيره لا يكون الا في أحاجي الاوهام والظنون ، بعد هدم ما كان جميعا أملا فيما سوف يكون .

كيان الاجتماع في الاسلام لا يتهدم بل يزداد قوة على قوة ، ويدعمه الاسلام ليؤسس به بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا ، ويتعاون على البر والتقوى ولا يتعاون على الاثم والعدوان .

فالشخصية الانسانية فيه حقيقة حية ، والاسرة الاجتماعية فيه حقيقة حية ، والنوع الانساني الذي تنتمي شعوبه وقبائله الى أسرة كبيرة يجمعها التعارف والتعاون هو كذلك حقيقة حية .

لا شيء ينهدم جزافاً أو لانتظار مجتمع من الخلق لا رابطة بينهم الا انهم كانوا مأجورين يسامون بخس الاجور .

هذا المجتمع الذي ينهدم من اجله كل كيان قائم لم يكن قط الا وهما من أوهام الخيال ، أو حلما من أحلام كابوس الشر والفساد . . اما الشخصية الانسانية وروابط الاسرة ووحدة النوع الانساني فهي أمامنا بنية حية أو بنية تحيا ولا يجوز أن تنهدم لوهم من الاوهام .

كل منها « كيان » حق صنعته العناية الآلهية ورصدت له رسالته وآتته قدرته عليها ، ولم يخرج من بوتقة الخلق « غلطا » ليعاد تركيبه بعد تصحيح حسبة الاجور ورؤوس الاموال .

وما من حجة غير حجة الشيوعية ينهدم بها كيان الشخصية الانسانية ، وينهدم بها كيان الاسرة ، وينهدم بها كيان النوع الانساني ، ليؤ ول ميراثه الى طائفة مزعومة ما وجدت بعد ، وما من دليل قط على انها وشيكة الوجود .

ما أهزل الحجة وما أكرم البناء الذي يراد له الهدم والفناء .

ان الشخصية الانسانية ـ شخصية الفرد المسؤ ول ـ لا ذنب لها الا أنها لا تستطيع كل ما تريد ، وأن ما يريده الافراد يتم في المجتمع على نحو غير الذي أرادوه . . ولو ثبت هذا الذنب لما اوجب مقت الحرية الفردية ولا أوجب بطلان العمل الذي تعمله ، فربما كانت مناوأة المجتمع للفرد هي الشر الذي نزيله او نتمنى له الزوال . . وكما يقال ان عمل الفرد موقوف على التجاوب بينه وبين المجتمع ، يقال كذلك ان عمل المجتمع موقوف على التجاوب بينه وبين الافراد ، فلا وجه لهدم « الشخصية الفردية » حتى لو صح أنها لا تفعل كل شيء .

والاسرة تنهدم لانها أذنبت بتعليم الناس شريعة الميراث ، وما تعلمت الاسرة الميراث الا من طبيعة التكوين التي تجعل الولد وريثا لابويه في خلقه وخلقه . ولا يستطيع المجتمع أن يجرده من هذا الميراث أو ينجيه منه ان طلب النجاة وما كان ميراث المالكين شيئا في جانب الميراث الذي تلقاه ورثة الصناعات أبناء بعد آباء بعد أجداد ، وما كان في بني الانسان من خير اذا لم يبق منهم الا من يعمل لساعته ولا يفكر في غده ولا فيما يكون بعد حياته . . وهذه خليقة تعلمها الناس من الاسرة ومن الميراث ، وتعلموا خيرا يذهب بذهابه ميراث هذا المخلوق المسمى بالانسان حيث كان .

وأما النوع الانساني فينهدم لانه لم يوجد قط في عرف الشيوعيين ، بل كان الموجود في كل حقبة طائفة من السماسرة وطائفة من الاجراء وطائفة من أصحاب المال ، ودنيا واسعة لك ان تسميها سوقا أو مصرفا أو مصيدة من مصائد الحيلة والخديعة . . وليس لك أبدا أن تسمي هذه الدنيا في طور من أطوارها أو في جميع أطوارها عالما يسكنه بنو الانسان !

كلما دخلت أمة لعنت اختها . .

هذا هو الجحيم الشيطاني الذي زيفه الابالسة ، ولم يفرزه أحد قبل مقدم اخوانهم وانداده‍م في الحيلة والخديعة دعاة الشيوعيين !

وهذا بحق هو العالم المثالي للشر والفساد . .

وفي مثل هذا العالم قد يسهل العبث بكل كيان اجتماعي بناه التاريخ ، ولا يزال يبنيه ويوطد بناءه على اتصال بين ماضيه وتاليه . . قد يسهل العبث بهذه الابنية الاجتماعية في دور التحريض والتخريب ، ولكنها قوى اجتماعية لا يتأتى الاستغناء عنها في دور التأسيس والتنظيم . . ولا بد أن تحيق غوائل الحرمان منها بالمجتمع في جملته وبكل فرْد من افراده على حدة ، وقد حاقت بالمجتمع الشيوعي عواقب الحرمان من هذه القوى الحية ! . . قوة الكرامة الانسانية في « شخصية » الفرد ، وقوة العاطفة المتأصلة في كيان الاسرة ، وقوة الايمان بوجود بنى الانسان التي تعلو على منافع الطوائف والافراد . . فأحس المجتمع الشيوعي عواقب هدمها في اليقين الخواء والعواطف النخرة ، والحماسة المكذوبة من صنع الكلام في مصانع الاوهام . . فثاب اعداء الوطن والدين يتمسحون بالوطن والدين ، وقالوا في رثائهم للحرية الشخصية بعد موت « ستالين » ان اختناق الضمائر والعقول في عهده انما كان شهوة من شهوات استبداده ، خرج بها على مبادىء الدعوة المقدسة وخالف بها أناجيل « ماركس » و« لينين » ، وقالوا عن الاسرة انها قوام المجتمع كله أو قوام الوطن كما يسمونه الآن ، وقالوا عن وحيهم المعصوم ـ بعبارة وجيزة ـ أسوأ ما كان في عرفهم كفرا بواحا منذ عام او عامين .

ونحن لا نعلم أن « ستالين » كان في استبداده مخالفا لمبدأ من مبادىء استاذيه « ماركس » و« لينين » . . والمهم هنا هو مبادىء « لينين » بعد الحرب العالمية الاولى لان « ماركس » لم يحضر عملا من أعمال التنفيذ والتنظيم في الدولة الشيوعية ، ومبادىء « لينين » التي أعلنها في هذه الفترة صريحة في جواز الحكم المطلق وموافقته للمبادىء الشيوعية ، فانه يقول في الجزء الثلاثين من

مجموعة اعماله الروسية : « ان اشتراكية السوفيت الديمقراطية لا تناقض بحال من الاحوال قيام الدكتاتورية والادارة بيد فرد واحد . . اذ يتم في هذه الحالة تنفيذ ارادة الطبقة على يد حاكم بأمره يعمل على تعجيلها وقد يكون الزم لتحقيقها ».

فليس في استبداد « ستالين » خروج على مبادىء المذهب كما شرعها مؤسس المذهب في دور التنفيذ ، فاذا كان في الامر من جديد فالجديد فيه أنه هزيمة جديدة للمذهب في حربه للحرية الشخصية تتلو هزائمه الاولى في حربه للاسرة وللحرية الشخصية او للحقوق الشخصية المهضومة - قبل موت ستالين بسنوات - فجاء المذهب الذي جعل الملكية الخاصة ينبوعا لجميع الشرور يوحي بها ويبيحها في المزارع المشتركة ، وجعل من حقوق الفلاح في تلك المزارع أن يحتجز قطعة من الارض لسكنه وتربية دواجنه يملكها في حياته ويورثها بعده لخلفائه في المزرعة المشتركة ، ولا يسمى ذلك عندهم بالملك الخاص لانهم يسمونه بالسكن المقيم .

ومما ألممنا به في هذه الاسطر عن القوى الاجتماعية التي تهدمها الشيوعية ويبنيها الاسلام نعلم أن النظامين متقابلان لا يتلاقيان ، وأنهما متضادان مذهبا وخلقا ومجتمعا ولا ينحصر التضاد بينهما في العقائد والمعقولات .

فالشخصية الاسلامية التي تهدمها الشيوعية يوطدها الاسلام وينوط بها أوامره ونواهيه ، ويعرفها مستقلة لا واسطة فيها بين الخلق والخالق من سلطة دينية أو حكومية ، ولا حجاب فيها بين الارض والسماء .

(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

(ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزور وازرة وزر أخرى) .

والاسرة التي تهدمها الشيوعية يجعلها الاسلام سكنا للزوجين وموئلا للبر والرحمة بين الآباء والابناء .

(ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

(وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) .

والبنون من زينة الحياة الدنيا ومن نعم الله التي يحصيها على عباده .

ولقد يكون للآباء في الامم المقاتلة ، وفي غيرها هوى في ذرية البنين يغتبطون بهم ويزهدون في الذرية من البنات ، فالقرآن الكريم يؤنبهم على ذلك ويلهمهم شعورا غير هذا الشعور في محبة الذرية من بنين أو بنات :

(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) .

أما الشعور الانساني الذي لا يحجبه شعور الطبقة ولا شعور العصبة فهو الشعور بالاسرة الواحدة تجمع الشعوب والقبائل من أب واحد وأم واحدة ، وهو شعور الاخاء بين جميع المؤمنين (انما المؤمنون اخوة) . . (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) . . وذلك هو المثل الاعلى لنعيم الابرار .

***

والقوى التي تنعقد فيها المقارنة بين النظامين الاجتماعيين هي اشياء موجودة محسوسة الاثر ، يحاربها الشيوعيون لانهم يجدونها ويحسون أثرها ، ثم هم يجدون منها سدودا تصدهم وتعوق مبادئهم أن تنتشر بين الشعوب الاسلامية ، ولا تصدهم بسدود من التعصب الديني وحسب كما تصورهم العقائد الدينية الاخرى ، بل تلقاهم بالمبادىء التي تغنيهم عن مبادىء الشيوعية وبالنظام الذي يغنيهم عن نظامها ويحز في نفوسهم أنهم يحاربونها بمبادىء يرجعون بين آونة وأخرى عن مبدأ منها ، ويبتعدون عنه ليقتربوا من النظام الذي شنوا الغارة عليه وأرادوا أن يزعزعوه فما عتموا أن أيدوه وأكدوه .

وانهم لفي عداء عنيف للاسلام من أجل هذا لا من أجل أنه دين ينسبونه الى عمل الانسان ولا ينسبونه الى الوحي الالهي كما ينسبه المسلمون ، ولو كانت

قوى الاسلام الاجتماعية تطاوعهم وتجاريهم على سياستهم وعلى مطامعهم لما حاربوه ولا ضارهم أن يؤ من المسلمون بأنه من وحي الله لا من عمل الانسان .

فليست المشكلة بين النظامين مشكلة البحث « الاكاديمي » في مصدر الاسلام . . اذ يكون مصدر الاسلام ما يكون ، فهم محاربوه ما دام سدا في وجوههم لا ينفذون من ورائه الى السيادة على بلاد المسلمين .

ولغة الاشياء الموجودة هي اللغة التي يفهمها الشيوعيون ويجب أن يفهمها بين ظهرانينا نحن المسلمين تلك الشرذمة المتحذلقة التي تقيس الدين بجميع المقاييس الا مقياسه الصحيح الذي يصلح لتقديره .

فمن عجز العقل أن يحسب أنه يفرغ من قضية الدين الكبرى كما يفرغ من شهادة شاهد في قضية على حسب الواقع والرواية ، أو يفرغ من قضية الدين الكبرى كما يفرغ من حسبة رياضية بميدان الجمع والطرح ومعادلة الارقام . . فانما يوضع حساب الدين في موضعه حين يوضع معه حساب المتدينين به في جميع أوطانهم وأزمانهم وجميع احوالهم ومحاولاتهم ، والمتدينون به ملايين من الخلق يقيمون في أرجاء واسعة من الارض ويخلف اللاحقون منهم سابقين على دين أو على غير دين ، ومنهم العارف والجاهل ، والحكيم والاحمق والطيب والخبيث والقوي والضعيف ، والمسؤ ول عن قوم والمسؤ ول عن نفسه لا يضطلع بتبعة غير تبعاتها ، وهم يعيشون مع دينهم منفردين ومجتمعين في أعماق اعمق من أعين الرقباء وسلطان ذوي السلطان ، ويرتفعون معه الى شأو لا يضيئه العلم اذا احاطت به الظلمات .

واذا نظرنا الى الدين نظرتنا الى دواء يعالج به داء المجتمع ، فمن الخطأ أن نحسبه قارورة دواء تشرب ثم تلقى بعد فراغها ، فانما هو « نظام صحة » دائم يؤ تي فوائده على مدى اعمار المتدينين ، وأعمار المتدينين ألوف السنين .

ولكل قائل كلمته في مدى الزمان الذي يتطلبه الدين لاصلاح شؤ ون الامم الا . . الا الشيوعيين .

نعم الا الشيوعيين فلا كلمة لهم في العمر الطبيعي المقدور للدين ، لانهم

يفسحون لمذهبهم العمر من القرن العشرين الى ما شاؤ وا من القرون السبعين والثمانين والتسعين ، ولا سند لهم من اله أو نبي أو رسـول . . الا أن يكون « كارل ماركس » أو « لينين » أو « ستالين » .

محصول الدعوة

والمحصول من مراجعة الاشتراكية العلمية أنها اشتراكية طوبية غير علمية ، وأنها أشد امعانا في التخريف وبعدا عن العلم من الطوبيات التي قال « كارل ماركس » انه جاء باشتراكيته العلمية ليدحضها ويمحوها .

فلا يكفي أن يصف « ماركس » مذهبه بالاوصاف التي تعجبه لتثبت هذه الاوصاف ، ولا يكفي أن يملأ مذهبه بالارقام والاحصاءات لتزول عنه صفة الطوبية وتلصق به صفة العملية ، لان المعول في ذلك كله على الحصول من وعود المذهب وصوره المتخيلة . . وليس في الطوبيات جميعا ما هو اشد امعانا في التخريف والوعود الخيالية من هذه الاشتراكية المزركشة بالارقام والاحصاءات المسماة بالعلمية أو الواقعية أو المادية وما جرى مجراها من الاسماء .

« فكارل ماركس » يعد المصدقين به مجتمعا عالميا واحدا من طبقة واحدة لا سيد فيها ولا مسود ، ولا حاكم ولا محكوم . . يأخذ فيه كل حقه بغير زيادة ، ويعطي فيه كل حقوق الآخرين بغير بخس ، وينتهي فيه طمع الطامع وحيلة المحتال وكسل الكسلان كما ينتهي فيه حب الرئاسة والاستئثار ونزاع المتنازعين على مراكز التصريف والتدبير او تزول فيه مراكز التصريف والتدبير ويجري التصريف بغير مصرف والتدبير بغير مدبر . . . فلا يخطر لاحد أنه أحق بهذه المراكز من أخيه ، ويعم ذلك أقطار الارض من مشرقها الى مغربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، فيزرع الزارع بمقدار ما يلزم في الدنيا ، وتنتظم المواصلات والمبادلات بينها بغير رقابة ولا اشراف ولا تقدير سابق ولا حاضر من الموكلين بالتقدير . . واذا خطر لانسان أن يدع مسقط رأسه ليذهب حيث

شاء ذهب حيث شاء ، واذا خطر لغيره أنه يستثقل عمله ويستبدل به عملاً آخر تم هذا وذاك على ما يشاء حيث يشاء . . وفيما بين ذلك ينقطع للعلم من هو أهل للعلم ، وللفن من هو اهل للفن ، وللاختراع من يقدر عليه ، وللصناعة من يحسنها . . رخاء سخاء كما يهب الهواء ويهطل المطر ويتسلسل الماء بلا قناطر ولا سدود ولا هندسة ولا بناء ، ثم تطرد الامور على هذا الحلم البديع الى مدى يقصر عنه خيال الحالمين لانـه لا يحسـب بالعشرات أو المئـات ، بل يحسب بالملايين من السنين . .

مثل هذا التخريف يخجل منه كل حالم في طوباه ، ما لم يسبقه بتنبيه القارئين الى قصة منام أو ما يشبه المنام من أوهام الاحلام . .

الا أن الاشتراكية العلمية تزعم أنها ترفض هذه الطوبيات وتزدريها ولا تشغل الناس بأحلامها وأمانيها . . فماذا وقع في ذهن الداعية الى هذا المذهب حين تخيل أنه بعيد من الطوبيات وهو غارق في لجتها لا يملك أن يرفع عينيه من فوقها ؟

هنا ـ كما في كل موضع من مواضـع البحـث في هذه الخرافـة ـ نفتش عن الظاهرة النفسية فتهدينا الى السبب القريب ، ولا ضرورة بعده لسبب قريب أو بعيد . . فما الذي جعل « ماركس » يباعد بين مذهبه وبين الطوبيات ووعـود الطوبيين ؟ . . الفظائع التي في الطريق ! . .

ان الفظائع لا تلائم الطوبيات وأحلام الطوبيين ، ومـن كان يرسـل الخيال ليتمنى أحسن الاماني فليست فظائع الفتك وسفك الدماء والـوعيد بالخـراب والنكال أمنية يتمناها ويرسل الخيال ليسعد بها ويسعد الناس برؤ ياها .

لا طوبى هنا ولا طوبيون . . فماذا اذن غير الطوبى والطوبيين ؟ .

الفظائع التي في الطريق . .

ولا شيء في هذه الفظائع يناقض الواقع العلمي أو العلم الواقعي ، لان الناس تعودوا من الواقع أن يصدم الاحلام ويوقظ النيام ، وتعودوا من العلم أن يهـزأ

بالخيال ولا يحجم عن تقرير الحال والمآل في أشنع الاحوال . . فلا طوبى اذن في الاشتراكية الماركسية ، ولا نكوص فيها عن العلم والواقعية ، ولا مجافاة بينها وبين الطوبية ـ في الواقع ـ الا هذا الوعيد بالفظائع ، وهذا الجو الذي يعيش فيه « ماركس » ولا يستطيع ان يخرج منه بحسه ولا بعقله ولا بخياله ولا بمقاصده وآماله ، ولا يستطيع في الوقت نفسه أن يعتذر له بعذر غير « الواقع العلمي » المزعوم . . فانه بالواقع العلمي يستطيع أن يوفق بين الاشتراكية التي يدعو اليها وبين الفظائع التي يرصدها في طريقها ، وانه لأعجز ما يكون عن التوفيق بين الطوبية وهذا المذهب المشؤوم ، وان كنا نذهب الى غايته الموعودة فاذا هي خرافة من خرافات الاحلام يكاد أن يسمع منها غطيط النيام .

علم . . . ! اي والله علم !

هكذا قال « كارل ماركس » . . وهكذا ينبغي أن يقول وهو يحس الفظائع تملأ فراغ وجدانه وخياله ، فلا يستطيع أن يوفق بينها وبين نحلة من نحل الطوبيات ، ولا يستطيع أن يرسلها بغير عذر يشفع لها عند المستمعين اليها ولا عذر اليها ، الا انها « علم واقع » يضطره الى مواجهة المصير الذي لا مهرب منه . .

وماذا يصنع المسكين في العلم والواقع ، وفي المصير الذي لا مهرب منه ولا حيلة فيه ، ولا قرار دونه ولا فرار ؟ .

***

اذا استحق أحد سخرية الساخرين لهذا الخلط بين العلم وتلك الخرافة ، فلن يكون « كارل ماركس » أحقهم بالسخرية ، لان دعوى العلم عنده مهرب يلجأ اليه من سبة الفظائع التي يبشر بها ولا مسوغ لها من الاعذار الا أنها ضرورة قاسرة ، وليست بأحلام ولا بحديث من أحاديث الاسمار . .

انما السخرية في هذا الخلط حق لهوسة اللغط بالعلم في أواسط القرن التاسع عشر ، فانها هي التي جعلت تلك الخرافة اهلا للبحث فيها بمقاييس العلم وموازينه ، وهي قبل أن تقاس وقبل أن توزن واضحة النسب بينها وبين

الخرافة ، منقطعة النسب بينها وبين العلم والمنطق ، وبين الوزن والقياس .

ما الذي يوضع موضع النقد العلمي في هذه الخرافة ؟ . . انها تلفيقة من تلفيقات الفلسفة استعارها « ماركس » لنواميس المادة والمال . . كان هيجل يقول ـ على ما هو معلوم ـ ان الفكرة تعمل ضدين ، ثم يجتمع الضدان في تركيب واحد يخرج منه ضده دواليك الى الموعد الذي تبطل فيه الاضداد وتنطوي في الفكرة المطلقة أو الفكر المطلق لاول مرة منذ أزل الآزال الى الابد الموعود .

وجاء « ماركس » فقال ان هذه التلفيقة غلط في عالم الفكر يصبح صوابا لا صواب غيره اذا طبقناه على مسائل المادة والاقتصاد ، ثم أرسل النواميس الكونية تعمل على هذا النهج فلم تعمل شيئا على وفاقه اذا نظرنا الى تركيب عناصر المادة نفسها قبل كل تركيب . . فان عناصر المادة التي نيفت على المائة في العصر الحاضر لم تتسلسل واحدا بعد الآخر على النهج المزعوم ، بل ظهرت ـ أو ظهر اكثرها ـ أفقيا اذا صح هذا التعبير ، ولم يتغير عنصر منها وفاقا للضدية المزعومة منذ تم تركيبه مع غيره في طبقة واحدة من طبقات الوجود ، ونعني بالطبقة الواحدة أن تركيب العنصر منها لا يتوقف على التسلسل في الترتيب ، بل توجد الوف العوامل الطبيعية التي لا تستلزم خروج الضد من الضد في خط واحد ، ينتظر الاخير منه الاول أو ينتظر الاول منه الاخير .

بيد أننا نتمشى مع هذه النواميس الكونية كما يزعمونها ، فنرى أنها تتوقف عن العمل عند نشوء المجتمع البشري ، وتسلم هذا المجتمع للخلاف على الاجور ينوب عنها في خلق الاضداد التي تريدها الفلسفة المادية ، ثم يؤ ول الامر الى ثلاثين أو أربعين سنة في الربع الغربي من القارة الاوربية فينجلي لنا ختام هذه النواميس على النحو القاطع المانع الذي لا يسمح بمنفذ شعرة للمراجعة أو الانتظار ، فنحكم على الماضي حكماً لا مردّ له ونحكم على المستقبل حكماً لا مخرج منه ، ونعرف سر الكون كله من تلك السنين الثلاثين أو الاربعين التي قامت فيها الصناعة الكبرى ، وختمت فيها قصة الخلاف على الاجور .

هذه « الجزيرة » التي استقلت بها قصة الاجور عن النواميس الكونية تعود فتستقل مرة أخرى عن قصة الاجور يوم تنشأ فيها الطبقة الواحدة الموعودة . . فلا عمل فيها للنواميس الكونية الابدية ولا لقصة الاجور ، ولا أثر فيها لتلك العوامل الابدية التي ظلت تعمل من مبدأ الكون وتظل تعمل الى نهاية الكون في كل شيء الا في مجتمع الانسان . هراء وأقل من هراء . .

هراء لا يعطي من الثقة ما يكفي للجزم بهدم كوخ في قرية نائية . . ولكنه يكفي عند الماديين العلميين لهدم كل ما يخالفه من الماضي ، وكل ما يخالفه من المستقبل ، وتعطيل كل اصلاح يجيء من غير طريقه في أنحاء العالم المعمور ، ولو اقتضى ذلك اهدار جيل أو جيلين من تواريخ الامم في تلك الانحاء . . وانه ليقتضي على التحقيق اهدار جيل أو جيلين أو أجيال كثيرة اذا أدخلنا في حسابنا تباعد الاطراف وتباعد البنيات وطوارىء الزمن التي تأتي في خلال هذا الصراع بين الساعين الى الاصلاح والساعين الى تعطيل كل اصلاح في انتظار المجتمع الموعود : المجتمع الذي يستقل عن نواميس الكون وعن نواميس الاجور . .

أما أن هذه ثقة علمية تملي هذه النبوءات على الماضي والمستقبل الى ما وراء المجهول ، فذاك أبعد خاطر يخطر على بال العارف بحدود العلم وحدود هذه المسألة التي تتخطى حدود التفكير . . وأما أنها ظاهرة من ظواهر الامراض النفسية فهو التفسير ـ العلمي ـ الوحيد لتلك الدعوة ، ولا نقول التفسير القريب . . لان الهجوم على تلك الشرور الباغية بمثل ذلك السند الواهن لن يصدر الا عن مرض نفسي في طبيعة الاجرام .

وقد مضى القول عن عوارض الظاهرة المرضية التي كانت تحيك بنفس امام الاشتراكية ـ العلمية ـ « كارل ماركس » . . ومرض الفكرة كاف في الرجوع به الى مفكر واحد ، ولا سيما المفكر الذي انشأها وبث من حياته في اجزائها ، ولكننا واجدون امثال هذه العوارض في كل امام من أئمتها وكل داعية من مروجيها ، ولانريد أن نختار منهم جزافا ولا نستطيع أن نحصيهم جميعا لان احصاءهم الذي يحيط بهم قد يستغرق المطولات . . فلنتحدث عن زعيمين

من أكبر المنشئين للمذهب الشيوعي مع « كارل ماركس » وعن زعيمين آخرين من أكبر المنفذين له بعد قيام الدولة الشيوعية . . والزعيمان المنشئان هما « أنجلز » و« باكونين » والزعيمان المنفذان هما « لينين » و« ستالين » . . وسنرى بعد اجمال عوارضهم النفسية أننا أمام شرذمة من الاشرار والمخنثين والممسوخين تجردوا للغاية التي لا يتجرد امثالهم الا لامثالها ، ولن تكون بالبداهة غاية خير وصلاح .

* * *

« انجلز » كان مخلوقا مؤنث المزاج ، يكتب الى أخته وهو في الثالثة عشرة فيروي لها اخبار الكتاكيت التي يربيها وألوانها وشياتها والكتكوت الاسود الذي يأكل من يده اكلا لما كل ما يضعه فيها من طعام . وكان من طبيعته أن يقع تحت تأثير كل شخصية يعاشرها فترة من الوقت ، ولو كانت شخصية فتاة يعولها . . فكانت « ماري بيرنز » فتاته الايرلندية هي التي قادته الى وكر الثوار الايرلنديين ، ولم يكن مذهبه أن تستقل الشعوب الصغيرة لانه كان ينصح الشعوب الاوربية الشرقية بالاندماج في الاقوام الكبرى التي تحدق بها . . وانما قادته الفتاة الايرلندية الى حيث شاءت لانه سهل القياد . وقد نلمح في ثورته الوحيدة على « كارل ماركس » حين قصر هذا في تعزيته عن فتاته أنه أحس من صاحبه سخرية بهذه الرجولة المدعاة التي تمثل لنفسها دور العاشق المفجوع في العشيقة ، فكان جمود « ماركس » مثيرا له بما ينطوي عليه من هذه السخرية ، اذ كان ذلك الجمود أمرا يعرفه ولا يصدمه في هذا الحادث للمرة الاولى .

وعقدته الاخرى أن أباه الصارم كان يشعر بخيبة الامل من ميوعة ولده وخليفته في عمله ، وكان الاب شديد التدين على مذهب « كلفن » المشهور بالتعصب والحمية ، فأدخله مدرسة في رعاية أستاذ معروف بالصرامة والرياضة على الجد والعقيدة الدينية . . فلم تكن له طاقة بالجد ولا بالعقيدة ، وصادفته فترة من الشكوك العامة شاعت بين أقرانه في عصر « فيورباخ » داعية الفلسفة المادية « وستراوس » صاحب القول بالشك في وجود السيد المسيح . . فانتهى به الامر الى الفرار من العمل في مصنع أبيه ليعيش مع « كارل ماركس » في بروكسل ،

وكان يكتب الى « كارل ماركس » قبل ذلك متبرما بالحاكم أو الحارس أو المحافظ[1] المسلط عليه ، وهو يعني أباه .

وفي سيرة « باكونين » ـ امام الشيوعية الفوضوية ـ ايماء خفي أو صريح الى فجيعة في رجولته وعلاقاته بعشرائه من الفتيان المهاجرين الى سويسرا والمقيمين فيها ، وكان يقول لأحدهم انه بحاجة الى أم له ترعاه في هذه الغربة ! وكان يتزوج وهو يعلم أنه لا مأرب له في الزواج فتفارقه زوجته باذنه لتلحق بعشيقها في ايطاليا ، ثم تعود حاملا وتفارق الزعيم الثائر مرة أخرى بصحبة فتى من فتيانه « نشاييف »[2] فلا تنقضي أسابيع حتى تكتب اليه تبلغه أنها حامل وأنها ستعود للوضع لديه . . ورسائل هذه الفضائح محفوظة في سيرة ومذكرات أصحابه ، يجد القراء طرفا منها في كتاب المنفيين الخياليين لصاحبه « ا . هـ . كار » الذي قضى أكثر من عشرين سنة بين السفارات ومكاتب المخابرات .

ولقد آل هذا التراث الملوث الى زعيمين منفذين ، هما بالاجماع أكبر من تولى تنفيذ الشيوعية بعد قيام دولتها في بلاد القياصرة ، وهما « لينين » و« ستالين » وكلاهما ناقص التكوين من مولده ، وكلاهما منعوت بألسنة ذوية وأعرف الناس به أو بلسانه وما يتكشف من خلائقه في عرض كلامه . . وكل هذه النعوت خليقة أن تسلكهم فيما شاءوا من زمرة انسانية الا زمرة الصادقين في حب الخير والصلاح .

« لينين » تأخر في المشي حتى ولدت أخته التي هي أصغر منه فتدرب على المشي معها ، وعللت أخته الكبرى ـ أنا ـ في مذكراتها عنه هذا التأخير بكبر دماغه . . وكبر ـ كما قالت أخته هذه ـ وليس له صديق حميم بين لداته وان كان منهم من يحبه[3] وجاء في مذكرات « كيرنسكي » عنه وهو مولود في بلده ـ أنه كان مطبوعا على القسوة منذ صباه ، وكان يتلذذ باطلاق بندقيته على القطط

---

(1) Governor

(2) Nechaev

(3) The Romantic Exiles : by E .H .Carr

وكسر أجنحة الغربان ، وهذه كلمة خصم قد يتهم في شهادته لو لم تؤ يدها كلمة « أوجين شيركوف » من لداته في المدرسة بقازان : « انه كان دائما مخضب اليد ، وبالامس قتل ببندقيته قطة صغيرة » ـ وتزيد اخته ـ أنا ـ في مذكراتها على ما تقدم من وصف أخيها أنه كان لا يحضر معه الى البيت أحدا من زملائه في المدرسة ، وكان يجتنب زملاءه في خارجها ، أو يقضي اوقاته في عزلة عن الصحاب . ولما انتظم في جماعات الثوار كان منه الفريق الذي يستبيح الفتك والارهاب وكتب في سنة ١٩٠١م : « اننا لم نمنع الفتك والارهاب قط من جهة المبدأ ، وانهما قد يكونان من ضروريات الكفاح التي لا غنى عنها » . .

ولا يخفى أن التراجم التي كتبت عن « لينين » وعرضت لسيرته من مولده الى نهاية حياته سيل لم ينقطع منذ اشتهار اسمه بعد الثورة الروسية ، تحرينا منها ما كتبه اقرباؤه وأبناء بلده لانهم اولى بمعرفته وأبعد من مطعن التحامل عليه ، وراجعنا ـ مع هذا ـ غير تلك التراجم ، فلم نجد فيها ما يخالف الصورة التي صورها له أقرب الناس اليه وأرغبهم في الثناء عليه ، صورة مخلوق ناقص التكوين ناقص العاطفة ، بينه وبين أبناء نوعه جفوة ان لم تكن قطيعة ، تغري بالعداء ولا تغري بالولاء .

وفي رأينا ان كلمة منه هنا ـ وكلمة هناك ـ أحجى من كل ما قيل عنه أن تبرزه في صورة العاطفة الناقصة وما تنم عليه من التكوين الناقص ، وهو القائل فيما نقلناه عنه من غير هذا الفصل ان سياسته مع الخصم ان يمحوه من على ظهر الارض ويعفي على أثره ، وهو القائل في حديث عابر رواه عنه : « جوركي » الكاتب الروسي المشهور : انه يخشى مغبة التلطف مع الناس ، ولم يقل ذلك في كلام عن العداوة السياسية أو المذهبية ، بل قاله وهو يستمع الى الموسيقى التي كان يحبها كما يحبها جمهرة الروسيين .

روى « جوركي » انه استمع يوما الى لحن من ألحان « بيتهوفن » فقال له انه يود أن يسمعه صباح مساء ، وأنه على حبه الموسيقى يحذر أن يصغي اليها طويلا لانها ترقق العاطفة وتهم بيد السامع ان يربت على رؤ وس من حوله .

وينبغي على كل حال أن يحذر الانسان التربيت بيده على رؤوس الناس ، لانها قد تصادف هناك عضة تستأصلها . . »[1] .

انسان يحسب أنه على خطر من العطف والرحمة ، وانه لا يجد الامان مع الناس الا على الحذر والاتقاء . وعلى هذا الحذر والاتقاء لا نعلم من سيرته أنه حذر الفطنة واتقاء الوعي الذي يدرك به طبائع الناس ممن هم أولى بادراكه لاشتراكهم معه في الدعوة ، وملابستهم اياه فيما يعلمونه على توالي السنين جهرة وخفية ، فقد كان على خبثه لا يقدر على ذلك « التعاطف » من الجانب المقابل لجانب الاشتراك في المودة والتفاهم « الشعوري » بغير كلفة . . فلم يفهم نفوس اعدى اعدائه المتجسسين عليه والمرائين له بالحماسة والغيرة والمجانسة في الرأي والشعور ، وكان له أربعة من أخص الخواص عنده يعملون لحساب الحكومة ويحتلون مراكز القيادة في حزبه ، ومنهم « آزيف » رئيس فرقة المقاتلين ، و« مالنوفسكي » محرر « برافدا » لسان حال الحزب زعيم النواب الشيوعيين في الدوما ، و« ميرون شرنيمازوف » زميله في تحريرها وأمين صندوقها بالتناوب مع الجواسيس الآخرين و« كوكوشكين » رئيس شعبة موسكو المدخرة لتنفيذ الانقلاب في ساعة الخطر ، وسيأتي أن « ستالين » ـ خليفته ـ كان واحدا من هؤلاء الجواسيس المؤتمنين على أسرار الحزب والزعامة في احرج اوقات « الجهاد »[2] .

ان هذا الجهل بضمائر الناس ـ مع ذلك الحذر ـ معناه نقص العاطفة من طرفها الآخر ـ او معناه انحصار العاطفة انحصارا لا مجاوبة فيه بينه وبين أبناء حواء على العداء ولا على الولاء .

***

وقد أصيب « لينين » بالعجز التام عن الحركة في اواخر أيامه ، قيل : من اثر

---

(١) محادثة مع جوركي في رسالة الماركسية والادب لادموند ويلسون Edmund Wilson

(٢) كتاب « الثلاثة الذين صنعوا الثورة » تأليف برترام وولف Three Who made Revolution : by Wolf

رصاصة لم تقتله ، وقيل من أثر النقص الذي كمن في تكوينه وظهر مبكرا في عجزه عن المشي قبل الرابعة ، وتتواتر الشائعات بين المطلعين على أخباره ومنهم « تروتسكي » ـ أنه مات مسموما ، ولم يمت مباشرة بفعل الفالج الذي كان يعاوده في السنة الاخيرة كلما خفت وطأته عليه ، وأن « ستالين » عجل بسمه خشية على مركزه في الحزب بعد وصية « لينين » التي نصح فيها لاعضاء اللجنة العليا فيه بالتخلص من « ستالين » وإسناد « السكرتارية » الى غيره .

***

واذا انتهينا الى البحث في طبيعة « ستالين » فنحن أمام « شخصية مفسرة » تتقارب فيها الشقة بين اقوال الشيوعيين واعداء الشيوعية ، وتتكرر من أعمالها دلائل الاجرام التي لا حاجة بها الى أقوال الانصار والخصوم .

وقال عنه « لينين » في رسالته الى لجنة الحزب العليا انه فظ خبيث دساس لا تؤمن عاقبة كيده على الحزب والمذهب ، وكان اعضاء هذه اللجنة عند الظن بأمثالهم في أمر هذه الوصية ، فانهم لم يستمعوا فيها لصوت الوفاء الواجب لزعيم على فراش الموت . . ولم يستمعوا فيها لداعي الامانة والغيرة على المذهب ومصيره ، واستمعوا لصوت واحد هو صوت الرهبة والرغبة بين يدي الرجل الذي قبض على أزمة الدولة بكلتا يديه ، واستطاع بعد قليل ان يطرد من البلاد الروسية زعيما في طبقة الزعيم المتوفى ، وهو « تروتسكي » الذي لقي مصرعه بعد نفيه على أيدي اجراء « ستالين » .

وشهادة « لينين » على صاحبه اخف محملا على سمعته من شهادة الزعماء الذين خلفوا « ستالين » وشاركوه في الحكم مدة لا يقل أقصرها عن خمس سنوات وقد يبلغ اطولها الثلاثين : فقد عرف العالم منهم بعد موت « ستالين » بثلاث سنوات انه « كذاب سفاح يهدر الارواح بالمئات ويسخر مناصب الدولة الكبرى لخدمة شهواته واشباع شذوذه الجنسي الذي اتسم بجنون القسوة أو السادية . . » وأجمعوا كلهم على أنهم كانوا يذهبون اليه ولا يكادون يصدقون بالنجاة وهم خارجون من عنده ، وأنهم كانوا يعلمون جزاءهم لديه اذا خامره الشك فيهم أو الخوف منهم ، فقد سامهم أن ينتزعوا من الابرياء اعترافهم

المغصوب بجرائم الخيانة والمؤامرة على الشعب والدولة ، وان يكرهوا اقاربهم على رفع العرائض المعجلة يلتمسون فيها الاسراع بانقاذ البشرية من الابرياء المحكوم عليهم ، والمبادرة باخماد انفاسهم التي يتلوث بها هواء الوطن المقدس . . ومن هؤلاء الاقارب امهات وآباء وبنون وبنات .

والثابت بغير حاجة الى الاثبات من أقوال الاقطاب الشيوعيين أن زعماء الحزب الذين قتلهم « ستالين » في محاكماته لا يقلون عن ثلاثة أضعاف الزعماء الذين قتلهم جميع القياصرة ، وان ضحايا عهده بلغوا الملايين من القتلى والسجناء والمنفيين والمفقودين .

ونقص التكوين في « ستالين » حقيقة لا حاجة بها الى الاثبات من الاصحاب او الخصوم ، فانه لم يقبل في الجندية لذواء ذراعه اليسرى والتحام اصابع قدمه واختلاج في نظره . . واجرامه المطبوع ، كذلك من الحقائق التي لا حاجة بها الى الاثبات من قادح أو مادح ، لانه ثبت من دوائر الحزب كما ثبت في دوائر الحكومة . . اذ بلغ من استخفافه بالارواح انه القى على مركبة البريد تلك القذيفة الجهنمية التي اشتهرت فيما بعد « بقذيفة تفليس » ، ولم يحفل بأرواح الابرياء الذين كانوا في مركبة البريد طمعا في المال المحمول عليها لصرف « مرتبات » الموظفين . . ولما شاع خبر هذه القذيفة نكب الحزب في سمعته بين سواد الشعب وخيف عليه الانحلال ، فتقرر فصل « ستالين » من الحزب سترا للمظاهر وحماية للارهابيين من مطاردة الاهلين الذين كانوا يعطفون عليهم قبل تلك الجريمة النكراء .

***

وأما الطامة الكبرى بين وصمات هذه الشخصية التي لا تفرغ وصماتها ، فقد كانت مجهولة قبل انفجار السخط عليه من أتباعه وخلفائه ، فلم يكن أحد من غير القلائل المعدودين يعلم أن « ستالين » كان جاسوسا قيصريا الى ما قبل سقوط القيصرية بقليل ، وأن الذين عرفوا ذلك السر المرهوب قد هلكوا جميعا في المحاكمات الملفقة حين علم باطلاعهم عليه ، ولم يفلت منهم غير فئة بقيد الحياة تعد على أصابع اليد الواحدة .

كانت أضابير الجاسوسية القيصرية تملأ المخازن والاقبية في دواوين متفرقة يتبع بعضها وزارة الخارجية ، وبعضها ادارة الشحنة السياسية ، وبعضها ادارة الشحنة العامة . . وكل منها مقسم على حسب المتهمين المراقبين في الداخل والخارج ، وعلى حسب الاماكن التي يقيمون فيها والطوائف التي ينتسبون اليها .

ووقعت هذه الاضابير في مبدأ قيام الدولة الشيوعية في يد « ستالين » أمين سر الحزب ، فوكل بها أقرب الناس اليه وأخزاهم عورات في نظره . . وكان هذا غاية ما يتمناه البريء الشريف والمتهم المريب من رجال الثورة بعد زوال القيصرية ، فلم يكن في مقدور احدهم أن يتخذ لنفسه حيطة اكبر من هذه الحيطة . . اذ كانت ابادة هذه الاضابير وراء الطاقة في سلطان واحد منهم لكثرة الاضابير وتعدد مواضعها واستحالة الاعتماد على فرد او أفراد معدودين في اتمام هذه المهمة . . فضلا عن الشبهة القوية التي تتجه الى صاحب الامر المهيمن عليها ، وقد يكون بقايا الاضابير مفيدا لصاحب الامر هذا في تهديد خصومه واكراههم على طاعته واستطلاع الاسرار التي تستغل في حينها برقابة اعوانه ومأمن من رقابة خصومه .

جاء دور المحاكمات أو التطهيرات ، فأمر « ستالين » صنيعته « بريا » أن يستخرج من الاضابير وثائق تدين الزعماء الشيوعيين المقدمين الى المحاكمة . . فعهد بمهمة التنقيب في ملفاتهم وملفات اصحابهم الى ثلاثة أو أربعة من مرؤ وسيه ، وكان المطلوب أن يعثروا على أوراق تدين الزعماء المغضوب عليهم . . فان لم يعثروا على الاوراق المطلوبة فعليهم أن يستخرجوا أوراقا تدين اناسا غيرهم من الاحياء ، وعلى هذه الأوراق يستند رجال « بريا » في تهديد اصحابها وارغامهم على أداء الشهادة التي تدين الزعماء المغضوب عليهم . .

وفي احدى هذه التنقيبات ، لمح الموظف المطلوب ـ وهو من الشيوعيين المخلصين ـ صورا لستالين ورسائل مكتوبة بخطه الذي يعرفه حق المعرفة ،

فما لبث ان تصفحها وعرف مضامينها حتى ارتاع وخشي على نفسه مغبة الرجوع بهذه الاوراق الى رئيسه « بريا » لانه أيقن انه هالك لساعته اذا عرف رئيسه انه مطلع على سر كهذا السر الرهيب . . . ولم يجد احدا يطمئن الى شرفه ونزاهته غير رئيسه السابق في الجندية المارشال « توخاشفسكي » الذي ذهب ـ فيما بعد ـ ضحية لهذا السر القاتل ، وذهبت معه فئة من خاصة زملائه اطلعوا على الاوراق لاقناعهم بتدبير الانقلاب العسكري الذي يقضي على سيطرة الطاغية ، فتسرب منهم سر المؤامرة ولم يتمهل الطاغية في النكال بهم الا ريثما يهتدي الى موضع الاوراق ، ولم يهتد اليه قبل وفاته فيما يقال .

وقد عاش من العارفين بهذا السر في خارج روسيا اثنان : « اسكندر أورلوف » صاحب كتاب جرائم ستالين ، و« اسحق ليفين » مؤلف احدى ترجماته المتداولة ، ووثائق هذا الكاتب الاخير وصلت الى يده قبل أربعين سنة فأودعها خزانة من خزانات المصارف بقيت فيها مختومة مجهولة المحتويات الى شهر مارس من هذه السنة « ١٩٥٦ »[1] . أما الكاتب الآخر « أورلوف » فقد أذاع خبر وثائقه على حدة بعد انتهاء الحملة على ستالين من جانب الكرملين ، واوجز بيان القصة في مقال نشره بعدد (١٤ مايو سنة ١٩٥٦) من مجلة « لايف » وأفشى فيه ما كان يومىء اليه في كتاب ايماء قبل سنتين ، خوفا من مطاردة ستالين له حيث يقيم واشفاقا على من بقي من ذويه في البلاد الروسية .

***

ولقد أوردنا هذا الخبر عن خدمة « ستالين » للجاسوسية القيصرية لانه بعض المعلومات المجهولة التي أضيفت الى تاريخه ، وجرت في مجرى المعلوم المتفق عليه من حوادث ذلك التاريخ . ونحن ـ في الحق ـ لا ندري ماذا يزيدنا هذا الخبر من العلم بخلائقه التي يقل الخلاف عليها بين أنصار الشيوعية وأعدائها . . فان خلائق الاجرام والغدر والخبث وتسخير المذهب في خدمة الشهوات والاهواء كلها من الوقائع المتواترة التي قلما تحتاج الى أقوال يتقارب

---

(١) اودعت هذه الوثائق في مصرف المبادلات الكيمية بنيويورك Chemical Corn Exchange Bank

فيها الاصحاب والخصوم .

وان يكن ثمة من شيء يوضحه هذا الخبر عن خدمته للجاسوسية القيصرية لم يكن واضحا من قبل هذا الوضوح ، فهو سر « المهارب » الكثيرة التي نسبت الى فرط الدهاء وبراعة الحيلة . . فقد كان من الالغاز المبهمة التي فسروها بدهائه وحيلته انه كان لا يعتقل مرة الا تمكن من الهرب ، ثم تمكن من الوصول الى مؤتمرات الحزب التي تعقد في العواصم الاوروبية . . ولم يكن من الاحتمالات المظنونة يومئذ أن حضوره تلك المؤتمرات وظيفة يؤديها للجاسوسية القيصرية ، فلا ألغاز اذن في تلك « المهارب » المثالية ، لان سرها الخفي لم يكن من عمله بل من عمل معتقليه .

وبعد فان هذا الاستطراد الى الالمام بطبائع الزعماء الشيوعيين انما دعانا اليه أنهم جميعا ممن يفسرون لنا دعوتهم بما ركب فيهم من الشر والعوج وسوء الطوية . . . وليس هؤلاء الزعماء الخمسة ممن يختارون جزافا لابراز هذه الظواهر المرضية فيهم وفي دعوتهم ، فانهم زعماء المذهب المفروضون على كل باحث يذكر المؤمنين من زعمائه المؤسسين . ولو أضفنا اليهم مائة سيرة من سير النابهين في المذهب لما غيروا شيئا من هذه الظواهر المرضية بين أناس مطبوعين على الشر ، وأناس مشوهين ممسوخين يحز في نفوسهم ما يعتلج بها من النقص وفقد الرجولة .

ومن الواجب على الباحث العصري أن يلتفت الى خطر هذه الاحنة التي تبين من تحقيق النفاسيين أنها افشى مما كان مقدورا لها وأوبل خطرا على المجتمع من سيئاتها الفردية . . فان استقامة الغاية أبعد شيء عن مخلوق لا هو بالرجل ولا هو بالمرأة ، ولا يجهل أنه محتقر في مقاييس المجتمع فلا يزال في باطنه مشغولا بتحقير كل قسطاس قويم مولعا بالكيد والمماحكة على دأب الممسوخين المحرومين من ثقة الرجولة وثقة الانوثة على السواء ، ولعل الشرير المطبوع على الشر أو التواء الفهم من أصحاب هذه الاحنة التي تلتوي بالضمائر والعقول فلا يفهم من تخفى عليه طواياها فيم هذا الالتواء ، ولا حاجة بها الى الفهم في الواقع ، الا أنها لا بد أن تكون هكذا نقيضا لاستواء الضمائر

والعقول .

والشر الذي يغلق كل باب من أبواب الاصلاح غير بابه الى النقمة والنكال ، قد يكون حلا مرضيا للمشكلات المرضية في طبائع هؤلاء الممسوخين ولكنه لن يكون حلا علميا لمشكلات العصر كائنا ما كان مبلغ العرفان الذي يستند اليه . .

فلا تفسير لدعوة الشر المطبق الا سخيمة الشر المطبق في نفوس الداعين اليه ، ولا جديد في أمر هؤلاء الداعين في القرن العشرين . . انهم بلية هذا العالم في كل زمن ، وانهم الخلفاء المسبوقون بالاسلاف في كل وطن ، ومنهم أسلاف في عصر كل دعوة الى الاصلاح ؛ ومنهم أسلاف في عصر الدعوة المحمدية يدل عليهم ما جاء في القرآن الكريم : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) .

فهذا الشر المطبق هو الشر المانع للخير . . الشر الذي يصدر عن طبيعة تنطلق مع الاذى وتحس بالخير كأنه حجاب يخنقها أو سور يصدها فلا تطيقه حاضرا ولا تطيقه أملا يسعى اليه من يرجوه .

وتلك كانت شنشنة الدعاة الذين قرروا أسبابهم الواهية ، وقرروا أن يربطوا بها الماضي والمستقبل ولا يدعوا منها سببا واحدا يرتبط بغير ما ربطوه . . . وقرروا مع هذا وذاك انها كافية للهدم والنكال ، كافية لتحريم كل سعي الى التقدم والامان ، كأنه تجديف أو تعديل في محكم التنزيل .

***

واذا كانت الظواهر المرضية هي التفسير الحاضر القريب لبواعث الدعوة من نفوس واضعي المذهب ومنفذيه ، فهي - فيما عدا المتعجلين من العابثين والمخدوعين - أقرب تفسير للاقبال على الدعوة بين الطغام الذين لا يفقهون من مجادلاتها ومباهلاتها الا أنها تخف بهم الى الشر فيخفون اليه بما طبعوا عليه من النقمة والحقد وكراهة الخير لكل محسود ينفسون عليه حظه من دنياه ، وتأتي اليهم الشيوعية - وهم متحفزون قبلها للشر محجمون عنه أحجام الخوف

والشك ـ فتغريهم به وتجمله في أعينهم وتسميه باسم التقدم والاصلاح ، ولا تكلفهم جهدا من الاخلاق ولا جهدا من التفكير بل تعفيهم من كل جهد كانوا يستثقلونه في ظل العرف المأثور وترسلهم مع الغريزة الوحشية خفافا الى الاذى غير محجمين عنه ولا مترددين بين مسالكه ، ولا مرتابين فيما يستحقونه عند امثالهم من الحمد والتشجيع على هذا الصنيع .

وفيما عدا المتعجلين من العابثين والمخدوعين لا تعني الشيوعية عند المقبلين عليها الا أنها الجريمة الممنوعة تسربلت بالزينة والجمال في زي التقدم والاصلاح ، وقد كانت الجريمة محرمة عليهم وهي موسومة بشناعتها وخستها وهم لا يمسكون انفسهم عنها ولا يقدرون على مقاومتها ، فاذا لاحت لهم مزوقة محبوبة مشكورة ، فأحرى بهم أن يفتتنوا بها ولا يكون قصارى الامر معها انهم يتهيبونها ويعالجون الابتعاد عنها فيستطيعون أو لا يستطيعون .

والمتعجلون الذين يستثنون من هؤلاء الاشرار المطبوعين فريقان : فريق العابثين اصحاب الدعاوى الباطلة على المجتمع ويكثر عديدهم بين أشباه المتعلمين ، وفريق المخدوعين الذين يصيخون لوعود البر والعطف ويكثر عديدهم بين المحرومين الذين يطلبون الانصاف بحق ، ولكنهم يصدقون كل وعد مكذوب يستغلهم به المحتالون الدجالون ، او يستغلون به لهفتهم على الانصاف وطيب العيش باسم الشيوعية أو باسم ما شاء المحتال الدجال من فخاخ المكر والضلال .

يكثر عديد العابثين بين أشباه المتعلمين لانهم لا يفهمون من التعلم الا أنه حجة الدعوى على المجتمع المسكين ، يجيبها لهم طوعا أو يكون اهلا للشكوى والاتهام وأهلا للتحلل من قيوده والتمرد عليه . . شكواهم على قدر دعواهم ، ودعواهم على قدر غرورهم بما يسمونه العلم ، وهم براء منه لانهم يجهلون ابسط حقائق الحياة . . وأبسط حقائق الحياة أن يعمل العامل فيتعثر في طريقه مرة ، ويستوي على نهجه مرة أخرى ، ويظفر مع الزمن بحقه المقدور على حسب اجتهاده وكفايته . . ولا يوجد في الدنيا ـ وهيهات أن يوجد فيها ـ مجتمع يقف على باب المدرسة ليلقي على اجازة التعليم نظرة عاجلة ويلقي بين

يلذي صاحبها آكام الثروة ودسوت المناصب وشارات المجد والفخار ينتقي منها ما يهواه ويرفض منها ما ليس على هواه . .

ولقد سمعنا من هؤلاء من يقول : انني أحمل الاجازة المدرسية التي يحملها رئيس الوزراء ، فلماذا اتسكع انا على أبواب الدواوين ويتمتع هو بأكبر المناصب وأفخر الالقاب ؟ . .

وما رأينا احدا من هؤلاء يسأل نفسه : أين هو المجتمع الذي يحاسبه بهذا الحساب ويعترف له بالحقوق في الحياة العامة أو الحياة الخاصة على هذا الاساس . .

انهم لا يسألون انفسهم هذا السؤال ، لان العبث بالمذاهب أيسر لهم من السؤال والجواب ، ومن احتمال الحقائق على الخطأ أو على الصواب .

وأوضح عذرا من هؤلاء العابثين اولئك المحرومون الذين يصغون لكل « وصفة » اجتماعية اصغاء المريض الحائر لكل من يخلط له الدواء ولو عالج الداء بالداء ، لان الشعوذة ـ كيفما كانت ـ أمل أحب اليه من الصبر على البلاء ، وادنى الى مستطاعه من التمييز بين دواء ودواء .

هؤلاء يقبلون على الشيوعيين كما يقبلون على غير الشيوعيين ، وينخدعون كلما انفتح أمامهم باب الخديعة فلا يتعظون بالحوادث ، ولا يقدرون على المراجعة بين ماض وحاضر ولا على المقابلة بين خادع وخادع . . ولعلهم لا يحبون تلك المراجعة ولا يستريحون اليها ، لانها عناء يشغلهم عن التعلل بالرجاء .

وقد استجابت جماعات من هؤلاء المحرومين لالوان من الدعوات في قارة واحدة هي قارة أمريكا الجنوبية . . استجابوا في تلك القارة لمن ينادي بالشيوعية ، ولمن يحرم الشيوعية ويعاقب عليها . . ولم يمض غير قليل حتى تجلى لهم عيانا أن داعية الشيوعية يعيش في قصوره عيشة القياصرة ، وان داعية الدين يكفر به ويتبرأ منه ويفسق في مخادعه فسوق الشياطين . . وفتحت أبواب هذا الداعية لعباده بالامس ، فخرجوا يقولون : « ما كان اغفلنا من

حمقى . . ».

لماذا ؟ . . انهم لم يجدوا هنالك ترفا يشتهيه العاقل او يحمده الذوق السليم ، بل وجدوا الترف الذي يختلط فيه جنون الشهوة الجامحة وبطر الذوق الممسوخ . . ومن أفانينه عدة تليفونية مصنوعة من الذهب مرصعة بالجوهر ، يدور منها في مكان الجرس بلبل يغرد تغريدة الدعاء .·. كلما طلب الرقم للحديث . . في شؤ ون الاصلاح والتعمير والانشاء . .

هؤلاء هم المتعجلون المخدوعون . .

وأولئك هم المتعجلون العابثون . .

وربما استمع كلاهما لدعوة الشيوعيين وهم على فطرة قويمة سليمة ، لولا داء الضرورة وداء الغرور . . وليس كذلك من عداهم من الملبين لتلك الدعوة والمستجيبين لغوايتها ، فمن عدا المتعجلين المخدوعين والعابثين هم في الغالب شيوعيون مولودون ، موجودون في الدنيا ولو لم يوجد فيها « كارل ماركس » واعوانه من الزعماء المؤسسين والمنفذين . . وشأن الاتباع كشأن الزعماة في الولع بالشر اينما ثقفوه والمبادرة اليه كلما استطاعوه ، لا ترى فيهم الا مضطغنا ينتظر أن يضطغن عليه ، أو ممسوخا يستمرىء القسوة والعداوة ولا يستمرىء الرحمة والمودة ، أو مشتملا على خزي دفين يتحدى به العالم تبجحا ومروقا من الحياء ، ولن يشقى زعماؤه المتصدون لاقناعهم بشقاء العنت في الاقناع كما يشقى زعماء الدعوات التي تجشم الناس جهدا في الاخلاق او جهدا في التفكير . . وانما العناء مع هؤلاء أن تثنيهم عن غزيرة تعبت في رياضتها الوف السنين ولم تثنهم عنها ، وأن تبعدهم عن النكسة الى ضراوة الهمجية . . وقد وجدوا من يتغنى بها ويقول لهم انها هي التقدم والوثوب الى الامام ! .

***

ومحصول الدعوة ومن يدعو اليها ومن يلبيها ، انها داء يعالج معالجة الادواء ويحمى منه الاصحاء . . وقلما يقع فيه الصحيح الا وهو شبيه بمرضاه في

عرض من الاعـراض يحجـب الارادة في نفـوس لا تستعصـي ارادتهـا علـى الحجاب ، ويضلل الفكرة في عقول لا تمتنع علـى التضـليل ، وبين هؤلاء الاصحاء الشبيهين بالمرضى جماعة المخدوعين وجماعة العابثين .

ومما يحزن العاطفين على ضحـايا الخـداع أنهـم معـذورون يشفـع لهـم عذراللهفة والحرمان ولا ترحمهم الحوادث لانهم معذورون ، فما كان السقام ليرحم مريضا يؤثر الشعوذة على الطب ويعـرض عن الـطبيب الامين ليهـرع باختياره الى تجرع السموم من يد المحتال الاثيم .

ومما يحزن العاطفين على ضحايا العبث والغرور ، انهم يهزلون بالشكوى فلا تمهلهم الشكوى الهازلة ان تعلمهم الحد في شكواهم ، وان تبتليهم بالآزفة القاصفة ولا ترثي لبلواهم ، فلا يلقون لديها الا الجد الصارم ولا تلقى لديهم الا ندامة الهازل المغرور !

ولقد خرجنا من محصول المذهب بغنيمة الصحة منه اذا عرفنا دخيلته وايقنا ـ بعد ما ابتلى من مرضاه واشباه مرضاه ـ وأنه ليس بالفكرة التي ينفذها البرهان ، ولا بالمطلب الذي يرضيه الانجاز . . ولكنه مرض لا نسلم منـه الا أن نتتبـع مواطن جراثيمه ، وأن نتتبع مع هذا اسباب سريانه وانتقال عدواه ، وهان بعد ذلك كل خطر يغشيه من وحي العلم أو التفكير .

الحاضر

حاضر الشيوعية في منتصف القرن العشرين نتيجة لقرن كامل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، مضى اكثره في الدعاية والجدل ، ومضت البقية منه في التطبيق أو محاولة التطبيق ـ بعد الحرب العالمية الاولى أي منذ أربعين سنة تزيد على تاريخ جيل كامل بحساب الاجيال البشرية ، وتكفي لامتحان فلسفة الحياة التي تطبق في خلالها من المهد الى عنفوان الشباب .

وقد أتيحت لدعاة المذهب خلال هذا الجيل فرصة لم تكن متاحة قط لمذهب اجتماعي أو عقيدة دينية ، لانهم ملكوا أزمة الحكم بين مائتي مليون انسان ، واجتاحوا كل عقبة قائمة أو تخيلوا انها قائمة دون غايتهم ، ولو كلفتهم ما لا يحصى من الارواح واستباحوا من أجلها كل ما لا يستباح .

والحاضر ـ بعد هذه الفرصة التي دامت لهم اكثر من جيل كامل ـ ان مبادىء الفلسفة المادية لم تصنع شيئا غير ما يصنعه كل قابض على زمام دولة من الدول الكبار على الخصوص . . لان الاستكثار من الاسلحة والمصنوعات الضخمة سياسة تمت على أيدي النازيين في المانيا ، والفاشيين في ايطاليا ، وهم يناقضون الشيوعية في قواعدها ومقاصدها ، ويدينون بالمبادىء التي قامت الفلسفة المادية لمحاربتها وادحاضها . وهذه السياسة بعينها هي السياسة التي تمت على ايدي الرهط الاستعماري من نبلاء اليابان ، فأنشأوا في بلادهم صناعة وافية باغراض التسليح و« التصنيع » وبذر السلع المصنوعة في اسواق العالم بأيسر الاسعار .

وما أنجزته هذه السياسة في الدول الكبرى قد انجزته سياسة مثلها في الدول الصغار ، وشهدنا نماذج منه في بعض الاقطار الاوربية وما شاكلها من الاقطار

البدائية او الشبيهة بالبدائية في امريكا الجنوبية ، فليس في هذه السياسة فضل خاص للمذاهب الشيوعية أو لفلسفة « كارل ماركس » وأتباعه الروسيين .

وفيما عدا التسليح والتصنيع ، يقال على الاجمال ان التجربة في الدولة الشيوعية الكبرى قد نجحت بمقدار ما تركت من المذهب لا بمقدار ما اخذت منه ، لانها تبتعد سنة بعد سنة من عقائد المذهب الذي قامت عليه ، ولا استثناء في ذلك لعقيدة واحدة من تلك العقائد ، سواء منها ما يعم الحياة الاجتماعية وما يخص الحياة الفردية .

لا « ماركسية » اذا كان هناك دين ووطنية وأسرة وملكية خاصة وطبقة حاكمة وتفاوت في درجات المعيشة كالتفاوت في مجتمعات رأس المال بين اغنى الاغنياء وافقر الفقراء .

وكل ما في الدولة الشيوعية ، في الوقت الحاضر بعد أربعين سنة ـ يدل على الاعتراف ثم المزيد من الاعتراف بتلك المحرمات المحظورات التي قامت الماركسية لمحوها أو للابتعاد منها عاما بعد عام ، فلا يكون عامها الاربعون اقرب الى مجتمعات رأس المال من عامها العاشر أو العشرين .

فالزعماء الملحدون قد اضطروا على الرغم منهم الى الاعتراف بالكنائس والشعائر الدينية في مجتمع تسلموه منذ أربعين سنة ، أي في مجتمع ليس فيه احد من العاشرة الى الخمسين لم يتتلمذ لهم ولم يسمع منهم في المدارس والمعاهد العامة والاندية او المتاحف الموقوفة على نشر الالحاد الا التشهير والزراية بالدين والمتدينين ، وما اضطرهم الى الاعتراف بالكنائس والشعائر الدينية الا شعورهم بافلاس الضمائر التي تعول على الفلسفة المادية في هدايتها الى المثل العليا وآداب الانسان في معاملته لاخوانه من الناس .

والوطنية قد اعترفوا بها لمثل هذا السبب في معمعة الحرب العالمية الثانية وهي أول حرب خاضوا غمارها بعد قيام الدولة الشيوعية وامتحنوا فيها قوة الشجاعة التي يستمدها المادي من عقائده المادية ، وقوة المحارب الذي يذهب الى الميدان ليدافع عن تلك العقائد ، او ليدافع عن وطن يعتقد أنه أخدوعة من

أخاديع راس المال .

وقد رأينا كلامهم في مؤتمر الفلسفة عن الاسرة وقداستها وقيام المجتمع والوطن على دعائمها ، وقبل ذلك بسنوات كانوا يبيحون للاسرة في المزارع المشتركة أن تحتجز لها قطعة من الارض تسكنها وتربي الماشية والدواجن فيها ، ويورثها الاباء للابناء على سنة « الكولاك » الذين قتلوا منهم الملايين لغير ذنب الا أنهم كانوا يملكون من الارض قطعة لا تزيد على القطعة التي يستأثر بها فلاح المزرعة المشتركة في هذه الايام .

وحكاية الطبقة أهم من مسائل الدين والوطنية والاسرة والملكية الخاصة على شدة الاهتمام بها عند أصحاب التفسير المادي للتاريخ ، لان الطبقة الواحدة هي غاية التاريخ الانساني كله في رأيهم ، وهي الامل الذي يترقبونه والعذر الذي يعتذرون به لكل موبقة يستبيحونها في سبيله . . ومضت السنون الاربعون ولم تفلس نظرية من نظرياتهم العديدة كما أفلست هذه المسألة المحيطة بها من فواتحها الى خواتيمها ، فلم يبطل قيام الطبقة الحاكمة بعد انتهاء الاستغلال على أيدي أصحاب الاموال ، وقامت طبقة جديدة تتحكم في المجتمع على نحو لم يؤثر قط في بلد من البلدان عن أصحاب رؤوس الاموال . . لان أصحاب رؤوس الاموال يشركون معهم في الامر خبراء الصناعة ومهندسيها ومديري المصانع بالمعرفة الهندسية او بالمعرفة الاقتصادية ، وأما هذه الطبقة الجديدة التي نشأت في المجتمع الشيوعي فهي طبقة الخبراء والمهندسين وعلماء الاقتصاد مستقلة عن اصحاب رؤوس الاموال أو اصحاب الاسهم في الشركات .

وتفاوتت درجات المعيشة مع تفاوت الطبقات ، فعرضت في واجهات الحوانيت سلع تباع بألوف الجنيهات . . وظهر الساسة والرؤساء بأزياء أغلى او أفخر من أزياء نظرائهم في بلاد الماليين ، وتناسق البذخ في المساكن والمركبات والولائم والمطاعم مع هذا البذخ في الشارة والكساء .

وتتمة الافلاس في أمر الاستغلال واثره في قيام الطبقة الحاكمة ، أن استغلال

اصحاب رؤوس الاموال بطل ولم يبطل معه قيام السيطرة الجائرة التي تغتفر الى جانبها سيطرة القياصرة العتاة في أظلم العصور . . وبدا للعارف والجاهل ان ختام الطبقات القديمة لم يختم وسائل الطامحين الى الطغيان بالحيل السياسية أو التنظيمات الحزبيه ، فان « ستالين » قد استطاع بحيلة من حيل التنظيم ان يخضع مئات الملايين من الروسيين وجيرانهم لطغيانه الساحق زهاء ثلاثين سنة ، كان في خلالها يشير باصبعه فيقضي على عشرات الزعماء وعلى المئات والالوف ممن يلوذ بهم في الحقيقة أو الخيال . . وبقي ظل الارهاب الكثيف الذي بسطه على البلاد ثلاث سنوات بعد موته ، لم يجسر احدٌ من القادة ان ينبس في خلالها بلفظة عابرة في انتقاده ، حتى انقشع ذلك الظل الكثيف شيئا فشيئا ، وخفت وطأة الرهبة التي كان يرسلها عليهم من وراء قبره ، فقالوا عنه أبشع ما يقوله عدو عن ألد الاعداء ، وكان فيما قالوه عنه ما لم يقله أحد عن أشهر القياصرة بالظلم والفساد . .

ترى فيم ذهبت أرواح الملايين من القتلى والمعذبين وضحايا المجاعة والتشريد ؟ . . ماذا كان يصيب روسيا وجيرانها من سوء الحكم أسوأ من هذا المصاب ؟ . .

كانت على أسوأ الفروض ، وفي أحلك العهود ، تفقد آلافا من ضحايا المجاعة أو الاضطهاد . . فاذا كان حساب الارواح مقدما على كل حساب فهذا هو حساب الفرق في الثمن والغنيمة بين أسوأ العصور وعصر الشيوعية الذهبي كما قدروه وفرضوه ؟ . .

هل تساوي الغنيمة ثمنها بعد هذا الحساب ؟ . .

وهل بعد هذا الحساب يؤمن المفسدون المطبوعون على الشر بفداح الثمن ، ويقلعون عن التجربة التي أغراهم بها من قبل وثوقهم الاعمى بشخاشخ المذهب الذي لم يتماسك قط في محك النظر ولا في محك التجربة والتطبيق ؟ . .

كلا . . .

بل هم يطلبون في فرصة أخرى تشمل العالم كله لان التجربة في مائتي مليون من أبناء هذا العالم لا تكفي ولا تشبع النهم الى الشر في نفوس الاشرار .

لا بد من تعطيل دعوات الاصلاح في جميع الامم وتكرير الضحايا على هذه النسبة بمئات الملايين بعد عشراتها في التجربة الروسية ، عسى أن تفلح في الكرة الارضية دفعة واحدة بعد أن خابت أربعين سنة في بلاد القياصرة وما جاورها . . وماذا على الدنيا لو أمهلت هؤلاء الدعاة أربعينين أو ثلاث اربعينات يهلكون فيها من يهلكون على وعد « شرف » منهم بالنتيجة التي يضمنونها على هذا المنوال ؟! . .

ان أولئك الدعاة ليقولونها بقلة مبالاة ان لم يقولوها بايمان ويقين . .

ولكننا نحسب أن الحاضر من نتيجة التجربة أربعين سنة قد رد الشيوعية الى قرارها في كل طبع سليم . . فأكبر ما تحتويه انها دعاية شغب تتساوى مع عشرات الدعايات من قبيلها عند من يهرعون الى كل فتنة ولا يفرقون بين دعاية ودعاية تغريهم بالهجوم عليها . . أما انها فلسفة تقاس بمقاييس العلم والفكر ، أو نظام صالح للتطبيق ، فذلك وهم لم تبق منه باقية في غير الضمائر السقيمة وبحوث النفاسيات . .

المصير

من علماء الاجتماع والسياسة من يتشاءم من مصير الحرية الانسانية ، ويخيل اليه أن دور الديمقراطية قد انتهى ، ووجب ان يخلفه نظام يسمح بالتدخل في حرية الفرد وحرية المعاملات على اختلافها لتنظيم الثروة العامة وتحقيق البرامج التي توضع للحاضر والمستقبل في وقت واحد . . ولا يتأتى تنفيذها بغير تقييد المعاملات بين الافراد ، وبغير اتباع نظم التأميم في بعض المرافق والمشروعات .

والتحول الذي يلاحظه العلماء المتشائمون حاصل متسع النطاق ، ولا منازعة في وقوعه واتساع نطاقه ، ولا منازعة بين بعضهم في وجوبه وصعوبة الاستغناء عنه . . ولكن هذه الملاحظات الصادقة جميعا لا تستلزم الجزم بانتهاء عصر الديمقراطية وعصر الحرية الفردية ، لانها قد تكون من عوارض العصر الحاضر في طريق طويل تتجدد عوارضه فترة بعد فترة ، ثم تنتهي هذه العوارض ويخلفها طور جديد من أطوار الديمقراطية يدل على النمو والامتداد ولا يسوغ التشاؤم من الحاضر أو المصير .

ويرجح هذا الاعتقاد أمران : أحدهما ان الحرية الانسانية تراث التاريخ كله كما ينجلي لنا من جملة أدواره وأطواره ، وليست عرضا متقطعا تبديه لنا صفحة من التاريخ هنا وهناك ثم تطويه صفحة تليها الى غير رجعة .

والامر الآخر ان التنظيم لا ينفي الحرية ما دام حكمه ساريا بين الناس على سنة المساواة ، وما دام سلطان الحاكم فيه مستمدا من ارادة الجميع منصرفا الى تدبير شؤون الجميع . . فان تنظيم مواعيد القطارات والبواخر ـ مثلا ـ لا يؤدي الى تقييد حرية السفر أو تقييد حرية المسافرين ، وقد يؤدي الى تمكينهم من السفر الذي يحول دونه ترك « المواصلات » فوضى على غير نظام .

والذي يرجح لدينا أن القيود الحاضرة عوارض موقوتة وان أسبابها الموقوتة معروفة لا تختلف عن طبيعة القيود الموقوتة التي تدعو اليها الاحوال الاستثنائية كأحوال الحروب والانتقال من طور الى طور في نظام الدولة أو حياة الجماعة . . وقد يكون من دواعي التفاؤ ل ان هذه العوارض الموقوتة خلقتها حركة التقدم واتساع مجال التطبيق ، ولم تخلقها نكسة من نكسات التاريخ التي تعوق الحركة الى الامام .

ألا يمكن ان تكون هذه العوارض جميعا راجعة الى اتساع العلاقات العالمية واتساع الحقوق السياسية بين جماهير المحكومين ؟ . .

بلى . . يمكن ذلك ، بل هو التعليل الوحيد الراجح بأسبابه المشهورة بين سائر التعليلات . .

فالتنظيم والتأميم خطتان لا مناص منهما مع اتساع العلاقات العالمية وارتباط المعاملات بين الامم في شؤ ون الزراعة والاقتصاد وشؤ ون الاصدار والايراد ، ومن نتائج هذا التنظيم والتأميم ان « تتركب » الاوضاع الديمقراطية في ميدان عالمي متضامن متكافل بعد انحصارها في حدود كل امة من الامم التي كانت تستغني عن التوفيق بين أحوالها والاحوال العالمية فتستغني بذلك عن التنظيم والتأميم .

ويتمشى مع هذا الاتساع العالمي اتساع مثله في الحقوق السياسية ، يقضي به اشتراك جماعات من الجماهير في الحكم لم يكن لها من الحكم نصيب كبير ولا صغير . .

هذه الجماهير لا بد لها من مفتتح في هذا المجال ، تفتتح به تجاربها على نحو من الانحاء . . ولا بد أن تتعثر في هذا المفتتح الى حين ، ريثما تدرك ما حولها من العلاقات القومية والعلاقات العالمية حق ادراك فلا تنخدع بالسهولة التي ينخدع بها من يقضي حياته ـ كما انقضت حياة آبائه من قبله ـ بمعزل عن مسائل الحكم وكفاياته وكفايات القائمين به والمتطلعين اليه ، فاذا استقر بها القرار عند حدودها التي تعرفها باختيارها أو تقسرها الضرورة على عرفانها ،

فهذه الحالة المنظورة ادنى الى الديمقراطية من حالة العزلة التي حجبت تلك الجماهير عن واجباتها وحقوقها وتركتها عرضة للخداع والتضليل ممن يقصدون خداعها وتضليلها أو ممن يتفادون بها - او معها - مخدوعين مضللين .

وسينتهي الشطط في استخدام الحقوق السياسية لا محالة ، متى انتهت كل طائفة من طوائف المجتمع الى حدودها ، وعلمت انها عاجزة عن تجاوز هذه الحدود للجور على الطوائف الاخرى ، لان الطوائف الاخرى تملك مثلها سلاح الدفاع عن حقوقها ومصالحها بحكم القانون الصادر من الجميع لمصلحة الجميع .

ولم تصل طوائف المجتمعات في الامم المختلفة الى هذا الحد الذي يمتنع فيه الجور من طائفة على أخرى ، فان الطوائف الوسطى في أكثر المجتمعات لا تزال محرومة من سلاحها الاجتماعي الذي تذود به شطط العلية وشطط الجماهير ، ولا تزال مكتوفة اليدين أمام سلاح النفوذ والجاه من جهة وسلاح الاضراب والشغب من الجهة الاخرى . . فاذا وجد في يديها سلاحها الاجتماعي - ولا بد أن يوجد مع الزمن لانه مطلب تدعو اليه مصلحة الجميع كما تدعو اليه ضرورة الدفاع عن الذات - فهنالك تنتظم الحقوق السياسية قسرا بين أناس لا يملك بعضهم أن يجور على بعض ، ولا يعجز فريق منهم عن دفع هذا الجور اذا اجترأ عليه فريق يشتط في طلب الحقوق ، وتقوم الديمقراطية يومئذ بقوة الدفاع عن الذات كما تقوم بقوة العقيدة والايمان .

***

ولعلنا - في المجتمع المتزن المنتظم - نفرغ من غاشية الحقوق التي استفحلت في العصر الحديث حتى أصبح لها وبال لا يقل في خطره عن وبال الظلم والغشم في عصور الظلمات لان ادعاء الحقوق لا يقل عن جهل الحقوق في سوء عقباه .

وقد غبرت على الناس عصور كانوا يجهلون فيها حقوقهم ، ولا يفرغون فيها من الواجبات المفروضة عليهم . . كانوا مثقلين بالواجبات ممطولين في

حقوقهم بل ساكتين عنها يجهلونها ولا يطلبونها .

كانت هنالك واجبات الدين ، وواجبات العرف ، وواجبات الحاكم ، وواجبات السادة على العبيد ، وواجبات الآباء على الابناء ، وواجبات الكبار على الصغار ، ولم تكن هنالك حقوق الا الحق الالهي الذي كان يدعيه مدعيه لانكار جميع الحقوق .

فلما نهضت الامم للمطالبة بحقوقها لم تظفر بها على هينة وهوادة ، ولم تزل تجاهد فيها حتى بلغتها من غاصبيها واستدارت الى انفسها تطالب بعضها بعضا بما يتخيله من حقوق مهضومة عند المجتمع المحيط بالطالبين والمطلوبين . . اذ كانت بدعة المجتمع وتبعاته قد ظهرت في أوانها مع ظهور مظالم الطبقات ودعاوى الطبقات . . وأوشك الامر أن ينتقل جملة واحدة من كفة الواجبات الى كفة الحقوق ، لاننا لا نسمع الا أحاديث عن حقوق كثيرة ولم يذكر فيما بينها شيء من الواجبات .

حق الرعية ، حق الجيل الجديد ، حق المرأة ، حق الطفل ، حق العامل ، حق الزارع ، حق الكتابة ، حق الخطابة ، حق الاحتجاج ، حق السخط والقلق ومركبات النقص والعقد النفسية وظروف الحياة القاسية وظروف الحياة التي توصف بما شاء المدعون من الصفات . . الى آخر هذا الطوفان المتدفق من الحقوق . .

ومن يطالب بهذا الطوفان المتدفق من جميع هذه الحقوق ؟ . .

شبح واحد يسمى المجتمع ، يتكلم الناس عنه كما كانوا يتكلمون قديما عن الدهر ، وعن الحظ ، وعن المقادير . .

شبح مبهم لا ملامح له ولا شيات هو المسؤ ول عن كل أحد وعن كل حق ، وعن كل شيء . . وكل من عداه سائل لا واجب عليه لانه القى التبعة ـ بل التبعات جميعا ـ على ذلك الشبح المجهول .

فاذا زال ذلك الشبح المجهول يوما ، وحل في محله كيان ذو صورة وأعضاء

وحدود وأجزاء وجدوا انهم يطالبون انفسهم وأنهم هم الهاضمون للحقوق أو المقصرون فيها اذا تحدثوا بحق معروف من موئل في المجتمع معروف .

وادركوا اضطرارا ان المطالبة بالحقوق ـ هي في الوقت نفسه ـ مطالبة بالواجبات ، اذ كان المجتمع المسكين قد تحول من شبح مبهم في الظلام الى « شخص » مرسوم تبدو فيه ملامح جماعاته وآحاده معروفة الطاقة معروفة العمل معروفة التبعات .

ولا ندري اليوم متى يتسق هذا المجتمع ويتناسق على سوائه في كل أمة من الامم التي تسير الى المستقبل . . ولكنها لا تسير اليه بخطوة واحدة ولا على هدى واحد . . ولكننا ندري أنه يستقيم على سوائه كلما رجحت فيه كفة « الانسانية » على كفة الخارجين عليها .

مجتمع لبني الانسان جميعا لا لطبقة تجور على سائر طبقاته ، ومجتمع للعالم المتضامن المتكامل لا لمن يتسلط عليه ويسخره في خدمته بقوة المال والسلاح ، ومجتمع تعمل فيه قوى الحياة الانسانية من شعور عاطفة وخلق وفكر وعقيدة ، وليس بالمجتمع الذي تحكمه الآلات والادوات . .

مجتمع الانسانية وليس بمجتمع الشيوعية ، وكل مصير يتحراه او ينساق اليه بقوانين الحياة فله قسطاس واحد يفصل بين الهداية فيه والضلال . . انه على هدى كلما كان مجتمع انسان لبني الانسان ، في رعاية خالق هذا الانسان وخالق جميع الاكوان . .

عباس محمود

العقاد

أفيون الشعوب

دار الكتاب اللبناني - بيروت

أفيون الشعوب

المذاهب الهدامة

يقول كارل ماركس وأتباعه ان الاديان أفيون الشعوب ، وان الناس يقبلون على الدين لانه يخدرهم ويلهيهم عن شقاء الحياة .

وهذا القول الهراء عن الدين آخر وصف يمكن أن ينطبق عليه ، وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه .

فالشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان . وما من دين الا وهو يوقظ في نفس المتدين شعورا حاضرا بالمسئولية في السر والعلانية ، ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ، ويوحي الى الفقراء والاغنياء على السواء انهم لن يستحقوا أجر السماء بغير عمل وغير جزاء .

وشتان هذا وقول القائلين ان الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الافيون .

انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جميع نواحيه ، لانه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوي الاقدار والعظماء .

انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسئولية لانه يلقي بالمسئوليات كلها على المجتمع ، ويقول ويعيد للعجزة وذوي الجرائم والآثام انهم ضحاياه المظلومون ، وان التبعة كلها في عجزهم واجرامهم واقعة عليه ، ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق ألسنتهم بالاتهام على كل ذي شأن ينظرون اليه نظرة الحسد والضغينة ، ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد .

ولو أنك نظرت الى فعل « السكرة » في المخمور لم تجد لها في نفسه

شهوة تستهويه غير هذا الشعور باسقاط المسئولية وهذا التطاول على أعظم عظيم ، كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الاشياء .

وما كان للماركسية من سحر يستهوي السفلة اليه غير هذا السحر الذي يبذلون فيه الدراهم ويجدونه في الماركسية جما بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول وشفاء أدواء الحسد والانتقام .

سكرة رخيصة لا أكثر ولا أقل .

وانهم ليتحدثون عن « المذهب العلمي » أو يتحدثون عن التفسير « العلمي » للتاريخ ويكثرون من ذكر العلم والبحث والاستقراء ثم تنظر فيمن يستهوونهم بهذا الهراء فلا ترى أحدا منهم يحفل بالعلم أو يعنيه أمر المعرفة والاستقراء ، ولكنك واجد فيهم ــ على يقين ــ من يعميهم الحسد عن كل فضيلة وتندفع بهم الغرائز كما تندفع السائمة على غير هداية ، ومن يعملون ولا يفكرون في عاقبة ما يعملون .

ان « الماركسية » اذن لهي الحقيقة بما تفتريه من وصف للاديان والمعتقدات ، وانها لأفيون الشعوب بغير مراء ، وكلما بحثت عن سبب صالح لشيوع المسكرات في بيئة من البيئات فاعلم انه سبب صالح كذلك لشيوع المذاهب الهدامة ولتفسير هذه الشهوات التي تتلخص في أول الاعراض التي تبدو على السكران : باسقاط للتبعة ، وخلع للحياء ، واستمراء للتطاول والبذاء على كل محسود ، وان لم يكن من الاغنياء .

وفي هذه الكلمة الوجيزة ــ وما يلي من الاحاديث المذاعة في حينها ــ تنبيه سريع الى هذه الحقيقة البينة .

ولكنه تنبيه لمن ؟

لا للمخمور الغارق في سكرته ، فانه لا يفيق ولا يحب أن يفيق وفي رأسه بقية من خمار .

ولكنها تنبيه لمن ينظرون ، لا يكلفهم الا أن يديروا اليه الآذان والعيون .

عباس محمود العقاد

العلم والمذاهب الهدامة

من الدعاوى العريضة التي يدعيها أصحاب المذاهب الهدامة انهم يعتمدون على الحقائق العلمية ، ويتجنبون الاوهام والخيالات التي تعلق بها دعاة الاصلاح الاقدمون • ومن أجل هذا يسمون الاشتراكيين السابقين لهم بالحالمين ، ويقولون عنهم انهم خادعون مخدوعون ، وان الاشتراكية الحديثة التي يبشرون بها هي الاشتراكية العلمية التي لا تقيم وزنا لغير الواقع المقرر بالتجربة والمشاهدة ، ولا تعد الناس شيئا الا أن يكون مضمونا حاصلا أو في حكم الحاصل بعد زمن قريب •

واذا كان أصحاب المذاهب الهدامة مضللين أو مضللين في كثير من الامور ، فالامر الاول منها هو هذه الصفة العلمية التي يسبغونها على مذهبهم ، وهو مناقض لكل علم ، مخالف لكل حساب صحيح •

مثال ذلك انهم يسمون مذهبهم بالمذهب المادي ويعنون به أنهم يفسرون كل حادث من حوادث التاريخ بالاسباب المادية ، ولكنهم يخطئون في تفسير أكبر الحوادث كما يخطئون في تفسير أصغرها وأهونها ، كلما طبقوا عليها سببا من تلك الاسباب •

فانهم يتحدثون مثلا عن عصور الفرسان والنبلاء ، ويعللون زوال هذه العصور بظهور البارود وظهور المدن التجارية ومن يتحكمون فيها من كبار التجار وأصحاب الاموال •

قالوا : ان الفرسان كانوا يسودون الولايات لخبرتهم بفنون الحرب وأصول الفروسية ، واعتصامهم بالقلاع والحصون ، وان سلطانهم قد زال بعد اختراع البارود لان البارود قد جعل استخدام السلاح هينا سهلا

على عامة الناس • وقد جعل الهجوم على القلاع والحصون هينا سهلا كذلك على العامة ومن يقودهم من الاعيان والاغنياء •

وقالوا أيضا : ان انتشار المدن التجارية قد حول النفوذ الى أيدي أصحاب الاموال والتجار الذين يعرفونهم باسم البرجوازيين ، ولهذا زالت سيادة الفرسان الاقطاعيين وقامت بعدها سيادة التجار وأصحاب الاموال ، أو سيادة الطبقة البرجوازية •

ولا يخفى أن تفسير الحركة البرجوازية هو أهم المسائل في الدعوات الهدامة ، لأن ظهور هذه الطبقة عندهم هو الدليل على صدق حرب الطبقات ، وهو المقدمة عندهم لزوال النظام الحاضر الذي يسمونه بنظام رأس المال •

فهل صحيح أن البارود والمدن التجارية تفعل هذا الفعل في تطورات التاريخ ؟

ألم يظهر البارود في الصين قبل ظهوره في القارة الاوروبية ؟ ألم تظهر المطبعة نفسها في الصين قبل ظهورها في الغرب بعدة أجيال ؟ ألم يكن في الصين سادة يملكون الاقاليم الواسعة من الضياع والبقاع ؟ ألم تكن في الصين مدن تجارية راجت فيها التجارة من قبل عصر الميلاد ؟ فلماذا لم يحدث في الصين ما حدث في القارة الاوروبية ان صح ما يزعمون عن تفسيراتهم للتاريخ ؟ ولماذا صنع البارود وصنعت المدن التجارية في الغرب ما لم تصنعه في مملكة ابن السماء •

ندع هذا وننظر في نبوءاتهم عن المستقبل وهي في اعتقادهم حق محتوم كالنبوءات الفلكية عن اقتران الكواكب وعن الكسوف والخسوف •

فمن هذه النبوءات عن المستقبل ان البلاد التي تتقدم فيها الصناعة هي البلاد التي تسرع الى الدعوة الماركسية قبل غيرها ويتعرض فيها نظام رأس المال للتداعي والانهيار •

فهل هذا هو الواقع المشاهد كما يدعون ؟

كلا ! بل الواقع المشاهد أن الماركسية ظهرت في البلاد التي تأخرت فيها الصناعة ، وأن نسبة المذاهب الهدامة فيها كنسبتها في التأخر ، على النقيض من تفسيرات الماديين •

فالصحيح انه على قدر التأخر في الصناعة يكون الاندفاع الى المذاهب الهدامة ، ولهذا ظهرت في روسيا ثم في ايطاليا وأسبانيا ثم في البلاد الصناعية الاخرى على درجات تناسب نصيبها من الصناعة الكبرى ، وقد بلغت العصمة من المذاهب الهدامة أشدها في الامم الصناعية العريقة ، كما يشاهد في الولايات المتحدة والجزر البريطانية وبلاد الشمال التي أخذت من الصناعة بنصيب موفور •

وتكاد هذه القاعدة أن تطرد في آسيا كما اطردت في أوربة وأمريكا ، ومن هنا كانت الصين أقرب الى الشيوعية من اليابان • ولم تنجح الشيوعية بين اليابانيين كما نجحت بين الصينيين الذين لم يمارسوا الصناعة الكبرى ولم يمارسوا ما هو دونها من الصناعات •

ومن نبوءات هؤلاء القوم الذين يفخرون بالنبوءات العلمية أن العمال والصناع تنقص أجورهم كلما تضخمت المصانع وتضاعف رأس المال ، ولا يزال النقص مستمرا حتى يعز القوت على العامل ولا يبقى عنده شيء يفقده غير السلاسل والقيود ، ويومئذ يطيع من يدعونه الى الثورة العالمية لأنها تعطيه ملك العالم كله ولا تضيع عليه شيئا غير تلك السلاسل والقيود •

تلك هي النبوءة العلمية التي لا تحسب عندهم من الخرافات ولا من الاوهام • أما الواقع العملي الذي لا شك فيه فهو أن الاجور تزداد مع تقدم الصناعة ، وأن العمال يزدادون اعتمادا على الوسائل الدستورية أو البرلمانية في تحسين أحوالهم ويزدادون نفورا من الوسائل التي تعرف بالوسائل المباشرة ، أي وسائل الثورة والانقلاب •

ومن الجهل بالحقائق أن يقال ان الثورات التي تحدث في هذا العصر دليل على صدق النبوءات الشيوعية ، وأن العالم يمضي الى الخاتمة التي تنبأ بها كارل ماركس وتلاميذه المؤمنون بما تخيله وادعاه •

فالثورات والفتن لـم تنقطع في القرن التاسع عشر ، ولم تنقطع في القرن الثامن عشر ، ولم تنقطع في القرون الوسطى ، ولم تنقطع قبل ذلك في عهد الدولة الرومانية ، ولكنها كانت تحدث لأسباب كثيرة تارة لأجل العقيدة وتارة لأجل الوطن وتارة لتبديل حاكم بحاكم أو دولـة بدولة • وكل مـا تدل عليه أن هناك أسبابا كثيرة لسخط الامم واندفاعها الـى اصلاح الحكومات •

ولعل هـذا العصر الذي نحن فيه يمتاز بخاصة لـم تكن شائعة في العصور الغابرة ، وهـي الدعوة المتوالية الى السلام والتحكيم وتوحيد المعاملات والعلاقات • فانها لـم تعهد بهذا الاجماع في زمن قبل الزمن الحاضر ، وان كانت لا تزال في مبدئها ناقصة مختلة ، ككل عمل انساني كبير في حالة الابتداء •

والخلاصة مما تقدم أن الاشتراكية العلمية المزعومة ليست من العلم في شيء ، وليست نبوءاتها ولا مقرراتها بأصدق مـن بشائر المخرفـين والحالمين من ادعيـاء الاصلاح في أزمة الجهالة ، وربما كـانت نبوءتها الكبرى هي أكذوبتها الكبرى كما سينجلي بعد حين ، ولعله قد انجلى من اليوم لعيان الكثيرين •

فالنبوءة الكبرى في عرف الماركسيين هي نبوءتهم عن اليوم الذي تزول فيه الطبقات التي تستولي على وسائل الانتاج ، ولا يبقى فيه أحد غير المعامل والعمال •

فمن اليوم قد تبين أن وسائل الانتاج تؤول شيئا فشيئا الى أيدي خبراء الصناعة وخبراء الاقتصاد وخبراء الدعوة ، ومن اليوم قد تبين أن ادارة المعامل وتدبير الثروة لا تؤول الى العامل الصغير بمجرد زوال رأس

المال ، بل تستولي على تلك الادارة طبقة مـن ذوي الاختصاص الفني لا تستغني عنها الحكومة ، بل ستكون هي الحكومة المتصرفة في الانتاج وفي المطالب المختلفة وفي التوزيع والاشراف علـى طلب الخامات وتصريف المصنوعات ، كما قلنا في حديث غير هذا الحديث .

وعلى نقيض ما يزعمه الماركسيون ، يأتي الحاضر بتكذيب النبوءات الهدامة واحدة بعد واحدة ، ولا يتقدم الزمن فترة بعد فترة الا انهدم ركن من مذهب هدام ، ولحقت به أركان لا تقوى على الثبات .

* * *

لـو كانت المذاهب الهدامة فلسفة مقنعة لمـا عول أصحابها علـى الجهلاء الذين لا يفكرون ولا يهتدون الى الحقائق ولو صبروا على التفكير فيها . فان الحكم على حقائق التاريخ في أطوار الانسانية جميعها مطلب عسير لا يقدر عليـه الجهلاء الذين يجندهم الهدامون للتخريب والفتنة العمياء ، ومثل هؤلاء قد انقادوا من قبل لكل ناعق ولم يسألوه قط عـن فلسفة ولا برهان مقنع ، وحسبهم مـن الدعاة أنهم يقودونهم الـى الشر والفوضى ، ويفتحون أمامهم مصرفا لما طبعوا عليه مـن نوازع الجهل والخراب .

وقد يتفق للهدامين أن يستجيب لهم طائفة من المتعلمين أو العلماء ، فمن عرف هذه الطائفة أيقن أنها لا تخلو من أحد اثنين : فالعالم الـذي يستجيب لمذاهب الهدم اما أن يكون من زمرة ممسوخة الطبائع ، مطوية على الحسد والبغضاء ، ممتلئة بالغرور الذي يسول لها أن تطاوع كل نقمة وتستكثر الخير على كـل انسان ، فان لـم يكن العالم المستجيب للمذاهب الهدامة من هذه الزمرة فهو مخدوع فيها يتحول عنها بعد العلم بحقائقها والاطلاع على مساوئها ، كما قـد تحول عنها كثير من الكتاب والحكماء الذين أقبلوا عليها مخلصين ، ثم أعرضوا عنها مخلصين .

* * *

ان الاشتراكية العلمية اذن خرافة لا علم فيها ، وقد يطول شرح هدف الاشتراكية ، ويطول البحث في قواعدها ومبادئها وفي مواطن الضعف منها ، ولكن العقل الذي يعرف شيئا من العلم والفهم لا يحتاج الى شرح طويل ليعلم أن نظرة القوم الى أطوار الانسانية نظرة باطلة ، وأن حكمهم على المستقبل القريب أو البعيد حكم مردود •

انهم يدعون أن زعيمهم كارل ماركس قد فرض على المستقبل نظاما لن يختلف بعد آلاف السنين ، وأنه قد أجرى حكمه على المجتمعات الانسانية اجراء حاسما دائما لن يقبل التبديل والتنويع ، وقد تجوز على العقل الآدمي المستقيم كل خرافة من خرافات الاساطير ، قبل أن تجوز عليه خرافة تزعم أن الفرد الواحد يسلط فكره على الدهور المقبلة الى غير نهاية ، فان الغول والعنقاء لأقرب الى العلم من هذه الدعوى التي لا علم فيها ولا تقدم ، والتي يروجها دعاتها مع هذا وهم يفخرون بأنهم هم العلميون وهم التقدميون •

بارود لم ينفجر

وطباعه لم تطبع

تواتر القول بأن اختراع المطبعة واختراع البارود قد كانا فاتحة عهد أو نقطة تحول في تاريخ الحضارة الحديثة . وبين المطبعة والبارود مناسبة ، أو مشابهة قريبة ، وهي مشابهة « التعميم » .

فقد أصبح الكتاب ميسورا لكل من يطلبه بعد نشر الطباعة ، وقد كان قبل ذلك موقوفا على رجال الدين أو على الذين يتفرغون لنسخ الكتب ودرسها ، وكلاهما يلجيء الطالب الى تفرغ وانتظار .

وقد أصبح حمل السلاح ميسورا لمئات الالوف وألوف الالوف بعد صنع الرامية البارودية . وقد كان السلاح الفعال حكرا قبل ذلك لفرسان القلاع .

ولهذا ارتبطت العلاقة بين المطبعة والبارود وبين الديمقراطية وحرية الشعوب ، وصور المؤرخون هذه العلاقة على صور شتى يصح بعضها ، ويحيط الخطأ الكثير ببعضها الآخر . وهو الذي تتناوله هنا بالتصحيح .

فالخطأ الكبير أن يقال ان المطبعة والبارود هما سبب التحول أو سبب القضاء على دولة الكهانة ودولة الفرسان .

والصواب أن يقال انهما أداة التحول أو علامة التحول ، وان الفكرة الانسانية هي السبب الفعال وراء كل أداة .

فالقلعة قد انهدمت في اليوم الذي أنكر فيه الناس سلطانها وطلبوا السلاح الذي يقاومها ويغني عنها ، ومسألة السلاح واختراعه بعد ذلك

هي مسألة زمن أو مسألة تجويد لصناعة من الصناعات المستحدثة ، كما تحتاج كل صناعة الى زمن للتجويد .

والكهانة قد انهدمت يوم أنكر الناس علمها بكل شيء ، واطلاعها على كل سر وحاجة الانسان اليها في خلاص روحه من الهلاك ، وخلاص عقله من الجهالة . ومسألة الكتب وانتشارها بعد ذلك هي مسألة الوسيلة التي ارتسمت غايتها قبل اختراع آلاتها .

* * *

حذار في هذه القضايا التاريخية من اثنين : أحدهما القائل الذي يحب تسيير الاقوال وابرام الاحكام ، فهو يتخير الاعاجيب لتسير ويفضل من الاحكام أسرعها الى الابرام .

وثانيهما الخليق بأن نحذره هو المفسر المادي للتاريخ ، فانه يرفض كل سبب يرجع الى النفس والوجدان ، حتى اذا عثر على سبب يرجع الى مادة جامدة هلل له وكبر ، وكانت صحة السبب عنده على قدر جموده وخلوه من الفكر والضمير .

أما حقيقة الاسباب التي لا شك فيها فهي أن الفكرة الانسانية هي الاداة وراء كل أداة ، وأن الادوات والمكنات ما لم تكن وسيلة لفكرة انسانية هي والحجارة المنبوذة بالعراء سواء .

* * *

قالوا ان البارود هو الذي هدم القلعة ، وانه هو الذي نقل السلطان من أبطال الحصون الى أبطال المدن التجارية .

وهذه حركة قوامها عند المفسرين الماديين للتاريخ هو براميل البارود والنبلاء وتجار المدن ، ولا سيما المدن التي على البحار .

هذه هي عناصر الحركة التي نقلت الدنيا من عهد الاقطاع الى عهد « البورجوازية » الى ما وراءه من العهود .

وهذه العناصر كلها كانت في الصين من عشرات القرون ، البارود

والنبلاء والمدن التجارية ، فلم تنتقل خطوة واحدة من تلك الخطوات التي حركت الحضارة الاوربية مــن أطوار القرون الوسطى الى أطوارها في القرن العشرين •

ان بعض المؤرخين يشك في سبق أهل الصين الى اختراع البارود لأنه يربط اختراعه بالكشف الذي سجله « روجرز باكون » في معمله عند منتصف القرن الثالث عشر ، ويرى أن وجود البارود يتوقف على وجود ملحــه Saltpetre وهو لم يكن معروفا في زعمه قبل روجرز باكون •

الا أن الراجح أن روجرز باكون نفسه قد عثر على الصيغة الكيمية في المرجع العربي الذي أشار اليه « أومان » في تاريخ فن الحرب ، فان لم يصح هذا فالصحيح بلا مراء أن هذا الملح يوجد على سطح الارض في بلاد آسيا الشرقية ، ومنها الهند التي يوجد بها على سطح الارض الى اليوم •

وندع هــذا ونرجع الى الزمن الذي انقضى بــين كشف البارود والانتفاع به في الحملات على القلاع والحصون •

لقد مضت ثلاثة قرون منذ جاء ذكر البارود في أوراق روجرز باكون الى أن أصبح قوة فعالة في الهجوم على المعاقل المحصنة ، وقد مضت هذه القرون في تنقية الاخلاط ، وضبط المقادير الصالحة لسرعــة الانفجار ، وتركيب هذه الاخلاط تركيبا موافقا للأدوات التي أمكن اختراعها يومئذ ، سواء أكانت مما تحمله اليد أم تجره الخيول ، وكانت مشكلة الوقت الذي ينقضي بين اطلاق القذيفة وتعبئة المدفع أو الرامية عقبة معوقة ، ولم تكن من أسباب الاسراع والتغلب •

ولا شك أن المنجنيق الذي كان يقذف الحجارة على قرب قد كان أفعل مــن المدافع الاولى في تهديــد الحصون والقلاع ، بــل استطاع الهوجنوت الى أوائل القرن الثامن عشر أن يقاوموا المدفع حول الحصون بمتاريس التراب وما اليها ، فلم يكن البارود اذن هو القوة الحاسمة في تغلب نظام على نظام ، ولم يكن استخدام المدفع الاول أسهل مــن فنون

الفروسية التي احتكرها نبلاء القرون الوسطى •

وأصح من هذا أن يقال ان البارود في أوربة قد أفـاد في ميـدان الصناعة قبل أن يفيد في ميدان القتال ، لأن بدعة الاسلحة النارية حولت الانظار الى البحث عن الحديد والفحم ، فنشطت حركة التعدين واستفادت منها الصناعات الحديثة ، مـع توالي الطلب عليـه حسب حاجة العصر الحـديث •

* * *

ان كان في سبق أهل الصين الى اختراع البارود قليل من الشك أو كثير فليس هناك قليل من الشك أو كثير في سبقهم الى اختراع المطبعة بنوعيها ، ونعني بالنوعين المطبعة الثابتة التي تطبع الصفحات دفعة واحدة والمطبعة التي تعتمد على الحروف المنفصلة قبل تركيبها في الصفحات •

هذان النوعان من الطباعة وجدا في الصين واليابان وكورية منذ اثني عشر قرنا أو تزيد ، ولكن الطباعة بنوعيها لم تنقل الصين من أطوارها التي كانت عليها في القرون الاولى للميلاد الـى أطوار القرن العشرين كمـا شهدتها البلاد الاوربية •

فلماذا لم يحدث هذا الانتقال في الصين بفضل المطبعة كما حدث في البلاد الاوربية ؟

لاختلاف الفكرة واختلاف الثقافة • فـان الفكرة التـي اخترعت الكتابة الصينية قد جعلت لزاما على الطابع أن يستعد بمئات العلامات قبل أن يحيط بمقاطع الهجاء ، فلم يكن في الطباعة تيسير ولم يكن فيها اسراع ولا ايجاز ، ولم تنفع أصحابها الذين سبقوا الغرب الى اختراعها بعـدة قـرون •

أما اختلاف الثقافة فهو ها هنا بيت القصيد •

في الغرب كانت الثقافة هي التي طلبت المطبعة فوجدت المطبعة سدا لحاجة مطلوبة •

وفي الصين وجدت المطبعة ولم تطلبها الثقافة ، فوقفت المطبعة عند غايتها الاولى ، وهي نقش الحرير وغيره من المنسوجات ، ولم تكن المطبعة وحدها هي القوة الفعالة في توجيه الافكار وتنبيه النفوس .

وها نحن أولاء نبصر المطابع بيننا على أحسن صنع وأحدث طراز ونبصر كل يوم صنوفا من الكتب والمجلات والصحف تنشرها هذه المطابع وتيسر عرضها وتعلن القراء بظهورها ، ولكنني اسعى الى كتـاب فاطلبه وأبذل فيه ثمنه ، وأمر بعشرات غيره فلا أطلبها ولا أقبلها بغير ثمن ، لأن المطبعة في الواقع هي الاداة التي تكمن وراءها الفكرة الانسانية ، وليست هي العامل الحاسم الذي يملي على الانسان ما يقرأه وما يحب قراءته ، فضلا عما يأباه ولا يلقي عليه نظرة ولو كان بين يديه .

وقد قيل ان المطبعة هي التي هدمت سلطان الكهانة ، ونسي هؤلاء القائلون أن سلطان الكهانة كان هو « العميل الاكبر » للمطبعة ولا يزال حتى اليوم كذلك . فان ملايين النسخ من الكتب الدينية لم تزل تصدر كل عام من المطابع منذ منتصف القرن الخامس عشر الى يومنا هذا ، ولو أننا أحصينا نسخ الاناجيل والشروح الدينية وأحصينا نسخ الكتب الادبية والعلمية لكانت مادة الدين أرجح من كل مادة منفردة في أبواب العلوم والفنون والآداب . ولو شاء قائل أن يقول ان المطبعة عززت سلطان الكهانة لكان له من الاحصاء دليل لا يقل في صدقه ووفرة شواهده عـن أدلة القائلين بالهدم والتقويض .

والمطبعة هي هي في كل مكان . فما بال المطبعة في بلد تخرج للناس مليون مصحف وتخرج في البلد الآخر مليون انجيل ؟ بل ما بال المطبعة في البلد الواحد تخرج هنا صحيفة محافظة وتخرج الى جانبها صحيفة حرة وتخرج معهما صحيفة بين بين ، ولا تمتد يد القارىء الا الى الصحيفة التي يعرفها ويريدها ويقبل آراءها ؟ .

ان سبب هذا كله في رأس الانسان وبين جوانحه ، وليس مرجعه الى

حديدة كبيرة هنا أو حديدة صغيرة هناك ، أو الى مطبعة تخرج مليونا في الساعة ومطبعة لا تخرج غير الالوف في الساعات والايام .

ولقد كانت المطبعة حقا « نقطة تحول » في تاريخ الحضارة الانسانية ، ولكن الانسان هو الذي تحول فحولها وهو الذي طلب الكتاب فأوجد الاداة التي تعطيه الكتاب .

واذا كان في هذا العالم أناس ينظرون الى العقول وهي تزدهر ، والى النفوس وهي تتوثب ، فلا يستريحون حتى يردوا ذلك كله الى رطل من الحديد أو حفنة من الملح المسحوق ، فمن حقنا نحن أن لا نستريح كلما رأينا أداة تصنع الاعاجيب وتزودنا بسلاح المعرفة أو سلاح القوة الا أن نشير من وراء ذلك الى النفس المتوثبة والعقل الخالد والقريحة المنجبة لنا ما نريد .

قدوة غير صالحة

تعود بعض الناس أن يعطلوا عقولهم عند وزن الكلام الذي يعرض عليهم ، فهـم لا يزنونه بميزان النقد والعلم والخبرة الصادقة ، ولكنهم يتركون حقائق الاقوال ويغترون بمظاهر القائلين . فان كان قائل الكلام غنيا أو وجيها أو صاحب نفوذ فكلامه صادق وبليغ ومقبول ، وان لم يكن كذلك فحكمته جهالة وصدقه كذب واخلاصه مشكوك فيه .

لهذا جاء في المثل السائر : انظر الى مـا قيل لا الى من قال . وهي نصيحة رشيدة اذا كان الغرض منهـا أن نهتم بحقائق الاقوال ولا نجعل اهتمامنا كله مقصورا على مظاهر القائلين .

الا أن تمحيص الكلام لا يغنينا عن تمحيص المتكلم في كثير مـن الاحوال ، ولهذا يهتم الناس دائما بتراجم العظماء وسير البلغاء ، ليعرفوا موضع الثقة ويتبينوا الفرق بـين المخلصين وغـير المخلصين في الهداية ودعوات الاصلاح . وقد أشرنا الى ذلك في مقام آخر فقلنا : « ان الكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها » . وكلمة مثل قول المعري :

تعب كلها الحياة فما أعجـ ب الا من راغب في ازدياد

يؤخذ منها ما لا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس مـن السخط على الحياة . فاننا نثق بـأن المعري مارس الامور الجوهرية في الحياة ودرس الشؤون التي تكون بها عذبة أو مرة ، ونكدا أو رغدا ، ولم يسبر منها أولئك العامة الا ما يقع لهم من أمور عرضية لا تكفي للحكم على ماهية الحياة . وقد يقول أحدهم ان الدنيا كلها شر وظلم لأنه كان يطمع في عشرين قرشا فلم يصل الى أكثر من عشرة قروش .

فنحن نعرف الكثير عن دعاة الاصلاح خاصة اذا عرفنا كيف كانوا يطبقون كلامهم على أنفسهم ، وتتبين الفرق بين الجدير منهم بالثقة والجدير منهم بالشك والريبة اذا عرفنا أمانتهم في تطبيق المذهب الذي يدعون اليه .

على هذه القاعدة نعرض في هذا الحديث لسيرة زعيم من زعماء المذاهب الهدامة ، بل لعله أكبر زعيم من زعمائها ، وهو كارل ماركس الذي تنسب اليه الشيوعية ، فتسمى بالماركسية في بعض الاحيان .

كان هذا الزعيم يبني مذهبه كله على أساس واحد وهو : « أن من لا يعمل لا يأكل » ... وبهذا المبدأ أراد في دعواه أن يبطل استغلال العاطلين للعاملين .

فاذا رجعنا الى سيرته في حياته ، فماذا نرى من دلائل الامانة في تطبيق هذا المبدأ الذي أراد أن يكون فيه قدوة للمقتدين ؟

خلاصة الحقائق المستمدة من حياته أن الناس جميعا لو جروا على طريقته لماتوا جوعا ، وأنه هو لو عاش بما كسبه من عمله لما عاش أكثر من سنة واحدة على أبعد احتمال .

في خطاب من خطابات أبيه المحفوظة يقول له : « ماذا تظن ! كأننا مصنوعون من الذهب ؟ » وفي خطاب آخر يقول له : « لسوء الحظ أراك تؤيد بسلوكك رأيي الذي كونته عنك ، وهو أنك على ما فيك من خصال حسنة ــ أناني تغلب الانانية على جميع صفاتك » .

وانما كتب ابوه اليه ما كتب في هاتين الرسالتين ، لأنه كان لا ينتهي من طلب المال وانفاقه في غير جدوى ، وكان يثقل على أبيه بالطلب مع علمه باتساع أسرته ، وقد كان فيها ثمانية أبناء يحتاجون الى التربية والتعليم .

ومات أبوه فوجب أن يخلفه هو في رعاية بيته ، ولكن الذي حدث هو أنه لبث الى الرابعة والعشرين من عمره عالة على أمه واخوته . فاضطرت أمه أن تكتب اليه ومعها أخته التي كانت تسمى صوفي ، وقالتا له : انه لا ينتظر بالبداهة أن يعيش « طفيليا أبديا » وأنذرتاه بقطع المعونة

عنه اذا لم يبحث له عن مورد رزق يغنيه •

في تلك الآونة كانت تصدر في بلاد الرين صحيفة تسمى « رنيش جازيت Rhenish Gazette » وكانت تتطرف في دعوتها الى الاشتراكية ، فأنذرتها الحكومة بالاغلاق اذا هي لم تعدل عن خطتها وتخرج منها الكاتب المسؤول عن سياستها ، وكان شابا من أصحاب كارل ماركس اسمه روتنبرج Rutenberg • فلما سئل كارل ماركس عن رأيه في موقف الحكومة أشار باخراج ذلك الكاتب وقبل أن يتولى تحرير الصحيفة بعده• وتولى التحرير فعلا على خطة جديدة تنحي على الاشتراكية والاشتراكيين ، وأعدادها التي كتب فيها تلك الحملات محفوظة الى اليوم •

أغلقت الصحيفة بعد شهور من أجل مقالة تتعلق بالطلاق والزواج ولا شأن لها بالدعوة الاشتراكية ، فهجر كارل ماركس بلده وذهب الى باريس ليعلن الدعوة الاشتراكية التي كان ينحي عليها ، فلم تفلح الصحيفة الجديدة وعاد كما كان بلا عمل ولا رغبة في العمل ، وظل يعيش من معونة كان يتلقاها من بعض أصهاره في هولندة ، حتى انقطع هذا المورد فألقى عبئه كله على أصحابه ومريديه •

قد يخطر لأحد أن الرجل كان يترك طلب الرزق لأنه كان مشغولا بالدعوة الى مذهبه ، سواء كان مخلصا لهذا المذهب أو كان متهما في اخلاصه •

لكن الواقع أنه كان لا يطيق العمل لطلب الرزق ولا لنشر الدعوة • ففي هذه الاثناء أشفق عليه بعض رفقائه فأقنعوا لسكي Leske بالاتفاق معه على تأليف كتاب في موضوع الاقتصاد وعلاقته بالسياسة ، وهو الموضوع الذي تدور عليه دعوته الشيوعية • فتم الاتفاق في سنة ١٨٤٤ وقبض كارل ماركس من ثمن الكتاب ألفا وخمسمائة فرنك ، ومضت أربع عشرة سنة ولم يظهر الكتاب • وحلت سنة ١٨٥٨ فاذا بكارل ماركس يتفق مرة أخرى مع ناشر آخر على تأليف الكتاب • وكان الناشر الجديد هو

الهر دنكر Dunker الذي كان ينشر رسائل الزعيم الاشتراكي لاسال فانقضت السنون ولم يظهر الكتاب الموعود .

وضاقت موارد الرزق بالرجل لكسله واخلافه لوعوده واتفاقاته ، وكان قد انتقل الى العاصمة الانجليزية ، وسعى بعض عارفيه لتدبير عمل له يواظب عليه ويكسب منه قوته . فاتفق مع صحيفة نيويورك تربيون Tribune على مقال أسبوعي أو مقالين يرسلهما اليها من العاصمة الانجليزية ويؤجر على كل مقال بعشرين شلنا ، فلم ينشط لكتابة هذه الرسائل واعتمد على زميله انجلز ليكتبها باسمه ويساعده مع ذلك بمعونة من عنده ، ولم يزل كذلك حتى انقطعت مراسلته للتربيون .

ويعتبر كتاب « رأس المال » انجيل الشيوعية المقدس عند أتباعها . فكان من المعقول أن يفرغ نبي الشيوعية لاتمام انجيله الذي تقوم عليه دعوته ، ولكن النبي لم يكن يقترب من صفحات انجيله الا تحت ضغط شديد من الحاجة العاجلة الملحة . وما هو الا أن استقل زميله انجلز بتجارة أبيه واستطاع أن يخصص لكارل ماركس معاشا سنويا دائما ، حتى طوى النبي كتابه المقدس طي الابد ، وتركه ناقصا كما بقي حتى الآن .

هذا هو الامام الذي خرج للناس ليبشرهم بقداسة العمل ويبغضهم في المتبطلين الذين يعيشون عالة على غيرهم . فلو أنه عومل بالشريعة التي أراد أن يفرضها على الناس ، لهلك جوعا وأنصفته الدنيا على حد قوله : « من لا يعمل لا يأكل » ولم يكن هو من الذين يعرفون أمانة العمل ويتحرجون من أخذ المال بغير جزاء .

والعجب العاجب في أمر هذا الرجل الذي استباح الاجر بغير عمل أنه خشي من منافسة الزعيم باكونين ، وبحث عن سبب للتشهير به وتجريحه وحمل المؤتمر الاشتراكي على فصله ، فماذا كان السبب الذي بنى عليه حملة التشهير وطلب الفصل والتحقير ؟ سبب عجيب من كارل ماركس : وهو أن باكونين قد دنس سمعة الاشتراكيين ، لأنه اتفق مع ناشر في

روسيا على ترجمة كتاب ولم ينجز ترجمة ذلك الكتاب .

ونص الحملة موجود في سجلات المؤتمر ، ونص الاتفاق بين ماركس وبين لسكي وبين دنكر موجود كذلك في تراجم هذا الرجل المريب .

فاذا كانت هذه الصفحة المدنسة مفتقرة الى سواد فوق سوادها ، فقد يزيدها سوادا أن نعلم أن باكونين كان استاذا لكارل ماركس في الآراء الديمقراطية ، وأن هذا الجزاء السيء كان نصيب كل استاذ وكل زميل وكل صاحب اتصلت حياته بحياة هذا الرجل . وقد مضى بنا اسم الزعيم لاسال في هذا الحديث ، وعرفنا منه أنه توسط لكارل ماركس عند ناشر مؤلفاته ليساعده بنشر كتابه ، فمن شاء أن يرجع الى رسائل كارل ماركس فلينظر كيف كان وفاؤه لهذا الفضل عليه ؟ انه كان يقول عن لاسال أنه يفكر تفكير الزنوج ، وان ملامحه تدل على وراثة زنجية ، ثم يشفع ذلك بالتلميح الى عفاف أمهاته قبل جيل !

ويستطيع من شاء أن يرجع الى أسماء اساتذته وزملائه واحدا واحدا فلن يجد انسانا منهم سلم من تهمة شائنة أو وصف بغيض . ولا استثناء لغير شخص واحد هو الذي كان محتاجا الى معونته المالية مدى الحياة ، وهو فردريك أنجيلز . ومع ذلك نقرأ رسائل أنجيلز اليه فنرى كيف وصفه في احداها بجمود العاطفة والانانية ونقص المروءة والشعور .

* * *

ان الحقائق التي لخصناها هنا عن زعيم الشيوعية بعض ما عرف عنه من هذا القبيل ، وكلها مستمد من سجلات الحركة الشيوعية التي دونها دعاتها وأنصارها ، فمن كان لا يعميه غرض ولا هوى فلا صعوبة عليه في فهم الرجل على حقيقته التي لا تحتمل المغالطة والخداع ، فهو مثل في التطفل ، ومثل في طوية الشر والكنود ، ومن كان كذلك لا يقتدى به في شريعة العمل ولا تفيض نفسه بخير صحيح لمن يجهلهم من بني آدم وحواء ، وقد كان أقربهم اليه يلقون منه الشر في موضع الخير ، ولا يجدون فيه موضعا للثقة والاقتداء .

الاصلاح والمذاهب الهدامة

كل مذهب من المذاهب الاجتماعية ، فالداعون اليه يزعمون أنهم يريدون به الخير ويقصدون الى الاصلاح .

ولكن هذه الدعوى لا تصدق في جميع الاحوال ، بل تختلف المذاهب في صلاحها حتى يأتي منها الضرر حيث تراد المنفعة . فمنها ما يصلح كثيرا وما يصلح قليلا ومنها ما يعطل الاصلاح ويفسده ، لأنه بطبيعته مناقض لطبيعة الاصلاح .

مذهب الماركسيين — فيما نعتقد — من هذه المذاهب التي تناقض الاصلاح بطبيعتها ، وتعطل الحركات المصلحة ان تستقيم في وجهتها . وتضيع جهود الامم التي ينبغي أن تتوفر وتصان عن الضياع ، وقد تعرف هذه الحقيقة بالتفصيل ، وقد يكفي فيها القليل من البيان لأنها لا تحتجب الا حين تحجبها عماية الهوى ولجاجة الغرض ، وهي لولا ذلك أقرب الحقائق الى الظهور والجلاء .

فلا حاجة بالانسان الى البحث الطويل ليعلم ان الطب الذي يداوي جميع الامراض بدواء واحد طب فاسد ، أو ليعلم ان الطبيب الذي يعالج كل بنية بوصفة واحدة يدعي الطب ولا يصلح للتطبيب .

فاذا كان الطب طب الامم والمجتمعات فعلامة الجهل ، أو علامة التدجيل ، أن يحاول الطبيب المزعوم مداواتها من جميع العلل بوصفة واحدة ، وأن ينسى ذلك الطبيب أن الامم تتفاوت في الطبائع ، وتتفاوت في العلل ، وتتباعد في أسباب الشكوى كما تتباعد في أسباب البرء من شكواها ، ولا يحدث في وقت من الاوقات أن تشكو كلها علة واحدة

وتصح كلها بعلاج واحد ، فقد يكون الشفاء لواحدة منها مرضا لغيرها ، وقد يكون النظام الذي يضرها في فترة من الزمن هو المنفعة كل المنفعة في غير تلك الفترة .

ان الامة من الامم تحس شكواها فتبحث عن علتها ، وقد تهتدي الى العلة مرة وتضل عنها مرة ، وهي في اهتدائها وضلالها على السواء تتعلم وتقترب يوما بعد يوم من العلاج المفيد .

وهكذا يكون العلاج الذي تستمده الامة من كيانها وتعتمد فيه على تجاربها وهداية فكرها ووجدانها ، فتختار حكومة بعد حكومة وتنشيء نظاما بعد نظام ، وتشرع في التجربة ثم تمضي فيها أو تعدل عنها أو تحتال على تعديلها ، وبهذه المحاولات تتربى الامم وتتقدم ، وتبلغ رشدها من طريق النمو الطبيعي الذي ينمو عليه جميع الاحياء .

ماذا يصنع الماركسيون ، أو الشيوعيون لأمم الارض في هذا العصر الذي نشطوا فيه للدعوة أو للاصلاح المزعوم ؟

هل تركوا الامم تتربى وتتعلم ، وتستفيد من التجربة ، وتتخذ لها من ماضيها سبيلا الى حاضرها ومن حاضرها سبيلا الى مستقبلها ؟

كلا . لم يفعلوا ذلك ولم يميزوا بين أمة وأمة في علل فسادها وأسباب صلاحها ، بل جعلوا الامم كلها مريضا واحدا يتداوى بعلاج واحد ، وصنعوا كما يصنع الخرافيون الذين يدعون الناس الى ترك دوائهم وترك أطبائهم ، ويصفون لهم المعجزة التي تشفي من جميع السقام وتبرىء من جميع الشكايات .

ان اسم الدجال هو الاسم الذي يطلقه الناس بداهة على من يتصدى للعلاج وليس لديه غير علاج واحد يصفه لمن يشكو بجوفه ، ويصفه لمن يشكو بعظامه ، ومن يشكو بأعصابه ، أو يصفه للطفل في الرابعة وللفتى في العشرين وللشيخ في الستين والسبعين ، أو يصفه للعجوز والفتاة والصبية والجارية ، كما يصفه للرجال في جميع الاسنان ، وعلى اختلاف الامزجة والاجسام .

ان اسم الدجال هو الاسم الوحيد الذي ينطبق على من يتعاطى الطب على هذه الوتيرة ، ولكن هؤلاء الماركسيين أو الشيوعيين ، ينكرون أنهم دجالون ويؤكدون للناس انهم هم الاطباء النطاسيون ، ووصفتهم مع هذا وصفة واحدة للصين والهند ، وللعراق ومصر ، ولروسيا وفرنسا ، وللجزر البريطانية والولايات الامريكية : معجزة لا معجزة مثلها في خرافات الاولين والآخرين ، تشفي من الحمى والجذام ، وتشفي من السل والزكام ، وتشفي من الهيضة والطاعون ، وتشفي من العته والجنون ، وتشفي من الكسور والجراح ، ومن العجز والكساح ، ومن الورم والسرطان وتصلح لكل انسان ، في كل أمة وفي كل مكان .

وآفة هذا المذهب الخبيث انه يعطل الاصلاح ويضلل عن طريق الصلاح ، فلا يعالج الامم من دائها ولا يتركها تلتمس دواءها من تجاربها ومحاولاتها ، ولا سبيل الى تقدم أمة بغير هذه التجارب والمحاولات .

ولقد ظهرت عواقب هذا البلاء ، وتزداد ظهورا مع الايام والاعوام ، ولكننا نتمثلها ونتمثل مبلغها من الضرر الوخيم اذا رجعنا مع الزمن وقدرنا أن هذه الدعوة الماركسية قد شاعت قبل خمسين سنة ، أو قبل مائة سنة ، فماذا تكون العاقبة اليوم ؟ وأين تذهب الجهود التي أثمرت ثمراتها في هذه السنين ؟ أين كانت تذهب اليقظة التي تيقظتها الصين ؟ وأين كانت تذهب نهضة الحرية في الهند ، وأين كانت تذهب حركات الاستقلال في اقطار المشرق والمغرب ؟ وأين كانت تذهب العلوم والصناعات التي أسفرت عنها دعوات الاصلاح كما تنوعت بين أنواع الامم والاقوام ؟

لو قال قائل للامم قبل خمسين سنة : ان الاصلاح كله عبث ضائع ، وان الدواء كله هو الثورة العالمية التي يبشر بها الماركسيون ، فأي خسارة كانت تحيق بالامم ، وأي ضياع للجهود كانت تبتلى به لو سمعت منهم ذلك النعيب ، وانطلقت معهم في الهدم والتخريب ؟

لا فرق بين كثير من الامم في وقتنا هذا ، وبين كثير من الامم كما

كانت قبل خمسين سنة ، ولا تزال هذه الامم في حاجة الى التقدم بوسائلها التي لا تتشابه بين أمة وأمة ، ولا يتأتى الاعتماد فيها على شيء غير تراث الامة في ماضيها وتجاربها في حاضرها ، فاذا ابتليت احداها بدعوة الشيوعية فسوف تعوقها خمسين سنة عن طريقها ثم تعود بعد زوال الغاشية الى نفسها لتستأنف جهودها في طريق تعترضه الخرائب والاطلال •

وكما تعوق الماركسية اصلاح الشعوب ، تتسرب الى ضمائر الافراد فتعوق اصلاحهم وتصرفهم حتى عن محاولة الاصلاح بالوسيلة التي تم بها كل اصلاح ، وهي وسيلة الندم ومحاسبة النفس وعرفان الخطأ والعمل على اجتنابه والخلاص من جرائره ومغرياته ودواعيه •

فمن قديم الزمن لم يعرف الانسان سبيلا الى اصلاح عيوبه غير محاسبة النفس والعودة عليها باللائمة في حالة التقصير ، فيندم المخطىء على خطئه ويجتهد العاجز في استدراك نقصه ، والاخلاق كلها تقوم على شعور الانسان بمسؤوليته أو ايمانه بأنه مكلف مسؤول عن عمله •

أما الماركسية فهي تهدم هذا الاساس الذي لا قوام للاخلاق بغيره . وتقول للمذنبين والمقصرين انكم جميعا أبرياء من التهمة منزهون من الوصمة ، لأن اللوم كله على المجتمع في عجز العاجز وفساد الفاسد واجرام المجرم وتقصير المقصر • فليس على اللص أن يعف عن مال غيره لأن المجتمع كله قائم على السرقة والاستغلال ، وليس العجز من عيوب الانسان لأن القادرين في المجتمع هم المتغلبون بالقوة والفائزون بغير استحقاق ، وليس الكذب عيبا ما دامت العلاقات الاجتماعية قائمة على النفاق والاختلاق ، وليست الفحشاء عارا لأنها نتيجة محتومة لنظام العائلة والزواج كلما شاعت آداب رأس المال ، وليس السقوط في مراتب الاجتماع نقصا يلام عليه الساقط لأن المزايا الاجتماعية غش وخداع واختلاس ، وهذا وأشباهه هو الذي يقال للعجزة والساقطين فيصرفهم عن الاجتهاد في اصلاح نفوسهم ويفعل في ضمائرهم فعل المسكرات والسموم •

واذا فرضنا نجاح الشيوعية يوما فان مقاييس الاخلاق بعد نجاحها أهبط وأدنأ من مقاييسها في ابان نشر الدعوة اليها ، لأنها لا تعلم الناس أن يمتنعوا عن السرقة عفة وأنفة من خستها ، ولا تعلمهم أن يمتنعوا عن الظلم بـرا بالضعيف وايمانا بمبادىء العدل والكرامة ، ولا تعلمهم أن يمتنعوا عن الفساد صيانة للاعراض وغيرة على الانساب . كـلا ، انها لا تعلم الناس الفضيلة بل تصور لهم المجتمع الشيوعي كأنه عالم تمتنع فيه السرقة لامتناع وسائلها وعجز الناس عن ارتكابها ، ويمتنع فيه الظلـم لامتناع الاستغلال وامتناع التسلط الذي ينشأ من الاستغلال ، ويمتنع فيه الفساد لأن المباح والمحرم يستويان في الانظمة الشيوعية ، فكل ما عند المجتمع الشيوعي من وعود الاصلاح هو تجريد اللص من السلاح واخلاء الصندوق من المال المطموع فيه ، ولن يقوم مجتمع قط على هذه الخلائق السلبية التي لا تعترف بقوة الضمير ، فليس فيه فضيلة الا وهي في حقيقتها رذيلة موقوفة التنفيذ .

وصلاح العقل مهـدد في النظام الشيوعي كصلاح الاخلاق ، لأن المطلوب فيه من العلم أن يوافق المبادىء الشيوعية وليس المطلوب فيـه من المبادىء الشيوعية ان توافق العلم أو توافق المنطق المعترف به بـين جميع الناس . وعندهم أن العلم ينبغي أن يكون علمـا شيوعيا خاضعا لتفكير ماركس ولنين وستالين ، وكلامهم عن ذلك صريح يعلنونه في الخطب وينشرونه في الكتب . ومنه كلام الاستاذ فافيلوف Vavilov رئيس مجمع العلوم في موسكو حيث يقول مـن بحثه عن العلم السوفيتي في صورته الجديدة : « ان العلم السوفيتي لم يكن قصاراه أنه فرع من العلم العالمي يتخذ مكانه في الجمهوريات الروسية المتحدة . كلا . بل هو علم منعزل مختلف بطبيعته ونطاقه . ومزيته الاولى هي أنه دون غيره يقوم على أساس فلسفي واضح ، وهو الاساس الذي لا غنى عنه للبحوث العلمية ، وعلمنا نحن له أساس من المادية الثنائية التي قررها ماركس وانجلز وزكاها لينين وستالين » .

وهذا هو البيان الصريح الذي يجهر به رئيس مجمع العلوم في البلاد الشيوعية ، ولا يخلو كلام للعلماء الشيوعيين أمثاله من عبارات الحزبية العلمية كحديثهم عن روح الحزب في الرياضيات والنظريات الماركسية اللنينية في الجراحة ، فكل فكرة علمية أو فلسفية أو أدبية تخالف الاصول التي وضعها ماركس ولنين وستالين فهي تهمة للعالم او الفيلسوف او الاديب الذي يهتدي اليها ، وشبهة على اخلاصه للحزب والمذهب والدعوة كلها في جملتها ، ولم يعرف التاريخ في أظلم عصور الظلام حجرا على العقل البشري كهذا الحجر العنيف في منتصف القرن العشرين الذي يقال عنه انه عصر الحرية والنور .

* * *

ان الحياة الانسانية كثيرة النقائص والعيوب ، وانها لفي حاجة دائمة الى الاصلاح والعلاج ، وان المذاهب الاجتماعية التي تدعو الى اصلاحها لكثيرة منوعة ، ولكننا نهتدي الى شيء نافع حين نعرف منها المذاهب التي تعالج مشاكل الناس بحكمة وتؤده وتتجنب المذاهب الهدامة ، ولاسيما المذهب الوخيم الذي يشعوذ على الامم المختلفة بعلاج واحد ، ويسقط عن الانسان مسؤولية عمله ، ويحجر على العقل البشري أن يمضي في طريقه المستقيم .

الدعوات الهدامة والناشئة (١)

يستحق أن يسمى مذهبا هداما كل مذهب يقضي على جهود الانسانية في تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التي بذلها الانسان للارتفاع بنفسه من الاباحية الحيوانية الى مرتبة المخلوق الذي يعرف حرية الفكر وحرية الضمير •

ومذهب كارل ماركس ــ صاحب الدعوة التي اشتهرت باسم الاشتراكية العلمية ــ في مقدمة المذاهب التي تهدم ما بنته الانسانية في تاريخها الطويل ، لأنه يبيح لكل طبقة أن تهدم ما بنته الطبقة التي تقدمتها ، كأنه لم يكن من عمل بني الانسان •

هذه المذاهب ينتقدها المنتقدون من الوجهة العلمية كما ينتقدونها من الوجهة التاريخية ، ولولا أنها مذاهب تختلط بالغرائز والشهوات ، وتسري بين الاغرار والجهلاء ، لما تحملت شيئا من النقد العلمي ولا من النقد التاريخي ، لأن بطلانها أظهر من أن يحتاج الى عناء شديد في النقد والتفنيد •

فمهما يكن نصيب الانسان من العلم قليلا ، ومهما يكن نصيبه من استقلال الفكر محدودا ، فهو ــ لولا الغرائز والشهوات ــ يستطيع أن يفهم أن العلم الانساني لن ينتهي الى انسان واحد كائنا ما كان ، ويستطيع أن يفهم أن الرأس الذي يدعي أنه أحاط بأسرار الكون كله ، ونفذ الى حقائق التاريخ كلها ، ووصل الى النتيجة التي لا تتغير من بعده ولا يطرأ عليها تعديل ولا تبديل الى آخر الزمان ــ هذا الرأس يدعي ما لا يقبله عقل عاقل ، ولا يصلح لهداية الانسانية في طريق العمار والفلاح •

وكارل ماركس لا يدعي شيئا أقل من هذه الدعوى العريضة التي لم يجترىء على ادعائها أحد من قبله • لأنه يزعم أن فلسفته أحاطت بأسرار المادة والحياة ، وأسرار التاريخ والاجتماع ، ووجب أن يدين بها الناس فلا يغيروا منها كثيرا ولا قليلا فيما يأتي من الدهور والاجيال ، بل وجب أن يعتمد الناس على فلسفته هذه ليهدموا عالمهم بأيديهم ، كأنه معصوم من كل خطأ يدعو الى التردد قبل هذه المجازفة ، وأي مجازفة ؟ • انها المجازفة بتحطيم عالم كامل ، لا بمجرد تحطيم بيت أو مدينة أو وطن واحد يجمع المدن والبيوت •

لا حاجة الى الاطالة في البحث العلمي لانكار هذه الدعوى من أساسها ، فهي كلام لا يحتمل البحث الجدي ولا يصغي اليه المرء وهو مفيق من غمرة الشهوات والغرائز العمياء •

على أن بطلانها من ناحية الشعور لا يقل عن بطلانها من ناحية التفكير •

فعندما يخاطب كارل ماركس أتباعه ويأمرهم بتخريب المجتمعات قاطبة يقول لهم ما معناه : اخربوها فليس عندكم ما تفقدونه فيها •• ؟

وما من عقل يفيق من غمرة الشهوات والغرائز العمياء ، يسمع هذه الدعوة فيخطر له أنها دعوة خير وفلاح • لأنها حركة يأس وقنوط ، ولن يتحقق رجاء العالم من وراء اليأس والقنوط ، ولن يصلح العالم من لا يبالون بخرابه ولا يترددون في تحطيمه • ولن يعطي الانسانية أملا من فقد كل أمل ، وتساوى عنده التخريب والتعمير • بل أصبح التخريب أحب الى نفسه من التعمير •

اليائس لا يفكر ولا يبالي ، ولأنه لا يفكر ولا يبالي يخاطبه دعاة التخريب والتحطيم ، ولا يهمه صدقوا أو كذبوا في وعودهم • فان صدقوا فهو مخرب ، وان كذبوا فهو مخرب • وويل للانسانية من مصير يهجم عليه من فقد العقل والرجاء •

ومن الجائز أن يوجد بين الناس من يستبيحون تخريب العالم لأنهم محرومون فيه . ولكنها اذن حركة شر لا حركة خير ، ولا فرق بين هذه الحركة وبين حركة السباع التي تنطلق من الغابات في طلب الفريسة فليست هي على هذا الاعتبار عقيدة انسانية أو مذهبا من مذاهب الفكر التي تقنع بالدليل وتقبل المناقشة بالبرهان . وانما هي كارثة تمسخ الطبيعة الآدمية فترتد الى ضراوة الوحشية ، ولا تميز بين العمار والخراب .

وفي العصر الحاضر كثير من الشبان المتعلمين تروعهم حالة البؤس والفاقة التي يبتلى بها المحرومون ، وهي حالة تروع النفوس الكريمة وتحزن من يفكرون فيها ولا يلام أحد على انكارها وطلب الخلاص منها ، ولم يكن بلاء الحرمان قط موضع خلاف بين طلاب الاصلاح ، وانما الخلاف في العلاج الذي يدعو اليه طلاب الهدم والخراب . فاذا كان العلاج سما فهو شر من الداء الذي يعانيه المريض . ومن الواجب على من ينكر المرض أن ينكر السم من باب أولى .

ما من أحد يقول ان المريض غير مريض ، ولكن الذي يقولونه هو أن الطبيب غير طبيب ، وأن الدواء الذي يصفه سم يميت ولا يرجى منه شفاء ، وفرق عظيم بين القولين .

على أن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وللحق علاماته وللباطل كذلك علاماته ، وأبناء هذا الجيل — ممن أصابوا حظا من العلم ، خليقون أن يعرفوا تلك العلامات من تجارب الانسانية التي نسميها التاريخ ، ومن بداهة الفكر التي يهتدي اليها الطبع السليم .

فلا حق ولا صلاح في مذهب يدعي علم الماضي كله وعلم المستقبل كله ، ويرسم لأبناء هذه الدنيا مستقبلا لا ينحرفون عنه ولا يتصرفون فيه أو تصرفهم فيه نواميس الكون وطبائع الامور .

ولا حق ولا صلاح في مذهب يجعل الاطوار التاريخية جميعها مرهونة بالفوارق بين الناس في المال أو في انتاج المال ، وينسى تلك الفوارق التي

لا عداد لهـا بين القوي والضعيف ، وبين الذكي والغبي ، وبين المجتهد والكسلان ، وبين الطموح والقانع ، وبين الجميل والقبيح ، وبين المنجب والعقيم • فان كان هناك عقل يتوهم أن هذه الفوارق ملغاة معطلة في تاريخ الانسانية وأن الفارق الوحيد الذي يعمل في هذا التاريخ هو فارق الاجور وأسباب الانتاج ، فهو هو العقل المعطل أو العقل المضلل الذي لا يدرك طبائع البشر ، ولا يصلح لهدايتهم الى سبيل التقدم والفلاح •

ولا حق ولا رجاء في مذهب يقوم على اليأس والقنوط ، ويامر بالشر والعداء ، ويوجه خطابه الى أسوأ الاخلاق في أسوأ النفوس ، مستعينا بالحسد تارة وبالحقد تارة أخرى ، وبالغرور والتواكل في جميع الاحوال •

ولا حق ولا انصاف في مذهب يمحو مسئولية الفرد ويلقي المسئولية كلها فيمـا يعيبه على المجتمعات والامم ، بعـد أن تقدم الفرد في طريق الحرية ، وكاد أن ينحصر التقدم الانساني في نتيجة واحدة : وهي المسئولية الفردية : مسئولية الانسان الذي يحاسب بأخلاقه وأعماله ، ولا يفرض فيه أنه في قبضة المجتمع آلة من الآلات •

ولا حق ولا تمييز في مذهب يطلـق نوع الانسان بعضه على بعض وحوشا تتوثب على وحوش ، مذهب يجهل نوع الانسان أو يتجاهله تعصبا لطبقة واحدة منه دون سائر الطبقات ، كأنها هي وحدها التي تستحق صفة الانسانية ، وما عداها من غير بني الانسان •

فليس الاغنياء كلهم بالشياطين الاشرار وليس الفقراء كلهم بالملائكة الاخيار • وقد أساء الاغنياء قديما وحديثا ويسيئون غدا الى غير نهاية ، وأساء الفقراء قديما وحديثا ويسيئون غدا الى غير نهاية •

فما كان الغنى كله اثما واجراما ولا كان الفقر كله طهرا وبراءة • وقد استفادت الانسانية من عمل الاغنياء كما استفادت من عمل الفقراء ، بـل لولا الغنى الذي مكن لبعض الناس مـن اقامة الصروح الباذخة والتدثر بالملابس الفاخرة ، واقتناء التحف الثمينة ، لما وجدت هذه الصناعات التي

يعيش منها ألوف العاملين في كل بقعة من بقاع العالم المعمور ، ولولا مطالب الغني في الازمنة الماضية لما سارت القوافل في القفار ، ولا مخرت السفن المشحونة عباب البحار ، ولا اهتم أحد برصد الافلاك التي تهدي الراحلين في الملاحة والسياحة ، ولا ارتقى فن البناء أو فن النجارة أو فن النسيج ، وما اليها من هذه الفنون التي عم نفعها الغني والفقير والمالك والاجير .

وان كاتب هذه السطور يبغض الشيوعية وليس هو من الاغنياء ولم يكن قط من الاغنياء ولن يكون يوما من الاغنياء . ولكنه يرى أن الفقير الذي يحجب الحقيقة عن نظره بيديه يحرم نفسه نعمة الفهم ويجمع خسارة العقل الى خسارة المال . ومن ظن أن مذهبا من المذاهب سيمحو عيوب الاغنياء ويترك بني الانسان مبرئين من العيوب فهو غافل راض عن الغفلة ، ومثل هذا أجدر بالرثاء له من الجائع والمحروم .

كل أولئك المذاهب والدعوات بين الضلال والبطلان ، ولا يستعصي على أحد أن يلمح علامات بطلانه اذا جرد نفسه من الهوى المفسد للشعور والتفكير . لأنه يعمي ويصم كما يقولون :

انما يرجى صلاح الانسانية من المذاهب التي تبشر بالتعاون والاخاء ، لا من المذاهب التي تثير العداوة والبغضاء . انما تتقدم الانسانية بجميع أجزائها لا بجزء واحد منها نسميه باسم طبقة ما في كل عصر من العصور .

ومن علامات المخربين والهدامين انهم يخدعون الناس بالاباطيل ، ومن علامات الخداع بالاباطيل أن يقال لليائسين انكم ان خربتم هذا العالم بما فيه من الفساد جاءكم عالم آخر كله صلاح وعدل وانصاف .

فالحق الذي لا شك فيه أن الناس لن يستغنوا عن اصلاح جديد في كل عصر جديد : كأنهم الطفل الذي يودع نقص الطفولة ليعالج نقص

الشباب ، ويودع نقص الشباب ليعالج نقص الرجولة ، ويترقى بذلك درجة بعد درجة في معارج الكمال .

وغاية الفرق بين الفرد والنوع الانساني أن الفرد يشيخ والنوع الانساني لا يشيخ . وأولى الناس أن يؤمنوا بهذه الحقيقة هم أبناء الجيل الجديد . لأنهم شباب يرجى منه العمل لتخليد الشباب . وتلك دون غيرها هي العصمة من آفة الهدم ، لأنها دعامة كل بناء .

الدعوات الهدامة والناشئة (٢)

اشتهر عصرنا هذا بالدراسات النفسية ، وتناول الباحثون بهـذه الدراسات أحوال الأفراد على اختلافهم ، وأحوال الأمم على اختلافها فبحثوا في نفسية البطل ونفسية العبقري ونفسية المجرم ونفسية الطفـل والمراهق، وبحثوا كذلك في أطوار الجماعات وعقائدها وعوامل التأثير فيها، واستفاد الناس من هذه المباحث فوائد شتى في شئون التربية والتعليـم والسياسـة •

ولكن هذه الدراسات النفسية قد أصابها ما يصيب كل بدعة جديدة يلهج الناس زمنا من الازمان : أصابها الافراط في تطبيقها على كل شيء وكل حالة ، فأصبحنا ونحن نسمع بالعقد النفسية في تعليل كل مشكلة مـن المشكلات الخاصة أو العامة ، وكلما ذكر الذاكرون بدعة في سلوك بعض الجماعات ، أو سلوك بعض الأفراد ، وجدنا من يقول : هذه عقدة نفسية هذه نزعة مكبوتة • هذه حالة من حالات الوسواس التي يعالجها الأطباء النفسانيون ، وليس الأمر دائما على هذا الوصف الذي يصفونه ، فان المشكلات الاجتماعية كثيرا ما ترجع الى أسباب لا علاقة لها على الأطلاق بالعقد النفسية ، سواء بحثنا عن هذه العقد في نفوس الأمم أو نفوس الأفراد ، ومن الواجب أن نعرف هـذه الحقيقة اذا أردنـا أن نواجـه مشكلاتنا ونصلح من أمورنا لأن الصواب في تشخيص الداء هو نصف العلاج •

من المشكلات التي يردونها الى العقد النفسيـة مشكلـة الشاب العصري وموقفه من الدعوات الهدامة ومذاهب الفوضى والانقلاب •

فمن المحقق أن الأمراض النفسية تدفع ببعض الشبان الى الاصغاء لهذه الدعوات ، بغير بحث فيها ولا معرفة لحقيقتها .

ولكن من المحقق أيضا أن مشكلة الشاب العصري ـ في هذه المسألة ـ لا ترجع كلها الى الأمراض النفسية المزعومة ، بل يرجع الكثير منهـا الى أحوال تتعلق بنظام التعليم أو تتعلق باتساع التعليـم ، أو باتساع العلاقات العالمية واشتراك بني الانسان جميعا في ظروف متشابهة ، وكل أولئك لا شأن له بالأمراض النفسية ولا بالأطباء النفسانيين ، وقد يكون الشأن فيه للمصلحين من رجال التربية والسياسة ، قبل غيرهـم مـن القائمين بالاصلاح .

فمن المصاعب التي تصادف الشاب العصري انه يبقى في المدارس الى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، اذا أراد أن يتخرج من المدرسة العاليـة .

لم تكن هذه المشكلة مما يواجه الشاب في العصور الماضية ، لأنـه كان يكتفي بمعرفة القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وشيء من المعارف العامة ، ولا يبلغ الخامسة عشرة حتى يكون قد أخذ نصيبه في المعرفة اللازمة له في معيشته ، ثم يتزوج وهو في باكورة صباه ، فيحمل أثقال المسؤولية ولا يتسع وقته لغير شواغله الخاصة ، أو يشتغل بما يسمعه من المسائل العامة وهو على انفراد . لأنه لا يجتمع بالمئات والألوف مـن أقرانه كما يجتمع اليوم طلاب الكليات والجامعات .

أما اليوم فالشاب يتعلم في مدرسة بعد مدرسة حتى يبلغ الخامسة والعشرين أو يجاوزها أحيانا الى الثلاثين . فهو يقضي فورة الشباب الأولى في دور التعليم . لا يزاول تجارب الحياة ولا تثقله تكاليف المسؤولية ، ولا تتيسر له المعيشة الزوجية قبل اتمام تعليمه واستعداده للعمل في المجتمع أو في وظائف الحكومة ، ومع خلوّه من المسؤوليات والتجارب التي تضطره الى التأني والتردد لا يزال في قلق الشباب مشتركا مع المئات من أقرانه

في مثل هذا القلق ومثل هذا الخلو من المسؤولية ، وهذه فرصة سانحة لمن ينشرون دعوات الهدم والفوضى ، فاذا استغلوا فرصتهم فهناك أسباب غير العقد النفسية تفسر هذا الاستغلال أو تفسر موقف الشاب العصري من تلك الدعوات .

وهذا الشاب الذي يتعلم حتى يناهز الثلاثين ، يفوق في المعرفة أنداده من أبناء العصور الماضية بلا مراء ، ولكنه لا يفوقهم في الخبرة ولا في المسؤولية . لأن الشاب في العصور الماضية اذا بلغ الثلاثين كان صاحب أسرة ومسؤولية ، وكان قد مارس التجارب عدة سنين ، فهو يعوّض بالتجربة والمسؤولية ما فاته من المعارف المدرسية التي يتعلمها الشبان العصريون في هذه الأيام .

على أن المعرفة القليلة كانت كافية للشاب في العصور الماضية لأن المسائل العامة التي تشغله قلما تتخطى حدود قريته أو حدود وطنه ، وهي لا تتطلب منه رأيا جديدا ، أو حلا جديدا لمشكلات ذلك الوطن أو تلك القرية .

أما اليوم فأخبار العالم من جميع القارات تصل الى البيوت في كل قطر وكل بلدة : تصل من طريق الاذاعة أو من طريق الصحف أو من طريق الصور المتحركة . فالمعارف الكثيرة التي يتلقاها الشاب العصري في المدرسة لا تكفي لادراك مشكلات العالم بأسره ، ولا تغني في الاحاطة بأسبابها ودواعيها ووجوه النظر فيها ، ومنها ما يحتاج الى دراسة التاريخ الانساني من أوله ، ومنها ما تشتبك فيه معضلات العلم والاقتصاد والسياسة والتشريع ، فهو بالنسبة الى أنداده في العصور الماضية أقل منهم قدرة على فهم مشكلاته وتدبير سلوكه ، وان كان أوفر نصيبا في الدرس والاطلاع .

واذا أردنا أن نضرب مثلا للفرق بينهما قلنا : ان الشاب في العصور الماضية كان يستضيء بشمعة واحدة ولكنها تنير له مسكنه كله ، لأنه كان يسكن في حجرة صغيرة .

أما الشاب العصري فانه يستضيء بعشرات الشموع ولكنه لا يزال في الظلام ، لأنه يريد أن يضيء منزلا متعدد الغرف والحجرات ٠

* * *

وهناك فارق آخر بين الشاب العصري والشاب في العصور الماضية ، يرجع أيضا الى اختلاف النظم الاجتماعية والسياسية ، ولا يرجع الى مرض من أمراض النفس المزعومة ، ولكنه فارق يؤثر في اختلاف الموقف بينهما من ناحية المذاهب أو الآراء الاجتماعية ٠

هذا الفارق الكبير هو فارق الحرية في العصور الحديثة ٠

ففي العصور الماضية كانت سياسة الدول سرا من أسرار القصور لا يطلع عليها أحد غير حكام الدول والمقربين اليهم ، واذا اتصل خبر من أخبارها بعامة الناس تلقوه بين التصديق والتكذيب ، واغتبطوا بالاطلاع عليه والتحدث فيه ، كأنهم قد اطلعوا على نبأ من أنباء العالم الآخر ، ولم يكن خبر من هذه الأخبار ينتشر بين الناس في صورة الوقائع العلنية التي يتناولها الكلام الصريح والتعليق المتواتر ، سواء كان ذلك الخبر من الأسرار الشخصية الخاصة أو من أسرار الدولة ومعلومات السياسة العليا كما يقولون في هذه الأيام ٠

وكان من نتيجة هذا الكتمان الذي يحيط بأعمال الحكام وأحوالهم أن عيوبهم ونقائصهم ظلت مجهولة مشكوكا فيها ، ولم تكن على الاقل موضوع الأحاديث الشائعة في المحافل والبيوت ، فاحتفظوا بالهيبة التي تعصمهم من الابتذال ، وأحاطت بهم شعائر التوقير التي توجب الثقة والاطمئنان ٠

أما اليوم — في ظل الحكومات الديمقراطية — فأحوال الحكام معلومة ونقائصهم مشهورة ، وهم يتنازعون فيما بينهم ويجتهد كل فريق منهم في اعلان أخطاء خصومه ومنافسيه ، وربما شاع اللغط بشئونهم الخاصة في بعض الصحف أو النشرات التي لا تتورع عن الخوض في هذه الشئون٠

وكثيرا ما يحدث أن حكام دولة يحملون على حكام دولة أخرى ، ليتهموهم بنقض العهود وتعكير صفو السلام وتهديد العالم بالمنازعات والحروب

ومن البديهي أن هذه العيوب كانت موجودة في حكام العصور الماضية ، وربما كان حكام العصر الحديث خيرا من أسلافهم في كثير من المزايا والصفات ، ولكن الحكام في العصور الماضية كانوا مستورين فكانوا موضع الاحترام والثقة والاطمئنان ، أما حكام العصر الحديث فلا تخفى عيوبهم ونقائصهم كما تخفى عيوب الاقدمين ونقائصهم ، فلا عجب اذا اجترأ عليهم المجترئون واستعدت الأسماع دائما لقبول الطعن في الحكومات وقبول دعوات التغيير والتبديل ، بل قبول دعوات الفوضى والانقلاب ، وبخاصة اذا كان السامعون خلوا من التجربة ، قاصرين عن فهم المقارنة بين الحاضر والماضي ، والمقارنة بين الحاضر والمستقبل ، مسرعين الى استجابة كل صوت ينادي بالتغيير ، عن جهل منهم بسوء النية وسوء المصير .

واتفقت هذه الفوارق ، في جيلين متعاقبين ، شهد كل منهما حربا عالمية عمت جوانب الكرة الأرضية ، ديست فيها الحقوق والحرمات ، وتخللها ما يتخلل الحروب من شر وفساد واجتراء على الأنفس والأعراض ، واختلال في توزيع الثروة بالكسب الحلال أو بالكسب الحرام ، ونشأ الأطفال والصبية في هذين الجيلين وآباؤهم مشغولون عنهم في ميادين القتال أو في ميادين السعي والاجتهاد ، فلم يشعروا بالوازع الأخلاقي الذي كان الناشئون يشعرون به فيما مضى ، وينتفعون به في التأني والتريث قبل الاندفاع فيما يجهلون عقباه .

هذه العوارض كلها ترجع الى أسباب نظامية أو سياسية لا علاقة لها بالعقد النفسية التي يتردد ذكرها في هذا الزمن ، وليس حديثنا اليوم مما يتسع للبحث في علاجها واتقاء أضرارها ، لأن البحث في هذا الموضوع مهمة يشترك فيها المصلحون من أقطاب التربية والتشريع والسياسة .

وتستلزم النظر في تقدير زمان التعليم ومكانه ، والتوفيق بين تحصيل العلم ومسؤوليات الحياة البيتية أو الحياة الزوجية ، وكل أولئك محل للتأمل والمراجعة وتكرار التجارب في مختلف البيئات والمجتمعات .

انما أردنا بالاشارة الى هذه العوامل أن نرجع ببدعة العقد النفسية الى حدودها المعقولة . فليست كل مشكلة اجتماعية عقدة نفسية في الأمة ، وليس كل نزعة طارئة عقدة نفسية في هذا الانسان أو ذاك ، وللمشكلات الكبرى والصغرى أسباب غير العقد النفسية والامراض النفسية ، فما كانت هذه الدنيا مستشفى نعلل كل حادث فيه بالعلل . ونحول كل داخل فيه الى حجرة الأسعاف . ولكنها دنيا معاش وعمل ، قد تطرأ شكاياتها من جانب الصحة كما تطرأ من جانب المرض . والمهم أن نعرف ما نشكوه على حقيقته ، لأننا لا نزيل الشكوى ونحن نجهل أسبابها ، ومن عرف ماذا يشكو عرف كيف يطلب السلامة والنجاة .

العائلة والوطن والدين

العائلة والوطن والدين أقوى الدعائم التي قام عليها بناء الحضارة الانسانية .

ولو أننا نزعنا من تاريخ الانسان كل ما استفاده من تكوين العائلة والوطن والدين لما بقي من الانسان المتحضر أثر ، ولعاد الانسان كرّة أخرى الى الهمجية ، بل الى الوحشية ، لأن الفارق الأكبر بين أبناء الحضارة وبين الهمج أو الوحوش ، هو لألفة بين الانسان وأهله واخوته في وطنه ، وهو الهداية التي استمدها من شرائع الوطن وآداب الدين .

ومن تعاسة الهدّامين الداعين الى الفوضى والفساد أنهم يهدمون كل دعامة من هذه الدعائم ، ويزعمون أن الخير كلّ الخير في نقضها ومحو آثارها واعلان العداء للماضي بأسره ، كأنهم يعلنون العداء على ماضي نوع آخر من الحيوان ، غير نوع الانسان .

ولو كان التقدم الذي يتحدثون به معناه أن يهدم الناس كلّ ما بنته الانسانية في غابر عصورها ، لوجب أن نلغي ما تعلمناه من صناعاتها في مآكلنا وملابسنا ومساكننا وآلات المعيشة في بيوتنا ومجتمعاتنا ، ولكن دعاة الهدم والتخريب لا يجترئون على الدعوة الى هذه الحماقة ، لأن الخراب الذي تؤدي اليه محسوس ملموس لا يقبل الجدل ولا المغالطة ، ويخيل اليهم أن الخراب الذي يؤدي اليه هدم العائلة والوطن والعقيدة أهون من ذلك الخراب الذي نحسه ونلمسه ، والواقع أن هدم العائلة والوطن والدين أسوأ عاقبة من هدم الأماكن والبيوت .

من العائلة دون غيرها تعلم الانسان أصول الاجتماع وقواعد

الأخلاق وعلاقات التعاون بين العاملين في البيئة الواحدة ، وفي كل لغة من لغات العالم شواهد على ذلك تظهر لنا من مراجعة الكلمات التي تدل على الفضائل والصفات المحمودة .

فالرحمة مأخوذة من الرحم وهو القرابة في الأمهات والآباء .

والكرم مأخوذ من الأصل العريق المنزه عن الأخلاط والأوشاب .

والحرية أيضا تفيد هذا المعنى بعينه ، فيطلق وصف الحر على النسب الخالص من الهجنة والعبودية .

والعزة تطلق على الأسرة التي لا تغلب لكثرتها ، « وانما العزة للكاثر » ، كما قال الشاعر المعتز بقبيلته وقومه .

والشيخ والكبير والرئيس هي كلها كلمات كانت تطلق على الأب الذي تقدم في السن ، ثم أطلقت على كل متقدم في جماعة من الجماعات ، حتى أطلقت على الحكيم الفيلسوف ، كما سمي ابن سينا بالشيخ الرئيس .

والى العائلة يرجع الفضل في حفظ كثير من الصناعات التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد .

والى العائلة يرجع الفضل في عمل العاملين للمستقبل وسعي الانسان لما بعد حياته .

وعيب العائلة في رأي دعاة الهدم والفوضى أنها تحرض الآباء والأمهات على توريث الأبناء والبنات ، وقد يكون في نظام التوريث عيب كبير أو صغير لا يستحيل اصلاحه بالقوانين وآداب الاجتماع . أما المستحيل قطعا فهو الغاء الوراثة من قوانين الطبيعة . فان الأب يورث ابنه الحميد والذميم من أخلاقه ، ويورثه القوي والضعيف من وظائف بنيته ، ويورثه الصحيح والسقيم من طباعه وأعضائه ، ويورثه الجميل والقبيح من ملامحه وقسمات وجهه ، وليس من حق المجتمع أن يحرم الولد كل ميراثه من مال أبيه اذا كان المجتمع عاجزا عن حماية هذا الولد من وراثة الضعف والقبح وسوء الاستعداد ، بل ليس من مصلحة المجتمع

أن يسوي بين الرجل الذي يعمل للغد والرجل الذي يعمل لساعته والرجل الذي يتواكل ويتوانى ولا يعمل لغده ولا لساعته ، لأنه قانع بالعيش من معونة المجتمع وفضل احسانه .

ان الهدامين المخربين سريعون الى الهدم والتخريب لغير سبب يقنع أحدا ممن يكرهون الهدم والتخريب ، ولولا شهوة الخراب في نفوسهم الممسوخة لما تهجموا على نظام الأسرة ذلك التهجم الذي لا يقنع أحـدا بهدم جحر من جحور الحشرات . على أن التهجم في دعوتهم الى هدم الوطن أغرب من هذا التهجم على هدم العائلة ، لأن تدبير العالم بغير أوطان مستحيل . أما تدبير المجتمع بغير عائلة فقد يتيسر الى حين .

فما من وطن من الأوطان يزرع كل ما يحتاج اليه او يخرج من المعادن كل ما يستخدمه في صناعاته ، وما من حكومة تستطيع أن تنفرد في مكان واحد بتنظيم المحصولات والمصنوعات على حسب الحاجة في كل وطـن على حدة ، وما من حكومة تستطيع أن تنفرد في مكان واحد بتنظيم مواصلات البر والبحر والهواء على حسب المواعيد التي توافق جميع الأقطار والأنحاء ، فلا غنى في نهاية الأمر عن الادارة الوطنية ، ولا غنى عن استقلال كل وطن بشؤونه ثم اشتراك جميـع الأوطـان في الشؤون العالمية ، وكلما اتسع العالم تعددت فيه جوانب التخصص ، ووجب أن يختص فريق من الناس بجانب من هذه الجوانب . فلماذا نهدم الأوطـان ونحن أحوج اليها في هذا الزمن الذي شاع فيه التخصص وتوزيع الاعمال؟؟

يقول دعاة الهدم والفوضى ان الوطن للغني وحده وأنه لا وطـن للفقير ، ويقولون ان الغرض من قوة الوطن هو حماية الدولة التـي يسيطر عليها الأغنياء .

ولم ينكر أحد أن الأغنياء يطمعون وأن الفقراء يهانون ، ولم يقل دعاة الهدم والفوضى في اتهام الأغنياء الا بعض ما قالته كتب الدين ، ومنه ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ، ومنه أن دخول الجمل في سم الخياط

ايسر من دخول الغني الى ملكوت السماوات •

لم ينكر أحد هذا ولم يقل دعاة الهدم والفوضى الا بعض هذا ، ولكن الذي تنكره ولا ينكره أعداء الهدم والفوضى هو تقبيح الوطنية على اطلاقها واقامة هذه العلاقة الانسانية ، وكل علاقة غيرها على أساس واحد هو أساس الفلوس ، وتوزيع الفلوس •

ان في نفوس الناس شيئا ، بل أشياء جمة لا تحكمها هذه الفلوس ، ومنها الغيرة الوطنية الصادقة التي تعلموا منها دروس التضحية والنخوة ، وهانت عليهم أرواحهم وأرواح أبنائهم في سبيلها ، وليس تاريخ الانسانية تاريخ بنك أو شركة تجارية حتى ترجع بأطوار الانسانية جميعا الى توزيع الاسهم والارباح وتدبير الحصص وأساليب‌الاستغلال، ولو كان المال وحده كافيا لخلق الأوطان واقناع الناس بالتضحية لما كانت هناك حاجة — مع وجود المال — الى الايمان بشيء من الأشياء ، ولا احتاج الشيوعيون أنفسهم الى تسمية الحرب العالمية بالحرب الوطنية ، بعد أن جربوا حفز الهمم بمذهبهم المميت فتخاذلت في ساعة الشدة والفداء •

كلا • ليس تاريخ الأوطان تاريخ بنك ولا شركة ، وانما نرجع الى تاريخ الأوطان فنعلم يقينا أنها تقوى وتزدهر بمقدار ما في النفوس من الشجاعة والاقدام والتضحية والصبر على الشدائد والشغف بالمعرفة والجمال ، وانما تزول الأوطان أو تقترب من الزوال كلما استسلمت للغنى والثروة وغلب فيها الترف والمتاع على الفضيلة والثبات ؛ تزول أو تقترب من الزوال كلما طغى فيها طمع المال على الشجاعة وقوة الاخلاق •

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان الوطنية تقترن بكثير من الشرور والأخطاء ، ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان الحياة نفسها ما خلت قط ولن تخلو أبدا من شرورها وأخطائها ، ولكن من السخف واللغو أن نحكم من أجل هذا بالغاء الحياة أو الغاء الوطنية ، وان نعتقد لحظة واحدة أن النظام الذي نستبدله بالوطنية سيأتي الينا معصوما من كل نقص مبرءا من كل عيب •

يخطر لي أحيانا أن أسأل نفسي : ترى لو هبط على الكرة الارضية نوع من الاحياء عدو للنوع الانساني منطو على حب النكاية به وتحقير أعماله وآثاره ــ ماذا يقول عــن تاريخ البشر فيما مضى غير مــا يقوله الشيوعيون ودعاة الهدم والفوضى على العموم ؟ وبأي أسلوب يعبر عن حقده وضغينته على الاجيال الماضية غير الاسلوب الذي يعبر به الشيوعيون عما يسمونه تارة بالفروسية وتارة بالبرجوازية وتارة برأس المال ، وينسون أنهم يطلقون هذه الاسماء على نوع الانسان الذي ينتسبون اليه ؟

يكفي هذا السؤال ليعلم السائل والمجيب أنه يواجه أعداء الانسانية حقا حين يواجه دعاة الهدم والفوضى ، وأنهم لو كانوا نوعا غريبا طارئا على الكرة الارضية لما كان تصويرهم للانسانية أقبح من هذا التصوير • فهم يحكمون على الانسانية حكم الاعداء على الاعداء ويعاملونها معاملة الخصوم البغضاء في ميادين القتال ، ويتعقبون كل أثر من آثارها كأنهم يكرهون أن يبقى لها أثر أو يتخلف منها تراث مذكور ، فلا جرم يستديرون الــى العقائد والاديان ليبطلوها أصلا وفصلا كما استداروا على العائلة لتمزيقها وعلى الوطن لازدرائه وتدنيسه ، وحسبهم من العقائد والاديان أنها تراث انساني ماض لتستحق منهم أن ينقلبوا عليها بالمقت والتفنيد والالغاء •

ونعود فنقول ان اشتمال العقائد الانسانية في العصور الماضية على الخرافات والاباطيل أمر مفروغ منه بين المتدينين أنفسهم فضلا عــن غير المتدينين ، ولكننا نسأل عن ألزم اللوازم الجسدية للاحياء وهو الطعام : هل خلا طعام الناس قط في الزمن الحاضر أو الغابر من الفاسد والضار ومن الغث والتافه الذي لا يفيد ؟ هل عرف الناس حتى اليوم حقائق الهضم وأصول التغذية ، هل ينسون شهوات الذوق والطعم التي تعود عليهم بالوبال ؟

ان سوء التغذية مشكلة الساعة في جميع الايام وبين جميع الطبقات ، ولم يقل أحد من أجل هذا ان الطعام باطل أصلا وفصلا وان الانسانية

ينبغي في المستقبل أن تكف عن طلب الغذاء • فمن السخف واللغو أن يقال ان الضمير الانساني يكف عن الاعتقاد لأن بعض العقائد ممتزج بالخرافات والاباطيل ، وليست المسألة في طعام الجسد ولا في طعام الروح أن هناك أطعمة فاسدة وشهوات جامحة ، وانما المسألة أن هناك معدة تطلب غـذاء الجسد وأن هناك ضميرا يطلب غذاء الروح •

واذا جازت المقارنة بين خرافة وخرافة فدعاة الهدم والفوضى هـم الخاسرون في هذه المقارنة • لأن المتدينين الذين يؤمنون برب أعظم مـن الانسان معذورون اذا نسبوا اليه الخوارق والمعجزات • أما غير المعذورين وغير المعقولين فهم الذين يؤمنون بمذهب انسان مـن بني آدم وحواء ويصدقون أنه قد نقض تاريخ العالم فيما مضى وقرر للعالم تاريخا لما يأتي من الزمن ، وكذلك يؤمنون بكارل ماركس ومن نحا منحاه •

* * *

ان تاريخ الانسانية هو تاريخنا وليس تاريخا لنوع آخـر نعاديه ويعادينا ، ومن الحق له علينا أن نتردد طويلا قبل هدمه وتقويضه ، ولو قامت الحجة القوية عليه وتواترت الادلة على نقضه • فربما كان الخطأ في الحجة أو كان التأني خيرا من العجلة ، ولكن الهدامين المخربين ينظرون الى تاريخ الانسانية كأنه تاريخ أعداء ألداء يتعقبونهم في ميادين القتال • فالهدم عندهم هو الاصل ، والعفو أو الاعفاء هو الاستثناء ، ولم يكن تعجلهم الى هدم نظام العائلة ودك قواعد الوطن وتدنيس حرمات الدين منبعثا من قوة الحجة بل من سهولة الهدم والتخريب على بعض الطبائع المبتلاة بالمسخ والتشويه ، وستزول هذه الغاشية وتتحطم معاول الهدم في أيدي ذويها ، فليس للهدامين حظ من النجاح الدائم ما دام للانسانية بناء قائم وأجل ممدود •

العامل والماركسية

من الاوهام الشائعة أن الحكومة الماركسية هـي حكومه العمال والصناع ، وأن العمال والصناع في البلاد الماركسية هم أصحاب السلطة في الحكومة ، وأصحاب الحق في ادارة المصانع وتوجيه النظم الصناعية ، وأن نقابات العمال هي اللجان التي توكل اليها مهام النظر في مصالح الطبقات العاملة على اختلافها ، وأن العامل بعبارة وجيزة هو الحاكم المتصرف في الدولة الشيوعية ، سواء من طريق السلطة الفعلية أو من طريق السلطة بالتوكيل والانتخاب ٠

هكذا يتوهم الجاهلون بحقائق الاحوال ، وهكذا يتخيلون النظام المزعوم على صورة هي أبعد ما تكون عن الواقع الماثل للعيان ، وأشد ما تكون عن المبادىء المقررة في أقوال الزعماء الشيوعيين ٠

فالواقع المقرر في المذهب الشيوعي أن التعويل على النقابات مذهب مكروه عند أتباع كارل ماركس ، وأنه معطل للحركة الشيوعية التي يبشر بها هو وتلاميذه ومريدوه ، لأن التعويل على النقابية هو مذهب النقابيين والسندكاليين الذين يخالفون الشيوعية في الوسائل والغايات وينكرون الاعتماد على الحكومات جميعا بغير تفرقة بين الحكومة الموقوتة والحكومة الدائمة ، ومن الواجب في مذهب الماركسيين أن ينظروا الى نقابات العمال بعـين الشك والحذر وأن يحولوا بينها وبـين السلطة الفعالة في ادارة الدواوين الحكومية ، خوفا من أن تتغلب سلطة النقابة على سلطة الحزب ، وأن يجري العمل علـى مذهب النقابيين السندكاليين ، لا علـى مذهب الشيوعيين الماركسيين ٠

ومن كلام « لينين » قبل الثورة الروسية ان جماعات العمال ، أو نقاباتهم ، قد ينافس بعضها بعضا ، وقد يعمل فريق منها على محاربة فريق آخر بالمناقصة في الاجور والمزايدة في ساعات العمل ، ولهذا يجب عنده أن تكون سلطة الحزب غالبة على النقابات جميعا ، وأن يكون الرأي الأعلى للسلطة السياسية التي تتولى شؤون الدولة ، ولا يكون رأي النقابات الا تابعا خاضعا لتلك السلطة السياسية .

أما الجماعات أو اللجان التي يسمونها بالسوفييت فليست هي جماعات مؤلفة من العمال والصناع كما يخطر على البال ، ولكنها جماعات مختلطة من المديرين والمشرفين على المصانع والقائمين بتنفيذ المشروعات الاقتصادية ، ومعهم بعض الصناع والعمال اليدويين ممن لا صوت لهم في أمثال هذه الاجتماعات ، ويمكن أن يقال بعبارة أخرى ان جماعات « السوفييت » هي نسخة أخرى من اللجنة التي يسمونها لجنة الفابريقة أو لجنة ادارة المصنع ، وهي أشبه ما تكون بمجلس الادارة في المصانع الاوربية التي تخضع لنظام رأس المال ، وغاية الفرق بين لجنة الفابريقة وبين مجلس الادارة في المصانع والشركات أن الاعضاء أصحاب الاسهم يحلون في مجلس الادارة محل المديرين والمهندسين في لجان السوفييت أو لجان الفابريقات ، وربما تشابهت مجالس الادارة ولجان الفابريقات تمام المشابهة ، لان أصحاب رؤوس الاموال في البلاد الاوربية والامريكية يتركون العمل أحيانا للمهندسين والمديرين .

خلاصة هذا كله أن السلطة السياسية غير السلطة النقابية في البلاد الشيوعية ، وأن العمال والصناع لم يزالوا تابعين للساسة وكبار الموظفين في الدولة ، وانهم مسخرون لنظام الانتاج الذي يفرضه عليهم السياسيون وأصحاب الشأن في الحكومات .

ومنذ قامت الثورة الشيوعية تجتمع النقابات في ناحية وتجتمع لجان الحزب المسيطرة على الحكومة في ناحية أخرى ، وقاعدة النظام في النقابات

انه اذا اجتمع في النقابة ثلاثة من أعضاء الحزب السياسي وجب أن يرجعوا الى رئاسة الحزب في جميع الاوامر والتعليمات ، ووجب على النقابة أن تخضع لما يمليه عليها الاعضاء الحزبيون •

لهذا يقال من حين الى حين ان المؤتمر العاشر للنقابات قد اجتمع في هذه المدينة أو تلك ، ويقال في الوقت نفسه ان المؤتمر الخامس عشر أو السادس عشر للحزب الشيوعي قد اجتمع قبل ذلك أو بعد ذلك ، ويتفق كثيرا أن تكون القرارات هنا مناقضة للقرارات هناك ، ولكن الرأي الاخير على كل حال لادارة الحزب في جميع الامور ، أما الرأي الاخير في قرارات الحزب نفسه فهو رأي البوليس السياسي من داخل الحزب ، بغير تعقيب ولا استئناف •

ويمكن أن تعرض على مؤتمرات النقابات طلبات الزيادة في الاجور ، ولكن السلطة السياسية هي التي تقدر الاجور المختلفة ، وتلاحظ في ذلك أن تختلف الاجور « أولا » باختلاف نوع الصناعة و « ثانيا » باختلاف القدرة على العمل و « ثالثا » باختلاف عدد القطع التي ينتجها العامل و « رابعا » باختلاف الاقاليم والمدن واختلاف المحصولات التي تلزم للتموين في كل اقليم • وحجة السياسيين في ذلك أن النقابات لا تستطيع الاشراف على هذه المسائل المتعددة ، وان اشرافها مقصور على صناعتها في مدينتها أو اقليمها ، فلا مناص اذن من ترك الأمر للسلطة السياسية في تقدير الاجور •

والى زمن قريب لايتجاوز بضع سنوات كانت النقابات مقسمة على حسب الصناعات ، فصناع الفحم في البلاد كلها ينتمون الى نقابة واحدة ، وصناع الحديد ينتمون الى نقابة أخرى وصناع المنسوجات ينتمون الى نقابة غير هاتين النقابتين ، وكانت لهذه الطريقة في تأليف النقابات عيوبها ومزاياها : فمن عيوبها أنها لا تتفق على خطة واحدة ولا تجتمع على كلمة واحدة ، ومن مزاياها أنها تحصر الجهود في الصناعة التي يحسنها أربابها ،

فتعطيهم سلطانا متحدا في تدبيرها والاشراف عليها •

أما الطريقة الجديدة التي اختارها السياسيون منذ ثلاث سنوات فهي تسمح للنقابات المتفرقة في كل مدينة أو كل اقليم بالاتحاد في الادارة والتدبير ، فعمال الفحم وعمال الحديد وعمال النسيج في المدينة الواحدة يتشاورون ويتداولون في شئون هذه الصناعات جميعا ، وقد يصدر من عمال الفحم في هذا البلد قرار يخالف القرار الذي يتخذه زملاؤهم في بلد آخر • وظاهر من هذا النظام أنه توحيد لصفوف العمال في كل اقليم ، ولكنه في الباطن يخالف هذا الظاهر الخداع ، لأنه يفرق كلمة العمال في الصناعة الواحدة فلا تجتمع على رأي متفق في الادارة والانتاج ، ويترتب على ذلك أن السلطة السياسية تشرف علـى جميع المسائل الفنية ، وأن سيطرة الحزب السياسي تتغلب على سيطرة النقابات في كل صناعة متفرقة ، كما تتغلب على نقابات جميع الاقاليم •

هذه الحيلة النظامية تركت لسلطان السياسيين أن يسيطروا علـى شئون العمال والصناعات كما يشاءون ، فاذا اتفقت مطالب عمال الحديد مثلا في جميع البلاد ، احتالوا على تفريقها بقرارات العمال الآخرين كعمال الفحم وعمال النسيج • أما اذا اتفقت مطالب الفحامين والنساجين مـن الاقليم الواحد فهنالك فرصة للخروج على هذه القرارات من طريق النقابة العامة لعمال الحديد في جميع الاقاليم •

وعلى هذا بقي سلطان الساسة كما كان أمام مصلحة العمل ومصلحة العامل ، وبقيت القضية القديمة بين الحاكمين أو المحكومين على صورة أخرى ، وبقيت هناك طبقة حاكمة لها خطة تحمي بها وجودها وتحفظ بها نفوذها ، ولو لم تكن في ذلك منفعة للعمال والصناع أو منفعة للمحكومين على العموم •

والواقع الذي لا شك فيه أن العمال والصناع في البلاد الشيوعية مسخرون لمصلحة الساسة أو لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وأن الايدي العاملة

لا تشتغل لكي تنتج طعامها وكساءها ولوازم معيشتها ، وانما تشتغل قبل كل شيء لأنها مسخرة في سبيل السلطة الحاكمة أو في سبيل الحماية اللازمة لطبقة الحاكمين •

هذه الطبقة ــ طبقة الحاكمين في البلاد الشيوعية ــ تأخذ الاقوات من أفواه العاملين لتنفقها على جيوش من الجواسيس والارصاد ، وعلى جيوش من العساكر والضباط ، وعلى جيوش من الدعاة والمداحين •

هذه الطبقة ــ طبقة الحاكمين في البلاد الشيوعية ــ تنفرد بعيشة الرخاء وتختار لنفسها ما تشاء من المساكن والاطعمة ، وتأمر وتنهي ، وتعز وتذل ، وتغدق الخير على أناس وتصب الشر على أناس آخرين ، وغايتها من كل ذلك أن تحمي وجودها وتحفظ نفوذها وتقطع الطريق على كل منافسة تخشاها ، ولو هلكت الايدي العاملة وطال عليها عهد التسخير والتضليل •

ولم يحدث قط في التاريخ أن سلطانا غاشما مستبدا أنفق من الاموال على السلاح والجاسوسية ما ينفقه هؤلاء الطغاة المستبدون في بلاد الشيوعيين •

الوف الالوف من الضباط والجنود • الوف الالوف من الدعاة والجواسيس • ألوف الالوف من المدافع والدبابات والسفن والطيارات وكل ذلك لتسخير العمال والصناع في سبيل طائفة من الحكام واصحاب السلطان ، ويعرف هؤلاء الحكام أن هذه الاموال الضائعة ثقيلة الوطأة على أعناق العمال المكدودين والصناع المجهودين ، فيشغلونهم بالمنازعات الدولية ، ويخدعونهم بالفتن العالمية ، وينشرون الفوضى هنا ، ويلهبون نيران العداوة هناك • ولا يتركون الامم لحظة واحدة في سلام ، ليخيفوا رعاياهم من خطر الحرب ، ويدخلوا في روعهم أنهم مهددون بالهجوم عليهم من كل جانب ، وأن تبذير الاموال على التسليح والتجنيد ونشر الدعوة وبث الجواسيس ــ كل أولئك ضرورة لازمة لاتقاء تلك الاخطار واتخاذ الحيطة لأولئك الاعداء •

تلك هي حقيقة الاحوال في بلاد الشيوعيين : سلطة سياسية تستعبد الايدي العاملة وتسخر الصناعة كلها لحماية وجودها وتمكين سلطانها . وأين العمال ونقابات العمال ؟ لا صوت ولا حركة . لأن صوتها ضائع بين مجالس الحزب ولجان السوفييت ومكاتب الفابريقات . ومما لا ريب فيه أن العمال في بلاد العالم قاطبة أرفع صوتا وأوفر حرية من زملائهم في بلاد الشيوعيين . وهي هي البلاد التي يصول فيها الحاكمون باسم العمال المظلومين . وصدق أبو العلاء ، حين قال قبل ألف سنة :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها   وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وهكذا يرجعون الى الوراء ، باسم التقدم والارتقاء ، ولا تقدم هناك .

* * *

الحرية والاذاعة

نعني بالاذاعة كل وسيلة من وسائل النشر على اختلافها ، ومنها – بل أهمها بالبداهة – وسيلة الاذاعة اللاسلكية أو الاثيرية التي تسمعونها الآن .

فهل هناك علاقة وثيقة بين الحرية والاذاعة على اختلافها ؟

الجواب السريع نعم ، والجواب بعد طول الروية والاناة نعم أيضا . لأن العلاقة وثيقة بين الاستبداد والحجر على الاقوال والافكار والحرص على التستر والكتمان ، وبقدر الصلة بين الاستبداد والكتمان تكون الصلة بين الحرية واذاعة الاخبار والافكار .

وفي وسعنا أن نراجع تاريخ الانسانية منذ القدم ، فنرى أن كل خطوة في طريق الاذاعة كانت كذلك خطوة في طريق الحرية ، كأن الحرية والاذاعة مظهران متلازمان لحركة واحدة من حركات التطور والارتقاء .

كان الكتمان شديدا يوم كان الاستبداد شديدا في العصور الاولى ، فكانت الكهانة السرية تتسلط على ضمائر الناس من طريق العقيدة الدينية ، وكانت السياسة في جملتها سرا من أسرار الملوك والحكام ، وقد يتفق أحيانا أن يجتمع سر الكهانة وسر الدولة عند شخص واحد ، بل يتفق أحيانا أن يكون السيد الحاكم الها يعبده المحكومون ، ولا يسألونه عن صنيعه بهم وبالدولة ، لأنه سر يعنيه وحده ولا يجوز لهم أن يعرفوه .

ولم يزل هذا شأن الناس في حريتهم الدينية وحريتهم السياسية حتى ظهرت أول وسيلة من وسائل التسجيل والاذاعة ، وهي الكتابة على

الورق • فازداد نصيبهم من الحرية بمقدار نصيبهم من الكتابة ، واطردت هذه الزيادة جيلا بعد جيل •

الا أن هذه الوسيلة ــ وسيلة الكتابة ــ كانت محدودة الاثر عند نشأتها الاولى ــ وظلت محدودة الاثر زمنا طويلا من فجر التاريخ الى العصور التاريخية المعروفة • لأن الكتابة كانت محصورة بين عدد قليل من المحكومين بالنسبة الى الاميين ، ولان الكتابة كانت في تلك الازمنة تنقسم الى طريقتين : طريقة الكتابة المقدسة أو الكتابة الرسمية وأكثرها ألغاز ورموز لا يفقهها غير النخبة المعدودة من الكهان والحكام ، وطريقة الكتابة العامة وهي الطريقة المباحة لسائر الطبقات والافراد ، فلم تكن معرفة الكتابة العامة من وسائل الاطلاع على الاسرار والخفايا ، وظلت هذه الاسرار والخفايا محجوبة عن الامم حتى شاع فيها الايمان بالاديان الكتابية ، فارتفع الحجاب عن كثير من المؤمنين بهذه الاديان •

على أن الشعوب التي عرفت طريقة للنشر والاذاعة غير الكتابة كانت تنعم بنصيب من الحرية أكبر وأوسع من نصيب الامم التي عولت على الكتابة وحدها ، فكانت قبائل العرب تحفظ القصائد الشعرية المنظومة في المسائل العامة ، وكانت ــ مع انتشار الامية بينها ــ تملك حريتها ولا تخضع لسلطان غير سلطان العرف والعادة الذي يخضع له كبارها وصغارها ، وكذلك كانت قبائل أخرى كقبائل اليونان في أوربة ، فأخذت من الحرية بمقدار ما أخذت من الاذاعة ، وقل فيها الاستبداد بمقدار ما قل فيها الحجر على الاخبار والاقوال •

وتمضي الشعوب الانسانية على هذا النهج عدة قرون : خطوة في طريق الاذاعة تقترن بها خطوة في سبيل الحرية ، حتى ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر ، وهي أقوى وسيلة من وسائل النشر بعد اختراع الكتابة على الورق • فاذا بالخطوات في سبيل الاذاعة والحرية تتلاحق سراعا تباعا ، وتتحطم أمامها حواجز الاستبداد حاجزا بعد حاجز ، فلم

ينقض قرن واحد حتى عمت الدعوة الى اصلاح الحكومة تارة مع الثورة الانجليزية وتارة مع الثورة الفرنسية • وعجل ابتداع الصحافة بحركة الاصلاح فأصبح انتشارها بين الشعوب مقياسا لانتشار الحرية فيها ، وشوهدت هذه الظاهرة الشاملة ــ ظاهرة اقتران الاذاعة بالحرية ــ على نحو لم يسبق له مثال في الازمنة الماضية • فبلغ الناس من حرية القول والفكر في مائة سنة ما لم يبلغوه من قبل في عدة مئات •

كانت « السرية » أو الكتمان الشديد مبدأ متفقا عليه معترفا به في السياسة الدولية ، وكانت الشعوب من جانبها تسلم هذا المبدأ ولا تطالب الساسة بشيء من الاعلان والصراحة فيما يجري بينهم من المخاطبات أو الاتفاقات ، ودامت الحال على ذلك خلال القرن التاسع عشر الى مقربة من منتهاه ، ولكن هذا المبدأ المتفق عليه لم يلبث أن تزعزع من شتى الجوانب بعد انتشار الصحف واقبال الجماهير على مطالعتها ، تزعزع هذا المبدأ من جهة لأن الصحف كانت تتسابق الى التقاط الاخبار الخفية واستنباط الحقائق المكتومة ، فأصبح من المتعذر على الساسة أن يكتموا خبرا من الاخبار ويحافظوا على كتمانه الى زمن طويل ، ثم تزعزع مبدأ السرية لسبب آخر أهم من هذا وأعمق في آثاره ونتائجه ، وهو اشتراك الجماهير في معالجة الشئون الدولية والوقوف على خباياها ، فانتهى العهد الذي كانت فيه سياسة الدول حكرا في أيدي الساسة يصرفونه كما يصرفون مصالحهم الشخصية وأعمالهم الخاصة ، وأحس هؤلاء الساسة بالحاجة الى افهام الجماهير واقناعها بصواب الخطط السياسية التي يفرضونها عليهم ، وقد ينتهي بعضها الى اقحام الامم في الحروب وتحميلها نفقات القتال ، فلا أقل من اقناعها بضرورة هذه المخاطر ولزوم تلك النفقات •

لقد كانت الصحافة خطوة واسعة الى قبلة الحرية ، لأنها هي خطوة واسعة من خطى النشر والاذاعة •

لكن الاذاعة الصحفية من الوسائل التي تخضع لسيطرة الحكومات

المستبدة . ففي وسع الحاكم المستبد أن يفرض الرقابة عليها داخل بلاده ، وأن يمنع الصحف الخارجية أن تصل الى رعاياه ، فيبطل حقوق الحرية التي تقترن بالاذاعة الصحفية ، وقد حدث ذلك غير مرة في العصر الاخير .

ويبدو من تطور الاحداث التاريخية أنها تتجه الى وجهة الحرية والنشر ، وتستعصي على الحجر والتقييد . فلم يبدأ القرن العشرون حتى أقبل على العالم بوسيلة جديدة من وسائل الاذاعة وهي هذه الاذاعة الاثيرية . والنسبة بينها وبين الصحافة في النشر ، كالنسبة بين المطبعة ونقل الكتابة بالنسخ والرواية . فهي أقوى من الاذاعة الصحفية وأعسر منها على من يحاول تقييدها ، ولا سيما التقييد الذي يحتاج الى الاتفاق بين عدة حكومات أو عدة بلاد .

ان الاذاعة الاثيرية أقوى من الاذاعة الصحفية ، لأسباب متعددة .

من هذه الاسباب أنها أسرع انتقالا بين جوانب الكرة الارضية ، فهي لا تنتظر البريد ولا تتوقف على السفر بالسفن أو الطيارات .

ومن هذه الاسباب أنها تصل الى من يعرف الكتابة ومن لا يعرفها ، فلا حاجة بالسامع الى أكثر من ادارة المفتاح الى الصوت في اللغة التي يفهمها ، وقد تصل اليه الاخبار والاحاديث بعدة لغات .

ومن هذه الاسباب ان جهاز الاذاعة يوضع في البيوت والحجرات حيث تعجز الرقابة الحكومية عن الوصول الى مستمعيه ، فلا يتأتى منع الاخبار التي تتسرب من خارج البلاد ولو كانت الحكومة القائمة تقاومها وتحجر على جمهرة المستمعين أن تصغي اليها .

ومن المفهوم أن الحجر على الاذاعة الاثيرية ليس بالامر المستحيل ، ولكنه ــ اذا أمكن ــ فهو ممكن بصعوبة شديدة بالغة في الشدة : ممكن حين تلجأ الحكومات المستبدة الى اطلاق الجواسيس والعيون في كل بيت وفي كل مسكن . وممكن حين تعمد الحكومات المستبدة الى تسخير الابن في التجسس على أبيه وأمه ، وتسخير الزميل في التجسس على زميله .

ومتى اضطرت الحكومة المستبدة الى ذلك فهي في مأزق وعر لا تقوى حكومة من حكومات هذا الزمن على الثبات فيه : مأزق يكلفها الكثير من المال ، ويكلفها الكثير من الاعوان والاتباع ، ويكلفها الكثير من أساليب الخداع والاقناع ، ويرهقها كما يرهق رعاياها بالجهد المضني والنفقة الثقيلة والحجر على الحركات الاجتماعية والفردية ، وليس الحكم على هذه الاوضاع الشاذة مما يطيقه الحاكم أو المحكوم فترة طويلة من الزمن ، فلا مناص له من التعثر والاعياء ثم الزوال القريب .

ومن أساليب الحجر على الاذاعة التي تتبع في البلاد الشيوعية أن تفرض على الشعب أجهزة مقصورة على نقل الاذاعات المحلية دون غيرها ، وهنا يسوء الظن بجميع الاخبار المذاعة حتى يتساوى الصدق والكذب عند سامعيها ، وهي حالة مريبة لا تحمد مغبتها طويلا اذا أمكن أن يحمدها الشعب بعض حين .

من هذا العرض التاريخي السريع يبدو لنا أن كل خطوة في سبيل النشر والاذاعة تقترن بخطوة مثلها في سبيل الحرية ومعرفة الحقوق الانسانية ، وأن الخطوة هنا على قدر الخطوة هناك ، وأننا قد خطونا في عصر الاذاعة الاثيرية أوسع هذه الخطى وأصعبها على المراقبة والتقييد ، فان لم يكن الحجر عليها مستحيلا فهو من أشق الممكنات وأعسرها على المستبدين ، ولن يصبر الحاكم المستبد طويلا على هذه المشقة حتى تسومه ما لا طاقة به من ضروب الحيرة وعوامل العجز والاخفاق .

ولو كان عمل النشر والاذاعة مقصورا على هذا لكان عملا قوي الاثر في تعميم الحرية ومقاومة السلطة المستبدة ، ولكنه في الواقع يخدم الحرية في نطاق أوسع من هذا النطاق : يخدمها لأنه يعود الناس أن يسمعوا الرأي ونقيضه ويقابلوا بين الخبر وما يخالفه أو يدحضه وينفيه ، وانما تضيق صدور الناس اذا تعودت أن تسمع من جانب واحد وتتجه الى وجهة

واحدة . فاذا تعودت الأسماع من جوانب شتى فقد تعودت السماحة في الرأي والصبر على المخالفة وراضت النفس على حرية الموافقة والمعارضة ، فعاشت في جو من الطلاقة يتسع لمختلف الآراء .

ان في عصرنا هذا كثيرا من نذر الشر والبلاء ، فاذا أردنا أن نقابلها ببشائر الخير ففي طليعتها أننا نعيش في عصر النشر والاذاعة ، وهو مقدمة لا غنى عنها لعصر الحرية والسماحة . فقلما يدوم الاستبداد حيث تتفتح الاسماع ، وتتفتح معها الابصار والافكار .

الشيوعية والاسلام

كلمة الشيوعية ترجمة عربية لمذهب « كارل ماركس » في حالة التطبيق . لأنه يزعم أن مذهبه ينتهي الى اباحة كل شيء على الشيوع أو المشاع ، ولكن أصحاب المذهب جميعا يسمونه بالمادية التاريخية أو المادية الثنائية الحوارية تمييزا له عن جميع مذاهب الاجتماع والفلسفة ، وعنوانه هذا هو خلاصة كافية لقواعده التي يقوم عليها : وهي الايمان بالمادة دون غيرها وانكار كل ما عداها من عالم الغيب أو عالم الروح .

ومن البديهي اذن أن المذهب ينكر الاديان ويكفر بجميع الانبياء والرسل ، ولا يدع أصحابه هذه الحقيقة للفرض والاستنتاج بل يصرحون بعقيدتهم ويقولون عن الدين انه « أفيون الشعوب » لأنه يخدر أتباعه بالامل في الآخرة فلا يطلبون الانصاف ولا النعم في هذه الدنيا .

وهم يسوون بين الاديان جميعا في هذه الصفة ، وقد حاربوا المسيحية والاسلام والصهيونية حربا عنيفة ، في مبدأ قيام الثورة الروسية ، ودأبوا على معاداتها وتعطيلها الى أيام الحرب العالمية الثانية التي اضطرتهم الى الاعتراف بقوة الدين في تثبيت العزائم والاستخفاف بالخطر ، فصالحوا رجال الدين وعاهدوهم على تبادل المعونة ، وكفوا عن حملتهم على العقائد الدينية الى السنة الماضية[1] ، ثم بدا لهم أن الشعب الروسي يثوب الى التدين ويندفع الى معاهد العبادة فجددوا تلك الحملة وعادوا الى ادارة المتحف الذي أنشأوه من قبل باسم « متحف الدين والالحاد » وخصصوه

---

(١) أي السنة التي سبقت كتابة المقالة .

لنشر المساويء التي تنفر الناس من الايمان بالله .

الا أن الشيوعية قد تصبر على المسيحية ولا تطيق الصبر على الاسلام الا ريثما تتحفز له وتغل أيدي أتباعه عن المقاومة . لأن المسيحية دين العديد الاكبر من الروسيين والشعوب التي تدخل في حوزة الدولة الروسية ، ولأن المسيحية من الجهة الاخرى تدع شئون الدولة للدولة ولا تتعرض للنظم الاجتماعية أو لاقامة المجتمع على أساس جديد . وقد نشأت المسيحية كما هو معلوم في بلاد تخضع للسلطة الرومانية في الشئون الدنيوية ولسلطة الهيكل الاسرائيلي في الشئون الدينية فاجتنبت نقض « الناموس » وأوصت باعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

أما الاسلام فهو نظام اجتماعي له منهجه في علاج المسائل التي تتصدى لها الشيوعية ، وهو يواجه مشكلة الفقر بحلوله المتعددة ولا يقصر مواجهتها على فرض الزكاة لمستحقيها كما يسبق الى الظن لاول وهلة . اذ هو ينكر الاسراف والترف والاحتكار ويأبى أن تكون الاموال « دولة بين الاغنياء » ولا يصدق عليه قولهم انه أفيون الشعوب لأنه يأمر المسلم ألا ينسى نصيبه من الدنيا ويحثه على دفع المظالم ومنع الشرور ، ويعلم المسلم أن يقدس الحرية ويثور على المذلة والاستعباد فلا يتسنى للحاكم الاجنبي أن يخضعه لغير معتقده أو يسومه الهوان في أمور الدنيا والدين .

لهذا وصفوه في دائرة المعارف الشيوعية بالرجعية وتأييد الاستغلال وحاربوه بكل وسيلة من وسائلهم الظاهرة والخفية لاضعاف سلطانه الروحي ، وتشتيت المسلمين وتمزيق كل وحدة تجمعهم في البلاد التي يحكمونها ، وهدم المعالم الدينية في جميع تلك البلاد .

والمسلمون التابعون للحكومات الشيوعية يعلمون حق العلم عداوة الشيوعية لدينهم وسعيها الحثيث في طمس معالمه وأركانه ، ويعرفون حقيقة ما يذاع عن حرية المعتقدات بين الشعوب التي يسيطر عليها الروسيون ،

ولكن المسلمين في كل أرض يستطيعون أن يعرفوا هذه الحقيقة من عدد الحجاج الذين تسمح لهم الحكومة بأداء الفريضة كلما سمحت لهم بذلك من حين الى حين • فانهم على قلتهم يحاطون بالرقابة الشديدة بينهم ومن حولهم ، ولا يؤذن لهم بالتحدث الى غيرهم في أمر من أمورهم الدينية أو الوطنية •

والكلام المكتوب يكشف من أسرار الدعوة الشيوعية كل ما تحاول ستره والمغالطة فيه • فان المسلمين في حوزة الشيوعية قد حرمت عليهم كل رابطة يرتبطون بها غير قيود الحكم الروسي وثقافة اللغة الروسية ، فلا جامعة اسلامية ولا جامعة طورانية ولا قراءة للغة العربية ، ومن يشتغل بشيء من ذلك يتهم في اخلاصه للدولة ويعامل معاملة الجواسيس المسخرين للائتمار بها والثورة عليها •

فصحيفة الدولة « برافدا » تعلن في عددها الصادر بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٢ من مقال رسمي نشرته على الصفحة الرابعة أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي منعت « سموم الجامعة الاسلامية » التي يروجها كتاب من قبيل الكتاب المسمى « ديد كركوت » عن أذربيجان •

وقد شنت صحيفة الدولة هذه حملتها الشعواء على المؤرخ القاجاتي « سليمانوف » في مقال نشرته في الثالث عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٣ لأن هذا المؤرخ تكلم عن الثقافة التركية المشتركة بين الشعوب الطورانية ، وأوعزت الحكومة الى ذنب من أذنابها المسمى يوسبوف لينفي وجود وحدة ما بين الترك في آسيا ، وينادي بانفصال كل شعب منها عن سائرها في شئون الثقافة ولا سيما الازبكيين • وقد أعلنت صحيفة « أزفستيا » قبل ذلك (في الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١) حملة كهذه على مجمع العلوم بأزبكستان لأنه يجنح الى احياء تراث الاسلام ، وحملت هــذه الصحيفة نفسها (في السادس من شهر يونيو سنة ١٩٤٩) على أمم آسيا الوسطى لولعها بالمخطوطات العربية الرثة وغلبة النفوذ الثقافي العربي على

أدبائها وعلمائها ، ولا يمكن أن تكتب صحيفة من الصحف الروسية حرفا واحدا عن الثقافة العامة بغير علم الحزب وايعازه وتكليف الحكومة واشرافها ، وبخاصة حين يمس الرأي أمما ترسم لها سياسة مقررة في جميع هذه الشئون •

وهؤلاء الذين ينادون بهدم العصبيات الوطنية ينعون عليها في حالة واحدة وهي حالة الامم التي تنهض للاستقلال عن الدولة المسيطرة عليها • أما عصبية القومية الروسية واللغة الروسية والثقافة الروسية فهي مفروضة على أبنائها وغير أبنائها من عبيد الكرملين « المتحررين » من ربقة الاسلاف الرجعيين ، وقد وقف باجيروف عضو لجنة الحزب خطيبا من الخطباء المقررين في مؤتمره التاسع عشر ليحمد الفرصة السعيدة التي أنقذت المسلمين على أيدي القياصرة بضمهم الى الحظيرة الروسية الواسعة ، ولم ينس أن يقول انه لا يحمد القياصرة ولا ينكر مساوئهم ولكنهم ولا ريب قد يسروا لشعوب المسلمين فرصتها الوحيدة بالدخول في زمرة الروس والاستعداد للتقدم بفضل اللغة الروسية •

ان عداوة الشيوعية للاسلام عداوات متكررة وليست بعداوة واحدة • فانها تعاديه معاداة الخوف من منافسته في تنظيم المجتمع على قواعده وأحكامه ، وتعاديه معاداة الحاكم الروسي للمحكوم المطموع في ماله واستقلاله ، وتعاديه أخيرا معاداة الشعور بالخطر والافلاس على أثر اخفاق التجارب الماركسية واحدة بعد الاخرى خلال السنوات الاخيرة • فقد اعترفت الدولة على كره بحق الملك والتوريث ، واعترفت بالفوارق بين الاجور وأحوال المعيشة ، واعترفت بفصل الجنسين في معاهد التعليم ، واعترفت بالاسرة ومواثيقها ، وبالوطنية وقوتها الفعالة في الدفاع عن الامة والارتفاع بها الى مطامحها العليا •

في مثل هذه الحالة يشعر الاقطاب الشيوعيون بتقدم الاسلام وتقهقر المادية الماركسية ، ويعلمون أن النزاع المقبل انما هو نزاع بين ما يسمونه

« الايديولوجي » الماركسي والايديولوجي الاسلامي • اذ ليست الديمقراطية دينا ينازع الشيوعية في ميدانه ، وغاية ما يرجى منها أنها دعوة مانعة لسوء الحكم ومانعة للحجر ومانعة للقيود الجائرة في تقسيم الاعمال والارزاق ، وأما التطبيق « الايجابي » فليس من رسالة الديمقراطية في عصر من العصور ، ولكنه من رسالة الاسلام بغير جدال في هذا الزمن على الخصوص لأنه زمن يتقدم فيه المسلمون ، ويتعلمون فيه كيف يطبقون الاصلاح الاجتماعي موفقا بين مطالب المادة ومطالب الروح ومقتضيات العلم الحديث •

ولا هوادة في هذا النزاع • ولا يبغض الشيوعيون بين أمم الشرق الاسيوي نفوذا روحيا أو فكريا أخطر عليهم من نفوذ الاسلام ، وعدة أبنائه تناهز في القارة الاسيوية ثلثمائة مليون •

هذه حرب حياة أو موت ، وقد عاش الاسلام وماتت عداوات كثيرة ناصبته الحرب منذ مئات السنين ، وسيعيش مئات السنين والشيوعية وأمثالها في خبر كان •

القرم الاسلامية والمذاهب الهدامة

نشأ كارل ماركس إمام الشيوعية من سلالة اسرائيلية ، وكان أجداده لأبيه وأمه كهانا متعصبين لعقيدتهم ، غالين في رعاية شعائرهم ، ولكن أباه ارتد عن دينه الى المسيحية على غير اعتقاد أو رغبة صادقة في الايمان بدينه الجديد ، بل كان ارتداده احتيالا للكسب وتطلعا الى الوظائف العامة ، ولا شيء غير « الانتهاز » والاتجار بالضمير .

ويتبين من تاريخ المذاهب الهدامة كلها أنها تعتبر هذا الاتجار بالضمائر وسيلة من وسائلها المشروعة لخدمة المطامع الشخصية أو لخدمة السياسة العامة في الدولة ، فهي تنادي « بالمادية » وتنكر كل شيء في الوجود غير المادة وتسمي الاديان « أفيون الشعوب » لأنها تبشر بعالم الروح وتخدر شعور الفقراء كما يزعم الشيوعيون ، فيتعللون بالنعيم الابدي ولا يثورون طلبا للنعيم في حياتهم الارضية !

ولا يهمنا هنا أن نعرض لسخافة الدعوى التي تفسر كل شيء بالمادة وهي ــ أي المادة ــ سر غير معروف ولم يره أحد بعينيه كما تقرر في العلم الحديث .

ولا يهمنا كذلك أن نعرض لسخافة القول باختراع الاديان لتخدير الفقراء مع أن الايمان بالدين بين الاغنياء وأصحاب السلطان لا يقل عن الايمان به بين الفقراء والمسخرين .

ولكن الذي يهمنا هو اتجار القوم بالضمير في مسألة الدين واتخاذه

---

(١) مقدمة كتاب القرم الاسلامية .

ذريعة مكشوفة للاحتيال على المصالح السياسية • فان الزعماء الماركسيين الذين هدموا البيع والمساجد واعتقلوا القساوسة والرهبان بجزيرة « سلفيتسكي » الجهنمية وجعلوا الصلاة شبهة تثبت على صاحبها الخيانة والتآمر على الدولة — عادوا في ابان الحرب العالمية فاحتاجوا الى اثارة النخوة في جنودهم ووجدوا أن المبادىء الشيوعية هي التي خدرتهم وأماتت فيهم الهمة والشجاعة ، وأن « أفيون الشعوب » هو الذي يثير النخوة ويبتعث الهمة ، فتملقوا رجال الدين وأذاع ستالين في الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣ بلاغا يقول فيه : « ان الحزب الشيوعي لا يسعه بعدما بدا من وطنية رجال الدين في صفوف القتال أن يحرم الروسيين بعد الآن من حرية الضمير أو حرية الاعتقاد » •

هذه اللعبة السياسية المكشوفة لم ينخدع بها أحد من الروسيين ولا غير الروسيين ، ولا سيما الشعوب الاسلامية التي انصب عليها القسط الاوفر من الاضطهاد بجميع أنواعه وألوانه ، لأنه الاضطهاد الذي يصبه عليهم من يتعصب للمادية الشيوعية ومن يتعصب للعقيدة الدينية ومن يتعصب للقومية الروسية ويعتبر التكلم بلغة غير اللغة الروسية ثورة على الاستعمار وثورة على نظام الحكم القائم في أيدي الشيوعيين •

وسيطلع القارىء العربي في كتاب «كارثة القرم» على طرف موجز من تلك الفظائع الوحشية التي حلت بأولئك المساكين لغير ذنب الا أنهم يدينون بشريعتهم ولا يدينون بالشريعة الماركسية ، ويتكلمون بلغتهم ولا يتكلمون باللغة الروسية ، ويعرفون لهم حقوقا من حرية الضمير يعترف بها حكامهم قولا ويعاقبونهم عليها فعلا أشد العقاب •

واذا كانت الحرب قد ألجأت أولئك الحكام الى مجاملة الرعايا المسيحيين فهي على عكس ذلك قد وضعت المسلمين الخاضعين للكرملين موضع التهمة والاشتباه ، خوفا من ثورتهم وانتقاضهم لما أصابهم من ضروب المظالم التي تقشعر لهولها الابدان •

لقد استباحوا المساجد واتخذوا منهـا مسارح للهو أو اصطبلات للخيل أو حظائـر للاغنام ، وجمعوا نسخ القرآن والاحاديث النبويـة وأحرقوها في الميادين العامة ، وبطشوا بكل مـن يتوقعون منـه المقاومة ونكلوا بالشبان الاقوياء ونشروا الخوف والفزع بين العاملين والفلاحين ، فأقفرت الديار وأجدبت المزارع وعمت المجاعة واشتدت قسوة الجوع على الناس حتى أكلت الام ولدها وهـي تبكي عليه ، ثم نظروا شزرا الـى المحسنين الذين خفوا لانقاذ المنكوبين فاتهموهم بالادخار والوقوف مـن السلطة موقف « المتحدي » الذي يأخذ بأيدي ضحاياها ، فقتلوهم لأنهم يطعمون الجياع ويعطفون على الآدمية أن يمسخها الجوع مسخ الضواري والسباع !

ولو كانت المادية الماركسية تبقي في الآدمي مسحة من الانسانية لرثى المسيطرون لأولئك المنكوبين رثاء الانسان للانسان . ولكن الانسانية كلمة لا معنى لها في شريعة الماركسية ، لأن الشريعة عندهم هي شريعة «الطبقة» المزعومة فكل من عارضها فهو خارج من زمرة البشر مستباح الدم والذمار كما يستباح الوحش أو يستباح البهيم .

وليس قداسة « البابا » حبر الكنيسة الكاثوليكية مسلما تجمعـه بالقرميين جامعة الدين ، ولكنه انسان يحفظ للانسانية حقها من الرحمة كائنا ما كان الدين الذي تنتمي اليـه ، ولهذا عطف قداسته على ضحايا القرم المسلمين فأرسل اليهم المعونة من الطعام والدواء ، وان لـم تمكنه أحوال الدول من بذل المعونة السياسية لتلك الشعوب المظلومة ، فاستحق الشكر الجزيل مـن أبناء القرم جميعا وسجلوا لـه شكرهم في هـذه الصفحات .

وماذا يردع الطغاة المسلطين على ضحاياهم تلك أن ينكلوا بها غاية ما في وسعهم من نكال القوي بالضعيف ؟ هل تردعهم عن ذلك عقيدتهم الشيوعية ؟ هل تردعهم عنه أواصر القومية والوطنية ؟ هل تردعهم عنـه

طبائع الهمجية التي ركبت فيهم من قديم الزمن ؟ هل تردعهم عنه شناعة السمعة في بلاد العالم وقد عزلوا ضحاياهم عن العالم كله من جميع منافذه ونواحيه ؟ لا شيء من هذا يردعهم عن الفرائس العزلاء الملقاة بين أيديهم والموكولة الى رحمتهم ولا رحمة عندهم في طباع الهمجية ولا في تعاليم الماركسية ، فما أشقى المساكين الذين حاق بهم ذلك العذاب ولا منقذ ولا حامي ولا معين !

انه عذاب لا حد له ولا غايه ، فان كانت مصيبتهم العظمى مصيبة الفداء الذي يفتح أعين الغافلين الى مصير البشر على أيدي هؤلاء الزعانف الذين حسبو' أن كلمة « الشيوعية » تشفع للآدمي في نكسته الى الوحشية فقد حملوا وحدهم ضريبة الفداء لانقاذ البشرية من ذلك البلاء ، ولعله انقاذ قبل فوات الاوان .

الادب والمذاهب الهدامة

من العناء الضائع تعريف الادب على صورة من الصور للاعتراف بنوع من الادب وانكار نوع آخر . فما من تعريف سمعناه الا وهو يسمح لكل أدب أن ينطوي فيه .

يقال مثلا ان الادب ظاهرة اجتماعية ، أو يقال انه ظاهرة اقتصادية أو ظاهرة بيولوجية ، أو غير ذلك من الظواهر المختلفة ، ولك أن تقول عن ظاهرة من هذه الظواهر أو عنها جميعا : حسن ، ثم ماذا ؟ فلا يسع صاحب التعريف أن ينتهي بك الى باب مغلق على نوع من أنواع الآداب .

ذلك أن الادب كالحياة لأنه تعبير عنها ، فـلا يستوعبه مذهب ولا يستغرقه أسلوب .

قل مثلا ان الادب ظاهرة اجتماعية ، فماذا في هذا ؟

ان المجتمع لا يستنفد أغراضه ومقاصده في أربع وعشرين ساعة ، ولا في سبعة أيام ، ولا في عام أو بضعة أعوام .

ومن الجائز أن ظاهرة اجتماعية تتحقق خلال خمسين سنة ، وتبدأ في هذه السنة وكأنها معزولة عن المجتمع أو مناقضة لمصالحه الظاهرة ، ولكنها بعد خمسين سنة تؤتي ثمراتها التي لا نعرفها اليوم ولا نعرف سلفا كيف تكـون .

وليس أضر بالمجتمع مثلا من قطع النسل ، ولكن الكاتب قد يشجع العزوبة في قصة يكتبها ، وقد يكون تشجيعه لها احتجاجا على نظام الزواج في المجتمع ، وقد يؤتي هذا الاحتجاج ثمرته بعد سنوات ، فيصح على هذا

الاعتبار أن يكـون تشجيع العزوبة ظاهرة اجتماعية ودليلا علـى مرض اجتماعي يحتاج الى العلاج •

فاذا قلنا ان الادب مسألة اجتماعية فما الذي أبحناه بهذا التعريف ؟ وما الذي حرمناه ؟

بل أنت مستطيع أن تشيد بالادب الذي يسمونه أدب البرج العاجي ولا تخرج به عن الادب الذي هو مسألة اجتماعية •

فاذا جاز في المجتمع أن تغرس حديقة للنزهة لا تزرع فيهـا القمح والشعير ولا تغرس فيها التفاح والكمثرى فقد جاز في هذا المجتمع نفسه أن تنظم الشعر وصفا للازهار والبساتين •

واذا جاز في المجتمع أن تنشيء مصلحة للآثار لا تبيع تحفها ولا تساوم عليها فقد جاز في هذا المجتمع نفسه أن تصف أبا الهول بمقال أو عـدة مقالات ، وجاز فيه أيضا أن تحكي تلك الآثار بصناعة الصور والتماثيل •

ومن السخف أن يقال ان الطبقة الحاكمة هي التي تنحرف بالادب عن خدمة المجتمع لخدمة مصالحها ومآربها • وان الامر لو وكل الى الشعب لما نظم أحد شعرا ولا كتب حرفا في غيرالقوت والكساء والدواء وما يلحق بهذه الاشياء •

فقد عرفنا الادب الشعبي بمصر سبعة قرون متوالية ، فلم نعرف فيه هذه الشروط ولا تلك الموانع ، ولم نعرف لـه صبغة عامة غـير الصبغة الانسانية التي تعم جميع الطبقات في جميع الاوقات •

على أي موضوع كان الادب الشعبي يدور بمصر منذ القرن السادس للهجرة ؟

انـه كان يدور على ملاحم أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة والزير سالم وسيف بن ذي يزن وغيرهم من أبطال هذا الطراز •

وقد اختلفت الهيئة الحاكمة خلال هذه القرون من الدولة الفاطمية الى الايوبية الى دول المماليك الى الدولة العلوية •

واختلفت الاحوال الاقتصادية من رواج النقل في تجارة المشرق والمغرب الى انقطاع الصلة بينهما الى نشأة الزراعة القطنية الى تجدد المعاملات التجارية بين القارات الشرقية والغربية .

وفي جميع هذه القرون كانت قصة أبي زيد هي هي ، وقصة الزير سالم على نسختها الاولى ، وقصة الذوين والتبابعة مسموعة في القرن الثالث عشر كما كانت تسمع قبل ذلك بثلاثة أو أربعة قرون .

وهذا هو رأي الشعب في الادب الشعبي ، لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة لأن هذه الطبقة الحاكمة كانت تجهل اللغة التي نظمت بها قصائد السيرة الهلالية وما شابهها ، ولأن قبائل بني هلال وبني تغلب وبني من شئت من الآباء لم يكن لها سلطان على الدولة الحاكمة ، ولا كانت الدولة الحاكمة معتزة بهم أو جارية في نظام المجتمع على مثالهم .

فلماذا أقبل الشعب على تلك الملاحم يسمعها ولا يمل سماعها سبعة قرون أو تزيد ؟

واذا كانت الافلام والروايات المسرحية في قبضة المخرجين ، وكان المخرجون في قبضة رأس المال ، فشاعر الربابة الذي تسخره عشرة دراهم من العشاء الى مطلع الفجر تراه في أي قبضة كان ؟ . وما هي المناورات المصرفية أو البرجوازية أو الحركية أو الاسترخائية التي كانت تدبر من وراء الستار لصرف الشاعر عن الكلام في الرغيف والفول المدمس الى الكلام في البطولة والغزل وغرام مرعي وسعدى وآخرين وأخريات ؟

ان هذه الملاحم حقيقة واقعة ، وان غرام الشعب بها حقيقة واقعة ، وان ثباته على الافتتان بها مع اختلاف الدول والاحوال الاقتصادية والطبقات الحاكمة حقيقة واقعة .

فأين يذهب تعريفنا الادب بأنه مسألة اجتماعية بين هذه الحقائق الواقعة ؟ وأي فرق بين الاخذ بذلك التعريف واهماله غاية الاهمال ؟

أليس المقصود بالادب الشعبي أن يكتب بلغة الشعب ؟

أليس المقصود به أن يلقى القبول والاقبال عند طبقة الشعب ؟

أليس المقصود به أن يصدر من صميم الشعب ولا يصدر من الحكام أو المستغلين ؟

أليس المقصود به أن يأتي طواعية من الناظم الى المستمعين بغير تسليط ولا اكراه ؟

بلى ، وكل أولئك كان موفورا للملاحم الهلالية وما جرى مجراها .

فلماذا كانت هذه الملاحم دائرة على البطولة والغزل ولم تكن دائرة على الرغيف والفول المدمس ؟ ومن الذي أكره الشعب على طلب هذه المعاني والاعراض عما عداها ؟

جواب واحد لا سبيل الى الحيد عنه بكلمة من كلمات الرطانة التي يلفظ بها أصحاب الامر والنهي في تعريفات الآداب .

وذلك الجواب هو شعور الانسان .

فالشعب « انسان » قبل كل شيء ، ونفس الانسان تهتز في كل زمان لأريحية البطولة والغزل ، وتجري في ذلك على سنة الحياة التي لا سنة غيرها للأدب والفن ، كيفما اختلفت الطبقة الحاكمة ، واختلفت أحوال المعيشة ، واختلف الناظمون والمستمعون .

لقد كان الشعب يستمع الى ملاحم ابي زيد وهو موفور الطعام ناعم بالرخاء والسلام ، وكان يستمع اليها وهو مهدد بالمجاعة والوباء ، ولم يكن من هم الحاكمين أن يعلموا المحكومين البطولة ويعرضوا أمامهم قدوة المجازفة والهجوم على الموت والخطر ، ولعلهم قد مضى عليهم زمن وهم لا يعلمون من هو أبو زيد ولا يسمعون باسمه ، بل لعلهم منعوا الجلوس على القهوات التي تنشد فيها تلك الملاحم مرات بعد مرات منعا للضوضاء والشجار ، وهم لا يدرون من أسبابه الكثير أو القليل .

ثم بطلت ملاحم أبي زيد وخلفتها بطولة رعاة البقر في البراري الامريكية ، أو خلفتها بطولة العصابات في المدن الكبرى ، ولم تكن لرعاة

البقر ولا للعصابات دولة تروج لها الدعوة في وادي النيل ، ولم يكن اقبال الشعب على هذه الملاحم بعد تلك الملاحم لأنه (تأمرك) بعد أن تعرب ، وانما حلت دار الصور المتحركة محل القهوة البلدية وبقي حب البطولة والغزل كما كان ، لأنه حياة يفهمها الحي كائنا ما كان القائلون والممثلون .

واذا انحدرنا من عالم الانسان الى عالم الحيوان والنبات فما هـو العنوان الاجتماعي الذي يندرج تحته زهر الفول وتغريد العصفور ؟

اننـا نتخيل في هذه اللحظة رطانا من اصحـاب البرجـوازيات والاسترخائيات والانتهازيات قد شال بأنفه وصعر خده وامتلأ عجبا من هؤلاء الناس الذين يسألون أمثال هذه الاسئلة الفضولية ويخفى عليهم أن الامر متعلق باللقاح والتناسل ووفرة الغذاء في الربيع !

وأفادهم الله وان لم يفيدونا شيئا .

ولكنهم مسؤولون بعد ذلك : لماذا يغني العصفور يا ترى اذا شبع ؟ أليس الشبع هو المقصود وفيه الكفاية ؟ ولماذا يغني اذا تغزل ؟ أليست الغريزة الجنسية هناك ؟ ولماذا تضيع الطبيعة وقتها في تزويق أوراق الفول ؟ أليس هذا ترفا برجوازيا استرخائيا مظهريا الى آخر هذه المنسوبات ؟

ما عهدنا في تاريخ الانسان حطة دون هذه الحطة التي يهبط اليهـا ـ منتفخين بكبرياء الجهل ـ من يسمون أنفسهم بالتقدميين .

وما عهدنا أحدا أشد على الشعب قسوة من هؤلاء الذين يزعمون الغيرة على الشعب ويجمعون عليه بين الحرمان من المال والحرمان مـن الشعور . فاذا كـان المجتمع « الرأسمالي » يقسو علـى الفقير فيحرمه ضرورات العيش فأفظع من ذلك قسوة من يجرده من الشعور الانساني ويفرض عليه أن يجهل معاني البطولة والعاطفة لأنه فقير . واذا كان المجتمع « الرأسمالي » يفرض على الفقير أن يعمل لقوته فأفظع منه قسوة مـن يفرض عليه أن يقـرأ لقوته ويتريض لقوته وينام ويصحو ويحلم ويعلـم

لقوته ، ولاشيء غير قوته في الصناعة ولا في العلم ولا في الفن ولا في الادب ولا في الواقع ولا في الخيال •

لقد كان أجهل جاهل من المستمعين الى ملاحم الهلالي والزير سالم انسانا أكرم مــن هؤلاء التقدميين الذين يرسمون للأدب طريقه وللحياة طريقها ، وهم عالة على الادب وعلى الحياة •

وسيعاد تعريف الادب على ألف صورة : مسألة اجتماعية تارة ومسألة اقتصادية تارة ومسألة حركية أو سكونية تارة أو تارات • ولكنه لن يمتنع بذلك عن موضوع ولن ينقطع لموضوع ، ولن يكون أدبا ما لم يكــن له نصيب مــن شعور الانسان ، وبهذه المثابة يحدثنا عــن القطب الشمالي فيحدثنا عن قريب ، ويروي لنا خبر البطولة فيروي لنا خبرا يهز نفس الفقير والغني والصغير والكبير ، ويذكر لنا الزهرية فلا يقول له قائل حي : دعها واذكر قدرة الفول المدمس ، ما دام انسانا يرجع الى الطبيعة ان لم يرجع الى نفسه ، فيلمس منبت الفول وزهرته من تربة الحياة •

الوجودية

ان الوجودية في أساسها مذهب محترم مقبول أو مذاهب محترمة مقبولة لا يستدعيها قيام المذاهب الهدامة التي تلغي وجود الفرد واستقلاله في غمار الجماعات التي ينتمي اليها • وانما قامت الوجودية كأنها رد فعل لتلك المذاهب يحفظ للفرد كيانه واستقلاله ويعرفه بحقوقه وواجباته بين قومه وبين اخوته من بني الانسان في جميع الامم وجميع الحقب ، ولكن هذه الوجودية قد تنحدر مع المنحدرين بطبائعهم حتى تصبح ضربا من العدمية أو ضربا من الاباحية التي لا تعترف بشيء غير شهوات الفرد ودوافع الاثرة والانانية •

ومن الوجودية التي تستحق اسم العدمية تلك العقائد التي تنكر معنى الوجود وتقطع الوشائج العميقة بين وجود الانسان ووجود هذه الاكوان في آزالها وآبادها التي لا حقيقة وراءها ولا معنى لكلمة العبث ان نسبت اليها •

وهذه العدمية هي التي يسخر منها فيلسوف العصر برتراند رسل في كتابه عن الكوابيس فيضع على لسانها هذا النشيد باللغة الفرنسية :

« في صحراء شاسعة الاطراف

« فراغ واسع من الرمال •

« ذهبت فيه أبحث وأنقب •

« ذهبت أبحث عن الطريق المفقود •

« الطريق الذي أبحث عنه ولا أصل اليه •

« تتيه روحي هنا وتتيه هناك •

« في كل جهة من الجهات الاربع •
« وكلما بحثت لم أجد شيئا •
« في ذلك الفراغ الذي ليس له آخر •
« ذلك الفراغ الذي لا ينقطع •
« رمال •• رمال •• رمال •
« تلك الرمال الخادعة الخانقة •
« تلك الرمال الرتيبة المحزنة •
« تمتد الى نهاية الافق •
« وأسمع صوتا في النهاية •
« صوتا صاعقا يحلو أو حلوا يصعق •
« ثم يقول لي ذلك الصوت •
« أتحسب أنك روح ضائع ؟
« أتحسب أنك روح ؟
« أنت غلطان ! •
« أنت لست بروح •
« أنت لست بضائع •
« أنت عدم •
« أنت غير موجود •• »

والكابوس في هذا النشيد راكب على أنفاس « وجودي » يريد أن يثبت مذهبه •

ومذهبه أن الالم والخجل يخلقان الشعور في الضمير • فالضمير موجود وصاحبه غير معدوم ، ومن تجارب الكابوس أن يبتلى هـذا « الوجودي » بالتعذيب في معسكرات النازية ، وان يجيعه في روسيا ، وان يدخله في الشيوعية الصينية ليتهم فتـاة بريئة مخلصة بتهمة الخيانـة

والجاسوسية لعلـه يشعر بالخجل وتبكيت الضمـير فينسب نفسه الـى الوجود .

ثم يعود الى باريس فتنعقد المجامع ترحيبا بالمجاهد العائد من ميادينه، ويدعى الى مجمع من هذه المجامع فيقبل وهو ينظر الى مكان ضيف الشرف فاذا فيه غراب واذا الغراب ينعب له بصوت يسمعه المجتمع كله :

« فلسفتك يا هذا ليس لها وجود .

« فلسفتك يا هذا عدم .

« انها ليست بشيء » .

وينهض أخيرا على صدى هذا النعيب فيسمع نفسه يصيح :

« ها أنت أخيرا تتعذب . ها أنت أخيرا موجود » .

هذه صورة مـن الوجودية الممسوخة ترادفها صورة أخرى علـى شاكلتها في المسخ والضلالة ، وقوامها أن الفرد موجود والنوع الانساني وهم ليس له وجود ، أو كما يقولون باصطلاحهم ان الوجود سابق للماهية، وان الانسانية التي هي « ماهية » الانسان كلمة على اللسان ، وليس لها حق عليه لأنه هو مصدر الحق كله ومرجع الواجب كله فيما يختلج فيه من شعور الانانية والانفراد بالذات .

* * *

وعلى هذا الاعتبار أوجزنا القول في الفصلين اللاحقين عن الوجودية بمذاهبها المتعددة ، ليتبين منهـا موضع المذهب الصالح وموضع المذهب الذي انحدر بانحدار القائلين به أو الداعين اليه .

الوجودية أو الوجدانية

ما هي الوجودية ؟ هي كلمة منسوبة الى الوجود •

ولكن لا يفهم منهـا بالبداهة أن المراد بها هو مطلق الوجود ، لأن الحجر موجود والشجرة موجودة والحيوان موجود ، وقد تكون كلهـا موجودة بالنسبة الى غيرها ، لأن غيرها هو الذي يحس وجودها ويعرف لها صفة الموجودات •

والانسان على كونه مخلوقا حيا عاقلا قـد يكون موجودا أيضـا بالنسبة الى غيره لا بالنسبة الى نفسه ، ويكون حكمه في وجوده كحكم الحجر والشجرة والحيوان أو قريبا منها في مجمل التقدير •

فهل نفهم من الوجودية اذن أنها منسوبة الى الحياة ؟ • كـلا ، ولا هذا هو المقصود بالمعنى الفلسفي لهـذه الكلمة ، لأن الانسان يكون في الحياة من مولده الى مماته ، ولا يخرج منها في خلال ذلك ولـو ذهب في النوم أو غاب عن وعيه •

فالوجودية لا تعني مطلق الوجود ولا مطلق الحياة ، ولكنها تعني أن يهتدي الانسان الى وجوده بنفسه ، وأن يكون موجودا بالنسبة الـى نفسه ، وأن يسبر غور وجدانه ويستجمع نقائضه في وحدة شاملة تمضي الى اتجاه متناسق لا تنازع فيه ، وأن يكون بهذه المثابة شيئا لا يتكرر ولا يتعدد ، لان الناس ــ من حيث هم موجودات ــ خلائق متشابهة ، يجـوز فيها التعدد والتكرار • ولكن الانسان الذي اجتمع بنفسه وسبر غورهـا وعمل في الحياة بكل قوة مـن قواها شيء واحد لا تعدد لـه و لاتكرار لكيانه ، وهو في امتناع تكراره أحرى من الكف التي يمتنع تكرارها بين

انسانين اثنين بالغا ما بلغ التقارب بينهما في النسب أو في الملامح والقسمات • واذاامتنع أن تتشابه كفان فتشابه الوجودين النفسانيين أحرى وأقمن بالامتناع •

وتسأل : كيف نهتدي الى هذا الوجود فنعرف به أنفسنا كما نعرف به مدى العلاقة بين وجودنا وهذا الوجود العظيم المحيط بكل كائن من هذه الكائنات ؟

أترانا من هذه الكائنات ؟

أترانا نهتدي اليه بالتحليل النفساني والمراقبة الباطنية ؟

كلا ، لان التحليل النفساني يفترض انقساما في النفس بين القوة التي تحلل والقوة التي تخضع للتحليل ، أو يفترض نوعا من القرابة بين المستطلع وما يراد استطلاعه ، وانما يتحقق الوجود بكل جوانب الوجود ، ويتحقق بأن يعمل الانسان « موجودا متناسقا » ولا يتحقق بأن يعرف ويقنع بمجرد العرفان •

كذلك لا نهتدي الى الوجودية أو الوجدانية بهدى الاخلاق المقررة وأصول الآداب المتواضع عليها ، لأن الاخلاق والآداب تسيطر على الجماعات وتنشأ قبل نشوء الافراد ، ولا تنبعث من أعماق الفرد في دخيلة وجوده التي ينطوي عليها دون غيره •

وانما نهتدي الى وجودنا بثورة في أعماق هذا الوجود : نهتدي اليه بصدمة في عاطفة قوية ، أو بيقظة من يقظات الضمير ، أو بضربة من ضربات التجارب تفصلنا من المجتمع الذي نعيش فيه أو تتناول مكانتنا منه بالتحويل والتبديل •

نهتدي اليه بمحنة تردنا الى أغوار حياتنا وتطيل بحثنا في سراديبها وزواياها ، وتضع أيدينا على ميزان شعورنا وتفكيرنا وخيالنا ، فنعرف كم « نزن » في كل هذا وماذا نستطيع وماذا لا نستطيع ، وماذا نقف عنده فلا نحاول الاستطاعة فيه •

ومتى أدركنا هذه الآونة وجب علينا أن « نعقد اختيارنا » ولا نتردد في مفترق الطريق بين نهجين حائرين الى غير التقــاء •

مؤسس هذا المذهب الدنمركي سورين كركجرد Soren Kierkegard ولد في سنة ١٨١٣ وتوفي في الثالثة والاربعين •

وحياته تفسر مذهبه أتم تفسير •

لأنه صـدم الصدمة التي تضطر الانسان الى « الاختيــار » وهو في مقتبل الشباب : أحب الفتاة ريجينا ألسن ، وبادلته الحب في بادىء الامر ، ولكنها تركته واقترنت بغيره ، وتبين له وهو في الثامنة عشرة أنه لم يخلق للصلة الجنسية المثمرة ، فقرر المتجه الذي يتجه اليه عند مفترق الطريق •

وهذا الاختيار هو ما عنــاه في كتابه الباكر المسمى « اما • أو »

وفحواه : اما أن تجد نفسك أو تفقدها كل الفقدان •

وقد أدار الكتاب على الحوار بين انسان فنان وانسان يدين بالاخلاق ، وكان كركجرد نفسه مزيجا من الانسانين ، لانه كان مطبوعا على التدين ، مطبوعا على تذوق الفن والجمال وقد جعل الفنان في كتابه مثلا للحيرة المضللة ، وجعل المتدين مثــلا للطمــأنينة الوادعة وهي — من العجب — طمأنينة الاسرة والزواج !

واختار كركجرد وجوده ، فاختار أن يعيش على سنة السيد المسيح في هذه الدنيا التي لا تجتمع فيها القداسة والوجاهة ، واتخذ شعاره أن لا يخدم سيدين ، فان السيد المسيح قد خلص من تبعات الاسرة والوطن والعرف الشائع ، وكان قدوة لمن يخدم سيدا واحدا لا يدين بسواه •

وكانت أطوار الفيلسوف غريبة وأسلوبه في الكتابة أغرب ، فقد يصدر له كتابان في وقت واحد أحدهما بتوقيع صريح والآخر بتوقيع مستعــار ، وقد يؤلف كتابا كله مقدمات وليس فيه غير المقدمــات موضوع ، وقد يستخدم عبارة الوعاظ تارة ويستخدم عبارة الملغزين المتصوفين تارة اخرى ، ويبدو في جميع ذلك صادقا لطبيعة واحدة : وهي طبيعة الايمــان •

وكان مذهب «هيجل» الفيلسوف الالماني الكبير هو البدعة الفلسفية الشائعة في شباب كركجرد ، وخلاصة هذا المذهب أن الكون كله هو مرآة « الكائن الابدي المطلق »• وأن هذا الكائن الابدي المطلق تجلى في الموجودات جميعا وبلغ أقصى مراتب التجلي وعرفان الذات في الانسان ، فالانسان اذن هو صورة العقل الالهي في أرفع مظاهر الوجود •

ولم يتعرض مذهب هيجل هذا لحملة قط أعنف من حملات كركجرد عليه ، لانه يرتفع بالصورة الالهية عن هذه الصورة الانسانية ، ويؤمن بأن الوجود الانساني على عكس ذلك هو الذي يتسامى الى عرش الله ، فلا يسمو الى مرتبة أعلى وأشرف من أن يحب الله ويشعر بحب الله اياه ، وكل انسان محبوب من الله في اعتقادكركجرد ، ولكن الفرق بين انسان وانسان هو الفرق بين من يشعر بهذا الحب الالهي ومن لا يشعر به ، لانه مستغرق في ألوان أخرى من الحب أو من العلاقة : كعلاقة الطمع أو كعلاقة الهوى أو علاقات الازواج والابناء •

وغني عن القول أن كركجرد يتدين على سنة في الدين غير سنة العرف المتفق عليه بين سواد الناس ، لانه يؤمن بأن حق الفرد في اختيار عقيدته أعظم من حق الكنيسة وحق الجماعة ، ويؤمن كما قدمنا بأن وجود الفرد وحدة غير قابلة للتكرار ، وكل ما يستطيعه المؤمن للمؤمن أن يريه بالمثل المحسوس أن باب الاختيار مفتوح ، وانه اما أن يختار وجوده بالهام ضميره أو يضيع •

والذي نراه أن مكان كركجرد بين كبار المتعبدين وذوي الشاعرية أصح وأوفق من مكانه بين كبار الفلاسفة ، لانه كان حساسا ثاقب الذكاء عميق الوجدان ، ولم يكن من أصحاب العارضة القوية والفكر الواسع المحيط بآفاق القضايا العظمى •

فلا جرم كان يفصل بين العقيدة والمعرفة ، ويباعد بين عالم الفكر

وعالم الحقيقة ، ويعتبر التعمق في الوجود ممكنا بغير التعّمق في الوعي المفكر والمنطق السديد •

* * *

على أن الوجودية قد بدأت بكركجرد ولكنها لم تنته بالخاتمة التي وقف عندها واستقر عليها في حياته القصيرة •

فان هذا المذهب قد سرى الى البلاد الالمانية وتجدد نشاطه في أعقاب الحرب الاولى على أثر الهزيمة التي مني بها الالمان وجنحت ببعضهم الى العقائد المادية وببعضهم الى التنفيس عن ضمائرهم بنزعة من النزعات الروحية أو الوجدانية • واشتهر من فلاسفة المذهب أعلام نابهون مثل كرل جسبرز Karl Jaspers وادمند هسيرل Hasserel ومارتن هيدجار Heidegger ودلثي Dilthey وزيمل Zimmel وقد مات منذ سنوات •

واتسعت أطراف المذهب حتى وجد فيه من يؤمن ايمان كركجرد ومن ينكر وجود الله ولا يرى في الكون ظاهرة الهية على الاطلاق ، ولكنهم كانوا على التقاء في بعض المسائل المتشابهة لا تخفي الصلة بينها وبين الوجودية في جوهرها الصميم •

فجميع الفلاسفة الوجوديين قليلو التعويل على « معنى عقلي » يفسرون به الحياة ، متبرمون بالمقررات المنطقية والعلمية وسائر المقررات التي ترجع بالامر الى سلطان أو نظام •

وجميعهم معتصمون بتجارب النفس ودوافع السريرة التي تستقل بها الشخصية الانسانية في جهادها الباطني ونزوعها الدائم نحو التوفيق بينها وبين مشكلات الوجود الكبرى •

ومعظمهم يوصي بتماسك الاخلاق ومقابلة الحيرة النظرية بالعمل الخلقي وتجريد النفس في جملتها لكفاح الحياة •

ولم تنقض على الحرب العالمية الاولى اربع سنوات حتى ظهر المذهب

في فرنسا واشتغلت به الطبقة التي بلغت من الثقافة ومن الذوق الفني أن تبحث لها عن فلسفة للوجود تملأ بها فراغ الضمائر من العقائد الروحانية في عصرنا الحديث •

لكن الوجودية لم تزل في فرنسا بدعة مقصورة على فئة عليلة من طلاب الغرائب ، الى أن كانت الحرب العالمية الثانية ومنيت فيها فرنسا بتلك الهزيمة النكراء• فثارت على المادية الشيوعية وعلى الروحانية التقليدية في وقت واحد واندفعت فيها بين الطبقة الوسطى دفعة جامحة الى الايمان بالحرية الديمقراطية ، ولكنه الايمان الذي لا يدين بالسلطان لرياسة مقررة أو هيئة من الهيئات •

وأعلام هذه المدرسة في فرنسا هم : جان بول سرتر Sartre وألبرت كاموس Albert Camus ومدام سيمون دي بوفوار Simone de Beuavoire ويتبعهم طائفة غير قليلة من الكتاب الصحفيين ! !

فالوجودية التي تتمثل في كتابة سرتر هي وجودية الفخر بالألم والشدة ، واعتماد النفس على النفس في اختيار الطريق المرتسم لها في أعماق سريرتها ، على وفاق كيانها الشخصي ، ولو كان اختيارها مناقضا لاختيار المقادير •

والوجودية التي تتمثل في كتابة كاموس هي وجودية الاطمئنان الى عبث الحياة • وعنده أن الانسان في هذه الدنيا شبيه ببطل الأسطورة الاغريقية سيسفوس • وهو رجل عصى مشيئة الأرباب والتمس منهم بعد الموت أن يعود الى الدنيا ليؤدب زوجته على خيانتها ، فسمحوا له بالعودة الى أجل محدود ، وجاوز هو الأجل المحدود غير مكترث بنذير القضاء ، فحكموا عليه بأن يتردى الى الجحيم مسخرا في عمل لا طائل تحته وليس له انتهاء ، وذلك أن يستجمع جهده ليرفع صخرة عظيمة من اسفل الجبل الى قمته ، ثم تنحدر الصخرة فيعود الى رفعها مرة بعد مرة الى غير نهاية معلومة ولغير قصد معروف •

وكل انسان في رأي كاموس هو سيسفوس مسخر في مثل هذا الجهد

الضائع والعبث العقيم ، ولكنه يبحث عن معنى هذا الكفـاح فيشقى ، ويطمئن الى خلوه من كل معنى فيخرج منه ببطولة الجلد والثبات ويستريح من قلق الانتظار ، ومتى قدر على الانسان أن يحرم الجهاد في قضية رابحة معلومة الاسباب فأشرف الجهاد بعد ذلك جهاده في قضية خاسرة مجهولة الأسبـــاب •

ومدام بوفوار تضرب على نغمة كهذه النغمة ، وتزيد عليها بشيء من الغلواء والتكلف واتخاذ الأوضاع أو « البوزات » كما يسمونها في لغــة التمثيــل •

* * *

هذه الوجودية في فرنسا ـــ بعد الحرب العالمية ـــ ظاهرة تقبــل التعليل القريب •

ففيها النزعة الوجدانية ، وفيها الايمان بالحرية الفردية ، أو باختيار الانسان لنفسه في عالم الضمير ، وفيها التمرد على سلطان الكهانة وسلطان الرياسة المقررة على الاجمال ، وليس بعجيب أن تروج بين الفرنسيين ـــ بعد الحرب العالمية ـــ عقيدة تجمع هذه النزعات في نسق واحد ، لأنهـــا النتيجة الطبيعية لطغيان الحركات الجماعية أو الزحامية ، ويقظة الايمان الفردي مع ثورة الفرد والأمة على رجال الدين •

ويمكن أن يقال ان فلسفة « هيجل » قد تمخضت عـــن اخوين شقيقين يجمعان نقائض الاسرة كلها في طرفين متقابلين ، كما يشاهد في كثير من الأشقاء بين أسر الآباء والأبناء •

فأحد الشقيقين هو المادية الجماعية ، أو هو المادية الثنائية Dialectical Materialism كما شرحتها الشيوعية المركسية •

والشقيق الآخر هو الوجودية أو الوجدانية ، كما تسلسلت مـــن مذهب كركجرد ، وهذه الوجودية هي معسكر الوجدان والحرية الفردية يتأهب لاتخاذ مكانه في الميدان أمام معسكر المادة والجماعة العمياء •

ولا بد للمعركة من قرار •

الوجودية بين أنصارها وخصومها

ونحن نكتب هذا العنوان لنسرع الى نقضه ، أو تعديله ، في السطر الأول من المقـال !

اذ كانت الوجودية أقل المذاهب قبولا للتنازع الشديد بين الأنصار والخصوم ، لأنها تتسع للنقائض من أقصى اليمين الى أقصى الشمـال ، وتضم تحت عنوانهـا الشامل اناسـا يؤمنون ايمان العجائز ، واناسـا يكفرون بكل معتقد ويتحللون من كل دين •

وحسبنا من عنوان الوجوديـة أنه يضم تحته فلاسفة مـن أمثـال كيركجـرد ، وبردابيف ، وجابرييل مارسل ، وهيدجـر ، وسارتـر ، وكرشنامورتي •• وآخرين !

فكيركجرد Kierkegaard دانمركي يميل الى الكنيسة البروتستانتية•

وبردابيف Berdayaef روسي يميل الى الكنيسة الأرثوذكسية •

ومارسل Marcel فرنسي يميل الى الكنيسة الكاثوليكية •

وهيدجر Heidegger ألماني يهودي يميل الى الالحاد ويكاد أن ينكر كل موجود وراء الطبيعة •

وسارتر Sartere فرنسي « نصف يهودي » يفرط في الالحـاد والانكار غاية الافراط •

وكرشنا مورتي Krishna Murti هنــدي يتصـوف تصـوف النساك ويجعل لكل روح بشرية محرابا مستقلا تتعبد فيه بمعزل عن جميع الديانات •

مذاهب الوجوديين :

ويوجد بين « الوجوديين » مثل هذا الاختلاف في مسائل الأخلاق والواجبات الاجتماعية . فمنهم من يدين بالاباحة المطلقة ، ومنهم من يروض نفسه على التقوى كأنه راهب في صومعة .

فهم متفرقون بين العقائد والمذاهب والآراء ، وليس بينهم من جامعة تسوغ وضعهم تحت عنوان واحد الا أنهم يؤمنون جميعا بأن الوجود مقدم على الماهية .

وهذا اصطلاح فلسفي يمكن تبسيطه وتقريبه بلغة الكلام الشائع في كل يوم .

فهم يؤمنون بأن الوجود الحقيقي انما هو وجود الأفراد ، وانما النوع كله اسم من الاسماء لا وجود له في الخارج .

زيد وعمرو وابراهيم ويوسف وفلان وعلان — هؤلاء موجودون حقيقيون لا شك في وجودهم ، ولكن « الانسان » أو النوع الانساني كلمة لا حقيقة لها في الخارج ، ولا يراد بها الا تقريب التصور والادراك

وما دام الأمر كذلك ..

وما دام الفرد هو الحقيقة الموجودة فمن الظلم أن نضحي به في سبيل الكلمة الوهمية أو الصورة الخيالية التي تجري على اللسان ولا تظهر للعيان .

كيف يتقرر وجود الفرد

ان الفرد هو الموجود فمن حقه أن يقرر وجوده أو أن يثبت وجوده قبل كل شيء ، وليدع كلمة « الانسان » موزعة بين الجميع تصدق على هذا كما تصدق على ذاك ولا اثر لها في تحقيق الوجود أو ابطال الوجود .

ومن هنا يبدأ الخلاف بين الوجوديين أنفسهم ، وكلهم مع ذلك وجوديون .

فما هي الطريقة التي يقرر بها الفرد وجوده ويتحرر بها من الوهم والخيال ؟

عند فريق من الوجوديين أن وجود الفرد يتقرر ويتحقق باطلاق العنان لرغباته وشهواته يفعل ما يشاء ولا يبالي العرف أو الدين ·

وعند فريق آخر من الوجوديين أن الفرد يتحقق وجوده اذا اتصل بالوجود الاعظم ، وجود الاله أو وجود الكون ، أو وجود « الكارما » في عرف البرهميين ·

وعند فريق غير هؤلاء وهؤلاء أن وجود الفرد يتحقق بمواجهة المخاوف والأخطار والتعرض للقلق والمحنة واستخراج كل قوة في أعماق النفس بتجربة الخوف والتغلب عليه وقبول الأقدار قبول الاختيار ·

وعند غيرهم جميعا أن الاشتراك في العقيدة تكرار وتقليد ، وأن التقليد تزييف وتلفيق ، وأن الوجود الصحيح انما يكون بالعقيدة التي لا تقبل التكرار ·

مذهب قديم !

هل هذا المذهب حديث في مذاهب القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ؟

كلا · ان الخلاف بين القائلين بالوجود والقائلين بالماهية أقدم من أرسطو وأفلاطون ·

والقول بالمثل ، جمع مثال ، في مذهب أفلاطون أو القول بالصور ، جمع صورة ، في مذهب أرسطو ، انما هما نسخة قديمة من الخلاف على وجود الفرد ووجود النوع ، أو على الجنس والفصل كما يقولون في لغة المناطقة الأقدمين ·

وقد تجدد هذا الخلاف على أشده وأعنفه في القرون الوسطى بين الواقعيين Realists والاسميين Nominalists

فالواقعيون يقولون ان الوجود الحق للافراد ، والاسميون — في

رأي خصومهم ــ يتعلقون باسم على اللسان لا وجود له في الحس والعيان، وكل ما فيه أنه عنوان •

فهذا خلاف قديم لم يخلقه الوجوديون المتأخرون ، ولكن الوجودية الحديثة تعد مع ذلك ــ ظـاهرة من ظواهر القرن العشرين لم يعرفهـا الاقدمون كما عرفها اليوم الفلاسفة المعاصرون •

الوجودية الحديثـة :

هذه الوجودية الحديثة في الواقع هي ظاهرة اجتماعية نشأت بعـد نشوء الديمقراطية وتجسمت وتضخمت بعد نشوء الشيوعية •

ضاع الفرد في غمار المجموع •

أصبح الشأن كل الشأن للعدد لا للمزية والخصائص الفردية •

فالوجودية الحديثة هي ثورة احتجاج من الفرد على طغيان الجماعات، وهي اثبات لحق الفرد أمام الدعاوى الكثيرة التي تكاد أن تلغيه وتفنيه في غمار السواد •

ومما لا جدال فيه أن الوجودية بهذا المعنى ظاهرة طبيعية معقولة ، وأن الحاجة ماسة في العصر الحاضر الى اقامة الحد الفاصل بين طغيـان الكثرة العددية وحقوق المزايا الفردية ،وأن كل وجودي متدين أو غير متدين في زماننا هذا يريد أن يثبت حقه أمام السلطة الدينية أو السلطة العرفية أو السلطة السياسية •

شرط الاعتدال :

الا ان المغالاة محذورة من الطرفين ، لأن المغالاة من هنا أو هناك تضر بالفرد كما تضر بالمجموع •

فمن المغالاة أن يمحي الفرد محوا في سبيل الجماعة ، لأن في هذا المحو تضييعا للمزايا والكفايات •

ومن المغالاة انكار النوع واثبات الفرد وحده ، لأن النوع موجود في جسم الفرد متمثل في غرائزه النوعية التي هي أقوى دوافعه النفسية ،

سواء تمثلت في الحب بين الرجل والمرأة ، أو في الحنان الأبوي على الأبناء أو في غريزة الاجتماع .

وقوام الأمرين أن الفرد موجود وأن النوع موجود ، وأن صلاح النوع في الانتفاع بمزايا الأفراد ، وأن صلاح الفرد في الاعتراف بغرائزه النوعية وعلاقاته الانسانية التي لا فكاك منها .

هذا هو الجانب الاجتماعي النفساني من المذاهب الوجودية عـلى تعددهـا وافتراقهـا .

وأما الجانب الفلسفي فمداره على البحث القديم في مبلغ ادراكنـا للحقيقة بحواسنا وعقولنا .

هل نحن نعرف الوجود بالحواس والعقول ، أو وراء ذلك حقائـق الأشياء في ذواتها لا تدركها الحواس ولا تنفذ اليها العقول ؟

وسيظل الخلاف على ذلك قائما ما دام في الدنيا موجودون يبحثون عـن الوجـود .

الفوضوية والوجودية

قامت في فرنسا في القرن الماضي حركة سياسية سميت في تاريخ الفلسفة باسم L'anarchisme بزعامة Pierre Proudhon وتلخص سياسته هذه بالحرية المطلقة فلا جبر ولا الزام على الأشخاص ولا دين ولا دولة ، بل تهدف الفوضوية الى القضاء على الخضوع للسلطة سوى سلطان العلم والعقل . ولكن لم يقدر لهذا المذهب السياسي أي نجاح فضلا عن اهمال علماء السياسة لدراسته .

وفي فرنسا الآن حركة أدبية وأخلاقية واسعة هي المذهب الوجودي . ومن المعروف عن هذا المذهب أن كل انسان يعمل ما يريد ، وفي عمله يجب أن يكون بعيدا عن الخيال ، وقد قال سارتر : « اننا نعيش في المادة فيجب أن نخضع للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد » .

ولشدة الشبه بين المذهب السياسي السابق والمذهب الأدبي الموجود الآن نسأل : هل هناك علاقة بين المذهبين ؟ وهل يمكن اعتبار الوجودية امتدادا للفوضوية ولكن في ثياب الأدب ...

ادوارد فؤاد
طالب بآداب القاهرة
قسم التاريخ

أحسن الطالب الأديب أولا في تسمية الفوضوية والوجودية بالحركة، لأن الحركة أليق بهما من اسم المذهب الذي ذكره بعد ذلك ، وقد تكون الوجودية مناقضة للتمذهب بحكم قواعدها الأولى ، وهي تجتمع كلها في التعويل على استقلال الفرد بآرائه وميوله ، وينتمي اليها ــ أي الى

الوجودية ــ أكثر من عشرين مفكرا لا يلتقي واحد منهم بالآخر الا في عرض الطريق • فهي مذاهب كثيرة وليست بمذهب واحد •

وكذلك الفوضوية في تشعبها وكثرة مدارسها وأقاويلها ، فان برودون وباكونين وكروبتكين وأتباعهم من روسيا وأسبانيا يختلفون بالرأي كما يختلفون بالعمل ، ولا بد من هذا الاختلاف بين القائمين بالحركة التي تهدم كثيرا ولا تتفق على خطط البناء •

وأحسن الطالب أيضا في التفرقة بين الحركتين ، لأن احداهما سياسية وهي الفوضوية ، والأخرى أخلاقية أدبية وهي الوجودية ، وما بينهما من التوافق العرضي فانما هو من طريق المصادفة السلبية ، حيث يتفق المنكرون للأسس القائمة في بعض الامور وان تفرقوا في الاسباب والأغراض •

بل تكاد الحركتان تتناقضان في مبدأ أصيل يميز كلا منهما ويرجع اليه الفارق الأكبر بينهما •

فالوجودية تعول على استقلال الفرد كل التعويل ، ولا وجودية في رأي من الآراء بغير هذا الاستقلال •

والحركة الكبرى من حركات الفوضوية ــ وهي المعروفة بالفوضوية الشيوعية ــ تخرج الفرد من حسابها وتكاد تمحوه في سبيل الجماعة ، ولم تنشأ الوجودية الا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردي في الحركات الاجتماعية ، ولا استثناء في ذلك للديمقراطية ولا للاشتراكية المعتدلة ولا لدعوات التأميم والخطط المرسومة لتنظيم العمل والثروة •

فالوجودية في ناحية من نواحيها الهامة احتجاج على الفوضوية كلها واحتجاج على الفوضوية الشيوعية قبل غيرها ، وما يتلاقيان فيه من انكار التسلط فانما هو مصادفة عرضية لا تلبث أن تبتدىء على اتفاق حتى تتشعب على شقاق ونضال • لأن انكار التسلط في الحركة الفوضوية

يحمل بين طواياه انكار المزايا الفردية ورد الأمر كله الى الجمهرة الغالبة بالعدد والكثرة دون القيمة والكفاية .

الا أن الحركتين تتشابهان في خصلة واحدة وهي أنهما معا غير مفهومتين على اتضاح وجلاء ، لكثرة الشعب التي تتفرع عليهما وكثرة الأدعياء الذين يلصقون بهما وكثرة الآخذين منهما بالقشور دون اللباب .

الفوضوية لا تنكر النظام :

فالذي يسبق الى الذهن من اسم الفوضوية ــ ولا سيما اسمها باللغة العربية ــ أنها تبطل النظام وتلغيه وتدعو الى مجتمع مطلق من الآداب لا نظام فيه .

وهذا غير صحيح .

لأن الفوضوية انما تنكر « التسلط » كما قال الطالب النجيب في خطابه ، ولكنها لا تنكر الهيئات التي تتولى الأعمال العامة بالمشاركة والمشاورة ، ولا تلغي هيئة واحدة لازمة للتعليم أو لصيانة الصحة أو لادارة المصانع أو لتوزيع المطالب والحاجات .

ودعوة برودون على الخصوص قائمة على لزوم هذه المصالح العامة واستغنائها عن « المتسلطين » الذين يعتمدون على القوة دون غيرها في تغليب مصلحتهم على سائر المصالح الاجتماعية .

وقد الف كتابه : « ما هي الملكية ؟ » ليقول انها هي السرقة ، ويقول من ثم ان اغتصاب السارقين للثروة المشتركة يضطرهم الى اغتصاب آخر لحفظ ما سرقوه في أيديهم وهو اغتصاب « السلطة » واحتكار الشريعة والقانون .

وعند برودون أن اغتصاب الملكية واغتصاب السلطة هما الباعث الأكبر على الجريمة والفساد ، فحيث لا اغتصاب لا اجرام ولا فساد ولا حاجة الى التسلط والمتسلطين .

وهذا الرأي قد بطل عند علماء السياسة وعلماء الاجتماع كما قال الطالب النجيب ، لأن الدراسات النفسية والمقارنات الاجتماعية بين المجتمعات الأولى والمجتمعات الحديثة قد عرفت الناس ببواعث الجريمة ولم تحصرها في البواعث الاقتصادية .

ولا تدعو الى القتل :

ومن الشائع على الفوضوية أنها تدعو الى القتل أو الى الاغتيال السياسي لتحقيق برنامجها .

وهذا أيضا من الاشاعات التي تصدق على نفر قليل من الفوضويين ولا تصدق على الحركة كلها ، وقد بدأ الاغتيال السياسي قبل عصر برودون وعاش بعده ولم يكن موقف الدعاة الكبار منه موقف التأييد والتقرير الا على سبيل الاغضاء والاضطرار .

والنفر القليل الذي يدين بالاغتيال السياسي بين الفوضويين يطلق على الاغتيال اسم « الدعاية بالفعل » أو الدعاية المثيرة ، ويعتقد أن حوادث الاغتيال تنبه الأذهان الى مقاصد الفوضوية فيتساءل عنها من يجهلها ولا يباليها ويفهمها الناس من طريق هذا التساؤل فيقبلون عليها .

وقد أنكر كروبتكين مبدأ الاغتيال السياسي في مقاله الذي استكتبته اياه دائرة المعارف البريطانية بطبعتها الحادية عشرة . وحاول أن يفسره بقوله انه من قبيل القصاص ورد الفعل للتنكيل بأصحاب هذه الحركة . وان المغتالين لا يعتدون على الناس جزافا بغير تفرقة بينهم لمجرد التنبيه ولفت الأنظار . ولكنهم يعتدون على المعتدين ويجزونهم بما فعلوه في حماية السلطة والقانون .

ثم نشأت في روسيا طائفة فوضوية اشتراكية تنادي بمقت الاغتيال وترى أنه من معوقات الدعوة والمنفرات منها . ولكنها لم تكن تشتد في ادانة المغتالين ولم يكن بينها وبين الشيوعيين فارق كبير في الوجهة الأخيرة.

فانما كان الفارق الجوهري بين الفوضوية والشيوعية أن الشيوعية ترضى عن قيام السلطة أثناء فترة الانتقال لقمع العناصر الرجعية ، وتمهل هــذه السلطة الموقوتة أن تذبل على شجرتها فتسقط بغير جهد من المجتمع لانتهاء الحاجة اليهـا .

ولا تنكر الاعتقــاد :

وليس من الصحيح أن الفوضويين جميعا ينكرون الاعتقاد ، أو ينكرون الديانة في صورة من صورها التقليدية أو المبتدعة .

فان الشعبة التي يقودها سوريل ويقترح فيها اقامة النقابات مقــام الحكومات تبني دعوتها كلها على العقيدة التي تسميها الـ myth وتؤمن بضرورتها لكل حركة انسانية .

وانما ينكر الفوضويون الديانات التي يتخذها المتسلطون ذريعــة للسيطرة على الضعفاء ، وهي من قبيل المذاهب التي قال عنها أبو العلاء :

انما هذه المذاهب أسباب   لجلب الدنيا الى الرؤساء

وليس برودون مؤسسها :

كذلك يقال دائما أن برودون هو أبو الفوضوية وصاحب الدعــوة الأولى اليهـا .

وهو قول صحيح اذا أريد بـه تنسيق الفلسفة وتطبيقها على النظم العصرية . ولكنه مع ذلك غير صحيح على اطلاقه في الزمن القديم أو في الزمــن الحديث .

فالفيلسوف الرواقي زينون الذي نشأ في القرن الرابع قبل الميــلاد كان يؤمن بالمجتمع المتحرر من السلطة ويفخر بأن تلاميذه يتعلمون منه أن يصنعوا طوعا ما يصنعه سائر الرعايا مكرهين أو مهددين .

والمفكر الانجليزي وليام جدوين Godwin الذي ظهر في القرن الثامن عشر شرح في كتابه عن « العدل السياسي » وسائل الحكم الذي

يتوزع بين الهيئات ولا ينحصر في سلطة مركزية تملك وسائل الارهـاب والاكـراه •

ويمكن أن يقال ان فلسفة الحكم منذ وجدت كانت تشتمل في كل عصر على مدرستين متقابلتين : مدرسة التوسع في سلطان الحكومة لتنظيم المجتمع ، ومدرسة التضييق من هذا السلطان والاكتفاء منه بأقل مـا يستطاع لحماية الأبرياء ، وليست الفوضوية الا تطرفا في هذه المدرسة الى أقصى اليسار ، يدعو اليه تطرف الاستبداد على النحو الذي كان عليه قبل الثورة الفرنسية •

الوجوديات :

أما الوجودية فالاضطراب في قواعدها أشد من الاضطراب في قواعد الفوضوية ، لأنها وجوديات كثيرة لا وجودية واحدة ، وربمـا تناقض الفيلسوفان الوجوديان في العصر الواحد والبلد الواحد كمـا يتناقض الايمان العميق والالحاد السافر ، أو كما يتناقض الزهد والاباحية ، ولعل الكثيرين لا يفهمون منها الا اللغط عن الأباحية الأخلاقية المنطلقة من جميع القيود ، فيقبلون عليها لأنها سند فلسفي يسوغون به ضعفهم وانحلالهم ، وهم يخجلون ــ أو ينبغي أن يخجلوا ــ من الضعف والانحلال بغير سند منسوب الى الفكر والفلسفة •

والأساس الصحيح الذي تقوم عليه الوجوديات السليمة هو انصاف ضمير الفرد من طغيان الجماعة على استقلاله ، ولكن الاستقلال كالمال يلزم الانسان لأغراض كثيرة ، فمنه ما يلزمه للعصمة من الزلل ، ومنه ما يلزمه للتورط في الزلل وتيسير الذرائع اليه •

وأسوأ الوجوديات الأباحية لا يسوغ الانطلاق من قيود الآداب بغير نظر الى العواقب والضحايا ، فاذا اختار الوجودي أن يستوفي كيانـه الفردي باشباع شهواته فهو حر في اختياره واحتمال جرائر هواه ، وهو حقيق أن يوازن بين الخطر والاحجام على علم بما يصيبه من المتعة ومـا

يصاب به من الأذى ، وتلك هي قيمة « الاختيار » الملائم في عرف هؤلاء الوجوديين •

أما المسوغ الفلسفي الذي يستند اليه الوجوديون الأباحيون فهو أسخف الاسناد الفلسفية التي ظهرت في عالم الفكر والعقيدة •

انهم يقولون ان الوجود الحقيقي هو وجود الفرد المعروف بشخصه وكيانه ، وانما النوع كلمة أو لفظة أو خيال لا جود له في غير التصور ، وليست « الانسانية » الا كلمة خاوية لا توجد بمعزل عن هذا الفرد وذاك الفرد أو هذا الانسان وذلك الانسان •

ومن هنا اسم الوجودية الذي ينتسبون اليه ويحسبونه تصويرا للواقع لا مراء فيه •

الا أن الواقع الذي لا مراء فيه أن النوع موجود في تركيب كل انسان وانسانة ، وانه ما من خلية في بنية الفرد لم يتمثل فيها النوع تمثيلا أوفى وأعمق من تمثيل الفرد ذاته بجميع خصائصه ومقوماته •

ولقد ثبت ثبوت اليقين أن قوام البنية مرتبط بالغدد الصماء وغير الصماء ، وأن علاقة هذه الغدد بالخصائص النوعية وثيقة جدا في عملها المنفصل وأعمالها التي تتعاون عليها •

واذا كان تمثيل النوع حيويا أو « بيولوجيا » حقيقة لا ريب فيها فالتمثيل النفساني أو السيكولوجي حقيقة تضارعها ثبوتا ويقينا ان لم تكن أبرز منها للوعي والشعور •

وعلى هذا لا يمكن أن يقال ان الفرد موجود حقيقي وان النوع وهم ليس له وجود لأننا لا نستطيع أن نتخيل فردا مجردا من الخصائص النوعية في كل خصلة من خصاله وكل خلجة من خلجات وعيه وشعوره ، ومن قال انه ينطلق على هواه ويمضي على رأسه غير مبال بمصير النوع الى الفناء فعليه قبل كل شيء ان يخرج من دعوى « الوجودية » الى دعوى « العدمية » ، لأن فلسفته تقوده الى فناء الفرد وفناء الانسانية ، حين يزعم

أنه يبالي بحاضره ولا يبالي بمصيره ولا بمصير الانسانية جمعاء •

وبعد فهذه الوجودية كلها شيء والمدارس الفوضوية كلها شيء آخر •

ان الوجودية لا تسري على الجماعة ولا تتجه اليها الا من طريق الاتجاه الى استقلال الفرد على حدة •

أما الفوضوية فهي جماعية قبل كل شيء ، وهي حركة سياسية لا تنظر الى الأفراد متفرقين ولا تبالي بهم مستقلين ، وكلهم سواء عندها في ظل النظام الذي لا سلطة للطغاة عليه ، واذا اتفق الوجوديون والفوضويون في كراهة التسلط فقد يتضارب الفريقان اذا كانت المسألة مسألة طغيان الجماعة لا مسألة الطغيان من أصحاب السلطان •

انا وجـودي :

وكاتب هذه السطور « وجودي » اذا كان معنى الوجودية انصاف الضمير الفردي وتقديس الانسان المستقل بفكره وخلقه • وعندنا أن الجماعة المثلى هي الجماعة التي تهيء للفرد غاية ما يستطاع من الكرامة والاستقلال ، وانها اذا توقف وجودها على فناء الفرد ومحو استقلاله جماعة جديرة بالفناء •

الا أن الوجودية التي تؤمن بوجود الفرد لينسى واجبه ولا يذكر غير هواه ليست في الحق الا عدمية باسمها وفعلها ، وهي من المفارقات والأغاليط بالنسبة الى الآحاد والى الأنواع والجماعات •

المدرسة الرمزية

والمدرسة الرمزية ــ كالوجودية ــ احدى المذاهب الصالحة التي قد يفسدها من يقولون بها أو يدعون اليها .

فهي صالحة اذا اعتبرنا ان الكلام كله رمز الى المعنى ، وأنه يتفاوت في الوضوح على حسب تفاوته في الالفة والجريان على الالسنة والتفاهم عليه بين المتخاطبين ، وقد يكون المعنى من نوادر الذهن فلا يكون له رمز شائع بين جميع المتخاطبين ، ويستلزم التعبير عنه أن يبتدع له صاحبه رمزا من عنده ، قد يكون من قبيل المجاز والكناية كما يكون من قبيل الخطاب الصريح .

* * *

والكلام عن المدرسة الرمزية في المقال التالي يرمي الى الفصل بين هذه الحدود ، ليلحق بمذاهب البناء أو مذاهب الهدم ما هو أدنى اليها من أساليب هذه الرموز .

(١) حب الازياء :

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوروبية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في أرجاء الغرب كله ، تصدر عنه الأزياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ؛ وكان لها الشأن ــ كل الشأن ــ يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضي فترة يسيرة من الزمن دون أن يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزي جديد ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الأدب

والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والأزياء • فلما بدأت نهضة الاحياء الحديثة باستيحاء الاساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طـلاب الجديد ريثما طال العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديـد • فتوالت الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسية الى المدرسة الرمزية ، الى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تـارة أخرى ، ولا تستقر طويلا على حال •

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الأزياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء والآراء ، وانما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قـــواه •

فلا تجد في غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الأدبية المتلاحقة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة •

المدرسة الرمزيـة

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الأعلام البارزة من أفذاذ الأدب المعدودين، وانما تجدها في بيئات الأوساط وأشباه الأوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع •

أما أعلام الأدب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من هذه الشارات ، واذا بدت على أحدهم مسحة من هذه الصبغة أو تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عـن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الازياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية أو لون البساطة ولون التنسيق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الاسماء •

(٢) ظهور الرمزية :

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على السنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المزوقة التي يوشك أن تتعدد بتعدد الآحاد . فأسلوب هوجو مجازي ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ؛ وأسلوب لامرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تتهامس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصداء .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ونزعت كلتاهما الى الأسلوب المدرسي البسيط ــ أسلوب اللاتين واليونان ــ ممزوجا بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة ، لأن أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليوناني القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان .

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « أن الفن للفن » بغير قصد آخر غير احكام التعبير وحسن الأداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الآخر ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان افراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين .

(٣) مسوغات الرمزية :

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الانسان ..

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو مارد مرهوب .

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز الى المعاني بالشخوص والرسوم ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لأنها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والألغاز ، لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز في التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح .

والنساك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة ايضاح .

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للألفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه .

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة كرمز الرياضيين والكيميين بالخطوط والنقط الى الأفلاك أو العناصر أو المقادير.

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكناية ، وهي حالة

الاضطرار والعجز عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح . ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج الى مدرسة تنبه الاذهان اليه.فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء ، والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثياب الأحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ، لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك أنه لا حاجة الى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية،ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الافراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وانه يفاجئنا احيانا بمعاني لا تترجم عنها الالفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير في النصف الأخير من القرن التاسع عشر،ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الاطراف الى الاطراف .

فالعالم الأوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي

نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الأول كان السلطان للكهنة ورجـال الديـن ، وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والآداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعـم أن العلـوم التجريبيةوحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الاسرار .

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الأطوار ، فثار المفكرون أنفسهم على العقلية Rationalism كما ثار الفنانون على الواقعية Realism ، وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يديـن بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الآداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهـور .

بل ظهروا « متأخرين » عن رواد هذا المذهب في الآداب الأوروبيـة الأخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الآداب .

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوي بين أرجاء القارة الأوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية الـى لغـة الأغوار والكنايات ، وكان كولردج وبرونتج وسوينبرن وتنيسون مـن أعلام الشعر الانجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكنايـة وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض . ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين، ليذكر أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة بين الآداب الأوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائغة مدعوة الى الظهور بدعوة التطور في التفكـير

والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الأساس الصحيح . وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا انه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها مرة وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا الى كل وضيع خليع، وأن يعتبروا التعمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغمض منهما على الأوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب الى البديهة وأثبت في الافهام .

وما هو الا أن تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعي الباطن » و «اللاوعي » المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة الى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز والألغاز بالألغاز وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الأغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء . فان الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، ومن شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا

حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين ــ حاملي القلم أو حاملي الريشة ــ بالتخمين والتجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعدون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه بالتدرب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة ــ ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات وأطيافا ــ تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ماشعر الانسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات الا حين أصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الأوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين .

المصير

تظهر هذه المجموعة من الأحاديث والفصول في وقت من الأوقات الحاسمة في تطور المذاهب الهدامة . لأنها تنتهي الآن الى مصيرها الأخير من ناحيته الأدبية ، ويبدو من بوادر كثيرة أنها منتهية لا محالة الى مصير كهذا المصير الأخير من ناحيتها الاجتماعية .

وكل ما ثبت من حق المذاهب الهدامة في الظهور من الناحية الاجتماعية أنها ظهرت في بلاد تقوضت نظمها العتيقة وتعذر بقاؤها لعجزها عن مواجهة الزمن ومطالبه ، فظهرت المذاهب الهدامة لأن النظم التي سبقتها لم يكن لها حق البقاء ، ولم تظهر لأنها هي ذات حق في البقاء ، ولم تبق بعد ذلك عاما واحدا الا بجهد جهيد في الترقيع والتعديل ، حتى أصبحت اليوم وليس فيها من قواعدها التي تدعي أنها قامت عليها غير العناوين .

فهم يعترفون اليوم في بلاد تلك المذاهب بالملكية الفردية ويفتحون الباب واسعا للتفاوت بين الأجور وأنماط المعيشة ، ويسمحون بتثمين الحاجيات على حسب العرض والطلب ، ويعرضون الكماليات التي تباع بالألوف ولا يطمع في اقتنائها أجير من عامة الصناع ، ومن رأى رؤساءهم في المحافل الدولية رآهم افخر بزة وأعظم ترفا من أقرانهم الوزراء والرؤساء في بلاد رأس المال .

وقد اعترفوا بالوطنية التي كانوا يحسبونها خدعة من خدع الطبقات المستغلة وتغاضوا أخيرا جدا عن المعابد والشعائر الدينية وبالغوا في تحيتها حيث نزلوا من بلاد الشعوب المتدينة ، ولا يستطيع من يرقب أحوالهم في بلادهم أن يزعم انهم يتقدمون في تطبيق الماركسية سنة بعد سنة ، بل

يعتقد انهم يرجعون بعد اربعين سنة عن مبدأ أو عن دعوى بعد دعوى • فلا تنقضي أربعون سنة أخرى الا وقد أصبحوا مع سائر الأمم على شقة متساوية بينهم وبين تلك الماركسية •

أما مذاهب الهدم التي شاعت في عالم الأدب والثقافة فلا حياة لهـا في مواطنهـــا •

ماتت الرمزيــة في الأدب الفرنسي ، وماتت قبــل ذلــك في الأدب الأمريكي الذي تظهر فيه أحيانا طائفة مــن الآراء عــلى سبيل المحاكــاة للمذاهب الأوربية ، ولكنها محدودة قليلة الأتباع •

ونحن لا نحسب جورج أورويل Orwell زعيم الرمزيين الأمريكيين واحدا من أدباء هذه المدرسة • لأن الأسلوب الرمزي أسلوب تعبير وليس بأسلوب تشخيص أو خلق للشخوص والأبطال • وقد اختار أورويل في بعض قصصه أن يجعل شخوصها من الحيوانات العجماء ، ولكنه ألقى الكلام على ألسنتها صريحا مستقيما كما يتكلم به الحيوان الناطق ، وليس هذا من الرمزية « التعبيرية » في شيء •

ولحقت الوجودية المريضة بالرمزية المتداعية الى هذا المصير ، فهي اليوم « اباحية » سافرة لا فرق بين من يتعاطونها وبين سائر الاباحيين في كل زمن ، وسقط عنها ذلك البرقع الذي كانت تتراءى من خلفه بوجه جديد•

ومنذ سنتين نسمع من جانب الأدبــاء الروسيين ثــورة علــى أدب « الصناعة » المصطنع الذي درجوا عليه كرها بتوجيه الرقابة وتحت الحظر من العقاب والمصادرة كلما بدرت من الادباء المنكودين بادرة استقــلال أو مخالفة في التطبيق والتنفيذ • وكتبت الشاعرة اولجا برجولتز تقول انها كانت تنشد بعض القصائد في جمع من « الصعاليك » فصاح بها صائح منهم : أسمعينا شيئا من الغزل شيئا من الغزل الانساني لا من الغزل في المكنــات والجرارات •

وقالت في حملتها التي شنتها على الأدب المصطنع علــى صفحــات

الجازيتة الأدبية : « ان أهم شيء في جوهر الأدب ناقص في أدبنا وهو عنصر الانسانية أو عنصر الكائن الآدمي • ولست أعني أن الكائنات الآدمية مهملة في أدبنا كل الاهمال ، فالواقع أننا نرى هناك نماذج شتى من السواقين والوقادين والبستانيين يوصفون أحيانا وصفا بارعا ولكنهم موصوفون أبدا من الخارج ولا يزال أهم الأشياء ناقصا في أشعارنا . وذلك هو البطل الغنائي العاطفي ذو العلاقة الفردية بالدنيا وبالطبيعة » •

وقد استجاب لها في حملتها شاعران نابهان وهما فردوسكي وقسطنطين بستوفسكي ومعهما اتحاد النقاد ، فأطبقوا جميعا على التذمر في المسرحيات « الملقنة والآداب الموحاة » •

واجترأت الشاعرة فيرا أنبار على التهكم من وصايا المربين الفنيين الذين يدعون لأنفسهم الخبرة بتدريب الناشئة من الطفولة على « الاندماج » في الحضارة العصرية ، فقالت « انهم يزعمون أن أغاني الأطفال توضع في الامم البرجوازية لينام عليها الطفل ولكنها في روسيا توضع لتوقظه وتقلق منامه » •

وكتب كبيرهم أهر نبورج يقول : « ان الكاتب المؤلف ليس بالآلة الميكانيكية ، وانه لا يؤلف كتابه لأنه يعرف صناعة الكتابة ولا لأنه عضو في مجمع كتاب السوفيت — يجوز أن يسألوه ما باله لم يؤلف كتابا منذ زمن بعيد ، ولكن الكاتب يؤلف لأنه يشعر بضرورة ابلاغ الناس شيئا من ذات نفسه ويلعجه هذا الشعور حتى يتخلص منه ••• »

هذه شرارة من الثأر الكامنة في الصدور ، تتطاير اليوم كلاما ولم تكن قبل ذلك خامدة أو منطفئة في قلوب المكتوين بها ، ولكنهم كانوا يعبرون عنها بما كان في وسعهم من ضروب التعبير الفاجع الأليم •

كانوا يعبرون عنها بالانتحار •

ولهذا مات ثلاثة من أكبر أدبائهم منتحرين قبل سن الخامسة والثلاثين ، وهم مايكوفسكي وايسنين وباجريتسكي ، ومات غيرهم ميتة

غامضة تحيط بها الشكوك ، ولم يعرف عن أحد من أدبائهم الموهوبين أنه جاوز الشباب في سلام •

وليس في الشرق العربي من يعرف هذه المذاهب على بصيرة بها أو عن استقلال بالرأي والشعور ، ولكنهم يلقنونها تلقينا « ببغاويا » أو يتهافتون عليها ولعا بكل غريب مجهول ؛ وقد تموت المذاهب في الغرب ولها في الشرق دعاة يهتفون لها ويترنمون بها ويشبهون في صيحات الاعجاب بها زميلهم الأصم الذي قيل في نوادر الاضاحيك أنهم أيقظوه بعد انقضاض السامر ؛ فهب من نومته مصفقا للمطرب المبدع ، بعد سكوته بساعات •

ولعل أناسا من الداعين الى أدب الحياة كما بشر به مايكوفسكي لم يقرأوه ولم يعلموا أنه انتحر هو وزميلاه من أدباء الحياة على هذا الطراز ، ولو انهم عملوا بذلك لما أقحموه في المقال[1] ليتخذوه قدوة لطلاب الحياة وأدب الحياة !

بل اليقين الذي لا شك فيه أنهم لا يقرأون ما ينتقدونه اذا جاز الشك في المامهم بنماذج الأدب « المقتدى به » على سنة الحياة والأحياء •

فقد ثاروا ، أو أثيروا ، على دعوتنا الأدبية لأنها جمود على القديم واستبقاء لميزان النقد كما غبر عليه المقلدون في عصور الضعف والانحلال ، وقالوا اننا ندين بوحدة البيت وتتغنى ببيت القصيد ونجهل وحدة القصيدة كلها كأنها « بنية حية » تحل فيها الأبيات محل الجوارح والأعضاء ، وأجمل ما يقال في الاعتذار لهم انهم مساكين لم يتعلموا القراءة قبل خروجهم من بطون امهاتهم منذ نيف واربعين سنة • والا لقرأوا يومئذ في عالم الغيب ما كتبناه نقدا لوحدة البيت أو نقدا لبيت القصيد !

وفيما يلي تسجيل لهذه الأعجوبة التي لا نظير لها في آداب الأمم ولا في أدب الأمة العربية من قديم الى حديث ، لأن هذه الأعجوبة ظاهرة

---

(١) يشير الى مقال من مقالات لمحمود امين العالم وعبد العظيم انيس جمعت في كتاب « في الثقافة المصرية » •

منقطعة عن الأدب كل الانقطاع، معزولة عما يقال انه جيد معبر عن الحياة وما يقال انه رديء جامد على القديم ، ولولا أن هذه الأعجوبة ظاهرة فريدة في بابها لما استحقت أن تذكر ولا أن يكون لها موضع في تاريخ النقد والأدب، وانما تسجل لأنها أول تزييف من نوعه للداعوت الأدبية في لغة من اللغات، وقديما كان تزييف الذهب بالنحاس وتزييف الذهب بخليط من المعدن كيف كان . فأما تزييف الذهب بالحصى أو بالتراب فمن أعاجيب الزمن التي لا تقع في حساب . وهل قامت قط دعوة ادبية تنكر ما لم تقرأه وتنتقد ما لم تقرأه وتبلغ من الغفلة ان تداري ما وراءها بمثل هذا الغشاء ، ولا غشاء !

* * *

وهذه القصة بالتمام والكمال كما سجلناها منذ عام في هذا المقال .

شيء من هذا ، بل أغرب من هذا قيل عن كاتب هذه السطور وهو أنني جامد على مذهب الأقدمين في نقد الشعر والأدب ، وأنني لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية في الكتابة ، وخير من الاستطراد في الحكاية عن هؤلاء القائلين أن ننقل هنا كلامهم كما قالوه . قالوا أفادهم الله :

« نجد هذا في الحكم النقدي وفي التعبير الأدبي نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتا من الشعر أبلغ ما قالته العرب وبيتا آخر أهجى ما قالته العرب ، والى غير ذلك من أفعال التفضيل، لا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد او البيت المنفرد لما فيه من اسلوب رائق ومعنى شائق.. فالعقاد مثلا يترنم بهذا البيت :

وتلفتت عيني فمذ خفيت   عني الطلول تلفت القلب

فلا يلبث أن يقرر أنه يساوي عنده ألف قصيدة . لماذا ، لأن العقاد مثله في ذلك مثل بقية أدبائنا القدامى ، لا يبصر بالظاهرة الأدبية في الوحدة

العضوية المتكاملة للعمل الأدبي وانما في البيت ، في المعنى ، في النادرة اللطيفة ، في العبارة المفردة » .

أعلمت ايها القارىء اذن ما هو مذهب العقاد.. ؟ مذهبه في الأدب انه هو ذلك الخلط الذي قضى حياته ينحي عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته .

من سنة ١٩٠٩ :

ان قراءنا كادوا يتهموننا باللت والعجن بل بالافراط في اللت والعجن، لكثرة ما كتبناه في هذا المعنى منذ نيف وأربعين سنة .

منذ حملنا القلم في الصحافة ونحن نكتب ونعيد أن القصيدة بنية كاملة وأن الاعجاب ببيت القصيد جهل بالشعر والأدب وميزان في النقد يجب أن نحطمه ونعفي عليه .

وفي سنة ١٩٠٩ نشر حافظ ابراهيم قصيدته التي يقول في مطلعها :

لقد نصل الدجى فمتى تنام ... أهم ذاد نومك أم هيام

فكتبنا في صحيفة الدستور ما خلاصته أنه أخذ قطعة من الحرير وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان ، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ، ولكنها اذا اجمعت على كساء واحد فتلك هي « مرقعية الدراويش » .

وفي سنة ١٩٢١ أصدرنا كتابا مستقلا لنقد الشعر الذي لا تلاحظ فيه بنية القصيدة ، وقلنا في الصفحة السابعة والأربعين من ذلك الكتاب، كتاب الديوان :

« ... ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها ، فيقولون أفخر بيت واغزل بيت واشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأنما الأبيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها » .

وقلنا قبل ذلك ان القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز أجهزته ولا يغني عنه غيره في موضعه الا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة ، أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها » .

وختمنا هذا البحث قائلين : « اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة ... »

الى سنة ١٩٢٨ :

وكتبنا في البلاغ سنة ١٩٢٨ جوابا عن سؤال من الأستاذ عبده حسن الزيات عن الفرق بين الشعر العربي القديم والشعر الانجليزي على عمومه فقلنا بعد شرح طويل :

« ... ومن هنا كانت وحدةالشعر عندنا البيت وكانت وحدته عندهم القصيدة . فالأبيات العربية طفرة بعد طفرة والأبيات الانجليزية موجة تدخل في موجة لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض » .

وقد طبعت هذه المقالة مع ثماني مقالات من قبيلها حتى الآن ثلاث طبعات .

الى سنة ١٩٣٠ :

وفي سنة ١٩٣٠ ألفنا كتابا عن ابن الرومي خصيصا لشرح الأسباب التي تدعونا الى الاعجاب به وأولها أنه أقرب الشعراء الأقدمين الى المذهب الذي نختاره وأن عصره أول العصور التي فطنت لتجديد الشعر على هذا الأسلوب .

واستشهدنا في الصفحة السادسة والأربعين بكلام الحاتمي حيث يقول :

« مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى

انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالمه ... »

ثم استقصينا الشواهد من قصائد ابن الرومي وعقبنا عليها في الصفحة الـ (٣١٦) فقلنا :

« ان العلامات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه ، وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم ، وجعلوا القصيدة أبياتا متفرقة يضمها سمط واحد قل أن يتوالى فيه النسق تواليا يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير ، فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة كلا واحدا لا يتم الا بتمام المعنى الذي اراده على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » .

الى سنة ١٩٤٧ :

وفي سنة ١٩٤٧ كتبنا في مجلة الكتاب خلاصة شروط الشعر الحسن فعددنا في أولها أن الشعر قيمة انسانية وليس بقيمة لسانية ، ثم قلنا : « ان القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد . فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الأبيات فيه ولا تحس منه تغييرا في قصد الشاعر ومعناه ».

وهذه المزية خاصة هي المزية التي شرحناها وكررناها وعدنا اليها خلال هذه السنوات في مقالات متفرقة ، وتداولها القراء في كتب متوالية أعيد طبعها ثلاث مرات وأربع مرات . ومنها كتاب أعيد طبعه بعد أسبوع واحد وهو كتاب الديوان ، ولم يسبق لكتاب عربي حديث مثل هذا الذيوع والانتشار .

الادب للمجتمع قبل ربع قرن :

وقبل ربع قرن ــ أي قبل أن يعرف الأدعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع ــ كنا نكتب فنقول ان آفة الأدب المصري أنه يعيش بمعزل عن الأمة ، ومن ذلك ما كتبناه بالبلاغ في سنة ١٩٢٧ فقلنا : « ان العزلة بين الشعب والحكومة ، والفوارق الدائمة بين الحياة القومية والحياة الرسمية هي علة الجدب الغريب الذي يلاحظ على آداب مصر الرسمية ، أي الآداب التي تجري على تقاليد الحاكمين والرواة في العصرين القديم والحديث » .

كتبنا هذا ورددناه ولا نزال نردده ونعني به حين نذكر الشعب أنه مجموعة من النفوس والضمائر والأذواق والأخلاق وليس كما يريده الماديون الحيوانيون مجموعة من البطون والجلود وكفى » .

وبعد تسجيل هذه الأعجوبة نستطيع أن نسجل معها بحمد الله أن أدب مصر برىء من لوثة المذاهب الدخيلة ، لأن النقد الذي يستوحي تلك المذاهب لم يصدر قط من وحي بديهتها ، ولم يعتمد قط على سند صحيح في موازين التقدير على نوعيه ، من تقدير استحسان واقتداء أو تقدير استهجان وتفنيد .

ولن يضير الأدب المصري في لبابه أن يلصق بــه أنــاس يستوحون المذاهب الدخيلة ولعا بالغريب أو مجاراة للاغراء والترغيب ، ونرجو ألا يضيره الأدب المصطنع عند أصحاب جرثومته الكبرى أو أصحاب مذاهبه الهدامة ، لأنها تنهدم على قواعدها في صميم بلادها ، وما تهدم منها ركن قائم الا كان في انهدامه بشير بالعمار والسلام .

عباس محمود
العقاد

لا شيوعية ولا استعمار

دار الكتاب اللبناني - بيروت

لا شيوعية ولا استعمار

عنوان هذا الكتاب هو خلاصة موضوعة في أربع كلمات ، وهو النتيجة التي ينتهي اليها البحث في الكتاب . فموقف الشرقيين بين الشيوعية وبين الاستعمار انه لا شيوعية ولا استعمار .

ولمن شاء ان يوازن بين الخطرين ، ولكن الموازنة بينهما ليست من أغراض هذه الرسالة . فكلاهما خطر وكلاهما حقيق بالحذر والاجتناب ، وقد يشتد الخطر من مرض ويهون الخطر من مرض ، ولكن الطب لا يبحث الامراض ليوازن بينها وان عرف مبلغ الخطر من كل منها ، وانما يبحث الأمراض ليمنعها جميعا ويعالج كلا منها بالعلاج الذي يناسبه ويحتاط لكل منها بالحيطة التي تدفعه ، ومن كان يعلم ان الزكام اهون شرا من السرطان فهو لا يعلم هذا العلم ليختار الزكام ويدفع السرطان . اذ لا يصاب المريض بالداء الا على اضطرار لا خيرة فيه .

ولا حيلة بين مصيبتين ، ولا انصاف في الموازنة بين شرين . فان الحيدة والانصاف عمل القضاء الذي يتساوى لديه الطرفان ، وأما المهدد بالمصاب فلا حيلة له فيما يهدده غير العداء والمقاومة . فان فعل غير ذلك فهو واقف من الشر موقف الغريب ، بل هو واقف موقف الغريب من نفسه ومن وجوده ، كأنه ينظر الى وجود لا يعنيه .

قلت في مقدمة كتابي عن هتلر : « في هذا الكتاب ما أنا بقاض ولا يسرني أن أكونه ، لانني لا احسن التسوية بين الخصمين في قضية الطغيان والحرية الانسانية ، وأحمد الله انني خصم قديم فيها منذ نيف وثلاثين سنة »

وأكرر في الكلام على الشيوعية والاستعمار ما قلته عن النازية ودين الغصب

والقسوة . فلا قضاء هنا بل عداء . ومن كان يعلم الشيوعية والاستعمار حق العلم ثم ينظر اليهما نظرة الغريب الذي لا يعنيه أمرهما فهو مجرم ومن كان يجهلهما فهو أحجى الا يقف منهما موقف القضاء ولا موقف العداء .

***

ويأبى علينا الموازنة بين الشيوعية والاستعمار شيء آخر ، وهو ان الشيوعية استعمار يحيط بعيوب الاستعمار كله ، وليس استعمارها طارئا من طوارئ الضرورة الموقوتة تخضع له اليوم وتنبذه بعد فترة تقصر او تطول . بل هو أساس من أسس المذهب الشيوعي لا فكاك منه في أول الطريق ولا في آخر الطريق ، فانه المذهب الذي يقرر لأصحابه أن السيطرة على ثروة الأمة شرط لازم للسيطرة على أزمة السياسة فيها ، فمن رفع يديه عن ثروة بلد من البلدان فلا بقاء لسلطانه فيه !

فالشيوعية والاستعمار ـ من ثم ـ لا يتناقضان ولا موازنة بينهما على هذا الاعتبار ، واذا جاز أن تنعقد الموازنة فانما تكون بين جهد الكفاح للشيوعية وجهد الكفاح للاستعمار ، أو بين الخطر المقبل والخطر المدبر ، وسيكون هذا مدار البحث في الفصول التالية لينتهي الى نتيجة واحدة وهي أننا لا نختار في مقاومة الخطرين الا بمقدار ما نستعد للمقاومة بسلاحها النافذ في جميع الأحوال .

عباس محمود العقاد

الجزء الأول
لا شيوعية

* الشيوعية من الوجهة العلمية
* قيصرية
* واستبداد
* وعنصرية
* مع العالم
* اكثر من دعوة وأكثر من دولة

الشيوعية من الوجهة العلمية

كان الشيوعيون يسمون مذهبهم بالفلسفة المادية ، أو بالاشتراكية العلمية ، أو بالاشتراكية التقدمية ، ويريدون بذلك أن يميزوا فلسفتهم من الفلسفات التي تقوم على المبادئ الروحية أو تبني الاشتراكية على الدين والعاطفة وترجع بها الى قواعد الأخلاق المقررة في العرف والعقيدة .

وكانت هذه الأسماء تسوغ في الاسماع عند المناداة بها في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، قبل أكثر من مائة سنة .

كانوا يومئذ يحسبون أن « المادة » شيء ملموس مفهوم غني عن التفسير صالح لتفسير كل شيء بحقائقه ومقاييسه .

وكانوا يومئذ يظنون ان العلم قادر على كل معضلة ، كاشف لكل سر ، واصل الى كل حقيقة .

وكانوا يومئذ ينكرون العاطفة الانسانية والمطالب المثالية ، كأنها ضلالة مسلمة لا تكون حيثما كانت الا مناقضة للعقل والرأي القويم ، مسترسلة مع الأهواء الكاذبة والأوهام الخادعة .

وكل أولئك اليوم سخف لا يستند اليه صاحب رأي ولا يقنع أحدا من الماديين أو المثاليين .

فالمادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهي من باب أولى لا تفسر ما عداها ولا تزال سرا من الاسرار يتطلب منا الفهم ولا يدنينا من فهم غيره .

كان « المادي » قبل مائة سنة يخبط الأرض بقدمه ويقول : « هذه هي الحقيقة التي تستند اليها ، وأما ما عداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية فهي خيال او ضلال » .

فاليوم يعلم أن مادة الأرض التي يخبطها بقدمه أبعد حقيقة وأعسر فهما من كل ما يقال عن الروحيات والمثاليات .

ما هي هذه المادة ؟ هل هي لون ؟ هل هي جسم ؟ هل هي ثقل ؟ هل هي امتداد ؟

لا . . ان اللون عارض من عوارض النور والنظر يتغير على حسب الاضاءة وعلى حسب العين التي تراه .

والجسم كله ذرات تنشق فتتحول الى اهتزاز في الأثير ، ولا يدري أحد ما هو الاثير ، لأنه شيء لا طعم له ولا جرم ولا حركة ولا فرق في المدلول عند عارفيه بين كلمة الاثير وكلمة الفضاء .

والثقل لا وجود له خارج نطاق الجاذبية ، والامتداد شيء لا يفهم لأنه لا يتناهى في القصر ولا يتناهى في الطول ، سواء نظرنا الى امتداد الزمن أو امتداد المكان .

فالمادة أخفى من الروح .

والفيلسوف الذي يدق الأرض بقدمه ويتوهم أنه وضعها على حقيقة الحقائق ليس له رأس أصح من تلك القدم في فهم حقائق الأشياء .

أما « العلم » فقد ذهبت عنه فتنة الغرور الاولى واضطر - راغما - الى التواضع في دعواه ، فغاية ما يدعيه اليوم أنه يصف ويسجل ، وان مجموعة العلم كله انما هي مجموعة علوم وتسجيلات ، وأن ما كان يعرفه علماء العصر الذي نشأت فيه الاشتراكية العلمية لا يفسر ظاهرة واحدة من ظواهر زمنه فضلا عن تفسير الظواهر الطبيعية والتاريخية والنفسية عامة تامة من مبدأ الخليقة الى اخر الزمان .

أما الزراية بالعاطفة الانسانية فيقابلها في العصر الحاضر افراط في التعويل على خفاياها وتخريجاتها ، ودراسة لكل سر بمسبار العاطفة حتى « الفلسفة المادية » وبواعثها من نفوس الماديين .

* * *

ولا محل لبيان التناقض بين دعوى « التقدمية » وبين الرجوع في كل رأي الى فكرة انسان عاش في أوائل القرن التاسع عشر ، كائنا ما كان نصيبه من العلم والذكاء .

وقد يجوز قبل مائة سنة أن يقال عن دعاوى الفلسفة المادية أنهـا مقـررات علمية تنظر الى الوقائع المحسوسة ، ولا تنبىء عن نتيجة من نتاج الاطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التي لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين

فلعل هذا كان جائزا قبل مائة سنة . . . أما اليوم فكل الحقائق المحسوسة التي أنبأ بها كارل ماركس فهي أباطيل محسوسة لا يمتري فيها ماديان ولا مثاليان .

كان يقول ان أمم الصناعة الكبرى هي الأمم المعرضة لظهور الشيوعية فيها ، فاذا بالأمر ينقلب من النقيض الى النقيض ، واذا بالشيوعية تظهر بين الأمم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى .

وكان يقول ان الغاء رأس المال يقضي على أسباب الاستبداد ويمنع تعدد الطبقات ، فاذا بالغاء رأس المال في روسيا ينتهي الى استبداد يتحكم في السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم في الأرواح والأقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام أقوى من الطبقة المعاصرة لها في كل أمة من أمم رأس المال .

وكان يقول ان الثروة تتجمع ولا تتوزع ، فاذا هي تتوزع وتنتشر حتى يعد الشركاء في المصنع الواحد بالألوف .

وكان يقول ان المطبعة والورق والبارود والمدن التجارية هي عوامل التاريخ في الحضارة الاوربية ، فاذا بهذه العوامل جميعا قد وجدت في الصين قبل وجودها في الغرب بألفي سنة ، وبين حضارة الصين وحضارة الغرب أبعد ما يكون من فارق بين حضارتين .

كذلك لم يظهر من حركات الشيوعية في العصر الحديث أنها حركات خاصة بالصناعة الكبرى او بحالة دون غيرها من الحالات الاقتصادية او الاجتماعية ، فان هذه الحركات قد ظهرت بين زراع سبرطة وبين عمال رومة وبين طوائف الزنج في البصرة ، ولم يكن لها من سبب في جميع هذه الحالات الا ازدحام المتذمرين في مكان واحد واغتنامهم للفرصة من ضعف الدولة على اثر هزيمة

حربية او كارثة داخلية . فما حدث في روسيا بعد الحرب العالمية الاولى كان يصح ان يحدث فيها قبل ألف سنة كما حدث في غيرها ، وما كان حدوثه في روسيا لأنها بلاد صناعية ، ولا لأنها تطورت بالأطوار الاجتماعية التي قررتها الفلسفة المادية ، ولكنه حدث لأن الجيوش المنهزمة ثارت فاستولت على زمام الثورة فيها طائفة منظمة كالطائفة التي استولت على حركات النازيين والفاشيين بين الألمان والايطاليين .

ونكاد نعتقد أن حركات الثورة التي نشبت في روسيا وما ماثلها كانت تنشب فيها بعنوان من العناوين غير الشيوعية ، لو لم يولد كارل ماركس ولم ينتشر بين أتباعه مذهب يسمى بالفلسفة المادية أو الاشتراكية العلمية . فما كان حتماً لزاما ان يشيع في روسيا مذهب رجل ولد في ألمانيا ودرس مذهبه في انجلترا وجمع مؤتمراته في سويسرة أو بلجيكا أو بلاد الشمال ، وكل عنوان صالح لالصاق اسمه بالحركة الثورية متى هزلت الحكومة وتجمع الثوار متمردون في مكان واحد فاذا كانت للشيوعية مزية في هذا الباب على سائر الدعوات فمزيتها أنها غنية عن المجهود العقلي في اقناع المتمردين المتذمرين بالاستماع اليها ، فانه ما من مذهب من المذاهب الثورية الا وهو في حاجة الى بعض المجهود العقلي لتعليم المبادئ وبث العقائد وتقرير الآراء الا الشيوعية . . . فهي على نقيض ذلك لا تحتاج الى مجهود للاقناع بل الى اسقاط كل مجهود وأعفاء الذهن من كل اقناع ، فلا وازع ولا عرف ولا رياضة للفكر أو للخلق على سنة متبعة ولا مبدأ مرعي ولا صفة مطلوبة . بل المطلوب كله نكسة الى حالة البهيمية السائمة أو الى شر من حالة البهيمية السائمة ، لان البهيم في القطيع يدين ببعض الموانع ويحجم عن بعض الدوافع ، وليس للشيوعي مانع يمنعه ولا دافع يحجم عنه ، الا أن يكون مانع القيد ودافع السوط والعصا .

والمجتمعات الانسانية منذ كان لها نظام متبع في عهد القبيلة تنشئ العادات والشرائع وتروض النفوس على سنن الأخلاق والآداب ، وتهديها الفطرة الى ضرورة الوازع لجمحات الجهل والشباب ، وتنقضي الأحقاب بعد الأحقاب ولا يزال الجهل والشباب بحاجة الى وازع جديد يعزز ما تقادم عليه العهد من وازع قديم . وهذا هو العمل الانساني الدائم الذي لا يستغني عن جهد العقول ورياضة النفوس ، وهذا هو السد الذي يصد التيار الجارف ويسوسه للري

والخصب بدلا من اطلاقه للخراب والبوار . وما من مذهب من مذاهب الثورة والاصلاح يستغني عن رياضة ذلك التيار بشيء من التوجيه والتنظيم ، الا الشيوعية التي تعلن أن الخراب مطلوب وأن الوازع مكروه ، وأن الجهل والشباب معاً لا يحتاجان الى وازع ولا رياضة ، ولا يمنعهما مانع أن يستبيحا كل محظور .

ما حاجة هذا المذهب الى مجهود ؟ انما يحتاج الى اعفاء النفس من كل مجهود ، ولا صعوبة في ذلك على مخلوق جاهل مغلوب على هواه .

فالشيوعية هي مذهب الطفل الممسوخ الذي نفهم ان الذنب على أبويه وعلى البيت وعلى المدرسة وعلى الامة وعلى الخلق والخالق ، ولكنه هو ذنب له في أمر من الامور ، ولا حرج عليه أن يقعد عن كل عمل ويكسل عن كل واجب ويطالب بكل حق ، ويسيء الى كل انسان .

والشيوعية هي بالايجاز « أفيون الشعوب » الرخيص وخمرتها المبذولة ، يبلغ من سخفها أنها تصم الدين بهذه الوصمة وتذهل عن حقيقتها هي عن غباء مفرط أو عن لجاجة في المكابرة والانكار : « وهذا القول الهراء عن الدين آخر وصف يمكن أن ينطبق عليه وأول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه .فالشعور بالمسؤولية والمسكرات نقيضان، وما من دين الا وهو يوقظ في نفس المتدين شعورا حاضرا بالمسؤولية في السر والعلانية ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ويوحي الى الفقراء والاغنياء على السواء أنهم لن يستحقوا أجرا بغير عمل وبغير جزاء . وشتان هذا وقول القائلين ان الدين يخدر المرء كما تخدره المسكرات وعقاقير الافيون . انما المسكر حقا هو مذهب كارل ماركس من جميع نواحيه ، لأنه يرفع عن الضمير شعوره بالمسؤولية ويغريه بالتطاول والبذاء على ذوي الاقدار والعظماء . انه يرفع عن الضمير شعوره بالمسؤولية لانه يلقي بالمسؤوليات كلها على المجتمع ويقول ويعيد للعجزة وذوي الجرائم والآثام أنهم ضحاياه المظلومون وان التبعة كلها في عجزهم واجرامهم واقعة عليه ، ويتمم عمل السكر بحذافيره حين يطلق ألسنتهم بالاتهام على كل ذي شأن ينظرون اليه نظرة الحسد والضغينة ويعز عليهم أن يساووه بالعزيمة والاجتهاد . ولو أنك نظرت الى فعل السكرة في

المخمور لم تجد لها في نفسه شهوة تستهويه غير هذا الشعور باسقاط المسؤولية وهذا التطاول على أعظم عظيم كما يقول كل سكران غابت به السكرة عن حقائق الاشياء وما كان للماركسية من سحر يستهوي السفلة اليه غير هذا السحر الذي يبذلون فيه الدراهم ويجدونه في الماركسية جمعا بغير ثمن ، وعليه المزيد من التغرير بالعقول ، وشفاء أدواء الحسد والانتقام[1] » .

* * *

ومن الخطأ المتواتر ان يقال أن الشيوعية مذهب الطبقة العاملة أو الطبقة الفقيرة . لأنها في لبابها مذهب طباع وأخلاق يتقبله كل من تلوثت طبائعه بلوثة اللؤم والانانية وأسقط عن نفسه تبعة العمل ومؤونة التكليف وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس ، ولا يتقبل الشيوعية فقير محروم برئت نفسه من هذه اللوثة واستقر في طبعه صدق الايمان بالجد والكفاية ، وانما يتقبلها المحروم اذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل وسولت له الانانية أن يطمع في جميع الحقوق ويسقط عن كاهله جميل الفروض والتكاليف ، ومن كان كذلك من الاغنياء فهو شيوعي واذا لم يكن من العاملين باليد أو من ضحايا الحرمان .

وقد أسس الشيوعية اثنان لم يكونا من أبناء الطبقة العاملة ولا الطبقة الفقيرة . فكارل ماركس من الطبقة الوسطى وفردريك انجلز من الطبقة الغنية ، ولكنهما من المستعدين للشيوعية بالطباع والاخلاق ، وكلاهما نموذج للطبع الممسوخ في اتجاهين متقابلين .

كان كارل ماركس كما يقول أبوه « أنانيا » لا يربطه بأسرته الا اعتقاده أنها « مخلوقة من الذهب » تعطيه منه كل ما يبتغيه ، وكانت أمه تقول له انها تخشى أن يظل طوال عمره عالة عليها ، وكان صديقه وصفيه « انجلز » يصفه بجمود العاطفة وحب التعالي على أصحابه بهذا الجمود ، وعاش داعية « العمل » زهاء ثلاثين عاما لم يعمل فيها ما يكفي لقوته عاما او بعض عام .

ولم يكن انجلز عالة على الناس في رزقه ولا احتاج ان يكون عالة عليهم في

---

(١) من كتاب « افيون الشعوب » للمؤلف

أمر من أمور المعاش ، ولكنه كان عالة عليهم بطبع مؤنث مدخول يلقي زمامه لكل من عاشره ولو كان من النساء ، ويحب الثورة كما تحب الطبائع المؤنثة مناظر العنف وسورة الغضب والهياج .

وأقطاب الشيوعية من تلاميذ ماركس وانجلز يجذبهم الى « المذهب » طبع فاسد قبل أن يجذبهم اليها رزق محدود أو عيش مكدود . كان لينين في طفولته يتلهى بكسر أجنحة الطير وتهشيم الحيوانات الاليفة ويقول في شرح برنامجه مع مخالفيه أن أسلوبه معهم أسلوب السحق والابادة ولا شأن له معهم بالمناقشة والاقناع ، ويكتب الى صاحبه جوركي فيقول ان فناء ثلث العالم الانساني لا يعنيه وانما يعنيه أن تستقر الشيوعية على أساس .

وكان ستالين مجرما مشوه الخلق لا يتورع أن يرمي مركبة البريد بالقذيفة المتفجرة ليسطو على مرتبات الموظفين المنقولة فيها ، ويقضي صباه بين التجسس للقيصر والحماسة للثورة ، ثم يتولى الحكم فيبيد من أساتذته وزملائه أضعاف من أبادهم القياصرة من آل رومانوف .

***

وباب النجاة من وباء الشيوعية فيما نعتقد أنها مذهب لا يقوم على آرائه ولا على أخلاقه مجتمع صالح للبقاء والتعمير . اذ كانت في صميمها « سلبية » هادمة لا يقام عليها بناء من مادتها ولا تصلح مادتها بحال من الاحوال للبناء . ولو خلص المجتمع الروسي ـ بعد الثورة ـ للشيوعية على حقيقتها لما تماسك ولا انتظم خلال هذه السنين الاربعين ، وانما يتماسك المجتمع وينتظم هناك بمقدار المخالفة بينه وبين الشيوعية لا بمقدار المطابقة والتوفيق . فكل ما قامت الشيوعية لهدمه فهو موجود يتمكن مع الزمن ولا يؤذن بالزوال . ونظام « رأس المال » لم يتغير منه الا أن رؤوس الاموال بحذافيرها قد اجتمعت في أيدي الدولة فتولت ادارتها لتثبيت أقدامها على الرغم من مشيئة كل ذي مشيئة في البلاد ، ولا عبرة بمن يعيشون ويموتون في كل وطن منساقين منقادين بغير مشيئة للموافقة ولا للانكار . . . فأمثال هؤلاء سواء في طاعة السادة من الشيوعيين والسادة من الفاشيين والنازيين وأصحاب رؤوس الاموال ، ولا يعدم نظام رأس المال طاعة كطاعتهم في مجتمعات الحرية او مجتمعات الاستبداد .

ولا مذهب الآن بعد الايغال في الابتعاد عنه كلما استحال تطبيقه على مبادئه النظرية ، بل تقوم الدولة اليوم مقام المذهب وتود لو تخلصت منه ما استطاعت ، ولكنها لا تستطيع . لان بقاء المذهب هو حجة البقاء للدولة وحجة النظام الذي تستند اليه . وهذه هي « النقيضة » التي ستقضي على المذهب او على الدولة في النهاية ، فلا بقاء لهما مجتمعين .

يقول الماركسيون ان نظام « رأس المال » نظام تقضي عليه نقائضه التي لا تقبل التوفيق .

ونقائض رأس المال لم تقض عليه حتى الآن ، ولكن الخلاص من نقائض الشيوعية يجشمها من متاعب الحيرة ما لم يتجشم رأس المال .

فالسلام في العالم جو لا تعيش فيه الشيوعية لان طلب القرار وطلب الفتنة نقيضان .

والسلام في العالم حالة لا تستغني عنها الدولة لأنها لا تقوى على محاربة العالم بمذهب يفقد حجته في بلادها ، ولا يستطيع أن يخلق له حجة غالبة في خارجها .

لا أمان مع السلام ولا بغير السلام .

ولا بد في النهاية من زوال المذهب أو زوال الدولة .

وقد زال نصف المذهب الى الآن ، وما بقي منه فالدولة حائرة فيه ! هل تتشبث به وتبقيه أو تتخلص منه وتلغيه ؟

قيصرية

تنسب القيصرية الى قياصرة الروس ، ويراد بها في العرف السياسي كل حكم يتغلب فيه حب التسلط وتوسيع الدولة واعتبار السيادة الحكومية سيادة شخصية ينفرد بها صاحب الامر ولا يتقيد فيها بالشورى ولا بشعور المحكومين .

وتوصف « روسيا الحمراء » بأنها دولة قيصرية لا تزال كما كانت في أيام القياصرة على سبيل المشابهة بين العهدين في جمع هذه الخلال ، ولكن التشبيه أحرى أن ينقلب عند المقارنة بين القيصرية والشيوعية ، فلا تكون القيصرية مضرب المثل في مظاهر التسلط وتوسيع الملك واستبداد الحاكم بأمره في شؤون الدولة ، بل تكون الشيوعية هي مضرب المثل في جميع هذه الخلال .

ذلك أن الدولة القيصرية لم تبلغ في عهد من عهودها المظلمة مبلغ الدولة الشيوعية في كثرة البلاد التي تحكمها ، ورهبة الجبروت على محكوميها واستطاعة الحاكم فيها أن يصنع بالارواح والاموال ما بدا له ، متسترا بنصوص القوانين أو مستبدا بالرأي جهرة غير مكترث لنص أو لقانون .

فأوسع القياصرة ملكا لم يزد ملكه على نصف البلاد التي تشملها الدولة الشيوعية اليوم من أواسط اوربة الى شواطئ المحيط الهادي في آسيا الشرقية ، ولا يدخل فيها تعداد البلاد التي يحاولون أن يحكموها ويتسلطوا على حكوماتها وشعوبها بالطوابير الخامسة والمؤامرات المتفق عليها بين حكام الكرملين وحكامها المحليين .

وربما خضعت للقياصرة بلاد لا تميزها صفة من صفات الاستقلال السياسي التي اصطلح عليها فقهاء العلوم السياسية في العصر الحديث ، فهي بلاد تابعة للقيصر خاضعة لعرشه وكفى . الا اننا اذا نظرنا للواقع رأينا أن الخانات الوطنيين في تلك البلاد كانوا على نصيب من الاستقلال الواقعي أوفر من نصيب

الامم الحديثة التي تخضع للدولة الشيوعية ، وأن القيصر القديم لم يكن في وسعه أن يتعرض لتفصيلات الحكم في الشعوب التي تدين بالطاعة لخاناتها الوطنيين ، لأنها فيما عدا الشؤون الخارجية وحصة الاتاوة المفروضة على البلد لم تكن تشعر بحكومة غير حكومة الخان ، ولم يكن قيصر الروس عندها الا شبحا مرهوبا من بعيد .

وعلى غير هذه الحالة تقوم العلاقة بين القيصرية الحديثة والبلاد التي خضعت لسلطانها ، على تعدد العناوين المصطلح عليها في عرف فقهاء السياسة .

وقد تنقسم البلاد الخاضعة للقيصرية الحديثة الى قسمين : قسم مستقل صاحب سيادة يسمى بالملحقات أو بالكواكب التي تدور في فلك الدولة « Satellites » .

وقسم آخر داخل في اتحاد الجمهورية الشيوعية على درجات من الحكم الذاتي وحرية التصرف في العلاقات الخارجية .

الا أنها جميعا بين ملحقات وتوابع أو ولايات لا تخرج من نطاق الحكم الذي يفرضه الكرملين ، ولا تعرف لها « شخصية قومية » بمعزل عن سياسة الكرملين في وجهتها العامة ، ولا يستطيع أكبرها استقلالا أن يخالف تلك السياسة في مسألة عالمية تقررت فيها خطة الكرملين أمام الدول الاخرى . . أما أن تجترىء احدى الملحقات على مناقضة السياسة التي يمليها الكرملين في المسائل العالمية فذلك من وراء الحسبان .

وقد كشفت ثورة بولونيا وثورة المجر مدى الطغيان الذي تفرضه القيصرية الحديثة على أمم الملحقات المستقلة ، وبولونيا والمجر أوفرها نصيبا من الاستقلال في عرف السياسة الدولية .

فما هو الا أن بدرت من الشعب المجري بوادر التذمر من طغيان القيصرية الشيوعية حتى صدر الأمر الى حكومة المجر الوطنية بالضرب على أيدي المتذمرين واعتقال قادة الحركة بغير هوادة وبغير تسويف ، وانتظر سادة الكرملين هنيهة فلم يجدوا من الحكومة الوطنية ذلك النشاط الذي يريدونه في قمع كل حركة تجترىء على الشكوى من طغيان القيصرية الخانق ، فصدر الأمر

في هذه المرة الى الجيش الروسي بالزحف على عاصمة المجر واسقاط حكومة « ناجي » واقامة حكومة أخرى من صنائع الكرملين ، وتولى الجيش الأحمر ما عجزت عنه الحكومة الوطنية من فظائع البطش والتنكيل والارهاب ، فامتلأت الطرقات بجثث القتلى وامتلأت مركبات السكة الحديد وسيارات النقل بالألوف من المعتقلين المبعدين الى الأطراف الروسية تنفيذا لخطة « النفي بالجملة » وتبديل السكان بالسكان من غير أبناء البلاد ، ومعظم هؤلاء المعتقلين شبان فيما دون العشرين ، يختارونهم من هذه السن « لتعليمهم » أو صبغهم بالصبغة الحمراء بين أندادهم من الروسيين ، فان لم يتيسر لهم أن يصبغوهم بالصبغة المطلوبة أبادوهم أو قطعوا ما بينهم وبين أوطانهم مدى الحياة .

ولم ينج من هذا البلاء الواصب الا من اعتصم بالجبال ، واستطاع الهرب الى خارج البلاد ، ويبدو من عدد الهاربين أن الأمة المجرية كلها كانت خليقة أن تلوذ بالهرب من بلادها لو أنها استطاعت . لان عدد الهاربين بلغ نحو ربع مليون من الرجال والشبان ، وهم بطبيعة الحال أقدر على الهرب من الشيوخ والنساء والاطفال ، وحسبك من بلاء لا نجاة منه للأمة كلها بغير الهرب لو تستطيع !

***

واذا كانت القيصرية الحديثة قد استفادت فنا من فنون الحكم لم تمارسه القيصريات الغابرة فلا نرى أنها استفادت شيئا في فن اخفاء المظالم وسترها بالمعاذير والتهم التي يتعلل بها الظالم للعدوان على المظلومين . فقد كان قياصرة الروس يسترون مظالمهم بألوان من المعاذير تقبل التصديق وتكسبهم تأييد « المحايدين » من أمة الروس والأمم الأجنبية ، فكانوا يتعللون تارة بجشع اليهود وتارة بمؤامرات الفوضويين وتارة غير هذه وتلك بالغيرة على الكنيسة أو على شعائر الأماكن المقدسة ، ولم تكن تعوزهم في مجزرة من المجازر علة من أمثال هذه العلل .

أما القيصرية الحديثة فكل ما تفتقته الحيلة لها من أمثال هذه المعاذير أن ثورة العمال في المناجم وثورة الشبان الناشئين من الخامسة عشرة الى العشرين انما هي تدبير من تدابير الاقطاع او سماسرة رأس المال في الخارج . وطالما اعتقل

الروس الأقدمون أشخاصا معروفين بأسمائهم ومذاهبهم تلصق بهم تهمة الفوضوية أو الاحتكار أو غيرها من التهم التي يعتمدونها لتسويغ المجازر أو تسويغ الاهمال في قمعها واتخاذ الحيطة لها قبل وقوعها ، أما القيصريون المحدثون فيذكرون الدسيسة الاقطاعية ألف مرة ولا يذكرون في مرة منها فردا واحدا تحيق به التهمة ويدينه التحقيق ، ولو كان تحقيقا من قبيل تحقيقات المحاكم المعروفة في حركات التطهير .

وأغرب التهم حقا أن يكون الناشىء من أبناء الخامسة عشرة الى العشرين ضحية للاقطاعية التي أخذت في الزوال منذ الحرب العالمية الاولى ، وان يكون عمال المناجم معتصمين في مناجمهم بتدبير أصحاب الأموال ، وان تسقط حكومة وتقام حكومة والجيش الأحمر في البلاد « يتفرج » كما يقال ولا يتدخل لاسقاط معارضيه واقامة صنائعه ومؤيديه .

ويتم الشبه بين الحجج القيصرية وحجج الاستعمار في هذه المعاذير كلما قابلنا بين دعواها ودعواهم على الشعوب التي تحاربهم بالثورة ويحاربونها باختلاق التهم عليها .

فالأمة المصرية ثارت على الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى واستخدم المحتلون كل ما وسعهم من بطش في قمع ثورتها ، ثم أحسوا حرجهم أمام العالم واحتاجوا الى العذر المقبول أمام شعوب الحضارة ، فبماذا اعتذروا ؟ اعتذروا بأنهم لا يقمعون ثورة قومية ولا حركة طبيعية ، ولكنهم يحبطون فتنة خبيثة دبرها الترك والالمان المنهزمون ، وعجزوا كما عجزت القيصرية الحمراء عن تقديم شخص واحد تجوز عليه تهمة التحريض على الفتنة من قبل الترك والالمان ، وكان من اغرب الدعاوى حقاً ان يستطيع الترك والالمان المنهزمون أن يثيروا في هزيمتهم فتنة لم يقدروا على اثارتها وهم منتصرون ، ولكنها ليست بأغرب من دعوى الاقطاعية على عمال المناجم أو ناشئة الجيل الذي لم يشهد في بلاد المجر دولة من دول الاقطاع .

على أن أسباب الثورة في المجر وبولونيا وبلاد الملحقات والتوابع في القارة الاوربية أثبت وأقوى من أن يجدي فيها الانكار او تجدي فيها براعة الدعاة في الاخفاء والاختلاق .

أسبابها أن القيصرية الشيوعية تحاول جهدها أن تقبض بكلتا يديها على أزمة السياسة الاقتصادية في كلّ مكان تحرص على النفوذ فيه ، وماذا تجدي الدعاية أو الاختلاق في انكار هذه الحقيقة ؟

هل تنكر القيصرية الشيوعية قواعد مذهبها الاولى والاخيرة . . هل تنكر ايمانها بأن السيطرة السياسية تابعة للسيطرة الاقتصادية ؟ وهل هي ـ مع ايمانها بهذا ـ تطمع في بقاء نفوذها حيث تريد النفوذ دون أن تملك أزمة الثروة والاقتصاد ؟ هل يوافق مذهبها في أساسه أن تترك توجيه الثروة لغيرها في مجتمع من مجتمعات ملحقاتها وتوابعها ؟

فالتبرؤ من التحكم في ثروات الامم دعوى تقبل من كل قيصرية قبل أن تقبل من القيصرية الشيوعية .

وقد تكذب الاخبار والاشاعات ولكن هذه الحقيقة لا تكذب ولا تقبل الانكار .

فاما أن تكون القيصرية الشيوعية مسيطرة على أزمة الثروة في البلد ، واما أن ترحل عنه ولا تهتم بأمره ، وكل ما يقال غير ذلك فهو انكار لمذهب القوم من الاساس ، وليس قصاراه أنه انكار لخبر أو تكذيب لدعاية .

وكل ما يذاع من أخبار تلك البلاد المغلقة في وجه العالم فهو تطبيق طبيعي للمذهب الذي يقوم على تسخير الوسائل السياسية للوسائل الاقتصادية .

وبجدع الانف تفرط الشيوعية القيصرية في زمام من أزمة الاقتصاد تستطيع أن تقبض عليه في بلد تعمل على ابقاء نفوذها فيه .

ولهذا فعلت فعل المستعمرين في معاملة شعوب الملحقات والتوابع فأخذتهم بذنب النازية التي كانت مسلطة عليهم برغم أنوفهم ، وتعللت بمبادئ الغرامات والتعويضات لاستيفاء حصتها من شعوب أوربة الوسطى وأوربة الشرقية التي كانت خاضعة للنازيين ، ولم تستوف حصتها ـ بالبداهة ـ من هتلر وجورنج وجوبلز وهيس وريبنتروب ، ولكنها استوفتها من الشعوب التي تبكي عليها من ظلم السيادة الاجنبية وظلم الاقطاع .

وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية بنزع المصانع والآلات الضخمة من البلاد المغلوبة التي حقت عليها الغرامة أو التعويض ، ولم تعد الى تلك البلاد شيئا مما نزعته الا على شريطة « الادارة المشتركة » التي يتساوى فيها الروس والوطنيون ويتولاها مدير يرضى عنه الكرملين ، ولن يكون هذا المدير الا أداة مطواعا لأمر سادته وأصحاب الفضل عليه في ترشيحه وتغليب كلمته على معارضيه ، ولن يكون « وطنيا » محليا في سياسته ولو كان من الوطنيين المحليين ، وله عذر حاضر يحمي به وجهه امام ناقديه من قومه وغير قومه ، وهو عذر الانفة من الوطنية التي تقدم العصبية على مصالح الطبقة ومصالح الحزب الشيوعي أو الاحزاب الشيوعية ، وكلها ينبغي أن تكون على رأي سواء في جميع الأوطان .

* * *

وعلى الجملة تتلخص العلاقة بين القيصرية الشيوعية وأتباعها في كلمتين : الاستغلال والاكراه ، فلا يخضع شعب من الشعوب لطغيان القيصرية الا وهو عاجز عن المقاومة الحكومية أو الشعبية ، ولا يخف طغيان القيصرية في بلد من البلدان الا بمقدار الخوف من مقاومته وانتقاضه ، ولا حساب هنا للحرية ولا لرعاية الحقوق .

وتقول الدعاية هنا ما تقول فالواقع أن قيام السلطة القيصرية على القمع والاكراه بين الامم التابعة لها أمر ملموس في مجامع الدول لا تجدي فيه المكابرة ولا تلفيق المعاذير . فان الاستعمار الذي يتكلم عنه الشيوعيون كما يتكلمون عن الغول أو الافعوان لم يرهب أتباعه كما ترهب القيصرية الحمراء أتباعها في أهم التوابع والملحقات ، وأيسر مقارنة هنا بين مواقف كندا والهند وزيلاندة الجديدة ومواقف بولونيا والمجر وفنلندة تدل على الفارق البعيد بين طغيان القيصرية الشيوعية وطغيان الاستعمار المنعوت باستعمار رأس المال . فبينما تجترىء كندا مثلا على منابذة انجلترا والوقوف في صف معارضيها في هيئة الامم المتحدة ننظر الى الدول التابعة للقيصرية الشيوعية فلا نرى دولة منها تجترىء على « الحياد » في مسألة من المسائل العالمية التي تفترق فيها الخطط والسياسات ، وقل منها من تجترئ على اجتناب التصويت عند احتدام الخلاف .

واذا كان هذا نصيب الدولة ذات « الكيان السياسي » فليس من المعقول أن تكون الشعوب التي لا كيان لها أعظم نصيب من استقلال الرأي وحرية الارادة ، فان هذه الشعوب « تندمج » في الاتحاد الشيوعي ولا يزيد رأيها فيه على صوت واحد من أصوات الكثرة الغالبة في القرارات النهائية ، وهي على هذا لا تملك صوتها الواحد مستقلا عن طغيان الكرملين ، لأن دساتير الشعوب المحلية تنص على المساواة في الحقوق السياسية بين الروس وأبناء تلك الشعوب . ومعنى ذلك أن الحقوق كلها للروس في الحكومات المحلية ، لأنهم أعضاء في حزب واحد منظم يقابلهم شتيت من الوطنيين المتفرقين لا يقبل أحدهم في الحزب ما لم يكن مرضيا عنه مضمون الموافقة قبل انتظامه فيه ، ومتى كان المرجع الاخير الى حزب منتظم في الادارة المحلية يؤيده حزب منتظم في الدولة الحاكمة فلا حرية ولا استقلال ولا وجود للصوت الذي يطلب الحرية والاستقلال لأنه سرعان ما يتعرض لتهمة الخيانة والانشقاق حين تبدر منه المخالفة في مسألة واحدة ثم تتكرر في مسألتين أو ثلاث ، واذا كان أقطاب المذهب من أمثال مولوتوف ومالنكوف وشبيلوف يتعرضون لهذه التهمة في المجلس الأعلى في بلاد الروس نفسها فما بالك بالعضو التركماني المسكين اذا اجترأ على مخالفة خطة متفق عليها بين سادة الكرملين ؟ وما ضمانه من الدستور او الرأي العام اذا كان هذا الضمان معدوما في مجالس الاقطاب والاعلام ؟

ان بناء قنطرة في بلاد البشكير يحتاج الى التصديق من سادة الكرملين ، وان مد أنابيب الماء أو سكة « الترولي » في نالشيك nalchick لا يتم بغير الموافقة من أولئك السادة ، ولا يتكلف القوم مداراة ذلك لأنه من المنشورات الرسمية في الصحف الكبرى ، وما أشرنا اليه هنا منشور في تاريخ واحد من صحيفتين كبيرتين هما صحيفة برافدا pravda وازفستيا izvestia الرسميتين « ١٨ يونية سنة ١٩٥٠ » .

ويقاس على حقوق الحكم الذاتي في مد السكك والأنابيب حق الامة في حرية التعليم ، أو حرية الاعتقاد أو حرية الاتصال بالبلاد الخارجية . فانها كلها مكفولة بمثل هذه الكفالة التي لا محصل لها في النهاية الا أنها كفالة حروف وكفالة نفاق .

هذه قيصرية الشيوعية ، وتلك قيصرية الطغاة المستبدين . اذا اختلفتا فانما تختلفان لأن القيصرية الشيوعية تستبيح كل منكر تتعلل له بحقوق الشعب وتستهين فيه بجميع المحظورات ، ولكن القيصرية الغابرة كانت تعرف المحظورات وتحتال لها بالفتاوى الشرعية كلما اندفعت فيها بغير روية ، وقلما كانت قادرة على اختراع تلك الفتاوى لكل محظور .

واستبداد

والقيصرية في حكم الرعايا الوطنيين ليست بأهون ولا أرحم من القيصرية في حكم الشعوب الغربية من بلاد الملحقات أو أعضاء الاتحاد ، فهذه وتلك قائمة على الاستبداد المطلق من قيود الشريعة والأخلاق ، فلا قيود لها غير قيود الضرورة القاهرة التي لا يقدر عليها ولاة الأمور .

ان الروسيين الذين أبادهم الحزب الشيوعي يعدون بالملايين ، كان يكفي أن يكون أحدهم من ملاك الارض ليباح دمه بغير محاكمة وبغير سؤال ، وكان يكفي في بعض الأحوال أن يأكل الفلاح وآله ذبيحة من البقر أو الضأن ليستباح دمه ويقال عنه أنه معطل لمشروع المزارع الجماعية ، يتعمد أن يذبح الماشية لكيلا تؤخذ منه للمشاركة في مشروع من تلك المشروعات بل كان يكفي لاستباحة الدم والحرية ما هو أيسر من هذه التهم الكبار كتهمة الكسل في الزرع أو التقصير في تسليم الحصة المفروضة على المحصول ، وجريمة هؤلاء جميعا تدخل في عداد جرائم التعطيل والتثبيط التي تعاقب بالاعدام .

ولا يقل ضحايا الحزب الشيوعي عن عشرين مليونا ذهبوا ضحية للقتل الجزاف أو للحرمان والجوع او النفي والتشريد في مجاهل سيبيريا ومعاقل قطب الشمال . ويبلغ من استخفاف دعاة الثورة الحمراء بدم الانسان انهم يحسبون كلمة الثورة مسوغا كافيا لاستباحة دماء الملايين كأنها الوسيلة الوحيدة لنجاح ثورتهم او اجراء هذه التجربة في سبيل النجاح ، ويقول لينين بغير مواربة في خطاب منه الى الكاتب جوركي ان ابادة ثلث الجنس البشري ليس بذي بال ، وانما المهم ان تنجح الشيوعية بأية حال .

لكنه عذر لا يستر طبيعة الضراوة بالشر في نفوس هؤلاء الطغاة ، فان أعضاء الحزب أنفسهم لا يسلم المقهور منهم من شرور المنتصرين عليهم في التنازع على مناصب الجاه والجبروت وقد عمل الشيوعيون على الثورة في عهود ثلاثة من قياصرة آل رومانوف ، فلم يقتل القياصرة الثلاثة عشر الذين قتلهم ستالين

وحده من كبار الزعماء بله الصغار المجهولين ، وخليفة ستالين نفسه هو الذي يقول : انه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعون اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص خلال عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ على الخصوص . . ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير أكثر المندوبين الذين اشتركوا في المؤتمر السابع عشر . . فمن ١٩٦٦ مندوبا كانوا يملكون حق الاشتراك في الاقتراع او يتمتعون بحقوق استشارية القي القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة » .

ومضى ستالين فلم يسلم كبار الزعماء من استبداد القادرين على الاستبداد ، ولم يتهم أحد من هؤلاء الزعماء بتهمة أقل خطرا من تهمة الخيانة العظمى وعداوة الشعب والمروق من مبادىء الثورة وأشباه هذه التهم التي لا تقل العقوبة في احداها عن الموت مع التشهير والتحقير ، ولا يتطلب الأمر لاثبات هذه التهم واستحقاق العقوبة عليها أكثر من الاقتراع مع القلة في مجلس من مجالس الحزب العليا او في هيئة من هيئات الصناعة التنفيذية ، فاذا قال تسعة ان زيادة المصنوع من الجرارات غير لازمة وقال عشرة انها لازمة لا غنى عنها ، فالتسعة خونة معادون للشعب مارقون على عقيدة الثورة ، دليل ادانتهم انهم أقل في العدد بواحد من زملائهم المخالفين ، واذا كان من رأي مولوتوف وملنكوف وكاجنوفتش وشبيلوف واثنين او ثلاثة معهم ان السياسة الخارجية تفرط في اللين او تفرط في الشدة وكان من رأى الفريق الآخر أنهم مخطئون فهم مخطئون خطأ الأبد الذي لا علاج له غير الموت البدني او الموت المدني ما دام القائلون بخطئهم يزيدون عليهم بواحد او اثنين .

ولو كان هذا الاختلاف محرما على الكبار والصغار في اول عهد الثورة لجاز أن يقال ان الخوف على الثورة يبيح ما لا يباح من فرط الشدة والقسوة جمعا للشمل ومنعا للشقاق ، ولكنه يحرم بعد أربعين سنة ، ويستكثر على أكبر القادة الزعماء من ذوي المبادىء والآراء ، وما يحرم على زعيم نيف على الستين وهو في خدمة الثورة والدولة وارتفع فيهما الى مكان القيادة منذ ثلاثين سنة لن يكون مباحا لفرد من الافراد محجوب عن أسرار الدولة وبرامجها في السر والعلانية ، ما دام المتهم من المنكوبين المنكودين والمنتقم من الظافرين المتحكمين .

وسواء صدق هؤلاء الظافرون أو كذبوا في اتهامهم لخصومهم فالثورة على الحالين أحقر ما عرف الناس من ثورات في تواريخ الأقدمين والمحدثين .

فليس أحقر من ثورة يخون مبادئها مئات من زعمائها متطوعين بغير داع للخيانة وهم في مراكز القيادة والرعاية .

وليس أحقر من ثورة تدين المئات من زعمائها ظلما وتفترى عليهم تهم الخيانة واحدا بعد واحد وهم مستسلمون بغير نصير ولا شفيع .

وليس أحقر من استبداد يجري مجراه على هذه الوتيرة بعد أربعين سنة من قيام الثورة سواء جرى فيها لضرورة او لغير ضرورة .

فالثورة التي تضطر الى الاستبداد ولا تستغني عنه بعد أربعين سنة هي كارثة بلاء واصب وليست بحركة اصلاح مأمول .

والثورة التي تصطنع هذا الاستبداد وتقترف آثامه وموبقاته لغير ضرورة هي مؤامرة اجرام لا أمان فيها للمحكومين ولا للحكام .

ولا أمان في نهاية الأمر لمن يصاب بهذا الاستبداد أو لمن يشهد المصاب بعد المصاب وهو معفى من نكباته لهوان شأنه على سادته ومسخريه ، فكل من هلك او سلم فهو من ضحاياه ، ولكن الهالكين يخرجون بالموت من سلطانه الغاشم وتبقى الآفة « الناجية » بمصاب افدح من مصاب الهالكين ، لانها تبقى وهي ملغاة العقول والضمائر تصدق عن فئة من أبنائها بعد فئة انهم أبطال الشرف والنجدة وانهم شياطين الخيانة والدمار ، فان لم تصدق هذا فهي لا تبالي ما تصدق وما تكذب لأنها لا تحفل العدل والظلم ولا تعرف الغضب للمظلوم ولا الغضب على الظالم ، ولا تعدو أن تكون كالماشية التي تساق منها البهيمة بعد البهيمة للذبح وهي لا تسأل عن شيء غير الجوع والظمأ ، او تكون من بني الانسان في حال كحال السجناء من أراذل الخلق لا يحسبون للحرية ولا للسمعة حسابا ما دام في السجن مسكن وملبس وغذاء .

وعنصرية

في القارة الاسيوية بضع عشرة أمة صغيرة يتراوح عددها من مليون الى خمسة عشر مليونا او نحو ذلك ، وكلهم في الأصل ترك طورانيون يدينون بالاسلام على المذهب السني ويتكلمون لهجات من اللغة التركية يفهمونها جميعا بكتابة واحدة ولا يصعب على أحدهم أن يتفاهم بها مع أبناء الاقاليم الاخرى ، ولا شك أنها تتوحد كما توحدت الفرنسية او الايطالية بين لهجات الاقاليم في بلادها ، اذا استخدمت في الكتابة والأحاديث العامة كما تستخدم اللغات القومية .

ولكن القيصرية الشيوعية ـ باسم رعاية الحقوق واحترام الاستقلال الذاتي لتلك الشعوب تمزقها في حدودها وأنظمة حكمها أجزاء مبعثرة لا يجتمع جار منها على جار ، ولا يقبل من أحدها أن يذكر له أصلا جامعا ينتمون اليه باللغة والسلالة .

« . . . والعمل على محو معالم القومية في هذه الشعوب وقطع كل علاقة بينها وبين تراث اللغة والتاريخ ـ فيها ـ هو زبدة المبادئ التي تعلنها قرارات الحزب وتذيعها الصحف الرسمية ويشرحها في الكتب والمنشورات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية . وما من كتاب يؤذن له بالخروج من المطبعة في أرجاء روسيا الا وهو بمثابة الأمر الحكومي المفروغ من تحضيره ومراجعته وتطبيقه على مشروعات السنين كما تقررها نظم الدولة بعد أن تفرض العقوبة الصارمة على من يخالفها .

« ولقد سلك المستعمرون الحمر مسلك جميع المستعمرين في تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة وتغريرهم بزخارف الأباطيل ومحرجات الايمان على نية الحنث بها من اللحظة الاولى . فأعلنوا في اوائل ايام الانقلاب الشيوعي بلاغا طنانا وجهوا فيه الخطاب الى الشعوب الآسيوية الاسلامية بصفة خاصة وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة في معتقداته

وشعائره وعاداته ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصري وزوال عهد الحجر والطغيان بزواله الى غير رجعة ، وما هو الا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة في مراكزها حتى عادت القيصرية في أشنع صورها وحل الخوف محل الأمان في كل وعد من وعود الحرية والطمأنينة ، وقال قائل من أمناء تلك الشعوب المهاجرين في حديث يمتزج بالسخر الأليم : « ان المخدوعين المساكين كانوا اذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا الى بقية الشعائر التي وعدوهم باحترامها فعلموا انها هي الهدف المقصود بالضربة التالية . . . » ولم يكن هذا الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه في مساق التهكم والسخرية . فان الشعائر المقدسة قد أصبحت في الواقع مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب . . . حتى الشكوى من القيصرية في ابان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها . وتساوى في هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية من كان منهم في أقاليم أوربية ومن كان منهم في أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى . فصدر الأمر في القرم بتقسيم اللغة التي يتكلمها القرميون الى ثلاث لهجات وضبط كتابتها على حسب الأبجدية الروسية لا على حسب الأبجدية العربية ، ونادى وزير المعارف ـ ألكسندروفتش ـ في المؤتمر الشيوعي السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وادخال الكلمات الروسية في موضع الكلمات المحذوفة منها ، وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق في اللهجات ، بل في فروع اللهجات ، ليتيسر محوها وتصعيب استخدامها في مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها عن الثبات ـ من ثم ـ أمام اللغة الروسية التي اجترفتها جميعا في معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المصالح والمجالس السياسية . وقد كان ستون مليونا من أبناء الشعوب الاسيوية يقرأون صحيفة « ترجمان » التي كان يصدرها المصلح الكبير اسماعيل غصبر الى المعروف في القاهرة ، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ، فأمر المستعمرون الحمر ـ أنصار حرية الشعوب ـ بمصادرة كل صحيفة من قبيلها واعتبارها داعية الى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية وصادروا مع مصادرتها كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب المغلوبة . لان ثورة الابطال الوطنيين في وجه القياصرة انما

كانت ثورة على الأمة الروسية التي ساقت الحضارة والمعرفة الى تلك الشعوب . .

« وحاقت اللعنة بالادباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليها ، فاتهم الشاعر التركماني جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية لأنه نظم قصيدة عنوانها « بلدي تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب « تركمانسكايا أسكرا » في عددها الصادر في الحادي والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١ وقالت في انتقاد الشاعر : « انه لا يختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها كأنها جنة على الأرض . . . وانما ينبغي على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية لأنها احدى الجمهوريات الأخوات في داخل الاتحاد السوفييتي العظيم » .

« وسيقت الأمم غير الروسية الى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة وسخطها على دعاة التجديد والاحياء في الحركة الوطنية ، فخطب باجيروف نائب الرئيس بذلك المؤتمر قائلا : « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رأت حوالي سنة ١٩٤٨ ان تعقد في موسكو اجتماعا لتنظيم المناقشة في مسألة القومية التي ينتمي اليها الكتاب السابقون ومؤلفاتهم غير مستثنية من ذلك أمثال ذلك الكتاب الرجعي الذي ينطوي على عداوة الشعب وتسميم الأفكار بسموم الجامعة الاسلامية نعني كتاب ديدي كركوت dedakorkyt .

ولكن هذا الرأي قد تقرر رفضه في لجنة الحزب المركزية وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة وان نميط اللثام عن حقيقة الرجعية .

« وتعقب النقاد الرسميون أناشيد البطولة والوطنية في الأمم الخاضعة للدولة المستعمرة فوصموها بخبث النزعة وسوء الطوية وقال باجيروُف المتقدم ذكره في عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة بولشفيك وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذي اشتهر بثورته على القيصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر : « اننا اذا أردنا أن نفهم فكرة صميمة عن حركة شامل هذه فلنذكر أنها كانت حركة دينية وانها أشد أعراض الجامعة الاسلامية نكسة وعداوة .

وقالت مجلة كومونست في عدد يناير سنة ١٩٥٣ : « ان المؤلف جعفروف الذي كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التي ثارت على روسيا خلال سنة

١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ كانت من حركات التحرر الوطني قد عاد فأدرك خطأه وكتب في سنة ١٩٥٢ انها كانت حركات اقطاعية متعصبة » . . . ومضت المجلة تقول : « ان هذا الكتاب ـ أي كتاب جعفروف ـ يتعمق في البحث عن جذور العلاقة الودية بين أمم آسيا الوسطى وبين الأمة الروسية العظيمة ويلفت النظر على نحو خاص الى الدلالة التقدمية التي يدل عليها ضم هذه الأمم الى الحظيرة الروسية . . . فان هذا الضم قد أتاح لهـا فرصـة المساهمـة في ثقافـة روسيا العظيمة .

« وصحيفة الدولة ـ برافدا ـ تردد هذه الأقوال وتصرح في السابع من أكتوبر سنة ١٩٥٢ ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تمنع سموم الجامعة الاسلامية . . . ثم تصرح في الثالث عشر من فبراير سنة ١٩٥٣ بأن المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لأنه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة ، وتصرح صحيفة الدولة الأخرى ـ ازفستيا ـ قبل ذلك في الثاني من سبتمبر سنة ١٩٥١ ببطلان الدعوة التي يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد الازبك لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها .

« وقد بدأت هذه السياسة منذ الايام الاولى التي أفاق فيها سادة الكرملين من شواغل حربهم الداخلية ، ولكنهم كانوا يراوغون في تنفيذهـا بين المصانعة والخديعة أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القناع عنها حوالي سنة ١٩٣٠ فدفعوا أذنابهم الى المؤتمر الذي سموه بالؤتمر التاريخي في سمرقند ليعلنـوا البراءة من الوحدة القـومية . . . أو ليعلنـوا بعبـارة أخرى أنهـم ـ أبنـاء آسيا الوسطى ـ اشتات متفرقون وليسوا بالعنصر الواحد في الأصل ولا في اللغة ولا في التراث القديم وقد اجتمع المؤتمر سنة ١٩٣٥ وأصـدر قراره ـ العلمـي ـ بوجوب تصحيح النظـر الـى تلك الوحـدة المزعومـة بين القـازاق والتركمـان والجرغيز والازابكة وجيرانهـم الآخـرين . . ولسنـا ندري كيف يطمـع دعـاة الاستعمار الأحمر في تصـديق هذه الاضحـوكة عن انـاس طائعين مختـارين يشدون رحالهم الى بلد واحد ليسوغوا للغاصـب تمزيقهـم وانـكار اصولهـم وابتلاعهم بعد ذلك أشتاتا مبعثرين .

« ويجوز تصديق هذه الاضحـوكة لو كانـت المسألـة هنـا مسألـة مبدأ في

المذهب الماركسي يطبقونه على جميع الأوطان وبين جميع الشعوب . . . أولو كان الشعور الوطني على مذهبهم شعورا بغيضا لديهم يحرمونه على الأمم الحاكمة كما يحرمونه على الأمم المحكومة ، ولكن الواقع في الامبراطورية الروسية على نقيض ذلك من طرفيه . فان العصبية الوطنية مفروضة مشكورة في روسيا حيث تكون مذمومة مدحورة في البلاد الخاضعة لسلطانها ، وكلما اشتد ولاة الأمر في تحريم العناية باللغة والتراث القومي في قطر من الأقطار الاسيوية قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقافة في أضيق حدودها ، ولم يصنع النازيون والفاشيون في تهوسهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآري والمآثر الموقوفة على الجرمان وأسلافهم دون سواهم من أمم العالم بعض ما صنعه دعاة العظمة السلافية ـ بل عظمة الجنس الروسي على حدة ـ بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين . فانهم ردوا الى هذا الجنس فضلا واحدا لا منازع لهم فيه ، يدعون به السبق الى كل اختراع والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة .

« ففي سنة ١٩٤٠ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ ريباكوف reybecov لأنه زعم في كتابه عن صناعات روسيا القديمة أن روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التي انتقلت منها الى الغرب واستفادت منها بولونية وبوهيمية وما جاورهما .

« وصحيفة الدولة تحيي قصة كاترين الثانية في الصور المتحركة فتعيد قصيدة شاعرها الذي وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجانحة والعبقرية الروسية في ميادين القتال . وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكراهم المئوية أو الخمسينية لكل مناسبة عارضة أو لغير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ فيشيد كاتبهم شاتاجين shatagin في شهر مايو سنة ١٩٥٠ بذكرى انقضاء مائة وخمسين سنة على وفاة القائد سفيروف suverov [1] ويحيي هذه الذكرى الخالدة بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات في العدد التاسع من مجلة البولشفيك « والدولة هي التي تتولى نشر كتاب كوفاليف kovalev الذي يعيد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه ان لومنسوف الروسي سبق لافوازيه الى قانون بقاء المادة والطاقة ، وان بتروف

سبق جميع العلماء العالميين في كشوف الصناغة الكهربية وأن ليتز وياكوبي سبقا المخترعين والكاشفين الى استطلاع أسرار المغنطيسية الكهربية وأن بلزنوف سبق واطس الى اختراع القاطرات البخارية وان يابلخوف ولوديجين سبقا المخترعين الى الاهتداء لنور الكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة وان بوبوف هو مخترع جهاز الاذاعة حوالي سنة ١٨٩٥ وأن بروينجين سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وأن لوباشفسكي هو صاحب الآراء الحديثة التي جدد بها علوم الرياضة وأنشأ بها هندسة تنافس هندسة أقليدس القديمة ، وأن علماء الروس بالايجاز قد سبقوا جميع العلماء والمخترعين في ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث .

« وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذي يوحي بسياسة التعليم الى المدارس كافة في أنحاء الامبراطورية نادى بوجوب تعليم الدروس جميعا باللغة الروسية . . . وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هي التي نشرت خلاصة هذه القرارات في السابع من شهر ابريل سنة ١٩٥٤ فقالت في الفصل الافتتاحي « ان الاكرانيين وأبناء روسيا البيضاء واللاتفيين والاستونيين والقازاق والازابكة والشراكسة والأرمن والتتر الخ الخ . . يدرسون بجد وشغف لغة أختهم الكبرى الأمة الروسية العظيمة .

وهذه الصحيفة هي التي نشرت في الثلاثين من شهر يونيو سنة ١٩٤٣ برنامج التعليم فقالت انه من الازم في السنوات الباكرة أن يتعلم الاطفال محبة كل ما هو وطني من تربة الوطن . . . وأن تغرس في نفوسهم الفكرة التي تجلب دموع الفرح الى أعينهم عند الاشارة الى هذه الأمم الكبرى وتسري بالقشعريرة الى الدم كلما مر بالذهن خاطر يهذدنا بفقدها[1] » .

* * *

فالمبادئ التي يروجها سماسرة الاستعمار الأحمر عن الوطنية البغيضة والعنصرية البرجوازية وأشباه هذه المحفوظات المبتذلة انما هي بضاعة تصدير لمحو جميع العناصر وبقاء عنصر واحد يسودها ويرغمها على التغني بمفاخره

---

(١) مقدمة كتاب الاستعمار الاقتصادي من سلسلة الناقوس

والاشمئزاز من مفاخرها ، وهذه سياسة عنصرية لم تبلغ مبلغها سياسة مرسومة في عهد من عهود الاستعمار مما سبقت به دول العصور الوسطى أو لحقت به دول الاستعمار الحديث الى القرن العشرين .

فالمستعمرون حتى هذا القرن . لم يعملوا ولا حاولوا أن يعملوا على ابتلاع السلالات وهضمها في سلالة واحدة تحيط بالأمم المغلوبة وتخرجها عن أصولها وتقتلعها من جذورها وتسوقها الى عقد المؤتمرات ووضع برامج التدريس لهجر لغاتها ودفن تراثها التنكري لماضيها ومستقبلها ، وغاية ما ترامى اليه أمل المستعمرين في محو معالم القومية بين الشعوب الخاضعة لهم انهم كانوا يجعلونهم بالمنزلة الثانية فيما يتعلق بالحكم وولاية الأمور العامة . فأما هذه السياسة التي تجعل القومية جريمة ومفخرة في وقت واحد وتفرض على المغلوب أن يتغنى بمفاخر سادته ويزري بمفاخر قومه فتلك خاصة من خواص هذه القيصرية الحمراء لم يسبقها سابق في تاريخ الاستعمار .

مع العالم

الشيوعية دولة ومذهب ، أو دولة ودعوة ، ولا تبرأ سياسة الدولة ـ ذات الدعوة ـ من دسائس النفاق والمراوغة .

فهي اذا كفت عن الدعوة في الأمم الأخرى خانت مبادئها وتنكرت لرسالتها وتراءت في ظاهرها بغير ما تضمره في باطنها .

وهي اذا نشرت دعوتها لتشجيع الفتنة بين شعوب الدول الأخرى خانت قضية السلام واصطنعت الغش في قواعد المعاملة الخارجية بينها وبين حلفائها وأعدائها .

ولا بد من باطن غير الظاهر في الحالتين ، ولا بد من فقدان الثقة في سياسة الداخل والخارج ، وهي أساس كل علاقة صالحة . .

* * *

وقد تقرر بالتجربة المتطاولة أن « الموقع الجغرافي » يتحكم في سياسة الدولة فتمضي في وجهة واحدة ، وان تغيرت فيها النظم والحكومات ، ويسمون هذا الرأي في علم السياسة الحديث « بالجيوبولتيك » أو السياسة الجغرافية .

ويصدق هذا الرأي على وجهة السياسة الروسية من عهد قياصرة رومانوف الى عهد قياصرة الشيوعيين ، فكل ما طمع فيه آل رومانوف من الفتوح أو مناطق النفوذ فهو مطمع للساسة الشيوعيين ، وقد كان آل رومانوف يقولون انهم يريدون فتح الآستانة لاستعادة كنيسة « ايا صوفيا» واقصاء آل عثمان عن عاصمة الكنيسة الشرقية القديمة . فانقضى عهد آل عثمان وقام بالأمر في الاستانة وموسكو أناس ينظرون الى الدين بغير نظرة القياصرة والخلفاء ، ولكن سادة الكرملين يطلبون الاستانة ويطلبون البوسفور والدردنيل كما كان يطلبها قياصرة الحرب وقيصر السلام .

سياسة الأمس وسياسة اليوم في الدولة الروسية على اتفاق في الوجهة العامة ، وتزيد سياسة اليوم بالدعوة الى مذهب الدولة والاتجاه بها الى اشاعة القلق والخراب في كل مكان ولا سيما بلاد المشرق التي يتطلع اليها « الرفقاء » الحمر كما تطلع اليها من قبلهم أصحاب التيجان .

ولنضرب مثلا من أمثلة كثيرة بمسألة معروفة في البلاد الشرقية وهي مسألة البترول .

أي غرض لسياسة الشيوعية فيها غير سياسة الشغب والتخريب ؟

هل تقوم هذه السياسة على مصلحة العالم ؟

هل تقوم على مصالح البلاد الشرقية ؟ هل تريد أن تعطل انتاج البترول من جميع الآبار ؟ هل تريد أن تستولي هي على الآبار بعد تعطيلها ؟ هل تريد أن تبقى تلك الابار مدفونة أو في حكم المدفونة بين أناس يجهلون صناعاتها ولا يملكون أدواتها ؟ . .

ليس في غرض من هذه الأغراض ما يدخل في تقدير دولة ، ولكنها أغراض تدخل في تقدير الدعاة الذين يعملون للقلق والتخريب ولا يبالون في سبيلهما مصلحة العالم ولا مصالح البلاد الشرقية ، فان مصلحة العالم ومصالح البلاد الشرقية لا تتحقق باهمال البترول في آباره ، والدولة الروسية لا تترك البترول في بلادها مهدرا ولا تقترح وسيلة لاستخراجه من البلاد الخارجية أصلح من وسائله الحاضرة ، وهذه سياسة واحدة من سياسات كثيرة تجري عليها الشيوعية ولا نتيجة لها غير القلق والفساد .

واذا كان في العدوان الدولي ما هو شر من طمع الاستعمار فذاك هو العدوان الذي يستوفي الطمع ويزيد عليه سعاية السوء لاثارة النقمة واشاعة البغضاء بين الأمم . فلا يزال بكيد الساسة والدعاة يلبي مطالب الدولة بالطمع ويلبي مطالب الدعوة بالنقمة والخراب .

وقد يدل « الموقع الجغرافي » أيضا على طبيعة الشيوعية في عملها بالقوة وعملها بالاقناع ، فمما يدل على أن عملها بالقوة أكبر من عملها بالاقناع أن « سلطتها » أنجح ما تكون في البلاد التي تصل اليها بالسلاح والمال أو معونة

المرافق المالية . فان سلطتها في الهند أضعف من سلطتها في الصين وكوريا الشمالية ، وسلطتها في الصين وكوريا الشمالية أضعف من سلطتها في البلاد الاسيوية الاسلامية التي تقع الى جوارها ، ولا توجد أسباب غير أسباب السلاح والمال تجعل الشعوب المتساوية في الثقافة وطبقة المعيشة متفاوتة الاثر بالنسبة اليها ، كما تتفاوت اسبانيا وبلاد البلقان ، أوكما تتفاوت أمريكا الجنوبية وآسيا الوسطى ، أوكما تتفاوت جميع البلاد المجاورة لمصادر القوة الروسية وجميع البلاد التي تبتعد عن جوارها .

ولأكثر من سبب واحد كانت الشعوب الاسلامية في آسيا الوسطى أوفر من سواها قسمة من وطأة الدولة والدعوة في آونة واحدة . فهنا يعمل الجوار الجغرافي والجوار التاريخي عملين متسابقين في تعجيل الاخضاع ونشر المذهب والسلطة بكل ما تملكه الدولة والدعوة من قوة وتأثير ، فان قسمة البلاد الاسلامية الاسيوية من « عناية » الشيوعية تزداد بازدياد العداوة المتأصلة بين أجناس المغول والسلاف وازدياد وقائع الفتح والاستعمار من أقدم عهود القياصرة ، وليس مما يضعفها على الزمن اشتداد المقاومة التي يلقاها المستعمرون عامة من اتباع الديانة الاسلامية ، وليس مما يضعفها في الزمن الحديث خاصة ان الاسلام دين يشتمل على نظام اجتماعي وفكرة خلقية تنافس الفلسفة المادية في كل معرض من معارض المعيشة ومقاييس الأخلاق .

واذا صح في أمر الشيوعية مع الأمم جميعا انها لا تقبل التوسط على سلام فهو أصح من ذلك بين الشيوعية والاسلام . فلا بقاء للشيوعية في بلاد تدين بالاسلام ولا بقاء للاسلام في بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسة تقوم على دعوة السلام والوفاق بين الشيوعية وأصحاب العقائد المخالفة لها فهي دعوة قائمة على نفاق وعلى تربص كمين كالتربص بين الأعداء المتسترين .

« ان معسكر الشيوعية لا يأمن على نفسه مع بقاء الديمقراطية ، وان معسكر الديمقراطية لا يأمن على نفسه مع بقاء الشيوعية ، وكلاهما على حذر من الآخر لا خفاء به ولا نكران له ولا شك فيه .

« ولكنهما مع ذلك مختلفان أبعد اختلاف .

« فاذا علمت أن أحدا يعقد العزيمة على هدم داري واهدار دمي فتربصت له

فكلانا على هذا متربص بصاحبه ناظر اليه نظرة الحذر والعدوان ولكننا لا نلام على خطأ واحد ولا نطالب بعمل واحد عند من يريد الانصاف أو ينظر نظرة السواء .

« وقيام الشيوعية على هدم المجتمعات التي تخالفها وايمانها بأن الخير كل الخير في تفكيك أوصالها وتعجيل زوالها حقيقتان لا تقبلان المغالطة ولا يكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداءة وهو يداري الغرض متشيعا جد التشيع تحت سريان العدل والمساواة .

« واذا قال الشيوعي انه يؤمن (بالتعايش السلمي) فمعنى ذلك أنه يكف عن تنفيذ مذهبه أو أنه يرتاب في صدقه ولا يؤمن ضربة لازب بانهدام المجتمعات العالمية في وقت قريب ، ولا أمل له في نجاح الدعوة من قبله ما لم يكن قد عدل حقا عن الكيد لمن يعايشهم معايشة سلمية والتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، ويعامله على هذا الأساس ، وما هو بأساس صالح للمعايشة السلمية بل هو أساس المعاملة بين من يعيش ومن يموت ، أو بين الوارث والموروث المطموع فيه .

« ونحن لا نستبعد أن يكون المؤمنون بالشيوعية قد شكوا في قواعد المذهب التي يبنون عليها نبوءاتهم عن مصير مجتمعات الأمم الى الدمار العاجل . فان لم تبلغ شكوكهم هذا المبلغ فلعلهم قد شكوا في سرعة الوقت الذي يتم فيه الدمار المحتوم ورتبوا على التمهل في الانتظار سياسة توافقه غير السياسة التي تتعجل الوقعة الحاسمة بين المعسكرين ، ولكن قضية السلام العالمي لا تناط بهذه الشكوك في قواعد المذهب ولا في طول الأمد المقدور لتحقيق نبوءاته ، وانما تناط قضية السلام العالمي بقوة العوامل التي تتعلق به وترجوه ، كما تناط بخشية الخطر من أهوال الحرب وسوء عقباها مع قلة جدواها . فاذا انتصرت هذه العوامل ونجحت في المقاومة والمطاولة ـ جاز أن يتبدل خلال هذه الفترة كثير من القواعد والعقائد وأن تلوح للمشكلات المعقدة وجوه من الحل المرضي ميسورة في ظلال التعاون والسلام[1] » .

---

(١) مقدمة المؤلف لكتاب التعاون الاقتصادي من سلسلة الناقوس

والأمر ـ بعد ـ رهين برجحان هذا الرجاء في المستقبل ، ولكنه من العبث أن تنخدع الأمم بدعوة السلام من قبل الشيوعيين ، فان دعوة السلام نفاق من كل نظام يعلق رجاءه في المستقبل على تخريب المجتمعات القائمة ، وأضيع الآمال في « التعايش السلمي » أمل يقوم على سياسة لم تعرف « التعايش السلمي » بين أقطابها سنة واحدة منذ قامت الدولة الشيوعية ، فلا علاج لاختلاف الرأي بينهم الا أن يقتل القادر منهم من يعجزون عن مقاومته ، ويتعقبهم بالتهمة والمذمة وهم في جوف التراب .

أكثر من دعوة وأكثر من دولة

من أبرز معالم الطريق التي تشير الى مصير الشيوعية وضع « الصين الشعبية » دعوة ودولة بعد الحرب العالمية الثانية . .

فعلى حسب العناوين اللفظية تعد الصين الشعبية فتحا عظيما للشيوعية وامتدادا واسعا لدعوتها ولدولتها ، لأنهت أدخلت في المذهب أربعمائة مليون انسان وضمت الى الدولة « ملحقا » سياسيا حربيا يتبعها في الأزمات وفي الحروب .

وعلى حسب النتيجة العملية تعتبر الصين على وضعها الجديد هدما للدعوة الشيوعية ومنافسا شديد الخطر للدولة الروسية لا يؤمن جواره لأنه جوار نظيرين لا يطول العهد بالتناظر بينهما على وئام .

ان ثورة الصين تقوم على الاعتراف بالملكية الأرضية ، وعلى توزيع الأرض بين الاسر من صغار الفلاحين ، ومستقبلها اذا نجحت مستقبل أمة تؤمن بالأسرة وتحافظ على مبدأ الملك في أثبت أشكاله وأشدها استعصاء على التغيير . وما من أحد في الصين يعتقد أنه تتلمذ في هذه الثورة للشيوعية الروسية أو شيوعية سواها . لأن مبادئها تقررت في الصين قبل ثورة الروس الأخيرة بعدة سنوات ، ودستورها مشروع في برنامج « سن ياتسن » الذي يقول منذ نشر مبادئه الثلاثة عن الديمقراطية والوطنية والاشتراكية : « أما الاشتراكية فبرنامجي لها ما يأتي : أولا : تقسيم الأرض على أساس النسبية . وقد حاولت أيام مقامي بنانكنج اذ كنت أتولى الرئاسة الموقتة ان أنفذ هذا البرنامج فلم أستطع لأنني لم أفهم » . . .

وهو الذي يقول في شرح من شروحه الكثيرة لهذه الاشتراكية : « ان المشكلات الاجتماعية تنشأ من التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نعني بالتفاوت أو قلة المساواة ؟ لقد كان الفارق موجودا بين الغني والفقير في الأزمنة

الغابرة ولكنه لم يكن فارقا حاسما كما نراه اليوم . اذ يملك الغني الارض كلها ولا يبقى للفقير حتى القليل منها . وعلة هذا التفاوت اختلاف أساليب الانتاج . فقد كان قاطع الخشب مثلا يستخدم الفؤوس والمدى وما اليها ولكن المكنات تحل محل هذه الأدوات في العصر الحاضر ويستطاع الحصول على محصول كبير بعمل بدني قليل . ولنضرب مثلا آخر من أعمال الزراعة ، ففي الازمنة الغابرة كان المعول كله في هذا المجال على الجهود الانسانية ، ثم نشأت المحاريث التي تجرها الخيل والبقر فزادت سرعة العمل وقلت الجهود البدنية . ثم استخدمت القوة الآلية اليوم في أوربة وامريكا فأصبح من المستطاع حرث ألفي فدان وزيادة في اليوم الواحد وأمكن الاستغناء عن الخيل والبقر ، فنجم من هذه الحالة فارق هائل يعبر عنه بنسبة ألف الى واحد ، فاذا انتقلنا من هذه الأمثلة الى وسائل المواصلات رأينا أن الوسائل الحديثة كالبواخر والسكك الحديدية قد جعلت النسبة أكثر من ألف الى واحد عند المقابلة بين هذه القوة والقوة الانسانية .

ولنتكلم أولا عن اشتراكية الارض . فنظام الارض مختلف بين اوربا وأمريكا ، ولا يزال نظام الاقطاع قائما في انجلترا من حيث أصبحت الارض مملوكة للاحاد في الولايات المتحدة . .

« الا أن برنامجي يدعو الى التقسيم النسبي اتقاء لشرور المستقبل التي بدرت اليوم بوادرها . ولنضرب مثلا بما حدث تحت أعيننا منذ أنشئ المجلس البلدي في مدينة كانتون . فان المواصلات تقدمت وأخذت أثمان الأرض على الجسر وعند مزدحم السكان ترتفع ويباع « المتر » الواحد بعشرات الالوف من الريالات ، وهذه كلها يملكها آحاد يعيشون بجهود الآخرين ، وان نظام الارض القديم في الصين يوافق بعض الموافقة نظام التقسيمات النسبية . فاذا أردنا أن نطبق هذا النظام وجبت ملاحظة هذه الشروط وهي فرض الضريبة على حسب قيمة الأرض ، والتعويض على حسب القيمة العرفية . وقد اتبع التقسيم على ثلاث درجات الى اليوم في البلاد الصينية ، ولكن قيمة الأرض لم تكن فيما مضى بهذا الارتفاع لنقص وسائل المواصلات وأدوات الصناعة . فلما تقدمت المواصلات والادوات الصناعية مع بقاء التقسيمات العتيقة نجم من ذلك ارتفاع غير متناسب مع قيمة الأرض . . وعلى هذا ينبغي اذا أردنا اتقاء شرور هذه

الحالة ان نفرض الضرائب بنسبة واحد في المائة من قيمة الأرض . . أما مسألة رأس المال فقد نشرت أخيرا كتابا عن تنمية الصين الدولية بحثت فيه مسألة الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية لترقية صناعة الصين وتجارتها . . »

فالثورة في الصين دعوة لم تصدر من المذهب الشيوعي ولم تطبق على حسب مبادئه ، ولم يكن للمذهب الشيوعي أثر فيها غير أثر « التسمية » بعد شيوعها ، فلو لم توجد في روسيا دعوة شيوعية لقامت دعوة « سن ياتسن » على قواعدها وجرى تطبيقها كما شرحها مؤسسها قبل نيف وخمسين سنة وأعاد شرحها مرة بعد مرة عقب نشوب الثورة في روسيا دون أن يغير حرفاً واحداً من برنامجه الاول .

وليس الفارق بين الدعوتين من الفوارق التي تزول أو تضيق بعد التنفيذ والتطبيق . فان كثرة المنتفعين بحق الملكية الزراعية لا يهدر هذا الحق ولا يحول دون سريانه على أنواع من الملكيات الاخرى . وقد يكون الملك الذي ينتفع به مليون في أمة تعد بمئات الملايين مهددا بالزوال أو التغيير ، ولكن الامة التي كلها من الملاك لا يوجد فيها من يثور على حق الملك الا أن يكون من طلاب الزيادة فيه .

فالصين لا تواجه أمم العالم بمذهب يناقض نظاما من نظمها الاقتصادية في أساسه ، وثورتها لا تسمى « بالشيوعية » الا من قبيل التسميات المرتجلة التي تنساق مع ألفاظ العناوين ، ووجود الدعوتين منفصل في النشأة ، منفصل في الأساس ، منفصل في النتيجة ، لعله أقرب الى التناقض منه الى التعاون والاتفاق . .

على أن التعاون بين الدولتين أعسر ـ على طول الأمد ـ من التعاون بين الدعوتين .

فنحن لا نفهم شيئا من عبر الماضي والحاضر ان لم نفهم ان التنافس حتم بين الدولتين الكبيرتين في جوار واحد ، وربما كان أهون من ذلك خطرا ، وحتما ، لو تنافستا مع اختلاف الدعوتين ، فاما أن تطيق دولة تناهز مائتي مليون أن تخلق الى جانبها دولة تناهز ضعفيها عددا ولا تقل عنها موردا وعدة وثروة فهذا من خوارق العادات فيما كان وفيما سيكون .

وكل ما بدا حتى الآن من سياسة الدولتين يتمشى مع « تقاليد » الماضي قبل ثورة الروس وثورة الصين . فلما اتفقت الدولتان على معاهدة (٥ فبراير سنة ١٩٥٠) كان الخطر المشترك عندهما هو ذلك الخطر « التقليدي » الذي عرفته روسيا والصين في حروب الشرق الأقصى من عهد القياصرة وأبناء السماء . فلا تتقيد احداهما بالمعونة العسكرية للأخرى الا اذا وقع عليها الاعتداء من اليابان على انفراد أو في حلف من الأحلاف ، ولو أبرمت هذه المعاهدة في فبراير سنة ١٩٠٠ لما نظرت في السياسة الدولية الى عداوة مشتركة غير عداوة اليابان ومن يحاربون في صف اليابان !

***

ومن الفوارق التي ترتبط بنظام الدولة في روسيا والصين ان الولاء للمذهب الماركسي شرط من شروط الولاء للدولة في جميع الاقطار التابعة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية ، يعاقب الخارج على المذهب بعقوبة الخيانة العظمى ولا يقبل منه عذر من أعذار حرية الرأي اذا اجترأ على مناقضة مبدأ من مبادى المادية الثنائية في أصولها أو فروعها .

وهذه قداسة لا يعرفها الصينيون لمذهب كارل ماركس ولا لمذهب من المذاهب الفلسفية « المستوردة » من الخارج كما كانوا يقولون عنها في مطلع الثورة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وقد يكون « الصيني » ماديا ثنائيا مطلعا على فلسفة كارل ماركس في مصادرها وشروحها ، ولكنه لا يخرج بذلك من وراثته العريقة التي توحي اليه ان حكمة الصين هي حكمة الأولين والآخرين ، وأن واردات الغرب في العلم كوارداتها في الصناعة ، تؤخذ بما لها من قيمة موقوتة ولا تحسب من تراث الحكمة الخالد في أمة تتوارث أدب السلوك وهداية الحياة من الأسلاف الى الاعقاب ، وقد يناقض طبيعة الصيني - أصلا - أن ينطوي على « ايمان عام » يلازمه في الرأي والشعور ومسائل السياسة ومسائل المعيشة ، فهو يعرف الايمان « مفرقا » ولا يعرفه جملة واحدة محتويا لجميع عناصر الرأي والعقيدة .

وفي شهر فبراير (سنة ١٩٥٧) تكشفت في الصين وثيقة هامة كتبها « ماوتسي تونج » الى مجلس الحكومة الأعلى « ليعرض فيها خلاصة تجارب الثورة خلال

سنواتها الثمان . فقال في تلك الوثيقة « ان الماركسية الآن ليست من الازياء القومية الشائعة » وان السياسة الصينية يجب أن تعنى بنشر المبادئ والنظريات ولكن على غير الاسلوب الخشن العتيق ، بل يجب على الساسة أن يسلموا وجود الاختلافات المقبلة ما داموا يعتقدون أنها اختلافات وليست باضداد يقف بعضها لبعض بالمرصاد .

ويرى ماوتسي تونج في تلك الوثيقة أن الحكومة يحق لها أن تتولى تنظيم الأعمال القومية في خطوطها الواسعة دون أن تلغي حق المجتمع في تنظيم شؤونه ولا حق الجماهير في الابتداع والانشاء .

ولا يمنع الرئيس الصيني وجود الطوائف والجماعات في الأمة الواحدة ، ولكنه يقسمها في مجموعها الى قسمين متقابلين : أحدهما تتفق مصالحه ومصالح الأمة ، والآخر ينفرد بمصلحة خاصة تستغل المصالح العامة لمنافعها الضارة بغيرها ، ولا مانع من تعدد الطوائف مع اتفاقها في الوجهة العامة ، ولكنها اذا اختلفت وتناقضت لم يكن للمشكلة من حل غير الثورة الجانحة وتعذر تدبيرها على أساس التعاون بين الحكومة والمحكومين .

ولا نخال أن وثيقة من وثائق الاتهام في روسيا قد اشتملت على « مروق » أشد من هذا المروق من دستور الشيوعية المقدس في عرف الماركسيين ، ولا أن « المدعي العام » هناك بحاجة الى سند أقوى من هذا السند للمطالبة بتوقيع أشد العقاب على أسوأ الخيانات .

وسوف تقترب الدعوات وتبتعد في المستقبل الى اليمين والى اليسار ، ولكن الدعوة الروسية والدعوة الصينية تقتربان الى التنافس على كسب الميدان العالمي وتحرص كل منهما على كسب استقلالها والاحتفاظ بكيانها في وقت واحد ، وفي هذه الحالة لا تغتبط الدعوة بأن تصبح دعوتين ولا الدولة بأن تقوم الى جانبها دولة تشاركها في رسالتها ، فان دعوة واحدة في هذه الحالة اسلم من دعوتين ودولة واحدة أقوى من دولتين !

* * *

ان تجربة الصين أضخم التجارب في أمم العالم لضخامة البلاد التي وقعت

فيها ، ولكنها ليست بأدل تلك التجارب على الخلل المتأصل في جذور المذهب الماركسي ولا على العوائق العملية التي تحول دون تطبيقه في مجتمع من مجتمعات العصر الحاضر في المشرق والمغرب فربما كانت تجربة يوغسلافيا على صغرها ـ بالقياس الى الصين ـ أدل على ذلك الخلل وأولى منها بالتذكر في معرض البحث عن عيوب المذهب وبطلان نظرياته وتقديراته .

تلك التجربة التي تسمى الآن « بالتيتية » منسوبة الى « تيتو » زعيم يوغسلافيا ـ قد سبقت تجربة الصين بالزمن وبالدلالة . وقد نشأت في أول أمرها تمردا على استبداد الرفيق ستالين وتمردا على استبداد المذهب في شؤون الملكية الزراعية وأجور العمال والموظفين ، ثم ابتعدت من المذهب طورا بعد طور وسنة بعد سنة حتى اقترنت في الزمن الأخير بالثورة الصريحة على أصول المذهب وزعمائه المؤسسين لقواعده من ماركس الى لنين . فليس موضع الانتقاد عند فلاسفة يوغسلافيا الماديين ان فلسفة ماركس ولنين تحتاج الى التعديل عند التطبيق أو أن التطبيق ينتهي بها الى التصحيح في طور من أطوارها المرجوة في المستقبل ، ولكن الانتقاد اليوم قائم على هدم المذهب من أصول قواعده وعلى القبول الجازم بأنه ينشىء الطبقة المستغلة ولا يزيلها أو يزحزحها عن مكانها . . . وشارح هذه الفلسفة الحديثة ملوفان دجيلاس milovan djilas وزير الدعوة السابق في بلاده ينقل تعريف الملكية من القانون الروماني القديم وهو أنه « حق الحيازة والتمتع والتصرف » ويقول ان هذا التعريف يصدق حرفا حرفا على حق الطبقة المسيطرة على بلاد الشيوعيين في الاستيلاء على مرافق الدولة واحتكار رؤوس أموالها مع التمتع بها والتصرف فيها كما يفعل المالك بملكه ، وله كتاب مطول باسم الطبقة الجديدة يقيم الأدلة على صدق هذا الرأي بالاحصاءات والشواهد المستمدة من مصادر الحكومات والدواوين والمصانع والشركات ، ولا يعتقد المؤلف أن المذهب الماركسي يصلح لعمل نافع في علاج مشكلات العصر الا أن يكون هذا العمل تعجيلا منظما لحركة التصنيع في البلاد التي تخلفت فيها الصناعة وغلبت عليها عيوب البداوة في أساليب الزراعة ونظم الاقطاع .

الجزء الثاني
ولا استعمار

* مبدأ الاستعمار
* أسباب الاستعمار
* سباق الاستعمار
* أنواع المستعمرات
* آداب الاستعمار
* نهاية الاستعمار
* النموذج الجديد
* وبعد

مبدأ الاستعمار

ان تنازع الأمم لتغليب أمة على أمة وتسخير الأضعف منها في خدمة الأقوى بالانفس والاموال ـ ديدن قديم في التاريخ .

وهو قديم أيضا في التنازع بين الشرق والغرب منذ عرفت هذه التفرقة في تقسيم الأمم الى شرقية وغربية ، ولا شك أن هذا التنازع قديم سابق لعصور التاريخ . لأن البقايا الثابتة التي بقيت لنا مما قبل التاريخ تدل عليه ، ومن هذه البقايا وجود اللغات الهندية الجرمانية التي صدرت من أرومة واحدة سكنت زمنا في البقاع الوسطى بين القارتين الآسيوية والافريقية ، ثم اتجهت طائفة منها شرقا وجنوبا واتجهت طائفة أخرى غربا وشمالا في مواقع شتى تمتد من أقصى الهند الى أقصى الجزر البريطانية . فهذه الأصول الهندية الجرمانية هي في الوقت نفسه أصول التنازع والتغالب على رقعة واحدة من الأرض لم تتسع للنازلين بها من سلالة واحدة أو من عصبة لغوية واحدة ، ولا تكون هذه أول سلالة في هذه الرقعة ، مع قيام السلالات من حولها بين سامية وكوشية وطورانية وغيرها من الفروع أو الأصول المجهولة .

فالتنازع اذن قديم بين الأمم ، وهو قديم كذلك بين الشرقيين والغربيين أو بين من كانوا يوما من الأيام شرقيين أو غربيين . .

ولكن ليس هذا هو الاستعمار الذي يعنيه المؤرخ الحديث منذ القرن الثامن عشر ، لأن الاستعمار عند المؤرخ الحديث انما يطلق على حركة اجماعية ترمي الى غرض مشترك تحقيقا لدعوى واحدة تدعيها أمم متعددة في فترة محدودة ، لها عواملها وأسبابها التي لم تجتمع قط لحركة اجماعية من قبلها . فلا استعمار بهذا المعنى قبل الاستعمار المعروف في القرون الأخيرة ، بل لم توجد بين الأمم حركات اجماعية من قديم الزمن ، فكل ما ظهر من هذه الحركات في التاريخ فانما ظهر بعد عصور التاريخ القديم ، ولم يكن في الوسع أن يظهر قديما لأنه مرتبط بمرحلة من مراحل التاريخ العالمي لا يتهيأ لها

أن توجد قبل الأوان

وهذه الحركات الاجماعية في العصور المتأخرة متداخلة مشتبكة لا تنفصل احداها من الأخرى بفاصل حاسم يقطع الصلة بينها ، بل لا تخلو حركة اليوم كل الخلو من عوارض أمسها وغدها على صورة واضحة لا التباس فيها فمن كتب عن حركة اجماعية في القرن العشرين لم يتيسر له أن يفهمها حق فهمها دون الرجوع الى الحركة الاجماعية التي مهدت لها في القرن الثامن عشر ومهدت لها قبل ذلك في القرون الماضية .

وحركة الاستعمار احدى هذه الحركات ، لا نفهمها حق فهمها ما لم نرجع قبلها الى حركة الحروب الصليبية ، ولعلها أول حركة اجماعية قامت بدعوى واحدة في التاريخ العالمي منذ وعيناه وألممنا بالجوهري من دعاواه ودواعيه .

وينبغي أن نفرق بين الحركات الاجماعية التي تحدث من جراء التحالف بين دول عدة وبين الحركات الاجماعية التي تحدث من شيوع دعوى واحدة بين أمم متفرقة ، فانما يحدث ذلك التحالف لأنه خطة من خطط القتال في أقدم الميادين وأحدثها على السواء ، ولا تحدث الحركة الاجماعية للاتفاق في دعوى واحدة الا لأنها مرحلة في التاريخ العالمي شاملة للحكومات والشعوب مرتبطة بميادين القتال وبغير تلك الميادين .

والحروب الصليبية هي أكبر الحركات الاجماعية بين الغرب والشرق ، ولعلها أولها ومصدرها .

والاستعمار هو الحركة الاجماعية التي تليها وتستعيد الكثير من دعاواها ودواعيها .

لا بد لهذه الحركات من « دعوى » مشتركة أو من حجة عامة ، وهذا هو الفارق بينها وبين الحركات التي لا ترجع الى شيء غير توازن القوى واتمام العدة للهجوم أو الدفاع .

وقلما خلت دعوى من أثر يبقى فيها من آثار سابقتها كما تقدم ، وقد تجتمع الدعويان في وقت واحد الى حين .

وقد كانت دعوى الاستعمار قائمة على « رسالة الرجل الأبيض » أو على الأمانة التي اضطلعت بها الحضارة الأوربية لاصلاح أمم العالم .

وما كان في وسع القوم أن يخترعوا هذه الدعوى لو لم تسبقها دعوى مثلها من القارة الاوربية ترمي الى غاية كهذه الغاية في زمانها ونعني بها دعوى الحروب الصليبية .

ولقد مضى اليوم على آخر الحملات الصليبية نحو خمسة قرون ولا يمكن أن يقال انها اختفت من ميادين السياسة أو الدعاية ، ولا تزال لها رجعات تتردد طوعا أو كرها في تصريحات الساسة وتعليقات المؤرخين ، كما تتردد حينا بعد حين في مساعي الجماعات والآحاد .

يقول المؤرخ الهندي سردار بانيكار panikkar في كتابه « آسيا والسيطرة الغربية » بعد تمهيد وجيز عن عصر الامتداد الاوربي : « انه من الضروري لفهم الدافع الديني الاقتصادي السياسي وراء هذا الحلم وهذا المسعى أن نعرض بايجاز لبعض النزعات في التاريخ الأوربي خلال القرنين السابقين . فمن عهد صلاح الدين الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين أصبح الاسلام من قاعدته في مصر منظمة قوية حائلة بين القارتين الاوربية والاسيوية ، وانتهت الى غير طائل تلك الانفجارات الملتهبة من الحماسة والغيرة والحركة التي جاشت بالعالم المسيحي في الحملات الصليبية الثلاث ، واذا بالنصر الذي أحرزه صلاح الدين كما يبدو من وجهة النظر التاريخية في أثناء العصور المتأخرة قد أصبح عاملا من أقوى العوامل الحاسمة في تاريخ العالم ووطد السيادة الاسلامية على سواحل سورية ومصر لعدة قرون مقبلة ، ولم تخف هذه الحقيقة عن ساسة الغرب كما يؤخذ من توجيه الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١) الى مصر نفسها » .

الى أن يقول : « واذا كانت البرتغال قد أصبحت وريثة (جنوا) في الرحلات البحرية فقد أصبحت كذلك في القرن الخامس عشر وريثة المسيحية في وجه الاسلام ، ولم تسر روح الحملة الصليبية الى الجزيرة الاندلسية وحسب بل أضافت اليها وقدة من الحمية والنشاط في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد . اذ بينما كان الاسلام في رأي الممالك الغربية الأخرى خطرا بعيدا

كان هذا الخطر مرهوبا مخيفا على الأبواب في رأي أبناء قشتالة وأراغون وبرتغال » .

وليست هذه وجهة نظر هندية شرقية أوحاها الشعور الهندي الشرقي ، الى كاتب يمثلها من ناحية القومية ، بل هي وجهة نظر المؤرخ حينما نظر الى الموقف من جميع نواحيه .

وفي كتاب « أوربة والدنيا الواسعة بين سنتي ١٤١٥ و ١٧١٥ » يقول المؤلف الاستاذ باري parry : « ان خطة البرتغاليين نحو الشرق لم تكن قط مجرد خطة من خطط التزاحم على التجارة ، وما خطر لهم قط أن يضاربوا العرب والبنادقة بأسعار يخفضونها وبضائع من الابازير يغرقون بها الأسواق الأوربية ، وما كان في وسعهم أن يفعلوا ذلك لو أرادوا . وانما كان الموقف بين البرتغاليين والعرب من البداية موقف قتال عنيف ملأته العصبية بالمرارة .

ويقول وليام كارلتون من جامعة فلوريدا في كتابه عن تطور السياسة الخارجية الامريكية : « ان الحرب الاسبانية الامريكية سنة ١٨٩٨ - هي التي أدت الى العدول عن مذهب القارية الامريكية ، وكان من نتائج هذه الحروب أن امريكا ارتبطت بالفلبين على بعد سبعة آلاف ميل من قلب الشرق الأقصى ، وكانت حجج الاحتفاظ بها متعددة ، ومنها حكم القدر وأمانة الرجل الأبيض وفرصة تنصير الوطنيين وتوفيق الحظ بالاستيلاء على مكان الى جوار أرض القارة الاسيوية » .

وتراخى الزمن ولم تزل دعوة الدين ودعوة السياسة تتماشيان معا بعد أن دخل الاستعمار في آخر أطواره بالقارة الافريقية ، فكان دعاة الدين والسياسة يختلفون لأنهم مختلفون في المذهب الذي ينتمون اليه كما يختلفون على الدولة التي يعملون لضم البلاد المستعمرة اليها . وقال بارنز barnes في كتابه الامبراطورية أو الديمقراطية : « ان المسيحيين في أوغندة من أتباع الكثلكة والكنيسة البروتستانتينية ظلوا يتقاتلون بينهم ويسمى الآخرون في لغة أهل البلاد - وانجليزا - والأولون بتلك اللغة وافرينسا - وكم من مرة ضجت بينهم عداوة الجنس والدين » .

وكل من المؤرخين الشرقيين والغربيين يكتب تاريخه في النصف الأول من

القرن العشرين وهو يستمع الى خطب القادة الغربيين الذين تكلموا عن غزو فلسطين في الحرب العالمية الاولى فوصفوها بأنها الحرب الصليبية الأخيرة ، وبعد انتصاف هذا القرن يتناول تاريخ العالم ثلاثة من المؤرخين هم هيس hayes ومون moon وايلاند wayland فيلخصون أسباب الاستعمار العصري في أربعة هي (١) رغبة أصحاب الحماسة الوطنية في اضافة أملاك الى أوطانهم (٢) رغبة أصحاب الأعمال في فتح الأسواق وحماية التجارة (٣) فكرة الاستيلاء على بعض المواقع أو الدفاع (٤) الرغبة في تمدين الامم المختلفة أو تنصيرها .

وأولى الأمور بالملاحظة في هذا الصراع أنه يتكرر في بقاع الأرض بعد فصل الدولة والكنيسة في البلاد الفرعية ، وأن الدولة تعترف بالدعوة الدينية خارج بلادها لأنها تعتبرها دعوة سياسية تستعين بها على خصومها في مجال السياسة الدولية .

* * *

ومن هذه البداءة نعلم كيف انتهت أوربة الى رسالة الرجل الأبيض عنوان الاستعمار الحديث وميسمه الظاهر بين حركات التاريخ الجماعية .

فما استطرد الاوربيون الى هذه النتيجة الا من تلك المقدمة ، وما كانت رسالة الرجل الابيض وأمانة الحضارة الاوربية الا النسخة المنقحة من رسالة الخلاص الروحي وأمانة الاصلاح وتطهير الأرض من مفاسدها .

ولم يتحول الأوربيون الى هذه الدعوة الا لأن هذا التحول ضرورة قاسرة تفرضها مجاراة الزمن على أنصار الكنيسة ومعارضيها ، فقد كان القرن السادس عشر وما بعده فترة متسمة بالانشقاق بين أتباع الكنيسة والثورة على سلطانها ، فتحول المستعمرون الى النداء بأمانة الرجل الأبيض لأنه النداء الذي يعطي الاوربيين ما يذعونه من حقوق الفتح والسيادة ولا يلجئهم الى الاعتراف بالسلطة الدينية والتسليم بما تميز به بعض المستعمرين على بعض من حقوق التبشير والولاية . ولم يرفض أنصار الكنيسة هذا النداء الجديد . بل قبلوه وكرروه لأنه نداء يؤيد الدعوة الدينية في بعض معانيه ولا يستلزم حتما ان يلغيها او ينقصها ويسقط حقوقها ، ولعله كان وسيلة منتظرة للتوفيق بين روح الزمن الماضي وروح الزمن الحديث زمن الثورة العلمية والتبشير باسم الثقافة الانسانية . فمن أراد من المستعمرين أن يجاري العصر ولا ينشق عن الماضي أمكنه أن ينادي رسالة « الرجل الأبيض » كأنها كلمة مرادفة لرسالة القارة الأوربية تشمل بدعواها كل ما شملته دعوى هذه القارة قبل عصر الاستعمار بعدة قرون ، فان حجة الرجل الابيض انما هي حجة القارة الاوربية في جميع عصورها ، ويزداد عليها بعد عصر الحروب الصليبية انها امتدت الى الرجل الامريكي الذي صبغ الاقطار النائية فعلا بالصبغة البيضاء ، وحقق له السيادة على الأجناس الحمراء والسوداء .

ولا نحسب أننا نفهم سر انتقال الدعوة الصليبية الى الدعوة البيضاء الا اذا فهمنا أن الرسالة الجديدة جاءت لتحل محل الدعوة الصليبية كما جاءت لتمتد بها وتستفيد من سوابقها ، فنحن لا نفهم سر هذا الانتقال على حقيقة اذا فهمنا أن رسالة الرجل الابيض نسخة مكررة من الحروب الصليبية في جميع تفصيلاتها ، ولا نفهمه على حقيقته اذا فهمنا ان اللاحق من الدعوتين يلغي السابق في جميع تفصيلاته . وانما القول الفصل بين الامرين أن هناك اختلافاً كثيرا وهناك اتفاقا كثيرا بين الدعوة التي سلفت والدعوة التي حلت في محلها . وكذلك يكون الحال في كل شيئين حل أحدهما محل الآخر . . . ليست سيارة اليوم مناقضة لمركبة الخيل بالأمس ، وليست هذه بتلك في جميع أجزائها ومنافعها ، ولكنهما ـ بعد ـ شيء واحد في الغاية وشيئان مع اختلاف الزمن في الصنعة والتركيب .

أسباب الاستعمار

كل حركة كبيرة مشتركة في تواريخ الأمم لا بد أن ترجع الى أسباب كثيرة ولا تنحصر في سبب واحد بالغا ما بلغ من التشعب والاتساع .

وكل سبب واحد ينتحل لتفسير حركة من هذه الحركات يقصر عن تفسيرها في النهاية ، ولا يصلح لتحقيقها في التاريخ ما لم تقترن به أسباب مصاحبة له أو بغيدة منه في مبادئها وعواقبها .

والاستعمار حركة من هذه الحركات المشتركة في تواريخ الأمم الشرقية والغربية ، كل سبب فريد يذكر لها يقصر عن تفسيرها ، ويحدث مثله في فترة من فترات التاريخ فلا يؤدي الى مثل نتائجها .

قيل كثيرا ان سبب الاستعمار هو اغلاق الطريق على تجارة الهند والبلاد الشرقية .

ولكن تجارة الهند والبلاد الشرقية كانت متصلة من طريق غير طريق البحر الابيض المتوسط ثم أغلقت بعد فترة من الزمن ولم تنشأ من اغلاقها حركة ترمي الى السيطرة على تلك الطريق المغلقة .

كانت في روسيا طريق للتجارة الشرقية تسلكها الشركات الهولندية والبريطانية وشركات المواني على بحر الشمال ، وكان قياصرة الروس يشجعون هذه الشركات ويرحبون بها ويغنمون منها الاتاوات والهدايا في ذهابها وايابها ، ثم أغلقت الدولة الروسية هذه الطريق على الشركات الهولندية والبريطانية بعد استيلاء تلك الدولة على الشواطي الاستونية ، لأنها أرادت أن تحتكر الغنيمة كلها لنفسها وتشرف على سير القوافل من داخلها ، ولم تحدث من جراء اغلاق هذه الطريق على التجارة الشرقية حركة من قبيل حركة الاستعمار .

وقيل كثيرا ان حركة الاستعمار نشأت من زحام السكان في القارة الاوربية ونزوعهم الى الهجرة والتعمير في البلاد النائية .

ولا يصدق هذا التعليل على بلد واحد من البلاد الشرقية التي اتجه اليها المستعمرون في الخطوات الاولى من حركة الاستعمار . فان جملة النازحين الى الشرق من الاوربيين لا يكفون لتعمير قرية واحدة ، وكل من هاجر الى الشرق فانما كان يرتاده زائرا متاجرا ليعود الى وطنه ويستقر فيه بعد رحلة أو بضع رحلات ، وانما يصدق ذلك التعليل على المهاجرين النازحين الى القارة الامريكية ، سواء كانوا من البريطان والهولنديين أو من الاسبان والبرتغاليين ، وسواء قصدوا الى الشمال أو قصدوا الى الجنوب ، ولم تلبث هجرتهم أن تحولت الى اقامة دائمة فاتخذوا من مقامهم الجديد وطنا يملكونه دون أبنائه الاصلاء ودون الوافدين اليه على السواء .

وقيل كثيرا ان كشف الطريق الى الشرق كان سبب الاستعمار الأول ، وهو قول لا يمنع السائل أن يسأل : وما سبب الكشف عن ذلك الطريق ؟ ولكننا ندع هذا السؤال وننتهي مع الطريق المكشوف الى غاية مداه . فهل كان يكفي أن يكشف الاوربيون طريق الشرق ليستولوا عليه ؟ هل كانوا يصلون اليه مستعمرين لو أنهم كشفوه قبل ذلك بمائة سنة أو مائتين ؟ وهل كان من المستطاع أن يتم الاستعمار لو لم تصاحبه بواعث الحروب الاندلسية ونزاع المذاهب الدينية وبحوث العلماء عن الجغرافية والفلك وتقدم الملاحة في الغرب مع تقدم الصناعة وتقدم التسليح ؟

وكل أولئك هل كان يكفي لنشأة الاستعمار لو لم يكن حكم الرجل الأبيض للرجل الأبيض في القارة الاوربية قد وصل الى نقطة من نقط التحول التي لا : - بعدها - من التغيير .

فما كان الرجل الابيض ليفكر في دعوى الأمانة على حكم الدنيا وهو مسخر للحكم أو قابل للتسخير ، وقد كان هذا الرجل الابيض مغلوبا على أمره في عهد الامبراطوريات الاوربية التي دانت لها بالطاعة شعوب أوربية متعددة الأجناس واللغات ، ثم تمزقت هذه الامبراطوريات وخرج منها أمراء الاقطاع بفتات من السلطة والاستقلال ، ثم تجمعت الأوطان التي تدين بالطاعة لأبنائها وتأبى الخضوع للحاكم الاجنبي عنها ، ثم نبتت أمانة الرجل الابيض حين نبت الرجل الأبيض المستقل بحكم نفسه عن غيره من أبناء جنسه ، ولهذا تأخر في ميدان الاستعمار أولئك الأوربيون الذين وجدوا في قلب القارة من يحكمونهم

ويقنعون بحكمهم ، ولعلهم لو استقلوا جميعا بحكم أنفسهم قبل عهد الحضارة الحديثة التي اشتهرت باسم الحضارة الاوربية لما تخيلوا لهم رسالة انسانية يحسبونها معلقة في عنق الرجل الأبيض ، ولوقفوا عند حد الرسالة الدينية التي اندفعوا اليها زمنا في حملات الصليبيين .

* * *

وربما اكتملت في قوم من الأقوام جميع البواعث والأسباب التي تحسب من بواعث الاستعمار وأسبابه ، ولكنهم لا يتحركون لاستعمار قطر من الأقطار قبل أن يتم لهم كيان دولي أو شخصية سياسية ، وكذلك كانت حال ايطاليا في عهد الاستعمار قبل استقلالها وبعد اتحاد أجزائها في دولة مستقلة ، فان أطوارها الاجتماعية والاقتصادية قبل الاستقلال لم تكن تختلف في شيء جوهري عن الاطوار المعهودة في اسبانيا والبرتغال مما كان سببا في رأي المؤرخين لدخولهما في حومة الاستعمار ، ولكن ايطاليا ـ غير المستقلة ـ لم يكن في وسعها بطبيعة الحال أن تدخل الحومة كما دخلها الاسبان والبرتغاليون ولا بد لها من السيادة القومية أولا قبل أن تفكر في بسط السيادة على غيرها . فلما ظفرت بهذه السيادة لم تكن أسبابها الاجتماعية أو الاقتصادية هي الحافز لها على استعمار الاقطار الشرقية ، ولم تكن لها رؤوس أموال تثمرها في خارج بلادها ، ولا معامل صناعية كبرى تحتاج الى المستعمرات لتصريف مصنوعاتها أو جلب خاماتها ، وانما كانت مسألة الاستعمار في لبابها مسألة « وجاهة دولية » ومناظرة بينها وبين الدول اللاتينية التي سبقتها الى المضمار وأصبحت في عداد الدول الكبرى لأنها في عداد الدول التي تملك المستعمرات وتحكم الشعوب .

فعلى خلاف الشائع عن ضرورة الاستعمار لتثمير الأموال في الخارج كانت شركات ايطاليا في الخارج الى سنة ١٨٨٠ تصفي رؤوس أموالها وتسلم أعمالها للحكومة لتدبرها باشراف موظفيها . ففي سنة ١٨٧٠ أسست الشركة الملاحية الكبرى ـ شركة روباتنيو ـ مرسى لها في ميناء عصب على البحر الأحمر ولم تمض عشر سنوات على تأسيسه حتى كانت قد باعت سفنها وأسلمت مرساها للحكومة خوفا من اشهار افلاسها . ولما حاولت الحكومة أن تستفيد من هذه

السفن ـ بعد الاستيلاء على ميناء مصوع أيام حرب الدراويش ـ تحرجت العلاقات بينها وبين أمراء الحبشة وتعذر الاتفاق بين الطرفين على نقل الصادرات والواردات بواسطة القوافل أو السفن الايطالية . ولم يكن عند الدولة الناشئة فضل مال تنفقه على الحرب لارغام أمراء الحبشة على قبول معاملتها ، ولم يكن لها فضل من التجارة تروجه في خارج بلادها ويكفي لاستخدام سفنها في البحرين الابيض والاحمر . بل كانت معاهدتها التجارية مع فرنسا قد انقطعت في تلك الآونة لحنق فرنسا من مسايرة وزارة كريسبي للسياسة الألمانية في أوربة الوسطى ، فلم تكن عند الايطاليين أموال يديرونها يومئذ في الصناعة أو التجارة ويطلبون من أجلها ادارة المستعمرات ، ولولا البواعث النفسية ـ بواعث الوجاهة الدولية ـ لما شعر الايطاليون بضرورة قط تلجئهم الى الدخول في حومة الاستعمار

ولعل هذه البواعث النفسية كانت في الحرب الايطالية الحبشية الأخيرة أظهر منها في الحرب الأولى التي أعقبت أزمة سنة ١٨٩٦ وانتهت بالهزيمة النكراء في عدوة . فان العظمة الرومانية التي حاول موسليني أن يبني عليها مجد ايطاليا الفاشية كانت ضربا من الخيلاء الخاوية أمام شبح الهزيمة النكراء في الحرب الحبشية الأولى ، وقد أراد موسليني في الواقع أن يغزو بلاده بالدعوى والدعاية حين أقدم على غزو الحبشة بعد أربعين سنة من العار وسوء السمعة العسكرية ، وأراد أن يغزو أوربة بالدعوة والدعاية بعدما افتضح من ضعف ايطاليا وتسليمها في الحرب العالمية الاولى . ولو أن الحملة الايطالية على الحبشة صفيت من جميع هذه البواعث النفسية لما بقي لها باعث اقتصادي أو سياسي يغري الحاكم المسؤول بالتصدي لمشكلة الحرب وما يتبعها من سوء السمعة وسوء العلاقة بالدول الأخرى .

وكم تقلب من أسباب الاستعمار بين رحلات البرتغال في القرن السادس عشر وبين غزوات الايطاليين من أواخر القرن التاسع أي أوائل القرن العشرين ؟ فهل يخطر على البال أنها أسباب واحدة عملت في ثلاثة قرون وعملت في روما كما عملت في مدريد ولشبونة وعملت في هذه جميعا كما عملت في لندن وباريس وبرلين وبروكسل وأمستردام ؟

انما هي حركة التاريخ كله بما احتواه من عوامل الحياة المشتركة بين الأمم والحكومات ، وكل اختزال لهذه العوامل فهو اختزال للحقيقة في فهم كل حركة كبيرة من الحركات العالمية .

وأوجز ما يمكن من التلخيص لهذه العوامل المتغلغلة في جوانب الحياة الانسانية أن نثوب بها الى شطرين كبيرين يقتسمان بينهما تلك العوامل في تفصيلاتها ، وهما شطر العوامل النفسية وشطر العوامل الاقتصادية ، وأول الشطرين أرجحهما وأقواهما على الدوام في جميع الحركات التاريخية الكبرى ، ومنها حركة الاستعمار .

لهذا كانت البرتغال أسبق من انجلترا الى المضمار ، ولو لم تكن العوامل النفسية قوتها الراجحة في هذه الحركة لكانت انجلترا أولى بالسبق اليها . اذ كانت عندها السفن وعندها الخبرة بالملاحة وعندها الحاجة الملحة الى التجارة الخارجية وعندها بوادر الصناعة الحديثة وأدواتها وعندها الشركات التي ترتبط بكل مكان في القارة الاوربية .

* * *

ولا حاجة الى الاطالة في سرد المسائل التي تنطوي في شطر العوامل النفسية ، فهي تتلاقى بجملتها في الدين والعنصر والأفكار العلمية .

ولا حاجة كذلك الى الاطالة في سرد المسائل الاقتصادية . فهي تتلاقى بجملتها في التجارة والصناعة وأحوال المعيشة .

أما عامل الدين فتكفي نظرة اجمالية في تاريخ أوربة منذ القرن الثاني عشر الى مفتتح عصر الكشوف لنعلم أن الشواغل الدينية كانت تغمرها في مشرقها الى مغربها فلا يتأتى أن تصدر عنها حركة عامة دون أن تمتزج بالدين في ناحية من نواحيها ان لم تمتزج به في جميع نواحيها . ففي عصر الصليبيين شملتها الدعوة الدينية من القسطنطينية الى الجزر البريطانية ، ثم انقسمت القارة الى ثلاثة معسكرات في الشرق والوسط والمغرب ، لم يكن معسكر منها يخلو من مشكلة حيوية لها علاقة وثيقة بالدين . فكانت أوربة الشرقية مشغولة بمدافعة الترك العثمانيين عن حدودها ، وكانت أوربة الوسطى مشغولة بمقدمات حرب

الثلاثين وجرائرها فضلا عن المنازعات بين الكنيسة وطلاب الاصلاح ، وكانت أوربة الغربية مشغولة بأمثال هذه المنازعات مع اشتغالها ببقايا الفتن المتخلفة في حروب الاسبان والبرتغال والمغاربة .

ففي مثل هذا الجو الذي تغمره الشواغل الدينية لا يتأتى أن تصدر عن القارة حركة عامة بمعزل عن البواعث الدينية في تدبيرها أو تنفيذها .

وليست مسائل العنصر بأقل من مسائل الدين شأنا في امتزاجها ـ تدبيرا وتنفيذا ـ بأسباب الحركات العامة .

ويبدو لنا أن المؤرخين الاوربيين لم يولوا مسائل العنصر حقها في تقدير الحوادث السياسية بل في تقدير الحوادث الدينية التي نشأت من تنازع السيادة بين العناصر القومية ، فما من مشكلة دينية خلت من مشكلة عنصرية تسبقها أو تصاحبها ، وما من خلاف على المعتقد خلا من آثار الخلاف بين طبائع الأقوام التي تتألف منها شعوب القارة الاوربية ، وهي في مجموعها شعوب اللاتين وشعوب الجرمان والثيوثون وشعوب الصقالبة أو السلاف .

لم كان اللاتين جميعا الا القليل منهم تابعين للمذهب الكاثوليكي والكنيسة الرومانية ! ؟

ولم كان الجرمان والثيوثون جميعا الا القليل منهم تابعين لمذاهب لوثر وكلفن وغيرهما من الخارجين على مذهب الكثلكة ؟

ولم كان الصقالبة جميعا الا القليل منهم خارجين على المذهبين ؟

بل لماذا بقيت الكثلكة حيث اجتمعت السيادة العنصرية وسيادة الامبراطورية المقدسة في الدولة النمسوية ؟

ليس أدل على تغلغل هذا الباعث العنصري في كل علاقة بين شعوب الغرب من بقاء آثاره في علاقات المستعمرين خارج القارة كما حدث في علاقات الانجليز والهولنديين والاسبان والفرنسيين .

لقد اختلف هؤلاء المستعمرون وتصارعوا على الأملاك والأموال في القارة الاسيوية ولكن الانجليز والهولنديين تفاهموا على المساومة حيث تعذر هذا

التفاهم بين الانجليز والفرنسيين وبين الانجليز والاسبان ، في أوائل عهد الاستعمار . فكان الخلاف بين الجرمان واللاتين ـ حيث كان ـ خلاف محو واستئصال يقابله خلاف التفاهم والمساومة كلما اختلفت أمتان من عنصر الجرمان والثيوتون .

ولم يزل هذا التنافس بين العنصرين اللاتيني والجرماني قويا الى أيامنا هذه في القرن العشرين ، ولكنه كان على أشده في أيام نشأته عند نهاية القرون الوسطى ، قبل قيام الدول الجرمانية الكبرى ووقوع التنافس بينها على السيادة العالمية ، كما تنافس الألمان والانجليز حتى لجأ هؤلاء الى محالفة الفرنسيين ولجأ أولئك الى محالفة الطليان .

وقد بدأ التنازع بين العنصرين على السيادة العالمية في قلب القارة الاوربية ، ثم امتد الى القارات الأخرى عند اتجاه الاوربيين الى الاستعمار في الشرقين الأقصى والأدنى ، فلم ينعزل هذا التنافس قط بين العنصرين في خطوة من خطوات الاستعمار الأولى ، سواء ظهرت في صورة الخلاف بين مذاهب الكثلكة والمذاهب البروتستانتينية ، أو في صورة الخلاف على مزايا الحكم أو مصالح التجارة والسياسة .

ولا مندوحة من الالتفات الى هذه الدعوة العنصرية في كل مرحلة من مراحل الاستعمار منذ نشأته الى أيامه الأخيرة قبل الحرب العالمية الثانية . فان هذه الدعوة العنصرية لم تختف قط من جو السياسة العالمية على ضيعة من الضيع ولمناسبة طارئة بعد مناسبة مدبرة ذهب أوانها . فلما اتفق الجرمان واللاتين والصقالبة على الاستعمار ظهر شعار الرجل الأبيض مقتبسا ولا شك من أصول الدعوة العنصرية ، ولما خيف أن يختلف المستعمرون من الجرمان واللاتين والصقالبة ظهرت صيحة « الخطر الأصفر » لتوحيد الدول المستعمرة في وجه الأمم الشرقية الثائرة ، ولما انقسمت أوربة انقسامها الحاسم بين الحربين العالميتين كانت الدعوة الآرية أجهر الدعوات المترددة في جوانبها وانتشرت مع الدعوة الارية دعوة مصاحبة لها تفرق بين الاريين الأصلاء والاريين الدخلاء وتقسمهم الى طبقات تتفاوت في حقوق الحكم والسيادة على غيرها من

الشعوب من بيض وصفر وسمر وسود .

* * *

أما الأفكار العلمية التي كان لها أثر في نشأة الاستعمار فأهمها فكرة « استدارة الأرض » وامكان الوصول الى مشرقها من الاتجاه الى آفاقها الغربية .

وهذه الفكرة ، في أسلوب تأثيرها على الحوادث ، نموذج لسائر الأفكار العلمية في خضوعها لدواعي المصلحة وفي اخضاعها لتلك الدواعي بالمشيئة والاقناع .

فالاوربيون الغربيون كانت لهم مصلحة تضطرهم الى البحث عن طريق للتجارة مع الشرق غير طريق البحر الأحمر وما جاوره من بلاد العرب والترك العثمانيين ، وكانت فكرة استدارة الأرض توافق البحث عن الطريق المقصود وتؤدي الى تحقيق المصلحة المطلوبة ، ولكن هذه المصلحة لم تخلق فكرة الأرض الكرية ولم تكن وحدها كافية للقيام بالرحلة الى الافاق الغربية . بل اجتهد كولمبس سنوات لاقناع أصحاب المصلحة بمصلحتهم ، ثم أقنعهم بها فلم يصل الى ما أراد ولا الى ما أرادوا من جميع رحلاته ، وجاءت خطته في الكشف خاضعة لفكرته العلمية ولم تكن فكرته العلمية خاضعة لخطته . اذ لولا ايمانه باستدارة الأرض لطلب الكشف من طريق آخر كما طلبه البرتغاليون من طريق الطواف حول القارة الافريقية .

ولعل الفكرة العلمية أفادت كولمبس وأفادت عصره كله من ناحيتها العامة التي بعثت في النفوس حب البحث والاستطلاع وجعلت الوقوف على كرية الأرض بالتجربة العملية مطلبا مستحقا للبحث عنه مع ما فيه من النفع والمصلحة ، ولولا حب الاستطلاع لكان اهتمام التجار بالكشوف والرحلات مقدما على اهتمام الرحالين والمغامرين ممن يخدمون التجارة وليسوا من ذويها ، فلم يقم كولمبس بالرحلة لأنه تاجر أبرع من زملائه ولا لأنه تاجر أحرص منهم على الربح والثراء ، ولكنه قام بها لأنه مغامر علمي يحفزه التطلع الى المجهول قبل كل حافز من الكسب والغنيمة .

أما شطر العوامل الاقتصادية في نشأة الاستعمار فقوامه كما هو معلوم تجارة

المشرق في أصناف الابازير والأنسجة والطيوب ، وقد تكررت الاشارة الى هذه التجارة في كل حديث عن أسباب الاستعمار حتى خيل الى الناس أنها هي السبب الوحيد للحملة على المشرق وأنها كانت كافية وحدها لابتداء هذه الحملة والمثابرة عليها ، ولكنه ظن مبالغ فيه واشاعة من قبيل الاشاعات التي تثبت بالتواتر ولا تثبت على التمحيص والاستقراء ، فما كانت تجارة المشرق كافية بغير العوامل الاخرى لخلق حركة الاستعمار في حينها ، وهي ـ سواء دارت على الابازير والانسجة ـ لم تكن مما يهم القائمين بالاستعمار خاصة بين الاوربيين ولم تكن مما يعييهم أمر الحيلة فيه . .

فالابازير كانت لازمة على الأكثر لعلاج الأطعمة وحفظ اللحوم في البلاد الباردة التي تحتاج الى اللحوم المحفوظة خلال أشهر الشتاء ، وليست بلاد الاسبان والبرتغال من هذه البلاد ولا هي من الاقاليم التي يعييها تدبير غذاء الشتاء بغير علاج الابازير . وقد مضى على أبناء أوربة الوسطى وأوربة الشرقية زمن طويل تعودوا فيه أن يقنعوا من هذه الابازير بما يصل اليهم من طريق القوافل الروسية والبلقانية ، فلم يكرثهم أن يفقدوا مواردها من غير تلك الطريق .

والانسجة كانت من مطالب الترف التي يقدر عليها أصحاب الثروات الواسعة ويملكون وسائل استيرادها في طريق البر والبحر في بلاد الفرس والترك العثمانيين ، وقد كانت للشركات الانجليزية « مكاتب توكيل » في البصرة وحلب وسواحل فلسطين عملت في نقل التجارة بعد انتظام الطرق البحرية حول القارة الافريقية ، وكان في الوسع قبل ذلك تعميم هذه المكاتب والوكالات على طول المسافة بين سواحل الخليج الفارسي وسواحل فلسطين ، كما كان في الوسع أن تذلل عقبات السفر والاتجار في بلاد الترك العثمانيين بالامتيازات الأجنبية التي أخذوا في السماح بها من عهد سليمان القانوني فالذين يذكرون التجارة الشرقية ويحسبونها سبب الأسباب في نشوء حركة الاستعمار يبالغون ـ بل يفرطون في المبالغة ـ ولعا منهم بتعظيم شأن المسائل المادية في توجيه حركات التاريخ وغراما بتهوين شأن البواعث النفسية التي تمتزج على الدوام بتلك المسائل المادية كلما اتسع نطاقها وتناولت مختلف الأمم في مختلف الظروف .

وقد كان سوء المعيشة فاشيا في أرجاء متفرقة من القارة الاوربية يوم توجهت الكشوف الاولى للبحث عن طرق التجارة الشرقية ، ولكن سوء المعيشة هذا كان على أشده في أرجاء أوربة الشرقية وأوربة الوسطى ولم يدفعهم الى الاتجاه نحو المشرق القريب منهم بل دفعهم على نقيض ذلك الى الاتجاه نحو المغرب كما فعل قياصرة الروس وعواهل الدولة النمسوية ، وما كان سوء المعيشة في مرده الى أصوله الا نتيجة للازمات النفسية التي أثارت الشعوب تارة لطلب الاستقلال السياسي وتارة لطلب الحرية الدينية وتارة أخرى للتنازع على السيادة العنصرية . . . فلما تفرقت الأقاليم المستقلة واختل النظام في الأقطار الواسعة بعد تمزيق شملها وتفتيت مواردها بين صغار الأمراء وولاة الاقطاع تجمعت تلك الحالة السيئة واضطربت معيشة الملايين من أبناء القارة في مشرقها ومغربها ، وكان قصارى ما بلغ سوء الحال بتلك الملايين أنه استفزها الى الثورة في أوطانها أو رسم لها القبلة التي تنتقل اليها إذا خطر لها ان تهجرها . . . ومثلها في ذلك مثل الألمان يوم شاعت بينهم دعوة الاتجاه الى المشرق وتصايحوا بشعارهم المشهور « من برلين الى بغداد ، ومن بغداد الى الهند » ثم بقي الألمان في بلادهم وبقي هذا الشعار « قبلة مرسومة » عند أهل السياسة قلما يتعدى دواوين الحكومة والشركات . وكذلك حدث يوم ضاقت بالاوربيين سبل العيش في القرن السادس عشر وما بعده على أول عهدهم بحملات الاستعمار ، فقصارى ما بلغ الحنق بهم يومئذ أنه جعل الاتجاه الى الخارج أمرا قريبا من التفكير ، ولكنهم لم يفارقوا أوطانهم جماعات جماعات ليسلكوا طريق التجارة وينعموا بالانسجة والابازير ، وانما فارقوا أوطانهم جماعات جماعات بعد أن علموا أن السفر للاقامة الطويلة وانهم يسافرون الى الهند الغربية لا الى الهند الشرقية وينازعون الهنود الحمر ولا نزاع لهم مع هنود الانسجة والابازير .

وعلينا ـ بعد ـ أن نذكر أن عوامل الاستعمار ما بين مادية أو نفسية ـ تتناقض فيما بينها ولا تطرد على نهج واحد في جميع الحوادث والأوقات ولا في جميع الدول الغالبة والشعوب المغلوبة ، وهي لا تكون طبيعية معقولة الا اذا عرض لها هذا التناقض ووقع فيها الاستثناء كثيرا أو قليلا على حسب الأحوال . اذ كان الاستعمار قد استغرق من الزمن عدة قرون ومن المكان عدة أقطار ، وتقلبت

فيه الحوادث وطرأت عليه المفاجآت من آونة الى آونة ومن بقعة الى بقعة ومن قبيل الى قبيل ، ومحال أن يكون هذا كله قد دخل في حساب المستعمرين من الوهلة الأولى ، ومحال أن يكون للاستعمار حساب مختوم ينتهي بانتهاء الطبقة الأولى أو الطبقات التالية من أصحابه القائمين عليه . فاذا اصطدموا على ممر الزمن بمشكلة لم تدخل في تقديرهم ولم تكن في مقاصدهم فلا مناص لهم من مطاوعة الضرورات ومناقضة الغرض الذي كانوا يتوخونه يوم رسموا سياستهم لليوم والغد المعلوم أو المجهول . ولا عجب اذن أن نرى البنادقة والمماليك يتحالفون على البرتغاليين وأن نرى البرتغاليين والمسلمين يتحالفون على المغول ، ولا أن يكون بين الهولنديين والعرب حلف وبين الهولنديين والاسبان عداء . فهذا كله من اختلاف الاتجاه في عرض الطريق مع الثبات في النهاية على الطريق الأخير ، وقد يساعدنا على تصور هذا الاختلاف الموقوت أن نذكر أن السفينة تسير في الجنوب الى الشمال ـ مثلا ـ ولا يمنع ذلك أن يكون على ظهرها من يسير من الشمال الى الجنوب ، بل لا يمنع ذلك أن تعرج السفينة غربا وشرقا وفي كل اتجاه تضطرها عوارض الجو الى اتخاذه ريثما تعود فتنتظم في طريقها المقصود من الجنوب الى الشمال .

وفي تاريخ الاستعمار الشرقي أعمال متفرقة تحسب من النتائج الباكرة لتلك العوامل المادية والنفسية التي أجملناها فيما تقدم ، ولكننا اذا أردنا أن نميز بينها عملا واحدا ترتبط به جميع النتائج اللاحقة في استعمار الشرق لم نجد بينها ما هو أحق بالتمييز من استيلاء البرتغال على ميناء « سبتة » في سنة ١٤١٥ لأنه كان فاتحة المعرفة بالطريق وفاتحة الأعمال « المنفذة » في وقت واحد ، وأحرى بنا أن نرجع في سرد مقدمات هذا الحادث الى مؤرخي الغرب لننفي عن الخاطر مظنة الانقياد للشعور الشرقي في مسألة ترتبط بالعداء القديم بين الاستعمار وضحاياه .

تناول الاستاذ باري parry مقدمات هذا الحادث في كتابه عن « أوربة والدنيا الواسعة » وهو أوجز المؤلفات وأدقها في هذا الموضوع فقال في الفصل الثاني من الكتاب :

« ان الاستيلاء على سبتة وضع البرتغاليين في موضع يهيىء لهم معرفة وافية

بالقارة الافريقية لم تكن متهيئة لغيرهم من الاوربيين . فان الأمير هنري الملاح قد سمع في سبتة ـ ولا ريب ـ بالقوافل التي ترحل في الصحراء الى تمبكتو وتعود منها بالعاج والتبر مقايضة على البضائع من زنوج وادي النيجر ، ولعله سمع هناك بالطريق التي تتجه شرقا الى غانة محققة بذلك رجاء من يرجو أن تكون افريقيا شبه جزيرة خلافا لما قرره الجغرافي بطليموس ، ولعله قد سمع أيضا من المصدر نفسه بمصبات بلاد صنهاجة والنيجر التي قد يتبين لمن يتتبعها أنها اما أن تكون بواغيز متصلة بالبحر الهندي أو أنهارا تنبع في جبال القمر التي شاع في الاخبار المتناقلة أنها منبع الأنهار في وسط القارة الافريقية وغلب الاعتقاد بأنها منبع نهر النيل .

« وفي سنة ١٤١٩ ـ وهي السنة التالية لبعثته الثانية الى سبتة ـ قبل الأمير هنري منصبه الشرقي بولاية الجرف أقصى ولايات البرتغال في الجنوب ، فاعتزل البلاط الملكي وشواغل السياسة وأخذ في اقامة مستقره الصغير على « سجر » فوق رأس سان فنشنت هضبة البرتغال الصخرية الى الجنوب الغربي منها . وبقي ثمة يرقب المحيط الاطلسي بين حاشيته الصغيرة التي معظمها من أناس ركبوا البحر أو عناهم أمر التجارة والرحلات على متنه ، بين ملاحين وفلكيين وبناة سفن وراسمي خرط وصانعي أدوات وآلات تستخدم في الملاحة ، وكان كثير منهم ايطاليون دعاهم الأمير هنري للعمل على نفقته وتحت اشرافه ، وطفق في سنة ١٤٢٠ يبعث من ميناء لاجوس القريب سلسلة من البعوث للكشف عن السواحل الافريقية واستطلاع الطريق الى الهند ، وهي بلاد كانت معروفة بمحصولاتها وان لم يكن عند الاوربيين خبر عنها غير أخبار القصص والاشاعات ، ويفهم من يوميات (ازورارا) ان الأمير هنري كان يفكر في وجود الطريق الشرقية ويتوق الى فرصة سانحة لتحويل الأمم الزاخرة من أبناء الهند الى الديانة المسيحية ، ويرجو في الوقت نفسه أن يتمكن من عقد محالفة تجارية حربية بينه وبين مملكة الحبر حنا prester john ذلك الشبح البعيد الذي كان يومئذ يشبه أشباح الأساطير . أما أساس أخباره من الواقع فهو ولا ريب قائم على مملكة الحبشة المسيحية التي يحيط بها الأعداء من المسلمين ولا تزال للقبط كنيسة بها على جرف من الثبات . فاذا تسنى للبرتغاليين أن يصلوا الى مملكة الحبر حنا فقد بات المسلمون في افريقية الشمالية محصورين بين سدود

محكمة من المسيحيين ، ولعل البرتغاليين واصلون اذن الى مجرى من الماء في غربي افريقيا يبلغ بهم الى منابع النيل حيث ينحدرون معه ويدهمون المغاربة من خلفهم ، فان لم يتحقق أمل من هذه الآمال فحسبهم أن يعلموا أن القوافل ترحل من شمالي افريقيا للاتجار مع الزنوج على أطراف الصحراء ، ومتى اهتدى البرتغاليون بحرا الى بلادهم فهنالك يفتتحون معهم سوق التجارة الرابحة ويدخلون الكثير منهم في الديانة المسيحية ، ومن الجائز أن الأمير هنري كان له نصيب من ولع الاستطلاع العلمي الذي شاع بين الخاصة من أبناء عصره الى جانب هذه المقاصد التجارية العسكرية الدينية .

« وكان التقدم في السنوات الاولى بطيئا شديد البطء فلم تتمكن سفينة أوربية من تجاوز رأس بجادور الى الجنوب الا بعد أربع عشرة سنة ، وكان ميناء بجادور هذا أول معالم الطريق الى الغرب من افريقيا والعقبة المخيفة أمام السفن التي تتلمس مجراها عند سواحلها ، يصد الملاحين عنها تلك الرهبة من بحر الظلمات التي ورثوها من العرب وذلك الخوف من الامواه الغالية تحت شمس المدار بأشعتها الملتهبة التي وقع في أوهامهم أنها تصبغ من يصلاها بصبغة الزنوج السود . الا أن الأمير هنري كان من أولي الصبر والعزم وكان من أعوانه فتى ناشئ يسمى جيل ايانيس خرج في رحلة تطوف حول رأس بوجادور فثبت له ان البحر الى جنوبها والى شمالها متشابهان وتتابعت رحلات الكشوف بعد سنة ١٤٣٤ على نسق أسرع وأهدأ مما كان قبل ذاك .

« وكانت العقبة النفسية الأخرى التي كان عليهم تذليلها اعتقاد بعضهم أن الرحلات الافريقية لا طائل تحتها ولا منفعة من ورائها ، فظهر خطأ هؤلاء في سنة ١٤٤١ حين عادت احدى البعثات من الساحل الذي يقع قريبا من جنوب رأس بوجادور بكيس فيه تبر وجماعة صغيرة من أسرى الزنوج ، وقد بلغ عدد العبيد الذين جاءت بهم السفن البرتغالية بعد ذلك الى سنة ١٤٤٦ نحو ألف عبد بين مأسور ومشترى من زعماء السواحل من رأس بوجادور الى رأس برانقة التي كشفها الرحالون سنة ١٤٤٢ . وقد عومل هؤلاء العبيد معاملة رفيقة في عرف تلك الأيام . اذ كان سادتهم يعنون عناية دقيقة بتعليمهم عقائد المسيحية ويستخدمونهم أحيانا للترجمة في البعثات التالية ، واتسعت تجارة الرقيق بعد ذلك فبنى الأمير هنري معقلا ومصنعا مخصصين لها على جزيرة ارجيوم ، فكان

هذا المصنع أول معهد أوربي للاتجار وراء البحار .

« ولما رأى الأمير أن الكشوف التي أشرف عليها عادت ذات قيمة تجارية مجدية حصل على رخصة من الملك أخيه باحتكار التجارة مع سواحل غانة ، وأراد مع ذلك أن يجعل لمغامرات غانة صفة دينية محبوبة فحصل من البابوات المتعاقبين على براءات الغفران لكل من عمل في الكشوف الافريقية كما حصل على امتياز منهم بحق التبشير بالديانة المسيحية بين الزنوج . وقد كانت عادة الالتجاء الى البابوات في مسائل الكشوف وراء البحار تقليدا دبلوماسيا هاما من تقاليد ذلك العصر أسفر فيما بعد عن مآزق مضحكة يوم اشتركت اسبانيا وغيرها من الأمم في هذه الكشوف البحرية ، وانتفع بها الامير هنري في تحقيق برنامجه الأساسي الذي كان يبتغى به اخراج البرتغال من مشاكل السياسة في شبه الجزيرة الاندلسية وفي القارة الاوربية برمتها ، كي تشتغل بما هو أوفق لأبنائها الملاحين بناة السفن وأحرى أن يتيح لهم السبق على أمم أكبر منهم وأقوى » .

ووصل المؤلف أخبار هنري الملاح بأخبار أقدر الكشافين بعد وفاته وهو بارتلميودياس bartholmeu فقال : « ان المعروف عن دياس جد قليل ، فليست له صورة محفوظة ولم تبق من رحلته أخبار مفصلة ، ولعله كان من أصل وضيع كما كان أكثر الملاحين في زمنه ولكنه كان ولا ريب ملاحا عظيم القدرة والبراعة لأن فاسكو دا غاما vasco dé gama حرص بعد عشر سنوات أشد الحرص على الاهتداء في رحلته بهداية ارشاده ووصفه ، ونحن نعلم اليوم أن تجاربه كان عليها المعول في تركيب اسطول داجاما وتزويده بمعدات الملاحة .

« . . . . وكان لدياس نصيبه من يمن الطالع كما كان له نصيبه من القدرة والبراعة . فانه كان على خط عرض خليج والفش walfisch حين هبت على سفينته عاصفة قذفت بها بعيدا من مرأى الأرض ثلاثة عشر يوما حاول بعدها أن يقتفي أثر الميناء ليقترب من ساحل افريقيا الغربي فاذا به يرسي على خليج موصل في المحيط الهندي المنشود ، وهم أن يتابع رحلته لولا أن رجاله تعبوا وملوا وبدت عليهم بوادر الشغب والتمرد ، ورأى أن سفينته أصغر وأضعف عدة وزادا من أن يدفع بهما الى المغامرة في المجهول ، وكان قد ترك أزواده في خليج والفش فوافقهم على العودة اليها للقفول من ثم الى الوطن ، وكانت رؤيته للرأس الكبير الذي خرج للبحث عنه عرضا في أثناء الطريق ، وسماه كما

قال مؤرخه باروس barros رأس الاعاصير ، وانما كان الملك هو الذي غير هذا الاسم وسماه رأس الرجاء بعد أوبة دياس .

وتستطرد الأخبار من قصة دياس الى قصة أكبر الكشافين بعده فاسكو دا جاما vasco de gama صاحب العبارة التي لخصت أغراض الرحالين الاوربيين في كلمتين : « أبازير ومسيحيين . » ويقول المؤلف في استطراده من حيث انتهى الى رأس الرجاء : « انها قضى لها أن تظل رأس الرجاء المجتنب بضع سنوات . لأن طرق الهند قد بدا أنها مفتوحة ولكن الرحلات اليها ليست مما تقدم عليه الممالك الصغار بغير روية وتدبر ، وكان الملك قد شغل بالمتاعب السياسية ومنازعات الوراثة ، ثم ازدادت المشكلة تعقيدا بعودة السفينة ـ نينا ـ سفينة كولمبس الى نهر التاجوس في شهر مارس سنة ١٤٩٣ وركابها يزعمون أنهم بلغوا بها الى الشرق الأقصى من السواحل الاسيوية ، فاذا صدق كولمبس وجماعته فقد ذهب الشطر الأكبر من رحلات البرتغاليين في نحو قرن كامل سدى على غير جدوى ، وأفلتت الغنيمة التي لاح للبرتغاليين أنها في قبضة أيديهم فآلت الى أيدي الاسبان . وهي الحرب اذن لا محالة . . . ولكن البرتغاليين لم تخدعهم رواية كولمبس حقبة طويلة بل شغلتهم بمحاولات شحيحة يرمون بها الى الحيلولة بين الاسبان والاسترسال في الكشوف ، ولم تنعقد عزائمهم على تسيير أسطول الى الهند قبل سنة ١٤٩٥ ولم يخرج الاسطول في رحلته الا في سنة ١٤٩٧ وهو أسطول فاسكو داجاما الذي كان يتألف من سفن أربع ، ثلاث منها من ذوات الشرائع المربع والرابعة من مراكب السفر معدة للكشف وحمل البضائع للتجارة » .

ويقول المؤلف « أن داجاما مر بأماكن عدة على الساحل الشرقي من القارة الافريقية لتموين السفن بالماء والوقود والتقط في ميناء(ملندى) الملاح المسلم ابن ماجد الذي شاء الحظ أن يكون من نوابغ عصره في فنون الملاحة الفلكية فاستطاع بمعونته أن يعبر المحيط الهندي الى ميناء قليقوت أحد المراكز المشهورة لتجارة الابازير فقوبل هنالك مقابلة لا تبشر برجاء كبير ، وكانت حمولته من الحلى الصغيرة والأنسجة الصوفية بضاعة مزجاة في الأسواق الهندية ، ووجد حاكم قليقوت قليل الرغبة في التخلي عن علاقاته المجدية بالعرب الذين كان منهم عنده جالية من التجار بذلت غاية جهدها لاقناعه

بالاعراض عن مطالب البرتغاليين . ولكن داجاما قد استطاع بعد الالحاح والمشقة أن يجمع مقدارا من الفلفل والقرفة عاد بها الى بلاده وبدأت من ثم قصة الدسائس الاوربية الطويلة مع أمراء الهند الوطنيين ، واستغرقت رحلة داجاما سنتين قضى منها ثلثماية يوم على متن البحر وفقد ما يزيد على ثلث بحارته على الارجح من اصابتهم بداء الاسخربوط » .

يقول المؤلف بعد بيان حاجة الاوربيين الى الابازير : « ان انتشار تجارة الابازير في القرن الخامس عشر كان على اتصال وثيق بانتشار الاسلام غربا وشرقا منافسا للمسيحيين والهنود اذ كان الترك العثمانيون يفزعون أوربة الشرقية وكانت قبائل أخرى من أواسط آسيا تزحف على الهند حيث قامت أسر متتابعة على عرش دلهي وتفرقت على الساحل الغربي الى مدينة (جوا) عدة ممالك يحكمها السلاطين المسلمون فلم تثبت من بقايا الدول الهندية غير مملكة (فيجاينجار) الى الجنوب ، وكان الاسلام يمتد بحرا في تلك الآونة وتستولي الجاليات من أبنائه على مراكز التجارة في افريقيا الشرقية الى (موزنبيق) في الجنوب . وراح التجار المسلمون ينشرون ، ديانتهم في الهند الشرقية ويؤسسون ثمة امارات تعمل في التجارة يستوي فيها على العروش أمراء من أمة الملايا بالنسب ومن المسلمين بالعقيدة يشتغلون بتجارة الابازير في أهم الجزر التي تخرجها ، وحينما ذهب المسيحيون الاوربيون شرقا وجدوا المسلمين سبقوهم هنالك حتى لم يبق من تجارة الابازير الى سنة ١٥٠٠ شيء في غير أيدي المسلمين .

ثم يستطرد المؤلف الى ابتداء الغزوات البرتغالية فيقول بعد اشارة مجملة الى رحلات المبشرين في الشرق الاقصى : « ان القائد « البوكرك » لما ذهب في رحلته الأولى الى الهند سنة ١٥٠٣ لم تكن للبرتغاليين محلات يترددون عليها غير خانات ينزل بها عمال الملك أو وكلاء الشركات التجارية لشراء الابازير من الاسواق الساحلية ، ويعود اليهم بين عام وعام اسطول مسلح يبحر من لشبونة ليجمع منهم ما حصلوه خلال العام ، وعلى أمراء تلك الجهات يتوقف بقاء تلك الخانات ونجاحها فلا مناص للبرتغاليين لتحويل تلك المواقع المتخلخلة الى معاقل ثابتة ودول مسيحية واسعة من الاعتماد على اسطول ثابت في المحيط الهندي ، ولا مناص لذلك الاسطول من مقر بحري موفور الوسائل لتموين

السفن واصلاحها وتزويدها بالملاحين والصناع الذين يحلون مع الزمن محل من يهلك من زملائهم بآفات الجو والمرض ، ولا مناص لهم مع هذا وذاك من حصون تعززها طوافات تسيطر على مداخل المحيط ومسالكه ، وعليهم أن يحولوا تجارتهم القائمة على قاعدة لشبونة البحرية الى سلسلة من المؤسسات التجارية والملاحية تغطي الشرق الاوسط من أقصاه الى أقصاه ، وكانت هذه هي الخطة الجريئة الطموح بتكاليفها الفخام التي فرضها البوكوك على حكومته الشحيحة بعد أن أصبح في سنة ١٥٠٩ خلفاً للقائد الميداalmeida في الولاية على تلك الجهات » .

***

الى هنا يمكن أن يقال اننا رأينا أمامنا أسباب الاستعمار الواقعة في دور التنفيذ بين الاحجام والاقدام والمثابرة على الخطط أو العدول عنها بحكم الطوارئ والمناسبات .

وهذه الاسباب الواقعة في دور التنفيذ أولى بالالتفات اليها من الاسباب النظرية المستخلصة من الواقع حسبما يراه الباحث المتفلسف تطبيقا لمذهبه أو رأيه في مجرى التاريخ .

فكثيرا ما تضللنا الاسباب النظرية عن النتائج العملية ، لأنها تعطينا عن الحوادث صورة غالطة تجعلنا نتوقع ما لا يتوقع ونستغرب ما لا غرابة فيه ، وتليح لنا أن في الأمر تناقضا حيث ينبغي أن نرى الأمر على استقامة وسواء مع ما يقتضيه الواقع والتفكير الصحيح .

ولأسباب النظرية التي ينتحلها المتفلسفة لمعظم الحركات الكبرى كحركة الاصلاح أو كالثورة الفرنسية أو رحلات الكشف أو انقلاب الصناعة توهمنا أن هناك شخصا يعيش ثلثمائة أو أربعمائة سنة ويباشر العمل فيها جميعا لغرض واحد يعلمه منذ البداءة وينبغي أن تكون أعماله كلها على اطراد مع ذلك الغرض ، والا وجب أن نشك في الحوادث أو نشك في النتائج والمقدمات .

فهذه الصورة المغالطة لأسباب الاطوار التاريخية تضللنا عما كان وعما يكون ، بل تضللنا عما هو واقع بين أيدينا بالقياس الى ما يشبهه من الاطوار الغابرة .

ولو اعتمدنا على هذه الصورة الغالطة في تعليل أسباب الاستعمار لتمثلنا أمامنا « تجارة الابازير » شخصية متيقظة متربصة تسوق الناس أمامها سوقا الى تحقيق مرامها في مدى قرنين أو ثلاثة قرون فلا يملك الناس امامهاارادةيصيبون فيها أو يخطئون ولا يحتاجون الى تفكير المفكر ولا اقناع المقنع أمام تلك الشخصية التي تقودهم قهرا على حسب البرنامج المرسوم . .

أما الأسباب الواقعة في دور التنفيذ فنحن نعلم منها عمل الارادة وعمل الضرورة متجاورتين متساويتين في كل حادث كبير أو صغير ، ونعلم منها أنه ما من حادث يتم على وجه من الوجوه الا ومن الممكن أن يتم على وجه آخر لو سارت الأمور مسيرا آخر في بقعة قريبة أو بعيدة من الكرة الأرضية .

وما تقدم من قصة الاستعمار البرتغالي كاف لبيان أسباب الاستعمار الشرقي بين فعل الضرورة ونقل الارادة وبين الاصابة بالمصادفة والاصابة بالتقدير ، ولكن هذا كله لم يكن حتما لزاما لتحقيق وجود الاستعمار لولا ظروف أخرى لا عمل فيها لأحد من هؤلاء العاملين الفعالين فيما يبدو من قريب .

ماذا لو وصل البرتغاليون الى الشرق والاساطيل التجارية الشرقية أقوى من أساطيلهم بتركيب السفن وبما تحمله من عدة وسلاح .

وماذا لو انهزمت الاساطيل الشرقية مرة ثم عاودت الكرة فانتصرت في الكرة الثانية ووقفت محاولات البرتغاليين في خطوتها الأولى أو نكصت على عقبيها عند منتصف الطريق ؟

كل أولئك كان من الممكن القريب لولا اختلاف يسير هنا واختلاف يسير هناك لا يأتي من تدبير العاملين الفعالين ولا من وحي تجارة الابازير .

ان وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي كان في الواقع مرحلة مشكوك فيها من مراحل الاستعمار ولم يجعله مرحلة حاسمة ناجحة غير أمرين بعيدين من تسلسل الأسباب في هذا السياق .

أول هذين الأمرين أن السفن البرتغالية كانت أقوى بتركيبها وسلاحها وخبرة ملاحيها وأقدر على القتال من سفن التجارة الشرقية بين سواحل الهند وسواحل القارة الافريقية .

وثاني هذين الأمرين أن سفن المماليك التي كانت قادرة على مساجلة السفن البرتغالية قد خرجت من الميدان بعد هزيمتهم في مصر أمام الدولة العثمانية ودخول مصر في حوزة تلك الدولة . فان سلاطين الترك لم تشغلهم تجارة البحر الأحمر كما شغلتهم حروب القارة الاوربية ولم تحفزهم البواعث العاجلة الى بناء الأساطيل خاصة لمحاربة البرتغاليين في المحيط الهندي ايثارا منهم للغلبة على البنادقة في البحر الأبيض وهم أعداء البرتغاليين وأعداء الترك العثمانيين على السواء .

ان مقدمات الاستعمار في الشرق قد تمت يوم وصل البرتغاليون الى المحيط الهندي واعتمدوا على القوة في حماية طرق الملاحة وموانئ التجارة ، ولكنها تمت من جانب واحد هو جانب الغرب ، وكان من الجائز أن تنقطع عن نتائجها لو أنها صادفت في الشرق قوة تصدها وتثنيها على عقبيها .

الا أن الاحوال التي صادفها البرتغاليون في الشرق لم تكن خليقة أن تصدهم عن سبيلهم أو تكف غيرهم من المنافسين لهم على اللحاق بهم ، فاتصلت المقدمات بنتائجها على النحو المعروف لنا في التاريخ .

لقي أمراء الشرق طلائع الكشافين بالريبة التي يلقى بها كل غريب مجهول المقاصد والاسرار ، وعرفوا مقاصدهم التجارية والدينية فلم يحفلوها ولم يروا بينهم وبين تجار العرب وملاحيهم من فارق الا أنهم خبروا هؤلاء ولم يخبروا أولئك الطارئين من الغرب البعيد .

فلما ظهر أولئك الطارئون بقوتهم في البحار وانكشف من أغراضهم أنهم لا يقنعون بما دون السيطرة والاحتكار تنبه الأمراء الغافلون وسعى ملك قليقوت - أقربهم صلة بالبرتغاليين - الى التحالف عليهم مع أعدائهم من مماليك مصر ورؤساء البندقية ، وكان هؤلاء يسعون مثل سعيه ويحذرون الطارئين الواغلين مثل حذره ، فأسفرت مساعيهم عن استعداد المماليك بأسطول كبير ساعدهم البنادقة في بنائه لمنازلة أسطول البرتغال ، والتقى الاسطولان عند بمباي فكانت الغلبة في هذه المعركة للمماليك ، ثم تجددت المعركة وجمع لها البرتغاليون كل ما استطاعوا من السفن الممتازة بأجهزتها وأسلحتها وخبرتها بالبحار المختلفة فانهزم المماليك في هذه الجولة هزيمتهم الأخيرة (سنة ١٥٠٩)

لأنهم فقدوا ملك مصر بعدها حين افتتحها السلطان سليم الأول العثماني بعد تسع سنوات (١٥١٧) .

ولقد كان من المتوقع أن يعاود المماليك الكرة لانتزاع السيادة على المحيط الهندي من أيدي البرتغاليين فلا تتم لهم الغلبة عليه لولا ما أصاب المماليك من هزيمة لم تقم لهم من بعدها قائمة ، بل كان من الجائز أن يتصدى العثمانيون لمنازعة البرتغاليين لو كانت ملاحة المحيط الهندي تعنيهم كما كانت تعني المماليك ، ولكنها مصادفات التاريخ التي لا تقع للغالبين ولا للمغلوبين في حسبان ، وهذه احدى تلك المصادفات . .

وما هو الا أن ظفرت دولة غربية بالسيادة على طريق الهند حتى بدأ بين الدول الغربية ذلك السباق الذي تعاقبت أشواطه شوطا بعد شوط زهاء أربعة قرون ، وانتهى الى مداه أو كاد في منتصف هذا القرن العشرين .

سباق الاستعمار

من السهل أن نتخيل صدى الخبر الذي شاع في أوربة عن عودة الاسطول البرتغالي بالبضائع الشرقية بعد طوافه حول القارة الافريقية واهتدائه الى طريق الهند التي دام البحث عنها زهاء عمر انسان من المعمرين .

لقد أوشك أن يطلق الحكومات والبيوت التجارية في سباق طائش الى الهند الموعودة بغير قيد ولا ضابط . فاذا كان هذا السباق الطائش قد ثاب الى شيء من التؤدة فما كان ذلك عن حكمة ولا روية ، ولكنها شواغل الفتن الداخلية والحروب العامة والمنازعات على كشوف الاميركتين قد أرجأت ذلك السباق الى حين وصرفت القوم الى الخطر القريب اضطرارا فصبروا حقبة أخرى عن الأمل المنظور الذي اقتربوا منه بعد طول اصطبار . . !

وقد كان السباق بين الدولتين الرائدتين في ميدان الكشوف خطبا يسيرا من أول أمره الى نهايته ، لأن هاتين الدولتين ـ وهما اسبانيا والبرتغال ـ كانتا في كنف الرعاية البابوية تأتمران بأمرها وتستمدان النفوذ منها في الخلاف بينها وبين الدول الاوربية الاخرى . فاجتهد الفاتيكان اجتهاده في التوفيق بينهما وقسم المواقع التي تنكشف لهما حصتين محدودتين على قاعدة الكشف التي اعتمدت عليها كل منهما ، فجعل لاسبانيا جميع المواقع التي تنكشف على قاعدة السفر غربا للوصول الى الهند والصين ، وجعل للبرتغال جميع المواقع التي تنكشف على قاعدة الوصول الى الهند في طريق الطواف حول القارة الافريقية ، وتلحق بها البرازيل ، وأقيم بين الدولتين خط في وسط المحيط الاطلسي ملحوظ فيه ذلك التقسيم .

ثم انتهى السباق بين الدولتين بتوحيد العرشين ، فانزوت البرتغال من مجال الكشف والاستعمار وآلت السياسة الاستعمارية كلها الى العاصمة الاسبانية .

ثم دارت الدائرة على اسبانيا بعد هزيمتها البحرية في معركة « الارمادا » المشهورة ، فكانت هذه الهزيمة احدى المراحل الحاسمة في تاريخ الاستعمار ، بل في تاريخ العصر الحديث ، وبرزت في المجال ثلاث دول أوربية لم يكن لها شأن فيه الى ذلك الحين .

استقلت هولندة من سيطرة اسبانيا فنازعتها السلطان في التجارة وفي التبشير ، لأن التجارة الهولندية قبل الاستقلال كانت مسخرة للدولة الغالبة فانطلقت من قيودها طامحة الى السيادة في ذلك المجال المشترك الذي عرفته يوم كانت مسخرة فيه ، وأملى لها في طموحها أنها كانت تنازع السادة الاسبان في العقيدة كما تنازعهم في السيادة الاسبانية ، لأنها كانت تدين بمذهب « كلفن » وتنكر مذهب الكنيسة البابوية وتنكر معه حق الانفراد بالدعوة المسيحية .

وأكبر من هذا الأثر في مجال الاستعمار ظهور الدولة الفرنسية في مكان الزعامة بين دول القارة الاوربية بعد خروج هذه الزعامة من أيدي الدولة الاسبانية ، فان فرنسا أصبحت أكبر دول القارة مستعمرات في آسيا وافريقيا مع مستعمراتها في أمريكا الشمالية ، وأصبحت كذلك وريثة الاسبان في قيادة الكثلكة العالمية ولم تزل تتشبث بهذه القيادة فترة غير قصيرة بعد فصل الدولة والكنيسة .

وأكبر من هذين الأثرين معا في مجال الاستعمار ان الجزر البريطانية انفردت بالسيادة على البحار بعد هزيمة الاسبان البحرية ، فلا مبالغة اذا قيل ان بريطانيا العظمى قبضت على زمام السياسة الاستعمارية في العالم منذ معركة « الارمادا » الى ما بعد الحرب العالمية الثانية في منتصف القرن العشرين .

وكانت بريطانيا العظمى تنافس فرنسا القوية ولا تنافس هولندة الصغيرة ، بل لعلها ـ لولا بعض الخلافات العارضة ـ قد أخذتها تحت جناحيها لتعمل باسمها كلما دعا الأمر الى مقابلة الدعوى الفرنسية بدعوى أمة اخرى من الأمم الاوربية ، ومن ذاك أنها استولت على الأملاك الهولندية في الشرق بعد احتلال الفرنسيين لهولندا أثناء حروب نابليون ، لأنها كانت تحارب الفرنسيين وتحالف الهولنديين .

على أن هولندا ـ مع صغرها بالقياس الجغرافي والعسكري ـ توضع في

الصف الأول بين المستعمرين الأسبقين ، وتعتبر خطتها في التسلل الى المستعمرات بمثابة التجربة التي استفاد منها اللاحقون بها في الزمن ، ومنهم الانجليز .

.ومن فكاهات الحوادث ومناقضات الصروف أن دعاة الانجليز الى الاستعمار انما كانوا يأتمون بكتاب ألفه الهولندي لنشوتين linschoten (سنة ١٥٩٦) يصف به كشوف البرتغال ويقول مترجمه الى الانجليزية : « عسى أن تعمل هذه الترجمة الحقيرة عملها في أمتنا الانجليزية فتبعث فيها رغبة في مزيد من شرف الاستعلاء بين الأمم بالسيادة العالمية بفضل ما نبنيه من الجدران الخشبية » . . . يعني الأساطيل .

وتعتبر هولندة على صغرها شيخة المستعمرين في كثير من وسائل الاستعمار وتمهيداته من قبيل التبشير والاستشراق واستخدام المعاهدات والمحالفات في كسب الحقوق الشرعية ، وهي التي سنت للمستعمرين اللاحقين بها تحويله من عهدة الشركات الى عهدة الدولة ، فأنشأت مجالس الحكم الى جانب مكاتب الادارة ثم جعلته نظاما حكوميا تغلب الصفة الرسمية فيه على صفة الأعمال الشعبية .

وانما الجأ الدول الى انتزاع العمل من أيدي الشركات انها احتاجت الى الاعتماد على القوة لاكراه أبناء البلاد الشرقية على قبول معاملتها كما احتاجت الى القوة في منافسة بعضها لبعض وحماية الطريق بين مناطق النفوذ ، وقد اضطرتها طبيعة الاحتكار التي لا تفارق الاستعمار الى كف الشركات عن التنافس فيما بينها على رفع أثمان الشراء وخفض أثمان البيع مما ذهب بربح التجار وربح الدولة وكاد أن يقضي على الحركة في مهدها بعد فترة الرواج والازدهار الأولى ، وقد أثار هذا الرواج حسد الحاسدين بين أبناء الأمة الواحدة فهب فريق منهم يطلب من الحكومة أن تضع أيديها على شركات التجارة الخارجية واعانه على ذلك سوء السمعة الذي فشا حول أثرياء التجارة الجديدة وضجة الشكاية من مظالمهم في معاملة أبناء الشرق ومعاملة أبناء بلادهم العاملين في شركاتهم ، وهب فريق آخر الى مزاحمة أولئك الأثرياء بزيادة الأثمان التي يشترون بها بضائع الشرق وخفض الاثمان التي يبيعونها بها في

أسواق أوربة وغيرها من الاسواق ، فلم يبق في الدول المستعمرة من يعارض تحويل النظام بجملته من عهدة الشركات الى عهدة الحكومات ، وكانت سوابق هولندة أول تجربة لحكومات الغرب في هذا التحويل .

وسرعان ما اطردت الدول الثلاث ـ هولنده وفرنسا وبريطانيا ـ في سباقها الاستعماري حتى أدركتها على أعقابها كل دولة أوربية ثبت لها كيان قومي في محيط السياسة العالمية ، فلم يتخلف عن هذا المضمار غير الدول التي شغلتها مسألة الوحدة الداخلية في طور التكوين ، وكل دولة أوربية كانت مشغولة بمسألة من هذه المسائل بعد الشوط الأول من أشواط الاستعمار .

ومن ثم اختلطت صبغة الفخر ، وصبغة المظهر ، بهذا السباق كما تختلط بكل سباق ، فأصبحت المجاراة فيه مطلوبة لذاتها غير مشروطة بالمنفعة المرجوة منها ، وأصبحت حيازة الأرض المستعمرة علامة من علامات المساواة بين الدول الكبار ، تتطلع اليها كل دولة ناشئة ملكت سيادتها وقرنت بينها وبين السيادة على سواها ، وسرت العدوى الى كل دولة نشأت في أوربة أو في احدى القارات الأخرى ، فما هو الا أن تم لألمانيا وايطاليا كيان قومي حتى توثبت كلتاهما للدخول في المضمار ، وكذلك صنعت الولايات المتحدة في الامريكتين ، وكذلك صنعت اليابان في آسيا وجعلت من فخرها الاسيوي أن تكون أحق بالقارة العريقة من الأوربيين والاسيويين .

وظلت غايات السباق تكثر كلما كثر المتسابقون حتى استنفدت الشرق كله من أقصاه الى أوسطه الى أدناه ، وكاد الزحام على الشرقين الأوسط والادنى أن يغطي على الزحام الأصيل الى الهند والصين وجزر الملايا التي اشتهرت باسم الشرق الأقصى بعد تقسيم الشرق كله على حسب المسافات ، وتعاظم اهتمام المستعمرين بالشرقين الأوسط والأدنى لأغراض شتى تستوعب جميع أغراض الاستعمار .

« أولا » لأن الشرقين الأوسط والأدنى لازمان لحماية الطريق الى الشرق الأقصى .

و « ثانيا » لأنهما في أول الأمر كانا قبلة الطامعين لم يبحثوا عن قبلة غيرهما الا لعجزهم عن الاستيلاء عليها . فلما تألبت مطامع الاستعمار على الشرق كله

عادت اليهما أنظار الناظرين من قديم وجديد ، ولا سيما المتأخرين في سباق الاستعمار ممن دخلوا في الحلبة بعد فراغ السابقين الأولين من تقسيم غنائم الهند والصين والجزر الشرقية .

و « ثالثا » لأن أقطار الشرق الأدنى وبعض أقطار الشرق الأوسط كانت كلها بقايا تابعة للدولة العثمانية التي اصطلحت الدول الكبرى على تسميتها باسم « الرجل المريض » المتفق على تقسيم تركته حلا لما سموه يومئذ بالمسألة الشرقية . .

و « رابعا » لأن بلاد الشرقين الأوسط والأدنى أسواق صالحة لترويج المصنوعات الحديثة ، مذ كانت بلادا عمرتها الحضارة عدة قرون وعودت أهلها اقتناء اللوازمات والكماليات من مطالب الأمم المتحضرة ، فهي بهذا الاعتبار أنفع للدول الصناعة من مستعمراتها في القارة الافريقية وبعض مستعمراتها في القارة الاسيوية .

و « خامسا » لأن الحصول على خامات المواد الصناعية ميسور في بلاد الشرقين الأوسط والأدنى ، وتشاء المصادفات أن تظهر في هذه البلاد ينابيع النفط الذي يعول عليه أصحاب المصانع وأدوات المواصلات .

و « سادسا » لأن الدول التي تنتحل الدفاع عن مذهب من المذاهب تجد الذرائع ممهدة لديها للتدخل في شؤون الشرق الأدنى باسم الدفاع عن أبناء مذهبها أو الدفاع عن الأماكن المقدسة ، ويكفي لبيان سعة النطاق الدولي الذي تعمل فيه هذه الذرائع أن نذكر أن حرب القرم التي اصطدمت فيها روسيا وانجلترا وفرنسا وتركية وسردينية بدأت بخلاف على رعاية معهد من معاهد بيت المقدس يدعي الروس حق الأولوية في رعايته والاشراف عليه .

و « سابعا » ان الرقعة الوسطى بين القارات الثلاث موقع من أخطر مواقع الدفاع والهجوم في الحروب الكبرى ، وهذا هو الموقع الذي تقيم فيه أمم الشرقين الأوسط والأدنى وتتألب حوله كل تلك المطامع والتعلات .

***

ويبدو من مراجعة هذه الظروف المتشابكة أن بلاد الشرقين الأوسط والأدنى

أوفر مواقع الأرض حظا من المطامع التي تغري بالاستعمار والتعلات التي يتذرع بها المستعمرون للاقدام عليه ، فلو لم تكن لهذه الظروف المتشابكة ظروف أخرى تكافئها وتدفع شرورها لكانت مهمة الاستقلال أشق المهام على طلاب الاستقلال من الشرقيين في تلك البلاد .

الا أن الواقع أن الظروف من الجانبين تتكافأ وتتعادل ويرجح منها جانب الاستقلال على جانت العدوان كلما تقدم الشرقيون واشتد النزاع على بلادهم بين المستعمرين .

وفي الكرة الأرضية بلاد مستعمرة كثيرة تسكنها أمم على درجات متفاوتة من التعلم والاستعداد للحكم المستقل وعراقة النسب الى الحضارات الانسانية ، وليس بينها أمة أحق بمبدأ تقرير المصير من أمم الشرقين الأوسط والأدنى . فاذا اضطرت هيئات الأمم العالمية الى الاعتراف بمبدأ تقرير المصير فلا سبيل لها الى حرمان الأمم الشرقية من حقوقه ومستلزماته في عرض العلاقات العالمية ، كائنا ما كان باعث الاعتراف من نية الصدق والوفاء أو نية الختل والنفاق .

وإنه لهين الهين على ضمائر المستعمرين أن يمجدوا كل حق من حقوق تقرير المصير ومستلزماته لو لم تكن ثمة ضرورة أخرى تقسرهم الى الاعتراف بها الى جانب ضرورة الاعتراف بالحقوق والمستلزمات .

ولكن الضرورة الأخرى قائمة على الرغم من الضمائر والرغبات . .

وتلك الضرورة الأخرى هي خطر النزاع بين المستعمرين من الكتلتين الشرقية والغربية وخطر النزاع بين أعضاء كل كتلة على حدة ، فلا توجد مصلحة للدولة مستعمرة توازن الخطر على الدول جميعا من صدمات النزاع المتجدد وكوارث الحرب العالمية وتفاقم النذر باشتعالها في كل أزمة من أزمات القضايا الوطنية أو كل مشكلة من مشاكل السياسات المتعارضة في المعسكر الواحد أو في المعسكرين المتناجزين ، وأهون من ذلك أن تستقل أمم الشرقين الأوسط والأدنى وأن توكل مسائلها الى حيلة الساعة أو وحي المصلحة العاجلة لحظة بعد لحظة على حسب الطوارئ والمناسبات .

وغني عن القول ان « حيلة الساعة » لا تعطي المستعمرين طمأنينة الى

الشرقين الأوسط والأدنى يستقرون عليها . فغاية ما في حيلة الساعة أنها تعطيهم طمأنينة ساعة ، وكأنهم بحثوا عن حيلة طويلة الأجل تسعفهم عند الحاجة بطمأنينة مثلها فلم يجدوا أنفع لهم من دولة يصنعونها بأيديهم ، ولا يزالون على ثقة من حاجتها اليهم ، فهم يعطونها قرارها وهي تعطيهم ما يفتقرون اليه من قرار .

وكانت دويلة اسريل .

وكانت هذه البدعة آخر شوط من سباق الاستعمار في الشرقين الأوسط والأدنى .

فما أعجب هذه الوريثة النابية لمملكة أورشليم الأولى قبل سبعة قرون !

أنواع المستعمرات

من المعروف اليوم أن المستعمرات أنواع .

وانما جرى البحث في أنواع المستعمرات عندما شعر المستعمرون أنهم لا يستطيعون أن يعاملوا البلاد المغلوبة معاملة واحدة فقسموها الى درجات وكان معنى التقسيم الى درجات انها تزيد أو تنقص في بعض الحقوق .

فكان الاعتراف بأنواع من المستعمرات بمثابة الاعتراف الصريح بأنواع من الحقوق .

أما فيما عدا ذلك فقد كان كل ما يعرف للأرض المستعمرة أنها بلاد مملوكة لسيد مسلط عليها قادر على التصرف بها وبأبنائها تصرف السيد بالعبيد ، لا يحاسبه أحد في شأن من شؤونهم ان لم يحاسب نفسه عليه .

نعم ان المستعمرين عاهدوا بعض المستعمرات ولم يعاملوها معاملة البلاد المفتوحة بالسيف ، ولكنهم في معظم الأحوال عاهدوا تلك البلاد ليتخذوا من حقوق العهد حجة يقصون بها المزاحمين لهم من المستعمرين الاخرين ، أو اكتفوا بمعاهدتها لأنهم لم يشعروا بالحاجة الى فتحها ، أو لأنهم يرعون لها حقوقا يحترمونها ويحترمون أصحابها .

وحدث في بعض المستعمرات الاولى أن ذوي الرأي بحثوا فيما يحق للرعية الوطنية من المعاملة الشرعية تحديدا لسلطان الولاة أو تحديدا لسلطان الملوك والأمراء .

غير أنهم نظروا في هذا الأمر لأن حقوق الملوك كانت في القرون الوسطى محل بحث بين الفقهاء بالنسبة الى حقوق الله ، ولأن الرعايا الأوربيين هم الذين نقموا من الملوك اطلاق سلطانهم وطغيان جبروتهم على نبلاء قومهم وعامتهم ، فلما وجد لهؤلاء الملوك رعايا من غير الأوربيين في الأمريكتين بحث الفقهاء في حقوق هؤلاء الرعايا وتساءلوا : هل يسري عليهم ما يسري

على الرعية الصالحة من الأوربيين أو أن لهم حكما خاصا يجيز للملوك والولاة في معاملتهم ما ليس يجوز للراعي الصالح في معاملة الرعية الصالحة .

وجاء البحث « أولا » من فقهاء الدين لأنهم نازعوا الولاة سلطانهم في معاملة أبناء البلاد الأصلاء ، وأرادوا أن توكل اليهم سياسة أولئك القوم لهدايتهم وتبشيرهم وادخالهم في زمرة « الرعية الصالحة » التي تجب لها رعاية حق الدم وحق المال .

واتفقت آراؤهم بعد الخلاف الطويل على أن التدين بالمسيحية شرط لاستحقاق صفة الرعية الصالحة ، فاذا عومل الوطنيون غير المسيحيين بشيء من الهوادة فانما هي الهوادة التي يستحقونها في سبيل اقناعهم بقبول التبشير .

وبديهي أن هذا البحث انما كان فرعا للبحث الأصيل عن حقوق الرعية الصالحة ، ولم يكن له باعث من النظر في انصاف المغلوبين ، وبخاصة من كانوا مغلوبين منهم بقوة السلاح .

فالاستعمار قد نشأ ولا محل فيه للاعتراف بحقوق أو مبادئ متفق عليها لمعاملة المستعمرين ، ولكنه كان يضطر الى التسليم بشيء من حقوقهم كلما تبين له أن معاملتهم على سواء لا تتأتى من الوجهة العملية ، وقليلا ما دخلت القيم الانسانية والأخلاق المثلى في حسابهم يوم أخذوا في التمييز بين أتباعهم ، وانما كان المرجع في ذلك الى النعرة العنصرية التي قادتهم الى اختراع أمانة « الرجل الأبيض » تسويغا لحكم الشعوب واغتصاب البلاد . . . فكان نظام الدومينيون ـ أرقى النظم الاستعمارية ـ قسطا محتكرا للبلاد التي يسود فيها الرجل الأبيض من جنس الدولة الحاكمة ، وكان بعد المسافة شفيعا آخر للسماح بنظام الدمينيون وتخويل الحكومات المحلية ضروبا من السلطة في المسائل الحاضرة التي لا يتيسر الرجوع فيها الى رأي الدولة الحاكمة في العاصمة الكبرى ، وكان خطر الانفصال شفيعا مهما مع هذين الشفيعين لزيادة نصيب الدومينيون من حقوق الاستقلال .

ويلي الجنس الأبيض في حقوق الاستقلال وحدوده أجناس السمر والصفر والسود على ترتيب درجاتهم من مظاهر الدولة في ماضيهم البعيد أو القريب .

فالامم التي كانت لها عروش مؤسسة وحكومات قائمة كانت تظفر منهم بنصيب من الحكم الذاتي يستبقي العروش لأمرائها والحكومة لرؤسائها حيثما تيسر استبقاؤها بغير خطر على نفوذ الدولة المستعمرة .

ومن لم تكن لهم دول وحكومات خولوهم طائفة من مناصب الرئاسة في الحكومة على قدر نصيبهم من الحضارة والقدرة على ولاية المناصب المأمونة ، ولا يفوتهم بذلك أن يجتذبوا إليهم زمرة المرشحين للولاية حيث لا حاجة بهم الى اجتذاب جمهرة الرعية .

فاذا كانت البلاد المغلوبة خلوا من الدولة القديمة ومن الطبقة المرشحة لمناصب الرئاسة ما يناله أبناؤها أن يتولوا مناصب المرؤسين على كثرة أو قلة حسب انتشار الوظائف في نظام الحكومة العصرية ، ومن غلبت بينهم نظم القبائل والعشائر تركوا لهم رئاستهم الموروثة وكسبوا بذلك ولاء الرؤساء وسهولة الطاعة والانقياد من المرؤوسين .

وسار المستعمرون سيرهم البطيء في توسيع هذه الحقوق وترقية هذه النظم ، فلم يرفعوا مستعمرة من مستعمراتهم درجة الا على اضطرار وبعد جهاد وانكار .

ولكن بلاد « الرجل الأبيض » كانت تظفر على الدوام بالقسط الأوفى من توسيع الحقوق وتوفير معالم الاستقلال ، فأصبح من حق الدمينيون بعد الحرب العالمية الأولى أن توفد السفراء عنها الى الدول الأجنبية وأن تعلن الحيدة في الحرب أو تعلن الاشتراك فيها باختيارها ، وازداد نصيب المستعمرات الأخرى على نسبة الزيادة في حقوق الدومينيون الخارجية والداخلية ، فندرت بينهن أمة بقيت على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية .

إلا أن الجديد في نظام الاستعمار هنا انما هو الجديد من جهة المبدأ لا من جهة الزيادة في عدد الوظائف ودرجات الحكومة الذاتية . .

ان الحرب العالمية الأولى كانت حدا فاصلا بين عهدين واضحين في تاريخ الاستعمار ، لأنها أزالت الاستعمار من حيث « المبدأ » وأبقت ما بقي منه على أساس جديد ينكر دعوى الملك ولا يعترف لدولة من الدول بحق تدعيه لنفسها

في حكم مستعمرة متقدمة أو متأخرة ، ما لم يكن ذلك بالوكالة عن الأمم الانسانية . .

وكذلك قام ميثاق الأمم بعد الحرب العالمية الأولى على بطلان الاستعمار واحترام حق تقرير المصير ، ومعنى تقرير المصير ان الاستقلال حق طبيعي لكل أمة تحكم نفسها أو تحكمها غيرها . فمن كانت من الأمم مستقلة معترفا لها بالاستقلال فهي صاحبة السيادة على نفسها ولا سيادة لأحد عليها ، ومن كانت سيادتها بيد غيرها أو كانت موقوفة لعلة عارضة تحول بينها وبين ولاية حق السيادة فيها فهي في ذمة الانسانية تختار لها من يحكمها الى أن تملك زمام سيادتها ، وليس للدولة المختارة لحكمها حق في تسخيرها واستغلالها أو مزية تمتاز بها على الدول الأخرى ، وانما تعطي الدولة الحاكمة من حقوق الولاية بقدر ما تحمله من المسؤولية أو بقدر ما يمكنها من النهوض بأعباء ولايتها .

واستحدثت للنظام الجديد أسماء تناسبه غير الأسماء التي سلفت في أيام الاعتراف بحق الاستعمار ، فحل الانتداب والوصاية محل الحماية ، وتركت الحمايات السابقة بأسمائها الى أن تتفاهم الدول الحامية والبلاد المحمية على وضع من الأوضاع الحديثة ، وبات مفهوما بين أعضاء الميثاق أن العدوان على وطن من الأوطان انما هو خرق لميثاق الأمم جمعاء ينبغي أن تمنعه الأمم جمعاء ولا تنفرد بمنعه دولة حامية أو دولة محمية . فلا يتفق مع روح الميثاق أن تنفرد احدى الدول بحماية وطن من الأوطان الضعيفة ولو كان موكولا الى ولايتها .

واتضحت الحدود على هذا النمط بين أنواع المستعمرات . فالانتداب للأمم التي تملك السيادة ناقصة وينتظر أن تملك السيادة كاملة بعد فترة وجيزة ، والوصاية للأمم التي تملك السيادة موقوفة الى زمن بعيد أو لا تبلغ مبلغ السيادة لقصورها عن الحكم الذاتي واتقاء الخطر من اضطراب فيها .

وتكفلت عصبة الأمم بالاستماع الى شكاية الشاكين وتحقيق ما يحتاج منها الى التحقيق ، وامتنع على دولة أن تتعرض لولايات دولة أخرى الا أن يكون تعرضها من قبيل المطالبة بالتحقيق في خلل ادارتها وظلم ولايتها .

وتم هذا كله من حيث المبدأ والعقيدة .

وشتان بين المبدأ أو العقيدة وما يجري في الواقع ويعهده الناس بين الحاكمين من الأقوياء والمحكومين من الضعفاء .

فقد بقيت المستعمرات وبقي الاستغلال وبقيت مظالم الحكم واستبيحت الأوطان عنوة وعجزت عصبة الأمم عن حماية وطن واحد مستباح أو عقوبة دولة واحدة تتحداها جهرة وتستبيح ما حرمته في الميثاق وأقرها على تحريمه المعتدون .

الا أنه من قصور العقل فيما نعتقد ان يقال ـ مع هذا كله ـ أن تقرير المبدأ والسكوت عنه سواء ، وان العالم لم يستفد شيئا من النظام الجديد ولا يرجى أن يستفيد منه بعد حين . فما زالت المبادئ تخالف الوقائع في تكاليف بني الانسان من أمم أو آحاد ، وقديما عرف الناس ضياع اليتامى في ذمة الأوصياء وعرفوا حيل المحتالين على القاصرين والمحجور عليهم من مستحقي الحجر أو غير مستحقيه ، ولكن محاسبة المختلسين والمحتالين على الرغم من هذا كله مبدأ مطلوب وتقريره في المجتمعات غنم مكسوب ، والغاؤه بعد تقريره جريمة لا تفر من عقباها ولا تصلح الفساد المحذور بل تزيده وتغري من يتجنبه بأن يجترئ عليه .

ولا يخفى أن المبادئ التي تتصل بعلاقات الأمم كثيرا ما تظهر في أوانها دليلا على اتجاه الوقائع الى تأييدها وتطبيقها وزاجرا لمن يخالفها ونذيرا له بما يصيبه من مخالفتها .

ومصداق ذلك في هذا المبدأ أن البلاد التي استبيحت خلافا له واجتراء عليه لم يبق واحدة منها في أيدي أصحابها المعتدين عليها .

فالبلاد التي اقتحمها النازيون والفاشيون ودعاة السطوة الحربية من اليابانيين قد خرجت جميعا من أيديهم ولم يحصلوا منها على غير الخسارة والهزيمة وسوء القالة ، ولم يحصل مثل ذلك للدول التي قبلت المبدأ ولو بالاحتيال عليه .

ولا يقال ان النازيين والفاشيين ودعاة السطوة الحربية قد أصابهم ما أصابهم لأنهم مهزومون ساء بهم الحظ فأصابهم جزاء القانون .

فمن دلالات الواقع وتعزيزها للمبدأ أن تطبق الهزيمة على جميع من خالفوه .

ومن دلالات الواقع في جانب المنتصرين أنهم ـ بعد انتصارهم ـ لم يقدروا على انكار حقوق مستعمراتهم ولم تبق مستعمرة منها لم تنتفع بالمبدأ في تسويغ مطلب أو تعزيز صفة من الصفات الدولية التي تحرص الأمم عليها ، ولم يكن المبدأ وحده هو منصف الهند والباكستان وبلاد النيجر وأوغنده وما اليها من الشعوب الافريقية ، ولكن لولا المبدأ لما تم في الواقع أن ينال كل شعب من هذه الشعوب درجة فوق درجته بين البلاد المحكومة ، لأن المبدأ ينطبق على جميع هذه البلاد ولا يجمعها الواقع في حالة متفقة وفي زمن واحد كائنا ما كان .

* * *

على أن الشعور الانساني مقياس صحيح يعتمد عليه في بيان الفارق بين دعوى الاستعمار بالأمس ودعواه اليوم ، ونحسب أن هذا المقياس أولى أن نعتمد عليه من مقياس مبادئ الرأي أو وقائع العيان .

واليوم يعاب السياسي بأن يقال عنه انه من زمرة الاستعماريين أو المستعمرين ، ويعتبر نسبته اليهم وصمة يبرأ منها ويحاول أن يموهها بانتحال أسماء للاستعمار غير اسمه الصريح .

ولا يستغرب الناس في عصرنا خجل الساسة من نسبتهم الى زمرة الاستعمار ، لأنهم يقرنون هذه النسبة باثارة الحروب واغتصاب الحقوق والعدوان على الأنفس والأموال والاستكبار على الناس في غير موجب للكبرياء . ولكننا نعود الى ابطال الفتح والتوسع أو الى ابطال الاستعمار والسياسة الامبراطورية في التاريخين القديم والحديث فلا يشق علينا أن نتخيل دهشتهم من هذا الخجل بما يشرفهم في أعينهم وأعين السادة والعبيد في أزمنتهم . ولا نظن أن اسكندر المقدوني ، بل نابليون وسسل رودس يستطيعون أن يتخيلوا وجود ذلك الانسان الذي يخجل من فتح الممالك والسطوة على الملوك والشعوب ، وربما تخيلوه فتخيلوا أنه لا يكون الا واحدا من أولئك المتفلسفة المتحذلقة الذين يتفيهقون على الناس بغرائب الآراء ونوادر الأقاويل ، ولكننا لا نحسبهم يفهمون أن يكون الخجل من الاستعمار

حديثا يتردد في الصحف ويدور على الأفواه وينادى به في المحافل والأسواق .
ومن أين يخطر هذا الخاطر للفتى الذي كان يتنهد أسفا لأن أباه فتح ممالك العالم المعمور فلم يدع له مكانا يفتحه وأوشك أن يبتليه بالتفكير في فتح السماء .

وجاء نابليون بعد الاسكندر بأكثر من عشرين قرنا فلم يبد من فعله أو من قوله أنه كان يكره أن يكون نسخة فرنسية من تلك النسخة المقدونية ، أو يأبى أن يفخر بشيء كان يفخر به صاحبه القديم .

وجاء سسل رودس في عصر بعد عصر نابليون فكان توسيع الامبراطورية أشرف عمل يعمله بل أشرف أمنية يتمناها ، ولحق به أناس من بني قومه الى أيام الحرب العالمية لا يتورعون أن يحسوا كما أحس أو يعملوا كما عمل أو يقولوا كما قال .

وانه لمن انكار الواقع ـ لا من انكار المبدأ فحسب ـ أن يغفل الباحث عن معنى هذا الشعور المختلف في الدلالة على الفارق بين دعوى الاستعمار بالأمس ودعواه اليوم ودعواه في الغد القريب .

* * *

و « التواضع الاستعماري » آية أخرى من آيات الحكم على الاستعمار بمقياس الشعور .

ففي العصور الغابرة كان الفاتح يصول على الأمم ليستعلي بينها بشرف الفتح ويرفع قدره واقدار قومه مكانا عليا يعفو له ابناء الوطن المفتوح ولا يتطاولون الى مساواته فيه ، وما كان من شأن فاتح أن يفتح بلدا ليقول لأبنائه انني معكم على سواء وأن حقي وحقكم شرع في الدستور والقانون .

فلما بطل فخر الاستعمار ظهر « التواضع الاستعماري » قبل أن تظهر المبادىء العامة في السياسة الدولية ، وما زال المستعمرون من أوائل القرن العشرين يتقربون الى رعاياهم بمساواتهم في حقوق المواطنة ويعبرون عن هذه المساواة بما طاب لهم من الصيغ الدستورية أو صيغ العرف الشائع بين الديمقراطيين المحدثين .

فالانجليزي سمح للهندي أن يساويه في حق الترشيح للنيابة في العاصمة الانجليزية .

والفرنسي يقول ان الجزائر وطن للفرنسيين وأن فرنسا وطن للجزائريين .

والروسي يقول للترك الاسيويين أن صعاليك الأمم قاطبة مشتركون في حقوق الأوطان .

والامريكي يقول لأبناء الفيلبين قبل تعديل الدستور الأخير ان رعايا الولايات المتحدة ورعايا الجزر الوطنيين سواء في حقوق المواطنة .

وهذه دول متفرقة تباشر دعاوى الاستعمار على أشكال وألوان ، ولكنها تصطنع التواضع الاستعماري لأن « الفخر الاستعماري » قد أصبح في خبر كان ، ولا يغير من هذه الحقيقة أن يكون المستعمرون مخلصين او مخادعين ، فانما الحقيقة من وراء الاخلاص والمخادعة أن الشعور بالفخر الاستعماري غير مقبول في العصر الحديث .

ان تقسيم المستعمرات الى أنواع كان نقطة الانتقال الأولى في سبيل الاعتراف لكل نوع منها ببعض الحقوق .

أما النقطة الأخرى ـ ولعلها الأخيرة ـ فهي اضطرار الدول الى النص في ميثاقها على بطلان مبدأ الاستعمار واحترام مبدأ « تقرير المصير » .

آداب الاستعمار

تعود الناس من الاستعمار قلة الصدق وكثرة الكذب ، وألفوا منه نقض المواثيق وخلف المواعيد ، وتسايرت الأمثال بهذه الخلة فيه حتى شهد بها زبانية الاستعمار كما شهد بها ضحاياه ، ولكنهم يشهدون بها اضطرارا ليقولوا انها واسطة تبرر الغاية وانها حيلة معيبة في سبيل مصلحة محمودة ، وربما غلا بعضهم في دعواه فزعم أنها مصلحة للمغلوبين ومصلحة للغالبين ، وانها في أمر المغلوبين كمصلحة الطفل القاصر الذي يساق الى نفعه ولا يقدر على ادراكه .

والاستعمار على اتفاق الأقوال كذوب ، الا أن الكذب خليقة نفسية يوصف بها الانسان ولا توصف بها الحركات الاجتماعية أو حركات الأمم والحكومات ، وأصح من ذلك ان يقال أن الاستعمار مستغل يقوم على الأثرة ، وان آدابه كسياسته في هذه الخلة ، فما تواضع عليه من آداب فهو آداب استغلال ، وما تواضع عليه من سياسة فهو سياسة استغلال .

* * *

انه يستغل الرذيلة كما يستغل الفضيلة : يستغل الجبن والخسة والحرص على المنفعة العاجلة كما يستغل المبادئ الكريمة والخلائق المحبوبة ، فلو جمع ما قيل في الدعوة الى الحرية والسلام والرقي والحضارة لوقعت حصته الكبرى في جعبة المستعمرين ، وما انقضت فترة قط في العصور الأخيرة على غير « رسالة انسانية » جميلة يترنم بها دعاة الاستعمار من أصحاب السيف والنار الى أصحاب الأقلام والأفكار .

الا أننا نتبرع للاستعمار بالشرف الأكبر اذا قلنا مع القائلين انه يخلق ثلث الدعوات ويخترع رسالاتها اختراعا من عنده ليدرك بها مأربه ويخدم بها قضاياه .

وفي بعض المفسرين الماديين للتاريخ ولع باسناد الرسالات الانسانية منذ القدم الى سماسرة الاستغلال من الساسة وأصحاب الأموال ، فلا غيرة في رأيهم على حرية الارقاء ولا على قضية السلام ولا على أمثالها من القضايا لولا المآرب التي يعمل لها المستعمرون والمستغلون ويحاربون من أجلها من يحاربون ، أو يسالمون من يسالمون .

علو جاهل ولا مراء ، ولو قال هؤلاء الماديون ان آداب الاستعمار زائفة وان نياته غير خالصة وانه يستغل المبادئ بعد وجودها واصطلاح الناس على اكبارها وتأييد العاملين لها لصدقوا وبلغوا ما يريدون من كشف النيات والتحذير من الخدع والأضاليل ، ولكنهم يصيبون الانسانية بكذب أقتل لها من كذب الاستعمار في أخبث دخائله حين يجحدون على الانسانية قدرتها على التقدم وينوطون فضائل التقدم كلها بأكاذيب المنافقين وأباطيل المكرة الخادعين .

فالاستعمار أعجز من أن يسبق الانسانية قيد شعرة الى فضيلة لا تحسها ولا ترتفع بآدابها اليها ولا تكون فيها المنفعة للعديد الأكبر من أبنائها ، فتصلح من ثم للاحتيال بها على بلوغ المطامع وتدليس العقائد أو الدعوات . وقد حمل الاستعمار علم الحرية والدفاع عن الرقيق وفعل ذلك لاستعباد الشعوب الحرة لا لاطلاق الارقاء المستعبدين ، وقد أرسل المستعمرون أساطيلهم ترود البحار وترصد السواحل وتعترض السفن وتقتحم الموانئ وتستبيح المواقع في الأقطار المستقلة بحثا فيما زعموا عن النخاسين والارقاء ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك الا بعد أن أصبح « الفتح » منكرا يحتاج الى المعاذير ، وبعد أن أصبح تحرير الرقيق مأثرة يدعيها المدعي ويرشو بها الضمائر فتقبل الرشوة خالصة النية أو متواطئة على الخداع ، أما قبل ذلك فقد كان هذا الاستعمار يرسل أساطيله علانية ليقود حملات النخاسة وينقل الشحنة بعد الشحنة من الارقاء المغتصبين بغير ثمن أو المبيعين بأبخس الأثمان ، سلعا لا سعر لها في سوق البغي غير سعر الصيد المباح .

وما من داعية سياسي يحتاج في أيامنا هذه الى الأطناب في تبشيع النخاسة والاتجار ببيع الآدميين ، ولكن الدعاة الذين قامت شهرتهم على تحرير الرقيق كانوا الى ما قبل مائة سنة يبحثون عن سبب آخر غير سبب المروءة لاقناع

أتباعهم بوجوب تحريم النخاسة ، لأن الآداب الانسانية لم تكن قد ارتفعت الى المرتقى الذي يجعل تحريمها من البديهيات لغير سبب آخر سوى البشاعة البينة التي لا تحتمل الآن اطالة للجدال ، فكان ابراهام لنكلن داعية التحرير الأكبر يضيف سبب الغيرة على الوحدة الوطنية الى سبب الغيرة على الكرامة الانسانية كلما أراد ان يقنع نصيراً له يحرص على اقناعه ، وكتب قبل شهر من اعلان التحرير الى هوراس جريلي greley « أن هدفي الأعظم في هذا الكفاح أن أنقذ الوحدة الوطنية لا أن أنقذ الشرق ولا أن أقضي عليه . فاذا استطعت أن أحافظ على الوحدة دون أن أحرر عبدا واحدا فعلت ، واذا استطعت ذلك بتحرير جميع العبيد فعلت ، واذا استطعته بتحرير فريق منهم وابقاء فريق منهم في العبودية فعلت. . . . »

* * *

ودور الاستعمار في قضية السموم والمخدرات كدوره في قضية الرقيق : دور المستغل التابع لا دور المخترع المتبوع . فان الدول التي أقامت المؤتمرات في جميع القارات لمصادرة السموم المخدرة ومطاردة العصابات القوية التي تخصصت لتهريبها لم تتورع في القرن الماضي عن حماية هذه السموم واكراه الصينيين على استيرادها وتشجيعهم على تعاطيها ، وهل كانت حرب الافيون ـ أو حروب الافيون ـ التي اشتعلت في القرن التاسع عشر مما تجترىء عليه دولة من الدول لو قامت مشكلتها في هذه الأيام ؟ ان سياسة الدول لم تختلف من قبل ومن بعد لأنها تزهد اليوم في كسب كانت ترغب فيه بالأمس ، ولكنها اختلفت لأن العقبات الاخلاقية التي تصد عن تجارة السموم كانت مذللة للاستعمار ممهدة تحت قدميه فأصبحت في العهد الأخير مخيفة له أو عسيرة عليه .

* * *

وقضية السلام من القضايا العالمية التي نرى فيها نوعا من الاستغلال لكل نوع من الاستعمار ، ولا نرى لها صورة من الصور يكون فيها دور الاستعمار دور اختراع وابتكار .

فالمستعمرون الذين شبعوا من الاستعمار ينصرون السلام . لأن الحرب اما

أن تكون ثورة عليهم من المغلوبين المطالبين بحقوقهم ، أو منازعة لهم من الأقوياء الطامعين في تراثهم ، وفي كلتا الحالتين يغنمون من السلم ما لا يغنمونه من القتال .

والمستعمرون الذين تأخرت بهم القافلة ـ كالنازيين والفاشيين ـ يستغلون قضية السلام على منهجين متعارضين . فهم في سياستهم الداخلية يشعرون بأن دعوة السلام في العصر الحديث قوة لا يستهان بها فيحاربونها من أجل هذا ويمثلونها لرعاياهم على غير حقيقتها ، لأنهم يحتاجون الى فلسفة الحرب في تربية الصغار وتلقين جماهير الدهماء ولا ينتفعون بفلسفة السلام في هذا المجال ، ولكنهم في سياستهم الخارجية يشعرون بقوة الدعوة الى السلم في العصر الحديث فينهجون في استغلالها منهجا غير منهجهم في السياسة الداخلية ويحاولون جهدهم أن يتهموا أعداءهم باحراجهم واضطرارهم الى مجاراتهم في عدد القتال وخطط المقاومة ، ومنها تدريب الناشئة على الحرب وتلقين الجماهير صيحات النخوة والحمية ، ولو لم تسبقهم قضية السلام على الرغم منهم لما كانت لهم مصلحة في اختراعها في كلتا السياستين .

وأمانة « الرجل الأبيض » ـ وهي قضية الاستعمار الأولى ـ أحق القضايا أن يخترعها المستعمرون لو كانوا يملكون الاختراع في دعوة من أمثال هذه الدعوات ، ولكن الرجل الأبيض قد عاش زمانا في القارة الاوربية ضحية للاستعمار من الرجل الأبيض الذي يجاوره أو ينتمي الى عنصره وقبيله ، وما التفتوا الى طلب السيادة على السمر والصفر والسود ولهم بقية من الأمل في السيادة على البيض من صميم الاوربيين !

* * *

فالاستعمار لا يخلق للأمم آدابا تروج بينها وتتلقاها منه خدمة لمصلحة أو ايمانا بعقيدة ، وانما تنشأ الآداب الانسانية وتبلغ مبلغ القوة والرهبة قبل أن تصبح صالحة للاستغلال والادعاء في سياسة المستعمرين . . . وهذه الحقيقة جديرة أبدا أن تتقرر في أذهان الأمم المبتلاة بمطامع الأقوياء . لأنها هي الخاسرة اذا لم تفرق بين دعوات المستعمرين ونيات المستعمرين . فلا مصلحة للعالم في احباط الدعوات الانسانية التي ينتحلها المستعمرون ، وانما مصلحة العالم أن يتكشف النفاق عما وراءه ، وأن تبقى دعوات بني الانسان لبني الانسان وراء كل نفاق واستغلال .

نهاية الاستعمار

أخذ الاستعمار في الزوال لأنه مرحلة من مراحل التاريخ التي لا توجد للدوام ولا بد أن تنتهي بانتهاء دورها عند زوال أسبابها ووصولها الى غاية مداها . ومن أسباب زوال هذه الأدوار أنها تجربة من تجارب الأمم في عالم المجهول ، وأنها تنطوي على كثير من الأغلاط والمساوىء كما تنطوي على كثير من الخطأ في التقدير ومن سوء الحساب عند القائمين بها والعاملين عليها .

الا أن هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار ـ كانت بدعة بين المراحل التاريخية بكثرة ما فيها من مزالق الاقتحام ومفاجآت المجهول ، وكانت أشواطها كلها كأنها خطوات معتسفة يبتدىء بها السالك طريقه ويتوسطه قبل أن يعلم أنه قد ضل الطريق . ثم يقف بين الحيرة والعناد ، ويصر على العناد لأنه لا يستطيع الرجوع ولا يستطيع التسليم بالضلال .

وقد قيل ، بحق ، ان مرحلة الاستعمار الحديث قد بدأت في وقت واحد مع عصر الاستكشاف أو عصر البحث عن الطريق المجهول .

وكانت في الواقع بحوثا كثيرة وطرقا متعددة . فمن ذاهب الى الغرب ليصل الى الشرق من طريق مجهول حول الكرة الأرضية ، ومن ذاهب الى الجنوب ليصل الى الشرق من طريق الطواف حول القارة الافريقية ، ومن ذاهب الى الشمال ليصل الى الشرق من ناحية القطب خلال الاقطار الروسية ، ومن ذاهب الى البحر الأحمر يريد أن يصل بينه وبين بحر الروم بسكة من سكك البر أو مجرى من مجاري الماء .

كانت بحوثا كثيرة عن طرق كثيرة .

وكذلك كانت بحوث الاستعمار التي افتتحت مع بحوث الاستكشاف في عصر واحد : كلها كانت من المغامرات وكلها كانت من المقامرة على المجهول ، ولهذا كان خطأ الحساب وسوء التقدير أكبر أسباب الخيبة التي

أصابت الاستعمار في منتصف الطريق أو قبل منتصف الطريق ، ونقترن بهذه الأسباب الكثيرة أسباب أخرى من أخطاء المستعمرين ومن نقائض الاستعمار نفسه في صميم تكوينه ، وهي ليست بالشيء القليل .

مصادفة الموقع الجغرافي

فمن الأسباب العرضية التي دفعت ببعض الأمم الى ميدان الاستعمار ـ ان هذه الأمم كانت في موقع جغرافي يسوقها الى الميدان وما استعدت له غير هذا الاستعداد ـ العرفي ـ الذي جاء من طريق المصادفة .

لماذا تكون البرتغال وهولندة وبلجيكا بين دول الاستعمار التي ملكت من المستعمرات ما لم تملكه كثير من الدول الكبار ؟

لا سبب لذلك غير أنها كانت تقيم على شواطئ البحر الأطلسي وكان البحر الأطلسي هو طريق الماء الوحيد المفتوح للبحث والتجربة بعد امتناع التجارة في بحر الروم أو بحر الأبيض المتوسط .

وهذا سبب كاف لابتداء التجربة والمحاولة ولكنه غير كاف للاستمرار والبقاء في الميدان ، وبخاصة بعد انكشاف المجهول وتطور الأغراض التي من أجلها بحث الباحثون عن الطرق وابتدأوا خطواتهم الاولى في تجارب الاستعمار .

ولنضرب المثل ببعض هذه « التطورات » في أمة واحدة لعلها هي أسبق الأمم الى هذا الميدان ـ ونعني بها أمة البرتغال .

فهذه الأمة قليلة العدد قليلة الموارد الصناعية قليلة العلاقة بالأمم الأخرى في القارة الاوزبية ، وكان همها الأكبر أن تعثر على الطريق الذي ترسو عليه السفن وأن تتغلب على السفن المنافسة لها في البحار المقصودة .

ومن المصادفات أن الدول التي كانت تزاحمها كانت يومئذ في شاغل عن مزاحمتها ، لأن الدولة الاسبانية كانت تسيطر على شواطئ هولندة وبلجيكا وكان الكشافون الاسبان متجهين الى البحث عن طريق الهند في البحار الغربية على آثار « كولمبس » المشهور .

أما السفن التي كانت تزاحم سفن البرتغال في البحار الشرقية فلم تكن مستعدة بالاسلحة الحديثة التي استعدت بها سفن البرتغال ، ولم تكن في تركيبها صالحة لجميع أغراض الملاحة أو أغراض الحروب البحرية ، فلم تقدر على مقاومة السفن البرتغالية في هذه المنافسة الهوجاء .

وما كادت هذه الدولة السابقة الى الميدان أن تظفر بالغلب على طريق الملاحة حتى تبين لها أن نقل التجارة وحده لا يكفي لاجتناء الغنائم المنتظرة من هذا الطريق . فانها لم تكن دولة صناعية ولم تستطع أن تنافس الدول التي توافرت لديها أدوات الصناعة الكبرى ، وقد أخذت هذه الصناعة الكبرى يومئذ في الظهور وأوشكت دول الصناعة أن تستولي على الأسواق كما استولت على المعامل والصناعات .

نقص الموارد المنتظرة

والدول الصناعية الكبرى ما شأنها في هذا الصراع الذي انهزمت فيه البرتغال ؟ هل سلمت من أخطاء التقدير ومن سوء الحساب ومن اختلاف الأغراض بين خطوات الاستعمار في بداءتها وخطواته بعد التقدم الى منتصف الطريق ؟

كلا !

ان المشكلة جاءت هنا من اجتماع الصناعة والتجارة في يد واحدة . فلا بد للدولة المستعمرة من موارد تحتكرها للحصول على الخامات ، ولا بد لها من أسواق تحتكرها لتصريف مصنوعاتها بغير مزاحمة ، ولا بد لها مع هذا وذاك من حراسة الطريق ومن حراسة الموارد المحتكرة لجلب الخامات والموارد المحتكرة لتصريف المصنوعات .

***

والبرتغال انما هي مثل واحد استحقت التقديم لأنها كانت في طليعة السباق العالمي الى الاستعمار ، ولكنها لم تنفرد بالمفاجأة بين الدول الكثيرة التي خرجت معها أو لحقت بها في هذا السباق . اذ كانت هذه الدول جميعا قد فوجئت بعد حين بما أخلف حسابها في أمر من الأمور ، ولم تمض عليهن أعوام معدودات حتى علمن أن الغرض الأول الذي خرجن للبحث عنه لا يغني زمنا

طويلا في هذه المهمة ولا يكفل لهن الثبات والنجاح بعد انكشاف الطرق المجهولة التي خطر لهن في بادىء الأمر أن العثور عليها هو القبلة المقصودة وخاتمة المطاف .

كان الغرض الأكبر من حملات الاستكشاف أن تنتهي الى طريق الهند من الغرب أو من حول القارة الافريقية ، وكان الرجاء المأمول ـ أو الرجاء الصالح ـ كما وصفوه يومئذ أن يعثر الرحالون على الموانىء التي ترسو عليها السفن في أمان ، لتفرغ وسقها وتعود بوسق جديد من خيرات الشرق وذخائره بعد امتناعها من طريق البحر الأبيض المتوسط وما اليه .

فلما تحقق هذا الغرض ووجدت الموانىء الصالحة للتبادل المنشود ظهر أولا أن بضائع أوربة غير مرغوب فيها بين الشرقيين ، ثم ظهر أن التنافس بين الرحالين المستكشفين يوشك أن يصعد بأثمان السلع الشرقية صعودا لا يقل عن صعودها من جراء الحجر عليها في طريق البحر الأبيض المتوسط وما اليه ، وظهر بعد ذلك أن النزول في الموانىء لا يكفي لتحقيق البيع أو تحقيق الشراء ، بل لا بد معه من سيطرة على داخل البلاد لضمان الاحتكار وصد المزاحمين وقمع المقاومة من جانب الشرقيين أبناء البلاد ومن جانب الغربيين المنافسين في التجارة والاستكشاف .

ولما تقدمت معامل الصناعة الكبرى في القارة الاوربية ظهرت مشكلة جديدة لم تكن في الحسبان ، وهي مشكلة الحصول على الخامات وتصريف البضائع المصنوعة في أسواق محمية من مساومة المنافسين ومناظرة المخترعين والمبتدعين ، وتفاقمت هذه المشكلة بعد أن أصبحت للغرب مصنوعات يرغب فيها الشرقيون ، وقد كانت المصنوعات الأوربية مزهودا فيها بينهم قبل تقدم المعامل والآلات الصناعية الحديثة ، لأن مصنوعات الأيدي في الشرق كانت أدق وأمتن من مثيلاتها عند الأوربيين ، وكانت مع دقتها ومتانتها أجمل منظرا ومخبرا على الأقل في أذواق الشرقيين كما تعودوها على أشكالها المأنوسة منذ مئات السنين .

واختل الحساب في كل مستعمرة من المستعمرات بلا استثناء من هذه الناحية : وهي ناحية الجمع بين طلب الخامات وتصريف البضائع المصنوعة ،

فلم يتفق قط أن يتم الجمع بينها في مستعمرة واحدة تؤخذ منها الخامات وتباع فيها المصنوعات ، وكثيرا ما وجدت المصنوعات حيث لا توجد الأسواق ، وكثيرا ما اصطدمت المطامع والسياسات من أجل ذلك حتى وقعت الحرب غير مرة بين الدول المستعمرة وتبين منها ـ حتى في ذلك العهد ـ ان خسارة الاستعمار أكبر من جدواه ، وانه لا بد من الاتفاق على تقسيم الغنائم على وجه من الوجوه ، والا فلا غنيمة لأحد من المتنازعين على جميع الوجوه .

وفي هذا الشوط ضمنت الدول الصغيرة أن تستبقي ما ملكته على ضعفها منعا للنزاع عليه بين الدول القوية الطامعة فيه ، وتراضوا جميعا ـ جهد ما استطاعوا ـ على ترك كل نصيب لصاحبه واجتناب المنازعات الدولية في هذا الميدان ، اكتفاء بالمنافسات التجارية أو بمناورات السياسة التي لا تنتهي الى الصدام أو تجريد السلاح .

الاحتكار

وتيسر الاحتكار بموافقة الجميع بعد أن كان احتكارا مغتصبا أو مختلسا في غفلة الآخرين ، فمن استولى على جهة من الجهات فهي له بأسواقها وأسعارها وخاماتها وبضائعها يرفع منها ما يرفع ويضع منها ما يضع كما يشاء ، وقد كان الاحتكار منذ البداءة ضرورة لا محيد عنها لكل من المستعمرين فيما استولى عليه ، ولكنه كان في الوقت نفسه جرثومة الداء التي كمنت في أحشاء الاستعمار حتى قضت عليه بعد قرن واحد ، وانتهت به الى الباب المفتوح في أواخر القرن التاسع عشر ، ذلك الباب الذي أريد به أن يفتح ليدخله المستعمرون جميعا فاذا به الباب الذي يخرجون منه تباعا ، ولا يزالون يخرجون !

* * *

لقد كانت حركة الكشف عن طريق التجارة المجهول أشبه شيء ـ كلها ـ بمحاولة التاجر أن يكشف عن سر الصناعة المجهول ليحتكرها ويذود المنافسين عليها . فكانت كل سفينة تصل الى بقعة من الأرض تبادر الى رفع العلم عليها وتسجيلها باسم الدولة وباسم الكنيسة كأنها حوزة مغلقة في وجوه الطارئين عليها من أصحاب الرحلات المتتابعة ، واستطاعت البرتغال واسبانيا أن تتفقا من مبدأ الأمر على الاحتكار لأنهما سلكتا في الاستكشاف طريقين لا

تنازع بينهما ، فاتجهت كشوف البرتغال الى الطواف حول افريقية واتجهت كشوف اسبانيا الى الطواف حول الكرة الأرضية ، وكانت كلتا الدولتين من أتباع الكنيسة البابوية فحرصت الكنيسة على التوفيق بينها وسد ذرائع النزاع التي أوشكت أن تشجر بينها على أثر الرحلات الكشفية في مجاهل الأرض والماء ، وبلغت قسوة الاحتكار أشدها في الجهات المتفق على تركها لدولة من الدولتين ، فصدر أمر الملك حنا الثاني البرتغالي في منتصف القرن الخامس عشر باغراق كل سفينة يلقاها عمال الدولة على سواحل غانة أو الاستيلاء عليها بغير سؤال ، ومتى استولت الدولة على سفينة غريبة وجب القاء من فيها من الربانية والنواتية فريسة للقروش وحوش البحر المشهورة في تلك المياه ، ولما اشتركت في ميدان الاستعمار دول الغرب التي لا تدين بالطاعة للكنيسة البابوية ـ كانجلترا وهولندة ـ سلكت في الاحتكار مسلكها الذي يوافق نظام الحكم فيها ، فأصدرت انجلترا عدة قوانين لتنظيم المعاملات الاستعمارية أشهرها القوانين الثلاثة التي اشتهرت باسم قانون الملاحة (سنة ١٦٦٠) واسم قانون التصدير (سنة ١٦٦٦) واسم قانون رسوم الزراعة (سنة ١٦٧٣) وحرمت بقانون الملاحة حمل البضائع التي تدخل بلادها أو تخرج منها على غير السفن الانجليزية ، وفرضت على كل سفينة أن تودع في خزانة الدولة ضمانا ماليا تستصفيه الدولة في حالة المخالفة ، وأوجبت بقانون التصدير أن تكون البضائع المرسلة الى المستعمرات مشحونة من أحد الموانىء الانجليزية ، وفرضت بقانون الرسوم الزراعية ضريبة مقررة على جميع الغلال والمحاصيل التي تنقل من مستعمرة الى أخرى ، وأمرت لأجل ذلك باحصاء جميع المزارع التي تنتج تلك الغلات والمحاصيل وحصر منتجاتها ومقادير الصادرات والبقايا المتخلفة منها . وقد كانت هذه القيود تسخط أناسا كثيرين من رعايا الدولة الانجليزية كما تسخط الغرباء الذين يعاملونها من أبناء الدول الأجنبية ، لأن أصحاب السفن أيقنوا من اضطرار التجار والزراع الى حمل البضائع على سفنهم دون غيرها فرفعوا الأسعار وغالوا بتقدير الأجور ، ولأن احصاء المزارع قيد الزراع وحال بينهم وبين حرية الاختيار في تقدير الأصناف والمساحات على حسب الظروف العاجلة ، وأضاع فرص الربح في غير الأسواق الانجليزية .

وسلك الهولنديون مسلك الانجليز في احتكار التجارة والزراعة لأنفسهم في

مستعمراتهم ، فما استطاعوا منعه بالقوانين منعوه وشددوا في تحقيق منعه ، وما بقي بعد ذلك من منفس للتجارة الحرة ضيقوه بالاجراءات الادارية والمحاكمات القضائية التي تنتهي بادانة المتهمين في جميع الأحوال ، ومنها محاكمات اتهم فيها رعايا الدول الأجنبية بالتواطؤ مع أبناء البلاد الوطنيين على قلب نظام الحكومة وصدر فيها الحكم بالموت على المتهمين المعترفين بجريمتهم كما جاء في الأحكام الصادرة عليهم .

وتشبث المستعمرون بخطة الاحتكار في كل بقعة من الأرض وضعوا أيديهم عليها ولو لم يقدروا على الحاقها بدولتهم في صورة من صور الاستعمار المصطلح عليها ، وأسلوبهم في حكم السودان مثل من أمثلة الاحتيال على فرض الاحتكار على شكل من الأشكال حيثما تمكنوا من فرضه وملكوا السلطة القادرة على تحقيقه : فالانجليز قد دخلوا السودان باسم الحكومة المصرية وأعلنوا ذلك فرارا من مساومة الدول لا حفاظا على الحقوق المصرية . اذ كان فتح السودان باسمهم غنيمة تفتح أبواب المساومة على تبادل الغنائم وتتيح للدول المناقشة لهم أن تطالبهم بغنيمة مساوية لهذه الغنيمة في عرف « المقايضات » السياسية ، ولكنهم لما فتحوا السودان باسم مصر تعرضوا لمحظور آخر وهو محظور الامتيازات الأجنبية التي كانت عامة مرعية في جميع البلاد التي كانت تدين يومئذ للسيادة العثمانية ، ومتى قبلوا تطبيق الامتيازات الأجنبية في السودان غلت هذه الامتيازات أيديهم عن الاحتكار وجاز للأجانب جميعا كل ما يجوز للانجليز بحكم المعاهدات الدولية . فخرجوا من هذا المحظور بحيلة الأحكام العرفية التي ظلت مضروبة على السودان الى آخر يوم من أيام الانجليز فيه ، وتأتي لهم بحجة هذه الاحكام العرفية أن يبطلوا ما شاءوا من النظم ويقرروا ما شاءوا من الاجراءات الموقوتة أو الدائمة لأنهم في حالة استثناء يباح فيها ما لا يباح في جميع الأحوال .

وعلى الجملة يقال ان الاحتكار والاستعمار صنوان لا يفترقان . وينبغي أن نؤكد هذه الحقيقة كل التوكيد في هذا المقام ، لأنها تكشف القناع « أولا » عن حقيقة الدعوى التي روجها المستعمرون باسم أمانة الرجل الأبيض في البلاد الشرقية ، فانهم ذهبوا الى البلاد الشرقية متنازعين متقاطعين لا يطيق الرجل

الأبيض منهم ظل الرجل الأبيض في جواره ما لم يكن شريكا له في حصة من حصص الاحتكار .

وينبغي توكيد هذه الحقيقة « ثانيا » لأنها هي الحقيقة التي تفسر لنا نهاية الاستعمار في أوائل القرن العشرين . فكلما انقضى الاحتكار في مكان انقضى فيه الاستعمار على أثره ، ويجوز لنا أن نقول ان قوة الاستعمار تقاس بقوة الاحتكار ، وانه كلما لانت قبضة الاحتكار في بقعة من بقاع الأرض لانت قبضة الاستعمار بمقدار ذلك ، فلا استعمار حيث تتساوى الفرص ويتساوى النفوذ وتتساوى الحكومة المستعمرة وغيرها من الحكومات الأجنبية في علاقاتها بوطن من الأوطان .

الباب المفتوح

وعلى غير اختيار من الدول قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التفاهم على الاحتكار الصارم كل منها فيما ملكته من الأرض أو ساومت عليه لاعتباره من مناطق نفوذها على سنة المبادلة والتقسيم ، وانما قبلت سياسة الباب المفتوح بعد التشدد في الاحتكار لأن هذه السياسة كانت بديلا من الأزمات والقلاقل والحروب التي تتوالى نذرها وتعطل التجارة والصناعة جميعا ولا تنحصر أضرارها في نقص الثمرات والأرباح ، وظهرت في « المحيط الدولي » أمم كثيرة لم يكن لها حساب في أيام الكشف والاستطلاح والبحث عن طرق التجارة والأسواق ، فظهرت روسيا وألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الى جانب انجلترا وفرنسا وهولندة وبلجيكا من كبار الدول وصغارها التي ورثت تركة الاستعمار وصمدت آخر الأمر في المضمار ، وليست هذه الدول الحديثة من هوان الشأن بالمكان الذي يتجاهله المستعمرون أو يحمدون العاقبة اذا تجاهلوه .

وقد شعر المستعمرون بضرورة التفاهم على نظام من قبيل نظام الباب المفتوح قبل تطبيق هذا النظام على نطاق واسع في السياسة العالمية ، فاتفقت فرنسا وانجلترا سنة ١٨٩٨ على نظام سموه بنظام « عدم التمييز » non — discrimination في نيجيريا وداهومي وساحل الذهب وساحل العاج ، وأعلنت بلجيكا نظام الفرص المتساوية في مستعمرة الكونغو لتجمع من

المكوس الجمركية بعض نفقات الولاية وتدفع حملات التشهير بمظالم الاستعمار البلجيكي في المستعمرات الافريقية ، وانعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ لتقرير نظام الباب المفتوح في المغرب الأقصى مع التفاهم على تقسيم مناطق النفوذ بين الفرنسيين والاسبان ، وتعددت في الشرق الأقصى معاهدات الدول التي سميت بالمعاهدات الدولية أو المعاهدات القائمة على نظام الباب المفتوح ، واشتركت فيها انجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الكبيرة أو الصغيرة ، وأصبح من النصوص المألوفة في كل معاهدة تعقد مع الصين أن كل امتياز تمنحه الصين احدى الدول ـ فيما بعد ـ يعتبر امتيازا عاما لجميع الدول بغير حاجة الى تعميم النص باتفاق جديد . ثم جاء ميثاق عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى فجعل نظام الباب المفتوح ركنا من أركان السياسة العالمية ومبدأ من المبادئ المقررة لحفظ السلام واتقاء الحروب ، وقررت المادة الثانية والعشرون من الميثاق أن مسألة الوصاية على المستعمرات المحكومة مسألة دولية تنظر فيها عصبة الأمم ويرجع الأمر فيها الى لجنة دائمة من لجان العصبة تشرف على أعمال الدول ذوات الوصاية أو الانتداب ؛ وتقرر ـ بموجب الميثاق ـ أن حرية الشعوب من جميع الأجناس أصل من أصول الحقوق الانسانية مرهون بموعده القريب ، وأن تقرير الاستقلال على درجات لا يبطل حق الاستقلال ولا يسقط دعواه ، بل هو اعتراف به لا اختلاف فيه الا أن يكون من قبيل الاختلاف على سن الوصاية في معاملة بعض القاصرين .

وليس عمل المؤرخ هنا أن يبحث عن نصيب هذه المبادئ من اخلاص الدول التي تعلنها أو سوء نيتها في اعلانها منذ اللحظة الأولى . فان تقرير المبدأ في المعاملات الفردية أو المعاملات الدولية خطوة لا يستهان بها من الوجهة العملية الواقعيّة فضلا عن الوجهة النظرية أو الادبية ، وقد يكون الناس جميعا على دخلة سيئة في أمر المبادئ الأخلاقية التي يعلنونها ويسرون غيرها بل ينقضونها بما يعملونه ويحتالون لاخفائه أو يجهرون به غير مكترثين ولا متحرجين ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول ان تقرير مبادىء التحريم في الجرائم والمنكرات سواء والسكوت عنها أو الجهر باباحتها واعفاء من يقترفها من العقوبة ، ومبدأ « الباب المفتوح » واحد من هذه المبادىء الهامة التي

يقترن بها ولا شك تاريخ نهاية الاستعمار ، ومسارعة الأمم الى تقريره وتوكيده بعد الحرب العالمية الأولى يدل على حقائق كثيرة لا محل فيها للمغالطة ولا للنفاق ولا لحسن النية أو سوئها في التنفيذ ، لأن العبرة بما تدل عليه من الوقائع المتمثلة في شعور بني الانسان ومن أجلها تقرر مبدأ الباب المفتوح في الميثاق .

والوقائع التي يدل عليها اثبات المبدأ في ميثاق عصبة الأمم أن العالم خرج من الحرب بأثر متفق عليه عن خطر الاحتكار على السلام ، وان الأمم لا أمان لها من حروب أخرى اذا بقي الاحتكار على علاته غير مستنكر وغير محدود ، ولا يكون هذا الشعور العالميُ الا دليلا على مرحلة جديدة في تاريخ الاستعمار يتبعها لا محالة عمل جديد ظاهر الأثر في خطط الحاكمين وحقوق المحكومين .

ضرائب الهجرة وضرباتها

ومما قيل عن الباب المفتوح انه سهم أصاب الاستعمار من يده . لأن المستعمرين اضطروا الى فتح الباب اجابة لمطالب المستعمرين . ولكن الاستعمار قد أصيب من يده بأكثر من سهم واحد ، ومن هذه السهام ما هو أقرب مرمى وأشد أصماء من مصاب الاستعمار بسهم التنافس بين شركائه المتفرقين من شتى الدول والحكومات ، اذ كانت بعض هذه الدول تصاب بأيدي أبنائها وروادها المهاجرين الى الأطراف النائية بحثا عن الذهب أو بحثا عن الأرض الصالحة للمقام ، ولم يسجل تاريخ الاستعمار في خطواته الأولى ضربة أصابته في صميمه كالضربة التي جاءته من المستعمرات البريطانية والاسبانية في بلاد العالم الجديد ، فان الثورة التي قضت على الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية انما كان قوامها أناسا من الانجليز يعاونهم مواطنون لهم من الهولنديين والجرمان وسائر المهاجرين الى الشمال من الاوربيين ، وكذلك كانت ثورات الجنوب التي انتهت باستقلال الحكومات المختلفة في القارة الجنوبية عن اسبانيا صاحبة السيادة عليها ، فقد كان قوامها من المهاجرين الاسبان والبرتغاليين وأبنائهم المولدين ، ولو كان الاستعمار نظاما قابلا للدوام لما قضي عليه أبناؤه بأيديهم قبل انقضاء جيلين من تاريخ الهجرة الى البلاد المستعمرة ،

وهكذا يأبى الاستعمار المشاركة في المنفعة ولو كان المشتركون فيها من جنس واحد أو من أمة واحدة . فلما اختلف المستعمرون المقيمون في أوطانهم والمستعمرون المهاجرون الى الأقطار النائية وجب أن يذهب أحد الفريقين فذهب البعيد من الغنيمة وبقي القريب منها ، وثبت مرة أخرى أن الاحتكار قوام الاستعمار ، يعيش الاستعمار ما عاش الاحتكار ويموت بموته في كل جوار .

وأقرب من هذا المرمى الى مقتل الاستعمار سهمه النافذ الذي أصيب به في منبته وبين ذويه وأوليائه . فالمهاجرون الى القارتين الأمريكتين قوم منفصلون عن مقامهم الأول منقطعون عنه في مقام بعيد جعلوه لهم وطنا جديدا بديلا من الوطن العتيق ، ولكن المستعمرين - بعد قرن واحد من الزمان - منوا بالمعارضين لهم بين ظهرانيهم مقيمين معهم في عقر دارهم مشاركين لهم في ولاية الحكم أو في الخضوع له حينا بعد حين ، ونعني بهؤلاء جميع الطوائف التي كانت محرومة من الحقوق النيابية ثم حصلت عليها شيئا فشيئا من أواسط القرن الثاني عشر الى أواسط القرن العشرين .

كانت أزمة الحكومات في عصر الرحلات الكشفية محصورة بين أيدي المحتكرين للبقاع والضياع ومعهم بعض المحتكرين للغلات والثمرات التي تأتي من تلك البقاع أو من تلك الضياع . ثم نشأت حركة التجارة العالمية ونشأت على آثارها حركة الصناعة الكبرى فاتسعت دائرة الحكومة ودخل في زمرة الحاكمين أناس لم يحسبوا قط من قبل الا في عداد المحكومين الخاضعين لولاة الأمر بغير مشورة وبغير صوت مسموع في حالتي الرضى والسخط أو حالتي الموافقة والاعتراض . فلما تكاثر مع الزمن عدد المشتركين في الحكم أصيب الاستعمار من مقتله القديم ، أو أصيب - بعبارة أخرى - من جانب الاحتكار كما يصاب في كل حين .

ذلك أن الصناعة الكبرى قد نشأت وأنشأت معها أصحاب المعامل وعمالها المسخرين في خدمتها ، وكان أصحاب المعامل وعمالها سواء في مبدأ الأمر في طلب حصتهم من السلطة الحكومية ، ثم افترق هؤلاء وهؤلاء فأصبحت كل زيادة في حصة العمال نقصا في حصة أصحاب المعامل والأعمال ، وانتشر الأمر على الاحتكار لازدياد حصص المطالبين بالمشاركة فيه ، ولكنه بقي زمنا

في بلاده وهو قادر على ارضاء هؤلاء المطالبين ، كما بقي هؤلاء المطالبون زمنا وهم راضون باليسير أو قانعون بما أصابوه كارهون .

كان « انجلز » يقول ان العمال في انجلترا عمال بالنسبة الى أصحاب الأموال في بلادهم ولكنهم « برجوازيون » بالنسبة الى شعوب المستعمرات التي تملكها الدولة البريطانية ، لأنهم يظفرون بالأجور العالية على حساب الأيدي العاملة بالأجور القليلة من أبناء الشعوب المحكومة .

وربما صح كلام « انجلز » في جملته اذا نظرنا الى السياسة الاستعمارية التي صمد عليها العمال الانجليز بعد حصولهم على حقوق الانتخاب ووصولهم الى دسوت الوزارة ، ولكن الواقع أن اشتراك الكثيرين في حقوق الانتخاب قد أصاب الاستعمار بالجرح القاتل الذي استطاع اخفاءه والصبر عليه في أيام السلم الى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن الجريح الذي يحارب غير الجريح الذي يطوي جرحه في سلام . فلم يحتمل هذا الاستعمار الجريح وطأة المجهود العنيف في الحرب العالمية الاولى الا بشق النفس والمجازفة بالبقية الباقية من الرمق الضئيل ، فلما أعقبتها الحرب العالمية التالية بلغ الجهد مبلغه الذي لا تجدي فيه المغالطة والتسويف ، وانكشفت عقابيل الحرب عن استعمار جريح منزوف الجراح .

وقد حافظ المحتكرون على غنائم الاستعمار يوم كانوا يحتكرونها وينفردون بجميع مواردها ، ثم حافظوا عليها يوم بقيت منها بقية مرموقة تساوي عناء المدافعة عنها ، ثم حافظوا على الاستعمار بعد نفاذ غنائمه حقبة من الزمن لأن شهوة الاستعمار في أواخر عهده قد استحالت من الوجاهة النافعة الى الوجاهة الفخرية ذهابا مع التقاليد المأثورة والسمعة الموروثة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على استعمارهم بعد أن لصقت به شبهة الحروب ووصمة النفاق ، وزالت منه حتى الوجاهة الفخرية بلا طائل ولا عوض ولا أمان .

أسباب دينية

وهناك أسباب يصح أن تسمى بالأسباب الدينية لا تهمل في صدد الكلام على العقبات التي واجهت الاستعمار في خطواته الأولى وكان لها بعض الأثر في تعويق سيره أو اضعاف قبضته على ضحاياه ، وتتلخص هذه الأسباب الدينية في

ارتباط سياسة أوربة الغربية بسياسة الكنيسة في عصر من أحرج عصورها وأشدها اشتباكا بأزمات الخصومة والمقاومة ومحاولة الثبات في وجه التيارات العصرية التي كانت تجري في غير مجراها ، ويكفي للابانة عن قوة هذه الأسباب أن الانشقاق بين الهيئات الدينية والهيئات السياسية ، وكان فوق ذاك عصر النهضة الذي تضاربت فيه تيارات الفكر والمصالح الاجتماعية في كل اتجاه .

وقد كانت اسبانيا والبرتغال من الدول التي ارتبطت سياستها بالكنيسة كل الارتباط ، وتليهما فرنسا في أحوال كثيرة غير الأحوال التي يتغلب فيها دعاة الثورة والانفصال ، وكانت الصبغة الدينية غالبة على سياسة الحكومات في أوربة الغربية وفي شبه جزيرة الأندلس على الخصوص لاشتباكها زمنا طويلا بالحروب المتوالية بينها وبين مسلمي الأندلس والمغرب الأقصى ، واستمرار هذا الاشتباك بعد رحلات الكشف حول القارة الافريقية حيث كان الرحالون والكشافون يصطدمون بالعرب حول القارة شرقا وغربا الى سواحل الهند الشرقية . وقد تقدم أن أميرا هنديا سأله « فاسكو دي جاما » عما ينشده برحلته الى الشرق فقال : « أبازير ومسيحيين » وتقدم أن الرحالين كانوا يسجلون حقوق الكشف في سجلات الكنيسة لتخويلهم حق الفتح وحق الدعوة باسمها الى الدين . وحدث في الأقطار الامريكية التي ارتادها الفرنسيون أن القساوسة كانوا يحرمون على مخالفي الكنيسة دخول تلك الأقطار ويخرجونهم منها اذا دخلوها بغير اذن من المراجع الدينية ، ويرى بعض المؤرخين أن فشل الاستعمار الفرنسي في العالم الجديد يعود الى هذا الخطر الذي أبعد من ميدان التعمير والتوطين نخبة من ذوي الآراء المستقلة والأمزجة القوية التي تشتد بين أصحابها نزعة التطلع الى التجديد .

ومهما يكن من صواب هؤلاء المؤرخين فالأمر المتفق عليه بين المؤرخين أن اسبانيا والبرتغال ـ وتليهما فرنسا ـ كانت أقل الدول نجاحا في تجارب الاستعمار ، وهذه هي الدول التي بدأت تجاربها وهي مرتبطة بسياسة رومة في أحرج أوقاتها وأثقلها بالأعباء بين مخلفات الأمس ومغامرات الغد المجهول .

النهضات الوطنية

والمصاب الأخير الذي ابتلى به الاستعمار انما جاءه من فرائسه وضحاياه ، أو

من حيث كان يحتسب المصاب الأول لو كانت حوادث هذه الدنيا تجري على الترتيب في حساب المترقبين والمتوقعين .

وهذا المصاب على تأخيره في الزمن لم يكن أخيرا في قوته ولا في خطره وبعد مرماه وسعة أثره . لأن رفض الاستعمار من جانب فرائسه وضحاياه خليق أن يضارع جميع القوى الخارجية التي تحتمله أو تجاريه وتحيطه بالمساعدة والتمكين .

ولم تتأخر مقاومة الاستعمار من جانب المصابين به لأنهم رفضوه بعد قبول أو أنكروه بعد ولاء . فان كراهة الحكم الأجنبي طبيعة في النفوس لا تحتاج الى تعليم ولا الى تنبيه ، وما من انسان يحس أن أجنبيا يحكمه الا أحس مع هذا الاحساس البغيض بهوان في نفسه ونخوة تستثيره الى الغضب والمقاومة فلا يسلس قياده للحاكم الدخيل عليه . الا أن الاستعمار لم يغلب فرائسه وضحاياه بالخوف وحده في مبدأ أمره ، ولم يخضعهم بقوة الجيوش والاساطيل دون غيرها بعد الصدمة الأولى التي فوجئوا بها على حين غرة أو على غير علم منهم بمواطن ضعفهم وهزيمتهم ومواطن قوته وانتصاره . وما حدث قط في تاريخ الصراع بين الشعوب ان قويا منتصرا أخضع قوما لسلطانه بمحض القوة المادية أو رَهبة السلاح دون سواها ، وانما يخضعهم ويطيل خضوعهم له أن يروعهم بشيء من الاعجاب يملأهم ثقة بامتيازه ورجحانه ويزعزع ثقتهم بأنفسهم بين يديه ، وكأنهم بذلك يعترفون له بالحق الذي يدعيه وينكرون على أنفسهم الحق في مقاومته وتحديه ، وهذا هو السلاح الأكبر الذي يصيب الضحية بمثل الشلل النفساني فلا تقدر على الحراك حتى تفيق من غشية ذلك الاعجاب .

وهكذا حدث بين المستعمرين وضحاياهم بعد صدمة الاستعمار الأولى . فان هؤلاء الضحايا تمكن من نفوسهم شعور مخيف برجحان المستعمرين عليهم في العلم والنظام والقدرة على تصريف الأمور وتذليل العقبات وتدارك الأخطار حتى خيل اليهم أن الخضوع لهم ضربة لازب وأن التمرد عليهم ضرب من المحال .

وكانت غاشية لا حيلة فيها بعد الصدمة الأولى ، ولكنها لم تلبث طويلا حتى أخذت تنقشع من هنا وهناك وتتكشف عن الحقيقة كلما تكشفت للمغلوبين

مواطن القوة فيهم ومواطن الضعف في الغالبين ، ووضح بعد قليل أن الزمن مع المغلوبين وان العاقبة لهم بعد حين ، وزاد في تمكين هذه الثقة من نفوس ضحايا الاستعمار أنها جاءت على مهل فترة بعد فترة ، ودرسا بعد درس ، ومحاولة بعد محاولة ونجاحا بعد نجاح ، فكانت كالبناء الذي يرتفع على أساسه طبقة بعد طبقة ولا تعجل طبقة منه الى مكانها قبل أن تستقر دونه طبقة تسندها وتدعم جذورها .

كانت في أوربة نفسها حركات وطنية ظفرت بالاستقلال فكانت مثالا للقدوة ومبعثا للأمل في قلوب طلاب الحرية من الشرقيين .

وانتصرت في ابان سطوة الاستعمار دولة اليابان الشرقية على دولة من أكبردول الغرب وأضخمها اسما بين الشرقيين المصابين بالاستعمار على الخصوص ، وتلك هي دولة الروس القيصرية التي كانت تمثل العتو والطغيان على كل دولة مستقلة في الشرق من تركيا الى ايران الى الصين الى اليابان .

ونشبت الحرب العالمية الأولى فكانت كأنها المعركة في بيت الأرباب خرجت منها الأصنام المرهوبة حطاما فوق حطام ، وجاءت هذه الأصنام في خلالها تطلب النجدة من عبادها وتقضي على البقية الباقية من شعائر عبادتها ، فظفرت بالنجدة وضيعت معالم الربوبية ، وخرج المنتصرون منها يملون الشروط على المنهزمين ويتلقون الشروط من رعاياهم المشاركين لهم في بلائهم وانتصارهم المطالبين لهم بحصتهم ، وفاء بما كالوا لهم أيام الحرب من وعود وما أبرموه من عهود .

وظل المستعمرون بعد الحرب الأولى في حالة تتيح لهم أن يراوغوا في انجاز وعودهم وعهودهم أو يعجلوا الوفاء بها في كثير من التمويه والتزييف ، الى أن كانت الحرب العالمية الثانية ولما تندمل جراح الأولى ، فبلغ المطال بين الغريم والمدين غاية مداه . فلا مناص من احدى اثنتين : سداد أو افلاس .

هذا كله وضحايا الاستعمار يتيقظون ويتقدمون ويضيفون دراية التعلم الى دراية الخبرة من مراس الحوادث ومعاملة الأمم والاطلاع على حقائق الأحوال في بلاد الأقوياء والضعفاء على السواء ، وأنفع ما تعلموه في هذه الآونة أنهم عرفوا مبلغ قدرتهم على المقاومة والمطالبة وعرفوا أنها قدرة لا يستخف بها

القوي ولا تدعه على اطمئنان الى ما في يديه من غنائم الاستعمار واسلابه ، ولعلها لا تحرمه الغنيمة والسلب كل الحرمان ، بل لعلها غير مطلوب منها أن تجشمه كل ذلك الحرمان ، فانها اذا جعلت خسارته أكبر من ربحه وجعلت قلقه واضطرابه أرجح من أمنه واطمئنانه ـ كان ذلك حسبها من نجاح وحسبه من خذلان .

واتبع التقدم في المعرفة تقدم في العمل والصناعة . فنشأت بين الأمم المحكومة أعمال ناجحة يتولاها أبناؤها وصناعات متقدمة يملكها أغنياؤها ويديرها خبراؤها وصناعها ، ولعل المزاحمة هنا أيضا لم تبلغ بالصناعة الوطنية أن ترجح على صناعة المستعمرين بعد طول العهد باتقان العمل وحسن الادارة وانتشار النفوذ اللازم للتصريف والترويج ، ولكن الصناعة الوطنية لا يطلب منها أن تبلغ هذا المبلغ في ميدان المزاحمة العالمية ، وانما يطلب منها أن تجعل المزاحمة عملا كثير الأعباء قليل الجدوى ، تزيد أعباؤه في تكاليف الاستعمار وأخطاره وتقلل من جدواه وضمان عقباه . . .

ظاهرة طبيعية صغيرة تقرب الينا صورة هذه الظاهرة المتشعبة في أطوار الانسانية وان كانت لا تماثلها في جميع خصائصها : ان الضغط الجوي يهشم القدح الصغير اذا خلا هذا القدح من الهواء ، ولكن هذا القدح الصغير لا يحتاج الى مقدار من الهواء كالمقدار الذي يخفق في أجواء الفضاء ليدفع عنه ضغطها الساحق ، بل يكفيه ملؤه من هواء ليحمي نفسه من السحق ، ولو كان من زجاج أو ورق هزيل .

فما هو الا أن امتلأت أمم الأوطان المستعمرة بقوتها الوطنية حتى تسنى لها أن تصمد في المقاومة وتأمن السحق والفناء في مقاومتها ، وسرت عدوى المقاومة الى الأوطان التي تخلفت عن سائر الأمم المحكومة التي تقدمت في مضمار العلم والحضارة ، فنهضت للمطالبة بالحقوق شعوب لم تكن لتجسر على رفع الصوت لولا صدى الأصوات التي سمعتها من زميلاتها في الأسر والضيق ، وشوهدت آثار هذه العدوى الصالحة بين الشعوب الاسيوية والشعوب الافريقية في أوقات متقاربة ، فهبت للمطالبة بالاستقلال التام شعوب كانت تقنع بالحكومة الذاتية وترضى بشكل من أشكالها المحدودة لو لم تسبقها زميلاتها

وشبيهاتها الى نصيب أوفى من نصيبها وحزية أوسع من حريتها .

وسرت العدوى بين الطرف الآخر كما سرت بين هذا الطرف المغلوب : سرت الى المستعمرين فاضطرت أشدهم قسوة التخفيف من قسوته ، وجعلت حاكم الشعوب المتخلفة حريصا على الاقتداء بحاكم الشعوب المتقدمة في أساليب الترضية والمحاسنة أو في أحابيل التهدئة والمراوغة ، وفعلت هذه العدوى المحتومة فعلها المشكور في تخفيف القيود وتحسين الأحوال .

هذه النهضات الوطنية كانت ولا ريب أهم العوامل التي ضعضعت قوى الاستعمار فيما مضى ولا تزال تجهز عليه في دور النزع والاحتضار ، فلولا هذه النهضات الوطنية لما كانت سائر العوامل العالمية كافية لاخراج المستعمرين من مستعمراتهم في هذه الفترة الوجيزة بالقياس الى أعمار الشعوب ، ومهما يكن من كثرة المصاعب حول المستعمرات فالحاكم المطمئن الى داخل مستعمرته خليق أن يصبر على المصاعب الخارجية وأن يطاولها فترة أخرى ، موكولا الى مشيئته بعد ذلك في البقاء أو الخروج .

فالنهضات الوطنية ـ وان لم تكن هي العامل الوحيد الذي قضى على الاستعمار ـ قد كانت هي العامل الوحيد الذي لا غنى عنه في النهاية للقضاء عليه .

الا أن هذه النهضات قد لقيت من الظروف العالمية أقوى المشجعات وأنفع الأعوان ، وسواء جاءت هذه الظروف العالمية مقصودة أو غير مقصودة فهي ولا ريب قد وجدت في أوانها وحققت فوائدها بتدبير مقصود أو على الرغم من كل تدبير مقصود . . .

كان من دواعي القضاء على الاستعمار أن العلاقات العالمية قد أخذت في الاتساع والاشتباك قبل أن يستقر الاستعمار على قرار وطيد .

وكان اشتباك العلاقات العالمية أول أسباب النزاع بين المستعمرين الأقوياء ، فكان هذا الاشتباك ـ من ثم ـ أول مسالك « الباب المفتوح » وأشد الضربات التي أصابت الاحتكار في مقتله من أيدي الأقوياء .

ولم تزل العلاقات العالمية تشتبك بين الأقطار المتباعدة بمواصلات البر

والبحر والهواء ، ولم تزل مع هذا تشتبك بمعاملات التجارة والصناعة ومطالب التصدير والتوريد ، ولم تزل مع هذا وذاك تشتبك بالأخبار المسموعة والمقروءة التي تملأ الكرة الأرضية في صباحها قبل أن يهبط عليها المساء أو في مسائها قبل أن يشرق عليها الصباح ، فأصبحت كل بقعة من بقاع الأرض عصبا في جهاز واحد من بنية واحدة تضطرب في أقصى العالم هنا فيضطرب لها أقصاه من هناك ، وأصبحت كل أمة تسكن في بقعة من تلك البقاع شيئا محسوسا حاضر الأثر في السياسة العالمية لا يتجاهله الأقوياء ولا يخرجونه من الحساب ، بل ربما أخرجوا من حسابهم أمثالهم الأقوياء ، لأنهم فرغوا من أمرهم واستعدوا لهم بعدتهم وتربصوا بهم الى حتفهم فلا حيلة فيهم ولا علاقة بينهم غير العداء السافر أو العداء المستور . أما الأمم الضعيفة فلا غنى لهم عن ارضائها على وجه من الوجوه ، وليس في وسعهم أن يحتاطوا لها أو يأمنوا أذاها في أحرج المواقف وأعنف الأوقات ، وماذا يمنع الأمة الضعيفة مثلا أن تعرقل مواصلاتها أياما يتوقف عليها مجرى القتال في أكبر الميادين ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل سيل البترول من ينبوعه الى مصبه القريب أو البعيد ؟ وماذا يمنعها أن تعرقل التموين باحتجاز ما عندها أو احتجاز المؤنة العابرة في أرضها ؟

كل هذا وأشباهه سهل على الأمم الضعيفة في ابان الحرج ، وكله مما يخشاه الأقوياء ولا سبيل لهم الى اتقانه الا باستعمار العالم بأسره وهم لا يتفقون عليه ، أو باسترضاء الضعفاء وهذا الذي اضطرتهم الحوادث اليه .

بل قد اضطرتهم الحوادث كارهين في مأزق الحرب العالمية الى امداد الأمم المغلوبة بالسلاح لمقاومة أعدائهم وأعدائها من المستعمرين الآخرين . فسلم اليابانيون أسلحتهم للوطنيين في أندونيسية حين حاقت بهم الهزيمة ، فكانت هذه الأسلحة عونا قويا لأبناء البلاد في مناضلة الهولنديين ما كانوا ليظفروا به طواعية من طغاة اليابان ولا من طغاة أوربة لولا هذا المأزق الذي لا حيلة لهم فيه . . .

* * *

وعلينا أن نذكر هذه العبرة - عبرة العوامل المشتركة - عند البحث في أطوار التاريخ العظمى التي تشمل بآثارها أمما كثيرة ولا تنحصر فى أمة واحدة .

فالنهضات الوطنية ، ونهاية الاحتكار ، واشتباك العلاقات العالمية ، كلها أطوار متساوقة متقاربة في أوقاتها وآثارها ، لا يعمل منها عامل واحد بغير مساندة من العوامل المصاحبة له في أوانه ، ولا يتأتى أن تنفصل وتتفرق في مواقيتها لأنها بطبيعتها تنبع من مصادر كثيرة ولا تجري في مجرى واحد .

على أن الاستعمار أنواع شتى تختلف مصائره باختلاف أنواعه واختلاف أطوار الحوادث في كل نوع منها .

وأشهر أنواع الاستعمار هي الاستعمار الاقتصادي واستعمار التوطن واستعمار الموقع أو الاستحكامات العسكرية ، وقد كان للاطوار العالمية أثر في كل نوع من هذه الأنواع غير الأثر الذي تعرض له النوع الآخر ، وان كانت كلها تتجه الى الادبار وتشعر كل يوم بمشقة جديدة في سبيل الاحتيال على البقاء بين التيارات المتعارضة .

أصبح الاستعمار الاقتصادي كبير التكاليف بين المزاحمة من جهة والمقاومة من جهة أخرى ، فانهدم من أساسه بكثرة تكاليفه ، لأنه لا يكون استعمارا اقتصاديا اذا لم يكن يسير التكاليف موافقا لأول مبادئ الاقتصاد .

أصبح هذا الاستعمار الاقتصادي خسارة صريحة أو ربحا يسهل الاستغناء عنه عند النظر الى نفقاته وأعبائه ، ومنها نفقات الحراسة والمقاومة والاستعداد الدائم لمطالب الدفاع أو مطالب الهجوم ، واذا أضيف الى هذه الأعباء أن الدولة التي تستأثر بحكم المستعمرة لا تستأثر بأسواقها ولا بخاماتها ولا بسياستها الخاضعة على نحو من الانحاء لدواعي السياسة العالمية ـ فهي في الواقع لا تستأثر بشيء غير متاعب الحكم ونفقاته ، وما بقي للدولة الحاكمة بعد هذه المتاعب ذهبت به منافسة الصناعة الوطنية وارتفاع أجور الأيدي العاملة فيها حقبة بعد حقبة ، فلا اختيار لهذه الدولة بعد الموازنة بين الصفقتين غير الجلاء والتراجع بسلام .

والمخرج من استعمار التوطن أصعب من ذلك كثيرا في جميع الأحوال وعلى جميع الفروض ، أيا كانت نتيجة الموازنة بين الصفقتين من خسارة صريحة أو من ربح متعب محفوف بالأخطار . . .

فاذا كان في البلد المحكوم مليون من المستعمرين الأجانب يملكون فيه الأرض والمرافق ويزرعون فيه ويتجرون فليست المشكلة هنا مشكلة ربح أو خسارة ، ولا هي مشكلة ربح بثمن بخس أو ربح بثمن غال ، ولكنها مشكلة الجلاء الذي يقتلع المستعمرين من جذورهم أو البقاء الذي يدغمهم في سواد الأمة المحكومة على طول الزمن طائعين أو كارهين .

ولكن ما هي النهاية على أية حال ؟ اذا كان جلاء المليون عسيرا فأعسر منه فناء عشرات الملايين ، وبخاصة حين يكون الزمن الى جانب هؤلاء الملايين ومعه الظروف العالمية وظروف السياسة الداخلية في البلد المسيطر على المستعمرة ، فلا نهاية لهذا النضال غير التسليم بحقيقة الحال ، وحقيقة الحال ان الأجنبي المستعمر مغلوب على الحالين في الحل والترحال ، كيفما كان المآل .

أما استعمار الموقع ، أو الاستحكامات العسكرية ، فلا فائدة فيه للدولة القوية الا اذا توافرت له شروطه الضرورية ، وأهم هذه الشروط أن تشعر الأمة الضعيفة باشتراكها في الخطر الذي يدعو الى استخدام ذلك الموقع عند وقوع الحرب أو قبل وقوعها في أيام السلام ، فاذا كانت الأمة الضعيفة لا تشعر بخطر يهددها فالدولة القوية التي تحتل مواقعها على الرغم منها تحارب عدوين بدلا من عدو واحد ، وليس هذا من الحيطة التي يطمئن اليها المستعمرون ، ولا سيما الحيطة في ابان القتال .

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع أن يوافق المصالح الاقتصادية لكلا الطرفين ، وأن يقترن ـ مع تبادل المصلحة ـ بتبادل الرضى والاحترام ، والا يكون استخدام الموقع افتياتا على حرية الأمة التي تملكه وتملك الحق في الأذن باستخدامه عند لزومه ، وألا تساوى عندها الطرفان : من يستولي على الموقع احتياطا قبل القتال ومن يستولي عليه اغتصابا بعد الفراغ من القتال .

ومن الشروط الضرورية لاستعمار الموقع في عصر العلاقات العالمية أن تكون له صبغة عالمية مشتركة ولا تكون المصلحة فيه مقصورة على دولة واحدة ، وبهذه الصفة يمتنع فيه التحكم والاضطرار ويجري العمل فيه على سنة الوساطة والتحكيم بين الشركاء كما يجري بين الأنداد والنظراء . ولا تزيد

فيه حقوق أحد الا بمقدار ما تزيد الفروض والواجبات باتفاق معروف بين الجميع .

* * *

وصفوة القول في مصير الاستعمار ان العالم يشهد في العصر الحاضر نهاية الاستعمار بجميع أنواعه ، وأنه منته الى الزوال لا محالة كلما ظهر للأقوياء والضعفاء أن اثمه أكبر من نفعه وأن علاقة التفاهم والاختيار أسلم للأقوياء من علاقة الارهاب والاغتصاب . . .

النموذج الجديد

الولايات المتحدة الامريكية هي النموذج الجديد للدولة العالمية منذ الربع الثاني للقرن العشرين .

وهي أقوى دول الأرض وأغناها وأكثرها اشتباكا بالمصالح والعلاقات في أنحاء العالمين القديم والحديث .

هذه هي الدولة التي كان الساسة فيها يتناقشون الى ما بعد قيام عصبة الأمم في امكان العزلة أو امكان المضي على تطبيق مذهب « مونرو » بشقيه فلا يد للاوربيين في قضايا أمريكا ولا يد لأمريكا في قضايا الأوربيين .

وينقضي جيل ـ أو دون الجيل ـ واذا بهذه العزلة ممكنة ـ ان أمكنت ـ في كل دولة الا في دولة الولايات المتحدة .

ولا حجة أقوى من هذه الحجة على سلطان القضاء الالهي في شؤون الدول وشؤون بني الانسان على التعميم .

وهذا النموذج الجديد يأتي بدور سياسي مفروض على الدولة التي تمثله كما هو مفروض على الدول التي تناصرها أو تعارضها . فاذا قال قائل ماذا يريد هذا السياسي أو ماذا يعني ذلك البرنامج ، فمن الحتم اللزام عليه أن يسأل مع هذا السؤال : وماذا يستطيع ان أراد ؟ وماذا يحدث على غير تقدير اذا حدث هذا الحادث أو ذاك على حسب التقدير .

ان الولايات المتحدة عرفت أدوار الاستعمار جميعا وان صحبت أشواطا منه في منتصف الطريق ولم تصحبها من أوائل الطريق .

كانت مستعمرة للتوطن والاستغلال والهجرة ، وكانت تنازع أبناء أمريكا الاصلاء وتأبى أن ينازعها الوافدون الدخلاء ، من غير المهاجرين الأولين .

وشغلها الخلاص من « الاستعمار الاوربي » في تاريخها الأول عن الدخول

في ميدان الاستعمار والمغامرة مع المستعمرين ، ثم شغلتها حروب التوحيد والتوطيد عن السياسة الخارجية في غير هذه القضية ، ثم شغلها بعد ذلك أن تحمي نفسها من الاغارة الجديدة فشرعت لها مذهبا يحرم على الاوربيين أن يحتلوا أرضا من العالم الجديد أو يتدخلون في مشكلاته بقوة السلاح ، وأوشكت أن تجعل « التعامل » معه محرما على غيرها لولا أن التعامل الاقتصادي في تلك الحقبة على الخصوص لم يكن قابلا للتقييد .

وبادرت الدولة البريطانية الى الاعتراف بمذهب « منرو » وتأييده في شؤون القارة الامريكية ، لأنها تكسب بذلك حماية البقية الباقية لها في أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى ، وبعض أطراف الجنوب .

واستراحت الولايات المتحدة الى هذا الاعتراف لأنه أعفاها من العناية بحراسة المحيط الأطلسي ، فتحولت بعنايتها الخارجية جميعا الى المحيط الهادئ ، أيام أن كان هذا المحيط الهادىء « بحرا هائجا » لا هدوء فيه .

كانت الدول الاوربية قد تزاحمت على استعمار الصين واكتساب الرخص والامتيازات في مرافقها الداخلية ، وكانت اليابان تتحفز للهجوم على القارة الآسيوية ، وروسيا من الطرف الآخر تتحفز لتعويض نصيبها من المستعمرات بعد أن حيل بينها وبين مضايق البوسفور والدردنيل ورصدت لها انجلترا قوتها عند خليج فارس وعلى الطريق الوسطى الى الحدود الهندية حتى بلاد الافغان .

وفي أثناء ذلك كانت الولايات المتحدة تفعل كل ما تستطيعه لتوسيع رقعتها في القارة الأمريكية ، بالتعاهد والشراء أو بالقوة اذا تعذر الاتفاق على التعاهد والشراء ، واشترت « ألاسكا » في سنة ١٨٦٧ من روسيا ، وحاربت اسبانيا سنة ١٨٩٨ من جراء الفتنة في جزيرة « كوبا » فأسفرت الحرب عن نزع جوام وبورت ريكو وجزر الفلبين من الدولة الاسبانية وضمها الى أملاك الولايات المتحدة ، ثم استتبع ذلك أن تضم اليها جزر « هواي » تلبية لدعوة المتوطنين من رعاياها .

فلما جاء دور الدولة الجديدة في استعمار آسيا الشرقية لم يكن لها موضع بين أمهات الاستعمار السابقات الى الصين ، وكان التنازع على الرخص والامتيازات قد أوشك غير مرة أن يجر الغرب كله الى الحرب في الميادين

الاسيوية والميادين الأوربية ، فأصبح استعمار الفتح والاحتلال باباً مغلقاً في وجه الطامع الجديد وبابا خطرا يخشاه الطامعون الأقدمون ، وقادت الولايات المتحدة حملة « الباب المفتوح » في تقسيم المرافق الصينية . فكل رخصة تعطاها دولة من الدول تعتبر رخصة عامة على التساوي بين الدول جميعا ، بغير حاجة الى نص مكتوب .

والى هنا كانت الولايات المتحدة قد اشتركت في أدوار الاستعمار على أنواعها الحديثة ، من الفتح الى التوطن الى الهجرة الى صفقات البيع والمقايضة الى « الاستعمار الجماعي » على برنامج الباب المفتوح .

لكنها تخرج الآن من الحرب العالمية الثانية بنموذج جديد لا تقوى على منافستها فيه دولة من الدول العالمية ، فلا تزال سياسة الباب المفتوح أوفق السياسات لها في محاولات النفوذ العالمية ، لأنها أشبه بالسباق المفتوح أمام الخيل جميعا ، وعلى رأسها الجواد السابق في جميع الأشواط .

فهي اليوم تحتاج الى كف الآخرين عن احتكار المستعمرات ، لأنها تكسب ولا تخسر بالكف عن الاحتكار ، وليس مما يطيب لها ـ بداهة ـ أن ينعم غيرها باحتكار سوق من الأسواق وتتلقى هي النتائج التي يؤدي اليها الاحتكار والتنازع عليه ، ومن هذه النتائج حرب عالمية لا تملك العزلة فيها كما كانت تملكها الى عهد غير بعيد .

وقد يحتاج صاحب الحانوت الى احتكار سوق من الأسواق اذا كانت له بضاعة فيهاينافسها النظراء ويقدرون على ترويجها بسعر أرخص من سعره ووسيلة أيسر من وسيلته ولكن هذا الاحتكار أبغض ما يكون الى التاجر الذي يعرف ثروته ويعرف قدرته ويعرف أن اطلاق الأسواق جميعا يكاد أن ينتهي الى احتكارها له على اضطرار من البائع والشاري في نهاية المطاف .

* * *

ومن لغو الفضول أن يضاع الوقت في اثبات الغرض لكل دولة تعمل في سياسة العالم باسم المصالح العالمية أو باسم المصالح الانسانية أو باسم المصلحة القومية سافرة ظاهرة بغير تورية ولا تزويق . فان عمل الدولة لغرض

من الأغراض حقيقة مفروغ منها لا تحتاج الى اضاعة الوقت في الجدل بين الاثبات والانكار ، وبعد ألفي سنة من الآن قد توجد دولة كبيرة ـ ان بقي المجال للدول الكبار في ذلك الزمن ـ فيوجد معها لا محالة غرض تسعى اليه وتقدمه على أغراض تناقضه وتدابره ، ويقول القائلون ما شاءوا عن خدمة الانسانية أو خدمة العالم فهذا لا يمنع أن يكون للدولة أسلوب في الخدمة يخالف أساليب غيرهاوأن يكون غرضها من السطو والثروة هو الغرض المقدم على سائر الأغراض في زمانها . .

أما النموذج الأمريكي من الدولة العالمية فالذي تبين من دوافعه التي يقصدها ، ومن الدوافع التي ينساق اليها ، انه يرمي في سياسته الخارجية والداخلية الى أغراض منوعة أهمها الأغراض الثلاثة التالية :

فالغرض الأول ـ هو كسب النفوذ في السياسة العالمية والانتفاع في سبيل ذلك بكل ما لديه من الوسائل الاقتصادية والأدبية .

والغرض الثاني ـ احباط الدعوة الشيوعية وضرب الحصار عليها للرجوع بها الى أضيق حدودها .

والغرض الثالث ـ تخفيف الضغط الداخلي الذي يتجدد على الدوام من فرط التضخم المالي في الأسواق الأمريكية ، فان ارسال التبرعات والمعونات الى الخارج مصرف ضروري للأموال المتجمعة في بلاد الولايات المتحدة ، وكل زيادة في هذه الأموال داخل البلاد فهي زيادة في الغلاء وزيادة في أزمات الأجور والعمل وفي الأخطار الاجتماعية التي يخشى أن تنفجر من وراء هذه الأزمات . .

والذي يعني أبناء الأمم العالمية من هذه الأغراض الثلاثة هو الغرض الذي يرمي الى تغليب النفوذ الأمريكي على سياسة العالم . فان حماية النفس توجب على أمم العالم أن تحول بين هذا النفوذ وبين الطغيان على حرياتها وحقوقها وشعائر استقلالها ، وأن تحول النفوذ الأمريكي الى مصلحة عالمية بدلا من تحويل المصلحة العالمية الى نفوذ غالب للدولة الأمريكية .

ولقد وجدت في الكرة الأرضية وسائل المقاومة لهذا النفوذ يوم وجدت له

وسائل الغلبة واستطاعت دولة واحدة أن تجمع من السلطان ما لم يجتمع لدول كثيرة ، مما يوشك أن يجعل السلطان حكرا لها في العصر الذي ينقضي فيه حكر الاستعمار .

ووسائل المقاومة في هذا الميدان منوعة غير مطردة في كل قضية ، ولكنها تؤول في القضايا جميعا الى هذه الوسائل الثلاث .

و « أولها » الاستقلال القومي ، فانه في هذا الزمن الحديث قوة يعترف بها الواقع قبل أن تعترف بها النصوص والمواثيق .

والوسيلة الثانية هي التعاون بين الشعوب التي تصبح بالتعاون قوة عالمية تثبت كيانها أمام كل دولة عالمية يكون لها من القوة والثروة فوق ما ينبغي لدولة واحدة .

والوسيلة الثالثة هي الانتفاع بظروف الدول القوية في حالتي الاتفاق والافتراق ، أو هي الانتفاع بالأوضاع العالمية الحديثة التي جعلت كل أمة صغيرة قادرة على عمل نافع أو ضار يحسب الأقوياء حسابه ظرف من الظروف .

ويحاول بعض الساسة أن يلقي في روع الأمم أن « الحيدة » في سياسة العصر العالمية مستحيلة ، أو ممكنة بالثمن الذي يجعلها في حكم المستحيل .

والحيدة في رأينا مستحيلة بين الشيوعية والديمقراطية .

ولكنها غير مستحيلة بين الدول والحكومات في قضايا العالم متفرقات .

فليس كل ما تعمله أمريكا ديمقراطية ، وليس كل ما تعمله روسيا شيوعية ، وليست كل قضية من القضايا مقطع الفصل بين العقيدتين .

وينبغي أن تكون الحيدة بصيرة على كل حال ، فان الحيدة العمياء كالتشيع الأعمى خبط عشواء لا يفرق بين الأعداء ولا بين الأصدقاء .

***

وننتهي الى الوضع الصحيح لكل دولة عالمية منذ منتصف هذا القرن الى أن

تتبدل الأحوال على نمط جديد غير نمطها الأخير .

ان المسألة كلها لتعزى اليوم الى مسألة نفوذ بوسائله ومسألة مقاومة بوسائلها التي تجدي في كل حالة من حالاته .

ومتى وضعت القضية في موضعها هذا فليس في الأمر فلسفة مبادئ ولا برامج دعوة ولا رأي يقبله هذا ويرفضه ذاك .

فأيا كانت الفلسفة أو كان البرنامج أو الرأي ، فالذي عنده النفوذ يفعل به ما هو قادر عليه ، والذي يحذر ذلك النفوذ يفعل كل ما هو قادر عليه لدفعه واتقاء ضرره .

ويشاء حظ العالم أن تكون وسائل النفوذ العالمي مقرونة بوسائل المقاومة العالمية ، ولا عبرة اليوم أو غدا باختلاف العناوين في كل قضية تخص بعض الأمم أو تعم الأمم جميعا ان هي الا أسماء .

وبعد

وبعد فقد مرت بنا في الصفحات الماضية صورتان فيهما ملامح واضحة ـ وان تكن موجزة ـ لكل من الاستعمار والشيوعية في وضعهما الصحيح من تاريخ العصر الحاضر .

فالاستعمار حركة من حركات التاريخ الدولي بلغت نهايتها وفقدت حجة وجودها .

ومن فقدان حجة وجودها أنها لا تستند الى مبدأ ولا تدعيه . فلا يوجد اليوم من أساطين الاستعمار من يقول انه مستعمر أو يقال عنه انه مستعمر فيقبل هذه التسمية . ومن كان من المستعمرين يتشبث بدعوى القوامة من الجنس الأبيض على سائر الأجناس فهو يلوذ بهذه الدعوى من مكان الى مكان ويكاد يقصرها على أرجاء من القارة الافريقية في السنوات الأخيرة ، وتضطره وقائع العالم وأطوار الشعوب التي يعاملها الى التحفظ الكثير في استغلال دعواه . فهو لا يستطيع « أولا » أن ينكر حق شعب من الشعوب في حكم نفسه وان راوغ في تقدير الوقت الذي يتولى فيه حقه ، وهو لا يستطيع « ثانيا » أن يستأثر بأمانة الرجل الأبيض لدولة واحدة تنهض بها من عند نفسها بغير موافقة من زميلاتها في الاستعمار ومن زميلات الأمة المحكومة في مقاومة الاستعمار ، وهو لا يستطيع « ثالثا » أن يبني دعواه كلها على أمانة الرجل الأبيض موكولة الى دولة واحدة أو مجموعة من الدول ، بل يحاول جهده أن يقرن هذه التعلة « الأدبية » بتعلة واقعية تدور على دعوى السلام العام والحيطة المشتركة لمدافعة الأخطار العالمية ، وهو ـ بعد هذه الضروب الكثيرة من التحفظ والروغان ـ يحاول بما في وسعه أن ينشئ له مع الأمة المحكومة علاقة غير علاقة السيد والمسود ، وقد تكون هذه العلاقة قائمة على الاشتراك في « الكومنولث » أو في مجموعة دولية واحدة أو في اتحاد بين أعضاء على درجات متقاربة من المساواة .

واذا كان الاستعمار قد فقد مبدأه عند أصحابه فهو من قبل ذلك لم يكن له مبدأ

يستند اليه عند ضحاياه . فلم يوجد من قبل ـ ولن يوجد اليوم ـ انسان ينتمي الى بلد مغلوب ينادي بمبدأ الاستعمار ويتردد في وصف العاملين على خدمته في بلادهم بصفة الخيانة والاجرام .

حركة من حركات التاريخ قد صارت الى نهايتها وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع الذي يتراجع أمام واقع أعظم منه وأجدر بالثبات في مجرى الحوادث ـ فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه وليس لهذا المبدأ قيمة السند المرعي عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه .

***

هذا هو وضع الاستعمار في التاريخ الحديث .

أما الشيوعية فهي استعمار وشيء آخر غير الاستعمار .

ومصير الشيوعية المستعمرة كمصير الحركة كلها في مراحلها التاريخية ، ولكنها تختلف كثيرا في أخطارها لأنها لا تأتي بأخطار الاستعمار خالصة من أخطار الدعوة التي تعم المستعمرين الشيوعيين وضحاياهم على السواء .

فاذا علمنا ان الاستعمار قد فقد حجته وضيع مبدأه الذي يستند اليه ـ فالشيوعية تدعو الى مبدأ وتنادي بأنه هو المبدأ الذي لا مبدأ غيره بعد حين ، وحجتها اذا حبطت في الحاضر أنها تعمل للمستقبل وترجو من النجاح فيه ما فاتها أن تدركه في خطواتها الأولى .

والخطر من الشيوعية انها تفقد ضحاياها القدرة على المقاومة ، لأنها لا تبقي لهم تلك الكرامة القومية التي تجمعت وما زالت تتجمع بين أبناء الأمم المحكومة حتى اقتلعت الاستعمار من جذوره وتكاد تقتلع تلك الجذور من كل أرض نبت فيها .

فالاستعمار في الهند لم يقدر على استئصال عناصر المقاومة ولم يزل يثير سخط الهنود عليه حتى تألبت منهم أمة متفقة في كراهته معتزة بكرامتها على سلطانه ، ولكن الأمة من الأمم لا تبتلي بالشيوعية بضع سنوات ثم تبقى فيها بقية للكرامة الوطنية تحفظ كيانها وتعيد لها أركانها ، لأنها تمحو الأمة ولا تبقي منها غير قطيع من الطغام المهازيل لا يشعرون بعاطفة عامة تجمعهم وتهدد

سيادتهم ، وما يشعرون به من « عاطفة » الحسد والقحة فانما يثيرهم على النعمة والمزية ولا يثيرهم على الطغيان والجبروت ، ويستغله السيد الغاضب المنتفع بطغيانه وجبروته على أيسر الوجوه بقليل من شقشقة اللسان وكثير من سموم الضغينة والشنآن .

والكلمة الأخيرة في هذه العجالة اننا اذا عرفنا مساوئ الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار ، فانهما شران لا تبقى منهما بقية ويبقى معها خير لأمة شرقية ، وكل ما بين الشر والشر من فارق فهو الفارق في الجهود التي تلزمنا للتيقظ له والحيطة منه والسعي الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه .

فهرست كتاب
الشيوعية والانسانية

فهرست كتاب
افيون الشعوب
المحتويات

المجلد الثالث عشر

فهرس كتاب

لا شيوعية ولا استعمار

الجزء الأول : لا شيوعية

الجزء الثاني : ولا استعمار

مكتبة لسان العرب

دار الكتاب اللبناني
طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة:
شارع مدام كوري - بناية حطب - مقابل أوتيل البريستول
ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - برقياً: داكلبان.
هاتف: ٨٦١٥٦٣/٨٦٠٧٩٢/٨٦٠١١٤ - مستودعات: ٨٦٠٣٤٨
تلكس: 23715 D.K.L. Att. Miss MAY. H. EL-ZEIN
فرع ثان: سد البوشرية - سنتر فياض التجاري هاتف: ٨٨٢٥١١